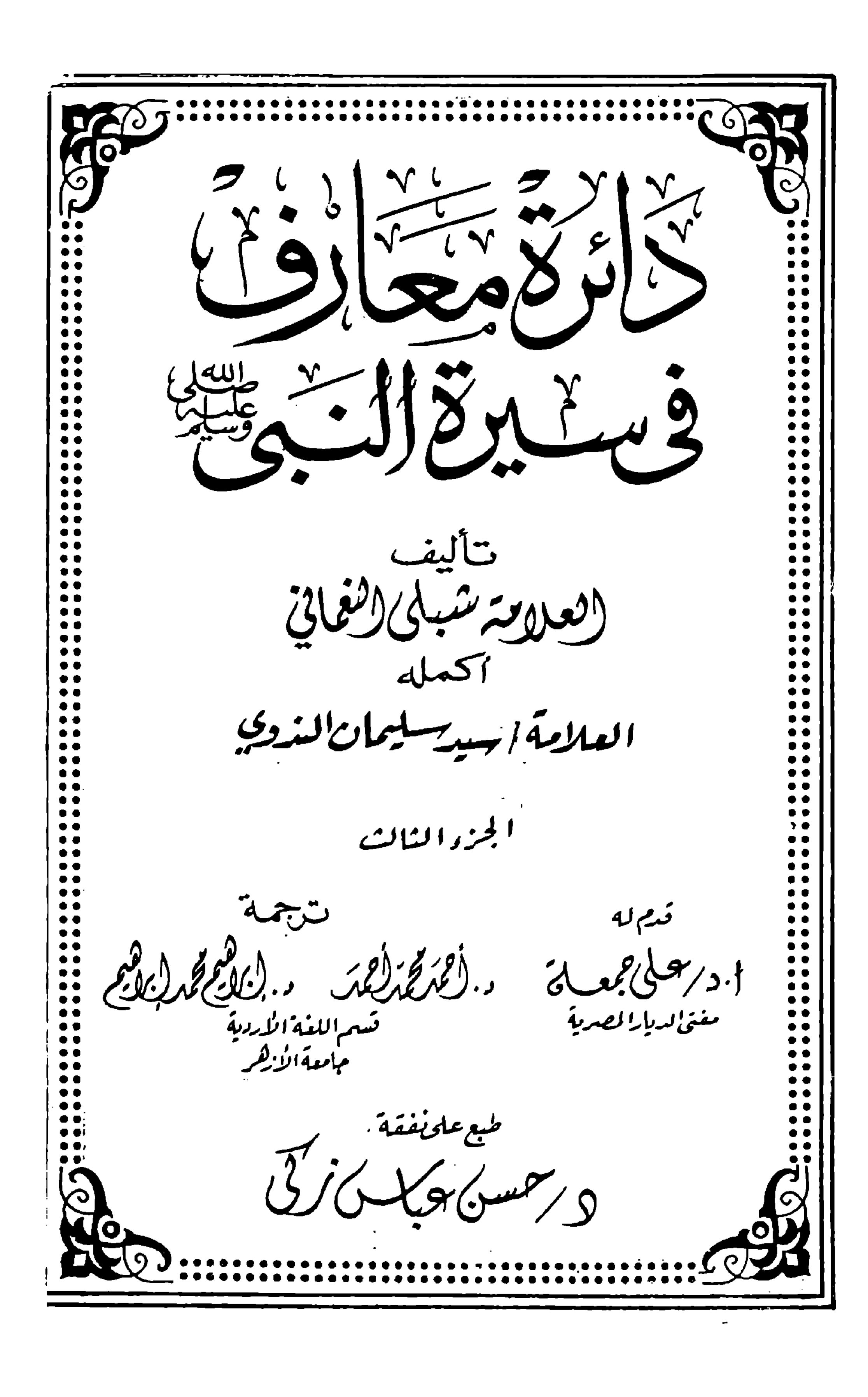


دائرة معارف
في سيرة النبي صلى الله عليه وسلم
تأليف
العلامة شبلي النعماني
أكمله
العلامة / سيد سليمان الندوي
الجزء الثالث
قدم له
أ.د/ علي جمعة
مفتي الديار المصرية
ترجمة
د. إبراهيم محمد إبراهيم
د. أحمد محمد أحمد
قسم اللغة الأردية
جامعة الأزهر
طبع على نفقة
د/ حسن عباس زكي

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وبعد

مقدمة المترجمين

فهذه هي الترجمة العربية للجزء الثالث من كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم للعلامة " شبلي النعماني " والعلامة " سيد سليمان الندوي " رحمة الله عليهما، وهما من هما في ميدان الفكر الإسلامي والأدب الأردي كذلك، وكل منهما قمة لا تطالها قمم أخرى، ولهذا جاء الكتاب في ميدانه شاملا وجامعا وموثقا.

وقد تحدث العالمان الجليلان في هذا المجلد عن معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وأحاطا بكل جوانبها وتطرقا إلى كل تفاصيلها، واستعانا بكل ما أمكن لهما الاستعانة به من أجل توثيق ما يكتبان حتى يقدما في النهاية المعجزات بشكل علمي يجد طريقه إلى القلوب والأذهان، وهو ما نأمل أن يشعر به كل قارئ للترجمة التي بذلنا فيها غاية الجهد، وتحرينا فيها منتهى الدقة الممكنة، واضعين في اعتبارنا أنها عن سيرة أفضل الخلق نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، وحريصين كل الحرص على الالتزام بأمانة الترجمة، حتى نقدم للقارئ العربي الصورة الحقيقية للفكر الإسلامي والتبحر العلمي الديني لدى المسلمين في جزء عزيز من الأرض، وهم مسلمو شبه القارة الهندية الباكستانية.

هذا وقد واجهتنا أثناء الترجمة صعوبات عديدة تغلبنا عليها جميعا ببركة الرسول صلى الله عليه وسلم، وببركة هذا الكتاب الرائع للسيرة النبوية، وكان من بين هذه الصعوبات بعض المصطلحات الفلسفية الكثيرة التي استخدمها العالمان الجليلان في ثنايا الكتاب أثناء حديثهما عن المعجزات وآثارها ونتائجها بما يتوائم معها كبحث فلسفي في جانب كبير منه، لذلك وقفت أمامنا في بعض الأحيان بعض مصطلحات علم الحديث والرواية، وحاولنا بقدر الإمكان تقديمها بصورتها الصحيحة، ومن هذه الصعوبات كذلك الأسلوب العلمي الجذاب للعالمين الجليلين الذي يعكس وبدقة هذا المستوى الرفيع لثقافتهما وعلمهما، وإن مثّل ذلك صعوبة في الترجمة، لكن الله تعالى من علينا بتوفيقه، وأتممنا

ترجمة الجزء الثالث من كتاب سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بشكل ندعو الله معها أن تكون في صورتها هذه إضافة لا بأس بها للمكتبة العربية.

هذا وسوف نلحظ في الترجمة أننا التزمنا بترجمة الأحاديث النبوية مما سيجعل هناك بالتأكيد اختلافاً بين ألفاظ الترجمة العربية والنص الأصلي للحديث النبوي، الأمر الذي يستوجب معه حاجة الكتاب بعد الترجمة إلى قدر من التحقيق لإثبات النصوص الأصلية للأحاديث النبوية كما وردت باللغة العربية. ([1])

والله الموفق. المترجمان

([1]) وقد قمت بتخريج الآيات القرآنية، وكذلك الأحاديث النبوية الشريفة وتحقيقها حسبما وردت فى كتب الصحاح، وذلك بتكليف من السيد الدكتور حسن عباس زكي. والتزمت بكتابة نص الحديث فى المتن إذا كتب المؤلف لفظ "قال" رسول الله ﷺ، وساق معنى الحديث دون كتابة نصه العربي، أما إذا أشار إليه فقط أو إلى روايته؛ فإنني أورد نص الحديث فى الحاشية؛ حتى يسهل على القارئ حفظه ومطالعته. كما التزمت بكتابة اسمي **(يوسف عامر)** فى الحاشية بعد تخريج أي حديث؛ حتى إذا كان هناك خطأ أو سهو ما يرجع إليّ أنا وليس إلى المؤلف أو السادة المترجمين. وقد قمت بتوثيق الاستشهادات التوراتية باللغة العربية التي أوردها المؤلف، كما حرصت على تدوين ما يقابلها باللغة العبرية فى الحاشية. وأسأل الله تعالى أن يغفر لي أي خطأ أو سهو؛ فهو الغفور الرحيم.

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الرابعة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام علي سيد المرسلين، وعلي آله وأصحابه أجمعين. الحمد لله الذي هيأ لي استكمال المجلد الثالث من كتاب السيرة النبوية العطرة بالرغم من العقبات المتتابعة، ووفّق عبداً مذنباً لإعداد هذه الصفحات من أجل بعض قطرات من غيث رحمته يغسل بها صحيفة أعماله السوداء. وكان المجلد الثاني قد صدر عام ١٣٢٨هـ / ١٩٢٠م.

وهذا مجلد من تسعمائة صفحة يمثل أمام الأعين الفاحصة أعظم مكافأة علي الجهد والمثابرة اللذان بذلا في تأليف وترتيب هذا المجلد، وفي بحث وتحقيق وتخريج الأحداث التي وردت فيه، وتأصيل ومناقشة نظرياته وقضاياه، وأملي أن لا يكون خيط الصواب قد أفلت من اليد، ولم يحدث عن الهدف بعد، والعظمة لله وحده، ونحن لأولئك الذين قدموا لنا في تأليف هذه الصفحات يد المساعدة من الشاكرين، ولقد أفادتنا نصائح مخدومنا الشيخ " حميد الدين " أيما إفادة، كما ساعدنا الزميل الشيخ " عبد السلام الندوى " في جمع بعض أحداث المعجزات النبوية، أما السيد البروفيسور" عبد الباري ندوي "، أستاذ الفلسفة الحديثة بالجامعة العثمانية بحيدر آباد " الدكن " فليس في جماعتنا، بل ولا في جماعة العلماء من هو أكثر منه مهارة في الفلسفة الحديثة، ولما كان علينا أن نتعرض لدقائقه الفلسفية الحديثة وفتوحها في معرض الحديث عن المعجزات، فقد قام السيد البروفيسور بناءاً علي طلبي بكتابة " باب المعجزات والفلسفة الحديثة "، والذي يبدأ في هذا الكتاب من صفحة ٧٥ وينتهي بصفحة ١٧٧.

هذا وسوف تجد في ثنايا الكتاب بعض التوثيقات بكتب أحاديث غير مطبوعة لعلماء مثل " البيهقي، أبي يعليّ، ابن راهوية، ابن أبي شيبة، والبراز " وغيرهم كنوع من التأييد لكتب أحاديث أخرى مطبوعة، وقد اعتمدنا في هذه التخريجات علي ما كتبه المفسرون وشارحو الأحاديث وكُتاب السيرة الآخرون مثل " ابن كثير، ابن حجر، ابن القيم، والسيوطي " وغيرهم. وإذا كنا أوردنا بعض الروايات الضعيفة فيما يتعلق بجزئيات

وتفاصيل المعجزات، جنباً إلي جنب مع الروايات القوية، فإنا قصـــدنا بذلك أن هناك توثيقات أخرى لتلك المعجزات الثابتة بالروايات القوية، وإن لم تكن علي نفس درجتها.

وقد وقعت في ثنايا الكتاب بعض الأخطاء حاولنا تداركها بإلحاق تصويبات في نهايته، هذا وقد اكتملت اليوم مرحلة من مراحل هذا الطريق، ولكن لا يمكن لرحالة القلم أن يستريح، إذ أن أمامه المنزل " المجلد " الرابع، فليدع الأحبة أن أتمكن من إصدار هذا الجزء الرابع لهم.

سيد سليمان ندوي.

١٧ربيع الثاني ١٣٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الطبعة الثالثة

هذه هي الطبعة الثالثة للمجلد الثالث من سيرة النبي عليه الصلاة والسلام، والتي تتناول منصب النبوة وحقيقة النبوة والفضائل والمعجزات النبوية تخرج إلي النور، وقد ظهرت في تلك الآونة بعض المقالات الحديثة المتعلقة ببعض مباحث الكتاب، ولهذا تمت مراجعة الكتاب مراجعة شاملة، وتم الرجوع فيها إلي أصول الروايات وتخريجاتها، فإذا ما وجدنا اختلافات صححناها، وإذا ما عثرنا علي رواية أقوي أثبتناها، وإن وجدنا غموضاً في بعض العبارات أزلناه، وخاصة فيما يتعلق بقضية عروج النبي صلي الله عليه وسلم أكان بالروح والجسد أم في حالة النوم أو اليقظة، ثم طابقنا الروايات الواردة في المعجزات النبوية بأصولها، وأضفنا فوائد جديدة بزيادة بعض الهوامش في ثنايا الكتاب، وبحلّ غموض بعض عباراته في أماكن متفرقة.

وقد حاول إنسان ظلوم جهول قدر ما يستطيعه في أمر البحث والتحقيق، والمرجو من أهل البصيرة إن بدا لهم بعد ذلك ما يستحق الإصلاح أن يطلعوا المؤلف عليه، ولهم المثوبة عند الله.

الراجي حسن الخاتمة

سيد سليمان ندوي

١٦شوال ١٣٦٦هـــ/ ٣١ أغسطس ١٩٤٧م

بسم الله الرحمن الرحيم

دلائل المعجزات

" ولقد جاءتهم رسلنا بالبينات " (المائدة: ٣٢)

وجود النواميس الروحية:

هذا الجزء من السيرة النبوية في بيان أحوال ومشاهدات النبي صلي الله عليه وسلم المتعلقة بعالم خارج عن حدود عالمنا المادي وقوانينه، فكما أن هذا العالم المادي يسير وفق نظام معين، فيطلع النهار بعد الليل مثلاً، ويأتي الربيع بعد الخريف، وتأفل النجوم فتشرق الشمس، وينتهي الصيف فيحل الشتاء، وتتفتح الأزهار في أوقاتها، وتثمر الأشجار في مواسمها، وتختفي النجوم وتظهر في مواقيتها، كذلك العالم الروحاني له نظامه الخاص به، وله أيضاً أرضه وسماؤه، وهناك الظلام والنور، والخريف والربيع، والفصول والمواسم.

السماوات في ملكوت عالم الروح تفيد في سماء العالم.

السماوات في ولاية الحبيب وأنت ملك السماء الدنيا

الآثار الروحية والفطرية للنبوة:

عندما تغشى ظلمات الشر وعتمة الذنوب وجه الأرض ينفلق الصبح، وتشرق شمس الهداية، وعندما ينزل خريف الشر بحديقة العالم تتغير الفصول ويحل ربيع النبوة متلألأ (١)، وكما أن للأرض والسماء والثمار والأزهار قوانين خاصة من الفطرة، ثابتة لا تتغير بشكل عام، فإن هناك مبادئ وقواعد خاصة للرسالة والنبوة، والعذاب والرحمة، والرشد والهداية في هذه الدنيا، وهي ثابتة لا تتغير، فالأنبياء والرسل يبعثون في أوقاتهم

---

(١) استمرت سلسلة النبوة قبل خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، وبعده صلى الله عليه وسلم أصبح خلفاء النبوة المحمدية، أي مجددو الأمة هم الذين يقومون بهذا الفرض، ومجددو الأمة هؤلاء يقتدون برسول الله صلى الله عليه وسلم تمام الاقتداء، وليسوا أنبياء، ولذا فإن عدم الاعتراف بهم لا يخرج من الدين، ومن الممكن أن نجد عدداً من مجددي الأمة في وقت واحد في أماكن وبلاد مختلفة، أو في جماعات متعددة، وأعظم آياتهم عقائدهم وأعمالهم وأخلاقهم واتباعهم المطلق لرسول الله صلى الله عليه وسلم في أسلوب الدعوة، وتكون مهمتهم تنقية الدين مما قد يكون داخله من العادات والخرافات، وإحياء من السنن التي ربما تكون قد اندثرت.

المحددة لدعوة شعوبهم، وشعوبهم تصدقهم أو تكذبهم، ويهلك المنكرون ويفلح المؤمنون. وأثناء هذا الجهاد الروحاني للأنبياء والرسل تصدر عنهم أمور فوق علمنا وفهمنا، وتظهر منهم خوارق عجيبة.

النواميس الروحية للنبوة تغلب القوانين الإنسانية:

مثلما تتحكم أنفسنا وأرواحنا، أو القوة الغامضة الكامنة داخل أجسادنا في أجسادنا الترابية، وتتحرك جميع أعضاؤنا وجوارحنا طبقاً لكل إشاراتها، كذلك تتحكم الروح الأعظم للنبوة بإذن الله في كل العلوم الجسمانية، وتتغلب سنن ومبادئ العالم الروحاني علي قوانين العالم الجسماني ؛ ولهذا فإنها تعرج من أسفل الأرض إلي العرش العلوي في لمح البصر، يتوقف البحر عن جريانه بضربة منها، وينشق القمر فلقتين بإشارة منها، وتشبع بعض كسرات خبز يابس من يدها عالماً بأكمله، وتنبع أنهار الماء من بين أصابعها، ويبرأ المريض والأكمة والأبرص بنفسها الطاهر، وبه كذلك ينهض الموتى، وهي وحدها بقبضة تراب تُشتت شمل جيش بأكمله، وتخضع لها الجبال والصحاري، والبر والبحر، والأحجار والجمادات بحكم الله، وما هذا من فعلها، وإنما من فعل ربها، وبمشيئته وقدرته هو يظهر كل هذا علي أيدي النبي صلى الله عليه وسلم، أو يظهرها الله تعالي من أجله.

نحن لا ندري شيئاً عن أسباب وعلل النواميس الروحانية مثلما لا ندري شيئاً عن القوانين الجسمية:

ولكن كما أننا لا نستطيع أن نقول لماذا تظهر وردة بذاتها، أو شجرة بعينها، أو نجم بذاته في وقت بعينه، أو لماذا تحمر الورود، ولماذا يكون العسل حلو المذاق، ولماذا تدور الشمس والقمر؟ وكيف تتحول البذرة والشجرة والغذاء والدماء إلي لحم، كذلك لا نستطيع أن نقول كيف يظهر الأنبياء في أوقاتهم، ولا كيف تصدر منهم الأفعال والأعمال الخارقة للعادة بحكم الله ؟ إننا نعلم فقط أن كل هذا يحدث، وبالتالي فإن كل نبي في الدنيا، بل في كل من يتصف بالروحانية يحمل بداخله عالماً من مثل هذه الأحوال والكيفيات، وتاريخ العالم أمامك، فإذا درست بتمعن أحوال وسير المرشدين الروحيين لوجدت أنهم يرون أشياء لا نستطيع نحن رؤيتها، ويسمعون أشياء لا نستطيع نحن سماعها، ويعلمون أشياءً لا نستطيع نحن معرفتها، وتصدر عنهم أفعال لا يمكن أن تصدر عن غيرهم. إنها وقائع تاريخية لا يمكن إنكارها تماماً مثلما لا يمكننا إنكار فتوحات " الإسكندر " و "

نابليون "، ووجود " بوذا " و " موسى " و " عيسي " عليهم السلام، وكل حرف من قصة روحانية الهند، وكل باب من صحف أنبياء بني إسرائيل، وكل صفحة من إنجيل المسيحيين بمثابة أمثلة لهذا التاريخ ونظائر له.

المعجزة الأساسية للأنبياء هي وجودهم ذاته:

وكأن المعجزة الأساسية للنبي صلى الله عليه وسلم، والدليل البين علي أنه من عند الله هو وجود النبي نفسه. فإن في عينيه إعجازاً للناظرين، وفي كلامه إعجازاً للسامعين، وفي رسالته ودعوته إعجازاً لأولي الألباب، لكن الذين يقل إحساسهم بالحقيقة لا يقتنعون بذلك، ويطلبون آيات مادية محسوسة يتم في النهاية تقديمها لهم.

متبعو الأنبياء كانوا لا يطلبون منهم معجزة:

لكن السابقين الأولين والصديقين والصالحين من متبعي الأنبياء لم يطلبوا من أنبيائهم معجزة، ولم يعترف حواريو عيسي بموسى نبياً حين رأوا معجزته، ولم ير حواريو عيسي في معجزته جزءاً من ثروة السماء. وقد آمنت السيدة خديجة رضي الله عنها برسول الله صلي الله عليه وسلم قبل الجميع، ولكن ذلك لم يكن لأنها رأت القمر ينشق فلقتين، وإنما لأنها رأته صلى الله عليه وسلم عوناً للفقراء، ومواسياً للمدينين، وملجأ ومأوي لأبناء السبيل (1). ولم يبحث سيدنا أبو بكر رضي الله عنه، ولا سيدنا عمر

---

(1) صحيح البخاري – باب بدء الوحي.وهذا نص الحديث الذي ورد فى هذا المعنــى: (٦٨٣٠) حدثنا يحيى بن بُكير حدَّثنا الليثُ عن عُقَيل عن ابن شهاب ح وحدثني عبدُ الله بن محمد حدثنا عبدُ الرزّاق حدَّثنا معمرٌ قال الزُّهريُّ: فأخبرني عروة عن عائشة رضيَ الله عنها أنها قالت: «أوّلُ ما بُدِىءَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرُّؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يَرَى رُؤيا إلا جاءتهُ مثلَ فَلَقِ الصُّبح فكان يأتي حِراءَ فيتحَنَّثُ فيه ــ وهو التعبدُ ــ الليالِيَ ذواتِ العدد، ويَتزوَّدُ لذلك، ثم يَرجِعُ إلى خديجةَ فتزوِّدُهُ لمثلها، حتى فَجِئهُ الحقُّ وهو في غارِ حِراء، فجاءهُ الملك فيه فقال: اقرَأ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغطَّني حتى بلغَ مني الْجَهْدُ ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلتُ: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهدُ، ثم أرسلني فقال: اقرَأ، فقلتُ ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغَ مني الجهدُ ثم أرسلني فقال: {اقرَأ باسم ربِّكَ الذي خلق ــ حتى بلغَ ــ مالم يَعلم} (العلق: ١ــ ٥)، فرجَعَ بها ترجفُ بَوادِرُه، حتى دخلَ على خديجةَ فقال: زَمِّلوني، زملوني. فزَمَّلوه حتى ذهبَ عنه الرَّوع فقال: ياخديجةُ مالي؟ وأخبرَها الخبرَ وقال: قد خَشِيتُ على نفسي، فقالت له: كلاَّ، أبشرْ، فوَ الله لا يُخزيكَ الله أبداً، إنكَ لتَصِلُ الرَّحمَ، وتصدُقُ الحديث، وتحملُ الكَلَّ، وتَقري الضيفَ، وتعين على نوائبِ الحقِّ. ثمَّ انطلَقتْ به خديجةُ حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بنِ أسَد بن عبد

رضي الله عنه، ولا سيدنا عثمان رضي الله عنه، ولا سيدنا علي رضي الله عنه، ولا باقي كبار الصحابة رضي الله عنهم أجمعين عن حقيقة صدق النبي صلى الله عليه وسلم وحقانيته في ضوء الآيات والمعجزات الظاهرية، إذ كان وجوده صلى الله عليه وسلم في ذاته، ودعوته الحقة، ورسالته في الإخلاص معجزة لهم، فرأوا كل هذا، وفازوا بنعيم الإيمان.

لم يؤمن المعاندون حتى بعد أن رأوا المعجزات:

لكن النمرود وفرعون وأبو جهل وأبو لهب الذين طلبوا معجزات نار الخليل وفيضان النيل وقحط مكة وانشقاق القمر ظلوا بالرغم من كل هذا محرومين من نعمة الإيمان العظمي. ومع ذلك فهناك طبقة ظلت موجودة في هذا العالم، وهي التي أصاب مرآة بصيرتها بعض ظلال الصدأ، وحين تطلع شمس الحقيقة وتصيب أشعتها المعجزة تلك المرايا فإنها حينئذٍ تلمع، ويجأر أصحابها " آمنا برب هارون وموسى ". " طه: ٧٠ "

من الذي يستفيد من المعجزة ؟:

لقد شاهد سحرة فرعون معجزة موسى فخروا سجداً لرب هارون وموسى، وتحققت نبوءة النبي صلى الله عليه وسلم بانتصار الروم، فتفتحت عيون الباطن لدي أصحاب الفطرة الطيبة من قريش، وتجسدت أمامهم الحقيقة ([1])، وهذه هي الطبقة التي تفيدها الآيات الظاهرية علي قدر استعدادهم، وبالإضافة إلي ذلك فإن جزءاً كبيراً من

العُزَّى بن قصيَ ــ وهو ابنُ عمِّ خديجةَ أخو أبيها ــ وكان امرأً تنصرَ في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العربيَّ فيكتبُ بالعربيةِ منَ الإنجيل ما شاء الله أن يكتبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ، فقالت له خديجــةُ: أي ابنَ عمِّ، اسمَعْ منَ ابن أخيك. فقال ورقةُ: ابنَ أخي ماذا ترى؟ فأخبرهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مــا رأى، فقال ورقةُ: هذا الناموسُ الذي أُنزِلَ على موسى، يا ليتني فيها جذَعاً أكون حيّــاً حــينَ يخرجُــكَ قومك. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخرجيَّ هم؟ فقال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جِئتَ به إلاّ عودي، وإنْ يُدرِكْني يَومكَ أنصرْك نصراً مُؤزَّراً. ثمَّ لم يَنشبْ ورقةُ أن تُوفيَ، وفتر الوحيُ فتــرةً حتى حَزنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حُزناً غدا منه مراراً كي يَترَدَّى مــن رؤوسِ شــواهق الجبال، فكلما أوفى بذروة جَبَلٍ لكي يُلقي منه نفسه تبدَّى له جبريل فقال: يا محمدُ، إنكَ رسولُ الله حقــاً فيسكنُ لذلك جأشه وتقرُّ نفسه فيرجعُ، فإذا طالت عليه فَترةُ الوحي غدا لمثل ذلك، فإذا أوفى بذروَةِ جبلٍ تَبدَّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك». قال ابنُ عباس: فالقُ الإصباح: ضوءُ الشمس بالنهار، وضوءُ القمــر بالليل.(يوسف عامر)

([1]) جامع الترمذي – تفسير سورة الروم.

المعجزات يعتبر من المؤيدات، أي أنها تحدث تأييداً للحق علي غير توقع أو انتظار، وهي التي تمنح المؤمنين الصادقين بها السكينة في عالم المصائب وساعات الاضطراب، وتنعم عليهم برسوخ الإيمان وثبات القدم ويجزون لقاء ضعفهم ووحدتهم، وتنمو بها ثروتهم الإيمانية.

الاسم الاصطلاحي لتلك الأحداث:

ويطلق علي هذه الأحوال والكيفيات والأفعال الخارقة للعادة التي تصدر عن الأنبياء الكرام عليهم السلام لفظ معجزة بشكل عام، ولكن هذا الاصطلاح خاطئ من عدة جوانب: ــ

أولاً: لأن هذا اللفظ لم يستخدم في القرآن المجيد والأحاديث النبوية، وإنما استخدمت بدلاً منه ألفاظ " آية، برهان " والتي تؤدي مفهومها بشكل كامل، واستخدم قدماء المحدثون ([1]) بدلاً منــــه ألفـــاظ " دلائل وعلامات "، وهي مترادفات للألفاظ القرآنية.

ثانياً: لأن هناك بعض اللوازم العقلية التي نتجت عن الاستخدام العام للفظ " معجزة "، وهي لوازم غير صحيحة في الحقيقة. علي سبيل المثال نتج عن استخدام هذا اللفظ لدي العامة تصور فحواه أنها " أي المعجزة " فعل النبي، يصدر بشكل خاص عن أعضائه وجوارحه، وكذلك بسبب هذا اللفظ صار إعجازها كأنه داخل في حقيقتها، في حين أن هذين التصورين ليسا صحيحين، بل يجب القول بأن جزءاً كبيراً من الاعتراضات العقلية علي المعجزة إنما نتجت عن الاستخدام الخاطئ لهذا اللفظ، والأكثر من هذا أننا في حاجة إلي لفظ جامع يشمل جميع خواص وأحوال ومشاهدات وعادات النبوة وأفعالها الخارقة للعادة كلها، في حين أن لفظ معجزة ليس بهذا القدر من الاتساع. وسوف نبحث هذا الأمر بالتفصيل حين نتعرض فيما بعد لحقيقة المعجزة من وجهة النظر القرآنية، والذي سيدلنا إلي مدي كون اللفظ القرآني صحيح وموزون. وبناءاً علي تلك الأسباب فإن الطريقة الصحيحة تكون بأن نختار في هذا الكتاب الاصطلاح القرآني " آية – برهان "، واصطلاح المحدثين " علامات ودلائل " فقط حتى نستطيع أن نقدم مفهومنا

---

[1] – مثل دلائل النبوة لأبي نعيم الأصبهاني، وأعلام النبــوة للعلامـــة المــاوردي المتــوفى ٤٥٠ هــــ وغيرهما.

بطريقة أكثر صحة واتساعاً، ولكن نظراً لأن لفظ " معجزة " قد شاع في لغتنا فإننا لا نستطيع تركه دفعة واحدة.

علاقة الدلائل والبراهين والآيات تكون بسير الأنبياء:

إن أحداث وقصص الأنبيـــاء السابقين عليهم السلام والتي وردت في القرآن الكريم والصحف السماوية الأخرى، فقد ذكرت الأحوال والكيفيات الروحية للأنبياء السابقين عليهم السلام، أي الدلائل والبراهين والآيات، بأسلوب مؤثر ومعبر للغاية في الأحداث والقصص التي وردت عنهم في القرآن الكريم والصحف السماوية الأخرى. وقد ورد ذكر السير في الملكوت وتكليـم الله، ورؤية الملائكة والرؤيا الصالحة، استجابة الدعاء، وطوفان نوح، ونار الخليل، وعصا موسى ونفس عيسي وغيرها من الأحوال والكيفيات في القرآن المجيد مرات عديدة، كما ورد تفصيل كامل لعواقبها ونتائجها، وهذا يعني أن مثـل هذه الأشياء ظلت لها علاقة خاصة بسيرة الأنبياء عليهم السلام في كل زمان، ولهذا أصبحت جزءاً لا يتجزأ من أحداث حياتهم. ورغم أن حياة الأنبياء عليهم السلام عبارة عن مجموعة من الأحداث المتنوعة، إلا أن مركز هذه الأحداث كلها باعتبـــار النتائج تُطهر هذا الجسد الترابي من أدران الأخلاق الذميمة، وتزينها بورود ورياحين في سنن الأخلاق حتى لا تشتبك أهداب البركات السماوية بالأشواك. ورغم أن الأنبياء عليهم السلام يضطرون إلي الاستعانة بالوسائل المادية في بعض الأحيان لأداء هذا الفرض المقدس، لكنهم غالباً ينجحون في مهمتهم بطاقتهم الروحانية، ويوظفون الوسائل المادية لمعاونتهم روحياً أكثر من معاونتهم جسمانياً. وهذا هو السبب في أن القرآن المجيد أعطي أهمية عظمي لتلك الدلائل والآيات في سير حياة الأنبياء عليهم السلام، وكأنه ربط بذكر هذه الدلائل والآيات حياة الأنبياء عليهم السلام كلها بالعلل والأسباب.

علاقة الدلائل والآيات بالسيرة المحمدية:

إن حياة النبي محمد صلي الله عليه وسلم بمثابة خلاصة لسير الأنبياء عليهم السلام، وهي عطر تعاليمهم، وبرزخ أحوالهم ومشاهداتهم. فلقد بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم بدين عالمي وأبدي ؛ ولهذا فقد خاطب النبي صلى الله عليه وسلم كل أولئك الناس بخطاب واحد سواء الذي جرفهم طوفان نوح دفعة واحدة، أو أولئك الذين ابتلعتهم مياه البحر الأحمر، أو الذين أعادهم نفس عيسي عليه السلام إلي الحياة. والأهم من هذا

تلك الجماعة من أمة النبي صلى الله عليه وسلم، والتي لم تكن تري تلك الأشياء بعين الحس والشهود، وإنما لديها المقدرة علي سعة البصيرة كذلك، وبناءاً علي هذا فكيف لا يكفي ذلك النبع الذي روي أسباط موسى إلي ظمأى الروحانية هؤلاء. ولهذا فقد جعل من ذات النبي صلى الله عليه وسلـم مجمعاً لكل تلك المعجزات التي تحتاجها كل طبقة وكل فرقة وكل جماعة علي قدر مراتبها، فكانت أخلاقه صلى الله عليه وسلم وعاداته معجزة، وكانت شريعته معجزة، ولم تكن هناك معجزة أعظم من ذلك الكتاب الذي نزل عليه صلى الله عليه وسلم، بالإضافة إلي ذلك فقد أثرت طاقته صلى الله عليه وسلم الروحية كثيراً في كل من عالم الجسم والروح معاً. فتارة تعد له فراشاً في ظل " طوبى "، وتارة تهيئ له مركب " الرفرف " بالقرب من سدرة المنتهي، وتارة تنير قلبه المبارك بنور " ما كذب الفؤاد ما رأي "، وتارة تضيء عيونه صلى الله عليه وسلم بإثمد " ما زاغ البصر "، وتارة تفتح أبواب السماء لنزول الرحمة الإلهية، وتارة تفجر من أعماق الأرض عيون الماء للعطشى في وادي الحق، وتارة تكشف خزائن كسري وقيصر في نور شرر الصخور، وتارة تزف أنغام البشري بفلاحه علي لسان إلهام الأنبياء السابقين عليهم السلام.

وقد كان الجزء الأكبر من أحداث سيرة النبي صلى الله عليه وسلم في الغزوات والحروب، وقد مرّ ذكر الأسباب والعلل التاريخية لهذه الأحداث المثيرة في أحد أجزاء هذا الكتاب بشكل مفصل، لكن الفتوحات العظيمة التي حققها صلى الله عليه وسلم في ميدان الجهاد فإن الذي أفاد فيها هو سيف الاعتماد علي الحق، ودرع التوكل علي الله وسهام دعاء الملائكة أكثر من سيوف وخناجر جيش البشر. وقد كان أكبر فرض في حياة النبي صلى الله عليه وسلم هو تبليغ الإسلام ونشره، وقد أدي وجهه المنير، وعيونه المؤثرة، وكلامه المحبوب، وأخلاقه المعجزة إلي دخول عدد كبير من الناس في الإسلام، بعد أن كانت لهم هذه كلها بمثابة الآيات والدلائل. والمهم أن هذه الدلائل وهذه البراهين وهذه الآيات وهذه المعجزات ظلت تتجلى في كل مظهر من حياة النبي صلى الله عليه وسلم، باعتبارها أسباب حقيقية، جنباً إلي جنب مع الأسباب الظاهرية.

الدلائل والمعجزات العقلية:

وعندما يسمع الناس لفظ الدلائل والمعجزات يثور بداخلهم هذا السؤال علي الفور: هل هذا ممكن ؟ ومنذ أن وجدت فلسفة الدين والعقل والنقل في هذا العالم ظلت المناقشات الحامية تدور حول هذا الموضوع، لكن نتيجة كل هذه المناقشات، سواء كانت

فلسفة قديمة أم حديثة، أم فلسفة يونانية، أم فلسفة إسلامية، أم فلسفة شرقية، أو غربية هي أن بعض الفرق تعتبر هذا الأمر ممكناً بل واقعاً، بينما تعتبره بعض الفرق الأخرى مستحيل الوقوع، وهذا الاختلاف بين العقول والإفهام موجود منذ خلقت الدنيا، وسيظل موجوداً، لكن أولئك القائلين بإمكانية الوقوع والحدوث يقيمون نظريات مختلفة لفهمهم وإدراكهم، وذلك كله لكي يُطمئنوا قلوبهم، ويرفعوا شكوكهم خلال مناقشاتهم، فيطفئوا بذلك ظمأ نفوسهم. وفحوى هذه النظريات كلها هو أن يستطيعوا قياس هذه الحقائق التي لا يدركها العقل والحواس بمقياس ما يعلمونه ويحسونه هم، لكن هل يمكن هذا ؟ وهل يسير المحسوس وغير المحسوس، أو عالم الجسد وعالم الروح طبقاً لنظام واحد ؟ إذ أننا نريد إسقاط أو قياس الأدلة التمثيلية والاستقرائية لعالم ما علي أدلة عالم آخر، والحقيقة أننا نريد أن نعرف ما لا يمكن أن يُعرف وأن نفهم ما لا يمكن أن يُفهم. وإذا ما كانت عقولنا وأفهامنا تجد صعوبة جمة في ميدان المحسوسات، فإلي أي مدي نستطيع أن نقترب من الهدف في عالم ما وراء المحسوسات ؟

* أولئك الذين يصفون حسنك ** كلهم يفسرون الرؤية الكامنة

وعلي أية حال فإن كل ما قدمه الإنسان من تفسير لهذا الحلم غير المرئي منتشر علي صفحات الدين، وقد شرحت في بداية سلسلة المناقشات ونظريات الفلسفة القديمة، ثم يأتي تفصيل لمدي ما يمكن أن تقدمه الفلسفة الحديثة في حل تلك الأشياء وفي النهاية سنشرح ما قدمه القرآن المجيد في هذا الخصوص.

الدلائل والمعجزات والفلسفة القديمة وعلم الكلام

لم تظهر المناقشات العقلية فيما يتعلق بالدلائل والمعجزات، وما كان لها أن تظهر طالما كان سطح العقائد في الإسلام نقياً معبراً، ولكن انتشرت ترجمات العلوم اليونانية بين المسلمين في القرن الثاني، وصارت هي الأخرى جزءاً هاماً من علم الكلام لدينا، وصار لها من الأهمية بحيث أننا لابد أن نتعرض لها في هذا البحث وإلاّ ظل ناقصاً.

لم يعتنق أهل اليونان أي شريعة إلهية، ولهذا فإنهم ما كانوا يعرفون شيئاً عن النبوة وخصائص النبوة والوحي والإلهام والمعجزة وغيرها، وهذا هو السبب في أننا لا نجد مثل هذه المناقشات في فلسفتهم الخاصة بهم ؛ ولذا فقد صرح بهذا العلامـــة " ابن رشد " في كتابه " تهافت التهافت " كما ذكره العلامة ابن تيميه أيضاً في مؤلفاته، وكان أول فيلسوف مسلم هو " يعقوب الكندي "، لكن مؤلفاته بشكل عام مفقودة، اللهم إلا بعض الكتيبات الصغيرة، ثم يأتي بعد " الكندي " عهد " الفارابي "، وهو أول من أقام نظريات خاصة به فيما يتعلق بهذه الأمور ؛ ولهذا فقد تحدث في كتابه " فصوص الحكم " عن النبوة وخصائص النبوة كما يلي ([1]):

الفقرة ٢٨: هناك قوة قدسية في روح صاحب النبوة، ومثلما تتصرف روحك في العالم الأصغر، يعني في الجسد، ويظل جسدك تابعاً ومطيعاً لروحك، كذلك تلك الروح القدسية تتصرف في العلم الأكبر، يعني عالم الأجساد كلها، ويظل عالم الأجساد كلها تابعاً ومطيعاً لها، وبناءاً علي هذا تصدر عنه معجزات خارقة للفطرة، ولأن مرآة باطنه نقية طاهرة من كل الأتربة والصدأ، فإن اللوح المحفوظ يعني ما لا يمكن أن يكون خطأ في هذا الكتاب، وكل ما في ذوات الملائكة ينعكس علي هذه المرآة، وكذلك القدرة القدسية أو الروح القدسية توصله إلي المخلوقات.

فقرة ٢٩: الملائكة اسم لتلك الصور العلمية القائمة بذاتها، وذلك ليس كمثل النقوش في اللوح، أو المعلومات في الذهن، بل إنها معانٍ قائمة بذاتها، وتحصل الفيوض من الأمر الإلهي، وروح عامة البشر تخلق مثل هذا التعلق بالأمر الإلهي أثناء تعطل الحواس الظاهرة، يعني في الحلم بينما تخاطبه الروح النبوية في اليقظة.

---

[1] – طبع كتاب " فصوص الحكم " في كل من مصر وأوروبا، وأمامي الآن نسخة " ليدن أي جي بريل " المطبوعة عام ١٨٩٠م.

فقرة ٤٠: إن حال روح عامة البشر هو أنه عندما تنشغل حواسها الظاهرة تتعطل حينئذٍ حواسها الباطنة، وعندما تعمل الحواس الباطنة تفقد الحواس الظاهرة تأثيرها، لكن حال الأرواح القدسية هو أن انشغال حواسها الظاهرية لا يعطل حواسها الباطنة، وكذلك انشغال حواسها الباطنة لا يعطل حواسها الظاهرة، ولا تعوق إحداهما عمل الأخرى، ليس هذا فحسب، بل إن تأثيرها يتعدى من أجسادها إلي الأجساد الأخرى وهي تتلقى علمها عن طريق الإنساني.

فقرة ٤١: إن تأثير الأرواح العامة لا يكون فقط في أن يبعد انشغال الحواس الظاهرة الحواس الباطنة عن أعمالها وفرائضها، وكذلك في أن يبعد في انشغال الحواس الباطنة الحواس الظاهرة عن أعمالها وفرائضها أيضاً، بل إن عمل حس أي منهما يبطل عمل حس الآخر، ونحن لا نرى عندما ننصت بإمعان، وعندما ننهمك في النظر لا نسمع، ولا نشتهي شيئاً إذا ما تملكنا الخوف، وإذا ما اشتهينا لا نغضب، وإذا ما انشغلنا وغفلنا عن الذكر، وإذا انشغلنا بالذكـر برئنا من الهم، لكن الأرواح القدسية لا تكون علي هذا المنوال، إذ أن حواسها الظاهرة والباطنة كلها تعمل معاً، ولا تعوق واحدة منهما الأخرى.

وألفاظ " الفارابي " هذه هي التي تعاظمت إلي أن وصلت إلي " ابن سينا " و " ابن مسكويه "، ونجد كل هذه القضايا مشمولة تحت مسمي " باب النبوة " في أي مؤلف فلسفي إسلامي صغير أو كبير، حتى أننا نسمع رجعها في مؤلفات " الإمام الغزالي " و " الرازي "، وأكثر من هذا أن هذا الصوت يخرج من قيثارة لسان القوم لدي الصوفي " مولانا جلال الدين الرومي " و " النبي " لدي الباحثين عن الحقيقة من حكماء الإسلام عن طريق الفلسفة والعقل هو الذي تجتمع فيه ثلاثة أمور: ـ

١ـ أن يكون مطلعاً علي أمور الغيب.

٢ـ أن تبدو له الملائكة وأن يحادثها.

٣ـ أن تصدر عنه خوارق العادات.

ودلائلهم علي إمكانية هذه الأمور الثلاث هي كما يلي: ـ

الاطلاع علي الغيب:

إن عالم الكائنات هذا يقوم علي نظام فطرى مرتب مقنن، وكل درجة فيه أعلي من الدرجة الأخرى. فالجمادات أولاً، وهي لا حركة فيها ولا إحساس ولا نمو ولا إرادة ولا نطق ولا قوة لإدراك الأمور الكلية، ثم تأتي بعدها درجة النباتات، وهي التي وإن

المنام، وتستطيع سماع أصوات الغيب، وتستطيع رؤية الملائكة، وتستطيع محادثتها، كما تستطيع الحصول علي فيوض العلم والمعرفة عن طريقها.

خوارق العادة:

وكما أن الأحداث المادية في الدنيا تنتج عن أسباب وعلل مادية، فإنها تنتج كذلك عن أسباب نفسية، وتتولد بداخل النفس عواطف وميول مختلفة، وتتأثر منها أجسادنا المادية. وما أكثر ما يحدث لمتسلق الأشجار والجدران أن تتورم أقدامه ويداه حينما يشعر بالخوف، فيرتعد، بل ويسقط، ويفقد الإنسان وعيه من الخوف الوهمي، ويمرض حتى أنه يموت بسببه. كذلك يتبدل لون الوجه من الخجل، ويحمر لونه عند الغضب، وهذا هو حال النفوس الضعيفة، بينما تؤثر النفوس الأقوى في الآخرين، وتجعل من الآخرين أمراً معتاداً بنظرات غضبها ومحبتها، وهذا يعني أن أصحاب النفوس القدسية، وذوي القوي الكاملة يستطيعون عمل الكثير في هذا العالم المادي ([1]).

هذا وقد جعل أكثر المتكلمين في الإسلام الشق الأول والشق الثاني شقاً واحداً، وبهذا فإن الاطلاع علي أمور الغيب، ومشاهدة الملائكة ورؤيتهم ومحادثتهم يمكن أن تدخل في الحقيقة تحت باب الوحي والمشاهدات الروحانية، أما الشق الثالث فهو ما يسمونه " المعجزة "، وسوف نبحث الأمرين كلاً علي حدة.

---

[1] – شرح ابن سينا هذه النظريات تفصيلاً في " الإشارات "، وباختصار في " النجاة "، كما تحدث عنها الإمام الرازي في " المباحث الشرقية "، وابن مسكويه في " الفوز الأصغر، ونجد هذا كله تقريباً في المؤلفات الفلسفية الأخرى.

الوحي والمشاهدة

لقد وضع حكماء المتكلمين والصوفية نظريات متعددة في شرح الوحي والإلهام والمشاهدات الروحانية هذا تفصيلها:

١ــ الإلهام الفطري، والإلهام النوعي:

إن كل الأشياء التي تظهر علي منضدة الوجود من غياهب العدم يصطحب كل منها معه خصائص مختلفة وعلماً فطرياً ؛ لماذا يكون الورد البلدي أحمراً، والياسمين أبيضاً، والبلح حلو المذاق، والأندراين مراً، وتنبت في أرض واحدة ومع ظروف بيئية واحدة نباتات مختلفة، ولكن لماذا يختلف لون كل منها وطعمه عن الآخر ؟ ولماذا تختلف خصائص وطباع كل منها إلي هذا الحد ؟ يبدأ الطير الصغير في التقاط الحبوب من الأرض بمجرد خروجه من البيضة، وابن البط في العوم، وأبناء الحيوانات في مص ضرع أمهاتهم، ورغم أن صغير الفــأر ربما لا يكون قد رأى القطة من قبل، وكذلك صغير القطة ربما لم ير الفأر من قبل، ولكنهما عندما يتواجهان للمرة الأولي يصدر عن كل منهما حركاته الفطرية، وكل حيوان يعرف ما ينفعه وما يضره، فيبتعد عن المهالك، ويهرول إلي المنافــع، مَن علمه هذا ؟ إن الأسد والثعلب والكلب والقطة كل منهما تصدر عنه تلك الأفعال الخاصة بنوعه، من علمه تلك الأفعال ؟ والغربان لا تنضم إلي أسراب البلابل، ولا البلابل تنضم إلي أسراب الغربان، من أين أتاها علم الاشتراك في هذا النوع ؟ وكيف تولدت المقدرة علي هذا التنظيم الرائع المثير، وهذا التخزين المحير لدي النحل والنمل ؟. والإجابة علي كل هذا هي أن معلم الفطرة قد أودعها جميعاً خصائص الطباع هذه عند خلقها، وهذا هو حال الأنواع، وكل نوع يضم أصنافاً. وكما أن خصائص كل نوع وقدراته تختلف عن الآخر، فإن خصائص كل صنف واستعداداته هي الأخرى تختلف عن الآخر. فكم في الحمام من أقسام، وكم في المانجو من أقسام، وكم في نوع الإنسان من طبقات، كل منها تشترك في طبقاتها وصنفها وقسمها من حيث الخصائص النوعية، وفي الوقت ذاته تحمل بداخلها أوصافاً نوعية أخرى مستقلة لا توجد في الأصناف الأخرى.

ومن الإنسان البدائي في أفريقيا إلي الأوربي المتمدن، ومن الجاهل الأمي إلي الفيلسوف والحكيم، كم من الطبقات الإنسانية المختلفة، وكل طبقة تحمل بداخلها خصائص وإدراكات سلبية، وهكذا فمن الممكن أن يكون معلم الأزل " الله تعالي " قد منح صنفاً آخر من الإنسان " الأنبياء " إلهاماً من أسرار وحقائق وعلوم ومعارف حُرمت منها الأصناف

الإنسانية الأخرى وجهلتها، وكل ما في الدنيا من علوم وفنون وصنائع وحرف واختراعات لكل منها موجد ومخترع، ومن الحياكة والخياطة وحتى الرياضيات والميكانيكا وكل ما بينهما من اختراعات وعلوم ومعارف وصنائع هي نتاج عقل من العقول، فكيف خط في ذهن المخترع والمؤسس الأول فكرة هذه القضية الخاصة أو هذا الاختراع الخاص. لابد من الاعتراف بأنه قد تولد بداخله نوع خاص من الفهم والتفكير فيما يتعلق بهذا الاختراع الخاص أو القضية الخاصة دون أن يتعلمه من الآخرين، وإن هذه الفكرة التي كانت في ذهنه قد صارت حقيقة مشهودة له في الوقت الذي كانت فيه خافية عن الآخرين جميعاً، وهذا هو الإلهام، وبالتالي فإن الشخص الذي تكون إلهاماته فلسفية هو الفيلسوف، والذي تكون إلهاماته شاعرية هو الشاعر، والذي تكون إلهاماته خاصة بالآلات والماكينات هو المهندس والصانع، والنفس القدسية التي تكون إلهاماتها أسراراً إلهية ونواميس ملكوتية وعقائد حق وأعمالاً صالحة وقوانين عادلة هو النبي صلى الله عليه وسلم، وإلهامها هذا هو الوحي.

٢ــ انقطاع الحواس عن الماديات:

إن حواس الإنسان ومدركاته كلها سواء المباشر منها أم غير المباشر مأخوذة كلها من حواسه الخمسة، يعني حاسة السمع، والبصر، والشم، والتذوق واللمس، والتي تقوم بعمل السمع والبصر والشم والتذوق واللمس علي الترتيب، وعلي نفس المنوال فإن للإنسان خمس قوي عقلية أيضاً هي الحس المشترك، وقوة الخيال، والتصور، والذاكرة وقوة التخيل والمتخيلة. ولهذه القوي الخمسة أعمال متفرقة، فالحس المشترك هو خزانة أو صندوق آلات الحس، فكل ما يشعر به الإنسان عن طريق حواسه الخمسة ينطبع مباشرة في الحس المشترك لدي الإنسان، ثم ينتقل من هناك إلي أن يتجمع في الخيال، ويحفظ فيه. أما التصور فهو القوة التي تقوم بتحليل ما هو محفوظ في الخزانة السابقة مرات عديدة، وتظل يصدر عنها أحكام. علي سبيل المثال عندما نرى من بعيد شيئاً سائلاً أصفر، فلدينا شكل " العسل " محفوظ في خيالنا، ولذا فإننا بمجرد أن نرى هذا الشيء الأصفر السائل نقول أنه عسل نحل وحلو المذاق، وهذا هو عمل " التصور ". أما الذاكرة فيتجمع فيها كل مخزون قوة التصور، بينما قوة التخيل أو " المفكرة " فيطلقونها علي القوة العقلية، والتي تظل تقوم بعمل التحليل والتركيب لمدركات الخيال، وتضع أمام عقولنا دائماً صوراً وأشكالاً عجيبة كمثل مشاهد سينمائية لصور متحركة، فأحياناً تصور لنا شخصاً برأسين،

وأحياناً أخرى شخصاً يتحرك ولا رأس له، وأحياناً تتجول بنا في أرض الجان، وأحياناً أخرى تحثنا علي الذهاب إلي العالم القدسي، وتجعل الذهن يقطع مسافة آلاف ومئات الآلاف من الأميال في لحظة واحدة، وما يتجسد من أفكار وخيالات أمام أعيننا الأخرى بمجرد أن نغلق أعيننا الأولي هو من عملها.

وعلينا بعد هذا التمهيد أن نفهم لماذا ترينا قوة التخيل لدينا المشاهد في لحظات راحتنا فقط ؟ السبب في هذا هو أن حسنا المشترك يكون دائماً منشغلاً في استقبال وتلقى المحسوسات المرسلة إليه من قبل آلات الحواس، ولهذا فطالما لم تتعطل آلات الحس لدينا لمرض أو نوم أو غفلة أو لأي سب آخر، فإن قوانا الدماغية لا يمكن أن يتولد فيها السكون والاطمئنان، وفي حالة النوم عندما توقف هذه الحواس عملها لوقت قصير، تبدأ عندئذٍ قوانا الذهنية الغامضة في التجول في العالم العلوي، وما تشاهده وتسمعه هناك يدخل إلي الحس المشترك محركاً قوة التخيل لدينا، فنري أشياء عجيبة ونسمع أصواتاً غريبة، والآن إذا كانت لدي روح أحد مثل هذه القوة بحيث تستطيع أن تعطل آلاتها الظاهرة في حالة اليقظة أيضاً، وتقيم علاقة منتظمة مع العالم العلوي، فإنها تستطيع أن ترى كل هذا في عالم اليقظة.

٣ــ قوة النبوة:

والنظــرية الثالثة أن حواس الإنسان ليست محصورة في خمسة فقط، ولهذا فقد قدم " شيخ الإشراق " في " حكمة الإشراق " أدلة علي ذلك. وهناك بعض صفات النباتات نجدها في الجماد، كما عثر علي بعض النباتات التي تمتلك قوة حس، والتي لا تتوفر لباقي النباتات، وهناك بعض القوى في أنواع مختلفة من الحيوانات لا توجد في حيوانات أخرى، وهناك قوة عجيبة في نحل العسل بحيث تستطيع أن تعثر علي أعشاشها مهما أخذتها إلي أماكن بعيدة وتركتها بها، بل إن أشكال العنكبوت المعقدة المتشابكة هي نتيجة لقوة ما، حتى ولو كان اسمها الفطرة أو الجبلة. وهكذا فمن الممكن أن يكون لدي الأنبياء قوة خاصة من الإحساس والإدراك لا يتمتع بها باقي البشر، وهم عن طريق هذه القوة القدسية يشعرون بأشياء ويدركونها بما لا تستطيعه القوي الإنسانية العادية. وقد عبر " مولانا جلال الدين الرومي " عن هذه الفكــرة في أكثر من مكــان في ثنايا المثنوي (المعنوي) فيقول:

- هناك حواس روحانية خمسة بالإضافة إلي الحواس الجسدية الخمسة، الأولي كأنها الذهب، والثانيــة كأنها النحاس.
- الجواس الجسدية تستمد طاقتها من الظلام، بينما تستمد الحواس الروحانية طاقتها من الشمس.
- ومن شاهد آية لهذا الإحساس الرباني فهو الأكثر إطاعة لله.
- لو يستطيع الحيوان معرفة مقام الملك بإحساسه فإن الثور والحمار أيضاً يريان الله.
- لو أنكم لم تُعطون قوي الإحساس الأخرى بالإضافة إلي الإحساس الحيواني.
- فلماذا إذاً يزاد مقــام ابن آدم إلي هذه الدرجة، ويصبح عارفاً بالإسرار اعتماداً علي الحس المشترك فقط.
- وعندما يتحدث الفيلسوف بلغو المعقولات يبقي خارج " الأعتاب "، والفيلسوف الذي ينكر تلك الحقائق اعتماداً علي فكره وظنه ينبغي أن نقول له ليضرب رأسه في الحائط.
- إذ أن حواس أصحاب القلوب تشعر بحديث الماء والهواء والطين جميعاً.
- الفيلسوف الذي ينكر بكاء السارية النبوية مرد ذلك أنه لا يعرف شيئاً عن حواس الأنبياء.

٤ـــ لا محدودية الحواس:

فإن سلمنا أيضاً أن الحواس خمسة، وليس لدي الإنسان أية حواس أخري سواها، فكيف يمكن أن يُقال أن سعة إحساس هذه الحواس محدودة في داخلها، وأن الشيء الذي يراه بعض الناس، والصوت الذي يسمعونه ليس صحيحاً، لأن عامة الناس لا يرونه ولا يسمعونه، أو أن الشيء الذي لا نراه الآن ولا نسمعه لن نراه ولن نسمعه في المستقبل كذلك، إذ أنه من الممكن تماماً أن يري شخص ويسمع ما لا يراه الآخر ولا يسمعه، وضعيف النظر لا يري الشيء بجانبه، بينما يري قوي النظر علي مدي أميال. وهناك بعض الناس وبعض الحيوانات يمتلكون قوي حسيــة أكثر حدة مما يمتلكه الآخرون، فقوة الشم في النمل، وقوة النظر في الحمام، وقوة اللمس في الثعبان، وقوة السمع في الكلاب والخيل أقوي من مثيلاتها العادية، بل إن حواس الإنسان ذاتها تتفاوت في درجتها من شخص لآخر، فواحد يسمع الأصوات عن بعد، وواحد يري الأشياء عن بعد، وواحد يشم الروائح الذكية البسيطة عن بعد، بينما لا يستطيع الشخص ضعيف الحواس أن يشعر بكل

هذا، أما إن أمكن بطريقة أو أخرى تقوية حواسه وجعلها أكثر رهافة وحدة، فإنه عندئذ سيري ويشم ويسمع بنفس القوة.

ويتضح من المقدمة السابقة أن الإنسان ضعيف البصر، أو ثقيل السمع، يستطيع أن يري ويسمع بشكل أقوي إذا ما قوينا سمعــه وبصره بطريقة أو بأخرى، وبقدر ما تقوي أحاسيسه وترتقي بقدر ما تتسع دائرة محسوساته وأحاسيسه. فإذا كان في يدنا كوب ماء، ونريد أن نشربه، فإننا لا نري فيه أية ذرة من الغبار والتراب، ولكنا إذا استخدمنا ميكروسكوباً، ونظرنا من خلاله، لوجدنا بكل قطرة من قطراته عدداً ضخماً من الديدان، أما العين المجردة فإننا نري بها الشمس والقمر وبعض النجوم المتفاوتة الأحجام وفقط، حتى أن بطليموس لم يشعر بحركة الثوابت، ولم يتم اكتشاف سوي ثلاثمائة نجم حتى ذلك الوقت، ثم بدأت الميكروسكوبات تظهر واحداً تلو الآخر بقدرات مختلفة، ومنذ ذلك الوقت ظلت أعيننا تسبح في أجواء السماء أكثر تفتحاً ورؤية بعد كل اختراع لميكروسكوب جديد، حتى بلغ عدد النجوم التي تم اكتشافها في الدرجة السابعة ثلاثة عشر ألف نجم، وأربعين ألفاً من الدرجة الثامنة، ومائة وعشرين ألفاً من الدرجة التاسعة، بل ورأينا من خلال ميكروسكوب " هرشل " عشرين مليوناً من النجوم الكبيرة والصغيرة. وهذا هو حال السمع كذلك، في البداية كانت أصواتنا تستطيع الوصــول إلي ميل واحد علي أكثر تقدير، فزاد اختراع التليفون في هذه المسافة، فنجد الناس في ركن من مدينة ما يتحدثون إلي آخرين في ركن آخر، وزاد هذا الرقي إلي درجة أننا نجلس في فنــدق في سويسرا ونتحدث، فيسمعنا الناس في فرنسا، ويصل صوتك من لكهنو إلي اله آباد في لحظة، وعن قريب سيصل صوتك من الهند إلي لندن على بعد آلاف الأميال ([1]).

ويتضح من هذه الأمثلة التي تحدث كل يوم أنه لا يمكن تحديد دائرة فعل وانفعال الحواس ولا تأثرها وتأثيرها، وأنه من الممكن أن تصبح حواس الإنسان قوية وسريعة وحادة بحيث يبدو لها ما لا يبدو لنا، ويتناهى إلي سمعها ما لا يتناهى إلي سمعنا. وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يقول في صفوف الصلاة: "**إنه صورت لي الجنة والنار فرأيتهما دون هذا الحائط**"([2]). وكان سيدنا يعقوب يشم رائحة قميص يوسف عليه السلام

---

[1] – والآن في هذا الوقت (١٩٨٥م) لا يزال التطور العلمي يرتقي مزيداً من مدارجه.

[2] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب لكل نبي دعوة مستجابة: (٦٢١٧) حـدَّثنا حفصُ بن عمرَ حدثنا هِشامٌ عن قَتادةَ عن أنس رضيَ اللّه عنه «سألوا رسولَ اللّه صلى الله عليه وسـلم

في مصر وهو جالس في وادي كنعان، ومولانا جلال الدين الرومي يعبر عن هذه الفكرة في أشعاره قائلاً بأن حدة حاسة من الحواس تزيد في حدة الحواس الأخرى.

- إن الحواس الخمس مرتبطة ببعضها البعض، لأن هذه الحواس الخمس تنتمى إلي أصلها.
- وقوة حاسة من الحواس تصبح قوة لباقي الحواس.
- ورؤية العين ترفع العشق، والعشق يخلق في القلب الصدق.
- ويصبح الصدق سبباً ليقظة الحواس، والذوق والوجدان يُمدّان الإحساس.

٥ ـ عالم المثال:

إن علماء الإسلام الذين استنارت صدورهم بنور المعرفة جنباً إلي جنب مع العلم والحكمة قد اختاروا طريقاً آخر من الذوق والعرفان، وليس بالنظر والاستدلال، وهناك من الحكماء فرقتان الأولى: وحدية، والثانية: ثنوية. فأما الوحدية: فهي التي يقول أصحابها بعالم واحد فقط، أي أنهم يعتقدون أن مبدأ العالم واحد فقط، وهؤلاء جماعتان، واحدة تعتقد أن المادة فقط هي أصل العالم، ولا يعترفون بشيء غير المادة، حتى أنهم يعتقدون بأن العقل والحياة، وحتى القوى الذهنية كلها من إبداع المادة، وهؤلاء يطلق عليهم الماديون والطبيعيون. أما الجماعة الثانية فتنكر المادة تماماً، وتعترف بالروح والنفس فقط، ولا يرون في هذا العالم المحسوس سوى وهم وخيال، ويرون أن العالم وكل ما في العالم هو مظاهر الروح والنفس، وهؤلاء يطلق عليهم " الروحانيون ". الفرقة الثانية هي الثنوية: ويعترف أصحابها بأصلية للعالم، أي المادة والروح، ويرون أن العالم مظهر لهذين الاثنين، وأصحاب المعرفة هؤلاء والذين أشرنا إليهم في السطور السابقة يعتقدون بوجود ثلاثة عوالم، الأول: عالم الأجساد أو عالم الشهادة، والذي يطلقون عليه

حتى أحفَوْهُ المسألةَ، فصعِدَ المنبرَ فقال: لا تسألوني اليوم عن شيء إلا بيَّنتهُ لكم. فجعلتُ أنظرُ يميناً وشمالاً، فإذا كلُّ رجل لافٌّ رأسَه في ثوبِهِ يبكي، فإذا رجلٌ كان إذا لاحى الرجالَ يدعى لغير أبيه، فقال يا رسولَ اللّه، مَن أبي؟ قال: حُذافة. ثمَّ أنشأ عمرُ فقال: رضينا باللّه ربّاً، وبالإسلام ديناً، وبمحمَّدٍ صلى الله عليه وسلم رسولاً. نعوذُ باللّهِ من الفتن. فقال رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم: ما رأيتُ في الخير والشر كاليوم قط، إنه صُوِّرَت لي الجنةُ والنار حتى رأيتهما وراءَ الحائط». وكان قتادة يذكر عند هذا الحديث هذه الآية {يا أيها الذين آمنوا لا تَسألوا عن أشياءَ إن تُبْدَ لكم تسؤكم}(المائدة: ١٠١). (يوسف عامر).

المادة أو الماديات. والثاني: عالم الأرواح أو عالم الغيب، وهو المنزه عن المادة والماديات ويسمو فوقها. الثالث: عالم المثال أو عالم البرزخ، وهو العالم الذي تجتمع فيه الأجساد وعالم الأرواح وعالم الشهادة وعالم الغيب وقوانينهما. فالأشياء التي تنتمي إلي عالم الأجساد تبدو هناك وقد تطهرت من كيانها المادي، بينما تبدو المعاني والحقائق غير الماديات ومخلوقات عالم الأرواح هناك مجسمة متجسدة. يقول " الإمام رباني " في " المكتوبات ":

" أيها الأخ: هناك ثلاثة أقسام لعالم الممكنات: عالم الأرواح، وعالم المثال، وعالم الأجسام. أما عالم المثال فيقولون انه هو ما بين عالم الأرواح وعالم الأجسام، ويقولون أيضاً أن عالم المثال هو بمثابة المرآة لحقائق ومعاني عالم الأرواح وعالم الأجسام، إذ تظهر معاني وحقائق الأجسام والأرواح في عالم المثال في أشكال لطيفة، حيث أن لكل معنى أو حقيقة شكلاً خاصاً مناسباً في عالم المثال، وليس هناك في عالم المثال شكل أو صورة وهيئة قائمة بذاتها، وهذه الصور والأشكال ترد من العوالم الأخرى وتنعكس فيه، مثلما أنــه ليس في المرآة صورة قائمة بذاتها، وإنما تكون الصور والأشكال التي تبدو فيها انعكاساً لصور وأشكال من خارجها. " الجزء الثالث، المكتوب الحادي والثلاثين ".

ويعتقد بعض النـــاس خطأً أن عالم المثال هذا الذي يذكره هؤلاء العلماء هو نفسه عالم المثل لدى أفلاطون، لكن أفلاطون كان من فرقة الوحدوية: أي أنه كان يعتقد بأن أصل العالم واحد فقط، ولذا فإن فحوى نظريته هو أن كل شيء في عـــالم المحسوس هذا يظهر بشكل فردي وجزئي وشخصي، وأن النفس الكلية ومطلق نوع الوجود ليس في الخارج، ونحن نقول على سبيل المثال: يضحك الإنسان ويصهل الفرس، وينبح الكلب، وهذا ليس حكماً خاصاً بإنسان بعينه أو بفرس بعينه أو بكلب بعينه، وإنما حكم علي نوع الإنسان والخيل والكلاب، لكن وجود الإنسان الكلي والخيل المطلق والكلب المطلق ليس في هذا العالم المحسوس، وإنما ينبغي أن يكون وجودها في مكان ما، فأين يكون إذاً ؟! والإجابة العادية هي: في الذهن. لكن الذهن الذي هو اسم لذهننا المحدود المختصر ليس بوعاء يمكن أن يستوعب بداخله كل هذه الدنيا، ولهذا فهناك عالم آخر تعيش فيه الكليات والأنواع، وكل ما في هذا العالم المحسوس من أشياء تندرج تحت نوع ما من الأنواع، وهذه الأنواع توجد في عالم المثل، وانعكاسها وظلالها والتي تسمي الأفراد والجزئيات هو

الموجود في عالم المحسوس، والوجود الحقيقي هو لذلك المثل ولتلك الأنواع فقط، وكأنها قوالب القدرة، ومنها تُصب الأفراد والجزئيات، فتظهر في عالم المحسوس، لكن ليس لهذه الأفراد والجزئيات وجود مستقل، وإنما هي مجرد آثار وظلال لنوعها، ثم إن هناك روحاً نوعية لكل نوع منها والذي يعد إله هذا النوع، واسمه في اصطلاحهم " رب النوع ".

هذه هي حقيقة "مثل " أفلاطون، أما حقيقة عالم المثال فهي مختلفة عن هذا تماماً، والقائلون بهذا العالم ـــ كما مرّ في مكتوب الإمام الرباني الآن ـــ يقولون بثلاثة عوامل: العالم الجسماني والعالم الروحاني والعالم المثالي، والعالم المثالي جامع لأحكام الجسم والروح، وتبدو فيه الأشياء الروحية مجسمة، بينما تُشكل الأشياء المجسمة في شكل آخر مناسب، وأما المعاني والحقائق التي لا روح فيها ولا جسم لها مثل الحياة والموت والعلم والعقل فإنها تبدو هناك في شكل جسماني، وأرواح الملائكة وجبريل والمنزهة عن الأجسام تبدو مجسمة في ذلك العالم، ومثلها كمثل الحلم تماماً، والذي تظهر فيه الروحانيات متجسدة أحياناً، والجسمانيات في شكل آخر أحياناً أخرى، ويراها أهل المعرفة فيفسرونها التفسير المناسب. على سبيل المثال يظهر العلم في الحلم أحياناً في شكل نهر، والغيظ والغضب في شكل نار، والشجاعة في شكل أسد. وهكذا في عالم المثال أيضاً تبدو المعاني والحقائق والروحانيات والمجردات في شكل جسماني مناسب، ويراها أهل البصيرة فيتوصلون إلي حقيقة تلك الرموز والكنايات، وعالم المثال في ذاته ليس مسكوناً بأحد، وإنما هو مجرد بيت للمرايا والذي تنعكس فيه الأشكال سواء من العالم العلوي أو العالم السفلي ويدركها أهل البصيرة.

ونجد أول أثر لهذه الفكرة عند علماء المسلمين لدي الإمام الغزالي، ولكنه عبر عنه بلفظ " وجود " وليس بلفظ " عالم "، وليس لدينا ما يثبت وجود أي شيء سوي أن نغفله ونحسه بشكل أو بآخر، ومعلوماتنا ومحسوساتنا موجودة في الذهن، ولا يمكن أيضاً إنكار وجودها مثلما لا يمكن إنكار الوجود الخارجي للأشياء العادية، لكننا لا نستطيع رؤيتها ولا سماعها ولا تذوقها ولا شمها ولا تحسسها. وبناءاً علي هذا فإن للوجود في نظر الإمام ثلاثة أقسام: وجود الكيان، والجود عقلي والوجود الخيالي، وقد فصّل القسم الأخير من الوجود كما يلي: ـــ

" وهو أن لسان الحال بدت محسوسة ومشاهدة في شكل تمثيلي، وهذه آية خاصة بالأنبياء والرسل، ومثلها كمثل الحلم، فيبدو لســـان الحال في شكل تمثيلي لعامة الناس

علاوة علي الأنبياء، وهم يسمعون الأصوات. علي سبيل المثال يري شخص حلماً بأن الجمل يكلمه أو أن الحصان يخاطبه، أو أن ميتاً يناوله شيئا أو يمسك بيده أو يسلبه شيئاً، أو يري بأن إصبعه تحول إلي شمس أو قمر، أو تحول ظفره إلي أسد، أو ما شابه ذلك مما يراه الناس في منامهم، مثل هذه الأشياء يراها الأنبياء في يقظتهم، وتكلمهم هذه الأشياء حال يقظتهم هذه، ولا يستطيع الشخص المستيقظ والذي تبدو له هذه الأشياء ويحسها أن يفرق بين كون هذا الكلام خيالياً، أم وحياً خارجياً. أما الذين يرون ذلك في الأحلام فإنهم يستطيعون التفريق ؛ وذلك لأنهم يستيقظون ويشعرون بالفرق بين حالة الحلم وحالة اليقظة ".

وهذه الصور التمثيلية لا تظهر لأصحاب الولاية التامة منفردين، وإنما يمتد أثرها لعامة الحاضرين أيضاً، فتنتشر ولايته أشعتها عليهم، فيرون هم أيضاً ما يراه صاحب الولاية، ويسمعون ما يسمع ([1]).

وقد شرح الإمام ذلك في كتاب " إحياء العلوم، باب عذاب القبر "، وعبر الإمام الخطابي " إمام الحديث المشهور " عن ذلك في كتاب " معالم السنة " بلفظ " رؤيا "، وللأسف فإن النسخة الأصلية للمعالم مفقودة. وقد نقل الحافظ ابن حجر رأيه في كتابه " شرح البخاري "، فيقول في شرح رواية شريك بن عبد الله، والتي جاء فيها التصريح بالقرب من الله في حادثة المعراج ما نصه: ـــ " فمن لم يبلغه من هذا الحديث إلا هذا القدر مقطوعاً عن غيره ولم يعتبره بأول القصة وآخرها اشتبه عليه وجهه ومعناه، وكان قصاراه إما ردّ الحديث من أصله، وإما الوقوع في التشبيه، وهما خطئان مرغوب عنهما، وأما من اعتبر أول الحديث بآخره فإنه يزول عنه الإشكال، فإنه مصرح فيهما، فإنه كان رؤيا لقوله في أوله وهو نائم وفي آخره استيقظ، وبعض الرؤيا مثل يضرب ليتناول على الوجه الذي يجب أن يصرف إليه معنى التغبير في مثله، وبعض الرؤيا لا يحتاج إلى ذلك، بل يأتي كالمشاهدة " ([2]).

وقد سماه " شيخ الإشراق " " عالم " بعد الإمام، وشرح بعض كيفياته، لكنه خلط بين عالم المثال والمثل الأفلاطوني. وتحدث الحافظ جلال الدين السيوطي في بعض كتبه عن هذا الموضوع، كما أننا نجده عند خواجه حافظ أيضاً.

---

[1] – المضنون به على غير أهله – ص ١٩ – مصر.

[2] – فتح الباري – جزء ١٣ – ص ٤٠٢.

* العالم موجود وهذا العالم من ذلك التمثال

ولا نعرف متي ظهر هذا التصور لدي السادة النقشبندية، علي أية حال يوجد هذا التصور قبل زمن الإمام الرباني الشيخ أحمد السرهندي بكثير، إذ أنه ذكر مرات عديدة في كتابات الإمام الرباني، كما أن الحديث عن هذا العالم وتنوعاته ومظاهره في مباحث غاية في الغموض في مؤلفات السادة المجددية، وكان أول من تراءي له من علماء الكلام أن يستخدم هذا النظير في علم الكلام هو " الملا بدر الدين " أحد مريدي مجدد الألف الثاني رحمة الله عليه، فيقول في خطاب منه إلي السيد المجدد: ـــ

" وسوف يكون عذاب القبر أيضاً في عالم المثال تماماً، مثلما نشعر بالألم والخوف في الشكل المثالي في المنام، كما كتب أن فروعاً كثيرة يمكن أن تتفرع من هذه المسألة، فإذا قبلتم بهذا فسوف يتفرع عنه فروع كثيرة " المكتوب الحادي والثلاثين _ الجزء الثالث ".

هذه هي الأفكار المتناثرة التي صنع منها " شاه ولي الله " عالماً كاملاً، ولذا نراه يعقد باباً لعالم المثال في كتابه " حجة الله البالغة "، وشرح أصوله وفروعه كلها، ونحن بهذه المناسبة نورد ترجمة كاملة لما كتبه " شاه ولي الله " في هذا الباب: " ينبغي أن يُعلم أنه ثبت من أحاديث كثيرة أنه يوجد في عالم الموجودات عالم آخر غير مادي تتشكل فيه المعاني " الأغراض والحقائق " في صور جسمية تتناسب في صفاتها، فيتحقق أولاً وجود ركن للأشياء في هذا العالم، ثم توجد في الدنيا بعد ذلك، وهذا الوجود الدنيوي يتطابق في أحد الاعتبارات تماماً مع الوجود في عالم المثال هذا ".

وغالباً ما تنتقل الأشياء التي لا جسم لها في نظر العامة إلي هذا العالم وتحل فيه ولا يراها عامة الناس. وقد قال الرسول صلي الله عليه وسلم «خلقَ اللَّهُ الخلقَ، فلما فرغَ منه قامتِ الرَّحمُ فأخذَت بحقْوِ الرحمنِ، فقال له: مَهْ، قالت: هذا مَقامُ العائذِ بك منَ القَطيعة..."(1) وورد عن الرسول صلى الله عليه وسلم أن سورتي البقرة وآل عمران

1 - وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري، باب ما جاء فى فاتحة الكتاب: (٤٧١١) ـــ حدَّثَنا خالدٌ بن مَخلَد حدَّثَنا سليمانُ قال: حدَّثني مَعايةُ بن أبي مُزرد عن سعيدِ بن يَسارٍ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «خلقَ اللَّهُ الخلقَ، فلما فرغَ منه قامتِ الرَّحمُ فأخذَت بحقْوِ الرحمنِ، فقال له: مَهْ، قالت: هذا مَقامُ العائذِ بك منَ القَطيعة. قال: ألا تَرضَينَ أن أصِلَ من وَصَلَكِ

ستأتيان يوم القيامة في شكل طيور مصفوفة وستدافعان عن الذين قرءوهما. كما ورد عنه صلى الله عليه وسلم أن الأعمال عندما تحضر يوم القيامة ستأتي الصلاة أولاً ثم الصدقات ثم الصيام. .... الخ. وأخبر صلى الله عليه وسلم أن الخير والشر مخلوقان سيوقفان أمام الناس يوم القيامة، وسيبشر الخير أهل الخير، وسيقول الشر لأهل الشر ابتعدوا، لكنهم يتشبثون به. كما أخبر بأن باقي الأيام العادية كلها ستأتي يوم القيامة في شكل عادي، إلا يوم الجمعة سيأتي لامعاً براقاً، وورد عنه صلى الله عليه وسلم أنه سيؤتي بالدنيا يوم القيامة في شكل امرأة عجوز شعرها أشعث وأسنانها زرقاء وشكلها قبيح. وقال صلى الله عليه وسلم: «هل تَرَون ما أرى؟ قالوا: لا. قال: فإني لأرى الفتنَ تقعُ خلالَ بيوتكم كوقع القَطر».[١] وقال صلى الله عليه وسلم في حديث المعراج أن (بالجنة)" أربعة أنهارٍ: نهرانِ باطنانِ ونهرانِ ظاهران. فسألتُ جبريلَ فقال: أمّا الباطنانِ ففي الجنّة وأما الظاهرانِ النيلُ والفُرات"([٢]).وقال صلى الله عليه وسلم في صلاة الكسوف:" ما مِن شيءٍ كنتُ لم أرَهُ إلاّ

وأقطَعَ من قطعك؟ قالت: بلى يا ربّ، قال: فذاك. قال أبو هريرة: اقرَؤوا إن شئتم {فهل عسيتُم إن تَوَلَّيتم أن تُفسدوا في الأرض وتُقطِّعوا أرحامكم}». (يوسف عامر).

[١] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، باب قول النبي ويل للعرب من شر قد اقترب: (٦٩٠٧) حدثنا أبو نُعيم حدثّنا ابنُ عُيينةَ عن الزهريّ ح. وحدّثني محمودٌ أخبرَنا عبد الرزاق أخبرَنا عنِ الزهريِّ عن عُروةَ عن أسامةَ بن زيد رضيَ الله عنهما قال: أشرفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أطم من آطام المدينة فقال: «هل تَرَون ما أرى؟ قالوا: لا. قال: فإني لأرى الفتنَ تقعُ خلالَ بيوتكم كوقع القَطر». (يوسف عامر).

[٢] – وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٣١٣٧) حدثنا هُدْبة بن خالدٍ حدثّنا همام عن قَتادةَ. وقال لي خليفة: حدثّنا يزيدُ بن زُرَيعٍ حدثّنا سعيد و هشامٌ قالا: حدثّنا قتادةُ حدّثنا أنسُ بن مالكٍ عن مالكِ بنِ صَعْصَعةَ رضيَ الله عنهما قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «بَينا أنا عندَ البيت بينَ النائم واليَقْظان ــ وذكرَ يعني رجلاً بينَ الرَّجُلَين ــ فأُتيتُ بطِستٍ من ذَهَبٍ مَلآن حكمةً وإيماناً، فشقَّ منَ النَّحرِ إلى مَراقِّ البطنِ، ثمَّ غُسلَ البطنُ بماءِ زَمْزمَ ثمَّ مُلىءَ حكمةً وإيماناً. وأُتيتُ بدابَّةٍ أبيض دُونَ البغلِ وفوقَ الحمارِ البُراقُ، فانطلَقْتُ معَ جبريلَ حتى أتينا السماءَ الدُّنيا، قيلَ: من هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: من معكَ؟ قال: محمدٌ. قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مَرحباً به، ولنِعمَ المجيءُ جاء. فأتيتُ على آدم فسلمتُ عليه فقال: مَرحباً بك مِن ابنٍ ونبيّ. فأتَينا السماءَ الثانية. قيلَ: مَن هذا؟ قال: جبريلُ. قيل: مَن معكَ؟ قال محمدٌ صلى الله عليه وسلم، قيل: أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيلَ: مَرحباً به ولنِعمَ المَجيء جاء. فأتيت على عيسىٰ ويحيىٰ، فقالا: مَرحباً بكَ مِن أخٍ ونبيٍّ، فأتينا السماءَ الثالثة. قيل: من هذا؟ قيلَ: جبريلُ. قيلَ مَن معكَ؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسل إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، ولنِعمَ المجيءُ جاء. فأتيتُ على

قد رأيتهُ في مَقامي هذا، حتى الجنةَ والنارَ"([1]). وفي رواية أخرى " إني رأيتُ الجنَّةَ، فتناولتُ عُنقوداً ولو أصبتُه لأكلتم منهُ ما بقِيَت الدُنيا. وَأُريتُ النارَ فلم أرَ مَنظَراً كاليومِ قطُّ

يوسفَ فسلمتُ، فقال: مرحباً بكَ من أخ ونبيّ. فأتينا السماءَ الرابعةَ، قيل من هذا؟ قال: جبريل، قيلَ: ومن معك؟ قيل: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيلَ: مَرحباً بهِ ولَنعم المجيءُ جاء. فأتيتُ على إدريسَ فسلمتُ عليه فقال: مَرحباً بك من أخٍ ونبيّ. فأتينا السماءَ الخامسة، قيلَ: مَن هذا؟ قيل: جبريلُ. قيلَ: ومَن معك؟ قيل: محمد. قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مَرحباً به ولَنِعم المجيءُ جاء. فأتَينا على هارون، فسلمتُ عليه، فقال: مَرحباً بك من أخٍ ونبيّ. فأتينا على السماءَ السادسة، قيلَ: مَن هذا؟ قيل: جبريلُ. قيلَ: مَن معك؟ قيل: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ مَرحَباً بهِ، نعم المجيء جاء. فأتيتُ على موسىٰ فسلمت عليه فقال: مَرحباً بكَ من أخ ونبيّ. فلما جاوَزتُ بكى، فقيل: ما أبكاك؟ قال: يارب، هذا الغلامُ الذي بُعِثَ بعدي يَدخُل الجنةَ من أُمَّتِه لفضلُ ممّا يدخلُ من أُمَّتي: فأتينا السماءَ السابعة،قيل: من هذا؟ قيل: جبريل. قيل: من معك؟ قيل: محمد. قيل: وقد أُرسل إليه؟ مَرحباً بهِ ولَنِعمَ المجيء جاء. فأتيتُ على إبراهيم فسلَّمتُ عليه فقال: مَرحباً بكَ من ابنٍ ونبيّ. فرُفِعَ لي البيتُ المعمور، فسألتُ جبريلَ فقال: هذا البيتُ المعمور، يُصلي فيه كلَّ يومٍ سبعون ألفَ مَلك. إذا خرَجوا لم يعودوا إليه آخرَ ما عليهم. ورُفعت لي سِدْرةُ المنتهىٰ، فإذا نبِقُها كأنهُ قِلالُ هَجَر، وورَقَها كأنه آذانُ الفُيول، في أصلها أربعة أنهارٍ: نهرانِ باطِنانِ ونهرانِ ظاهران. فسألتُ جبريلَ فقال: أمّا الباطنانِ ففي الجنّة وأما الظاهرانِ النيلُ والفُرات. ثمَّ فُرِضَتْ عليَّ خمسونَ صلاةً، فأقبلتُ حتّى جئتُ موسىٰ فقال: ما صَنَعتَ؟ قلتُ: فُرِضَت عليَّ خمسون صلاة. قال: أنا أعلم بالناسِ منكَ، عالجتُ بني إسرائيل أشدَّ المعالجة، وإنَّ أمتَكَ لا تُطيق فارجِعْ إلى ربِّكَ فسَلْهُ. فرجَعتُ فسألتُهُ، فجعلَها أربعين، ثمَّ مثله ثم ثلاثين، ثم مثله فجعَلَ عشرين، ثمَّ مثله فجعَل عَشراً. فأتيتُ موسىٰ فقال مثله فجعلها خمساً. فأتيتُ موسىٰ فقال: ما صنعتَ؟ قلتُ: جعلَها خمساً. فقال مثلُه. قلتُ: فسلَّمتُ فنُودي: إني قد أمضيتُ فريضتي. وخففتُ عن عبادي، وأجزي الحَسنة عَشْراً».

وقال هَمام عن قَتادةَ عن الحسن عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم: «في البيتِ المعمور».(يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، باب صلاة النساء مع الرجال في الكسوف: (١٠٣٨) ــ حدّثنا عبدُ الله بنُ يوسفَ قال: أخبرَنا مالكٌ عن هِشامِ بنِ عُروةَ عن امرأتِه فاطمةَ بنتِ المنذرِ عن أسماءَ بنتِ أبي بكرٍ رضيَ الله عنهما أنها قالت: «أتيتُ عائشةَ رضيَ الله عنها زوجَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ــ حينَ خَسفَتِ الشمسُ ــ فإذا الناسُ قيامٌ يُصلُّونَ، وإذا هي قائمةٌ تصلِّي. فقلت: ما للناسِ؟ فأشارت بيدِها إلى السماءِ وقالت: سُبحانَ الله. فقلتُ: آية؟ فأشارتْ أي نعم. قالت: فقمتُ حتى تَجلاّني الغَشيُ، فجعلتُ أَصبُ فوقَ رأسي الماءَ. فلما انصرفَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم حمدَ الله وأثنى عليه ثمَّ قال: ما من شيءٍ كنتُ لم أرَهُ إلاّ قد رأيتهُ في مَقامي هذا، حتى الجنةَ والنارَ. ولَقد أُوحيَ إليَّ أنَّكم تُفتَنونَ في القُبورِ مثلَ ــ أو قريباً من ــ فتنةِ الدَّجّالِ (لا أدري أيتهما قالت أسماءُ)، يُؤتى أحدُكم فيقالُ له: ماعِلمُكَ بهذا

أفظعَ"(١). وفي الحديث أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ. كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِه، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ. وَحَتَّىٰ رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ، حَتَّىٰ مَاتَتْ جُوعاً"(٢). كما ورد في الحديث أنه رأى

الرجل؟ فأما المؤمنُ ــ أو الموقنُ ــ (لاأدري أيَّ ذلك قالت أسماءُ) فيقول: محمدٌ رسول الله صلى الله عليه وسلم جاءنا بالبيناتِ والهدى فأجَبْنا وآمنّا واتَّبعنا، فيقال له: نَمْ صالحاً، فقد علمنا إنْ كنتَ لموقناً. وأما المنافقُ ــ أو المُرتابُ ــ (لا أدري أيتهما قالت أسماءُ) فيقول: لا أدري، سمعتُ الناسَ يقولون شيئاً فقلتهُ». (يوسف عامر).

١ – وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، باب صلاة الكسوف جماعة: (١٠٣٧) ــ حدّثنا عبدُ الله بنُ مَسلمةَ عن مالكٍ عن زيدِ بنِ أسلمَ عن عطاءِ بن يَسارٍ عن عبدِ الله بن عبّاسٍ قال: «انخسفَتِ الشمسُ على عهدِ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فصلَّى رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فقامَ قِياماً طويلاً نحواً من قراءةِ سورة البقرةِ، ثمَّ ركعَ ركوعاً طويلاً، ثمَّ رفعَ فقام قياماً طويلاً وهو دونَ القيام الأولِ، ثم ركعَ ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأولِ، ثم سجد، ثم قام قياماً طويلاً وهو دون القيامِ الأولِ، ثم ركعَ ركوعاً طويلاً وهو دون الركوع الأولِ، ثم رفعَ فقام قياماً طويلاً وهو دون القيام الأولِ، ثمَّ ركعَ ركوعاً طويلاً وهو دونَ الركوع الأولِ، ثم سَجدَ، ثمَّ انصرفَ وقد تجلَّتِ الشمسُ، فقال صلى الله عليه وسلم: إنَّ الشمس والقمرَ آيَتانِ من آياتِ الله لا يَخسِفانِ لموتِ أحد ولا لحياته، فإذا رأيتم ذلك فاذكروا الله. قالوا يارسولَ الله، رأيناك تَناولْتَ شيئاً في مَقامِكَ، ثمَّ رأيناكَ كَعكعتَ. قال صلى الله عليه وسلم: إنـي رأيتُ الجنَّةَ، فتناولتُ عُنقوداً ولو أصبتُه لأكلتم منهُ ما بقِيَت الدُنيا. وأُريتُ النارَ فلم أرَ مَنظَراً كاليومِ قطُّ أفظعَ. ورأيتُ أكثرَ أهلِها النساءَ. قالوا: بمَ يارسول الله؟ قال: بكفرهِنَّ. قيل: يكفرنَ بالله؟ قال: يكفرنَ العشيرَ، ويكفرنَ الإحسانَ، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهرَ كلَّهُ ثمَّ رأتْ منكَ شيئاً قالت: مارايتُ منكَ خيراً قط». (يوسف عامر).

٢ – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم:(٢٠٥٢)حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللّهِ بْنُ نُمَيْرٍ. ح وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ نُمَيْرٍ. وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي. حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: انْكَسَفَتِ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللّهِ. يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللّهِ. فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا انْكَسَفَت لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ. فَقَامَ النَّبِيُّ فَصَلَّىٰ بِالنَّاسِ ستَّ رَكَعَاتٍ بِأَرْبَعِ سَجَدَاتٍ. بَدَأَ فَكَبَّرَ. ثُمَّ قَرَأَ فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ. ثُمَّ رَكَعَ نَحْواً مِمَّا قَامَ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الأُولَىٰ. ثُمَّ رَكَعَ نَحْواً مِمَّا قَامَ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ. ثُمَّ رَكَعَ نَحْواً مِمَّا قَامَ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ. ثُمَّ انْحَدَرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ. ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ أَيْضاً ثَلاَثَ رَكَعَاتٍ. لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ إِلاَّ الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا. وَرُكُوعُهُ نَحْواً مِنْ سُجُودِه. ثُمَّ تَأَخَّرَ وَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ خَلْفَهُ. حَتَّىٰ انْتَهَيْنَا. (وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَتَّى انْتَهَىٰ إِلَى النِّسَاءِ) ثُمَّ تَقَدَّمَ وَتَقَدَّمَ النَّاسُ مَعَهُ. حَتَّىٰ قَامَ فِي مَقَامِه. فَانْصَرَفَ حِينَ انْصَرَفَ، وَقَدْ آضَتِ الشَّمْسُ. فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللّهِ. وَإِنَّهُمَا لا

امرأة عاهرة رآها في الجنة وهي التي سقت الكلب. وظاهر أن اتساع الجنة والنار كما هو في أذهان العامة لا يمكن أن تتسع له هذه المسافة " أي ما بين أسوار الكعبة ". وجاء في الحديث أن النبي قال:«حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ. وَحُفَّتِ النَّارُ بالشَّهَوَاتِ».[1] ثم إن الله أمر جبريل أن ينظر إلي الاثنين، وفي الحديث أن البلاء حين ينزل يتعالج معه الدعاء، وفي الحديث أيضاً أن الله خلق العقل وقال له: تقدم، فتقدم. ثم قال له ارجع، فرجع. وفي الحديث أن هذين الكتابين من عند الله تعالي. ... الخ. وفي الحديث أن الموت سيأتي يوم القيامة في شكل نعجة، وستذبح ما بين الجنة والنار، وقال الله أننا أرسلنا روحنا إلي مريم فتجسدت أمامها في شكل رجل، ويثبت من الحديث أن جبريل كان يُمَثَّل أمام النبي صلى الله عليه وسلم، ويتحدث معه، ولم يكن يراه أحد. وفي الحديث أن القبر يتمدد ليصبح سبعين ذراعاً أو يضيق حتى تختلف أضلاع الميت. وفي الحديث[2] أن الملائكة تحضر

يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ (وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لِمَوتِ بَشَرٍ) فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْ ذٰلِكَ فَصَلُّوا حَتَّىٰ تَنْجَلِيَ. مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هٰذِهِ. لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ. وَذٰلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا. وَحَتَّىٰ رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ. كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ. وَحَتَّىٰ رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ، حَتَّىٰ مَاتَتْ جُوعاً. ثُمَّ جِيءَ بِالْجَنَّةِ، وَذٰلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّىٰ قُمْتُ فِي مَقَامِي، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ لاَ أَفْعَلَ. فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هٰذِهِ». (يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد فى مسلم: (٧٠٧٩) ـــ حدثنا عَبْدُ اللّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ وَ حُمَيْدٍ، عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «حُفَّتِ الْجَنَّةُ بِالْمَكَارِهِ. وَحُفَّتِ النَّارُ بِالشَّهَوَاتِ». (يوسف عامر).

[2] – ورد فى مسند الإمام أحمد بن حنبل: (١٨١٨٦) حدثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا أبو معاوية قال: حدثنا الأعمش عن منهال بن عمرو وعن زاذان عن البراء بن عازب قال: «خرجنا مع النبيّ صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار، فانتهينا إلى القبر ولم يلحد، فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم وجلسنا حوله، وكان على رؤوسنا الطير، وفي يده عود ينكت في الأرض، فرفع رأسه فقال: استعيذوا بالله من عذاب ـــ مرتين أو ثلاثاً ـــ، ثم قال: إن العبد المؤمن إذا كان في انقطاع من الدنيا وإقبال من الآخرة نزل إليه ملائكته من السماء، بيض الوجوه، كأن وجوههم الشمس، معهم كفن من أكفان الجنة، وحنوط من حنوط الجنة، حتى يجلسوا منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت عليه السلام، حتى يجلس عند رأسه فيقول: أيتها النفس الطيبة اخرجي إلى مغفرة من الله ورضوان، قال: فتخرج تسيل كما تسيل القطرة من في السقاء، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين حتى يأخذوها، فيجعلوها في ذلك الكفن وفي ذلك الحنوط، ويخرج منها كأطيب نفحة مسك وجدت على وجه الأرض،

إلي القبر، وتسأل الميت، وأن عمل الميت يتجسم ويأتي أمامه، وأن الملائكة تأتي في حالة النزع ومعها قماش من الحرير، وتضرب الملائكة الميت بحراب من حديد، ويصيح الميت ويسمع صياحه كل الأشياء من المشرق إلي المغرب. وجاء في الحديث أنه عندما يأتي الميت إلي القبر تبدو له الشمس وهي تغرب، فينهض جالساً ويقول: انتظري حتى

قال: فيصعدون بها فلا يمرون ــ يعني بها ــ على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الطيب، فيقولون: فلان بن فلان بأحسن أسمائه التي كانوا يسمونه بها في الدنيا، حتى ينتهوا بها إلى السماء الدنيا، فيستفتحون له فيفتح له فيشيعه من كل سماء مقربوها إلى السماء التي تليها، حتى ينتهي به إلى السماء السابعة، فيقول الله عزّ وجلّ: اكتبوا كتاب عبدي في عليين، وأعيدوه إلى الأرض فإني منها خلقتهم وفيها أعيدهم ومنها أخرجهم تارة أخرى، قال: فتعاد روحه في جسده، فيأتيه ملكان فيجلسانه، فيقولان له: من ربك؟ فيقول: ربي الله، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول: ديني الإسلام، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول: هو رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيقولان له: وما علمك؟ فيقول: قرأت كتاب الله فآمنت به وصدقت فينادي مناد في السماء إن صدق عبدي، فافرشوه من الجنة، وألبسوه من الجنة، وافتحوا له باباً إلى الجنة، قال: فيأتيه من روحها وطيبها، ويفسح له في قبره مد بصره، قال: ويأتيه رجل حسن الوجه، حسن الثياب، طيب الريح، فيقول: أبشر بالذي يسرك هذا يومك الذي كنت توعده، فيقول له: من أنت؟ فوجهك الوجه يجيء بالخير، فيقول: أنا عملك الصالح، فيقول: ربّ أقم الساعة حتى أرجع إلى أهلي ومالي، قال: وإن العبد الكافر إذا كان في انقطاع من الدنيا، وإقبال من الآخرة، نزل إليه من السماء ملائكته سود الوجوه، معهم المسوح، فيجلسون منه مد البصر، ثم يجيء ملك الموت حتى يجلس عند رأسه، فيقول: أيتها النفس الخبيثة، اخرجي إلى سخط من الله وغضب، قال: فتفرق في جسده، فينتزعها كما ينتزع السفود من الصوف المبلول، فيأخذها، فإذا أخذها لم يدعوها في يده طرفة عين، حتى يجعلوها في تلك المسوح، ويخرج منها كأنتن ريح جيفة وجدت على وجه الأرض، فيصعدون بها، فلا يمرون بها على ملأ من الملائكة إلاّ قالوا: ما هذا الروح الخبيث؟ فيقولون: فلان ابن فلان، بأقبح أسمائه التي كان يسمى بها في الدنيا، حتى ينتهي به إلى السماء الدنيا، فيستفتح له فلا يفتح له، ثم قرأ رسول الله {لا تفتح لهم أبواب السماء ولا يدخلون الجنة حتى يلج الجملة في سم الخياط} فيقول الله عزّ وجلّ: اكتبوا كتابه في سجين في الأرض السفلى، فتطرح روحه طرحاً، ثم قرأ {ومن يشرك بالله فكأنما خرّ من السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح في مكان سحيق} فتعاد روحه في جسده، ويأتيه ملكان فيجلسانه فيقولان له: من ربك؟ فيقول: هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما دينك؟ فيقول هاه هاه لا أدري، فيقولان له: ما هذا الرجل الذي بعث فيكم؟ فيقول هاه هاه لا أدري، فينادي مناد من السماء، إن كذب فافرشوا له من النار، وافتحوا له باباً إلى النار، فيأتيه من حرها وسمومها ويضيق عليه قبره، حتى تختلف فيه أضلاعه، ويأتيه رجل قبيح الوجه قبيح الثياب منتن الريح، فيقول: أبشر بالذي يسوءك هذا يومك الذي كنت توعد، فيقول: من أنت؟ فوجهك الوجه الذي يجيء بالشر، فيقول: أنا عملك الخبيث، فيقول: ربّ لا تقم الساعة». (يوسف عامر).

أصلي. وجاء في الحديث كثيراً أن الله سيتجلى للناس في صور مختلفة، وأن الرسول صلى الله عليه وسلم سيُمثل أمام الله تعالي وهو جالس علي كرسيه، وأن الله سيكلم البشر بالمشافهة وغير ذلك من الأحاديث الكثيرة التي لا يمكن إحصاؤها.

ومن يري هذه الأحاديث يضطر إلي التسليم بأمر من ثلاثة أمور، فإما يأخذ المعني الظاهر، وفي هذه الحالة سيعترف بعالم سبق أن بينا ماهيته، (يعني عالم المثال) وهذه هي الصورة التي تتطابق مع قاعدة أهل الحديث. وقد أشار إلي ذلك السيوطي، وهذا هو رأيي أنا أيضاً، وهذا هو الدين. أو أن يسلّم بأن هكذا ستكون الأحداث في حاسة الرائي، وأنها ستبدو له هكذا وإن لم يكن لها وجود خارج حاسته، وما جاء في القرآن الكريم من أن السماء ستأتي يوم القيامة في شكل دخان فسره عبد الله بن مسعود علي المعني القريب بأن قحطاً سيحل بالناس بحيث تبدو السماء لمن ينظر إليها كأنها دخان بسبب الجوع الذي أصابه. وقد روي عن ابن ماجشون، وكان محدثاً مشهوراً، أن الأحاديث التي ورد فيها نزول الله وظهوره معناها أن الله سيحدث تغيراً في نظر المخلوقات بحيث يرون الله وهو ينزل ويتجلى عليهم، ويكلم عباده رغم أن شأنه أنه لا يتغير ولا يتبدل، وسيكون ذلك ليعرف الناس أن الله علي كل شيء قدير.

أما الصورة الثالثة فهي أن كل هذه الأمور وردت بصورة تمثيلية يقصد بها شيء آخر، لكن لن أعد الشخص الذي سيكتفي بهذا الاحتمال من أهل الحق. وقد شرح الإمام الغزالي هذه المقامات الثلاثة في معرض حديثه عن عذاب القبر. وقال أن المعني الظاهر لهذه الأحداث كلها صحيح، وأسرارها الداخلية خافية، لكن هذه الأسرار ظاهرة ومعلومة لدي أرباب البصيرة، فأما الذين لم تنكشف لهم هذه الأسرار لا يجدر بهم أن ينكروا معناها الظاهري، إذ أن آخر درجات الإيمان هي التسليم والإقرار.

ثم شرح في أبواب متفرقة الوحي والمعراج ورؤية الملائكة ولقاء الأنبياء والبراق وسدرة المنتهي وغيرها في نفس هذا العالم، وقد خصصنا باباً قادماً لعالم الرؤية أثبتنا فيه أنه يمكن الاستدلال بالآيات والأحاديث علي صحة هذا المبدأ.

وبنظرة علي كل هذه النظريات يمكن القول بسهولة أن درجتها ليس درجة الدلائل والبراهين، بل إن الحقيقة هي أن درجة كل نظرية منها لا تعدو استبعاد الاستحالة التي تبدو للعقل في التسليم بظاهر هذه الأشياء، أو علي الأقل تقليلها، ولهذا فإن كل شاهد من هؤلاء أقام نظريته التمثيلية عن طريق تجاربه ومشاهداته، وطبقاً لفهمه وطريقة تفكيره،

بحيث ترتسم في الذهن الإنساني صورة للأمور الخارجة عن التجربة والمشاهدة قياساً عليها بحيث لا يجرؤ علي إنكارها رفضها واستبعادها، ويطمئن القلب الحائر والعقل القاصر إلي حد ما، وإلاّ فكما هو واضح كيف يمكن الاستشهاد بالحاضر علي الغائب، وبالمحسوسات علي غير المحسوسات، وبما هو قابل للتجربة علي الحقائق التي لا يمكن تجربتها وبالقوانين الجسمانية للفطرة علي الخصائص الروحانية.

* الشخص الذي تحرر ولم يفك هذا اللغز بالحكمة

المعجزات

المعجزة في نظر علماء الكلام لدينا هي الأمر الذي يظهره الله في الدنيا تصديقاً لدعوة نبي من الأنبياء، ولها عدة شروط منها: أن تكون خارقة للعادة، وكأن التعريف العام للمعجزة ينبغي أن يكون أن المعجزة هي: الأمر الخارق للعادة والذي يصدر من الله تعالي تصديقاً للنبي. أما الإشكال الحقيقي في إثبات المعجزة فهو أن عالم الكائنات يقوم علي نظام خاص، ولكل شيء علة ولكل حادثة سبب، ولا يوجد شيء بغير علة أو سبب، ويبدو التلازم في سلسلة العلة والمعلول في الأشياء لدرجة أن أحدهما لا يمكن أن ينفك عن الآخر، ولكل شيء خاصيته التي لا تنفصم عنه، كما أن الشيء الذي لا يحمل خاصية شيء آخر لا يمكن أن تصدر عنه هذه الخاصية، فالنار تحرق، والبحر يجرى، والشجرة ساكنة، والحجر لا يمشي، وفي الشمس نور، والحصي لا ينطق، والسم قاتل والإنسان يموت فلا يحيا، فإذا ما قال شخص أن النار لم تحرق، وأن البحر توقف عن الجريان فجأة، وبدأت الشجرة تمشي والحجر يتحرك، وحل الظلام في الشمس، ولم يمت الإنسان رغم تناوله السم، وأن الإنسان عاد إلي الحياة بعد موته بإشارة، فإنه بذلك يقلب في الحقيقة نظام الفطرة الذي تقوم الدنيا عليه رأساً علي عقب، ويريد تمزيق نسيج العلل والأسباب، وينكر علانية خواص وطباع تلك الأشياء والتي ثبتت بالتجربة مرات عديدة ولم تختلف أبداً.

والسؤال الذي ينشأ عن ذلك هو هل نظام الفطرة هذا، وسلسلة العلل والأسباب هذه، وهذه الخواص والطبائع لا تقبل النسخ إلي هذا الحد بحيث لا يمكن حدوث أي تغير أو تبديل فيها ؟! هناك جماعة من الفلاسفة والحكماء يرون أن هذا النظام وهذه السلسلة وهذه الأصول لا يمكن مخالفتها أو تغيرها، بينما تري جماعة من حكماء الإسلام مثل " الفارابي وابن سينا وابن مسكويه " وغيرهم أن نظام الفطرة وسلسلة العلل والأسباب وإن كان لا يمكن تغيرها أو تبديلها، وأنه لا يمكن أن يوجد شيء في الدنيا بغير علة عادية أو سبب طبيعي، لكن ليس صحيحاً أن المعجزات مستقلة عن هذا النظام وهذه السلسلة، وأنها تخالف قانون الفطرة، وإنما هي الأخرى نتائج لأسباب وعلل طبيعية وإن كنا عاجزين عن إدراك تلك العلل والأسباب والإحاطة بها، وأنها إلي الآن خافية عن أنظارنا. ومن الممكن أن تتسع دائرة العلـم الإنساني بحيث يمكن فهم تلك العلل والأسباب. ويقول المعتزلة أننا نسلم بأن هناك نظاماً فطرياً خاصاً في هذا العالم، وأن هناك سلسلة للعل والمعلولات في

الموجودات، وأن للأشياء خواصاً وطبائعاً، لكننا لا نسلم بشموليتها إلي درجة لا يمكن معها تحطيمها بحال من الأحوال أو بطريقة من الطرق، فنحن نعرف حتى اليوم أن الحيوانات تولد من النطف، والطيور من البيض، والنباتات من الحبوب، إلا أنه من الممكن أن تخلق هذه الأشياء في المستقبل بغير وسائل الحبوب. المهم أن خرق الفطرة كلية محال، بينما يعبر الأشاعرة عن اعتقادهم بأنه لا توجد في العالم قوانين فطرية، كما لا توجد في الأشياء أنفسها خواص، وإنما يخلق الله كل فعل يصدر عن كل شيء في حينه، وقد سخر القائلون بالعقل من عقيدة الأشاعرة هذه، بل وسخر منها أرباب الظواهر أيضاً ([1])، بينما الحقيقة أنها ليست كذلك بحيث نحكم عليها بالسخرية، ولذا سنورد تفصيلها فيما بعد.

ويكتب الإمام الرازي عن تلك الجماعة من الفلاسفة والحكماء الذين يؤمنون بأن قوانين الفطرة لا يمكن مخالفتها، وبناءاً عليه فإنهم ينكرون المعجزات والخوارق إنكاراً قطعياً، بأن أصل عقيدة هؤلاء الفلاسفة أنهم يعترفون بأصول ومبادئ متعددة يصبح من الواجب عليهم طبقاً لها التسليم بخوارق الفطرة مثلاً: ـــ

١. هم يقولون بـــ " التولد الذاتي " بمعني أن ولادة وخلق الأحياء يكون طبقاً لنظام خاص، فتتحول قطرة الماء إلي دم، والدم إلي لحم، وبالتدريج تنمو في بطن الأم خلال مدة الحمل، ثم يكون وضع الحمل بعد مدة معينة، ثم تكون في شكل كائن حي قوي الجسم بعد أن يمر بفترة الرضاعة والطفولة شيئاً فشيئاً، كما أنها تبدو فجأة في هذا الشكل وهذا الهيكل بغير أن تطوي هذه المراحل البينية. يقول هؤلاء الفلاسفة أنه من مرحلة قطرة الماء وحتى مرحلة الشباب والقوة هذه تقضي مجموعة العناصر هذه سنوات طويلة، وسبب ذلك الحاجة إلي نوع خاص من اعتدال التركيب من أجل خلق قابلية الحياة في هذه العناصر، وحين يتولد هذه الاعتدال في التركيب تتولد الحياة، وبناءاً علي هذا فإنه إذا تولد مثل هذا الاعتدال في مجموعة من العناصر والتي لديها صلاحية تقبل الحياة الإنسانية، فإنها يمكن أن تتحول من جسد طيني إلي شاب قوي بغير أية وسائط طبيعية بنيته من نطفة حمل، ودم ولحم،

[1] – وقد أنكر العلامة ابن تيميه في " الرد على المنطقيين "، وابن حزم الظاهري في " فصل في الملــل والنحل " هذا الأمر تماماً، وسخر منه كذلك مؤسسو علــم الكلام الأردي، وقد أطلق أستاذي رحمــه الله تعالى في كل مؤلفاته عن علم الكلام على تصور الأشاعرة هذا لفظ " حماقة ".

ووضع حمل ورضاعة وطفولة وغيرها، مثلما تظهر الديدان وتحيا في فصل المطر من الطين اللازب المتعفن عند توفر حالة الاعتدال الخاصة فيه، وهذا هو " التولد الذاتي ".

وطبقاً لهذا التفصيل فقد ثبت لديهم أنه من الممكن مخالفة سلسلة الأسباب التي تحدث في الدنيا من أجل خلق ذي روح، وإذاً فيمكن للعصا أن تصير حية وثعباناً، ويعود الميت إلي الحياة، ويتحول الجبل إلي ذهب، والشكل الفطري لصيرورة العصا إلي ثعبان أنها تتحول أولاً إلي طين لازب، ويصل هذا الطين إلي داخل ثعبان في شكل غذاء، ثم يتحول هذا الغذاء إلي صورة أخرى ويصبح صغيراً لهذا الثعبان، وطبقاً لمبدأ " التولد الذاتي " أن تتولد في العصا صلاحية التحول إلي ثعبان بغير وسائط بنيوية.

٢. من الواضح أن هنـــاك بعض الحوادث التي تقـــع في الدنيا هي بشكل أو بآخر بمثابة اسم لتغيرات " المادة الأولية "، فالمادة الأولية لعناصر هذا العالم كله واحدة، وبناءاً عليه فإن كان السبب المؤثر في مئات آلاف من الاختلافات والتنوعات التي تبدو لنا في الأشكال والأنواع والخواص علي سبيل الافتراض هو المادة، فإنه من الضروري أن تكون هناك خاصية واحدة وشكل واحد، وعندئذ سنقول بأن هذا الاختلاف وهذا التنوع يحدث بسبب قابلية المادة للاختلاف، لكن القابلية هي الانفعال والتأثر، فما هي العلة الفاعلة والسبب المؤثر ؟ يقول الفلاسفة أنه دوران الأجرام الفلكية وجريانها، لكنهم مع ذلك يسلمون أنه لا حد لدوران الأجرام الفلكية هذا! ولا لاختلاف الأشكال، بل ولا تخضع كذلك لأي من قوانين الفطرة، كما لا نعلم نحن أيضاً عنها شيئاً، وإذاً فما هو المثال من عجائب القدرة وخوارق الفطرة الذي يؤكد صحة هذا المبدأ، والذي يدعون استحالته.

٣. إن ما يحدث في العالم إما أن يكون لسبب مؤثر أو بلا سبب مؤثر، وفي الحالتين علينا أن نعترف بخرق العادة، فإن قلت بأن هذه الحوادث تقع بلا سبب مؤثر، فكأنك سلّمت بخرق العادة، وعندئذ فليس هناك في هذه الدنيا أمر مستبعد أو شيء عجيب يستحيل وقوعه أياً كان. وإن قلت أنها تقع نتيجة سبب مؤثر فلن يخلو الأمر عن حالتين: إما أن يكون هذا السبب المؤثر والفاعل صاحب سلطان وإرادة، وهذه الحوادث والتأثيرات كلها تصدر عن إرادته وسلطانه، أو أنه مسلوب الإرادة [illegible] وأن هذه الحوادث والتأثيرات تصدر عنه هكذا بشكل لا إرادي

واضطرار فطري مثلما يصدر النور عن الشمس، والحرارة عن النار والبرودة عن الثلج. وليس هناك استحالة صدور الخوارق والمعجزات في الحالة الأولي ؛ لأن الشيء يقع كلما أراد ذلك المدبر والمؤثر، لا يمنعه أحد. وأما في الحالة الثانية: فمن الواضح أن هذه التأثيرات كلها تصدر عن ذلك السبب المسلوب الإرادة منذ الأزل بطريقة واحدة مثلما يصدر النور عن الشمس، إذ كيف في مثل هذه الحالة تصدر الأشياء ذات الأشكال والصور والخواص المتجددة في كل لحظة وفي كل آنٍ من سبب مؤثر قديم وأزلي واحد عام ؟! سوف نقول أن العلة بلا شك واحدة وقديمة، ولكن يجب أن تتولد في المعلول أيضاً مادة الاستعداد والصلاحية جنباً إلي جنب مع العلة، وهذا الاستعداد وهذه الصلاحية هي نتيجة لاختلاف أشكال الدوران الفلكي، لكن قيل الآن بأنه لا حد للأشكال الفلكيةِ لديك، ولا هي محدودة أو محكومة بقاعدة أو بأصول معينة، وبناءاً عليه فإذا كان اختلاف حوادث العالم وتنوعها بسبب اختلاف الدوران الفلكي وتنوعه، ففي هذه الحالة كيف لا يمكن أن يكون الشيء الذي يبدو لك خلاف الفطرة وخلاف العادة هو نتيجة لشكل فلكي خاص. وخلاصة ما سبق أن حكماء الإسلام أقاموا الأدلة التالية علي إمكانية وقوع المعجزات.

١ــ التأثيرات الفلكية:

السبب الأصلي في إنكار المعجزات أنه ليس أمامنا أية علة مادية لحلها وتحليلها، ونحن نريد أن نشرح الأمور كلها بالأسباب والعلل المادية والطبيعية، لكن الحكماء متفقون علي أن دوران الأفلاك وسير النجوم له أثر كبير علي الأحداث في هذه الدنيا، وأن القوي الفلكية مؤثرة في أحداث هذا العالم، وعندئذٍ فإذا لم نستطع تعليل شيء يبدو ظاهرياً عجيبـاً وغريباً طبقاً للأسباب والعلل المادية والطبيعية، أفلا يمكن أن تكون أسبابه فلكية وسماوية.

٢ــ العلل الخفية:

إننا نسلم بأن الأحداث كلها تقع بناءاً علي سبب من الأسباب الطبيعية الأخرى، لكن ليس من الضروري أن نحيط بهذا السبب الطبيعي، وفي الدنيا عشرات من أسرار الطبيعة لم نستطع تحليلها حتى الآن، وبناءاً عليه فمن الممكن أن يكون وقوع المعجزات طبقاً لأسباب طبيعية أيضاً، لكن أسبابها وعللها خافية عن أنظارنا إلي الآن. علي سبيل المثال: صام الأنبياء أربعين يوماً متصلة، ولم يتناولوا حبة واحدة في هذه الفترة، ومع

ذلك لم تتأثر قواهم الجسمانية، ويبدو هذا الأمر عجيباً في الظاهر، لكن ليس بعيداً عن الأسباب الطبيعية، فنحن لماذا نجوع ؟ لأن قوي الهضم لدينا تهضم الغذاء ثم ترسله إلي مختلف أجزاء الجسم، وبعدها لا يبقي لديها عمل تقوم به، وبالتالي عليها أن تبحث عن عمل، ومع ذلك فإننا نري يومياً الأثر الذي يحدثه المرض أو الخوف أو الحزن علي الحسم، بحيث تتعطل قوي المعدة لأيام عديدة ولا تقوم بالعمل المنوط بها، ولهذا فلا يصيب الجوع الجسم، وبناءاً عليه فإذا حدث مثل هذا مع نفس أخرى انقطعت علاقتها بالجسمانيات، وانهمكت بشدة مع الروحانيات فمن الممكن أن تتعطل قواها الجسمانية، وتظل بغير طعام لفترة، وعلي نفس المنوال يمكن شرح وتفسير المعجزات الأخرى.

٣ــ القوة الكمالية:

إننا كلما طالعنا بعمق الخصائص النفسية للناس جميعاً في هذا العالم بدت لنا اختلافات عجيبة بينها جميعاً، فواحد بطيء الفهم غير فطن، وآخر ذكي فطن، وواحد مغرم بالكلام، وآخر بالإنصات، واحد يعشق العلم، وآخر يعاديه، واحد تتجرف أمام علو همته وارتفاع معنوياته جبال المشاكل كأنها الزبد، وآخر يري القشة جبلاً لهمته المثبطة وإرادته الضعيفة، واحد قوي الذاكرة لدرجة لا تفوته معها حتى الأشياء العادية البسيطة، وآخر لا يتذكر حتى الأحداث الجسام، ثم إن هناك من بين عشاق العلم من يهوي الأدب والآخر مغرم بالعقليات، وثالث يستمتع بالنقليات. فإذا ما نظرت إلي القوي الشهوانية لوجدت واحداً يهوي المركَب وآخر مغرم بالملبس والمظهر، وواحداً يهوي الطعام وآخر يستمتع بجمع المال بينما، يستمتع بإنفاقها ثالث، وواحداً حليماً بطبعه وآخر شعلة من الغضب، واحداً متنوعاً بفطرته وآخر حريصاً طماعاً، واحداً سليط اللسان لكنه ليس سئ السلوك، وآخر جاداً وقوراً في الظاهر لكنه سئ الأطوار أحمق في الخفاء. ومن بين هؤلاء أيضاً مئات من المدارج والمراتب في كل وصف وخاصية. المهم أن مظاهر الصفات والخصائص الإنسانية متعددة ومتنوعة إلي درجة تخرج عن الحصر والعد، فإذا تمعنت علمت أن الخصائص الموجودة في نفس كل إنسان تجعلنا لا نعجب لما يصدر عن هذه النفس من أعمال وآثار طبقاً لهذه الخصائص. لكن الأعمال والآثار الأخرى والتي لا توجد خصائصها في هذه النفس نعجب لها غاية العجب، بل إن الإنسان إذا لم ير بنفسه مثل هؤلاء الأشخاص يصبح من الصعب تصديق هذه الخصائص. إن التضحية بكل شيء في سبيل السخاء والكرم أمر فوق البشرية في نظر البخيل، والشخص المحب للدنيا

والمغرم بالجاه والنفوذ يعجب كثيراً إذا ما رأي شخصاً قنوعاً زاهداً متواضعاً، وإذا ما ذكر أحد لأصحاب الذاكرة الضعيفة أن الإمام البخاري كان يحفظ ستمائة ألف حديث، وأن أديباً ضريراً من الأندلس كان يحفظ عشرين جزءاً من " كتاب الإيمان " فلن يصدق، وستبدو قصص قوة العزم والإرادة لدي " تيمورلنك " و " ظهير الدين بابر " و " هينبال " و " نابليون " لأصحاب الإرادة الضعيفة والعزم الواهن معجزات، إذ أن ضعيف الإرادة لا يستطيع حتى التحكم في أولاده وأعزته وخدمه، لكن أصحاب الإرادة والعزم غير العادي يسيطرون ويستولون علي آلاف ومئات الآلاف من البشر إلي درجة يصير هؤلاء بين أيديهم كأنهم جسد بلا روح، وهذا هو حال اختلاف الخصائص الأخرى.

والسؤال الآن هـو من أين هذا الاختلاف طالما أن ماهية النفوس الإنسانية واحدة، ولهذا السؤال إجابتان، الأولي: هي أن جوهر كل نفس مختلف عن الأخرى، ولهذا فإن الخصائص والأفعال التي تصدر عن نفس ما لا تصدر عن نفس أخري. والثانية: هي أن هناك اختلافاً في المزاج في التركيب العنصري لكل جسم، وهو ما يجعل خصائص نفس لا تتوفر في نفس أخرى، علي أية حال أي الإجابتين اخترت فأنت مضطر إلي الاعتراف والتسليم بأن هناك بعض النفوس التي تصدر عنها أعمال وتصرفات غريبة وعجيبة بسبب وجود شيء خاص من قوتها الجسمانية أو الروحانية، وهذه الأعمال والتصرفات لا تصدر من القوة الجسمانية أو الروحانية لعامة الناس، لذا فهم يرونها بعيدة الحدوث غير مفهومة. تماماً مثلما يعجب البليد من تصرفات الفطن، وضعيف الذاكرة من مقدرة قوي الذاكرة، والحريص الطماع من أحوال القانع الزاهد، وضعيف الإرادة من قوي الإرادة مضبوط العزيمة. ولكن لأن النفوس التي تملك قوة المعجزات هذه نادرة الوجود، فإن التعجب والاستغراب من خصائصها وآثارها يكون بشكل عام أكثر من الطبيعي.

٤ــ القوة النفسية:

كل إنسان يحرك كل عضو من أعضاء جسمه كما يريد، وكأن هناك قوة مسيطرة علي تكوين قالبه الجسماني كله، وهذا الجسم ينفذ أحكام هذه القوة وأوامرها إلي درجة لا ينحرف معها عن طاعته ولو قدر شعرة، وهذا التصرف والعمل تقوم به كل نفس إنسانية بداخلها، وهو في متناول قوة النفوس العادية والبسيطة، لكن النفوس الأكثر قوة ومقدرة تُخضع النفوس والأجسام الأخرى جنباً إلي جنب مع أجسامها، لدرجة أن التي توفر لها

الجزء المعجز في الكمال يكون هذا العالم المادي كله بالنسبة لها كمثل الجسم، وتتصرف في هذا الجسم الرائع العظيم مثلما يتصرف الإنسان العادي في جسمه.

٥ـ التأثيرات النفسانية:

من الأمور التي نشاهدها كل يوم أن التغيرات العاطفية التي تحدث في النفس الإنسانية تؤثر علي الجسم المادي لها، فإذا ما رأي شخص ما شيئاً بالليل، وتصور رعبه خاف وصرخ، أو خرّ فاقداً وعيه. ويرتعد الإنسان خوفاً وهو يتسلق غصن شجرة ضعيف أو يسير علي حافة سقف أو يمر فوق جسر رقيق واهٍ من الخشب، وترتبك يداه وقدماه، فيسقط، ويصفر الإنسان من الغضب والخجل، ويصيبه الغضب إذا ما تصور حادثة مؤسفة، وتتولد الحرارة في بدنه من الغضب، ويصيبه من الحرارة العرق، بل إن الإنسان يخاف من مجرد الوهم، وأكثر من هذا أنه يقع فريسة للمرض، ويصل الأمر به إلى الموت أحياناً. فإذا ما تأملت هذه الأحداث كلها عرفت كيف تؤثر الأمور النفسانية علي الجسم المادي، وهذا هو حال النفوس الضعيفة، لكن أصحاب النفوس القدسية يؤثرون بأمورهم النفسانية في أجسام الآخرين، ويُحدثون فيها تغيرات وتصرفات عجيبة، وهذه الأدلة الأخيرة هي التي يقدمها الناس باسم " التنويم المغناطيسي ".

إن المعتزلة والأشاعرة يسلمون بخرق العادة ومخالفة الطبيعة، وطبقاً لما نفهم من عباداتهم فإنه لا يوجد اختلاف بين الفريقين، وإذا كان هناك اختلاف فهو في أصل النظرية فقط، فالمعتزلة يرون أن الخاصية والأثر، والعلة والمعلولية السببية توجد كلها في الأشياء ذاتها، أي أن هناك شيئاً بداخل طبيعة الأشياء يجعل من شيء ما علة وسبباً، ومن شيء آخر معلولاً ومسبباً، ولقد وضع الله من الأزل الإحراق في طبيعة النار، والبرودة في طبيعة الثلج، هذه هي طبيعة الأشياء والتي تظهر منها خاصية ما، ولذا يعتقد المعتزلة أن صدور الإحراق عن النار والبرودة عن الثلج سببه هو أن شيئاً ما في طبيعة وتكوين النار، وطبيعة وتكوين الثلج يجعلنا نشعر بالإحراق في النار والبرودة في الثلج. وحين تظهر أية معجزة نبوية فإنه يتم إيقاف وتعطيل هذه الطبيعة أو خاصيتها أو تغيرها لفترة من الزمن.

ويقول الأشاعـــرة ليس هناك شيء بداخل طبيعة الأشياء يصير بسببه شيء ما علة وسبباً، والآخر معلولاً ومسبباً، فلا يوجد شيء في ذات النار يؤكد أنه سبب الحرارة، ولا البرودة موجودة بداخل طبيعة الثلج، وإنما الأحاسيس المختلفة التي نشعر بها تجاه

الأشياء المختلفة مثل الحرارة من شيء ما، والبرودة من شيء ما، والقسوة من شيء ما واللين من شيء ما، والإحراق من شيء ما والبرد من شيء ما، إنما هي أحاسيس خاصة بنا نحن، نشعر بها في الأشياء بإرادة الله. فلقد تعودنا إننا عندما نرى شيئاً يحدث بعد شيء أن نظن أن أحدهما علة والآخر معلولاً، وإلا فإن الحقيقة هي أنه لا توجد علاقة فطرية وطبيعية للزوم العلة للمعلول، إذ لو تبدلت الإرادة الإلهية لشعرنا بالبرودة في النار وبالحرارة في الثلج، ولا يوجد في ذات النار والثلج شيء يجعل هذا التغيير مستحيلاً، ولهذا فإن وقوع المعجزة يكون طبقاً للإرادة الإلهية.

وقد كتب العلامة ابن تيميه في " الرد علي المنطقيين " أن مؤسس هذه القضية هو " جهم " والذي تنتسب إليه فرقة " الجهمية "، ثم تبعه في ذلك أبو الحسن الأشعري. وقد شرح العلامة ابن تيميه القضية المذكورة بقوله: " لكن من لا يثبت الأسباب ولعل من أهل الكلام كالجهم وموافقيه في ذلك مثل أبي الحسن الأشعري وأتباعه يجعلون المعلوم اقترن أحد الأمرين بالآخر لمحض مشيئة القادر المريد من غير أن يكون أحدهما سبباً للآخر ولا مولداً له. وأما جمهور العقلاء من المسلمين وغير المسلمين وأهل السنة من أهل الكلام والفقه والحديث والتصوف وغير أهل السنة من المعتزلة وغيرهم فيثبتون الأسباب، ويقولون كما يعلم اقتران أحدهما بالآخر يعلم أن في النار قوة تقتضي الحرارة، وفي الماء قوة تقتضي البرودة، وفي العين قوة تقتضي الإبصار، وفي اللسان قوة تقتضي الذوق، ويثبتون الطبيعة التي تسمى الغريزة والبخرة والخلق والعادة ونحو ذلك من الأسماء ".

أوردنا فيما سبق أربعة مذاهب فيما يتعلق بإمكانية خرق العادة وعدم إمكانيته، وهذه المذاهب هي التي تسود مملكة الفلسفة اليوم، ولكننا إذا أمعنا النظر علمنا أن هناك مذهبين فقط في هذا الخصوص، واحد للقائلين بوجود الله تعالي بشكل من الأشكال، والأخرى لمن ينكرون ذلك تماماً، فأما الفرقة الثانية فهي فرقة حكماء الطبيعة أو الماديين، والذين لا يؤمنون بشيء خارج العالم المادي، ويعتقدون أن الكائنات كلها هي مظاهر للتأثير والتأثر المتبادل بين ذرات المادة، وأنها نتائج لسلسلة العلل والمعلول، والأسباب والمسببات والآثار والخواص. ومن الواضح أنه لا يمكن لهذه الجماعة أن تؤمن بالمعجزة وخرق العادة، ومن يريد أن يثبت لهم حدوث المعجزة وخرق العادة بشكل مباشر وبطريقة فلسفية فإن محاولاته ستضيع هباءً منثوراً، وإذا ما قدم دليل حدوث خرق العادة بطريقة

عقلية فإن هؤلاء لا يعترفون أصلاً بالأساس الذي تقوم عليه عمارة النبوة والشريعة، أي بالقوة الخالقة العليا. فأي هدف لأصحاب المذاهب ومتبعي الشرائع يمكن تحقيقه من دليل خرق العادة هذا ؟

ولقد أراد الأشاعرة اختيار طريقة إثبات الأمر، أي إثبات إمكانية وقوع المعجزة وخرق العادة أولاً، ثم الاستدلال بالمعجزة وخرق العادة علي النبـــوة، وبالدليل علي النبوة يصبح لدينا دليل علي وجود " القادر المطلق "، وبالتالي دليل علي أحكام شريعته. واختيـــار مثل هذه الطريقة من الاستدلال هو بمثابة جعل " نهر الكنج" يجري إلي الخلف([1]).

* هذا هو الطريق الذي تسلكه إلى تركستان

والطريق الصحيح لمواجهتهم هو أن نثبت وجود الله تعالي أولاً، وبعدها سنثبت النبوة والشريعة وخرق العادة والمعجزة وكل شيء، وطالما لم يقم الأساس علي هذه الصخرة فإن البناء لا يمكن أن يكون قوياً.

التوجيه الفاشل للأسباب الخفية:

والفرقة الثانية هي التي تقول بوجود الله تعالي، وتسلم بالمعجزة أياً كانت الأسباب التي يقدمونها لحدوثها ووقوعها، إنهم في الحقيقة يعترفون بخرق العادة أيضاً، أو يلزمهم التسليم بها، ولا يعفيهم من هذا أن حكماء الإسلام " الفارابي وابن سينا " وغيرهما يقولون أن المعجزة تصدر بناءاً علي أسباب خفية، ولها عللها وأسبابها الطبيعية بداخلها، ولهذا لا يلزم خرق العادة، ولا التغيير في النظام الطبيعي للعالم.

فعندما خرج سيدنا موسى عليه السلام ببني إسرائيل من مصر، اعترضهم في الطريق البحر الأحمر، وجاء الأمر بأن اضرب بعصاك البحر، وفوراً جف البحر، وظهر الطريق، ونزل سيدنا موسى عليه السلام ببني إسرائيل، لكن عندما وضع فرعون قدمه في البحر هو وجيشه عاد البحر إلي حالته الأصلية، ومات فرعون غرقاً مع جيشه. إنهم يفسرون هذا بأن في البحر مداً وجزراً، وعندما وصل سيدنا موسى عليه السلام إلي البحر كانت حالة الجزر، وكان البحر جافاً، ولما توغل فرعون في البحر بدأ المد وغرق، وسنغض الطرف عن الاعتراضات من النقل، والتي تقام علي هذا التفسير من أن التوراة

---

[1] – هذا في الأصل مثل باللغة الأردية.

والقرآن الكريم لم يفسرا هذه المعجزة بهذه الطريقة. والسؤال هو إذا كان الجزر قد حدث وقت وصـــول سيدنا موسى عليه السلام، وحدث المد عندما وصل فرعون، فهل كان حدوث هذا بمحض الصدفة، وهل كان ممكناً أن يحدث عكس ذلك، أي ينجو فرعون ويغرق سيدنا موسى، أم أنه تم إحداث الجزر لسيدنا موسى عليه السلام خاصة، والمد لفرعون خاصة، أم تم تهيئة الأسباب بحيث يصل سيدنا موسى عليه السلام وقت الجزر، وفرعون وقت المد، وأوهم بأن يدلف إلي هذا البحر الخطر دون تفكير ؟ وفي الحالة الأولي لا يلزم التشكيك في المعجزة فقط، بل يلزم التشكيك في النبوة كذلك، وفي الصورة الثانية: لا مفر من التسليم بخرق العادة، ولابد من الإيمان بقدرة الله المطلقة بعد التسليم بخرق العادة.

السبب في خطأ حكماء الإسلام:

الحقيقة أن حكماء الإسلام قلدوا أرسطو، وقبلوا في مسألة العلة نظرية المشائية كلها، أي أن الذات واجبة الوجود هي العلة الأولي، أو هي العلة التامة للعقل الأول، ولا يتخلف المعلول عن العلة التامة، وينتج عنها اضطراراً، ولا دخل لإرادته أو قصده في هذا، وأفضل مثال علي هذا الشمس ونورها، فنور الشمس هو العلة التامة، وسيظهر هذا النور كلما طلعت الشمس، حتى ولو لم يبدو لنا لمانع من الموانع، وصدور هذا النور عن الشمس ليس بإرادة الشمس وقصدها، وإنما يصدر عنها النور جبراً واضطراراً. وبعد خلق العقل الأول أخذ خلق عالم الكائنات كلها يحدث بنـــاءاً علي سلسلة العلل والمعلول البينية، وانتظم العالم كله في نظام بحيث لم يبق للخالق الأول سيطرة مطلقة علي هذا الأمر. وواضح أن متبع هذا المذهب لا يستطيع تحطيم سلسلة العلل والمعلول، ولهذا فهو لا يمكن أن يسلّم بخرق العادة أيضاً، لكن التجربة والمشاهدة تشير إلي وقوع بعض الأحداث التي لا يمكن تفسيرها طبقاً لسلسلة العلل والمعلول الظاهرية، كما لا يمكن لأحد إنكار حدوثها، ولهذا فإنه لا محالة أن يسلّم بهذه الواقعات من جانب (1)، ولأنه يعتقد بأن الله مضطر ومجبور، لذا فإنه من جانب آخر لا يستطيع أن يعزي إليه هذه الأحداث بشكل مباشر، ولأنه لا يمكن أن يحدث شيء بلا سبب أو علة، لذا فإنه بناءاً علي ذلك لا مفر

---

[1] – يقول أبو علي سينا في " الإشارات " وهو أكبر منكر لمسألة خرق العادة هذه: ولكنها تجارب لمـا ثبتت طلب أسبابها، ثم إني لو اقتفيت جزئيات هذا الباب فيما شاهدناه وفيما حكي عمن صـــدقناه لطـال الكلام.

أمامه سوي اللجوء إلي ظلال الأسباب والعلل الخفية، ولكن كما رأيت فيما مضي فإن هذا التفكير ليس آمناً، ولا مناص من التسليم بأن الله قادر مطلق.

لا اختلاف في النتيجة بين الأشاعرة والمعتزلة:

إن الاختلاف الموجود بين الأشاعرة والمعتزلة إنما هو مجرد اختلاف في النظرية فقط، ولا أثر له مطلقاً علي دليل المعجزة وخرق العادة في ذاته، بمعني أن خواص الأشياء وآثارها مودعة في طبائع الأشياء ذاتها، أو أن الله تعالي يخلقها في وقتها هي قضية لا يمكن أن يقام دليل علي إثبات جانب منها ونفي جانب آخر، ولا حاجة لنا بالحديث عنها فيما يتعلق بالمعجزة، ومن الممكن أن يكون أحد جوانبها صحيح، علي أية حال يعتقد الفريقان أن الله تعالي في بعض الأحيان يحطم العادة الجارية للأشياء، ويحدث فيها تغييراً.

السبب في إنكار خرق العادة الإيمان بسلسلة العلل والأسباب:

المهم أن المعجزة بمعني خرق العادة ينكرها فقط ذلك الفريق الذي ينكر وجود الله تماماً، أو يعتقد بأن الله ليس قادراً ولا إرادة له، كما يؤمن إيماناً كاملاً بأن سلسلة العلل والمعلول لا تقبل التحطيم أبداً، ويعتقد أن هذا النظام الكامل للكائنات ما هو إلا نتيجة للتأثير والتأثر المتبادل فيما بينهما، وستعرف إذا أمعنت النظر أن متبعي هذه العقيدة قد سلّموا ببعض الأمور الوهمية الأخرى ضمن هذه العقيدة الباطلة ودون دليل أيضاً ؛ ولذا فإنهم لا يمتلكون الشجاعة لقبول مسألة خرق العادة.

العلم الإنساني لا يحيط بسلسلة الأسباب والعلل:

١. وكأنهم سلموا بأن علل الكائنات وخواص الأشياء التي اكتشفوها تكفي لتسيير نظام الكائنات، ولا حاجة لها بتدخل أحد آخر.
٢. وأنهم قد كشفوا النقاب تماماً عن وجه أسرار الكائنات، واكتشفوا علة كل شيء وخاصيته.

في حين أن ما يعرفه الإنسان قليل للغاية بالنسبة لما يجهله، إذ لم يصل علمه إلا إلي بعض أجزاء الكائنات في اليابس من عالم يسمى " ذهمن" من بين عوالم لا حصر لها في فضاء الكائنات، ولا يحسن به أن يفخر هذا الفخر كله بهذا المبلغ من العلم، بل إن ما يعلمه عن الأشياء التي توصل إليها لا يعدو معرفته بأن هذا الشيء يسير بهذا الشكل، لكن حقيقة أنه كيف يسير ؟، ما هي الاستحالة في أن يسير خلاف ما هو عليه ؟ لا يزال لغزاً

بالنسبة له، وسيظل لغزاً دائماً، دعك من الأجرام الفلكية والطبقات الأرضية فهي بعيدة، ولكن أنت تقول بأن هناك قوة في الكهرباء، هذا الأثر في سم الفأر، وتلك الخاصية في المغناطيس، ولكن هل تعرف أيضاً لماذا هي هكذا ؟ بل اقترب من نفسك، وانظر إلي عالم جسمك، إنك تعلم فقط أن دخول النفَس وخروجه يتم عن طريق حركة الرئتين، وأن سرعة النبض مرتبطة بقبض وبسط القلب. إن نَفَسك أو ذهنك يصـــل إلي آلاف الأميال في لحظات، وكم من العجائب النفسانية التي يظهرها الله تعالي، لكن هل استطاع أحد أن يعرف لماذا يكون هكذا ؟ من الذي خلق القلب مضطرباً، وكيف تسير الرئتان في الانقباض والانبساط ليل نهار ؟. كيف تقع الأفعال الذهنية في الدماغ ؟ فإذا كانت هذه الأشياء القريبة منك للغاية بعيدة عن متناول دائرة الأسباب والعلل في فلسفتك، فكم يبدو ادعاؤك فيما يتعلق بالأشياء البعيدة عنك مثيراً للسخرية ؟ ! إن الحكماء أي العلماء التجريبيون يعترفون علانية أنهم يستطيعون الإجابة عن " كيف " فقط، أما الإجابة عن " لماذا " فهي خارج عن موضوع بحثهم، وحال الفلاسفة أنهم لا يتفقون علي نظام خيال واحد، بل إنهم كما كتب العلامة ابن تيميه في " الرد علي المنطقيين ": ـــ

" إن الفلاسفة ليسوا جماعة متحدة الخيال والفكر، ولهم مذهب واتجاه واحد في علم الإلهيات والطبيعيـــات، وإنما هم أصحاب خيال وفكر مختلف، ويوجد بينهم اختلاف في الآراء والأفكار تصعب الإحاطة به، وإن الاختلافات بينهم أكثر من تلك التي توجد بين الفرق المختلفة لدين سماوي واحد ".

وبناءاً علي اختلاف الرأي والفكر فإن ادعاء أحد الفلاسفة بأن هذه القضية الدينية أو تلك تخالف الفلسفة أمر لا يمكن قبوله، إذ أن معني قوله هذا هو أن هذه القضية الدينية أو تلك تخالف رأينا أو رأي جماعتنا، ولن يكون الأمر موقوفاً أو محصوراً علي الدين فقط، بل إن كل من يقول بنظام فلسفة ما يستطيع أن يستعين بهذا الاستدلال وبكل قوة في إثبات بطلان نظام فلسفة الآخر. وستعرف إذا أمعنت النظر أن كل الفرق والمدارس الفلسفية، وكل الأنظمة الفلسفية في الحقيقة ما هي إلا حلقات لفكر منظم مرتب حول أسرار الكائنات، ومن تطمئن نفسه بالتسليم بحلقات هذا الفكر المنظم يتخذ منها فلسفة له، وهكذا فإن للدين نظام فكر خاص به، والذين يؤمنون بنظام فكره تطمئن بها نفوسهم، وفي هذه الحالة إذا ما خالف وقوع المعجزة أو إمكان وقوعها نظام فكر ما، فإن هذا الاختلاف

في ذاته لا يمكن أن يكون دليلاً علي بطلانه، ولا يلزم من هذا أن تكون أية قضية فلسفية ما باطلة لكونها تخالف نظاماً فلسفياً آخر.

إن أول بحث يعرض لنا في مجال الإيمان بالفلسفة القائلة بكفاية العلل والأسباب لتسيير نظام العالم هو بداية الخلق، إنك تقول أن هذا الشيء خُلق لهذا السبب، وهذا هو السبب في خلق ذلك الشيء، ولكن هل يستطيع أحد أن يقول من أين جاءت هذه المادة ؟ وما السبب في حدوثها ؟ لماذا وكيف تُخلق العناصر ؟ كيف وُجدت هذه الأنواع المختلفة للأشياء ؟. ولا تتطرق في الإجابة إلي تلك النظريات القائلة بأصول الارتقاء والتطور الطبيعي وغيرها، إذ أن قيمتها العلمية لا تتعدى المفروضات والوهميات، وتنتهي حدودها آخر الأمر بحدود الجهل وعدم العلم، وسواء سلّمت بأن الأساس الأول للمادة هو العناصر الأربعة أو جواهر مفردة، أو السالمات أو الأثير أو البرقيات، أياً كان ما تقول به، لكن لا يمكن معرفة علة حدوثها، ولا يمكن أن تعرف أنها من أين جاءت ؟ الحيوانات خُلقت من النطفة، والطيور من البيض والشجرة من النوى، ولا يمكن أن توجد بغيرها، ولكن هل يستطيع أحد أن يخبرنا هل كان خلق الحيوان الأول في الدنيا من نطفة ما، والطائر الأول من بيضة ما، والشجرة الأولي من نواة ما، أم لا ؟ فإن قلت نعم فقد قبلت شهادة تخالف ما تدعيه، وإن أنكرت فلا بدّ من أن تعترف أن النطفة الأولي، والبيضة الأولي، والنواة الأولي خُلقت بغير إنسان أو طائر أو شجرة. المهم أنك لن تستطيع بحالٍ من الأحوال أن تحل هذه العقدة بأظافر همتك، وسوف تضطر بشكل أو بآخر إلي التخلي عن مذهب سلسلة الأسباب والعلل.

العلة الحقيقية هي قدرة الله وإرادته:

وحيثما تستطيع التقدم قليلاً بسلسلة أسبابك وعللك فإنه لا مفر من المواجهة. المطر ينزل من السحاب، والسحاب يتكون من الأبخرة، والأبخرة تصدر عن الماء، إنك تستطيع أن تحل هذه العقدة الصعبة لهذا العهد، إذ أنه ليس من الممكن أن تسلّم بوجود ذات قادرة مريدة تُسير الكائنات كلها طبقاً لمشيئتها وإرادتها، وأن الأسباب والعلل ما هي إلا مظاهر لمشيئتها وإرادتها، وأنها تُسيرها علي طريق خاص طبقاً لعادتها، لكنها ليست ملتزمة بها، وكلما رأت ضرورة علي مر القرون أظهرت أمراً مخالفاً للعادة لإثبات آية من آياتها، ونحن فهمنا العلاقة الظاهرة التي تبدو بين العلة والمعلولية علي أنها نمطية وتطابق لعادتها الجارية، بحيث أنها إذا لم تختر هذه النمطية وهذا التطابق في عادتها

الجارية فإن المخلوقات لا يمكن أن تكون مستعدة مسبقاً لدفع المضار التي تلحق بها أو لتحقيق فائدتها.

مولانا جلال الدين الرومي وحقيقة الأسباب والعلل والمعجزة:

شرح العارف جلال الدين الرومي هذه الحقيقة في الأشعار التالية: ـ

- **لقد قرر الله تعالي عللاً وأسباباً وعادات لأولئك الذين يعملون تحت حجب السماء الزرقاء.**
- **وأكثر أحداث الدنيا تكون طبقاً لهذه العادات المقررة، لكن القدرة الإلهية تحطم هذه العادات أحياناً.**
- **لقد خلق الله هذه العادات وهذا الطريق " الأسباب والعلل " طيبة مبشرة، لكنه مع ذلك يخرق العادة بالمعجزة.**
- **فيا أسير الأسباب والعلل لا تتمادى، ولا تظن أن تام العلل ومسبب الأسباب قد صار بلا جدوى بخلق هذه الأسباب والعلل.**
- **إن مسبب الأسباب الحقيقي يفعل ما يشاء، وقدرته تحطم الأسباب علي إطلاقها.**
- **لكنه غالباً يسيّر الدنيا طبقاً للأسباب حتى يعرف الذين يعملون طريق الحصول علي هدفهم.**
- **فإن لم تُعرف الأسباب فكيف يهتدي العاملون إلي طريقهم، فهذه الأسباب تصير علامات لهم علي الطريق.**
- هذه الأسباب الظاهرية هي حُجُب الأنظار، لأنه ليس كل عين تستطيع رؤية صنعته.
- إذ لابد لرؤيتها من عين تُمزق حجاب الأسباب، حتى ترتفع الحجب كلها.
- والحقيقة أن كل خير وشر يأتي من عند مسبب الأسباب الأصلي هذا، ولا دخل للوسائط من الأسباب فيها.
- الهواء والماء والطين والنار كلها محكومة بأمر الله، إنها جامدة أمامنا، لكنها أمام الله حية.
- عندما تضرب الحجر علي الحديد فإنه يُخرج ناراً، إنها لا تخرج إلا بأمر الله.
- الحجر والحديد سببان للنار، لكن تمعن واقرأ ما بعد هذا.
- أن الذي فَعّل هذا السبب الظاهر هو السبب الحقيقي " الله "، وهل خُلِق السبب الظاهري بلا سبب ؟!

- ذلك السبب الحقيقي هو الذي جعل السبب الظاهري في الدنيا مؤثراً وفاعلاً، ويستطيع أن يسلبه الأثر والفاعلية في أي وقت شاء.
- إن الأسباب التي تكون فاعلة في أعمال الأنبياء لهي أعلي وأرفع من تلك الأسباب الظاهرية الدنيوية.
- إن عقولنا تعرف هذه الأسباب والعلل الظاهرية، لكن الذي يعرف تلك الأسباب الحقيقية هم الأنبياء.

ولأن الإنسان الذي لا يري إلا الظاهر، يري تلك العلل والأسباب فينسي أصل علة العلل ومسبب الأسباب، ويختفي من أمام العيون، ولهذا فإن الأنبياء عليهم السلام هم الذين يمزقون حجاب الغفلة هذا، وتُعطل من أجلهم العلل والأسباب الظاهرية:

- إن الأسباب الحقيقية تؤثر أيضاً في الأسباب الظاهرية، فلا تنظر للأسباب الظاهرية تلك، ولكن تمعن في الأسباب الحقيقية.
- الأنبياء يعملون علي قطع الأسباب، وقد غرسوا أعلامهم في المريخ.
- فلقد شقوا البحار بغير سبب ظاهري، وأنبتوا السنابل بغير حقول.
- والقرآن مليء بقطع الأسباب، وقد انتصر الرسول صلى الله عليه وسلم، وانهزم أبو لهب بنفس الطريقة.
- فالطيور " الأبابيل " ترمي بالحجارة، والجيش الحبشي الأسود ينهزم.
- هذه الحجارة التي تأتي من أعلي " ؟؟ " تخترق أجساد الفيلة.
- وهكذا فإن القرآن من أوله إلي آخره يرفض الأسباب والعلل.

العلة والخاصية وحقيقتها:

وإجمال هذا التفصيل مبني علي بحث العلة والخاصية والأثر، وكيف نعرف نحن بخواص وآثار الأشياء بمجرد تكرار الإحساس الذي هو التجربة، عندما تقترب من النار نشعر بالحرارة والسخونة والحرقة، وهكذا كلما اقتربنا شعرنا بنفس الإحساس، فيتولد بداخلنا يقين بأن خاصية النار وأثرها هو الحرارة والحرق، ولنفرض أننا شعرنا بنفس الشعور من تكرار الإحساس والتجربة مع الثلج، فإننا سنقول تأكيداً أن خاصية الثلج هي الحرارة والحرق، فالنار والثلج أمامك، تأمل فيهما، هل يبدو لك في ذاتهما شيء يجعلك تقرر قبل تكرار الإحساس أنه لابد أن تكون الحرارة من النار، والبرودة في الثلج ؟ إذا أعطـــاك أحد مقداراً من الكافور، ومقدار من سم الفأر في يديك، ولم نكن نعرف هذه

الأشياء مسبقاً، فتمعن فيهما، وقلبهما جيداً، شمهما، وتذوقهما والمسهما، فهل تستطيع أن تقرر ما هي خواصهما وآثارهما ؟! مثل هذا القرار يكون مستحيلاً طالما لم تكرر التجربة، وتظهر النتائج واحدة في كل مرة. ويتضح من هذا أن العلم بآثار وخواص الأشياء لا يكون إلا بتكرار العمل والتجربة.

إننا نقيم قضية العلل والمعلولات والأسباب والمسببات بناءاً علي التجربة والتكرار، وبناءاً علي ذلك يُقيم مدعو العقل والعلم ذلك المعبد الذي يطوف به الطبيعيون والماديون والفطريون، إذ أنهم عندما يحصلون علي نتائج وآثار من التجارب علي عمل واحد فإنهم عندئذٍ يعتقدون اعتقاداً جازماً أن انفصال هذه الخاصية وهذا الأثر عن هذا الشيء مستحيل قطعي، وأن الشيء الذي يحدث بعد شيء هو المعلول والمسبب، والشيء الأول هو العلة والسبب. ويقيمون القاعدة التي تقول بأن النار سبب الحرق، وأن الثلج سبب البرودة، وأن السم سبب الموت، أو بمعني آخر أن خاصية النار هي الإحراق، وخاصية الثلج هي التبريد، وخاصية السم هي القضاء علي حياة الإنسان، ولأن إمكانية وقوع المعجزة يلزم طبقاً لما يعتقدون إنكار تلك الآثار والخواص، وإبطال العلل والأسباب، أي أن توجد النار ولا تحرق، والبحر ولا يُغرق ؛ لهذا فهم يعتقدون بأن وقوع المعجزة محال.

الأسباب والعلل مجرد عادية:

لكن ثبت أن ما نطلق عليه عللاً وأسباباً أساسه تلك التجربة التي تقول بأننا رأينا هذا الشيء يحدث دائماً، ويتوقع منه، أو علي الأكثر الظن الغالب منه أنه كلما حدث هذا الشيء مستقبلاً يحدث بعده الشيء الآخر، ولكن يُنشئ هذا الأمر يقيناً بأن ما شاهدناه ظل يحدث فيما مضي بنفس الطريقة، وأنه سوف يحدث في المستقبل بنفس الطريقة أيضاً، وأن كل من شاهد هذا الشيء من البداية وحتى اليوم كانت نتيجة مشاهدتهم هي نفس نتيجة مشاهدتنا، وستكون هي نفس نتيجة مشاهداتهم في المستقبل كذلك، إنك تستطيع الجزم من تجربتك التي خضتها عن النار أو النيران حتى اليوم، ولكن كيف تجزم فيما يتعلق بنار ليس لك بها تجربة، ولن يكون في المستقبل، بأن أثرها وخاصيتها جميعاً هي الحرق والإحراق، وكيف تُقيم هذا الجزم وهذه الثقة علي مقدمة يقين أن خاصية وأثر النار فيما هو آت وحتى القيامة سيبقي هو الإحراق، وطالما ليس هناك دليل علي جزمك وثقتك هذه

فكيف إذاً لمجرد أنك رأيت بعض النيران تؤكد بشكل يقيني علي صحة هذه الكلية بأن كل نيران الدنيا تحرق، وستظل تحرق دائماً.

العلم بالأسباب العادية (المقررة) يكون بالتجربة فقط:

علي أية حال فإن إحاطة العلم الإنساني بالخواص والآثار والأسباب والعلل لا تكون إلا بالتجربة والتكرار، إننا نري دائماً أشياء تحدث بعد أشياء، ولهذا فإننا نتوقع أن يحدث هذا دائماً في المستقبل، ومثالنا علي ذلك أننا نري شخصـــاً منذ بداية عمره ينام في وقت بعينه، ويستيقظ في وقت بعينه، ويدخل المسجد من باب بعينه، لا ينتقم من أحد، وبعد مشاهدات وتجارب علي مدي سنين طويلة نقيم تصوراً علي سبيل الظن الغالب أن الساعة الآن كذا، لهذا لابد أنه استيقظ، والساعة الآن كذا، ولهذا لابد أنه نام، وعندما سيذهب إلي الصلاة اليوم سيدخل من ذلك الباب، هذا هو ما يطلق عليه العادة، ولكن هل سيكون أحد من الحماقة إلي درجة يدعي فيها علي سبيل اليقين بعد خبرة هذه السنين أنه من المستحيل القطعي أن يكون هذا الشخص نائماً الآن، أو استيقاظه الآن ضرورة لا مفر منها، أو أن دخوله من ذلك الباب لازم عقلاً ؟!.

العلم بالأسباب والعلل في تغير مستمر:

وعلي نفس المنوال فإن الآثار والنتائج المختلفة التي تصدر عادة عن الأشياء والموجودات في هذا العالم يثبت منها فقط أننا اعتدنا علي رؤية هذه الآثار والنتائج التي تصدر عن هذه الأشياء وهذه الموجودات، ونعتقد علي سبيل العـــادة أن مثل هذه الخواص والنتائج ستصدر عنها مستقبلاً.

من الممكن أن تقول بأن هذا التمثيل ليس صحيحاً، فالإنسان مخلوق ذو إرادة، ولهذا فإن أفعاله تكون طبقاً لإرادته التي يستطيع تغييرها وقتما يشـــاء، أما أفعال المخلوقات الأخرى التي لا روح فيها فإنها لا تكون إرادية، بل جبلية، ولهذا لا يمكن أن يحدث فيها تغيير، لكن هذا في الحقيقة نوع من المغالطة، إذ أن حركاتك وأفعالك تصدر عن أعضائك، وهي لا إرادة لها، والإرادة من فعل نفسك أو روحك وذهنك وعقلك، وكما أن قوة إرادة نفسك أو روحك وعقلك تستصدر حركات وأفعال مختلفة حسب رغبتها من أعضائك الجامدة التي لا روح فيها، والتي هي عبارة عن مضغة من اللحم، فإن قوة إرادة الروح الأعظم تستصدر أفعالاً وحركات مختلفة حسب رغبتها من عالم الكائنات هذا الذي

لا روح فيه، ولأنها تسيره عادة علي نهج واحد، لذا فقد أُعطينا قدراً من العلم بالأسباب العادية الطبيعية.

ونتيجة لهذه العادة تولد في أذهاننا تلازم بين النار والحرارة، والثلج والبرودة، ونعتقد بناءاً عليه أن الحرارة لا تنفك عن النار، وأن البرودة لا تنفك عن الثلج. في حين أنه لو اختلفت تجربتنا في المستقبل عن النار والثلج فإن تصور هذا التلازم سيتغير هو الآخر تأكيداً. علي سبيل المثال في الزمن الماضي حين كان يتصور أن دوران الأفلاك والنجوم هو سبب وعلة الحوادث، وأن توجيه أحداث العالم يكون عن طريق الدوران المختلف للنجوم وأشكالها المختلفة، وكان يعتقد كذلك بنوع ما من التلازم بين ظهور أشكال معينة من النجوم، أو طلوع كوكب معين، وبين آثاره ونتائجه، وكان يُظن أن هذا اليقين بأن أحدهما علة للآخر، والآخر معلول له لا يمكن إنكاره، لكن الأمر اليوم مختلف.

هناك اليوم اختلاف وفرق شاسع بين الطب القديم والحديث، وحدث تغيير رائع في علل وأسباب الأمراض وخواص وآثار الأدوية، لكن الأطباء القدامى، أو العارفين بالطب القديم ومحبيه يعتقدون أشد الاعتقاد في أثر أدويتهم، وعلل وأسباب تلك الأمراض التي تعتمد علي تجاربهم ومشاهداتهم وممارساتهم، بينما في بلاد أوروبا حيث لا يعرف حتى مجرد اسم هذا الطب، ولم تُشاهد تجاربه وأبحاثه فإن ما يعتقده أطباؤنا من آثار وخواص وأسباب وعلل لا يمكن أن ينظر إليها هناك إلا علي أنها أوهام وخرافات. وما هي الأوهام ؟، هناك كثير من المعتقدات لدي الطبقات الجاهلة والشعوب البدائية نسميها نحن أوهام، ولكن كيف وُجدت هذه الأوهام لديهم، لقد رأوا لمرات عديدة بالتجربة والممارسة أنه كلما طار الطائر الفلاني وقت الصباح يحدث الأمر الفلانى، وبالتالي رسخ هذا التصور في أذهانهم نتيجة رؤيتهم له مرات عديدة بأن هذا هو أثره، في حين أنه من المعلوم أنه لا يوجد أي نوع من التلازم بين طيران هذا الطائر أو صياحه وبين حدوث هذا الأمر، لكن لأن اعتقادهم مبني علي تجربتهم، لذا صار من المستحيل عليهم أن يصدقوا خلافه، مثلما يستحيل علي الذين يعتقدون بوجود التلازم وعلاقة العلة والمعلول بين النار والحرارة والإحراق أن يصدقوا بوجود النار ولكن بدون حرارة أو إحراق. وفي البلاد التي لا توجد بها البغال يعتقد أهلها اعتقاداً جازماً بناءاً علي تجربتهم ومشاهداتهم أنه لا يمكن التوالد والتناسل بين حيوانات من أنواع مختلفة، فإن أردت أن تؤكد لهم عكس هذا بأن الخيول والحمير تؤدي سوياً هذا الغرض، ويتولد عنهما نوع ثالث اسمه البغال،

فإنهم سيترددون في التسليم بالأمر إلي حد ما، ولكن هل يحدث مثل هذا التردد في الهند ومصر حيث شوهد هذا التوالد آلاف المرات.

العلم بالأسباب والعلل تكون بالتجربة:

المهم أن ما نسميه نحن قوانين الفطرة ونواميس الطبيعة وقوانينها ما هو إلا مشاهداتنا اليومية المتكررة، فنحن نري دائماً كيف تنبت الأشجار، وتولد الأحياء، وكيف تطلع الشمس، ويسقط المطر، وقد اعتدنا علي رؤية كل هذا بحيث أننا نعتقد أن حدوثها بهذا الشكل ضروري. وأن خلاف هذا محال، مع أننا لا نملك دليلاً واحداً علي هذا. إننا نري الحبة عندما توضع في التربة تبدأ في الإنبات بعد عدة أيام، وتظهر سيقانها، ثم تأخذ شكل النبتة، وتنمو وتظهر أفرعها، ثم تكبر لتصير شجرة. نري قطرة ماء تتحول إلي دم. والدم يصير لحماً، وتخلق فيه العروق والأعصاب والعظام، ويصبح له قلب ومخ وكبد وكلى، ثم تحل فيه الروح ويظهر الإحساس والعقل علي هذه المرآة، ثم يولد هذا المخلوق بعد مدة معينة، ويصير شاباً وتنتهي بداخلنا روح الاندهاش والتعجب والاستغراب لكثرة ما رأينا هذا النوع من الولادة، ولا نمعن التفكير ولو للحظة في كيف تحول كل هذا إلي إنسان حيّ وعاقل، لكن عندما يقال لنا أن عصا خشبية لا روح فيها تستحيل إلي ثعبان حيّ، وأن طفلاً يسمى عيسي ولد بغير أب يهتز رأس عقلنا وتجربتنا المحدود المغرور رافضاً التصديق، لماذا ؟ لأننا لم نر أبداً مثل هذا يحدث. الشمس تطلع يومياً من المشرق وتغرب في الغرب، ونحن لا نعجب لهذا أبداً، ولا نراه مستبعداً، ولكن عندما نسمع أن الشمس يوم القيامة ستطلع من الغرب بدلاً من الشرق فإننا نري هذا مخالفاً للعقل. وهل كان طلوعها من الشرق موافقاً للعقل ؟ وهل كنت ستقرر عقلاً بأنه يجب أن تطلع الشمس من الشرق وتغرب في الغرب إذا لم تر الشمس تطلع من الشرق فعلاً ؟!. للإنسان عموماً رأس واحد، وعينان وأذنان ويدان ورجلان، وفي كل يد ورجل خمسة أصابع، ولكن إذا قرأت أحد كتب التاريخ الإنساني لعرفت أنه لا حد لمستثنيات القدرة، وأن هناك المئات بل الآلاف من الأطفال الذين ولدوا خلافاً لما هو معلوم. وإذاً فأنت لا تستطيع الاعتراض علي ولادة طفل بأربعة أيدي وأربعة أرجل مثلما لا تعترض علي أن للإنسان يدين ورجلين، وكما لا تندهش لماذا يموت الإنسان بعد الحياة، لا يجب أن تندهش كذلك كيف حيي بعد موته. إذ أن الفرق بين الحالتين فقط هو أنك رأيت إحداهما تحدث مراراً، ولم تر

الحالة الأخرى أبداً، لكن رؤية شيء أو عدم رؤيته لا يمكن أن يكون دليلاً علي كون هذا الشيء في ذاته ممكن أو مستحيل.

المهم أن السبب في الاستبعاد الذي يبدو لنا في المعجزات ليس إلا أنها تقع خلافاً لمشاهداتنا وتجاربنا السابقة، ومع ذلك فكل فرد يستطيع أن يقرر أن حدوث الأخطاء، أو التغيير الشامل في تجاربه ومشاهداته السابقة ليس محالاً، فلقد أسقطت علوم الطبيعة الحديثة جدار تحقيقات وأبحاث العلوم القديمة لعلوم الطبيعة القديمة، وأبطل العلماء الجدد مئات من تجارب العلماء القدامى، وحدث اختلاف شاسع بين الطبيعة القديمة والطبيعة الحديثة، وجعلت المخترعات الحديثة مئات، بل آلافاً مما كان مستبعداً في الماضي وممتنعاً، جعلته ممكناً، بل أمراً واقعاً، فإذا كان هذا هو حال تجاربنا وأبحاثنا السابقة، فمن يضمن صحـــة التجارب والأبحاث الإنسانية المستقبلية ؟ كنا نطالع فلسفة اليونان ونعتقد أن الأرض ساكنة والشمس متحركة، واليوم ثبت بشكل لا يدع مجالاً للشك أن الشمس ساكنة والأرض متحركة، ولهذا فلو أن نبياً في ذلك الوقت أعلن أن الأرض متحركة والشمس ساكنة لربما وُصف قوله هذا في مدرسة العلم القديمة بالجهل والسخرية. وإذاً فمن يدري أن ما يبدو لعباقرة العلوم الحديثة، ولهؤلاء الذين يرون بعضاً من أمور الدين مضحكة، أن أبحاثهم مثار سخرية لدي مدرسة العلوم المستقبلية.

المهم أنه ثبت مما سبــق أن ثروة بني الإنسان فيما يتعلق بعلم العلل والمعلولات قد اكتسبها من تجاربه فقط، وبناءاً علي هذه التجارب فإنه يُنشئ حكماً كلياً في ذهنه علي شيء ما برؤيته عدة مرات، وذلك علي سبيل الاستدلال التمثيلي. فقد رأينا ــ علي سبيل المثال ــ تفاحة، وشممنا رائحتها، وذقنا طعمها، فإذا ما رأينا تفاحة ثانية أمامنا فإننا ننظر إلي شكلها وصورتها ولونها، ونشم رائحتها ونقول أن هذه أيضاً تفاحة، وطعمها هكذا، ثم نري تفاحات أخرى ونحكم بأن كل تفاحة تكون هكذا، وخاصيتها وتأثيرها وأثرها يكون هكذا. وبنفس الطريقة رأينا الثلج، وشكله وصورته ولونه وطعمه، وشعرنا ببرودته، ثم اتفق لنا رؤيته مرات عديدة، وفي كل مرة رأينا فيها ثلجاً مثل الذي رأيناه سابقاً قلنا أن هذا أيضاً ثلج، وكل ثلج يكون بارداً، وهذا هو الحال مع قضية أن النار الشديدة تُحرق، والآن عليك أن تمعن النظر في أن قضاياك هذه والتي تقوم علي أساس الاستدلال التمثيلي كيف يمكن أن تدعي بأنها لا تقبل إلا اليقين، وكونك تعتقد بذلك علي سبيل العادة من أجل

جلب المنافع ودفع المضار في دنيا أعمالك ومصالحك فإن هذا أمر آخر، وهذه هي حقيقـــة ومصلحة العلة العادية (المشاهدة) التي اعتدنا عليها.

قول الإمام ابن تيميه أن الأسباب والعلل مسألة تجريبية:

وليس النحو الذي شرحنا عليه مسألة العلية هذه جديداً، فقد تحدث العلامة ابن تيميه عن نفس الأمر في " الرد علي المنطقين "، ونحن هنا نريد إدراج ملخص لما قال حتى يتضح الأمر تماماً أمام القراء: ــ " الراحة بعد الأكل، والمشي بعد الشرب من التجارب البديهية، وهذا يكون الإحساس بالمتعة، فعندما يشعر الإنسان بها يجد علي الفور أثراً لها، ثم إذا ما وجد وشعر بنفس الإحساس بنفس الشيء مرات عديدة يعتقد عندئذ أن هذا الشيء هو سبب هذا التأثير وهذا الأثر، وهذا هو ما يطلق عليه التجريبيات، وأصل القضايا الكلية هو هذه التجريبيات. وتفصيل ذلك أنه عندما يستعمل شخص ما دواءاً ما، ويري أنه تخلص به من مرض ما، أو آذاه بشيء ما، فإن التخلص من المرض أو الإصابة به من هذا الدواء يعد تجربة. وهذا هو حال الآلام والمتع الأخرى التي تحدث لنا من المشمومات والمسموعات والمرئيات والملموسات، لأنه عندما يشمها أو يراها أو يسمعها أو يتذوقها أو يلمسها، ثم يشعر بها في نفسه هي من الوجدانيات التي تكتشفها حواس الباطن، والاعتقاد الكلي الذي يقوم في هذه النفس فتحدث له اللذة من أفراد هذا القبيل، ويحدث له الألم من كل فرد من ذلك القبيل، فإن ذلك من قبيل التجريبيات ؛ لأنه لا يمكن الإحساس بالشيء كلية عن طريق الحواس الظاهرة والباطنة، إذ أن ذلك الاعتقاد بالحكم الكلي الذي يقوم في النفس يكون عن طريق مجموع الحس والعقل، وهو ما يسمي بالتجريبيات، مثلاً الاعتقاد بأن الراحة والشبع يحدثان بسبب مواد في الطعام والشراب، وأن الإنسان يموت بسبب السم القاتل، وأن الإنسان يسقط فريسة للمرض عن طريق الأسباب التي تؤدي إلي المرض، وأن استئصال هذا المرض يكون عن طريق أسباب ووسائل معينة، وكل هذه أمور تجريبية، إذ أن الحس يشعر بالأشياء الذاتية والنسبية، لكن عندما يتحقق إحساس بعينه من شيء بعينه مرات عديدة، فإن العقل عندئذ يدرك أن هذا الأمر يحدث بسبب ذلك الشيء المشترك بين أولئك الأفراد جميعـــاً، وهذا الشيء يخلق متعة ولذة بعينها، وأن ذلك الشيء يُحدث ألماً بعينه، وهذا هو حال الحدسيات، إذ أن العلم بجزئياتها يكون عن طريق الإحساس والشعور، لكن العقل يتصـــور قدراً مشتركاً

بالممارسة، علي سبيل المثال عندما نري اختلاف ضوء القمر عن طريق اختلافه عن ضوء الشمس، فإننا نتصور أن ضوء القمر يأتي من ضوء الشمس، أو نري أنه لا اختلاف في حركات الثوابت، وأنها تتحرك جميعاً معاً فإننا نعتقد أن فلكها واحد، وبنفس الطريقة عندما نري اختـــلاف حركات الكواكب السيارة نفهم أن فلك كل منها مختلف عن الآخر ".

وفي مناقشة القياس يقول ابن تيميه: ـــ

" لقد حدد الفلاسفة اليقينيات في بعض القضايا. أحدها الحسيات، في حين أنه من المعلوم أن إدراك شيء كلي عام لا يمكن أن يكون عن طريق الحس، ولهذا لا يمكن أن تصبح قضية ما كلية عامة لمجرد الحسيات التي يمكن أن تكون جزءاً من البرهان اليقيني، ويقول أهل المنطق على سبيل التمثيل أن النار تحرق، في حين أن العلم بعمومية وكلية هذه القضية حدث بالتجربة والعادة والاعتياد، والذي هو نوع من القياس التمثيلي. فلو قيل أن العلم به حدث باعتبار وجود القوة الحارقة في النار فإن العلم يقـــول بأن: " هذه القوة موجودة في كل نار " أيضاً حكم كلي لا يكتشف بالإحساس. فإذا قيل بأن هذه القوة موجودة في الصورة النوعية للنار، وأن ما لا توجد به هذه القوة ليس ناراً، فإن هذا الادعاء وإن كان صحيحاً أيضاً، إلا أنه لا يفيد اليقين، إذ أن لتمثيل الشمول والاعتبار والاستقراء الناقص دخلا في قضية أن " الشيء الذي توجد به هذه القوة يحرق "، ومن المعلوم أن الشخص الذي يدعي بأن النار تحرق كل شيء يدخلها مخطئ، لأنه يكون من الضروري مع هذا أن تكون بداخل هذا الشيء قابلية للاحتراق، وإلا فإن النار لا تستطيع أن تحرق كل شيء. فمثلاً لا تستطيع حرق الحجر ولا الياقوت، كما أنها لا تستطيع حرق تلك الأجسام التي تدخلها مواد مضادة للاحتراق ومعالجة للحرق، وللبحث في خرق العادة مقام آخر. علي أية حال ليست هناك من بين القضايا الحسية كلية لا يمكن نقضها، والحقيقة أن القضية لا يمكن أن تكون " كلية حسية "، لأن القضية الحسية ـــ علي سبيل المثال ـــ " هذه النار تحرق " يدرك الحس فيها شيئاً واحداً خاصاً، بينما الحكم الكلي الذي يصدره العقل يقول فيه الفلاسفة: أن النفس عندما تري هؤلاء الأشخاص المخصوصين، وتلك الأمثلة، تخلق بداخلها استعداداً يولد فيه إلهاماً بأن كل نار تحرق، وإذا كان هذا هو الحكم الكلي، فيجب أن يكون معلوماً بأنه هو الآخر قياس تمثيلي، ولا يمكن الوثوق بعلتيه

وعموميته طالما لم يعرف بأن هذا الحكم مشترك بين الأفراد جميعاً، وهذا الأمر يمكن التحقق منه عندما يتم تجربته علي الأفراد جميعاً، ومع ذلك فليس هناك من القضايا المعتادة ما لا يمكن خرقها عقلاً، بل إن الفلاسفة أنفسهم يعتقدون بإمكانية خرق العادة، لكنهم يقدمون لها أسباباً فلكية وطبيعية وفطرية ونفسية، وينسبوا خرق العادة إلي هذه الأسباب الثلاثة، ويثبتون من خلالها معجزات الأنبياء وكرامات الأولياء والسحر وغيرها".

ويكتب العلامة ابن تيميه في بداية حديثه عن هذا القياس: ـــ

" وهذا هو حال التجريبيات، فقد جرّب الناس عموماً بأن الارتواء والشبع يحدث من شرب الماء، وأن الإنسان يموت بقطع رقبته، وأن الضرب المبرح يؤلم، والعلم بهذه القضايا كلها يتحقق عن طريق التجربة، إذ أدرك الحس نوعاً خاصاً من الارتواء، ورأيَ شخصاً يموت بقطع رقبته، وأحس شخص ما بالألم من الضرب، وبالتالي فإن الحكم بأن مثل هذا الأثر سيحدث إذا قام أحد بمثل هذا الفعل، وإذاً فإن هذه القضية الكلية لن تعرف بالحس، وإنما للحكم العقلي معها دخل أيضاً، فالأثر المعين الذي يعرف في شيء معين عن طريق التجربة علينا أن ننظر بالنسبة له أن هناك تلازماً خاصاً بين ذلك الشيء المعين وذلك الأثر المعين، وأن يُعلم منه كونه عادة مستمرة، وخاصة عندما يُحَسّ بين هذين الاثنين بمناسبة ما، ويثبت بأنه حيثما وجد هذا الشيء يوجد كذلك هذا الأثر، وحيثما لا يوجد ذلك الأثر لا يوجد ذلك الشيء أيضاً. وبالتالي فإنه بقدر ما يوجد من ظن من هذا اللزوم بقدر ما يكون الظن في الاعتقاد بعلتين، وبقدر ما يكون من قطعية في هذا اللزوم بقدر ما يكون من قطعية في هذا الاعتقاد بعلتين، وهذه هي القضايا الاعتيادية مثل التجارب الطبية وغيرها، أو العلم بأن الشبع يحدث بتناول الخبز، والارتواء يحدث بشرب الماء، وأن الحرارة تتولد في الجسد بالملابس، وتتولد البرودة فيه إذا كان عارياً. وبالتالي فإن السبب والعلم الذي نحصل عليه من التجريب هو حدوث شيء بعد شيء بالتكرار والممارسة.

أساس التجريبيات هو المشاهدة والرواية والتاريخ:

المهم أن خلاصة المباحث السابقة أن العلم بخواص الأشياء والموجودات نحصل عليه من خلال التجربة فقط، وهنا يبرز بحث آخر وهو: هل من الضروري لخلق هذا اليقين التجريبي أن يكون المتيقن نفسه قام بالتجربة؟. إننا في حياتنا نؤمن بآلاف من القضايا التجريبية، لكن القليل منها هو الذي يدخل في تجربتنا الخاصة، هناك آلاف من الأمور الخاصة بالطبيعة والكيمياء والطب والفلك وطبقات الأرض والتي نؤمن بها، لكن القليل منها هو الذي جربناه نحن، فإذا قلت بأن هذه الأمور وإن كنا لم نجربها نحن، إلا أن المتخصصين في تلك العلوم قاموا بتجربتها، ونحن نعتقد فيما يشهدون به لأنهم متمكنون تماماً في تخصصاتهم، وقد دونوا تجاربهم الشخصية هذه في مؤلفاتهم. وكأنك إذاً قد قبلت بأن تجريبيات الآخرين تفيد اليقين هي الأخرى بشرط أن يثقوا في العلماء الذين قاموا بالتجارب، وأن تصل إليهم هذه التجارب من طرق رواية صحيحة ومعتبرة وموثوق بها.

والتاريخ أكبر كتاب لأحداث الدنيا، وهو يمثل لنا مصباح الطريق في ظلمات العهد الماضي. فمن يضع الزيت بانتظام في هذا المصباح بحيث لا ينطفئ ؟ إنهم رواة الأخبار ونقلة الحكايات والذين يشعلونه من عهد إلي آخر بشكل متواصل، فإذا انقطع تسلسل الرواية هذا في وقت من الأوقات صار العهد الماضي هو الآخر مظلماً كعالم المستقبل، ومع ذلك فإن كل شهادة تاريخية لا تقبل هكذا ببساطة، وإنما لابد لها من وجود شهود عيان، مشهور لهم بالصدق والاستقامة، ثم لابد أن تكون الوسائط البنيية (الذين ينقلون الرواية عمن شاهدها إلي من يليهم) مشهود لها هي الأخرى بالصدق والاستقامة والتنزه عن الخداع، وإذا ما توفرت هذه الشروط تماماً فإنه لا ينبغي لأحد الشك في صدق هذه الروايات المنقولة.

الفلسفة والعلم أيضاً نوع من التاريخ:

والحقيقة أن الفلسفة والعلم أيضاً ما هي إلا نوع من التاريخ، فالفلسفة تاريخ أفكار منظمة لأشخاص أو جماعات، بينما العلم ما هو إلا تاريخ للاكتشافات التجريبية للكائنات، ويستطيع كل عالِم من علماء الفلسفة أن يقول بمنتهى الثقة أن هذه هي آراء فلان وفلان من أساطين الفلسفة اليونانية والإسلامية والأوروبية، أليس أساس هذه الثقة هو الشهادة التاريخية فقط ؟! أليست ثروة الاكتشافات والتجارب والعلوم التي جمعها عالم

الإنسان من بدء الخليقة وحتى وقتنا هذا مبنية علي الشهادة التاريخية بشكل أو بآخر وليس علي شيء آخر. إنك تؤمن أن الجسم مركب من اثنين وسبعين عنصراً بسيطاً، وأن الأكسجين والهيدروجين هما عنصرا الماء، وأن الإنسان يموت بتناول السم، مع أنك لم تجرب شيئاً واحداً منها، لكن لأن هذه المعلومات وصلت إليك من طرق صحيحة موثوق بها فإنك تصدقها، أنت لم تر لندن أو باريس بنفسك، ومع ذلك فإنك لا تشك في وجودهما، في حين أنك تشك في وجود عالم الحور بجبل قاف، ذلك لأنك سمعت خبر وجود المدينتين " لندن وباريس " بكثرة من أناس صادقين وأهل ثقة، بحيث لا يمكن أن تشك فيما يقولون، بينما لم تتصل سلسلة روايتك بشهـــود العيان لعالم الحور في جبل قاف عن طريق صحيح وموثوق به ؛ ولذا فأنت تشك في وجوده بشكل كبير، وهكذا فإن أكثر قضايا علوم الفلك والطبيعة مثل دوران النجوم وحركة الكواكب، وطلوع وغروب كواكب معينة وما إلي ذلك ما هي إلا مشـــاهدة أحد علماء الطبيعة والفلك، ثم تراكمت مشاهدات قرون عديدة لتمثل أمامك في صورة علم الطبيعة والفلك الذي لا يمكن إنكاره. ولكن عليك أن تفكر هل وصلت إليك أية معلومة من هذا العلم اللامحدود بطريقة غير الرواية والشهادة، وهل يمكن أن تصل بغيرها ؟!.

أنت تقول أن النار تحرق، والثلج يعطي البرودة، الشمس مضيئة والحجر صلب، والطعام يُشبع، والكدمة تؤلم. المهم أن كل القضايا التجريبية التي تقوم عليها العلوم والفنون، والتي تعتقد أو يغلب عليك الظن بعموميتها وكليتها وشمولها ليست تجربتك الشخصية فقط هي الأساس في شموليتها وعمومها، وإنما لمشاهدات الآلاف ومئات الآلاف من البشر، وعشرات الأجيال من الناس دخل في هذا الأمر، وقد وصلت إليك هذه المشاهدات بشهادات تاريخية مكتوبة أو منقولة، وبالتالي صارت ضمن المسلّمات الإنسانية.

شروط الاستشهاد بالشهادة التاريخية:

لكنك مع ذلك تستطيع أن تفرض بعض القيود علي كون هذه الشهادات التاريخية موثوق فيها، مثلاً ينبغي أن يكون الراوي الأول شاهد عيان، أي أن يكون حاضراً في مكان وقوع الأمر عند وقوعه، وأن يعلمه بنفسه وبلا واسطة، وأن يتصف بالصدق، وقوة الذاكرة ودقتها، وأن لا يتصف بالكذب أو الخداع، وهكذا يتصف كل راوي من الرواة من بداية الرواية حتى آخرها بهذه الصفات، وكلما تأكد الاتصاف بهذه الصفات وزاد، كلما

تأكد علمك وتسليمك بالرواية وزاد أيضاً، وكلما نقص هذا الاتصاف نقص علمك وتسليمك أيضاً.

علم الرواية عند المسلمين:

عندما تطالع علم الأخبار، أو علم النقل والرواية لدي المسلمين، أي علم أصول الحديث، تعلم أن هذه هي نفس المبادئ التي وضعها المسلمون لقبول أية شهادة في الرواية، وبقدر ما يكون في هذه الأوصاف لسلسلة الرواية من نقص سيقل لديهم العلم والتسليم بهذا الجزء من الرواية. وكل المعجزات الصحيحة والموثوق بها والمنسوبة إلي النبي عليه الصلاة والسلام ليس من بينها واحدة لم يعرض صدقها علي هذا المبدأ، قد تناول " هيوم " في كتابه الشهير " الفهم الإنساني " المعجزات، وهو يبدي عدم ثقته في المعجزات التي وردت في الإنجيل، لأن كتّاب الإنجيل الذين يعدون الرواة الأول لتلك الأحداث لم يكن من بينهم شاهد عيان واحد لها، بينما لو عرف " هيوم " بالاحتياطات التي يفرضها الأسلوب الإسلامي في رواية وأصول الحديث لما وجد فرصة لإبداء عدم الثقة فيما يتعلق بمعجزات الإسلام.

إن الرواة الأول للمعجزات النبوية الصحيحة، يعني أولئك الصحابة الكرام الذين كانوا شهود عيان للأحداث، تدل كل لحظة في حياتهم علي صدق قولهم، وأعمالهم شاهد عدل علي رجاحة عقولهم ورزانة وقوة آرائهم، وأما الرواة الذي يلونهم، وهم المحدثون العظام، فتشهد بصدقهم واستقامتهم، وصحة حفظهم وفهمهم صفحات أسماء الرجال، وقد قال رسول الإسلام صلي الله عليه وسلم علي رؤوس الأشهاد مرات ومرات " من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ مقعده من النار "، وكان الصحابة رضوان الله عليهم يرتعدون وهم يروون أي خبر عن الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان الرواة الذين تلوهم أيضاً يعملون بكل الاحتياطات الإنسانية اللازمة، ومع ذلك فإن درجة رواياتهم كلها ليست متساوية.

فلو اشترك في كل فترة أو عهد وطبقة من فترات الرواية رواة كثيرون سميت خبراً متواتراً، ولو لم يكن الرواة في كل طبقة كثيرين، لكنهم كانوا اثنين أو أكثر، كان ذلك هو الخبر المستفيض والمشهور، ولو كان راوي واحد في كل طبقة سمي خبر الآحاد. والمعجزات النبوية مروية من طرق مختلفة، وهي بهذا الاعتبار لها درجة صحيحة، صحيح أن هناك بعض الناس نسبوا بعض المعجـزات غير الصحيحة إلي النبي صلي الله عليه وسلم، لكن المحدثين فحصوا تلك الروايات وعرضوها علي أصول

الرواية بكل دقة واجتهاد، وفصلوها جانباً، والبحث في هذا الأمر موجود بتمامه وكماله في مقدمة الجزء الأول من هذا الكتاب، ورغم أن الاستدلال علي إثبات المعجزات بهذه الطريقة عجيب، لكنه ليس خطأ، وهذه هي الطريقة لإثبات أي أمر في هذه الدنيا، وهي الطريقة التي تفيد في هذا المجال أيضاً، ولكن ما معني أن يعلو العبوس جبهات مدعي العقل إذا ما استخدم الدين نفس طريقة الاستدلال التي تسير عليها أمور عالم اليقين.

الوسيلة لتصديق الأحداث غير المنظورة هي شهادة الروايات فقط:

إن العلم بالحدث الذي يقع في الدنيا يتم بأمرين فقط: فإما أن يكون الشخص موجوداً وقت وقوع الحدث، وإما أن لا يكون موجوداً. وفي الحالة الأولي يتوقف علمه بالحدث علي إحساسه ومشاهدته، وسيكون في غني عن مسائل الرواية ومشاكلها، مثل علم أولئك الصحابة الكرام بالمعجزات التي وقعت أمامهم. وفي الحالة الثانية يكون العلم بالحدث عن طريق الرواية فقط، وليس أمامه وسيلة أخرى غيرها للعلم بهذا الحدث، وهنا يكون واجبك هو تمحيص الرواية جيداً ومثلما تستخدم الوسائل المختلفة للتيقن من الأحداث العلمية الأخرى في الدنيا، عليك أن تستخدم هذه الوسائل في هذا الخصوص أيضاً، ورغم أنه ليس هناك حدود للاحتمالات العقلية والشبهات الذهنية، لكنها لا تكون عقبة في طريق اليقين فيما يتعلق بأمور الحياة اليومية.

اليقين علي خبر الآحاد أيضاً ممكن عقلاً:

دعك من الأخبار المتواترة والمشهورة والمستفيضة، حتى خبر الآحاد أنت تصدقه كل يوم، فالخطابات والتلغرافات والجرائد تعد جزءاً من حياتنا هذه الأيام، وأنت تثق بكل منها ثقة كاملة، فتنشر وكالة رويتر للأنباء في تلغرافاتها وأعمدة أخبارها الجادة أحداثاً واختراعات عجيبة محيرة، وعلاجات طبية، والناس يصدقونها، واليوم تعتمد التجارة علي مثل هذه الأنباء والتلغرافات، وهو ما يمثل خطراً مالياً شديداً، ومع ذلك فإن التجار جميعاً يصدقون أخبار الآحاد عن طيب خاطر، ويضحون بثروتهم في سبيل ذلك، ولا يهتمون بالشكوك العقلية بأنه من الممكن أن يكون الخبر قد ورد خطأ، أو كتب خطأ، أو أن المراسل يكذب، أو أن الكاتب نفسه اختلق الخبر، وكلها احتمالات قائمة، لكنها لا تؤثر مطلقاً علي اليقين العلمي.

إننا نذهب إلي المستشفيات، ونأخذ الدواء من العطارين والصيادلة، ونستعملها بكل اطمئنان، في حين أننا نعرف أن زجاجات الإكسير والسم تكون جنباً إلي جنب في هذه

المستشفيات، ومن الممكن أن يكون قول الذي وصف لك الدواء الموجود في روشتتك خطأ، ويلزمك الاحتراز من استعماله، ولكن هذا التخوف لا يتسلل إلي عقولنا أبداً، ونقدم أرواحنا لخبر الآحاد هذا بكل رضي. فلماذا إذاً يتصور أنه من الضروري إزالة كل الاحتمالات والشكوك العقلية بشأن الرواية والشهادة فيما يتعلق بالدين والمعجزات ؟.

أساس تصديق الأحداث ليس قائماً علي الإمكان وعدم الإمكان، وإنما علي ثبوت الرواية من عدمه:

إن من الإنجازات العظيمة لعلم التاريخ وفن " الرواية " الغربي أنه عندما تقص واقعة ما فإنك تتمعن أول الأمر في كون هذه الواقعة ممكنة أم لا ؟! فإذا ما تقرر إمكانية حدوثها يجب التمعن في جوانبها الأخرى، ولكننا علمنا أن علومنا العلمية جميعاً مبنية علي النقل والتجربة، ولهذا فإن الحكم علي شيء بكونه ممكناً من عدمـــه يبني علي الروايـــة والمشاهدة فقط، ومن ثم فإن أســـاس علم التـــاريخ ومنه " الرواية " ليس قائماً علي البحث في إمكانيته من عدمه، وإنما كما يقول علماؤنا يقوم علي كون هذه الواقعة صحيحةِ الرواية أم لا ؟

ينبغي أن تكون الشهادة (المشاهدة) علي قدر الحدث:

إننا لا ننكر صحة مبدأ أنه يجب أن تكون الشهادة علي قدر الحدث، لكن الأهميـــة هنا لنوعية الأشخاص وليس لعددهم، فهناك واقعة يرويها عدة أشخاص، لكن صدقهم محل نظر، بينما يروي شخص آخر موثوق في صدقه رواية أخرى، وتمت تجربة صدقه هذا مرات عديدة، ونعلم جيداً مدي فهمه، وقوة ذاكرته وحفظه، وكذا نعلم أن صفاته الأخلاقية الأخرى التي تؤثر علي " روايته " في غاية السمو والرفعة، فمن الطبيعي في هذه الحالة أن تكون شهادة الثاني أولي بالقبول من شهادة الأول، ولا يمكن أن يدعي أحد آخر في هذا العالم معرفته بشرائط الرواة هذه فيما يتعلق بروايات الدين غير ما هو معروف عند رواة المسلمين في الرواية الإسلامية، ولذا فإن للروايات الإسلامية أهمية كبرى قياساً بروايات المذاهب والأمم الأخرى في العالم.

المعجزات لا تكون خلاف التجريبيات حقيقة:

وهناك مسألة أخرى يجب توضيحها بهذه المناسبة، فإنه عادة ما يقال فيما يتعلق بشهادة المعجزات أنه بما أن الشهادة بوقوع المعجزة تكون خلافاً لمئات، بل لآلاف الشهادات الأخرى، لذا فإنها لا يمكن تصديقها، وهذا الكلام في الحقيقة يعد نوعاً ما من

المغالطة، وصحيح أن هناك آلاف، بل مئات الآلاف من الشهادات تقول بأن النار تحرق، فإذا ما شهد فرد بمعجزة أن النار ذات مرة لم تحرق، فإن شهادته هذه ليست خلافاً لآلاف أو مئات الآلاف من الشهادات الأخرى، وإنما هي شهادة بحدث آخر مستقل، بينما تكون مخالفة لهذه الآلاف المؤلفة من الشهادات حين يتم تكذيبها في واقعة بعينها، وحينئذٍ يأتي دور ترجيح إحدى الشهادتين علي الأخرى، ذلك لأن كلاً منهما يروي واقعة بعينها ولكن بنتائج مختلفة، بينما الأمر هنا ليس كذلك، إذ أن الذي يروي المعجزة لا يكذّب مئات الشهادات المتعلقة بحرق النار، لأنه يروي شهادته عن نار معينة لا يعلمون هم عنها شيئاً نفياً أو إثباتاً، وعلي سبيل المثال يشهد شخص بمفرده أن عيون الماء نبعت من بين أصابعه الشريفة صلي الله عليه وسلم، بينما يشهد مئات آخرون بأن هذا لم يحدث، ففي هذه الحالة يمكن ترجيح الشهادة الثانية علي الأولي، والمسلمون جميعاً علي أتم استعداد أن يستبعدوا أية معجزة من قائمة المعجزات النبوية إذا ما وجدت شهادات تنفيها.

دليل المعجزات الشهادات المروية:

المهم أن أصل البحث فيما يتعلق بالشهادة بالمعجزة ليس كونها ممكنة الوقوع أم لا وإنما أصل البحث هو درجة هذه الشهادة، ومعيار صحة وصدق الرواة في رواياتهم عنها، فتكون الحاجة هنا إلي دراسة صدق الصحابة الكرام والتابعين العظام وأمانتهم جنباً إلي جنب مع الجوانب الأخرى لحياتهم الأخلاقية، وهذا هو الشيء الذي يجعل من الشهادة بالمعجزة شهادة قوية أو ضعيفة، وهذا هو قانون الشهادة لدي المحدثين وعلماء الأصول، وبهذه الطريقة يثبت أهل السنة والجماعة المعجزات. يكتب العلامة أبو منصور عبد القادر البغدادي الأشعري عن مسلك أهل السنة في كتاب " الفرقة " قائلاً: ـــ

خلاصة البحث:

وخلاصة ما قيل في الصفحات السابقة ندرجه في السطور التالية:

١. إن المعجزة ما هي إلا خرق متصاعد لخوارق العادات وقاعدة العلة والمعلول، يظهرها الله تعالي علي الناس كآية علي صدق نبي من أنبيائه.
٢. إن تحطيم خوارق العادة وقاعدة العلة والمعلول أمر ممكن، بل وواقع في نفس الوقت.
٣. لأننا نعرف السنن الكونية، والأمور الطبيعية وسلسلة العلة والمعلول بالتجربة.

٤. ولأنه لا يمكن الادعاء بالشمولية والتعميم العقلي فيما يتعلق بالعلم الذي نحصل عليه بالتجربة، لذا لا يمكن الاستدلال به علي استحالة المعجزة.
٥. أساس التجربة هو المشاهدة الشخصية، أو شهادة من شاهد بنفسه.
٦. ولهذا فإن دليل المعجزة مبني علي شهادة من رأوها بأنفسهم.
٧. لقد ظلت شهادة " الرواية الإسلامية " والمعجزات النبوية الصحيحة علي درجة رفيعة بحيث لا يمكن أن تساويها أية " رواية تاريخية " أخرى في العالم، وهي التي توفر الدليل العلمي علي المعجزات وخوارق العادات.

اليقين مبدأ نفسي للمعجزات:

إن كل ما قيل حتى الآن كان معتمداً علي الفلسفة والمنطق، ولكن من الواضح والمعلوم أن الأمور العلمية في الدنيا لا تسير علي المبادئ والقواعد التي وضعها أرسطو، وإنما يُسيرها خالق الفطرة علي المبادئ والقواعد التي وضعها هو، وقد تكون بعض الأحداث عجيبة وبعيدة عن العقل إلي حد ما، إلا أن عدداً كبيراً من الناس يؤمن بها من قلبه دون دليل منطقي، إذ ليس من الضروري للإيمان بأمر ما أن يكون مطابقاً للفهم الإنساني، ويحقق مقتضيات العقل والاستدلال، والفلاسفة الطبيعيون، وحتى عامة الناس يؤمنون بوجود المادة، بالرغم من أنهم لا يستطيعون إثبات وجودها بالاستدلال، ومن الأمور التي نراها يومياً أنه حينما تُروي واقعة ما يصدقها بعض الناس فوراً وبغير دليل، وبعض الناس لا يكونون علي استعداد لتصديقها حتى ولو توفر الدليل والبرهان، حتى وإن التزموا الصمت لقوة الاستدلال، إلا أن قلوبهم تكون غير مطمئنة، والناس جميعاً لا تتفق في رأي واحد علي أناس يعملون في حزب ما أو بلد ما، فإذا آمنت جماعة وبكل قوة، بصدق وإخلاص هؤلاء، فإن جماعة أخرى تعدهم وبنفس القوة خونة ومرائين، بالرغم من خريطة أعمال هؤلاء أمام الفريقين تظل واحدة، إلا أن النتائج تكون مختلفة، ولا يملك أحد الفريقين دلائل واضحة علي ما يدعي، ولهذا فإن أسباب الإيمان والكفر، واليقين والشك لا تؤخذ من طريقة الاستدلال المنطقي، وإنما يؤخذ أغلبها من المبادئ والقواعد النفسية.

الإمام الغزالي وصور اليقين والإذعان:

وقد تحدث الإمام الغزالي في كتابه " إلجام العلوم" عن هذا الأمر بالتفصيل، وكيف يتولد بداخلنا إذعان للأحداث ويقين عليها. يقول أن المسلم العادي ليس في حاجة إلي علم

الكلام، ولكن إذا قال أحد بأن الله تعالي قد أمرنا بالإيمان بصفاته وتوحيده، وأن هذه الأمور ليست بديهية بحيث لا تحتاج إلي أدلة، وبنفس الطريقة فإننا بحاجة إلي تصديق النبي صلى الله عليه وسلم، وهذا التصديق يستحيل بغير التفكير في مسألة المعجزات ومعرفة حقيقتها وشرائطها، وبالتالي فهناك حاجة ماسة لعلم الكلام. يجيب الإمام علي هذا قائلاً أن الشخص العادي مفروض عليه الإيمان فقط بهذه الأشياء، والإيمان اسم لليقين الجازم الذي لا تردد فيــه ولا شك، وأن لا يعتقد بخطئه. ولهذا اليقين الجازم ست درجات يأتين من ست درجات مختلفة: ـــ

١. الدرجـــة الأولي لليقين هي التي تنتج عن دلائل تتوافر فيها شروط الدليل المنطقية جميعاً شرطاً شرطاً، وكل حرف من مقدمات هذه الأدلة تم تمحيصه بحيث لا يبقي في أي منها أي احتمال للشك والخطأ والالتباس، وطبقاً لهذا المبدأ فهناك قليل جداً من الناس الذين تيسرت لهم هذه الدرجة من اليقين، بل إننا لا نجد في كل عهد أكثر من شخص أو اثنين ينطبق عليهم هذا الأمر، فإذا كانت النجاة محصورة علي هذه الدرجة من اليقين فقط فإن تعداد الناجين سيكون قليلاً للغاية، بل إن فرص اليقين علي أحداث الدنيا أمام الناس تكون قليلة للغاية، وربما باستثناء الرياضيات فإن مثل هذه الصورة من اليقين تكون غاية في الصعوبة إن لم تكن مستحيلة.

٢. الطريقة الثانية: أن يحصل اليقين من تلك المسلمات التي يعتقد فيها الناس عامة وهي مشهورة ومقبولة بين أصحاب العقول والألباب، ويعتبر الناس أن مجرد إظهار الشك فيها أمراً مخزياً، وتأبي النفوس الإنسانية إنكارها، والاستدلال بهذه المقدمات يولد يقيناً جازماً لدي بعض النـــاس بحيث لا يجد التزلزل طريقاً إليه.

٣. الصورة الثالثة: أن يولد اليقين عن طريق تلك الخطابيات التي يستخدمها الناس عامة في محادثاتهم وأعمالهم وأمور حياتهم، ويعتبرونها عادة صحيحة، فإذا لم يكن الطبع الإنساني تجاه هذه المسألة بشكل خاص منكراً أو متعصباً بشكل كبير، ولم يكن السامع من معتادي التشكيك والمناظرة والجدال بغير داع، وكانت فطرته صالحة وصافية وبسيطة، فإن أكثر بني الإنسان يحصلون علي ثروة اليقين بهذه الطريقة، ولهذا فإن القرآن الكريم قد استخدم هذا الأسلوب من الاستدلال كثيراً.

٤. الصورة الرابعة: أن يكون هناك شخص صاحب تدين وصلاح، وهناك ثقة كبيرة فيما يخصه والناس يمتدحونه بكثرة، أو أنك أنت بناء علي تجربتك الشخصية معه تعتقد

بصحة كل ما يقول، فإن كلامه عندئذٍ يُولد بداخلك يقيناً مثلما يؤمن الناس بما يقول مشايخهم وأساتذتهم وعظماؤهم حرفاً حرفاً، فإذا ما نقل رجل كبير خبر وفاة شخص ما فإن الجميع يصدقونه، وبنفس الطريقة إذا كان هناك يقين علي صدق وعفة شخصٍ ما وعني تقواه وورعه وزهده، فإن الجميع يسلمون بما يقول وبغير تردد، وهكذا فإن حسن الاعتقاد بالرسول صلي الله عليه وسلم لدي أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وغيره من كبار الصحابة كان من جنس هذه الصورة، ولهذا فإنهم لم يكونوا يحتاجون إلي دليل لتصديق ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم.

٥. أما الطريقة الخامسة لليقين فهي أن تصدق قرائن أخرى واقع " الرواية "، وهي التي تُقنع عامة الناس وإن كانت لا تُشفي غليل من يُحبون المناظرة والجدال. فعلي سبيل المثال إذا انتشر في المدينة خبر بأن أميرها أصابه المرض، وارتفعت في الوقت نفسه أصوات البكاء والنحيب من القلعة، وحضر خادم ملكي ونقل أن الأمير مات، عندئذٍ لا يبقي أمام عامة الناس ما يجعلهم يرفضون التسليم بهذه الرواية، بالرغم من أنك تستطيع أن تجد عشرات الاحتمالات في طريق صحتها، وهذا هو السبب في أن كثيرين من الأعراب آمنوا بالرسول صلى الله عليه وسلم بغير دليل أو برهان، لمجرد أنهم رأوا وجهه المبارك مرة، أو سمعوا حديثه الرائع المؤثر، أو شاهدوا أخلاقه الكريمة " لأنهم سمعوا قبلاً عن نبوته عليه الصلاة والسلام، لكن صدق هذه الدعوى لم يكن قد تمكن من قلوبهم بشكل كامل بعد، لكن عندما واتتهم الفرصة برؤية النبي صلى الله عليه وسلم، قرروا إن كانت هذه الدعوى صحيحة أم خاطئة من خلال الملكة الموجودة في الإنسان، والتي تجعله يميز بين الحسن والسئ، وبين الخير والشر".

٦. والطريقة السادسة لليقين علي الرواية هي أنها إن تناسبت ومزاج السامع وأخلاقه ورغباته فإنه يصدقها، ولن يتردد في هذا أبداً، وليس هناك حاجة في مثل هذا اليقين إلي حسن الاعتقاد ولا إلي تأييد القرائن والشواهد، إذ أن هذا التناسب الفطري والطبيعي يكفي بنفسه للحصول علي اليقين، " وهذا هو السبب في دخول أولئك الصحابة في السابقين إلي الإسلام، والذين كانوا بفطرتهم أخياراً محبين للصدق باحثين عن الحق ".

إن الناس يولدون بداخلهم اليقين والإذعان من خلال هذه الطرق المختلفة، وهي نفس الطرق التي تؤدي إلي اليقين علي الغيبيات والمعجزات.

الفرق بين السحر والمعجزة:

والآن يتبادر إلي الذهن سؤال وهو أن الأمور العجيبة والغريبة تبدو من السحر والدجل والشعوذة مثلما تظهر من المعجزات، وإذا كان لفظ السحر هذا منفر في القرن العشرين، فاعتبر أن من معانيه التنويم المغناطيسي، في مثل هذه الحالة ما هو الفرق بين النبي والساحر والمنوم المغناطيسي ؟ هذا هو السؤال الذي يثير مناقشات طويلة بين علماء الكلام، فمن بين المعتزلة وأهل الظاهر يدعي العلامة " ابن حزم " أنه ما عدا المعجزة فإن السحر والشعوذة وما شابههما ما هي إلا خداع للبصر، أما المعجزة فتغير حقيقة الأشياء وتبدل خصائصها، والأشاعرة يسلمون بحقيقة السحر، لكنهم يقولون أن العجائب التي تظهر من المعجزات مثل يبوس ماء البحر، أو شق القمر وغيرهما لا يمكن أن يصدر مثلها من السحر والشعوذة. وعلماء الإسلام يرون أن الفرق بين المعجزة والسحر أن صاحب المعجزة ينفق قوته في الخير بينما ينفقها الساحر في الشر.

لكن الحقيقة هي أن أصل عقدة المسألة لا تحل بمثل هذه الإجابات، إذ عندما يقدم شخص لإثبات ما يدعيه ما هو في الظاهر أمراً خارقاً للعادة، فإن الحكم عليه حينئذٍ بأنه خداع بصر أو رمز إلهي أو عمل عادي أو إنجاز عظيم يعد أمراً صعباً ؛ لأنه لا توجد فروق ظاهرية في وقوع هذه الأشياء، كما أن الحكم بأن هذا الأمر أُنفق في الخير أم في الشر، أو أنه من الضروري أن تُنفق وتُصرف خوارق العادات في الخير أو في الشر ولا ثالث بينهما أمر يقبل كثيراً من النقاش، فإن بعض المنومين المغناطيسيين يعالجون بعض الأمراض بقوتهم، ويعالجون الفقراء بها، وهذا عمل خير، فهل ستعده معجزة ؟ !

الحقيقة أن هناك فرقين كبيرين بين المعجزة وعجائب الأمور الأخرى، أولهما هو: أن المعجزة من فعل الله مباشرة، بينما تكون عجائب الأمور الأخرى نتيجة للأسباب الطبيعية والنفسية. والفرق الثاني هو أن المعجزة يقصد بها القضاء علي أعداء الدعوة الإلهية أو تأييد مُبلغ الدعوة الإلهية، وحماية ومباركة المؤمنين الصادقين، ولا يكون هدفها مجرد الشعوذة واللهو واللعب والحيلة. وأما الشيء الأخير والذي يعتبر بمثابة حد فاصل بين هذين الاثنين " المعجزة وعجائب الأمور " هو أن الساحر والمشعوذ والمحتال يعرضون أفعالاً وعجائب، ولا يدعون بعد ذلك طهارة حياتهم وبراءة نواياهم ونقاء

وصفاء قلوبهم، وتبليغ الشريعة الإلهية، وتزكية القلوب، والقضاء علي العصاه، كما أن مثل هذه الفعال والخواص لا تصدر عنهم، لكن حياة الأنبياء عليهم السلام الطاهرة، وأخلاقهم الكريمة، وأعمالهم المقدسة، وخصائص النبوة وأحوالها الأخرى لديهم كلها تنادي وتشهد بنبوتهم، وتؤيد دعواهم في كل خطوة، وتولد دعوتهم إلي الحق ثورة روحية في الجماعات والشعوب والدول، وتشهد كل لمحة من حياتهم بصدقهم وحقانيتهم، إنهم يمهرون القلوب ــ وليس الذهب والفضة ــ بخاتم الصدق والإخلاص والإيثار والنقاء، بينما يستطيع الساحر والمنوم المغناطيسي أن يولد انقلاباً في خواص الأشياء، ولكن لا يستطيع أن يجعل من الكافر مؤمناً، ومن المسيء عفيفاً، ومن العاصي تقياً، ومن البخيل سخياً، ومن القاسي رحيماً، ومن الجاهل عالماً، إنه يستطيع أن يبدل الحديد إلي صورة الذهب الخالص، لكنه لا يستطيع أن يجلو قلباً أصابه الصدأ، وهذا الاشتباه والالتباس الظاهري لا يكون بين النبي والساحر والمتنبئ " النبي الكاذب " فقط، وإنما تشتبه كل حقيقة في الدنيا وتختلط مع ما يقابلها، فتتلامس خيوط الصبر والتسرع، والتوكل والتواكل، والبخل واعتدال الإنفاق، والكرم والإسراف، وقول الحق والتجرؤ، والشجاعة والتهور بحيث تتخدع فيها ملكة التمييز لدي الإنسان أحياناً. لكن أهل البصيرة لا يُخدعون بهذا التشابه الظاهري، فرغم أن الشكل والصورة الظاهرة لكل منهما واحدة، لكن خصائصها ونتائجها متفاوتة ومتباينة إلي حد يجعل التعرف علي حدود كل منهما والفرق بينهما فورياً. فحين يقدم النبي معجزته، ويعرض الساحر ألعابه، فإن ما يحدثانه من دهشة يجعلها في نظر العامة للحظة أمراً واحداً، ولكن عندما يزاح الستار عن الحقيقة، فإن أحدهما يكون تجسيداً للأخلاق، وملاكاً للطهارة، وحاملاً للشريعة، وطبيباً للمذنبين، ومعالجاً للقلوب، بينما يكون الآخر مجرد مشعوذ محتال مقلد ودجال.

ربما لا تستطيع العامة أبداً التفريق بين صوفي حقيقي وصوفي مزيف، وبين مكار وزاهد، وبين خبير في العلوم وآخر لا يعرف سوي القراءة، وبين جندي عادي وقائد شجاع، وبين طبيب حاذق وآخر عادي، ولكن عندما تتم مقارنة أعمال هؤلاء وخصائصهم وعلاماتهم وقرائنهم معاً فإن الفرق عندئذ يبدو واضحاً وضوح ما بين النور والظلام. وقد تحدث مولانا جلال الدين الرومي في مثنويه عن فروع المراتب هذه بتشبيهات رائعة فقال:

- وهكذا هناك مئات الألوف من الأشياء المتشابهة لكن البون بينهما شاسع.

- ولا حرج إن تشابه اثنان في الشكل فإن لون كل من الماء العذب والماء المالح صافياً شفافاً.
- والزنبور ونحل العسل يمتصان زهرة واحدة، ولكن أحدهما يفرز سماً والآخر عسلاً.
- وغزالان يأكلان من عشب واحد، ويشربان من ماء واحد، لكن أحدهما يخرج روثاً والآخر مسكاً.
- اثنان تربيا علي ماء واحد، ولكن أحدهما لا طعم له، والآخر بطعم السكر.
- رجل يتناول غذاء فيتولد فيه البخل والحسد، ويتناوله آخر فيتولد فيه نور إلهي.
- هذه أرض خصبة وتلك أرض بور، هذا ملاك مقدس وذاك شيطان وحيوان.
- البحر المالح والنهر العذب يلتقيان، ولكن بينهما حداً فاصلاً لا يتجاوزانه.
- ولا يمكن التمييز بين الذهب الخالص والذهب المزيف إلا بميزان ومحك.
- وصور الخير والشر والحسنات والسيئات متشابهة، فافتح عينيك لتستطيع التمييز بينهما.
- نصف النهر حلو المذاق كالسكر، ممتع في مذاقه، وأبيض اللون كالقمر.
- والنصف الآخر كسم الثعبان، مر في طعمه ومذاقه، وأسود اللون كالفحم.
- وكم من الأشياء هكذا حلوة كالسكر، والسم كامن في باطنها.
- فمن يستطيع التعرف عليها والتمييز بينهما سوي صاحب الذوق، وكيف تميز بين العسل والسم إذا لم تذق العسل.
- لتد قس السحر علي المعجزة، واعتقد أن أساس كل منهما خداع.
- إنك لا تستطيع التمييز بين الذهب الخالص وغيره إلا بمحك وميزان.
- فمن أودع الله روحه هذا المحك والميزان يستطيع التمييز بين الشك واليقين.
- وعندما لا يكون القلب مريضاً فإنه يتعرف علي طعم الصدق والكذب.

والآن بقيت شبهة واحدة وهي أن تلك الأفعال التي بها قوة الخوارق يمكن تغيير وجهتها بسهولة، بمعني أن الساحر يستطيع أن يستخدم قوته السحرية في تزكية أخلاق الدنيا وإصلاح العالم، وليس في هذا استحالة عقلية، لكن الاستحالة العقلية والإمكان للواقعي شيئان مختلفان، فمن الممكن عقلاً أن يصير كل شخص ملكاً وعالم عصره، وفاتحاً للدنيا، لكن ذلك لا يتيسر لكل شخص من الناحية العملية والواقعية ؛ ولهذا فإن

الساحر مجرد ممثل ولاعب ومؤد، ولا يمتلك القدرة أصلاً علي استخدام طاقته في تزكية النفوس وتطهيرها وإصلاح الأخلاق لدي العالم، وهذا هو السبب في أنه لم يقم أحد من السحرة حتى اليوم بأداء فريضة إصلاح العالم، لكن النبي صلى الله عليه وسلم يغير الدنيا بمعجزاته، ويزين هذا العالم الترابي بورود ورياحين الخير بعد أن يزيح منه أشواك الشر.

هل تكون المعجزة دليل النبوة أم لا:

وبهذا تحل قضية أن المعجزة دليل علي النبوة أم لا ؟ فالأشاعرة يجيبون بالإثبات، بينما يجيب المعتزلة بالنفي. وأوفي بيان لهذا الأمر هو ما قدمه " ابن رشد" في كتابه " كشف الأدلة "، وأثبت فيه أن المعجزة لا يمكن أن تكون دليل النبوة، لأنه من الناحية المنطقية يجب أن يكون هناك تناسب بين الدليل والادعاء، وليس هناك أية مناسبة بين النبوة والمعجزة. فعلي سبيل المثال عندما يدعي شخص النبوة فإنه يقصد أنه بعث من قبل الله من أجل إصلاح أخلاق وأعمال وعقائد الناس، ولكن حينما يُطلب منه دليل يصدق هذا الادعاء فإنه يملأ العيون الغائرة بالماء، ويشق القمر شقين، ويجعل من العصا ثعباناً، ورغم غرابة هذه الأحداث كلها إلا أنه ما المناسبة بينهما كدلائل، وبين دعوى " النبوة ".

افترض أن شخصاً يدعي أنه خبير في الفلسفة والرياضيات، ويجعل من الإنسان حيواناً، ومن الحيوان إنساناً كدليل علي دعواه هذه، فكيف يظهر من مثل هذا الفعل كونه خبيراً في الفلسفة والرياضيات ؟ ويجيب الأشاعرة علي هذا بقولهم أن النبوة مجموعة من العلم والعمل، والشخص الذي يدعي النبوة يُعترف له بالكمال في كليهما، وتُطلب المعجزة لإظهار هذا الكمال، ورغم أن معجزات الأنبياء تختلف عن بعضها البعض، إلا أنه يمكن أن نحصرها في أمرين اثنين: الإخبار بالغيب والتصرف في الكائنات، وبين هذين وتفاصيـــل النبوة ربط واتحاد، فالإخبار بالغيب يُظهر كمالاته العلمية، والتصرف في الكائنات يُظهر قوته العملية، وهناك مناسبة أخرى بين هذه وهي أن المعجزة اسم لخرق العادة، وليس هناك شك في أن خصائص وعلل الحقائق والأشياء هي من حكم الله تعالي وأمره. فإذا ما حطم شخص بمعجزته هذه الخصائص والعلل، فكأنه يثبت بهذا أن الذات العلية التي خلقت تلك الأسباب والعلل هي التي تحطمها، ولأن هذا التحطيم وهذه الخرق حدث من خلاله هو، فإن هذا يثبت أنه مبعوث من قبل الله. ومثال هذا أن سلطاناً يرسل رسوله إلي رعاياه، فتسأل الرعية ما دليل أنك رسول السلطان ؟ عندئذٍ يقدم ختم السلطان وخاتمه كجواب لسؤالهم. ورغم أنه ليست هناك مناسبة مباشرة بين الختم والخاتم، وبين

إدعاء رسول السلطان بأنه رسول، ولكن هذا التناسب يظهر من أن الختم والخاتم هي علامة السلطان، والتي لا يمكن أن تُعطي لرجل غيره، ويُعلم من هنا أنه أرسل من قبل السلطان رسولاً، وأُعطيت له العلامة الخاصة بذلك.

وهناك مثال عام يقدم في كتب علم الكلام وهو أن كل شخص يعلم أن البلاط الملكي ومواكب السلطان لهما آداب وتقاليد خاصة، فالسلطان لا يجلس أثناء انعقاد البلاط علي الأرض، وإنما بجلس علي عرش مُذهب ومفضض، وهو لا يسير في المواكب على قدميه، وإنما يكون راكباً، فإذا ما جاء شخص مرسل من قبل السلطان إلي ملأ من الناس مدعياً أنه مرسل من قبل السلطان، فإن هذا الملأ يرفض ادعاءه هذا، وعندئذٍ سيخاطب هذا الشخص السلطان قائلاً: أيها السلطان. إن كنت مرسلاً من قِبَلك حقيقة فاجلس علي الأرض وسِر علي قدميك خلافاً للتقاليد السلطانية، ويجلس السلطان علي الأرض، ويسير علي قدميه تلبية لطلبه، وهذا التصرف من الملك يؤكد يقيناً أن الرجل مرسل من قِبل الملك. وهكذا فإن كل الأسباب والعلل في هذه الدنيا ما هي إلا أصول وتقاليد حكومة الله فيها، والنبي يدعي أنه من قِبل الله تعالي، والكفار ينكرون كونه من قِبل الله، وعندئذٍ يقول: يا الله، لو أني مرسَــل من قِبلك حقيقة فأظهر معجزة وخرقاً للعادة علي خلاف تلك الأصول والتقاليد، والله يفعل هذا، وبالتالي فإن هذا دليل علي أن هذا الرجل من قِبل الله فعلاً.

ولكن إذا كانت المعجزة دليل النبوة فما هو نوع هذا الاستدلال من الناحية المنطقية ؟ واضح أنه لا يمكن أن يسمي برهاناً يقينياً، إلا أن الدليل لا ينحصر علي برهانين فقط، وإنما تكون له أقسام أخرى متعددة، والمعجزة تدخل في هذه المقدمات. وقد أدخل " ابن رشد " المعجزة في باب " الخطابيات "، يعني إذا كانت المعجزة لا تدل بنفسها دلالة يقينية علي النبوة، إلا أنه عندما يتصرف نبياً في سلسلة الكائنات تصرفاً عجيباً وغريباً فإن كل من يراه سيعترف له بالكمال الروحاني، وسيعتقد أن الشخص الذي يملك القدرة علي التصرفات العظيمة لابد أن يكون صادقاً في ادعائه، ورغم أن النتيجتين، أي التصرف في الكائنات والإصلاح الروحي، ليس بينهما أي تلازم، إلا أنها كافيتان لجذب انتباه وإعجاب العامة، لكن الأصح أن يطلق عليه " جدل "، والذي يستدل فيه بمسلمات الخصم، وتسمية المعجزات بالجدل أكثر معقولية من الناحية التاريخية، وهناك تصور قديم وحتى الآن وهو أن الأنبياء يملكون بداخلهم قوة ما غير عادية، وهي التي تميز الأنبياء

من عامة الناس، وبناءاً علي هذا فإنه عندما يُبعث رسول إلي أمة من الأمم فإن الناس يطلبون منه المعجزة بناءاً علي هذا التصور الموروث، ويضطر النبي إلي إظهار المعجزة، ورغم أن هذه المعجزة لا يمكن أن تكون دليلاً وحجة لفيلسوف، إلا أن الذين يعترفون بالمعجزة دليلاً علي النبوة، وقد وقعت المعجزة بناءاً علي طلبهم وإصرارهم، فإن من الممكن إقناعهم وإسكاتهم بها، ويمكن أن تكون دليلاً لهم، لكن الحقيقة هي أن هناك خلطاً في هذا المبحث بين الأشاعرة والمعتزلة، إذ أن قول الأشاعرة بأن المعجزة دليل علي النبوة لا يعني أنه دليل منطقي، ويكون اعتراض المعتزلة صحيحاً عندما يدعي الأشاعرة أنه دليل منطقي. ولفظ " دليل " هنا لم يستعمل في المحاورة المنطقية، وإنما استعمل بمعناه اللفظي العام " علامة، آية "، وبناءاً علي هذا فإن المعجزة ليست بالأصل دليلاً منطقياً، وبالتالي فإن البحث عن نوع الدليل الذي تدخل في بابه أمر لا جدوى منه، ولهذا يقول الأشاعرة أن دلالة المعجزة علي النبوة ليست دلالة عقلية، وإنما دلالة عادية، وشرح المواقف في بحث المعجزات: " وهذه الدلالة ليست دلالة عقلية محضة كدلالة الفعل علي وجود الفاعل، ودلالة إحكامه وإتقانه على كونه عالماً بما صدر عنه، فإن الأدلة العقلية ترتبط نفسه بمدلولاتها، ولا يجوز تقديرها غير دالة عليها، وليست المعجزة كذلك، بل هي دلالة عادية كما أشار إليه بقوله وهي عندنا أي الأشاعرة إجراء الله عادته بخلق العلم بالصدق عقيبه أي عقيب ظهور المعجزات ".

وتفسير قول الأشاعرة هذا في ضوء المحاورة العلمية لآياتنا هذه هو أن دلالة المعجزة ليست عقلية، وإنما عادية. إذ أن المعجزة ليست دليلاً منطقياً، وإنما دليل نفسي، فعادة الإنسان أنه عندما يصدر عن شخص ما عمل غير عادي فإن النفوس تنحني أمام عظمته وكبريائه، وعندما يرتفع شخص ما عن الحالة الإنسانية العامة ويدعي أنه من قِبل الله تعالي، وتصدر عنه خوارق للعادة، فإن أصحاب الطباع التي تتأثر يسلمون بدعواه فوراً. واليوم رغم أنه لم تعد هناك نبوة، إلا أن هناك الولاية، إذ أن من يعتقد الناس فيه أنه ولي كامل ومن أهل الله، فإن سؤالاً يتبادر إلي الذهن وهو هل تصدر عنه كرامات أيضاً ؟! فإن كانت الإجابة بنعم، واقترن بها مشاهدة شخصية أيضاً، فإن حسن الاعتقاد يتعلق بهذا الشخص يزداد، وهذا أمر إنساني بحت، ولا فرق فيه بين مؤمن وكافر أو عاقل وأحمق أو شرقي وغربي، لكن الطبائع التي لا تتأثر فطرة، وتتسم بالعناد والتعصب وسوء الباطن تكون هذه المعجزات والخوارق عديمة الجدوى بالنسبة لها، إذ أن عنادها

وتعصبها وسوء باطنها يقودها دائماً إلي سوء الظن بدلاً من حسن الظن، فيشاهدون أعظم المعجزات، ثم يقولون أنها سحر ودجل وشعوذة، ولذا فإن الطريق الصحيح في هذا هو أن تُختبَر أخلاق مدعي النبوة وإخلاصه وطهارته وعفته، ومن تثبت له هذه الصفات فإنه من غير الممكن عادة أن يكون كاذباً، وقد تنـــاول هذا البحث بالتفصيـــل كل من الإمـــام الغزالي في كتابه " المنقذ "، والإمام الرازي في كتابه " المطالب العالية "، والعارف الرومي في مثنويه، وأثبتوا أن الدليل الأصلي علي النبوة ليس المعجزة، وإنما التعليم والإرشاد وقوة العلم والعمل.

تقرير الإمام الغزالي:

إن للنبوة بعض الآثار والخصائص، فإن حدث شك ما في كون شخص ما نبياً أم لا، فإن معرفة هذا ممكنة من التعرف علي أحواله فقط، وهذه المعرفة إما أن تكون عن طريق المشاهدة الذاتية مثلما حدث مع الصحابة الكرام، أو عن طريق الخبر المتواتر مثلما هو حال عامة الناس الآن، ومن كانت لديه ملكة التعرف علي الآثار والأحوال هو الذي يكون علي استعداد للتصديق. علي سبيل المثال إن كنت علي معرفة بالطب والفقه، ولديك تذوق لهما، فإنك عندئذٍ تستطيع عندما تستمع إلي كلام من يدعي أنه طبيب أو فقيه، وتري أحواله، أن تقرر إن كان طبيباً أو فقيهاً أم لا، وبالتالي تستطيع أن تتحقق من علم الفقه لدي الإمام الشافعي، وعلم الطب لدي جالينوس بالبحث الذاتي وليس عن طريق التقليد، ورغم أن الإمام الشافعي وجالينوس ليسا موجودين معنا اليوم، لكنك تستطيع أن تقرأ مؤلفاتهما وحياتهما، وتقرر أن الإمام الشافعي كان فقيهاً كاملاً، وأن جالينوس كان طبيباً حاذقاً أم لا. وعلي نفس المنوال فإن بالرغم من أن رسول الله صلي الله عليه وسلم ليس موجوداً بيننا، لكن سيرة حياته وشريعته وتعاليمه وإرشاداته صلى الله عليه وسلم موجودة، ويستطيع أي شخص أن يتحقق من نبوته صلى الله عليه وسلم من خلالها، وهكذا ينبغي التحقق من نبوة من يدعي النبوة بنفس الطريقة والأسلوب، وليس من خلال تحويل العصا إلي حية تسعي، وشق القمر، إذ أنك لو نظرت إلي هذه الخوارق ولم تربطها بالقرائن والشهادات الأخرى التي لا حصر لها فإن هناك خطراً عندئذٍ أن تظن أنها سحر وخداع بصر [1]

---

[1] - المنقذ من الضلال ـــ ص٣٥، ٣٦ ـــ مصر.

خطبة الإمام الرازي:

وكان الإمام الرازي أكثر من ناقش قضية النبوة ومتعلقات النبوة في كتابه " المطالب العالية "، وخلاصة ما كتب أن هناك جماعتين من بين الذين يعترفون بالنبوة، واحدة منهما تقول: أن المعجزة دليل النبوة، وهذا هو مسلك جمهور أهل المذهب. والثانية تقول بأنه علينا قبل كل شيء أن نعرف ما هو الحق والصدق، وبعد ذلك فإننا عندما نري شخصاً يدعو الناس إلي الدين الحق بدعوى النبوة، وتكون دعواه مؤثرة وهو يبعد الناس عن عبادة الباطل ويدعوهم إلي عبادة الحق، فإننا عندئذٍ نتيقن أنه رسول صادق. وهذا المسلك هو الأقرب إلي العقل والشك فيه أقل.

وتفصيل هذا الإجمال هو أن كمال الإنسانية وتصحيح القوة العلمية والعملية تكميل وتزكية، والإنسان باعتبار هذه القوة ثلاث طبقات. الأولي: هي التي تكون ناقصة في هذا الأمر، وهم عامة الناس. والثانية: هي التي تكون كاملة بنفسها، ولكنها لا تستطيع تكميل غيرها، وهم الخاصة والصالحون. أما الثالثة: فهي الكاملة بنفسها، وتكمل غيرها وهم الأنبياء. ولهذا الكمال والنقص آلاف الدرجات والمراتب المتباينة، ومن خلالها يمكن معرفة قوتهم ومراتبهم، وتكون المقدمات كلها بديهية أمام قوتهم العلمية. ولهم تمكن في المعارف الإلهية، وتتصرف قوتهم العملية في هذا العالم الجسماني، وهذا هو هدف المعجزات، ويظهر مع كمال هذه القوة العلمية والعملية أنهم يكملون أولئك الاثنين الذين يعدان ناقصين بين الناس بفيض صحبتهم وفيض تعليمهم، ويعالجون الأمراض القلبية، وهذا هو دليل النبوة.

ويؤكد الإمام الرازي بعد هذا التفصيل أن القرآن الكريم قد سلك هذه الطريقة لإثبات النبوة، وعرض لتفسير بعض السور القرآنية التي جاء الحديث فيها عن هذه الخصائص والنتائج والآثار ([1]).

حقائق مولانا الرومي:

وقد قرّب مولانا الرومي هذا الموضوع إلي الأفهام عن طريق التشبيهات والتمثيلات الرائعة، بحيث تزول كل الشكوك والشبهات من حوله. وقد نقلنا من قِبل أشعار مولانا

---

[1] ـــ النسخة التي أمامي من كتاب " المطالب العالية " ناقصة، وقد نقل هذا الفصل راغب باشا في سفينته " كتاب السفينة " ونشر مولانا شبلي في ملحق " الكلام ". انظر: سفينة راغب باشا، طبعة مصر، ص٢٧٧.

الرومي، والتي قال فيها أن أول شيء يتطلبه التصديق بالنبوة هو حسن وجمال الذوق، فالماء العذب والماء المالح كلاهما واحد في الشكل واللون والرائحة، لكن صاحب التذوق هو الذي يستطيع التفرقة بينهما، وبنفس الطريقة فإن النبي والمتنبئ كلاهما في الشكل الظاهري وادعاء النبوة واحد، لكن صاحب الذوق هو الذي يميز بين الاثنين من خصائصهما وآثارهما.

- تمعن ! من غير صاحب الذوق يستطيع التمييز.
- إنه هو الذي يستطيع التمييز بين الماء العذب والماء المالح.
- من غير صاحب الذوق يستطيع التمييز في الطعم.
- وإن لم تذق الشهد فكيف تميز بين الشهد والشمع.
- لقد قاس السحر علي المعجزة، واعتقد أن كلاً منهما مبني علي الخداع.
- إنك لا تستطيع التمييز بين الذهب الخالص والذهب غير الخالص بغير عرضهما علي محك الذهب.
- ومن أودع الله هذا المحك في روحه.
- هو الذي يستطيع التمييز بين اليقين والشك.
- عندما يتطهر قلب الرجل من الأمراض.
- فإنه يتعرف علي طعم الصدق والكذب.

والشيء الآخر هو الرغبة والطلب، فطالما لم تكن في القلب رغبة أو طلب لشيء ما فإنه لا يلتفت إليه، ومن لا يشعر قلبه بجوع نحو الصدق والحق فإنه لا يطلب الغذاء الروحي. وعندما يتولد في القلب طلب ورغبة، وفي الروح اضطراب عندئذ يرتفع تماماً عن الجدل اللفظي حول الدليل والبرهان، ذلك إن أصاب العطش أحداً وطلب منك ماءً، وأشرت أنت إلي كوب الماء قائلاً: إن هذا ماء، أتراه يطلب منك دليلاً علي قولك هذا بأن تثبت أولاً أن هذا ماء ؟ كلا، إنما سيمد يده إلي الماء بكل حب واشتياق، وبغير أن يسألك الدليل، وسيشرب الماء.

- عندما تقول لظمآن ! اذهب بسرعة،
- وانظر فذلك ماء في القدح.
- هل سيقول الظمآن عندئذ،
- دعني فإن هذا محض ادعاء منك.

- أو سيقول أن عليك أن تأتيه أولاً بدليل علي أن ذلك ماء.
- أو أنه عندما تنادي أم علي طفلها قائلة أيها الطفل إني أمك.
- فسيقول الطفل لها قدمي الدليل علي ادعائك بأنك أمي، وعندئذٍ سأرضع منك.
- إن الذي في قلبه متعة الحق يكون وجه النبي وصوته معجزة له.
- عندما يرفع النبي صوته " ينادي " من الخارج.
- فإن روح الأمة تخر ساجدة من الداخل.
- والسبب في ذلك هو أن الروح
- لم تسمع من قبل في الدنيا صوتاً مثل صوته.

والشيء الثالث هو: اتحاد الجنس والنوع، إذ أن الغرض من وراء المعجزة يكون إسكات المعارضين وإفحامهم، وأنت تستطيع أن تُخضع المعارض والمخالف بعد إفحامه وإسكاته، لكنك لا تستطيع أن تطمئن وتقنع قلبه، والطريقة الصحيحة هي أن الذين في قلوبهم عنصر الحق والصدق يبحثون عن الشيء المماثل لديهم ويطلبونه.

- الحقيقة أن المعجزات لا تكون سبباً في الإيمان، وإنما رائحة اتحاد المثل
- تجذب صفاته له.
- تكون المعجزات لإسكات المخالف.
- بينما تكون رائحة اتحاد وتماثل العنصر للتأثير في القلوب.
- إنك تستطيع إخضاع العدو والتغلب عليه، لكنك لا تستطيع أن تحيله صديقاً.
- كيف تحول ذلك الذي أوثقته من عنقه عنوة إلي صديق.

وهكذا يكون السبب في حدوث المعجزات في الغالب حيث يعتقد المعاندون بكذب النبي، ولذا يطلبون منه أمراً خارقاً للعادة، ويكونون علي يقين من أنه لا يستطيع أن يفعل، وبالتالي سيتم التشهير به وسط الناس، وسيتم تكذيب دعواه. لكن الله تعالي يُظهر خرق العادة علي يديه، وبالتالي يظهر صدقه وحقيقته بدلاً من كذبه والتشهير به، وبناءاً علي هذا تصبح المعجزة دليلاً وآية علي صدقه. لقد جمع فرعون السحرة، وأراد أن يذل موسى، لكن هذا الأمر كان سبباً في نجاح موسى وفشل فرعون، وآمن مئات من السحرة بدعوة موسى، وهكذا فإن وجود المعاندين ضروري لإعلاء صوت النبوة ورواجها وانتشارها.

- يبغي المخالفون من وراء طلبهم المعجزة أن يربكوا الصالحين.

- معتقدين أن في فشلهم عزة لهم وكرامة.
- يريدون بطلب المعجزة إذلال النبي لكن
- رغبتهم في هذا الإذلال تصير سبباً في رفعة الأنبياء واحترامهم.
- فإن لم ينكر أحد من أهل السوء النبي واعترض عليه.
- فلماذا تنزل المعجزة إذن.
- وطالما كان الفريق الآخر " المخالف" منكراً للدعوة، وغير راغب في التصديق
- فإن القاضي يطلب الشهود بداهة.
- وهكذا أيها العاقل فإن المعجزة شاهد للنبي.
- تظهر تصديقاً له فيما يدعي.
- وحين يعترض أحد الجهلاء
- فإن الله ينعم علي النبي بمعجزة.
- لقد احتال فرعون في مخالفة موسى بحيل عديدة،
- ولكن كل منها كان بمثابة إذلال له وقضاء عليه.
- لقد جمع السحرة كلهم جيدهم وسيئهم.
- حتى يبطل معجزة موسى.
- ويبطل قوة عصا موسى ويثبت كذبها،
- ويقضى علي الثقة بها من قلوب الناس.
- ولكن هذه المؤامرة نفسها صارت دليلاً علي صدق موسى،
- وزاد بها قدر عصا موسى ومنزلتها.

ولو كان المقصود من المعجزة هو التأثير علي قلوبهم بعد إسكاتهم، وإظهار كذبهم لما كان من الضروري أن تحول العصا إلي حية تسعي، أو يشق القمر إلي نصفين حتى يتم التأثير علي القلوب، إذ كان من الأسهل والأيسر بدلاً من التصرف في تلك الجمادات والنباتات من أجل التأثير في القلوب هو أن يتم التأثير والتصرف في القلوب مباشرة بحيث يهبون لتلبية نداء النبوة بمجرد سماعه. إن فرقة المعاندين التي تطلب المعجزة وتريد أن ترى من الأنبياء أثراً لهم علي الجمادات والنباتات، ويبدون استعدادهم للإيمان بهذه الطريقة يكون طلبهم هذا في ذاته دليل علي انحطاط ضمائرهم وسواد قلوبهم. ومن كانت مرآة قلبه صافية نقية يتأثر بالأنبياء مباشرة وبغير واسطة من الجمادات والنباتات.

ومع ذلك فإن المعجزة لا تؤدي بالناس جميعاً إلي الهداية، فهي تحتاج إلي استعداد لدي الشخص، إذ ليس هناك شك في طراوة النهر وكونه باعثاً علي تنشيط الروح، ولكن لا يستطيع المخلوقات البرية الحياة فيه.

- إن المعجزة التي تؤثر في الأشياء التي لا روح فيها، وتتصرف فيها مثل تحويل العصا إلي ثعبان، وانشقاق القمر والبحر.
- إن كانت تؤثر في الروح بشكل مباشر لتولدت علاقة بينها وبين الروح من تلقاء نفسها.
- لكن أثرها علي غير ذوي الأرواح تأثير عارض، وهو للروح مختفى.
- ويكون المقصود هو أن تتأثر روح الإنسان عندما تري تأثر الأشياء التي لا روح فيها.
- لكن المعجزة تؤثر مباشرة وبلا واسطة في الروح الكاملة، وتكون بمثابة الحياة لطالبها.
- إن المعجزة كالنهر، والناقص كالطير البري، فإذا نزل الطائر البري إلي النهر غرق.
- لكن الطائر المائي لن يهتم بالموت إذا نزل في النهر، بل إن البر هو الموت للأسماك التي تخرج من النهر.

المهم هو أنه مثلما تكون باقي الأدلة علي صدق النبوة عديمة التأثير في الناقصين والمعاندين، كذلك لا فائدة في المعجزة لهم. ومن النادر أن تؤمن تلك الفرقة التي تطلب حدوث معجزة، لكن أولئك الذين يتأثرون بوجود الأنبياء مباشرة لا حاجة لهم بالمعجزة لقبول الأثر، وقد ظل أبو جهل كافراً بالرغم من أنه رأي معجزات الجمادات، بينما صار أبو بكر بمعجزة القلب الصديق الأكبر.

- لقد طلب أبو جهل بعناده المعجزة من النبي صلي الله عليه وسلم.
- لكنه لم يزد برؤية المعجزة غير شك، ولم يجد بداخله يقيناً.
- بينما لم يطلب أبو بكر معجزة، وقال بأن هذا الوجه النبوي لا يمكن أن ينطق بغير الصدق.

كيف أيقن الصحابة بالرسالة:

وهنا دعك من النظريات والفرضيات، وخذ الأحداث والوقائع. فعندما صدع النبي صلى الله عليه وسلم بأمر النبوة لم يكن هناك من يؤيد هذا الصوت، وكانت العرب عن بكرة أبيهم أعداء لصوت هذا الحق، لقد كان صلي الله عليه وسلم يدعوهم إلي التخلي عما تعودوا عليه من أجيال سابقة، وكان يذم ذلك المذهب الذي ورثوه وسري في أوصالهم، وكان يحطم تلك الأصنام والآلهة التي كانوا يرتعدون من هيبتها ورعبها، وكان يريد القضاء علي كل العادات والأفعال السيئة التي صارت من خصائص العرب مثل السرقة، السلب، النهب، القتل، الحقد، العداوة، الربا، القمار، الزنا وشرب الخمر وغيرها مما شابهها، وبالإضافة إلي ذلك لم يكن النبي صلى الله عليه وسلم يمتلك قوة مادية ظاهرة، فلا مال ولا ثروة، ولم يكن لديه صلى الله عليه وسلم شيء مادي يعوض به أولئك الذين قبلوا دعوته عما يلحق بهم من مصائب وبلاء، وكان كل شخص يعرف أن مجرد ذكره للإسلام سيعرضه للطرد من بيته، والحرمان من أملاكه، والبعد عن أهله، والهجرة من وطنه وسوء السمعة بين أكابر بلده، ووجهاء قريش، وكان الجميع يري ما يتعرض له المسلمون الضعفاء من قسوة وإيذاء، وبالرغم من كل هذا فقد كان هناك خلق كثير يأتون باحثين عن الأعتاب المحمدية، وكان الناس يأتون خفية من القبائل العربية البعيدة النائية، ويبايعون النبي صلى الله عليه وسلم، ثم يعودون من حيث جاءوا، بل إن أولئك الذين كانوا أعداءً له صلى الله عليه وسلم، وخالفوا الإسلام وحاربوه في بدر وأحد والأحزاب والخندق أحنوا جميعاً في النهاية رأس الطاعة.

فماذا كانت الأسباب وراء كل هذا إذن ؟ وكيف آمنوا بمحمد صلي الله عليه وسلم، وتيقنوا من صدق رسالته ؟. من السهل أن نقول مثلما يقول المسيحيون بأن: محمد صلى الله عليه وسلم أخضع الناس له بالقتال، لكن السؤال هو من أين جاء كل هؤلاء المحاربين الفدائيين، وكيف ظهروا ؟. من الذي حاربهم وأخضعهم ؟. والآن إن تمعنت في الأسباب التي دفعت من أسلم إلي إسلامه فستعلم أن هذه الأسباب لم تكن واحدة، المئات والألوف علي يقين من نتيجة واحدة، لكن إن بحثت عن أسباب هذا اليقين فستعرف أن أسباب هذا اليقين لدي كل واحد منهم وعلله وطريقة إذعانه تختلف عن الآخر. صدق آلاف الصحابة بنبوته صلى الله عليه وسلم، وآمنوا برسالته، وتيقنوا من صدقه، لكن هذا التصديق وهذا الإيمان وهذا اليقين لم يكن نتيجة لسبب واحد بعينه، ويظهر من كل هذا أن المعجزة ليست

هي الدليل الوحيد علي النبوة، وإنما تكون الأدلة والبراهين المختلفة مؤثرة وفعالة في الطبائع الصالحة والقلوب السليمة فيما يتعلق بتصديق النبي صلى الله عليه وسلم.

لقد آمن سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بمجرد سماعه دعوة النبوة، وأغناه صدق الدعوة عن كل دليل وبرهان، وآمن سيدنا عبد الرحمن بن عوف، وسيدنا عثمان، وسيدنا عبيده بن الجراح رضي الله عنهم لمجرد أنهم رأوا رجلاً عاقلاً حكيماً كأبي بكر تأثر بصدق الدعوة، وآمنت السيدة خديجة قائلة كلاّ، أبشرْ، فوَ الله لا يُخزيكَ الله أبداً، إنكَ لتصلُ الرَّحمَ، وتصدُقُ الحديث، وتحملُ الكلَّ، وتَقرِي الضيفَ، وتعين على نوائبِ الحقّ"([1]). وآمن سيدنا أنيس الغفاري وسيدنا عمرو بن عنبسة عندما رأوا أنه صلي الله

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٦٨٣٠) ـ حدثنا يحيى بن بُكير حدَّثنا الليثُ عن عُقَيل عن ابن شهاب ح وحدثني عبدُ الله بن محمد حدثنا عبدُ الرزّاق حدَّثنا معمرٌ قال الزُهريُّ: فأخبرني عروة عن عائشة رضيَ الله عنها أنها قالت: «أوَّلُ ما بُدِىءَ به رسولُ الله صلى الله عليه وسلم من الوحي الرُّؤيا الصادقة في النوم، فكان لا يَرَى رُؤيا إلا جاءتهُ مثلَ فَلَقِ الصُّبح فكان يأتي حِراءً فيتحَنَّثُ فيه ـ وهو التعبدُ ـ اللياليَ ذواتِ العدد، ويَتزوَّدُ لذلك، ثم يَرجعُ إلى خديجةَ فتزوِّدُهُ لمثلها، حتى فَجِئَهُ الحقُّ وهو في غارِ حِراء، فجاءهُ الملك فيه فقال: اقرَأ، فقال له النبي صلى الله عليه وسلم: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغطَّني حتى بلغَ مني الجَهْدُ ثم أرسلني فقال: اقرأ. فقلتُ: ما أنا بقارىء، فأخذَني فغطَّني الثانية حتى بلغ مني الجهدُ، ثم أرسلني فقال: اقرَأ، فقلتُ ما أنا بقارىء، فأخذني فغطني الثالثة حتى بلغَ مني الجهدُ ثم أرسلني فقال: {اقرَأ باسم ربِّكَ الذي خلق ـ حتى بلغَ ـ مالم يَعلم} (العلق: ١ ـ ٥)، فرجَعَ بها ترجفُ بَوادرُه، حتى دخلَ على خديجةَ فقال: زَمِّلوني، زملوني. فزَمَّلوه حتى ذهبَ عنه الرَّوعَ فقال: ياخديجةُ مالي؟ وأخبرَها الخبرَ وقال: قد خَشِيتُ على نفسي، فقالت له: كلاَّ، أبشرْ، فوَ الله لا يُخزيكَ الله أبداً، إنكَ لتصِلُ الرَّحمَ، وتصدُقُ الحديث، وتحملُ الكلَّ، وتَقرِي الضيفَ، وتعين على نوائبِ الحقِّ. ثمَّ انطلَقتْ به خديجةُ حتى أتت به ورقةَ بن نوفل بنِ أسَد بن عبدِ العُزَّى بن قصيّ ـ وهو ابنُ عمِّ خديجةَ أخو أبيها ـ وكان امرأً تنصرَ في الجاهلية، وكان يكتبُ الكتابَ العربيَّ فيكتبُ بالعربيةِ منَ الإنجيل ما شاء الله أن يكتبَ، وكان شيخاً كبيراً قد عميَ، فقالت له خديجةُ: أي ابنَ عمِّ، اسمَعْ منَ ابن أخيك. فقال ورقةُ: ابنَ أخي ماذا ترى؟ فأخبرهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ما رأى، فقال ورقةُ: هذا الناموسُ الذي أُنزِلَ على موسى، ياليتني فيها جذَعاً أكون حيّاً حينَ يخرجُكَ قومك. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخرجِيَّ هم؟ فقال ورقةُ: نعم، لم يأتِ رجلٌ قطُّ بما جئتَ به إلاّ عودِي، وإنْ يُدركْني يَومكَ أنصرْكَ نصراً مُؤزَّراً. ثمَّ لم يَنشبْ ورقةُ أن تُوفيَ، وفتر الوحيُ فترةً حتى حَزِنَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فيما بلغنا حُزناً غدا منه مراراً كي يَتردَّى من رؤوسِ شواهقِ الجبال، فكلما أوفى بذِروة جَبلٍ لكي يُلقي منه نفسه تبدَّى له جبريل فقال: يامحمدُ، إنكَ رسولُ الله حقاً فيسكنُ لذلك جأشه وتقرُّ نفسه فيرجعُ،

عليه وسلم يدعوا إلي مكارم الأخلاق، ودخل سيدنا عمر رضي الله عنه وسيدنا طفيل بن عمرو الدوسى وسيدنا جبير بن مطعم والنجاشي ملك الحبشة، ومئات غيرهم في الإسلام عندما سمعوا كلام الله، وهتف سيدنا ضماد بن ثعلبة الأزدي بالحق عند سماعه " الشهادتين "، وهتف سيدنا عبد الله بن سلام عندما رأي وجهه صلى الله عليه وسلم قائلاً: " هذا ليس وجه كاذب "، ودخل سيدنا ضمام بن ثعلبة سيد بني سعد في الإسلام عندما دخل علي حضرة النبي صلى الله عليه وسلم في بساطة طالباً منه أن يقسم علي أن الله أرسله حقاً وصدقاً، وعندما أقسم الرسول صلى الله عليه وسلم أسلم.

وكان الكثيرون من قبيلتي الأوس والخزرج يسمعون من جيرانهم اليهود أن نبي آخر الزمان علي وشك الظهور، وعندما سمعوا خطبته صلى الله عليه وسلم عرفوا أن هذا هو النبي، وآمنت مئات القبائل بعد فتح مكة لمعرفتهم بأن بيت الخليل لا يمكن أن يستولي عليه نبي كاذب، ونطقت قبيلة بكاملها الشهادتين تأثراً بكرمه صلى الله عليه وسلم، وكثير من الشعراء وأهل العلم لم يستطيعوا التحكم في قلوبهم لما رأوا أثر القرآن الكريم، والكثيرون من المحاربين القرشيين الذين لم ترعبهم غزوة بدر دخلوا في الإسلام لمّا رأوا أخلاق المسلمين ونبيهم، واضطر آلاف من أهل مكة إلي الاعتراف بصدق الإسلام حينما أتيحت لهم الفرصة بالاختلاط والتعامل عن قرب مع المسلمين بعد صلح الحديبية، حتى لو حنين الذي لم تؤثر فيه معجزات أو خوارق للعادة، ولم ترعبه سيوف بدر والخندق، ولم تستطع صلة المستمرة بينه وبين رسول الله صلى الله عليه وسلم أن تلين قلبه القاسي، لم يستطع أن يمنع ضميره من الاعتراف عندما رأي أن قيصر الروم وهو جالس علي عرش العظمة يتمني أن يغسل قدمي النبي صلى الله عليه وسلم الذي يفترش الحصير. وأسلم ثمامة بن آثال، وهند زوجة أبي سفيان وهبار بن الأسود ووحشي قاتل حمزة رضي الله عنه عندما رأوا كيف يتعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم بحب حتى مع الأعداء، ومال قيصر الروم إلي الحق لمجرد أنه سمع بعض صفات النبي صلى الله عليه وسلم وبعض مناقب الإسلام. وسيدنا عدي بن حاتم الذي كان سيد قبيلة طي المسيحية حضر إلي المدينة معتقداً أن محمداً صلى الله عليه وسلم ملكاً، ولكن عندما حضر عنده رأي جارية من المدينة تدخل عليه صلى الله عليه وسلم، ويقف لها صلى الله

فإذا طالت عليه فَترةُ الوحي غدا لمثلِ ذلك، فإذا أوفى بذروةِ جبلٍ تَبدَّى له جبريلُ فقال له مثل ذلك». قال ابنُ عباس: فالقُ الإصباح: ضوءُ الشمس بالنهار، وضوءُ القمر بالليل. (يوسف عامر).

عليه وسلم قاضياً حاجتها، فلما رأي سيدنا عدي بن حاتم هذا الموقف هتف قائلاً: إنك نبي ولست ملكاً.

وهناك من الناس كذلك من لديهم استعداد للتأثر بالمعجزات المادية أكثر من المعجزات الروحية والأخلاقية، فقد أسلم كثير من أهل قريش لما رأوا نبوءة فتح الروم تتحقق. ،وفي إحدى رحلاته صلى الله عليه وسلم رأت امرأة من إحدى القبائل عين الماء تنفجر من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم، فعادت إلي قبيلتها قائلة: لقد رأيت اليوم أكبر ساحر في العرب.([1]) وقد أدي هذا الإعجاب إلي أن تدخل القبيلة كلها في الإسلام. كما أسلم بعض اليهود لأن الصفات التي وردت في كتب الأنبياء السابقين عن النبي القادم ظهرت كلها واضحة صحيحة فيه صلى الله عليه وسلم، وبعض علماء اليهود اختبر النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أجابهم النبي بوحي الله إجابات صحيحة آمنوا برسالته. وجاء رجل إلي النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً سأسلم بأنك رسول صادق إذا جاءك هذا التمر وشهد برسالتك، ولما رأي بعينه ما طلب يحدث فعلاً أسلم ([2]). ورأي صلى الله عليه وسلم في إحدى أسفاره أعرابياً فدعاه إلي الإسلام فقال الأعرابي: وَمَنْ يشهدُ عَلَى ما تقولُ قالَ: «هَذِهِ السَّلمةُ». ثم دعا الشجرة، فاقتلعت الشجرة نفسها ووقفت أمامه صلى الله عليه

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٣٤٩٥) حدثنا أبو الوليدِ حدَّثنا سَلْمُ بن زَرِيرٍ سمعت أبا رجاءٍ قال: «حدَّثنا عِمرانُ بن حُصينٍ أنَّهم كانوا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في مَسِيرٍ فأدلَجوا ليلتَهم حتىٰ إذا كان وجهُ الصُّبح عَرَّسوا، فغلَبَتهم أعينُهم حتى ارتفعَتِ الشمسُ، فكانَ أولَ منِ استيقظَ من منامهِ أبو بكرٍ، وكان لا يوقَظُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من مَنامهِ حتىٰ يستَيقظَ، فاستيقَظَ عمرُ، فقَعدَ أبو بكرٍ عندَ رأسهِ فجعلَ يكبِّرُ ويرفعُ صوتَه حتىٰ استيقظَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فنَزَلَ وصلَّى بنا الغَداةَ، فاعتزَلَ رجلٌ من القوم لم يصلِّ معنا، فلمّا انصرَفَ قال: «يا فلانُ ما يمنَعكَ أن تصلِّي معنا ؟» قال: أصابتني جنابة، فأمرَهُ أن يتيمَّم بالصَّعيدِ ثمَّ صلَّى، وجعَلني رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في ركوبٍ بين يَدَيه، وقد عَطِشنا عطَشاً شديداً، فبينما نحنُ نَسيرُ، إذا نحن بامرأةٍ سادلةٍ رجلَيها بينَ مَزادَتَينِ، فقلنا لها: أين الماءُ ؟ فقالت: إنه لا ماءَ. فقلنا: كم بينَ أهلِكِ وبينَ الماءِ ؟ قالت: يومٌ وليلة. فقلنا: انطلِقي إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. قالت: وما رسول اللهِ ؟ فلم نُملِّكْها حتىٰ استقبلنا بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فحدَّثَتهُ بمثلِ الذي حدَّثتنا، غيرَ أنها حدثته أنها مُؤْتِمة، فأمر بمزادتَيها فمسح في العَزلاوَين، فشَربنا عِطاشاً أربعونَ رجلاً حتىٰ رَوِينا، فملأنا كلَّ قِربةٍ معَنا وإداوةٍ غيرَ أنهُ لم نَسقِ بَعيراً، وهي تكادُ تَنضُّ منَ المِلْءِ. ثم قال: هاتوا ما عندَكم، فجمَعَ لها منَ الكِسَرِ والتَّمرِ حتىٰ أتَت أهلَها قالت: لَقيتُ أسحرَ الناسِ، أو هو نَبيٌّ كما زَعموا. فهدَى الله ذاك الصِّرْمَ بتلكَ المرأة، فأسلَمتْ وأسلَموا». (يوسف عامر).

[2] ـ جامع الترمذي ـ المعجزات ـ ص ٦٠٣.

وسلـم، وخرج منها صوت ينطق بالشهادتين ثلاث مرات، فلما رأي الأعرابي هذا أسلم ([1]). وسراقة بن مالك الذي جاء يطارد النبي صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه وقت الهجرة عندما رأي أقدام حصانه تغوص في الرمال بدعائه صلى الله عليه وسلم تيقن أن نجم الإسلام سيستقر في أعلي مكان، ولهذا طلب الأمان ثم أسلم فيما بعد ([2]).

---

[1] ـ مسند الدارمي ـ باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجرة. وهذا نص الحديث: (١٦) ـــ أخبرنا محمدُ بنُ طريفٍ حدثنَا محمدُ بنُ فضيلٍ حدثنَا أبو حيانَ عن عطاءٍ، عن ابنِ عمرٍ، ، قال: كُنَّا مَعَ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فِي سفرٍ، فأقبل أعرابيٌّ فلمّا دَنَا منهُ قالَ لهُ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «أين تريدُ» قالَ: إلى أهلي قالَ: «هل لك في خير» قال: وما هو قال: «تشهدُ أنْ لا إلهَ إلاَّ اللَّهُ وحدَهُ لا شريكَ لَهُ وأن محمداً عبدُهُ ورسولُهُ»، قالَ: وَمَنْ يشهدُ علَى ما تقولُ قالَ: «هَذهِ السَّلَمةُ». فدعاهَا رســولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وَهِيَ بشاطىءِ الوادي وأقبلتْ تخُدُّ الأرضَ خداً حتى قامَتْ بين يديهِ فاستشهَدَهَا ثلاثاً فشهدت ثلاثاً أنه كما قالَ ثمَّ رجعَتْ إلى منبتِها ورَجَعَ الأعرابيُّ إلى قومِهِ وقَالَ: إن اتَّبَعوني أتيتــكَ بهم وإلاَّ رجعتُ مكثتُ معكَ. (يوسف عامر).

[2] ـ صحيح البخاري، الجزء الأول، الهجرة. وهذا نص الحديث: (٣٨١٩) قال ابنُ شــهاب: وأخبرَنــي عبدُ الرحمنِ بن مالكٍ المُدْلجيّ ـ وهو ابنُ أخي سُراقةَ بنِ مالكِ بن جُعْشُم ـ أنَّ أباه أخبرَهُ أنــه ســمعَ سُراقةَ بن جُعْشُمٍ يقول: جاءنا رُسُل كفّارِ قريشٍ يجعلونَ في رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وأبي بكرٍ ديةَ كلِّ واحدٍ منهما لمن قتَلَهُ أو أسَرَه. فبينما أنا جالسٌ في مجلسٍ من مَجالسِ قومي بني مُـدلجٍ إذ أقبــلَ رجلٌ منهم حتى قام علينا ونحن جُلوس فقال: يا سُراقة، إني قد رأيتُ آنفاً أسودةً بالساحلِ أراها محمــداً وأصحابَه. قال سُراقة: فعرفتُ أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنَّكَ رأيتَ فلانـــاً وفلانـــاً انطلَقــوا بأعيُننا. ثمَّ لبثتُ في المجلسِ ساعةً، ثمَّ قمتُ فدخلتُ فأمَرتُ جاريتي أن تخرُجَ بفرسي ـ وهي مِنْ وراءِ أكَمة ـ فتَحبِسَها عليَّ، وأخذتُ رُمحي فخرجتُ بهِ من ظَهرِ البيت فخطَطْت بزُجِّــهِ الأرضَ، وخفَضْــت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتُها، فرفعتُها تقرِّب بي، حتى دَنوْتُ منهم، فعثَرَت بــي فرســي، فخــرَرْتُ عنها، فقُمتُ فأهوَيتُ يدي إلى كِنانتي فاستخرجتُ منها الأزلامَ، فاستقسَمت بها: أضــرُهم أم لا؟ فخــرجَ الذي أكرَهُ، فركبتُ فرسي ـ وعصيتُ الأزلامَ ـ تقرِّب بي، حتى إذا سمعتُ قِراءَةَ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وهو لا يَلتَفِتُ، وأبو بكرٍ يُكثِرُ الالتفاتَ، ساخَتْ يَدا فرَسي في الأرض حتى بَلَغتــا الــرُّكبتَين. فخرَرتُ عنها، ثمَّ زجَرتها، فنَهضَتْ فلم تكَدْ تُخرجُ يدَيها، فلما استوتْ قائمةً إذا لأثرِ يدَيها عُثانٌ ســاطعٌ في السماءِ مثلُ الدُّخان، فاستقسمتُ بالأزلام فخرجَ الذي أكرَهُ. فنادَيتهم بالأمان، فوقَفوا، فركبتُ فرســي حتى جئتهم. ووقعَ في نفسي حين لَقيتُ ما لقيتُ منَ الحبسِ عنهم أن سيَظهَرُ أمرُ رسولِ اللَّهِ صــلى الله عليه وسلم، فقلتُ له: إنَّ قومَكَ قد جعلوا فيكَ الدِّيةَ. وأخبَرتهم أخبار ما يُريدُ الناسُ بهم، وعَرضتُ عليهم

الزادَ والمَتاعَ، فلم يَرزَآني، ولم يَسألاني إلا أن قال: أخفِ عنّا. فسألتهُ أن يَكتُبَ لي كتابَ أمـنٍ، فـأمرَ عامرَ بن فُهَيرةَ فكتبَ في رُقعةٍ من أديم، ثمَّ مضى رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم».

قال ابنُ شهاب: فأخبرَني عُروةُ بن الزُّبيرِ «أنَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم لَقيَ الزُّبَيرَ في ركب منَ المسلمين كانوا تِجاراً قافِلينَ من الشام، فكسا الزُّبيرُ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم وأبـا بكـرٍ ثيـابَ بَياض. وسمعَ المسلمون بالمدينةِ بمَخرَجِ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم من مكةَ، فكانوا يَغدونَ كلَّ غدَاةٍ إلى الحرَّةِ فيَنتظِرونه، حتى يَردَّهم حرُّ الظهيرَةِ، فانقلَبوا يوماً بعدَما أطالوا انتظـارَهم، فلمـا أوَوْا إلـى بيوتهم أوفى رجلٌ من يهودَ على أُطُمٍ من آطامِهم لأمرٍ يَنظرُ إليه، فبصُرَ برسول اللَّهِ وأصحابهِ مُبيَّضين يَزولُ بهم السَّرابُ، فلم يملِكِ اليهوديُّ أن قال بأعلى صَوته: يا معاشرَ العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتَظرون. فثارَ المسلمون إلى السلاحِ، فتلَقَّوا رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم بظهرِ الحَرَّةِ، فعدَلَ بهم ذاتَ اليَمـينِ حتى نزلَ بهم في بني عمرِو بن عوف، وذلكَ يومَ الاثنين من شهرِ ربيعِ الأول، فقام أبو بكـر للنـاس، وجلَس رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صامتاً، فطَفِقَ من جاء منَ الأنصارِ ــ ممن لم يَرَ رسولَ اللَّـهِ صلى الله عليه وسلم ــ يُحيي أبا بكر، حتى أصابتِ الشمسِ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم، فأقبَلَ أبـو بكرٍ حتى ظلَّلَ عليه بردائهِ، فعرَفَ الناسُ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم عندَ ذلك؛ فلَبثَ رسـولُ اللَّـهِ صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بنِ عَوف بضعَ عشرةَ ليلة، وأُسِّسَ المسجدُ الذي أُسِّسَ على التقوى، وصلَّى فيه رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم. ثمَّ ركبَ راحلَتَهُ، فسارَ يمشي معه الناسُ، حتى بركَتْ عنـدَ مسجدِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهو يُصلِّي فيه يومئذٍ رجالٌ منَ المسلمين، وكـان مِربَـداً للتمرِ لسهيلٍ وسهل غلامَين يَتيمين في حَجْرِ سَعدِ بن زُرارةَ، فقال رسولُ اللَّهُ صلى الله عليه وسلم حين بَركَت به راحلته: هذا إن شاء اللَّه المنزِل. ثمَّ دعا رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم الغُلامين فسـاوَمَهما بالمِربَدِ ليتَّخِذَهُ مسجداً، فقالا: لا، بل نهَبُهُ لك يا رسولَ اللَّهِ، فأبى رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم أن يَقبلهُ منهما هِبةً حتى ابتاعَهُ منهما، ثمَّ بناهُ مسجداً، وطَفِقَ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ينقلُ معَهُم اللبِنَ في بُنيانِه ويقول ــ وهوَ ينقلُ اللبن: ــ

هذا الحِمالُ لا حِمالَ خَيبرْ

هذا أبرُّ ربنا وأطهرويقول:

اللهم إن الأجرَ أجرُ الآخرَهْ

فارحَم الأنصارَ والمهاجرهْ

فتمثّل بُشعر رجل من المسلمين لم يسمَّ لي

قال ابن شهاب: ولم يبلُغنا ــ في الأحاديث ــ أن رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم تمثّلَ ببيتِ شعرٍ تـام غير هذه الأبيات.(يوسف عامر).

الدلائل والمعجزات، والعقلانيات الحديثة[1]

" وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " (يونس ١٠١)

* في قلب الشخص الذي هو متذوق للعلم وجه وصوت النبي معجزة

جاء الحديث فيما سبق عما كتبه علماء الكلام وحكماء الإسلام عن المعجزة من الناحية العقلية، وهذا الجزء من كتاب " السيرة النبوية " يختص أصلاً بتحقيق الأدلة النقلية والروايات التي وردت في شأن المعجزات النبوية، إلا أن المناقشات الفلسفية والكلامية القديمة وردت فيه ضمناً إلي حد ما، وفيما يلي نعكس ما قاله عقلاء الغرب فقط حول هذا الموضوع، ونقدم النتائج التي تم الوصول إليها في صور البحوث والأفكار الحديثة، ونبدأ أولاً بإلقاء نظرة علي ما جاء في بداية الكتاب حول مفهوم النبوة والمعجزة.

مفهوم النبوة:

كما أن بزوغ ضـــوء النهار بعد ظلام الليل من قانون الفطرة، فإن هناك سنة إلهية أيضاً مفادها: أنه كلما عمت ظلمات الضلال والغواية علي الإنسانية يشرق من أفقها نور الهداية والرشاد، وكما أن النجوم بأشكالها المختلفة تظل ترسل أنوارها في ظلمات الليل، فإن سلسلة المصلحين والمجددين عموماً تظل تعمل علي إزاحة الظلام إلي حد ما، لكن نور الشمس مختلف تماماً، ويخفت أمامه تماماً ضوء النجوم، وتتحول الكرة الأرضية دفعة واحدة إلي بقعة من النور. أما شمس الهداية في سلسلة المصلحين هذه فإنها تسمي في اصطلاح الشرائع والأديان بالنبي أو الرسول، ولا يكون في يد عامة المصلحين سوي مشعل العقل والبصيرة الإنسانية، بينما يكون منبع نور الهداية الذي يفيض من مشكاة النبوة هو " نور السماوات والأرض " الذي يبهر العين الظاهرة العادية، والنبي يري ما لا نري نحن، ويسمع مالا نسمع، ولا ندري شيئاً عن أحواله وأوضاعه، ونجهل عقله وحواسه، وباختصار فإن الروح الأصلية للخصائص النبوية ترتبط بعالم غيبي بعيد عن

[1] – بقلم مولانا " عبد الباري الندوي" أستاذ الفلسفة السابق بالجامعة العثمانية " حيدر آباد، الدكن "

عالم الناسوت، ويطلق الإنسان علي عالم الأسرار ـهذا عالم القدس، وعالم الروح، وعالم المثال، وما إلي ذلك بما يتناسب مع تعبيراته المحدودة.

مفهوم المعجزة:

رغم أن أوضح دليل وبرهان علي الدعوة التي يوجهها حامل الرسالة إلي أبناء جنسه، والرسالة التي يبلغها إلي الدنيا، هو الرسالة نفسها ووجود حاملها، ومع ذلك فإنه إتمام للحجة أو كما يقال " لكي يطمئن قلبي " تظهر بعض الأحداث علي داعي الحق هذا تبدو في الأحوال العادية خارجة عن مقدرة الإنسان، ويحتار العقل الإنساني في توجيهها وتعليلها.

لقد صارت النار برداً وسلاماً علي إبراهيم عليه السلام، وصارت عصا موسى عليه السلام حية تسعي، وولد سيدنا عيسي عليه السلام بدون أب، وقطع النبي صلي الله عليه وسلم المسافة من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى، ثم إلي سدرة المنتهي في غمضة عين، ولأن العقل الإنساني عاجز عن توجيه هذه الأحداث، لهذا يبدو له فيها نوع من الغيبيات، بينما تكون هذه المعجزات تأييداً غيبياً، أو دليلاً وبرهاناً علي علاقة الشخص الذي ظهرت المعجزات علي يديه بعالم الغيب، وقد أطلق القرآن الكريم علي هذه الأحداث " البينات، البراهين " وفي أكثر الأحيان " آيات بينات ". ويطلق عليها المحدثون " دلائل النبوة "، بينما يطلق عليها في اصطلاح الحكماء وعلماء الكلام " المعجزات "

ترتيب المباحث (المناقشات):

إن أول مبحث يفرض نفسه باعتبار نوعية المعجزات هو إن كان وقوعها ممكناً فعلاً أم لا ؟ وقد حاول القدامى إثبات إمكانية وقوعها من خلال تبرير المعجزات بالعلل الخفية وما إلي ذلك، لكن في عصر الفلسفة والحكمة الحديث ظهر بحث هام آخر جنباً إلي جنب مع بحث إمكانية وقوع المعجزات وهو المشاهدة والشهادة، وربما لا ينكر أحد من العلماء والمفكرين والفلاسفة الآن إمكانية الوقوع، إلا أن هذا الإمكان يبدو بعيداً، إذ يتصور أن مشاهدة الأحداث التاريخية العامة غير كافية للتيقن بالوقوع.

ولكن لأن مسألة إمكانية الوقوع والمشاهدة تعود في الأصل إلي تصديق الأحداث الخارقة للعادة من عدمه، فإن هناك سؤالاً آخر أهم من مسألة الإمكان والمشاهدة هذه يبرز، وهو المتعلق بماهية اليقين ذاته وأسبابه، والعجيب أن هذا الأمر ينتبه إليه علي حد علمي أحد من المتقدمين أو المتأخرين، وفي الصفحات التالية سنقدم إجابة وافية لهذا

السؤال الهام، والتي تعتبر ختام القصيدة فيما يتعلق بأمر المعجزة. على أية حال سيكون ترتيب المباحث بناءاً علي هذا التصور التالي:

إمكانية المعجزات. شهادة المعجزات. استبعاد المعجزات. اليقين علي المعجزات. غاية المعجزات.

إمكانية المعجزات

ومع أن هناك عشرات الكتب التي أُلفت في أوروبا فيما يتعلق بالمعجزات، لكن أفضل ما كتب في هذا الخصوص هو ما كتبه " هيوم " ([1])، ومع أن هذا كان أول ما كُتب عن هذا الموضوع من وجهة النظر الفلسفية، إلا أنه أيضاً هو آخر سلاح يمكن استخدامه ضد المعجزات، وهذا هو السبب في أنه برغم مرور قرنين من الزمان علي الأقل علي ما كتبه " هيوم "، إلا أن أقلام المعارضين والمؤيدين لا تزال تعمل علي إبرازها أو محوها.

استدلال هيوم:

وخلاصة استدلال هيوم هو:

١. أن علم الإنسان ويقينه يعتمد كلية علي التجربة، ومثلما يعرف الإنسان بالتجربة أن النار تحرق الخشب ويطفئها الماء، فإنه كذلك يؤمن بناءاً علي التجربة بأن الناس عادة يقولون الصدق طالما لم يكن هناك سبب للكذب، بمعني أن الشيء الذي يروونه أو يصدقونه تثبت صحته عموماً بعد البحث والتحقيق.

٢. بقدر ما تكون شهادة التجارب السابقة حول أمرٍ ما ضعيفة أو قوية بقدر ما تتولد في قلوبنا حالة من الإذعان أو الشك والإنكار، ويجب أن يكون كذلك، لنفترض أن كهلاً عجوزاً فقيراً في الستين أو السبعين من عمره يعيش في حيّك، تشاهده منذ طفولتك يعيش مرتدياً ملابس ممزقة ويستجدي الناس، وقد تحول إلي هيكل عظمي بسبب الشيخوخة والفقر، ولقد رأيته حتى أمس علي هذا الحال، ثم يأتي إليك جار اليوم قائلاً: لقد مات ذلك الكهل المسكين ليلاً، هل تتردد في تصديق قوله ؟. ولكن إن قال لك هذا الجار بأنه رأي هذا الفقير مرتدياً ملابس غالية قيمة، راكباً سيارة فارهة، ويشترى بعض الأشياء من محل " واهت واي "، فسوف تندهش كثيراً، وسوف تتردد كثيراً في تصديق قوله هذا. والصورة الثالثة: أن تفترض أن هذا الجار قال لك أنه رأي اليوم هذا الشيخ الفقير الهزيل شاباً في العشرينيات من عمره، عندئذٍ سوف تعتبر قول جارك هذا لغواً، أو تتصور أنه مخدوع بشكل أو بآخر، لكن لن يصدق قلبك قوله هذا أبداً، ولماذا ؟ ذلك لأن هذا المثال لا تثبته التجربة السابقة للإنسان، ولهذا يتأكد أن هذا الأمر مخالف للفطرة، أو خارق للعادة. هذا الأمر الذي بدلاً من تصديقه يقرر القياس

---

[1] – "human under standing. الفهم الإنساني " – باب بحث المعجزات.

أن رواية إما مخدوع، أو يكذب عامداً، ذلك لأن كذب أصدق الرجال، وخداع أعقل الرجال، وإن كان هذا نادراً إلا أنه ليس مستحيلاً، وحدوثه أمر ممكن، وقابل للوقوع بالمقارنة بخرق العادة.

٣. المعجزة هي من قبيل الأمور الخارقة لقانون الفطرة، والتي يستحيل حدوثها بشكل طبيعي، وإلا لا تكون معجزة، ذلك لأنها إن كانت مجرد أمر نادر الحدوث يشبه معاناة رجل في مرحلة متأخرة من مرض السل، أن تحول رجل مفلس إلي ثري في ليلة واحدة، فمثل هذه الأحداث نجد في الحياة الإنسانية العادية ما يبررها بطريقة أو بأخرى. فعلي سبيل المثال يمكن أن يعثر المفلس في بيته علي كنز، وعلي العكس من ذلك تكون حقيقة المعجزة، والتي يكون تبريرها وتعليلها ليس في مقدور التجارب العادية، ولذا فكأن المعجزة في ذاتها تكذيب لحدوثها. واستمع إلي هذا الاستدلال في ألفاظ هيوم الذي قال: ــ

" المعجزة اسم لخرق قوانين الفطرة، ولأن هذه القوانين مبنية علي التجارب القاطعة القوية فإن المعجزة بذاتها هي بمثابة دليل قوي ينفيها، بحيث لا يمكن أن يتصور دليل مبني علي التجربة أقوي منه، ولهذا فإننا نؤمن تمام الإيمان أن الناس جميعاً إلي فناء، وأن الرصاص لا يمكن أن يبقي معلقاً في الهواء بنفسه، وأن النار تحرق الخشب وتنطفئ بالماء، فقط لأن هذه الأمور ثبتت بمقياس قوانين الفطرة، ولا يمكن خرقها إلا بغير قوانين الفطرة، أو بتعبير آخر لا يمكن خرقها إلا بمعجزة، إذ أن الشيء الذي يقع في دائرة قانون الفطرة لا يمكن أن يقال عنه أنه معجزة، علي سبيل المثال لا يكون من قبيل المعجزة أن نري شخصاً صحيحاً معافى يموت فجأة، لأن مثل هذا الموت وإن كان قليل الوقوع نسبياً لكنه بالرغم من ذلك حدث بالمشاهدة مرات عديدة، لكن سيكون من قبيل المعجزة أن يحيا شخص ميت، لأن مثل هذا لم يُشاهد في أي بلد من البلاد، ولهذا فإنه من الضروري أن تكون التجربة دائماً علي خلاف ما يطلق عليه معجزة، وإلا لن يُطلق عليها اسم معجزة، ولأن التواتر في تجربة شيء ما بمثابة دليل قطعي، وإذاً فإن في حقيقة المعجزة وجوهرها دليلاً قاطعاً ومباشراً علي نفيها، وهو دليل لا يمكن أن يثبت حدوث المعجزة أو يكذبها طالما لم يظهر دليل ضده أقوي منه، ولهذا فإن النتيجة الواضحة هي أنه لا يمكن أن نقرر قاعدة ما بأنها تكفي لإثبات معجزة ما وتصديقها طالما أنه ليس هناك معجزة أخرى أكبر منها تكذبها، وفي هذه الحالة سيحدث تصادم بين الأدلة، والدليل الذي

يكون قوياً سيخلق يقيناً بقدر قوته. افترض أن شخصاً يأتيني قائلاً أنه رأي ميتاً يعود حياً، فأفكر قليلاً عما إذا كان من الممكن أن يكون هذا الشخص يريد خداعي، أو أنه هو المخدوع، أم أن أغلب الظن أن ما يقوله صحيح، وأوازن بين الأمرين، وحيثما ترجح كفة سيكون قراري في حقها، ويكون علّي دائماً أن أرفض الاحتمال الذي يبدو فيه أمر الإعجاز، إلا أن يكون تكذيب الرواية معجزة أكبر من رواية الواقعة نفسها، وفي هذه الحالة سيكون علّي بالتأكيد أن أصدق الرواية، ومن المستحيل أن يكون غير هذا. " (" الفهم الإنساني " ــ باب المعجزات).

المهم أننا ــ طبقاً لاستدلال هيوم وتعريفه للمعجزة إذا وضعنا رواية وشهادة أمر خارق للعادة في ميزان عقلنا من جانب، ومن جانب آخر وضعنا أمامنا التجربة المستمرة والمتواترة لآلاف السنين، فمن الواضح أن هذه الشهادة مهما كانت معتبرة وموثوق بها فإننا لا نستطيع بأي حال من الأحوال أن نتغاضى عن أهمية هذه التجربة المتواترة، ولهذا فإن شهادة الإنسان أياً كانت كيفيتها وتكرارها لا يمكن أن تكون كافية لإثبات المعجزة وتصديقها.

كانت إحدى معجزات موسى عليه السلام أنه تربي في بيت فرعون أعدي أعدائه وأشد الكافرين به، ورغم أن هيوم من أكبر منكري المعجزات وأعدائها، لكن عندما تنظر إلي هذا الإنكار في ضوء فلسفته كلها يبدو لك أن أكبر لغز في خداع العقل كان حائلاً في طريق تصديق المعجزات قام هيوم بحله، وحطمه إلي الأبد، ولم يبق بعد سوي بعض الأشواك الطريق. وكما يقول المثل: يكون الظلام تحت المصباح، فإن الإنسان ينير الطريق أمام الآخرين بمشعل في يده، ولكنه هو نفسه لا يستطيع أن يري.

وكلما كان هذا الاعتقاد راسخاً في ذهن الإنسان بأنه لا توجد ذرة في الكائنات إلا وهي مقيدة بقيود القوي والخصائص والعلل والأسباب المادية، وكل حادثة مهما كانت بسيطة يكون لظهورها علة قاطعة ثابتة، وكل شيء يحمل بداخله قوة ما، أو خاصية ما لا يمكن أن تنفك عنه طالما لم ينفك هذا الشيء عن ذاته وحقيقته، إذ ليس من الممكن أن يتحرك قلمي فوق المنضدة من جانب إلي الجانب الآخر دون أن تكون هناك يد، أو شيء مادي قد حرّكه، وما تراه مكتوباً علي هذه الورقة أمامك لابد أن أحداً ما خطه بقلمه، وهكذا فإنه من غير الممكن أن تثمر شجرة الرمان مانجو، أو تثمر شجرة المانجو رماناً، فالرمان تثمره دائماً شجرة الرمان، والمانجو تثمره دائماً شجرة المانجو.

وتمعن عندما يقال لك أن النار لم تستطع حرق سيدنا إبراهيم، فلماذا تتردد في التصديق ؟ لأن خاصية الإحراق لا تنفك عن النار طالما كانت ناراً، لا تميز بين إبراهيم عليه السلام والنمرود، والحية مخلوق حيّ، وطبقاً لقاعدة كل شيء يلد مثله، فإنها مولودة من كائن حيّ من نوعها، ولذا فإننا لا نستطيع أن نستوعب كيف صارت عصا موسى ثعباناً، وطفل الإنسان ينتج عن التوالد والتناسل بين والديه، فكيف نصدق أن يولد عيسي عليه السلام بغير أب، والإنسان يحتاج لكي ينتقل من حيث هو إلي مسافة عشرة أقدام إلي قدمين، أو إلي أي وسيلة مادية أخرى، وكلما كانت المسافة طويلة كلما احتاجت لطيها وقتاً طويلاً، ولذا فكيف نصدق أن رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم قام برحلة من المسجد الحرام وحتى سدرة المنتهي في طرفة عين، ودون أية وسائل مادية ؟ وشاهد آيات السماء والأرض، وتحدث مع الأنبياء السابقين جميعاً، وكيف قطع كل هذا المراحل في هذا الوقت البسيط بحيث أنه صلي الله عليه وسلم عندما عاد من رحلته كان مضجعه صلى الله عليه وسلم لا يزال دافئاً، وسلسلة القفل لا تزال تهتز.

إن قوانين الفطرة في اصطلاح المفكرين والفلاسفة هي أصول وقوانين سلسلة العلل والأسباب وأفعال وخواص الأشياء، ومن المستحيل خرقها، فالجاذبية من قوانين الفطرة تقتضي أن يعود الشيء الذي يقذف عالياً إلي أسفل ثانية، ومن المستحيل أن يبقي معلقاً في الفضاء، وخاصية التقاء غاز الهيدروجين بقدر معين مع غاز الأكسجين بقدر معين هي أن تتكون الماء، ولا يمكن أن يحدث خلاف هذا.

حقيقة قوانين الفطرة:

والآن انظر إلي تلك الأشياء التي تسميها قوانين الفطرة، والتي تبدو في الظاهر حتمية وقاطعة وثابتة، ما هي قيمتها علي محك الأحداث، فلو سأل شخص لماذا يكون الملح مالحاً في طعمه، ويكون السكر حلواً في طعمه ؟ سيبدو لك هذا السؤال ساذجاً مضحكاً لا قيمة له مثلما يسأل أحد لماذا يكون الجزء أصغر من الكل ؟ فحقيقة الجزء هي أصغر من الكل، وهكذا يعتقد الناس أن الملوحة والحلاوة داخلان في حقيقة الملح والسكر، ولكن عليك أن تفكر هل يبدو في ذات الملح شيء تستطيع أن تحكم من خلاله، ودون أن تتذوق الملح أن طعمه ومذاقه لابد أن يكون مختلفاً بالتأكيد عن طعم ومذاق السكر ؟ لا شيء سوي أننا نتأكد من ملوحة الملح وحلاوة السكر بناءاً علي تجربة تذوقهما، وسم الفأر سم، يموت الإنسان بتناوله، خذ بعضاً منه وقلبه وتأمله جيداً، هل تشعر بشيء في ذاته

وحقيقته تستطيع من خلاله أن تؤكد بغير تجربة أنه سبب للموت ؟ إنك تستطيع أن تطعم الشخص الذي لم ير السم أبداً، ولا يعرف خصائصه، سماً، لماذا ؟. فقط لأنه لا يبدو داخل السم شيء يمكن أن يعرف منه الإنسان وبغير سابق تجربة أنه علة الموت وسببه، وحقيقة أن الماء مركبة من عنصرين مختلفين لا يمكن إنكارها بالنسبة لعلماء القرن العشرين، ومع ذلك فقد ظل حكماء العالم ومفكروه لألفين وخمسمائة عام قبل تجربة هذه الحقيقة يعتقدون أن الماء عنصر بسيط ومفرد، في حين أن الماء بصورته وشكله الذي كان أمام العالم " وندس " ([1]) هو نفسه الذي كان أمام العالم " طاليس "([2])، فإذا ما كانت تجربتنا علي الحصى والحلاوة بدلاً من السم والسكر، فإننا نتيقن من أنها مهلكة وحلوة بنفس الطريقة التي تتيقن أنت بها من السم والسكر.

وقد أعطي " جون استيوت مل " في كتابه " نظام المنطق " ([3]) مثالاً ممتازاً لهذا الأمر بأنه: " قبل خمسين عاماً من اليوم لم يكن لدي سكان وسط أفريقيا تجربة أكثر قطعية وحتمية من أن الناس جميعاً سود، وبنفس الطريقة لم تمض أيام علي أهل أوروبا عندما اعتقدوا بشكل قاطع أن من قوانين الفطرة أن يكون كل طيور البجع بيضاء ([4]). وبعد مزيد من التجربة علم أهل أوروبا وأفريقيا أن هذا التصور خاطئ، ولكن كان عليهم أن ينتظروا خمسة آلاف عام حتى تتاح هذه التجربة، وطوال هذه الفترة ظل أهل قارتين كبيرتين يعتقدون في أمر من أمور الفطرة لا وجود لها حقيقة ".

واليوم بالنظر أيضاً إلي اتساع الكائنات فإن مجال قوانين الفطرة المبنية علي تجربة بني الإنسان ليس أكثر من مجال تجربته بأن الناس جميعاً سود، وكل طيور " أبو قردان " بيضاء، وقد شرح الدكتور " روارد " أحد الفلاسفة المشهورين في القرن التاسع عشر هذه الحقيقة في صورة مثال افتراضي قائلاً افترض أن " هناك سلسلة عظيمة من المباني والعمارات في إحدى صحراوات أفريقيا، ويحيط بها سود من جميع الجهات، ويسكنها مخلوق خاص عاقل لا يستطيع أن يخرج من منطقة العمارات هذه، وتضم هذه

---

[1] ـ " وندس " هو الذي أثبت أن الماء ليس عنصراً بسيطاً مفرداً، وإنما مركب من الأكسجين والهيدروجين.

[2] ـ " طاليس " أول فليسوف يوناني يؤكد أن الماء هي مبدأ العالم.

[3] ـ سستم آف لاجك ـــ الباب الثالث.

[4] ـ أهل وسط أفريقيا سود، وطيور " البجع " في أوروبا بيضاء.

العمارة أكثر من ألف حجرة كلها مقفلة، ولا يعلم أحد أين مفاتيحها، وبعد بحث وجهد شديدين يتم العثور علي خمس وعشرين مفتاحاً فقط يمكن أن تفتح خمساً وعشرين حجرة متفرقة في المبني، وهذه الحجرات كلها متشابهة شكلاً، هل يكون بناءً علي هذا من حق الذين يعيشون في هذه المنطقة أن يدعــوا وبشكل قطعي أن الحجــرات الباقية في المبني كله علي نفس الشكل ؟ "

ورغم أن الحقيقة المذكورة سابقاً من قوانين الفطرة، أو خصائص الأشياء وعلاقة العلة والمعلول تدخل في مسلمات العلم والفلسفة، لكن أول شخص اكتشف هذه الحقيقة كان هو " هيوم " منكر المعجزات، ولهذا استمع إلي ما يقوله هو بلسانه من أن الشيء الذي يطلق عليه خارقاً للعادة وينكره، ما قيمة عدم إمكانية حدوثه: ـــ

" عندما نلقي نظرة علي الأشياء التي تحيط بنا من الخارج، ونتأمل في أفعال العلل المختلفة فإننا لا نجد من بينها مثالاً واحداً نعرف أن بداخله قوة معينة تلزمه، كما لا تبدو له صفة معينة تربط المعلول بالعلة بحيث لا يكون هناك مجال للخطأ في الحكم بأن كلاً منهما مستنبط من الآخر. إن كل ما يبدو لنا هو أن واقعة ما تظهر بعد أخرى ليس إلا، وعندما تضرب إحدى كرات البلياردو تتحرك بسببها كرة أخرى، وبالتالي فإن كل ما يبدو لنا من خلال الحواس الظاهرة مجاله ليس أكثر من هذا، وبسبب وجود هذا التقدم والتأخر أو التبعية في الأشياء لا يشعر الذهن بأي إحساس آخر، أو يرتسم بداخله شيء آخر سوي هذه التبعية، إننا لا نستطيع عندما نري شيئاً لأول مرة أن نقيس ما هي النتيجة أو المعلول الذي سيظهر منه، في حين أنه لو كان في العلة قوة يستطيع الذهن من خلالها التفكير لكان في إمكاننا أن نتنبأ بالمعلول والنتيجة بلا سابق تجربة، ونصدر حكماً قطعياً من النظرة الأولي.

حقيقة الأمر أنه لا توجد ذرة واحدة في الكائنات المادية نستطيع بناءً علي صفاتها المحسوسة أن نعثر علي قوة ما بداخلها، أو أن نقول قياساً أنه يمكن أن يظهر منها شيء آخر نسميه المعلول، فالصلابة والتمدد والحركة كلها أشياء لا تستطيع أن تدلنا علي صفات محددة وواقعة بعينها يمكن أن نقول أنها نتيجتها، فالتغير والتبدل يحدث في موجودات العالم كل لحظة، ويقع شيء بعد الآخر بشكل متساوٍ، لكن القوة والطاقة التي تسير هذه الآلة خافية علي أنظارنا، ولا تحمل بداخل أية صفة محسوسة للأجسام علاقة

معينة بداخلها، فنحن نعلم أن الحرارة توجد في شعلة النار، لكن ما هو اللزوم والتلازم بين هذين الاثنين " الشعلة والحرارة " ؟. إن تصورنا بالتأكيد عاجز عن هذا القياس"

ومن المناسب هنا أن نقتبس عبارة طويلة أخرى من الصفحات التالية بعد هذا سوف نتعرض لها فيما بعد: ــ

" لا يجد الناس بشكــل علم عام صعوبة في توجيه وتبرير الأحداث والأفعال المألوفة في الفطرة، (علي سبيل المثال سقوط الأشياء الثقيلة إلي أسفل، ونمو الأشجار ونمو جسم الحيوانات بالغذاء وتكاثرها بالتناسل)، بل إنهم يعتقدون أنه في مثل هذه الحـــالات أنهم يعلمون ويشعرون بقوة العلة بذاتها، وبناءً عليه فإن معلولها ملازم لها، ولهذا لا مجال للخطأ في ظهور المعلول، والحكاية هي أن يتولد في أذهانهم بسبب طول التجربة والعادة ترجيح أنه بمجرد ظهور العلة تظهر معها في نفس الوقت نتيجتها التي تظهر معها عادة، ويبدو بصعوبة أنه من الممكن أن تظهر لها نتيجة مختلفة في هذه الحالة، بينما تقع أحداث غير عادية مثل الزلازل والأوبئة، أو أي أمر عجيب آخر، فإننا لا نعرف علتها الصحيحة، ولا نستوعب كيف نبررها ونشرحها، وعندما يقع الناس في هذه المشكلة فإنهم يؤمنون بذات عاقلة مريدة غير مرئية، ويعتقدون أن هذه الأحداث المفاجئة التي لا تقبل التبرير هي من صنع تلك الذات، لكن أنظار الفلاسفة الثاقبة تعرف أن القوة التي تصنع الأحداث اليومية العادية هي أيضاً مجهولة لا تقبل التبرير مثلها مثل الأحداث الكبرى غير العادية، ولهذا فإن كثيرين من الفلاسفة يجدون عقولهم مضطرة إلي الإقرار بأن خالق كل أحداث العالم بلا استثناء هو تلك الذات التي ينسب إليها العامة الأحداث والوقائع الخارقة والمعجزات فقط، (وفي نظرهم) أن العلة المباشرة والواقعية لكل معلول ليست قوة من قوى الفطرة، وإنما هي إرادة ما، فعندما تصطدم إحدى كرات البلياردو مع كرة أخرى فإن الله يحركها بإرادته الخاصة، وهذه الإرادة تكون مطابقة للقوانين العامة التي قررها بمشيئته لحكم الكائنات. "

فإذا كان من المسلّم أن أساس قوانين الفطرة كلها مبنية علي التجربة، ولا يمكن الادعاء بأن التجربة لا يمكن أن تخطئ علي أية حال، فمن الظاهر إذاً أنه لا يمكن إثبات خطأ شيء ما مخالف للفطرة وخارق للعادة، وهكذا فإن دعوى " هيوم " نفسه علي هذا المبدأ بأن الشيء الذي يمكن تصوره لا يستلزم تناقض ما، والشيء الذي لا يستلزم ناقضاً

لا يمكن إثبات خطئه بأية حجة أو برهان أو دليل عقلي ([1]). والبروفيسور " هكسلي " الذي هو عالم أكثر منه فليسوف ويعد من بين كبار العلماء نقل قول هيوم هذا في أماكن مختلفة من كتاباته وأيدها بشدة، بل إنه أكد تعريف " هيوم " للمعجزة وهو يناقش نظريته في هذا الخصوص قائلاً: " بأنها اسم لخرق قوانين الفطرة "، وقال بأن معني المعجزات لا يمكن أن يكون أكثر من كونها " أحداث ووقائع محيرة للغاية "، ثم ينقل قول " هيوم " في هذا الخصوص، ويكتب قائلاً: ــ " لكن يمكن تصور المعجزة علي أنها لا تستلزم تناقضاً، ولهذا فإنه طبقاً لادعاء " هيوم " نفسه لا يمكن إثبات خطأ المعجزة بأي دليل برهاني، ومع ذلك فإن " هيوم " يكتب في مكان آخر متناقضاً مع مبادئه قائلاً: ــ " إنه لمعجزة أن يعود ميت إلي الحياة، لأن مثل هذا لم يحدث في أي وقت مضي، ولا في أي بلد في العالم "

ويشرح البروفيسور سابق الذكر هذا التناقض ساخراً فيقول: " لو كشفنا تفاهة استدلال " هيوم " لكان معني ما يقول أن أي شيء لم يحدث من قبل لا يمكن أن يقع فيما بعد إلا بخرق قوانين العادة "

وللسيد " هكسلي" مقال رائع بعنوان " الممكنات وغير الممكنات " وضع فيه قول " هيوم " في اعتباره، وكتب بكل إحساس بالمسئولية الحكيمة قائلاً: ــ

" أنا لا أعرف شيئاً نكون محقين في قولنا عنه أنه غير ممكن، فهناك وجود لغير الممكنات المنطقية، ولكن لا وجود بالتأكيد لغير الممكنات الطبيعية، فالمربع والمدور، والماضي مع الحاضر، وتقاطع الخطين المتوازيين كلها من الأشياء غير الممكنة، وذلك لأن المـــدور هو الموجود أو الحاضر، وتصور التقاطع متناقض مع تصور المتوازي والماضي والمربع، لكن السير علي سطح الماء وتحويل الماء إلي خمر، وولادة الطفل بغير أب وإحياء الميت كلها أشياء ليست من غير الممكنات باعتبار المفهوم الأعلى، صحيح أننا إذا كنا نستطيع الادعاء أن علمنا فيما يتعلق بفطرة الأشياء قد أحاطه تماماً بالممكنات كلها، فربما نكون محقين إذا قلنا: بما أن المشي علي الماء أو الطيران في الهواء يتناقض مع صفات البشر، ولهذا فإنها بالنسبة لهم غير ممكنة، ولكن هناك حقيقة واضحة غاية الوضوح وهي أننا لا نزال في البداية، وفي الحروف الأولي من العلم بالفطرة، بله الوصول إلي قمته، وقوانا محدودة بحيث أننا لا نستطيع أن نتخطى حدود ممكنات الفطرة، ونحن نعلم ما يقع الآن، أو ما وقع من قبل، ولكننا فيما يتعلق بما لم يقع

ــ [1] الفهم الإنساني ــ باب ٤.

بعد لا نستطيع إلا أن نقيم توقعاً ليس أكثر معتمدين علي فهمنا الصحيح للتجارب السابقة والتي تجعلنا نتصور بأن المستقبل سيكون مماثلاً للماضي. "

وقد تناهت إلي أسماعنا تأكيداً منذ أيام قلائل أصوات من اتجاهات عديدة تقول: بأن كل ذرة في الكائنات مقيدة بقانون، وأن الوهم وعدم التعقل أعدي أعداء الإنسان، وأن العقل والهمة هي أصدق أصدقائه، ولذا يصبح من الفرض علينا أن نهاجم الاعتقاد بالمعجزات حيثما وجدناه. (١)

لكن هذا الكلام كله كان فيما قبل ربع قرن مضي (٢)، ولكن الانقلاب الذي حدث في العلم بفضل نظرية الذرة بعد عام ١٩٢٧م لم يدع في دنيا العلم أيضاً مجالاً لمثل هذه الشعارات الساخرة. ولقد نقض الإمام أبو الحسن الأشعرى قبل قرون عديدة من هيوم نفسه نظرية لزوم ووجوب العلة والمعلول في الفلسفة، إلا أن أساس العلم قد وضع طبقاً لقانون تماثل الفطرة الثابت الذي لا يتغير أو العلية، ولكن ماذا نقول إذا كان هذا القانون الثابت قد اختل وتزلزل بالتجارب والنتائج العلمية ذاتها، بل إن بعض كبار العلماء من أمثال السير " آرثر ايدنجين " قد تخلوا تماماً عن هذا الاعتقاد، وقد صدرت قبل عدة سنوات سلسلة لعدة مجلات علمية بعنوان " مادرن بليف " الاعتقاد الحديث، تلقي الضوء علي أحدث المعلومات والأفكار، وهذه بعض اقتباسات منها فلنقرأها: ــ

" لقد أحدثت نظرية " كوانتم " انقلاباً هائلاً، حيث كان تأثير قانون العلل والمعلول في العالم المادي لا يزال يتصور أنه ثابت لا نقاش فيه، وكل الوقائع والأحداث تتبع قوانين جبرية مطلقة أو وجوبية، ولم يكن هناك أي خلل في سلسلة العلل والمعلولات، ولكن اهتز هذا اليقين اهتزازاً كبيراً في عام ١٩٢٧م، ورأي علماء الطبيعيات أن وجوب العلية وعموميتها لم يعد له مكان في العالم المادي، ودلت القرائن كلها علي نهاية العلية الوجوبية القطعية. "

وحتى وقت قريب للغاية كان قانون العلية يعد بالإجماع مبدأ أساسياً للبحوث العلمية، لكن الآن ظهر التفكير في التخلي عن هذا الأمر، بمعني هل يستوجب حدوث أي أمر في عالم الفطرة أن يكون ناشئاً عن أمر آخر يطلق عليه علته، أم أنه لابد من الاعتراف بأن هناك شيئاً فاعلاً في أحداث الفطرة يسمي الإرادة أو المشيئة الحرة.

---

[١] ــ عجائب الحياة (wonder of life) ـــ هيجل ـــ باب ٣ المعجزات.

[٢] ــ هذه الفقرة من السيرة النبوية عن المعجزات كتبت عام ١٩٤٥م أي قبل ٢٤ عاماً

والخلاصة هي أن نتيجة تحليل المظاهر الطبيعية حتى الآن تفيد أننا لم نجد ما يدل علي وجود قانون جبري أو وجوبي.

ولا يعني هذا أنه لا وجود مطلقاً لقوانين الفطرة، وإنما تبقي حيثيتها بالنسبة للإحصاءات القوانين، ولا تعرف شركات التأمين علي الحياة قانوناً يقول بأن الشخص الفلاني سيموت في عمر الأربعين، وإنما تعرف أن نسبة كذا في جماعة كبيرة ستموت في سن الأربعين، بمعني أنه بالرغم من استحالة تقديم تنبؤ كامل للأفراد، إلا أنه يمكن تنبؤ فيما يتعلق بالجماعة، وهكذا فإن قوانين الفطرة موجودة في هذا الإطار فقط، ويمكن من خلالها تقديم تنبؤ علمي أو رؤية مستقبلية ([1])

وبألفاظ أخرى فإن نوعية قانون الفطرة هي في الحقيقة نوعية قانون العادة، بمعني أنه لا يمكن التنبؤ بشكل قاطع ووجوبى فيما يتعلق بفرد بعينه بأنه سيموت في سن بعينه، إلا أنه من المعروف عادة أن نسبة كذا في جماعة ما كبيرة ستموت في عمر الأربعين، ويسمي قانون العادة هذا في لغة الدين " عادة الله " والتي لا تستلزم إنكار وجود قوانين الفطرة أو تطابق عمل الفطرة، إلا أن أصل وهدف تلك القوانين هو أن ثبات المادة الصماء التي لا علم لها لا يكون بالوجوب واللزوم، وإنما بعادة جارية من ذات عالمة وهي " الله تعالي "، وهذه الذات هي التي تستطيع أن تخلف تلك العادة الجارية في وقت من الأوقات لحكمة ما، وتقوم بذلك مثلاً، وهذه هي المعجزة، وكما يقول العالم المشهور الدكتور " كاربنتر " أن العالم الذي يعترف بالدين لا يجد صعوبة عقلية في التأكيد علي أن خالق الفطرة إذا أراد فإنه يخالف قوانين الفطرة أحياناً، ونحن لا نعلم بفتوى علمية ضد المعجزات يمنع من قبولها والاعتراف بها في ظل وجود شهادة معتبرة. ([2])

فإذا كانت لم توجد أي فتوى علمية في زمن " كاربنتر " فإنه الآن وبعد نظرية " كوايتم "، وبعدما صارت القوانين الثابتة للفطرة أو العلية المزعومة مشكوك في أمرها لدرجة أنه يبدو في الظاهر أنها ستختفي منه العالم المادي للأبد، وذلك استناد إلي العلم وفي دنيا العلم بعيداً عن القياسات العجيبة للفلسفة وعلم الكلام، فكيف يستطيع أحد أن ينكر وقوع المعجزات إذاً باسم خرق قوانين الفطرة أو العلم ؟! ولذا كما يقول " كاربنتر " نفسه

---

[1] - اسم الكتاب بالكامل هو (at line of moonernbe life)، وأعده جي ديلو، سوليفان، وجريرســـن ، الجزء الرابع، الباب السادس، ص ٢٨.

[2] ـــ انظر: (the miracle of on belief) للسيد فرانك بيلارد.

يبقي السؤال هو هل هناك شهادة تاريخية تؤيد ذلك أم لا، والتي يعرف من خلالها بأن خالق الفطرة قد خالف و كسر الفطرة في بعض الأحيان. ([1]) وليس هذا ممكناً فقط بأن خالق الفطرة إن شاء يستطيع أن يخالف قوانين الفطرة أحياناً، بمعني أنه يستطيع أن يكسر سلسلة العلل والأسباب والمعلولات، بل إن عالماً آخر من علماء الطبيعة المشهورين وهو البروفيسور " دولبير " ([2]) يعترف أن لدينا شهادة معقولة، ولا يمكن التغاضي عنها بسهولة علي أن بعض الحوادث الطبيعية تقع بطريقة تغيب فيها كل الأسباب والعلل العادية، فالأجسام تتحرك في الوقت الذي لا يلمسها فيه أحد، ولا علم لها بالعوامل المغناطيسية أو الكهربائية، وهناك شهادة أيضاً أن فكر نفس ما ينتقل وبغير واسطة إلي نفس أخرى، وأن تلك الأمور التي كانت تعد من قبيل المعجزات لم يعد حدوثها نادراً الآن.

ورغم أن " هكسلي " مختلف تمام الاختلاف مع "هيوم " في أن المعجزة عبارة عن خرق قوانين الفطرة، لكن طبقاً للتصريحات السابقة فإننا إذا وضعنا أمامنا وفي اعتبارنا حقيقة قانون الفطرة كما ثبتت، فإن هذا التعريف للمعجزة لن يعترض الكثيرون عليه: ـــ

- قوانين الفطرة عبارة عن قوانين العادة.
- الأشياء التي لا نعلم نحن ما بداخلها، إذ أننا لا نعلم بأنفسنا دواخل الأشياء، وإنما يعتمد هذا علي التجارب السابقة والتي يظل من الممكن دائماً حدوث خلافها، ولا يستلزم ذلك استحالة في الأمر.
- ولهذا فإن حدوث ما يخالف قوانين الفطرة " أي خرقها " أمر ممكن عقلاً، وبألفاظ أخرى فإن وقوع المعجزة أمر ممكن وجائز عقلاً.

---

[1] ـــ انظر المرجع السابق.

[2] ـــ انظر كتابه: matter ether nation " المادة والحجز والحركة "

شهادة المعجزة

الإمكان ليس كافياً للحدوث:

لكن كون حدوث أمر ما ممكن عقلاً ليس دليلاً علي حدوثه، فلقد كان من الممكن تماماً أن يكون السلطان " جلال الدين أكبر " سلطاناً لإنجلترا مع كونه سلطاناً للهند، لكن هذا لم يحدث في الحقيقة، وهناك صورتان لقبول حدوث أمر ما:

- المشاهدة التي لا شبهة فيها.
- أو الشهادة المعتبرة.

وفي حالة المشاهدة التي لا شبهة فيها لا يبقي هناك مجال للمناقشة فمثلاً: ـــ

" في إحدى أسفاره طلب رسول الله صلي الله عليه وسلم من سيدنا جابر رضي الله عنه ماءاً للوضوء، فبحث في القافلة عن الماء كثيراً فلم يجد، وكان هناك أحد الأنصار الذي كان يحتفظ دائماً بالماء البارد للنبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبر سيدنا جابر رضي الله عنه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعدم وجود ماء أرسله صلى الله عليه وسلم إلي ذلك الأنصاري، لكن الماء عنده كان قليلاً جداً لدرجة أنه لو صبّ في إناء جاف سيشربه، فأخبر سيدنا جابر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالأمر فطلب منه رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يأتيه بالإناء، وأخذه في يده وقرأ عليه شيئاً وضغط عليه بيده، ثم أعطي الإناء لسيدنا جابر، وطلب طشتاً، ثم مدّ أصابع يده الشريفة ووضعها في الطشت، وطلب من سيدنا جابر أن يسمي الله ويصب الماء علي يده، يقول سيدنا جابر: أنه بدأ يصب الماء فخرج الماء في البداية من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم، ثم امتلأ الطشت تماماً بالماء حتى شرب الناس جميعاً، ثم أخرج النبي صلى الله عليه وسلم يده من الطشت وظل الطشت مليئاً بالماء كما هو. " ([1])

---

[1] - انظر هذا الكتاب، باب المعجزات العامة. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٤٠٦٣) حدثنا يوسف بن عيسى حدثنا ابنُ فُضَيل حدثنا حصينٌ عن سالم عن جابر رضيَ الله عنه قال: «عَطِشَ الناسُ يوم الحديبية، ورسولُ الله صلى الله عليه وسلم بينَ يدَيهِ رَكوةٌ، فتوضأ منها، ثمَّ أقبلَ الناسُ نحوَهُ، فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: ما لَكم؟ قالوا: يارسولَ الله، ليس عندَنا ماءٌ نتوضأ به ولانشرَب إلاّ مافي

فإذا كان سيدنا جابر قد شاهد هذه الواقعة بعينه، وليس عنده أي شبهة فيها فمن الطبيعي أن لا يتردد أحد في تصديقها وقبولها، إلا أنه يبقي لدينا إمكانية المناقشة لتأكيدها، بمعني أنه هل هذه الواقعة ممكنة الحدوث أم لا ؟، وإلي أي مدي يمكن أن نثق في شهادة سيدنا جابر ؟، ولهذا فإنه بعد أن تنتهي مرحلة إمكانية وقوع المعجزات تأتي مرحلة بحث

ركوَتك. فوضعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يدَه في الرَّكوة، فجعلَ الماءُ يَفورُ من بينِ أصـــابعهِ كأمثـــالِ العُيون، قال: فشرِبنا وتوضأنا. فقلت لجابرٍ كم كنتم يومئذٍ؟ قال: لو كنّا مائةَ ألفٍ لكفانا، كنّا خمسَ عشرةَ مائة». (يوسف عامر).

شهادة المعجزات

فتوى هيوم:

ورغم أن فتوى ورأي " هيوم " فيما يتعلق بروايات المعجزة أنه لا يمكن أن يكفي لإثباتها أي كمية أو كيفية من الشهادة الإنسانية، إلا أنه يري أن هناك درجة من الشهادة الإنسانية يمكن علي أساسها قبول الأحداث الخارقة للعادة، يقول: ـ

" افترض أن كل مؤلفي اللغات متفقون علي أن الظلام عمّ الأرض كلها من أول يناير عام ١٦٠٠م ولمدة ثمانية أيام متصلة، وافترض كذلك أن هذا الأمر الخارق للعادة لا يزال يجرى علي ألسنة الناس حتى اليوم، والسائحون من الدول الأخرى يرون هذا الأمر بغير تناقض أو زيادة أو نقصان، فمن الطبيعي أن يصبح همّ علماء زماننا هو تصديق هذه الواقعة وتبريرها والبحث عن أسبابها وعللها بدلاً من الشك فيها. والأسئلة كثيرة علي القوة والضعف، والفناء والفساد في كائنات الفطرة بحيث إذا وجدت آثار تدل علي تدميرها بسبب حادث ما فإن الشهادة الإنسانية في هذا الخصوص ستكون مقبولة بشرط أن تكون هذه الشهادة متواترة ومتفق عليها وعلي نطاق واسع. " ([1])

تعصب هيوم:

والآن إذا نسبنا مثل هذه الواقعة السابقة إلي نبي من الأنبياء، وتقرر أنها معجزة فإن هيوم يري أنه لا يمكن أن تقبل الشهادة الإنسانية لتصديقها، فلماذا ؟. ذلك لأن " مثل هذه الشهادة تكذب نفسها " لدرجة أن المعجزة التي تدل عليها شهادة إنسانية تصبح مثاراً للسخرية بدلاً من أن تكون مثاراً للنقاش والحجة. والناس دائماً يقعون في قصص وخرافات مضحكة باسم الدين، ولهذا فإن نسبة المعجزة إلي الدين هي في ذاتها دليل كامل علي كذبها، والناس لا يتورعون عن الكذب والاختلاف غير الضار من أجل تأييد شيء مقدس مثل الدين والنبي يمكن أن يتحمل أي خطر رغبة في الحصول علي الكرامة والعزة كنبي (والعياذ بالله)، بل ويكون لأي مكر واحتيال، والإنسان بطبعه سريع الاعتقاد ومغرم بالعجائب، والقبول السريع الذي تلقاه المعجزات وشيوعها وذيوعها بسهولة ويسر دليل

---

[1] ـ باب الفهم الإنساني.

كذب عني مدي الميل الشديد لدي الإنسان تجاه الأمور العجيبة، ولهذا يمكن النظر – عن حق – إلي كل ما يروي عن العجائب بشيء من الشك، ثم إن هناك قرينة قوية ضد المعجزات والأمور الخارقة للعادة وهي أن غالب المؤمنين بها يكونون من الأمم الجهلة البدائية والمتخلفة، والشخص العاقل عندما يقرأ التاريخ المحير للأزمنة الماضية سيصرخ قائلاً: للعجيب أن مثل هذه الأحداث الخارقة للعادة لا تحدث في زماننا، وبناءاً علي هذه الأسباب فإن كل المعجزات التي تروي باسم الدين هي مجرد خرافات، وخداع لفطرة الإنسان التي تميل إلي الأوهام ([1])، ومن المؤكد أن كل هذه الأمور توضع في الاعتبار عند الجرح والتعديل والتحقيق والتنقيح، ولكن هل من بينها شيء ما يثير مثل هذا التعصب الشديد بمجرد أن تذكر المعجزة باسم الدين، هذا التعصب الذي لم تؤيده فيه الدوائر العلمية والفلسفية الجادة، وإن كانت هناك شهادة مقنعة لإثبات معجزة ما فلا يمكن لعاقل إنكارها لمجرد أنها معجزة، علي سبيل المثال في إحدى السفريات " كان الصحابة رضي الله عنهم يتضورون جوعاً بحيث أنهم أرادوا ذبح النوق، لكن النبي صلى الله عليه وسلم أمر بجمع زادهم جميعاً وتم فُرِشَ رداء علي الأرض ووُضِعَ الزاد كله عليه، وأحاط هذا الزاد كله بحيّز من الأرض يكاد يكفي لموضع شاة، بينما كان تعداد الناس ألفاً وأربعمائة شخصاً، ومع ذلك فقد أكل الناس جميعاً منه حتى شبعوا، بل وحملوا معهم منه ملء أوعيتهم " ([2])

---

[1] – هذه هي ألفاظ هيوم تقريباً والتي تجدها في مقالة " المعجزات "

[2] – انظر هذا الكتاب في بيان المعجزات العامة. وهذا نص الحديث: (١٠٣) ـــ حدّثنا سَهْلُ بْنُ عُثْمَانَ وَ أَبُو كُرَيْبٍ مُحمَّدُ بْنُ الْعَلاءِ جَمِيعا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ. قَالَ أَبُو كُرَيْبٍ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ شَكَّ الأَعْمَشُ قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ، أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ! لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا، فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «افْعَلُوا» قَالَ فَجَاءَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ. وَلَكِنِ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ. ثُمَّ ادْعُ الله لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ. لَعَلَّ الله أَنْ يَجْعَلَ فِي ذَلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «نَعَمْ» قَالَ فَدَعَا بِنِطَعٍ فَبَسَطَهُ. ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ. قَالَ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ. قَالَ وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ. قَالَ وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكِسْرَةٍ. حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطَعِ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ. قَالَ فَدَعَا رَسُولُ اللّهِ عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ. ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ» قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ. حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلاَّ مَلأُوهُ، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَفَضِلَتْ فَضْلَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنِّي رَسُولُ اللّهِ، لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ، غَيْرَ شَاكٍ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ».(يوسف عامر).

الشهادة الكافية:

فإذا ما وجدت شهادة كافية علي هذه الرواية بأن:

١ــ الزاد كله وضع في مكان يكاد يكفي لأن تجلس فيه شاه.

٢ــ وعدد الأشخاص كان ألف وأربعمائة.

٣ــ وأكل الناس جميعاً حتى شبعوا.

٤ــ وأخذوا معهم ملء أوعيتهم، فلا ينبغي أن يكون هناك أي تردد في التصديق بها حتى ولو كان عالماً وفيلسوفاً مثل " هكسلي "، وهكذا فإن هناك معجزة مشابهة لسيدنا عيسى مذكورة في الإنجيل. من أن خمسة آلاف رجل أكلــوا وملئوا بطونهم حتى شبعوا من خمسة أرغفة وخمسة سمكات، وبقي بعد ذلك منها ما ملأ اثني عشرة سلة ([1]) لكن هكسلي بعد أن شرح بوضوح كل الصعوبات التي تكتنف طريق تصديق هذه المعجزة كتب يقول: ــ " لو ثبت أن:

١ــ كم كان وزن الأرغفة والسمكات عندما بدأ الطعام.

٢ــ وأنها قسمت علي الناس بغير إضافة أي شيء إليها.

٣ــ وأن الناس جميعاً أكلوا حتى شبعوا منها.

٤ــ وكم كان وزن الكسرات التي تبقت والتي جمعت في السلال، فإن بعد كل هذا أياً كانت أفكاري الحالية فيما يتعلق بالممكنات وغير الممكنات، لكن بعد هذه الشهادة المقنعة فإن عليّ أن أعترف أن أفكاري السابقة كانت خاطئة، وسأعتبر المعجزة أمراً من ممكنات الفطرة ومثالاً علي خلاف المتوقع. " ([2])

وباختصار فإن المعجزة ليست شيئاً ممكن الوقوع فقط، بل إنه يمكن التيقن بوقوعها بناءً علي شهادات معتبرة، ويبقي بعد هذا البحث عما إذا كانت هناك شهادات معتبرة تؤكد المعجزات المذكورة في الكتب التاريخية والدينية ؟!

وكان يجب علي " هيوم " أن يجيب علي هذا السؤال بالنفي، لكن " هكسلي " أيضاً يتفق مع جواب " هيوم " لفظاً ومعني اتفاقاً كاملاً ([3])، يقول: ــ

---

[1] ــ إنجيل يوحنا، باب ٦ ــ آيات ١٤٥.

[2] ــ مقالات هكسلي ــ الجزء ٥ ــ ص ٢٠٣.

[3] ــ المرجع السابق ــ ص ٢٠٧.

" صحيح أنه لا يمكن إثبات استحالة المعجزات، لكني بالتأكيد لا أعرف شيئاً أستطيع من خلاله التعديل في هذه الفتوى القيمة لهيوم من أنه لا يوجد في مكتب التاريخ معجزة نجد لها مؤيدين كثر من العقلاء والواعين والمتعلمين والذين لا نخشى عليهم من الوقوع في خداع النفس والمغالطة، ولا نشك أبداً في أنهم قد يخدعون الآخرين تحقيقاً لمصلحة ما نظراً لصدقهم الذي لا مراء فيه، والذين يحظون بالاحترام والتوقير في عيون الناس بحيث تصيبهم المهانة فيما لو افتضح كذبهم، وإضافة إلي ذلك فإن الأحداث التي يروونها أو يؤكدونها تكون قد حدثت علي الملأ، وفي أماكن معروفة بحيث لا يمكن إخفاء أي تضليل بشأنها، في حين أن هذه الأمور كلها في غاية الأهمية لجعل الشهادة الإنسانية حتمية وقطعية. "

لقد قال هيوم: ــ " بأن الدرجة المطلوبة من الشهادة لقبول المعجزات لم تصادفه في مكتب التاريخ، ولكن هل هذا هو السبب حقيقة في عدم قبول المعجزات والاعتراف بها، وألم يردّ هو بنفسه دعواه هذه بعد عدة صفحات ؟. يوجد في فرنسا مدرسة شهيرة يقول هيوم عن قداستها أن " إعادة السمع إلي الصم، والبصر إلي العمي، والصحة إلي المرضي من الكرامات العادية لهذه المدرسة المقدسة، وهي التي اشتهرت في كل شارع وحارة، لكن الأمر العجيب والمحير هو أن كثيراً من كراماتها تم إثباتها عن طريق " حكَمٍ " من الناس لا يمكن أن يتهموا في تدينهم، ثم صدق عليها من الشهود من كانت شهادتهم معتبرة ومسلم بها، والوقت الذي ظهرت فيه هــذه الكرامات هو زمن العلم، والمكان الذي حدثت فيه من أشهر البقاع في العالم، ليس هذا فقط، بل إن هذه الكرامات تم طَبعها ونشرها ومع كل هذا لم تستطع الفرقة اليسوعية أن تكذّب هذه الأمور أو تفضحها، في حين أن هؤلاء أهل العلم، والقانون يحميهم، وهم ألدّ أعداء هذه الأفكار التي كانت هذه المعجزات تقدم تأييداً لها، والآن قل لي، من أين نأتي بهذا العدد الكبير لتأكيد أمر ما وتصديقه، وما هو الدليل لدينا ضد هذه الشهادات القلبية سوى أن نقول بأن هذه الأمور مستحيلة الوقوع في ذاتها، وهي خارقة للفطرة، وهذا في نظر العقلاء دليل كاف لإنكارها " اللهم احفظنا من شرور أنفسنا ".

تناقض صريح عند "هيوم ":

إن هذا القدر من التناقض الصريح في مقال واحد لفيلسوف كبير مثل "هيوم " لأمر محيّر، والأكثر من ذلك أنه مثار للاعتبار، والحكاية هي أن يقين الإنسان لا يتفق مع

منطقه أبداً، والجبريون يقولون: أن الإنسان مصير تماماً في أفعاله، وأقاموا أدلة قوية علي دعواهم هذه، ومع ذلك انظر كم مرة يجدون أنفسهم فيها مسيرين تماماً خلال الأربع والعشرين ساعة في اليوم، وقد أثبتت أدلة هيوم الفلسفية أن المعجزة ليست مستحيلة في ذاتها، ومع ذلك فإن القلب يظل في شك أن المعجزات بذاتها مستحيلة وخارقة للعادة في مجملها، وهذا هو الدليل الوحيد الكافي لإنكارها، فالكرامات الشهيرة التي تنسب إلي تلك المدرسة الفرنسية توفرت لإثباتها وتوثيقها شهادة ذات درجة رفيعة لم يكن لها وجود في مكتب التاريخ كله علي حد زعمه قبل صفحات، ومع ذلك يرفض تلك الكرامات تماماً، ولهذا يبدو أن لتصديق المعجزات لا يكفي مجرد توفير شهادة ذات درجة رفيعة، وإنما ينبغي قبل كل هذا إخراج الشكوك بعدم إمكانية حدوثها من الذهن بشكل كامل، ثم يجب بعدها البحث في أسباب وماهية اليقين.

الاستبعاد التام:

ورغم أننا لم نتصور أي حرج يذكر في تعريف " هيوم " بأن المعجزات هي الأمور الخارقة للفطــرة، لكنــك رأيت في الاقتبــاس السابق كيف أن لفظ " خارق " لفظ مضلل، فلقد ثبت من فلسفة " هيوم " ذاتها أن وقوع المعجزات في ذاته أمر ممكن تأكيداً، ولكنه بالرغم من ذلك لم يستطع قلمه أن يتجنب هذا الزلل بالقول بأن المعجزات في ذاتها مستحيلة الوقوع وخارقة للفطرة، والحقيقة أن هناك فكرة خاطئة رسخت في أذهاننا لأمر نفسي وهي أن الفطرة أو قانون الفطرة ثابت غير قابل للتغيير، ولهذا فإنه بمجرد أن نطلق علي واقعة ما أنها خارقة للفطرة يسيطر علي الذهن تصور بأنها مستحيلة الوقوع. ولهذا فقد ثبت بشكل قطعي أن مسألة عدم الإمكان هذه ليست داخلة في نفس المعجزة، وإنما يمكن تصديقها في حــال توفر شهادة معتبرة تثبتها، ولذا فإنه بدلاً من استخدام تعبير " خارق للفطرة " المضلل هذا يمكن علي أكثر تقدير استخدام تعبير " هكسلي " بأنها " أمور محيرة للغاية " ومع ذلك فإن الأنسب من تعبير " محير للغاية "هو تعبير " مستبعد تماماً".

استبعاد المعجزات

تطابق الفطرة:

وهناك تصور عام يضيف إلي " إثارة الحيرة " هذه وهو أن مفردات إنتاج مصانع الفطرة دائماً متطابق في نتائجها، وعندما يركز العلماء علي لون واحد من ألوان الفطرة فإنهم يقعون في مغالطة أن " مل " اضطر إلي الرد علي هذا التصور في منطقه ([1]) من أن تأثير الفطرة مبني علي التطابق دائماً، وإذا أمعنا النظر فسوف نجد بعض الأمثلة التي يجب أن تقضي علي هذه المغالطة. وقد وقع بصري اليوم علي حادثتين بينما كنت اقرأ جريدة اليوم ([2]). فالنساء بشكل عام يلدن طفلاً واحداً في المرة الواحدة، وأحياناً طفلين ولكن في أيامنا هذه، وفي المكسيك ولدت امرأة ثمانية أطفال دفعة واحدة، وقد ذكرت هذا الأمر لصديق فقال: إنه منذ فترة قصيرة نشر خبر بأن امرأة من " برهما " ولدت ستة أطفال، والتجربة العامة في عالم الطب تقول بأنه عندما تصل درجة حرارة الدم إلي ١٠٧ أو ١٠٨ درجة فهرنهايت فإن الإنسان يموت، ومع ذلك فهناك فتاة مريضة بالأنفلونزا في مدينة " برستل " وصلت درجة حرارتها إلي ١١٤ درجـــة فهرنهايت، ثم تحسنت حالتها، ولا تزال حية، ويقول الطبيب الذي حيّره هذا الأمر: ــ

" عندما تم استدعاؤه لفحص هذه الطفلة للمرة الأولي كانت حرارتها ١١٢ درجة فهرنهايت، فتصور أن هناك خللاً ما في الترمومتر (مقياس الحرارة)، فطلب مقياساً آخر فجاءت درجة الحرارة ١١٢ أيضاً، ومع ذلك فلم يصدق الطبيب هذا الأمر، فطلب مقياسين آخرين، وكان عليه في النهاية أن يصدق ما يراه، وبعد قليل من العلاج انخفضت الحرارة ووصلت إلي معدلها الطبيعي، لكنها ارتفعت بالليل مرة أخرى، وفي الصباح عندما فحصها الطبيب وجد أن درجة الحرارة قد ارتفعت إلي ١١٤ درجة، وكان في غاية الاندهاش. علي أية حال تحسنت الحالة بالعلاج، والمريضة الآن في طريقا للشفاء التام. "

---

[1] ــ نظام المنطق ــ كتاب ٣ ــ باب ٣.

[2] ــ هاتان الحادثتان مذكورتان في عدد اليوم ٢٧ فبراير ١٩٢٢م من جريدة " ليدر: القائد ".

وهناك هندسة المثلثات وغيرها من فروع الرياضيات والتي يتم تدريسها في تكيف على أعلي مستوي، بينما الطفل الذي يكون عمره عشر سنوات أو أكثر قليلاً، يتعلم عادة في الصف الرابع أو الخامس الابتدائي يكون استيعابه الرياضي محدوداً، ولا يتحصى عدة قواعد أولية في الحساب، والطفل الذي وهبه الله ذكاءً غير عادي، وهو مجتهد بشكل كبير، ويعطي اهتماماً خاصاً باستقدام مدرسيه لتعليمه في البيت أيضاً فإن هذا الطفل يرتقي كثيراً، وينتهي من مرحلة التعليم المدرسي في عمر الثالثة عشر أو الرابعة عشر.

ولكن في عدد أكتوبر من جريدة " ليدر: الزعيم " نشر خبر تحت عنوان " طفل مدراسي " من مدراس " اسمه راج نرائن معجزة في الرياضيات وعمره أحد عشر عاماً، وجاء في الخبر أنه تعلم الجبر وحساب المثلثات والهندسة وبغير معاونة من أحد. وأي شيء يمكن أن يكون مستبعداً أكثر من ولادة المسيح بغير أب، وأكثر من إحياء الموتى ؟! ومع ذلك فإن البحوث العلمية " وهي التي تعتبر الإنسان في الحقيقة ليس أكثر من حيوان عالم " بحثت عن نظائرها بين الحيوانات، وهكذا يكتب عالم مثل " هكسلي " فيما يتعلق بالمعجزات قائلاً:

" بقيت مسألة ولادة المسيح من مريم وهي عذراء، وهو أمر ليس ممكن التصور فقط، بل إن بحوث علم الأحياء أثبت أن مثل هذا الأمر يحدث يومياً في بعض أنواع الحيوانات، وهذا هو الأمر نفسه مع مسألة إحياء الموتى، فبعض الحيوانات تموت وتيبس تماماً مثل المومياوات، وتبقي هكذا لفترة، ولكن عندما توضع في ظروف خاصة مناسبة فإن الروح تعود إليها ثانية. ([1])

اختراعات العلم:

كان هذا جانباً علمياً وبحثياً للعلم، وأما الجانب الاختراعي فلم يكن هو الآخر أقل منه في تحقيق أمور محيرة معجزة، فقبل اختراع اللاسلكي كوسيلة للاتصال كم كان مستبعداً، بل وبعيداً عن التصور أن تكون أنت جالساً في بومباي، وصديقك جالس في لندن وبينكما آلاف الأميال من المياه تحول بينكما، ولا يربط بينكما شيء محسوس كسلك مثلاً، ومع ذلك فإنك تستطيع أن توصل إليه رسالتك في غمضة عين، وفي الدقيقة ستون

---

[1] ـــ مقالات هكسلي ـــ الجزء الخامس ـــ ص ١٩٩.

ثانية، فإذا ما قسمت الثانية إلي ستة عشر جزءاً فإن رسالتك عن طريق اللاسلكي تقطع أكثر من اثني عشر ألف ميلاً في جزء من الستة عشر جزء من الثانية. ([1])

والأكثر من ذلك حيرة أنك لا تستطيع توصيل رسالتك فقط، وإنما ادعّي أحد العلماء الفرنسيين في وقتنا الحاضر بأنه يستطيع أن يجعل الشخص يوقع علي شيك مصرفي في نيويورك أو لندن وهو جالس علي مكتبه في بومباي، وقد تمت تجربة هذا الأمر بنجاح في المسافات القريبة " يعني في محيط مئات الأميال " ([2])

التنويم:

وبعد أن رأينا إعجاز علوم الطبيعيات تعال نلقي نظرة علي أبحاث فرع التنويم المغناطيسي من فروع علم النفس، وهو ما يسمي في اللغة العربية " التنويم المغناطيسي "، لكننا لن نطلق عليه مجرد التنويم فقط، فهو كما يقول عن كراماته العالم النفسي الكبير البروفيسور " وليم جيمس " من علماء عصرنا: ــ

" إن ما يقوله عامل التنويم: الشخص الذي يقــوم بعملية التنويم للشخص المنوم مغناطيسياً وينفذ ما يأمر به، حتى أن الأمور التي تكون فوق طاقة الإنسان في الحالات العادية تحدث بأمر عامل التنويم مثل العطس، واحمرار الوجه أو اصفراره، وزيادة حرارة الدم أو نقصانها، وإسراع حركة القلب أو إقلالها وغيرها. إنك تستطيع أن تؤكد للوسيط أن رياحاً باردة تهب أو أن يحرق في النار، تستطيع أن تطعمه بطاطس، وتؤكد له أنه يأكل غيرها، تستطيع أن تسقيه خلاً وتؤكد له أنه يشرب خمراً، ويمكن أن يبدو له الكرسي كأسد، والمقشة كامرأة جميلة، وضجيج الطريق موسيقي، ويبدو له الشاب طفلاً أو قائداً كنابليون، يمكن القضاء علي ألم الرأس أو الأسنان، ويمكن تحسين حالة المريض بألم المفاصل وما شابه ذلك، يمكن أن يقضي علي الجوع، حتى أن شخصاً بقي أربعة عشر يوماً بدون طعام، وتستطيع أن تعمي الوسيط وتصمه عن كل ما تريد أنت أن يكون كذلك، فمثلاً تريد أن لا يسمع لفظاً بعينه، فلن يستطيع أن يسمعه ولو صرخت أمامه آلاف المرات، تريد أن لا يري فلاناً من الناس فلن يستطيع رؤيته ولو أوقفته أمامه. " ([3]) وأثناء القيام بهذه المهمة يطرأ علي الوسيط حالة من النوم، ولهذا سميت هذه العملية

---

[1] ــ مجلة " معارف ".

[2] ــ اندين ريويو ــ عدد يناير ١٩٧٢ م ــ ص ٧٧.

[3] ــ انظر كتابه " مبادئ علم النفس " ــ الجزء الثاني ــ باب ٣٧.

بالتنويم، ومع ذلك فإن أثر هذه العملية يمكن أن يستمر بعد ذلك، علي سبيل المثال يمكن أن ينتهي ذلك المرض تماماً والذي قمت في سبيله بعملية التنويم هذه، أو افترض أنك قلت للوسيط أنه سيري العام القادم في التاسعة صباحاً من يوم ٢٠ يناير أسداً واقفاً بجانب سريره، فسوف يبدو له بالفعل أسد بجانب سريره بعد سنة كاملة.

ورغم أن أكثر تجارب عملية التنويم تتم بعد أن تطرأ علي الوسيط حالة من النوم إلا أن إحـــداث هذا الأمـــر بشكل واضح ليس من بين شروط عملية التنويم الناجحة، بل أنه كما يقول دكتور " مول ": إن قليلاً من الوسطاء الذين يمكن أن تطرأ عليهم حالة النوم([1]) ولكن ينبغي أن نتذكر أن أثر هذه العملية لا ينحصر في الأفراد فقط، وإنما يتعداهم إلي الجماعات أيضاً.

لقد ذكرنا الآن الدكتور " البرن مول " وكتابه " التنويم المغناطيسي " يعتبر أحسن ما كتب في موضوعه من الكتب المعتبرة الموثوق بها، وقد أثبت الدكتور " مول " في كتابه أن كثيراً من المعجزات يمكن تبريره (تفسيره) علي التنويم المغناطيسي بسهولة، وليس المعجزات فقط، وإنما يمكن أن نفعل نفس الأمر مع السحر والأعمال السفلية. وأصبحت الأمور التي كان العقلاء يعتبرونها من الأوهام والخرافات، أصبحت حقائق تتعلق بالقوانين النفسية، مثلها مثل ما يتعلق بالقوانين المادية.

معجزات الشفاء:

هناك كثير من المعجزات والكرامات فيما يتعلق بالشفاء من الأمراض التي لا تعالج بوسائل الطب المادي، ويعتبرها مدعو العقل " توهمات "، لكن البحوث في عملية التنويم المغناطيسي اليوم كشفت مبدأ جديداً وناجحاً من مبادئ العلاج لا حاجة فيه إلي استخدام الأدوية والوسائل المادية العامة، ومن خلال هذا العلاج الذي لا دواء فيه يسمع الأصم، وتشفي أمراض السل والرئتين، ويقضي علي أمراض العيون وآلام المفاصل، وتندمل به الجروح. ([2]) فهل بعد هذا لا يكون قولنا بأن مسألة شفاء سيدنا عيسى عليه السلام للأمراض والتي جاءت في الإنجيـــل ما هي إلا حسن اعتقاد أو أكاذيب محضة، دليل علي جهلنا الكبير ؟!.

---

[1] ـــ مول ــ التنويم المغناطيسي ــ ص٤٩٢ ــ ط ١٩٠٩م

[2] ـــ التنويم المغناطيسي ــ د / مول ــ ص ٣٥٥ ــ ١٩٠٩م.

إن كرامات الشفاء الخاصة بالمدرسة الفرنسية المشهورة التي أشرنا إليها سابقاً قال عنها " هيوم " إنها مستحيلة بالرغم من وجود شهادات معتبرة وموثوق بها، لكن الدكتور " مول " يعتقد أن كرامات الشفاء التي وردت عن المعابد المصرية واليونانية القديمة أثر نفسي أشبهه بالمعجزة للتنويم المغناطيسي، وبدون أن يطلب شهادات علي ما يقول. المهم أن الشيء الذي يعتبره " هيوم " مستحيلاً لم يعد عنه " مول " مستبعداً بحيث يطلب لتأكيده شهادات رفيعة الدرجة.

وقد عرّف "جون ستيوارت" المعجزة بأنها الأمر الذي يحدث ولا تسبقه تلك اللوازمات والشروط التي تكفي لحدوثه مرة ثانية، ولكننا اليوم نجد أمامنا اللوازمات والشروط التي يمكن بناءً عليها أن تصير العصا ثعباناً مثلما يمكن للكرسي أن يبدوا أسداً، وستقول عندئذٍ فما هو الإعجاز الذي يبقي لموسى عليه السلام إذاً ؟! وسيأتيك الجواب أن عليك في الوقت الحالي أن تعتبر بأن تحول العصا إلي ثعبان ليس أمراً مستبعداً بحيث يحتاج تصديقه إلي حدوث شهادة موثقة علي أمر من جنسه.

التجارب العامة:

ومع ذلك فهناك إلي جانب تجارب التنويم المغناطيسي بعض الأحداث الغامضة والتي لا يمكن تفسيرها بقوانين الفطرة العامة، ومن خلالها تقل حيرتنا واستبعادنا لمعجزات كثيرة. فلقد نشرت الجريدة الإنجليزية المشهورة " الزعيم " التي تصدر من إقليمنا في إبريل من العام الماضي خبراً عجيباً عن " برداون " وهذا الخبر كما يلي: ــ

" حدث أمر عجيب وغامض في برداون أخاف الناس كثيراً، فقد مات السيد " لالة كندن لعل كبور " من أصحاب الأطيان في السادسة من مساء الحادي عشر من الشهر الجاري، ولأن هذا الرجل ينتمي إلي طائفة سورية بنسي،لذلك لم تحرق جثته حتى طلعت شمس اليوم التالي، وقد ابنه " نندلال " بتصوير الجثة قبل حرقها في حجرة خالية ليس فيها أحد، لكنه تعجب كثيراً عندما رأي أن هذه الصورة طبعت عليه خمس صور أخرى غير واضحة. تعرف أهل العائلة علي اثنين منها وهما الزوجة الأولي للمتوفى وابنته واللتان ماتا منذ عدة سنوات، بينما لم يتم التعرف علي الصورة الثلاثة الباقية حيث لم تكن واضحة تماماً. "

وهناك في جريدة " تامس " خبر عن " سليفن " أحد أصحاب مزارع الشاي الإنجليز، وقد رأي بعض الأشياء التي كانت تبدو له غاية في العجب، ومنها هذه الواقعة:([1]).

" وضع شخص جمرة من النار علي راحة يده وظل يطوف حول أحد المعابد راقصاً، وقد أكد لي أنه لم يشعر أبداً بحرارة هذه الجمرة، في حين أنني لمست هذه الجمرة التي وضعها هذا الرجل علي راحة يده علي سبيل التجربة فلسعت إصبعي، بينما وضعها الناسك الكبير في المعبد يده في النار لدقيقة كاملة علي الأقل، ولم يؤثر ذلك فيه شيئاً. وبنفس الطريقة قام أمثال هؤلاء الناس بأمور غاية في العجب. "

وعندما كتب " بلانتز " هذه الأمور العجيبة في الجريدة طلب ممن رأي من القراء مثل هذه الأمور أن يطلعه بها، أو يبلغه بتفسير لها إن كان لديه تفسير، وكتبت جريدة " تايمز " أن مثل هذه الأحداث تقع كثيراً في " سيلون " و " الهند " خاصة في المناسبات الدينية. علي سبيل المثال في كولمبو يسير بعض الناس علي النار في مناسبات شهر " محرم "، ونحن لا نعرف إن كان هناك تفسير علمي لمثل هذه الأحداث حتى الآن أم لا. وهناك نظرية تقول أن هؤلاء الناس يكونون تحت تأثير التنويم المغناطيسي. ([2])

علي أية حال سواء كان هناك تفسير لهذه الأمور أم لا، إلا أن محرر " تائمز " لم يكذّب السيد بلانتز، ولم يطالب بمزيد من الشهادات الموثوق بها. لماذا ؟ لأن مثل هذه الأحداث تقع من حين لآخر، والتي تجعل من الأمور التي أخبر بها بلانتز أمراً غير مستبعد، بحيث يتم إنكارها ورفضها بناءً علي أحداث من جنسها، أو يكون من الضروري المطالب بشهادات رقيعة لتأكيدها، وإذاً فما هو السبب الذي يجعلك لا تصدق أن النار لم تحرق إبراهيم عليه السلام ؟ ويمكنك علي أسوأ الأحوال أن لا تعترف بنبوته لمجرد وقوع هذه الحادثة، ولكن بأي حق تنكر الواقعة نفسها ؟!

الرؤيا الصادقة:

لم تستطع الحكمة ولا الفلسفة حتى الآن أن تحل الرؤى أو الأحلام بشكل مقنع، حتى أن النظريات المختلفة التي قيلت في تفسير المختلفة تبدو وكأنها هي الأخرى أحلام يصعب تفسيرها لكن الفطرة لا تنتظر التفسير الإنساني لكي تظهر عجائبها. فلتسأل رجلاً

---

[1] ــ نقلت جريدة " الزعيم " هذا الخبر عن " تائمز آف سيلون ".

[2] ــ طبقاً لبحوث التنويم المغناطيسي يستطيع الشخص أن يقوم بمثل هذه الأعمال.

مبصراً لعله يذكر كثيراً من الأحلام في حياته والمبنية علي نبوءة صريحة أو تلميحية للمستقبل. ولي صديق فيلسوف جرّب صحة أحلامه كثيراً بحيث أنه لو اختلف مع أحد الناس في المنام لظل مستعداً لنتائج هذا الاختلاف في اليقظة، وبالفعل يحدث هذا الاختلاف بينهما في اليقظة كثيراً، أنا نفسي أتذكر أحلامي قليلاً جداً، لكن الحلم الذي أظل أذكره بوضوح يتحقق بنفس النسبة، وقد كتبت في مذكراتي عن الخامس عشر من إبريل لعام ١٩٢٠ م التالي: ــ

" نمت ظهر اليوم فرأيت في المنام أنني وصلني خطاب من " ح "، وكان بداخله خطاب آخر من "س " أيضاً "، ولما استيقظت وجاءني البريد تحقق هذا الحلم بحذافيره، والأكثر من هذا أن موضوعات الخطابين التي رأيتها في المنام كانت هي تقريباً نفس موضوعات الخطابين في اليقظة، في حين أنني لم أكن أنتظر أي خطاب من " ح " ولم يخطر ببالي أصلاً أن يأتيني خطاب من " س ". وهناك الدكتور " هلبركت " وهو خبير مشهور في آثار " أسيريا " وقد استطاع في المنام حل مشكلة تتعلق بأثرين بابليين لم يكن حلها في اليقظة، وقد أرشده إلي الحل كاهن بابلي جاءه في المنام. (١)

فإذا كان هذا هو حال عامة الناس فما العجب والاستغراب والاستبعاد في أن تكون أحلام بعض النفوس القدسية " الأنبياء " رؤى صادقة ونوعاً من الوحي والإلهام. وقد نزل الوحي علي الرسول صلى الله عليه وسلم في بداية الأمر في شكل رؤى صادقة صالحة، وهناك بعض الأمور المتعلقة بعلم الغيب تنكشف وتظهر بالرؤى الصادقة.

أسرار النبوة الحقيقية:

إن أكثر مراتب أســرار النبــوة غمــوضــاً هو ذلك الذي ينادي فيه الله إبراهيم عليه السلام " وناديناه أن يا إبراهيم " وحيث منح موسى شرف لقب " كليم الله " بناءً علي " وكلم الله موسى تكليماً " وحينما لم تكن المسافة بين محمد صلى الله عليه وسلم والله تعالي سوى " قاب قوسين أو أدني "، هذا هو المقام الذي يزول فيه الحجاب الأكبر للمنطق والاستدلال، ويتحقق " حق اليقين " في الكشف والمشاهدة بدلاً من العلم الظني، فمن الذي نادي إبراهيم ؟ ومن الذي كلمه موسى عليه السلام علي الطور ؟ ومن ذلك الذي رآه بالرغم من قوله " لن تراني " ؟ من هي تلك الذات التي لم يبق بينها وبين محمد صلى الله

---

[١] ــ دائرة معارف برتانيكا ــ موضوع " الحلم ".

عليه وسلم سوى قاب قوسين أو أدني ؟ وكيف حدث رد " وأوحي إلي عبده ما أوحي "، كل هذه الأسئلة لا يمكن الإجابة عليها في دائرة التحديد، بل ولا يمكن إفهامها لأحد.

أمثلة عامة لآيات النبوة الحقيقية:

هناك المعجزات العامة، وهي التي تحدث في الحياة العادية كما وضح من الأمثلة السابقة، ولذا فإن نسبة استبعادها تصبح قليلة، لكن أحداث " الوادي الأيمن " و " سدرة المنتهي " وهي الآيات الكبرى الحقيقية لمقام النبوة والمعجزات الأصلية، وظاهر أنه لا يحدث مثلها في عالم الناسوت هذا حتى تساعد عامة الناس علي استيعابها، ولا شك أن ذلك الذي قيل له " لنريك من آياتنا الكبرى " قد حاز مرتبة عليا، وصحيح أن إضاءة الشمس للعالم لا يمكن تقديرها من خلال لمعان النجوم، ومع ذلك فإن انعكاساً بسيطاً لتجلى الطور يبرر أحياناً علي الذرات بقدر استعدادها. ويكفي العين البصيرة أن تعرف أن هناك شهادات كثيرة علي هذه التجليات لدي الأولياء المؤمنين بعد الأنبياء والمرسلين، ولكن لأن هذه الدرجة أعلي من مستوى استيعاب عامة الناس لذا كان علينا أن ننزل إلي استيعابنا ونبحث عن أمثلة مناسبة.

لقد ألف البروفيسور " وليم جيمس " الذي يعد أشهر باحث في علم النفس، ومن أكبر الفلاسفة في عصرنا كتاباً في أكثر من ٥٠٠ صفحة دون فيه الأقسام المختلفة للتجارب والشعور الديني المتعلق بالناس ([1]) جمع فيه أحداث التجارب الدينية للعلماء والحكماء من جميع أنحاء العالم دون تقيد بشرق أو غرب، كما جمع فيه أيضاً ما يخص الأنبياء والأولياء والعامة والخاصة من الناس، ونحن هنا ننتقي بعض من هذه الأحداث علي المستوى الإنساني العام فقط. وقد دون السيد " جيمس " تجارب مختلفة لأحد أصدقاؤه المقربين الأولياء الذي كان يبدو له أحياناً وهو مشغول بقراءة الكتب ليلاً أو جالساً بغير عمل أن هناك أحداً ما في الحجرة بجانب سريره، بل ويدلك جسده أيضاً رغم أنه لا يعلم من يكون هذا أو ما هذا ؟ إلا أنه كان متأكداً تمام التأكد من وجوده مثلما يمكن أن يكون متأكداً من وجود شخص عادي يراه في ضوء النهار.

لم يكن يراه متجسداً في شكل إنسان ما أو ذات بعينها، لكنه مع ذلك كان موقناً تماماً بوجوده أكثر من الأشياء المحسوسة حوله: ــ

---

[1] ــ اسم الكتاب: the vireeties of relegions experiencees page: ٩٩.

" لم يكن هناك شك في وجوده ولا غموض أو لبس، ولم تكن هذه حالةِ كتلك التي تتولد عن سماع الشعراء أو الموسيقي، إنما كان يقيناً وعلماً قطعياً بوجود شخصية قوية قريبة للغاية، كما أن صورته كانت تبقي في ذاكرته واضحة حتى بعد أن يمشي، ومن الممكن أن يكون كل ما رآه أو سمعه حلماً لكن هذه الحادثة بالذات لم تكن حلماً. " (ص ٦٠، ٦١)

لم يكن الصديق من أصحاب الأوهام أو الخرافات، بل أن ما حير السيد " جيمس " أنه لم يكن يفسر هذه التجارب بشكل ديني. ثم يذكر بعد ذلك تجربة شخص آخر فيقول:

" فتحت عيني ليلاً فبدا وكأن هناك من أيقظني عامداً متعمداً، كنت أعتقد في البداية أن هناك شخصاً تسلل إلي الحجرة وبعدها استلقيت ثانية للنوم، فشعرت فوراً أن أحداً ما في الحجرة وكان إحساساً عجيباً لم يكن إحساساً بوجود شخص ذو روح، إنما كان إحساساً بكيان روحي. ومن الممكن أن تضحكوا علي ما أقول، ولكني أقص عليكم ما مررت به ولم يكن هناك تفسير لما رأيته أفضل من أن أفسره علي أنه وجود روحي، وكنت أشعر بخوف ودهشة من أن تكون هناك حادثة عجيبة مخيفة علي وشك الوقوع. " (ص: ٦٢)

واسمع معي اعترافات أحد العلماء: ـ

" صرت لا دينياً (ملحداً) وأنا في عمر ما بين العشرين والثلاثين، لكني مع ذلك لم أخلو من ذلك الشعور غير المعروف، والذي أطلق عليه " هربرت سبنسر " الحقيقة المطلقة، لكن هذه الحقيقة لم تكن مستحيلة العلم بالنسبة لي كما هو الحال بالنسبة لسبنسر لأنني وإن كنت تركت الدعاء لله بطريقة طفولية، ولم أصلي بالشكل المعروف أبداً، بل ولم أرفع يدي بدعاء، إلا أن أكثر تجاربي العالية بأن هناك علاقة لي مع تلك الذات، وهي نفس العلاقة التي تكون مع الدعاء والصلاة. فعندما كانت تحل لي مشكلة ما سواء كانت عائلية أو خاصة بالعمل، وعندما يصيبني القلق والتردد بخصوص قضية ما ويتأثر قلبي لها فإني أعترف أني كنت ألجأ إلي تلك العلاقة التي أشعر بها مع تلك الذات من أجل الاستعانة بها، وقد ساعدتني هذه الذات دائماً، وكان يبدو وكأن هذا التأثير الغيبي قد منحني قوة لا حدود لها. لقد وجدت أن علاقتي هذه كانت في الحقيقة علاقة شخصية إذ أن هذه القوة قد تخلت عني منذ عدة سنوات، وشعرت بفقدانها التام، وأقر أنني حرمت في حياتي من هذه القوة العظيمة وهذا المرد الكبير، وهذه الذات التي أعبر عنها بلفظ هي لم

تكن هي الحقيقة المجهولة لدي سبنسر، إنما كانت هي ربي والذي كنت أعتمد علي عونه، والذي لا أعرف كيف قللت من اعتمادي عليه " ([1]) (ص ٦٠: ٦٥)

وهذه قصة رجل من سويسرا: ــ

" كنت بكامل صحتي وعافيتي لم أكن متعباً أبداً ولم أكن أشعر بجوع أو عطش، وكانت نفسيتي متفتحة بشوشة، والأخبار الطيبة تأتي البيت. المهم أنه لم يكن لدي أي نوع من أنواع القلق، وكان التيقظ والاستقامة من طباعي، كما لم يكن هناك خوف مطلقاً من أن أضل في الليل. وباختصار فإنني أصف حالتي هذه لأن قلبي وعقلي كانا متوازنين تماماً، وفجأة شعرت بنوع ما من الارتفاع والسمو بداخلي، وعلمت أن الله موجود، وأن رحمته وقوته تسري في وجودي كله. كانت هذه الحــالة التي طرأت عليّ شديدة لدرجة أنني لم أستطع أن أقل لأصدقائي سوي أن اذهبوا ولا تنتظروني، ولم تعد لي طاقة علي الوقوف، فجلست علي صخرة، وسالت الدموع من عيني وشكرت الله أنه أحسن إليّ ورحمني وأنا المخلوق الضعيف المذنب، بحيث أراني معجزة ألوهيته وأنا علي قيد الحياة. لقد دعوته بإلحاح شديداً أن تكون حياتي كلها في إرضائه، وجاءني الجواب بأن عليك أن تحاول يومياً السير علي طريق رضاي بكل تواضع، واترك الأمر عليّ أنا الله القادر لأري إن كانت لديك الصلاحية بمشاهدة الحق بوعي تام أم لا.

كان هذا الإحساس وهذا الأثر واضحاً تماماً حتى أني سألت نفسي سؤالاً: هل رأي موسى علي جبل "طور أوضح من هذا ؟ أو من المناسب أن أنكر أنه في عالم الوجد لم يكن الله متصفاً بشكل أو صورة أو لون معين، ولم أكن أنا أشعر بمكان خاص لوجوده. " (ص ٦٦، ٦٧)

وقد ذكر السيــد "جيمس " تجارب كثيرة من هذا النوع، لكننا نكتفي بجملتين من تصريح طويل، ونأمل أن تكون هذه الأمثلة كافية للقياس واستشراف النتائج. يكتب أحد المتخصصين في الأمراض العقلية تجربته قائلاً: ــ

" وبعد ذلك طرأت عليّ حالة من الفرحة والانبساط الشديد نتجت عنها بشكل فوري حالة من الانشراح والشفافية لا يمكن وصفها، وفي هذه الحالة لم أكن فقط متيقناً بكل الأشياء الأخرى، وإنما شاهدت بعيني أن الكائنات لم تخلق من مادة بلا روح، بل هو

---

[1] ــ ضع هذه الحالة أمامك واقرأ الآيات: " اياك نستعين " (الفاتحة ٥)، " وما النصر إلا من عنــد الله " (آل عمران ١٢٦)، " نصر من الله " (الصف ١٣).

وجود ذو روح، وشعرت بنوع من الحياة الأدبية بداخلي، وقد ظلت هذه الحالة لثوان معدودة فقط، لكن ذكراها والإحساس بحقيقتها ظلت واضحة، كما حدثت بالرغم من مرور ربع قرن عليها. " (ص ٣٩٩)

والآن تدبر ما ورد عن النبي صلى الله عليه وسلم واضعا في الاعتبار الأمثلة السابقة وهو أنه ﷺ ذات مرة بينما خرج ﷺ إلي الصلاة متأخراً، وبعد الصلاة أشار إلي الناس أن يبقوا في أماكنهم ثم أخبرهم بأنه ﷺ صلي الليلة ما قدر له أن يصلي ثم غلبه النعاس في الصلاة، فرأي وهو هكذا أن الجلال الإلهي قد انكشف أمامه وخاطبه بأنه هل يعرف أن خاصة الملائكة يتحدثون في أمر ما ؟ فأخبر ﷺ بأنه لا علم له، ووضعت يد علي ظهره ﷺ فشعر بسكينة تسري حتى صدره ﷺ، وانكشفت كل الأشياء فيما بين السماء والأرض أمامه، ثم نودي يا محمد هل تعلم في أي أمر يتحدث خاصة الملائكة ؟ فأجاب بنعم يا رب. ......الخ " ([1])

وليس هناك شك في أن رتبة حوار الطور وحادثة الإسراء والمعراج أعلي بمراحل من الأمثلة المذكورة بنفس القدر الذي يرتفع به مقام الأنبياء عن الإنسان، ألا أنه مصداقاً للمثل الذي يقول أن هذا يدل علي ذلك (مثل فارسي). ويمكن لمثل من الأمثلة السابقة أن يقدم صورة ولو غير واضحة لذلك المقام الرفيع، وهذا يكفينا في مرادنا.

المقدمات الثلاثة:

كانت هناك ثلاثة مقدمات لاستدلالنا المنطقي من أجل اليقين علي المعجزات. اثنان منهما حققهما " هيوم " و " هكسلي " علي الترتيب، بينما تتحقق الثالثة من شواهد أنواع الاستبعاد المختلفة، وهذه هي خلاصة المقدمات الثلاثة: ــ

١ــ أن المعجزات ليست بذاتها أمراً لا يمكن تصوره أو لا يمكن وقوعه "هيوم".

٢ــ يمكن التعبير عنها بأنها أحداث محيرة للغاية أو " مستبعدة " علي أكثر تقدير ذلك لأنه:

- يمكن قبولها بناءً علي الشهادة الإنسانية.
- إلا أن الشهادة المطلوبة لقبولها بسبب مسألة الاستبعاد وغاية التحير هذه يجب أن تكون موثوق بها إلي أقصي حد، ومعتبرة من كل جانب " هكسلي ".

---

[1] ــ للاطلاع علي الحديث كاملاً انظر عنوان ذكر المشاهدات فيما بعد.

٣ـ لكن الاستبعاد والتحير الموجود في المعجزات بما أننا بخير وشواهده في التجارب الروحية والنفسية والمادية لعامة الناس، والذين لا يطلبون شهادة غير عادية من أجل قبولها والتيقن، لهذا ليس من الضروري أن تكون هناك شهادة غير عادية لليقين علي المعجزات وتصديقها.

البحث الأصلي يكون في اليقين:

لكن السؤال هو أنه ، إذا ضل بسبب المنطق الناقص لـ " هيوم " و " هكسلي " فهل يمكن أن يعود إلي الطريق القويم بتحقيق المقدمة الثالثة فقط لهذا المنطق ؟ وهل بعد قراءة الصفحات السابقة لن يبق هناك منكر للمعجزات ؟ إنني أخشى أن لا تستطيع هذه الصفحات أن تجعل من منكر مؤمناً وستقول: من الممكن أن يكون الاستدلال ناقصاً ؟ لكن هناك أحد في العالم يستطيع أن يؤكد لأحد معجزة بناءً علي قوة الاستدلال أياً كان مقدار هذه القوة ؟ أو هل " أرسطو " و " مل " و "هيجل"([1]) وهم الأقانيم الثلاثة للمنطق يستطيعون مجتمعين أن يخلقوا منطقاً أو استدلالاً عقلياً يمكن من خلاله وحده خلق يقين بالمعجزات لدي العامة والخاصة ؟

وإجابة هذه الأسئلة بالنفي، وهي بالنفي تأكيداً. وبالتالي لم تبق هناك أهمية تذكر لمسألة إمكان الحدوث أو شهادة بالحدوث فيما يتعلق بالمعجزات، إنما يكون البحث الأصلي في ماهية اليقين وعلله وأسبابه.

---

[1] ـ يعد أرسطو ومل أئمة للمنطق الاستقرائي والقياس علي الترتيب، وينتمون إلـي العلـوم والحقـائق الإضافية. بينما هيجل الألماني قد بدل في المنطق كثيراً بمعني أنه جعل من المنطق أمراً غيبيـاً، وأراد من خلاله البحث عن الحقيقة المطلقة.

اليقين علي المعجزات

ماهية اليقين:

نحن لا نقصد هنا إثارة بحث تفصيلي عن الماهية الفلسفية لليقين ولا حاجة بنا إلي ذلك أصلاً، فكل شخص يعرف ما الفرق بين التصور واليقين به ؟ وإنما نقصد هنا إلي أنه ينبغي أن نعرف أن يقيناً فيما يتعلق بالأمور الواقعية والأحداث ليس من النوع من المطلق أو الذي لا يقبل التغيير مثل التصورات الظنية لعلم الرياضة. ([1]) وإنما هو حالة عقلية إضافية وقابلة للتغيير مثل: اللذة والألم، والحيرة والاستعجاب، والحب والكراهية، والإرادة والرغبة وغيرها من الحالات النفسية الأخرى، ومثلما أنه ليس من الضروري أن تتولد في نفس كل شخص فيما يتعلق بحادثة بعينها الحالة سابقة الذكر بشكل متطابق، فإن وجود يقين متطابق علي هذه الحادثة في قلب كل إنسان ليس ضرورياً. وهناك رواية مذكورة في بعض كتب التاريخ مفادها أن مكتبة الإسكندرية قد تم إحراقها بوحشية بناءً علي أمر من سيدنا عمـــر رضي الله عنه، بحيث أن نيرانها ظلت ستة أشهر وقوداً لحمامات مصر كلها. ومحبو العلم وعشاق الحكمة والفلسفة يضربون كفاً بكف عند قراءة هذه الرواية، وتثور في قلوبهم موجة من الغضب والكراهية، علي العكس من هؤلاء عندما يقرأ هذه الرواية رجل عسكري فإنه لا يجد بداخله لا غضباً أو كراهية أو أسفاً حتى أنه يري أن تحطيم قلعة (انتورب) أكثر مأساة من تحطيم مكتبة الإسكندرية. أما إذا قرأ هذه الرواية صوفي عارف فمن الممكن أن يشعر بسعادة شديدة بدلاً من الحزن والألم، إذ أن في نظره

---

[1] ـــ لأن المعجزات تتعلق بأحداث الرواية والتاريخ وليس بالمجردات الرياضية، لهذا فإننا لن نتطـــرق إلي البحث في نوعية العلم أو اليقين الخاص بالمجردات الرياضية، وإنما هذا اليقين في الحقيقة هو الآخر ليس قائماً علي أساس ثابت وغير قابل للتغيير، ولا يمكن إنكاره بل إن عالم من علماء المنطق والفلسفة مثل " مل " يؤكد أن الفرضيات الحتمية لعلم الرياضيات ما هي إلا وهم وخدعة مثلما يقال في تعريـــف البراق بأنه نصف حصان ونصف إنسان، وليس من الضروري أن يكون للبراق وجود يقيني وحقيقـــي، ونفس الشيء بالنسبة لتعريف الدائرة بأنها ذلك الشكل الذي تتساوى أنصاف أقطاره وليس هناك دائـــرة موجودة بهذا الشكل، والأكثر من هذا أنه ليس هناك تناقض في رأي " مل " بأن يكون مجمـــوع اثنـــين وثلاثة ستة.

أن هذه المدرسة التي لا معنى لها هي الحجاب الأكبر الذي يستحق هذا السلوك (مصداقاً للقول المعروف: فلتحرق مئات الكتب والأوراق.)

أرأيت أن الحالات التي تطرأ علي أشخاص مختلفين بسبب شيء واحد كانت حالات مختلفة ومتناقضة، بل وطرأت علي الأشخاص آثار متناقضة من اليقين وعدم اليقين كمثل العواطف، وكيف أن أهل أوروبا الذين رسخ في قلوبهم تعصب مفاده أن المسلمين يتسمون بالوحشية والجهالة، وكانوا حريصين تمام الحرص علي قبول كل شهادة تسيء إلي الإسلام هؤلاء صدقوا بغير تدقيق وتمحيص للشهادة، بل وبغير تدقيق في رواياتها أيضاً. وفي نفس الوقت فإن هناك مجموعة من أهل أوروبا والتي لم تكن عداوة الإسلام قد بدت لهم هذه الرواية بعد فحصها وتمحيصها مضحكة من أولها إلي آخرها وأنه لا أصل لها. والأكثر من هذا أن أحد المؤرخين المسلمين، والذي كان يعتبر حرق مكتبة المسلمين وصمة جهالة ووحشية في تاريخ الإسلام، ولم يكن حبه للإسلام يجعله يقبلها. أثبتت بحوثه أن هذه الرواية ليست مجرد افتراء وبهتان صريح من الأعداء فقط، وإنما هؤلاء الذين افتروها هم المجرمون الحقيقيون " اتهمناهم نحن واتضح أن الذنب ذنبنا " ([1])

اليقين علي نظريات العلم:

وهذه المكانة الثانوية والعاطفة لليقين ليست خاصة بأحداث التاريخ والرواية فقط، وإنما يحتل اليقين علي النظريات العلمية والفلسفية نفس المكانة، وقد كتب البروفيسور " جيمس " مقالين شيقين بعنوان " إرادة اليقين " و " عاطفة العقلية "، وأثبت فيهما إلي أي مدي يتبع يقيناً الحالات الطارئة للعواطف والإرادة والرغبات، وأن العلم والفلسفة والذي تتأسس عليهما العقلية هما في الأصل مجرد عاطفة لحب التدين والأساطير.

عاطفة التطابق:

لماذا يرهق فليسوف أو عالم نفسه في تأملاته وأفكاره الفلسفية والعلمية ؟ غالباً يفعل هذا بناءً علي رغبة بداخله في إيجاد قانون أو نظام لذلك التشتت والتفرق الموجود في العالم حتى يربط كل هذه الأمور المتفرقة برباط من الوحدة والتطابق. فما هو مقياس صحة وموضوعية هذا القانون وهذا النظام ؟ إنه بالتأكيد هو القضاء علي حالة الحيرة

---

[1] ـــ انظر مقال السيد جيمس بعنوان " عاطفة العقلية: sentionent of rationatt y

والقلق في أذهاننا عندما تقبل وتصدق هذا القانون وهذا النظام، وتتولد في الفطرة عاطفة أو إحساس جميل بوجود التطابق والاستواء.

إن هذه اللذة تحدث الحقيقة لأن هذه الأحداث المتفرقة هي في الأصل مظاهر لحادثة خفية، مثل هذه اللذة تكون في نظم أصوات متفرقة لمطرب في شكل لحن أو أغنية. ومن ذلك الذي لن يشعر بخدعة أو علاقة التفاح مع الأرض هي نفس علاقة القمر معها، والبالونة تصعد إلي أعلي طبقاً لنفس القانون الذي يسقط طبقاً له حجر الأرض، فمن ذلك الذي لن يشعر بمتعة في يقين أن القوة التي تستخدمها في الصعود علي جبل أو قطع شجرة هي نفس القوة التي توجد في أشعة الشمس، والتي تنضج الغلال التي نتناولها في إفطارنا صباحاً.

وقد نبه أحد الأساتذة الفلاسفة الكبار في عصرنا البروفيسور " دائس " واضعاً في اعتباره حرص الإنسان بفطرته علي متعة التطابق والانتظام، علي أنه حيثما نشعر بيقين علي تطابق ووحدة قانون الفطرة، علينا أن نتذكر أن جزءاً كبيراً من هذا الإحساس بالوحدة هو في الأصل مبني علي تلك العاطفة التي لا يمكن استئصالها، والتي توجد بداخلنا لحب الوحدة والانتظام، وليس مبنياً علي الوحدة الحقيقية للفطرة. ([1]) كان هذا هو التعصب الذي جعل عالماً كبيراً يقول للسيد " جيمس " أن ادعاء الكلام النفسي ينبغي علي أهل العلم جميعاً إخفاؤه وإنكاره تماماً، حتى وإن كان صحيحاً لأنه يُكذب تطابق الفطرة بالإضافة إلي أشياء أخرى كثيرة لا يمكن للعلماء أن يقوموا بأعمالهم دون تصديقها والإيمان بها، وقد نقل السيد " جيمس " هذا الكلام قائلاً: ــ

" لو أن هؤلاء العلماء وجدوا الكلام النفسي مفيداً في حق العلم فإنهم كانوا سيقبلون علي بحث هذه الشهادة، بل واعتبارها كافية لليقين بدلاً من تجاهلها. " ([2])

والآن عليك أن تقرر أنت هل تختلف تعصبات العلم المعروف في العقلية عن تعصبات الدين المغرق في الخرافات أو تقل عنه ؟ أليس إنكار أهل العلم للمعجزات نتيجة لتعصبهم سابق الذكر للوحدة والتطابق في الفطرة.

---

[1] ــ انظر مبادئ علم النفس ــ الجزء الثاني ــ ص ٣١٦ ــ (الجانب النفسي للــدين: the segigiovs lopeotoppin lowsophys). بروفيسور / ردائس.

[2] ــ إرادة اليقين ــ ص١٠ ــ الطبعة الحديثة ــ ١٩١٧م.

اليقين علي نظريات الفلسفة:

علي أية حال فإن العلماء التجريبيين يعترفون إلي حد كبير بأن نظريات العلم ونواميسه في أكثرها ذات مكانة افتراضية وثانوية، بينما الفلاسفة أو المثالين الذين يدعون أنهم يزيحون الستار عن وجه الحقائق العالية والصدق المطلق، وأن مبادئهم ونظرياتهم لا ينبغي أن تشوبها شائبة من الميول الذاتية أو العواطف الإنسانية، إلا أنه كم من المحزن أن تعرف أن مذاهب ونظم الفلسفة ما هي إلا انعكاس للرغبات والعواطف الشخصية، وإن شئت الحق فإن هناك مذاهب بعدد الفلاسفة حتى أن هناك قسمين من الفلاسفة طبقاً لأحد التقسيمات الشيقة يريان أن الفلاسفة البكائيين والفلاسفة الساخرين، والذين يطلق عليهم في اصطلاح جاد الشريرين والخيرين ([1])، ويمكن أن يطلق عليهم أيضاً القنوطين والرجائيين. إذا ما حللنا نفسياتهم فسيبين أن هذا الاختلاف يرجع إلي عواطفهم وأحوالهم الشخصية والذاتية من بكاء وضحك، ويأس ورهبة وأمل وما إلي ذلك.

وهناك فليسوف كبير من فلاسفة العصر الحديث وهو " شوبنها ور " والذي يعد من كبار أئمة الفلسفة، وعضواً مشهور من أعضاء جماعة البكاءين. تتلخص فلسفته في أن الصدق المطلق هو إرادة ورغبة فقط وليس عقلاً أو فكراً، ولأن الإرادة لا عقل لها ؛ لذا فإنها أيضاً لا غاية لها وليس هناك فلاح أو سعادة في الدنيا إنما كل هذه الأشياء ما هي إلا لعبة لا هدف لها والعالم الخارجي ما هو إلا صورة لهذه الإرادة التي لا هدف لها أيضاً.

ولقد وصل الحال بتناقض الآراء والاختلافات لدي أولئك الفلاسفة الذين يعيشون فوق أعلي نقطة علي سطح كرة العقل أن كلامهم بقدر اتساع أفواههم فيقول أحدهم: إن الدنيا كلها مبنية علي العقل. ويدعي آخر إن وجوده كله غير عقلي. أحدهم يؤمن بالله، والآخر يقول أن الإله الشخصي أمر لا يقبل التصور، وأحدهم يسلم بوجود عالم خارج ذهنه، وآخر يثبت أن العالم الخارجي ما هو إلا وهم وخدعة، وواحد يقول: إن هناك روح مستقلة وقائمة بذاتها. والآخر يقول: إن سلسلة العلل لا متناهية، والآخر يؤمن بأن هناك علة للعلل فقط. وواحد يعتبر أن الإنسان مصير محض، والآخر يدعي أنه مختار، وواحد يقول بوحدة الجسد، والعالم الآخر يقول بالكثرة والتعدد. ولن تعدم وجود فلاسفة عقلاء كثر يؤمنون بأشياء أربعة مهما كانت تافهة.

---

[1] ـ يطلق عليهم في اللغة الإنجليزية pessimites and optimistes: " علي الترتيب

ويصرخ العقل الإنساني عندما يري كل هذه الحيرة قائلاً: إن أي شيء يكون حقاً عندما تؤمن أنت بأنه حق وإلا فلا. ([1]) وخصوصاً أن النظريات في زماننا هذا تتابع بسرعة وكثرة بحيث أصبح من المستحيل أن تعتقد بأن أحدها أكثر واقعية من الآخر. أرقام مختلفة ومنطق مختلف وفرضيات طبيعية وكيماوية مختلفة بحيث يظن الإنسان فيما يتعلق بأصح المبادئ بأنها اختراع للعقل الإنساني وليس انعكاس لواقعية ما. ([2])

اليقين علي المشاهدات:

لعلك فهمت أن هذه النوعية العقلية والثانوية محدودة النظريات والمبادئ علي أكثر تقدير أما باقي المشاهدات والمحسوسات هي المرجع الأخير لتلك المبادئ والنظريات، والتي لا يمكن بأي حال من الأحوال أن تكون ثانوية، لأن التفاوت فيها من المستحيل بين شخص وآخر لكن مستحيل هكذا ليس ممكناً فقط بل أمراً واقعاً.

والأمر غير متوقف علي ذكر تلك التجارب العادية التي تحدث ليل نهار حيث يبدو شيء ما لرجل ما جميلاً، بينما يبدو نفس الشيء لآخر قبيحاً، وللآخر ممتعاً وللآخر غير ممتع إذ أن آلات الحس والمشاهدة كلها عبارة عن اللون والرائحة والصوت والطعم والبرودة والحرارة والشكل والصورة والامتداد طولاً وعرضاً والانخفاض والقرب والبعد، ولكن من بينهما شيء واحد يتطابق فيه يقين العالم والفيلسوف والرجل العادي.

إن الرجل العادي يؤمن بأن الأشياء المذكورة سابقاً هي حقائق خارجية ثابتة لكنها لا وجود لأي منها خارجياً في نظر الحكماء أو العلماء، أما علماء عصرنا فإنهم يرددون هذه الحقيقة دائماً بأن الأشياء ليست في أصلها كما نشعر بها (الاعتقاد الحديث ص ٥٦)، وأنه لا وجود لرائحة ولا لصوت ولا للون خارج إحساسنا أو عقلنا، ولكن لأن العلم يضطر إلي تكرار ألفاظ المادة والقوة في كل خطوة من خطوات بحوثه، ولهذا فإن عاطفته وميوله تجاه الإغراق في المادة يتولد في قلب العالم بحيث أنه بالرغم من إقراره بأن المادة اسم لشيء غير معلوم، إلا أنه يجد نفسه مضطراً للإيمان بوجودها الخارجي بشكل أو بآخر، علي العكس من علماء الغيبيات والفلاسفة فلأنه يترفعون عن التعقبات الفكرية لهذا فإنهم ينكرون وجود المادة من الأساس وبلا تردد، ويرون أن ما هو موجود ليس له وجود في الذهن أو في النفس، ولكن متي انحنت رأس الأدلة فمن الممكن أن يبقي العالم

---

[1] ـ إرادة اليقين "the bsies of knowledg. " بروفيسر ووكر ـ ص ٤٣٢.

[2] ـ the meaning of Yruth) ـــ ص ٨.

أو الفيلسوف للحظات متمسكاً بيقينه ضد وجود المادة في الخارج، لكن التسلط القاهر للجبلة يعود به في النهاية إلي نفس النقطة التي أدي الفكر والتمعن فيها إلي الإغراق، ويظل بعد ذلك يسلم بالوجود الخارجي للعالم المحسوس في الحياة ليل نهار مثله مثل الإنسان العادي.

المهم أن اليقين باعتبار ماهيته ما هو إلا ميل نفسي فقط لا يتبع علماً ولا جهلاً، ولا ينحصر في عقل ولا في غير عقل، ولا يتوقف علي صدق أو كذب أنه يتولد من الفلسفة والحكمة والعلم والعقل وكل الأشياء، ويمكن أن لا تتولد من شيء أبداً. وعندما يبدأ في الحدوث فإنه لا ينتظر مشورة السيد " كلير " الذي يقول: ــ " إنه الأفضل من أن توقن علي كذب أن تبقي دائماً بغير يقين "

وما العجب في أن لا يقع نظر ذلك الشخص علي ماهية اليقين علي أنها ليست نتيجة منطقية لتلك الدلائل، وإنما هي مجرد ميل ذهني لذلك الشخص الذي كان أكبر معارض للمعجزات، ولهذا فإن أحد أعضاء جمعية أرسطاطلين ويدعي " برود " كتب منذ عدة سنوات مقال عن نظرية المعجزات لــ " هيوم " بناءً علي مبادئ هيوم في هذا الشأن قائلاً: ــ (1)

" إن هيوم ينكر اليقين علي المعجزات، لأن المعجزة تنفي التجارب السابقة المتواترة. علي سبيل المثال من بين التجارب السابقة أن حرف الباء يظهر دائماً بعد حرف الألف، وبذلك يتولد بداخلنا يقين قوي علي أن حرف الباء سيكون في المستقبل أيضاً تابعاً لحرف الألف، ويؤمن الرجل الديني بالمعجزات لأن بداخله ميل فطري لليقين علي الأشياء العجيبة وما شابهها، والتي تؤيد الدين والسبب النفسي في اليقين في الحالتين واضح فإن عدم يقين هيوم مبني علي ميله الفطري إلي أن ما حدث سابقاً سيحدث بصورته في المستقبل أيضاً، ويقين الرجل الديني مبني علي ميله الفطري لقبول الأشياء العجيبة وما شابهها والتي تؤيد الدين، لكن هيوم نفسه يؤكد أنه لا حق منطقي لنا في الحكم علي تجربة سابقة متواترة فيما يتعلق بحدوثها مستقبلاً، ولهذا فإن يقين رجل الدين علي المعجزات ويقين هيوم علي قوانين الفطرة (والتي ينتج عنها عدم اليقين علي المعجزات) هما متساويان تماماً في نظر المنطق، فاليقين في الحالتين مبني علي علة نفسية ولا يستطيع هيوم أن يقدم أية علة منطقية في أية صورة من الصور ".

---

1 ــ انظر تقرير لندن للجمعية الأرسطاطاليسية ــ عدد ١٧ ــ ١٩١٦ م ـــ ص ٩٢.

فإذا ما علمنا أن ماهية اليقين هي ميل نوع ما من الميل النفسي غير المنطقي فقط فإنه من العبث البحث في أسبابه في أدلة الفلسفة والمنطق، إذ أن الدلائل المنطقية والفلسفية تفيد أكثر في تقوية وتضعيف الميل إلي اليقين، لكن خلق هذا الميل ليس في استطاعتها إذ أن هذا الميل في ذاته حقيقة نفسية.

ومن هنا يمكن البحث عن أسباب وجوده بين أوراق علم النفس، ولقد بحث معظم علماء النفس في ماهية اليقين وأسبابه، لكن الذي يناسبنا هنا ليست أبحاث علم النفس علي تفصيلها، وإنما بشكل مختصر وبطريقة مختلفة.

اليقين النفسي:

إلا أنه من الضروري أن نضع شهادة معتبرة كأساس للبحث في هذا الموضوع والتي يمكن أن تؤيدها شهادة معتبرة لأكبر أستاذ في علم النفس في أمريكا في أيامنا هذه وهو البروفيسور " جيمس "، ولهذا فإننا ننقل هنا بعض الأمور المبدئية لألفاظها بأسباب اليقين من الجزء الثاني من باب الإحساس بالحقيقة من كتاب مبادئ علم النفس للبروفيسور المذكور.

١ـ " إن طلب الإنسان للعلاج مبني علي أسباب نفسية من سرعة الاعتقاد لدي الإنسان أي علي العواطف، حتى أنه عندما يصاب شخص عزيز علي نفوسنا بالمرض أو ألم فإنه لا يستطيع شيء أياً كان غير مقبول أن يحول في طريق سرعة الاعتقاد (خاصة لدي النساء) إذا كان في هذا الشيء أمل في الشفاء فيحدث نوع من الاطمئنان بفعله، ولذا فإن علاجاً يقترح في مثل هذه الحالة يعمل عمل الجذوة بالنسبة للمادة القابلة للاشتعال وتتهيأ النفس فوراً للقيام بها، ويقوم الإنسان بتهيئة أسباب هذا العلاج، ويوقن ليوم واحد علي الأقل بأن الخطر يزول، ولهذا علم أن عواطف الخوف والرجاء وما شابهها هي أكبر أسباب تؤكد خلق اليقين، ويدخل تحت سيطرتها الماضي والمستقبل والحال. " (ص ٣١٠، ٣١١)

وفي الصفحة التالية يقول: ـ

٢ـ " إن أكثر نظرية تولد اليقين هي التي تقدم لنا بالإضافة إلي تبرير مطمئن لأحاسيسنا أشياء جذابة للغاية، وتؤثر بشكل أكبر في حاسة عشقنا للجمال وفي عواطفنا. "

لكن الذي يهمنا في شرح المتن المختصر فيما يتعلق باليقين النفسي هو: ـ

٣ـ " الرغبة واليقين (وهو الذي يعني علاقة خاصة ما بين النفس والأشياء) هما اسمـــان لحدث نفسي واحد. " (ص ٣٢١)

رغبة اليقين:

إن كون اليقين والإرادة شيئاً واحداً يعني أنه من الضروري لليقين علي شيء ما أن تتولد في القلب أولاً الإرادة أو الرغبة في اليقين عليه، فاليقين نوع من السكينة والطمأنينة، وطالما لم يكن هناك طلب وحاجة إليه فلن يحدث، فمن الضروري لشرب الماء والارتواء بها أن يكون هناك عطش أولاً، ولكن غالباً ما لا يكون الظمأ وحده كافياً لشرب الماء، بل ويشترط أن لا تكون هناك فكرة تمنع من شرب الماء، كأن لا يكون هناك شك في طهارتها أو تكون مضرة لمرض ما، وهكذا يكون وجود المغريات في بعض الأحيان دافعاً إلي شرب الماء، علي سبيل المثال أن تكون عند صديق ما وقد وضع الماء في أباريق نظيفة وجميلة، وبجانبها أكواب من صناعة مدينة " لكهنو "، عندئذٍ ستشعر بالرغبة في شرب الماء بغير عطش.

موانع ومؤيدات اليقين:

وفي حالة اليقين فإننا سنطلق علي هذين الشيئين بالترتيب والتوالي موانع رغبة اليقين ومؤيدات رغبة اليقين، وعندما نقدم شيئاً ما بقصد اليقين والإذعان فإن معركة نفسية تنشب بين الرغبة " رغبة اليقين " وموانعها ومؤيداتها، ويتوقف قرار اليقين وعدم اليقين علي النتيجة النهائية لهذه المعركة، فإن كانت الرغبة في اليقين هي الأقوى فإنها تتغلب علي الموانع بغير مساعدة من المؤيدات، فإن لم تكن هناك موانع من الأساس فإن الرغبة وحدها يمكن أ، تكون كافية، وإن كانت الموانع بسيطة عادية فإن الرغبة سوف تتغلب عليها بمعاونة بسيطة من المؤيدات. ويمكن أن تجد الدلائل العقلية أو المنطقية مكاناً لها في صفوف الموانع والمؤيدات علي أكثر تقدير، لكن السلاح الأساسي لأطراف المعركة الثلاث " الرغبة ــ الموانع ــ المؤيدات " هو العواطف.

والآن انظر واضعاً في اعتبارك المثال الذي أورده السيد " جيمس" في الاقتباس الأول، ما دخل الرغبة والإرادة في خلق اليقين، وما هو أثر المؤيدات والموانع عليه ؟

افترض أن هناك شخصاً مريضاً في بيت زيد منذ شهور عديدة، ولم يؤثر في مرضه أي علاج طبي، ثم يأتي صديق ويقول له: أن في المدينة شيخاً تقياً صالحاً قنوعاً

أفاد دعاؤه كثيراً من الناس، فلما لا تلجأ إليه أنت أيضاً ؟ طبيعي أن هناك رغبة موجودة في قلب زيد في أن يشفي هذا المريض، فإذا لم يكن لديه مانع من سوء الاعتقاد في المشايخ فإنه سيعمـل بمشورة صديقه المقرب إليه، وسوف ينعقد في نفسه أمل في شفاء مريضه ولو لفترة وجيزة وهو ما يسمي بالميل إلي اليقين، وعندما يذهب إلي الشيخ المذكور ويري زحام أهل الحاجة عنده، ثم يري أمثلة أمام عينيه من تحسن حالاتهم وبغير طمع، فإن الميل إلي اليقين لدي زيد سيقوى ويزداد تأكيداً، لكن إن كان سئ الاعتقاد تجاه المشايخ، وكان غاية في الإلحاد والمادية، فإنه في هذه الحالة بدلاً من أن يعمل بنصيحة صديقه سيدخل معه في جدال، وسيؤكد أن تأثير الدعاء مناف لقانون الفطرة، وسوف يشكك في شهادته، وسيطلق علي أولئك الذين يذهبون إلي الشيخ لقضاء حاجاتهم أنهم أصحاب خرافات وأوهام، ولن يشعر بداخله أي ميل إلي اليقين.

لكن لو أن زيداً هذا المادي سئ الاعتقاد والعقيدة رجل ثري، والمريض هو ابنه الوحيد الشاب النجيب، ووارث ثروته وحامل اسم العائلة، وكان هذا المرض الذي ابتلي به هذا الابن الذي هو محور آمال وأمنيات أبيه العجوز مرضاً خطيراً، وفشل الأطباء في علاجه ويئسوا منه، في هذه الحالة ستكون رغبة زيد في أن يُشفي ابنه ستكون غاية في القوة مثلما نقول في مثل هذه الحالات عند المصائب نتذكر الله، وعندئذٍ سيتواري سوء اعتقاد زيد، وستكون نصيحة صديقه بمثابة أمل ينير ظلام يأسه، وسوف تتغلب رغبته الشديدة علي كل دلائل وموانع المادة وماديته، وسوف يتفق مع صديقه بغير مناقشة أو جدل، وبقدر ما تكون رغبته (في شفاء ابنه) قوية بقدر ما سيذهب إلي الشيخ بأمل ويقين قوي، فإذا كانت عاطفة الإلحاد وسوء الاعتقاد لدي زيد قوية لدرجة تتغلب معها علي أقوى رغباته في الشفاء فسوف يكون أكبر المشايخ وأعظمهم عندئذٍ بلا فائدة بالنسبة إليه، وسوف تضيع أكوام الدلائل والشواهد التي سيقدمها الصديق علي الشفاء في الدعاء هباءً منثوراً، وغالب الظن أن الإشارة في الآية الكريمة " ختم الله علي قلوبهم وعلي سمعهم وعلي أبصارهم غشاوة " إلي هذه الحقيقة، فالقلب هو حاسة الإيمان واليقين، فإن ختم عليه فلن يستطيع أي منطق أن يزيل هذا الختم أبداً.

لقد كان في قلب السحرة بعض الطلب والرغبة في الإيمان، فخروا ساجدين عندما شاهدوا معجزة موسى عليه السلام ونادوا " آمنا برب هارون وموسى "، ولكن هل استطاعت أية معجزة أن تؤثر في شيء علي قلب فرعون العنيد الذي ختم عليه ؟!. وحياة

الأنبياء الكرام، خصوصاً حياة سيد الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم أمامك، راجع الصفحات الأولي من سيرة النبي عن بداية قبول الإسلام والدخول فيه، وسوف تجد كل سطر من سطورها ينطق بالحقائق النفسية سابقة الذكر عن الرغبة في الإيمان والطلب واليقين.

الشهادة علي نفسيات اليقين من أحداث السيرة: ــ

تحكي قصة دخول سيدنا أبو ذر الغفارى رضي الله عنه في الإسلام أنه كان قد كره عبادة الأصنام، وكان يبحث عن الحق وطلب من أخيه " أنيس " أن يذهب إلي مكة، وينظر فيما يقوله ذلك الشخص " سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم " مدعي النبوة، هل يختلف عن الشعر، وبعد مؤيدات اليقين هذه ذهب سيدنا أبو ذر بنفسه إلي مكة، ورغم أن إعلان الإسلام علي أرض مكة في ذلك الوقت كان في غاية الخطورة، إلا أن سكينة الإيمان لدي أبي ذر بعد مثوله في حضرة النبي صلى الله عليه وسلم قد ولدت بداخله مماساً شديداً لدرجة أنه ذهب إلي قلب الحرم وأعلن بأعلى صوته أن " أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله " وكان من الصعب أن ينجو بحياته بسبب إعلانه هذا.(1)

---

1 – تستحق القصة كلها القراءة، فراجع كتاب سيرة النبي ــ الجزء الثاني. وقد وردت قصة إسلامه في هذا الحديث: (٣٧٧٤) حدثني عمرو بن عبّاسٍ حدَّثنا عبدُ الرحمن بن مهدي حدَّثنا المثنى عن أبي جَمرةَ عن ابنِ عباس رضي الله عنهما قال: «لما بلَغ أبا ذرٍ مَبعثُ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال لأخيه: اركَبْ إلى هذا الوادي فاعلمْ لي عِلمَ هذا الرجلِ الذي يَزعمُ أنهُ نبيٌّ يأتيهِ الخبرُ منَ السماء، واسمَعْ مِن قولهِ ثمَّ ائتني. فانطلقَ الأخُ حتى قدِمَه وسمعَ مِن قوله، ثمَّ رَجعَ إلى أبي ذَرٍ فقال له: رأيته يأمُرُ بمكارمِ الأخلاق، وكلاماً ماهو بالشِّعر. فقال: ما شفيتَني مما أردتُ. فتزَوَّدَ وحملَ شَنَّةً له فيها ماءٌ حتى قدمَ مكةَ، فأتى المسجدَ، فالتمسَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم ولا يَعرفه، وكرِهَ أن يَسألَ عنه، حتى أدركَهُ بعضُ الليل، فرآهُ عليٌّ فعرَفَ أنه غريب، فلما رآه تَبعَهُ، فلم يَسأل واحدٌ منهما صاحبَهُ عن شيء حتى أصبحَ، ثمَّ احتملَ قِربتَهُ وزادهُ إلى المسجد، وظلَّ ذلكَ اليومَ ولا يَراهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم حتى أمسى فعادَ إلى مَضجَعِه، فمرَّ بهِ عليٌّ فقال: أما نالَ للرجُلِ أن يَعلمَ منزِله؟ فأقامَهُ، فذهَبَ به معه، لا يَسألُ واحدٌ منهما صاحبه عن شيء، حتى إذا كان يومُ الثالثِ فعاد عليٌّ على مثلِ ذلك، فأقامَ معه ثمَّ قال: ألا تحدِّثني ما الذي أقدمَك؟ قال: إن أعطيتني عَهداً وميثاقاً لَتُرشِدَنَّني فعلتُ. ففعلَ، فأخبرَهُ، قال: فإنهُ حَقٌّ، وهوَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فإذا أصبحتَ فاتبَعْني، فإني إن رأيتُ شيئاً أخافُ عليك قمتُ كأني أريقُ الماءَ، فإن مَضَيتُ فاتبَعْني حتى تدخُلَ مَدخَلي، ففعلَ، فانطلقَ يقفوهُ، حتى دخلَ على النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ودخلَ معهُ فسمعَ مِن قولِه وأسلم مكانَه. فقال لهُ صلى الله عليه وسلم: ارجعْ إلى قَومِكَ فأخبِرْهم حتى

كان سيدنا حمزة رضي الله عنه يحب رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيراً، وكان أكبر منه صلى الله عليه وسلم عمراً بعامين أو ثلاثة فقط، وكان يلعبان معاً، ورغم أن سيدنا حمزة لم يكن قد أسلم بعد، إلا أنه كان ينظر إلي كل أفعال النبي صلى الله عليه وسلم نظرة حب. لقد كان نور الحق موجوداً في قلبه، وفي النهاية كان الأذى الشديد الذي كان أعداء الإسلام يلحقونه بالنبي صلى الله عليه وسلم دافعاً له علي الدخول في الإسلام، لقد أعلن إسلامه، لكن عندما عاد إلي بيته أصابه التردد إذ كيف يترك دين آبائه هكذا دفعة واحدة، وظل يفكر طيلة النهار، وبعد تفكير شديد قرر أن هذا هو الدين الحق ([1])، لقد كانت هناك موانع لليقين، لكن عاطفة قبول الدين الحق وحماية الداعي إليه كانت أقوى من هذه الموانع.

في الوقت الذي وصلت فيه الرسالة المباركة من داعي الإسلام صلى الله عليه وسلم إلي قيصر الروم ورغم تولد نور الإيمان والإذعان في ضمير قيصر بعد حديثه مع أبي سفيان وقوله أنني علمت بالتأكيد أن نبي ما قادم، لكني لم أكن أعرف سيكون في العرب، ولو كنت أستطيع الذهاب إلي هناك لغسلت قدميه بنفسي، لكن هذا الحديث الذي دار بين قيصر وأبي سفيان أغضب البطارقة ورجال البلاط غضباً شديداً، وازداد غضبهم هذا بعد قراءة الرسالة المباركة، فلما رأي قيصر الأمر بهذا الشكل أخرج أهل العرب من البلاط، ورغم أن نور الإيمان كان قد دخل إلي قلبه، ولكن هذا النور انطفأ في ظلمات التاج والعرش ([2])، وكان الحرص علي التاج والعرش أقوى من إغــراء ثروة الإيمان.

يأتِيَك أمري. قال: والذي نفسي بيدِهِ لأصرُخَنَّ بها بينَ ظَهرانَيْهم. فخرجَ حتى أتى المسجدَ، فنادَى بأعلى صَوتِه: أشهدُ أن لا إلهَ إلاّ اللهُ، وأنَّ محمداً رسولُ الله. ثمَّ قامَ القومُ فضرَبوهُ حتى أوجَعوه. وأتى العبّاسُ فأكبَّ عليه قال: وَيلَكم، ألستم تعلمونَ أنه مِن غِفار، وأنَّ طريقَ تجارِكم إلى الشام؟ فأنقذَه منهم. ثمَّ عــادَ منَ الغَدِ لمثلِها فضرَبوه وثارُوا إليه، فأكبَّ العباسُ عليه». (يوسف عامر).

[1] – سيرة النبي، الجزء الأول. ورد في الرحيق المختوم قول حمزة لأبي جهل: يا مصفر إسته، تشتم ابن أخي وأنا على دينه؟ ثم ضربه بالقوس فشجه شجة منكرة، فثار رجال من بني مخزوم ــ حي أبي جهل ــ وثار بنو هاشم ــ حي حمزة ــ فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة، فإني قــد ســبت ابــن أخيــه ســباً قبيحاً.(يوسف عامر).

[2] – ارجع إلي الحادثة كلها في الجزء الأول من كتاب سيرة النبي. ورد ذكر لقاء أبي سفيان مع قيــصر الروم في البخاري: (٧) حدَّثنا أبو اليَمانِ الحَكَمُ بنُ نافِعٍ قال: أخبرَنا شُعَيْبٌ عَنِ الزُّهْرِيِّ قال: أخْبَرَنــي عُبَيْدُ اللهِ بنُ عبدِ اللّهِ بنِ عُتْبَةَ بنِ مَسْعُودٍ أن عبدَ اللّهِ بنَ عباسٍ أخبرَهُ أَنَّ أبا سُفْيانَ بنَ حَرْبٍ أخبــرَهُ أنَّ

هِرَقْلَ أَرْسَلَ إِلَيْهِ في رَكْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وكانوا تجَّاراً بالشَّامِ في المُدَّةِ التي كان رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم مادَّ فيها أَبا سُفْيانَ وكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فأَتوهُ وَهُمْ بإيلِيَاءَ، فدعاهُمْ في مَجلسِه، وَحَوْلَهُ عُظَمَاءُ الرُّومِ، ثُمَّ دَعاهمْ وَدَعا بتَرْجُمانِه، فقالَ: أَيُّكمْ أَقْرَبُ نَسَباً بهذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أَنَّهُ نَبِيٌّ؟ فقال أبو سُفْيانَ: فقلتُ أَنـا أَقْرَبُهمْ نَسَباً. فقال: أَدْنوهُ منِّي، وَقَرِّبوا أَصحابَهُ فاجْعَلُوهُمْ عندَ ظَهْرِه. ثمَّ قال لِتَرْجُمانِه: قُلْ لهمْ إِنِّي سائلٌ هذا الرَّجُلَ، فإنْ كَذَبَني فكذِّبوه. فَواللَّهِ لَوْلا الحَياءُ مِنْ أَنْ يَأْثِرُوا عَلَيَّ كَذِباً لَكَذَبْتُ عنهُ. ثُمَّ كـانَ أَوَّلَ مـا سَأَلَني عنهُ. أَنْ قال: كَيْفَ نَسَبُهُ فيكمْ؟ قلتُ: هوَ فينا ذُو نَسَب. قال: فهلْ قال هذا القَوْلَ منكم أَحَدٌ قَطُّ قَبْلَه؟ قلتُ: لا. قال: فهلْ كانَ مِنْ آبائه مِنْ مَلِك؟ قلت: لا. قال: فأشرافُ الناسِ يَتَّبِعونَهُ أَمْ ضُعَفاؤُهُم؟ فقلتُ: بَلْ ضُعَفاؤُهُم. قال: أَيَزيدونَ أَمْ يَنْقُصون؟ قلتُ: بَلْ يَزيدون. قال: فهلْ يَرْتَدُّ أَحَدٌ منهمْ سَخْطَةً لدينِه بعـدَ أَنْ يَدْخُلَ فيه؟ قلتُ: لا. قال: فهلْ كُنتمْ تَتَّهِمونَهُ بالكذبِ قبلَ أَنْ يقولَ ما قال؟ قلتُ: لا. قال: فهلْ يَغْدِرُ؟ قلتُ: لا، ونحنُ منهُ في مُدَّةٍ لا نَدْري ما هو فاعِلٌ فيها. قال: ولم تُمكِنِّي كلمةٌ أُدْخِلُ فيها شَيئاً غيرُ هذه الكلمة. قال: فهل قاتَلْتُموهُ؟ قلتُ: نعم. قال: فكيفَ كان قتالُكمْ إِيَّاهُ؟ قلتُ: الحربُ بَيْنَنا وبينَهُ سِجالٌ، يَنالُ منَّا وَنَنالُ منه. قال: ماذا يأمُرُكمْ؟ قلتُ: يقولُ اعبُدوا اللَّهَ وَحْدَهُ ولا تُشْرِكوا بهِ شَيئاً، واتْرُكوا مـا يقـولُ آبـاؤُكمْ. وَيَأْمُرُنا بالصلاةِ والصِّدْقِ وَالعَفافِ والصِّلَة. فقال للتَّرْجُمانِ: قُلْ له سأَلْتُكَ عن نسَبِهِ فَذَكرتَ أنه فـيكم ذو نسب، فكذلك الرُّسُلُ تُبْعَثُ في نَسَبِ قَوْمِها. وَسَأَلْتُكَ هلْ قال أحدٌ منكمْ هذا القولَ؟ فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كانَ أَحَدٌ قال هذا القولَ قَبْلَهُ، لقُلتُ رَجُلٌ يَأْتَسي بقولٍ قِيلَ قبلَه. وسأَلْتُكَ هلْ كان من آبائـه مـنْ مَلِـك؟ فذكرتَ أَنْ لا، قلتُ فلو كان مِنْ آبائِه مِنْ مَلِكٍ قلتُ: رَجُلٌ يَطلُبُ مُلْكَ، أبيه. وسأَلْتُكَ هل كنـتم تَتَّهِمونَـهُ بالكَذِبِ قَبْلَ أَن يَقولَ ما قالَ؟ فذَكرتَ أَنْ لا، فقد أعرفُ أَنَّهُ لم يكن لِيَذَرَ الكَذِبَ على الناسِ ويَكذِبَ علـى اللَّه. وسأَلْتُكَ أَشرافُ الناسِ اتَّبَعوهُ أَمْ ضُعَفاؤُهُمْ؟ فذكرتَ أَنَّ ضُعَفاءَهمْ اتَّبعوه، وهم أَتْباعُ الرُّسُل. وسأَلْتُكَ أَيَزيدُونَ أم يَنْقُصون؟ فذكرتَ أَنَّهمْ يَزيدُون، وكذلِكَ أمرُ الإيمانِ حتى يَتِمَّ. وسأَلْتُكَ أَيَرْتَدُّ أحدٌ سَخْطَةً لدينِه بعدَ أَنْ يَدخُلَ فيه، فذكرت أَنْ لا، وكذلِكَ الإيمانُ حينَ تُخالِطُ بَشاشَتُه القلوبَ. وسأَلْتُكَ هلْ يَغْدِرُ؟ فـذكرتَ أَنْ لا، وكذلك الرُّسُل لا تَغدرُ. وسأَلْتُكَ بما يَأْمُرُكمْ؟ فذكرتَ أنه يأمُرُكم أن تَعبُدوا اللَّهَ ولا تُـشرِكوا بـه شيئاً، وَيَنهاكمْ عنْ عِبادةِ الأوثانِ، ويأمُرُكم بالصَّلاةِ والصِّدْقِ والعَفافِ، فإن كانَ ما تقولُ حقّـاً فـسَيَمْلِكُ مَوْضِعَ قَدَمَيَّ هاتَين. وقد كنتُ أعلمُ أنه خارجٌ، لم أكُنْ أَظُنُّ أنه منكم، فلو أَنِّي أعلَمُ أَنِّي أَخلُـصُ إليـه، لَتَجَشَّمْتُ لِقاءَه، ولو كنتُ عندَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمِه. ثمَّ دَعا بكِتابِ رسولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسـلم الـذي بَعَثَ به دِحْيَةُ إلى عَظيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَه إلى هِرَقْلَ، فقرأَهُ، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ مُحمدٍ عبدِ اللَّهِ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عظيمِ الرُّوم. سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. أَمَّا بعدُ فـإِنِّي أَدْعُـوكَ بِدِعايةِ الإسلامِ، أَسلِمْ تَسلَمْ، يُؤتِكَ اللَّهُ أَجْرَكَ مَرَّتَين. فإنْ تَوَلَّيْتَ فإنَّ عليكَ إثمَ الأريسِيِّين و {يا أَهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بيننا وبينَكم أنْ لا نَعبُدَ إلاَّ اللَّهَ ولا نُشْرِكَ به شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أَرْباباً مِنْ دُونِ اللَّهِ، فإنْ تَوَلَّوْا فقولوا اشْهَدُوا بأَنَّا مسلمون}.

كما لم يكن هناك نور للإيمان في قلب خسرو برويز المظلم مساوياً لقيصر الروم، والأكثر من ذلك أنه كان للعجم أسلوب فحواه أن الخطابات التي تكتب للسلاطين يكون اسم السلطان أولاً علي العنوان، وعلي العكس من ذلك كان اسم الله تعالي هو الأول في الرسالة المباركة التي أرسلها رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم اسم رسول الله صلى الله عليه وسلم طبقاً لطريقة أهل العرب، وقد اعتبر خسرو ذلك من شأنه وقال: أيكتب إليّ أحد عبيدي هكذا ؟ ثم مزق رسالته المباركة، ولكن بعد عدة أيام مزق الله ملك العجم ([1])

وكثير من مثل الأحداث التي عدد مؤلف سيرة النبي صلى الله عليه وسلم بناءً عليها الخصائص المشتركة بين الأوائل من الذين قبلوا دعوة الإسلام ومعارضيه، وكلها تؤيد تلك المبادئ والأسباب المتعلقة باليقين والتي ذكرناها. ولمزيد من التفصيل عليك أن

قال أبو سُفيانَ: فلما قال ما قال، وفَرَغَ مِنْ قِراءةِ الكتاب، كَثُرَ عندَهُ الـصَّخَبُ، وارتفعَـتِ الأصـواتُ، وأُخْرِجْنا. فقلتُ لأصحابي حين أُخرِجنا: لقدْ أَمِرَ أمرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ، إنه يَخافُه مَلِكُ بني الأصـفَرِ. فمـا زلتُ مُوقناً أنه سيَظهرُ حتى أدْخَلَ اللّهُ عليّ الإسلام.

وكان ابنُ الناظُورِ ـ صاحبُ إيلْياءَ وهرَقْلَ ـ أُسقُفًّا على نَصارَى الشام يُحدِّثُ أنَّ هرَقْلَ حين قَدِم إيلياءَ أصبحَ خَبيثَ النفسِ، فقال بَعْضُ بطارِقَتِه: قدِ استَنكرْنا هَيْئَتَك. قال ابنُ الناظُورِ: وكان هرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ في النُّجومِ، فقال لهم حينَ سَألوه: إني رأيتُ الليلةَ حينَ نظرتُ في النجومِ مَلِكَ الْخِتانِ قـد ظَهَـرَ، فمـنْ يَخْتَتِنُ من هذه الأمَّة؟ قالوا: ليسَ يَخْتَتِنُ إلاّ اليهودُ، فلا يُهِمَّنَّكَ شأنُهمْ، واكتُبْ إلى مَدائنِ مُلْكِكَ فيَقْتُلوا مَنْ فيهم منَ اليَهود. فبينما همْ على أمرهِمْ أُتيَ هرقْلُ برَجُلٍ أرْسَلَ به مَلِكُ غَسّانَ يُخْبِرُ عن خَبَرِ رَسُولِ اللّـهِ صلى الله عليه وسلم. فلمّا استخبرَهُ هِرَقْلُ قال: اذهَبوا فانظروا أمُخْتَتِنٌ هوَ أم لا؟ فنظروا إليه، فحدَّثوه أنه مُخْتَتِن، وسأله عنِ العَرَبِ فقال: هم يَخْتَتِنون. فقال هرَقْلُ: هذا مُلْكُ هذه الأمَّة قد ظهر. ثمَّ كتب هِرَقْـلُ إلى صاحبٍ له برُومِيَةَ، وكان نَظيرَهُ في العلم. وسارَ هرَقْلُ إلى حِمْصَ، فلم يَرِمْ حِمصَ حتى أتاهُ كتـابٌ من صاحبه يُوافقُ رَأْيَ هرقلَ على خُروجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأنه نبيٌّ. فأذِنَ هِرَقْـلُ لعُظمـاءِ الرُّوم في دَسكَرَةٍ له بحِمْصَ، ثم أمرَ بأبوابها فغُلِّقَتْ، ثم اطَّلَعَ فقال: يا مَعْشَرَ الرُّوم، هلْ لكُمْ في الفَـلاحِ والرُّشْدِ، وأنْ يَثبُتَ مُلكُكمْ، فتُبايعوا هذا النبيَّ؟ فحاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الْوَحْشِ إلى الأبواب، فوَجَدُوها قـد غُلِّقَتْ، فلمّا رأى هرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وأيِسَ منَ الإيمانِ قال: رُدُّوهمْ عَلَيَّ. وقال: إني قلتُ مَقالَتي آنفاً أختَبِـرُ بها شِدَّتَكمْ على دِينِكمْ، فقد رأيتُ. فسجَدوا له ورَضُوا عنه، فكان ذلكَ آخرَ شأْنِ هِرَقلَ. رواه صالحُ بـنُ كَيْسانَ ويُونُسُ ومَعْمَرٌ عنِ الزُّهريِّ.(يوسف عامر).

[1] – سيرة النبي الجزء الأول. ورد في الرحيق المختوم لصفي الرحمن المبـاركفوري، ص٣٢٤،ط ١، ١٩٩٦م،بيروت أن النبي ﷺ دعا على كسر وقال:" مزق الله ملكه".(يوسف عامر).

ترجع إلي الجزء الأول من سير النبي صلى الله عليه وسلم، ونحن هنا نعيد الخلاصة الضرورية لذلك باختصار: ـ

الخصائص المشتركة للذين دخلوا في الإسلام: ـ

١. أكثرهم هم أولئك الذين كانوا يبحثون عن الحق من قبل الإسلام وكانوا بفطرتهم علي خلق رفيع وأصحاب طبائع جيدة ومن هؤلاء سيدنا أبو بكر، سيدنا صهيب وسيدنا أبو ذر وغيرهم (رغبة اليقين)

٢. كان بعض الصحابة من الأصناف بمعني أولئك الذين كانوا قد تركوا عبادة الأصنام قبل الأصنام وكانوا يطلقون علي أنفسهم اتباع سيدنا إبراهيم (قلة موانع اليقين)

٣. كان هناك أمر مشترك بين الجميع وهو أنه لم يكن من بين هؤلاء جميعاً من يحتل منصباً ضمن منظومة قريش، إنما كان أكثرهم من أولئك الذين لم ينالوا حظاً في بلاط الثروة والجاه قبل سيدنا عمار، سيدنا صهيب وسيدنا أبو فكيهة وغيرهم. (قلة الموانع)

من أكثر عداوة للإسلام من قريش، ولكن ماذا كانت أسباب عداوتهم: ـ

١. لقد كانت المكانة التي تحتلها مكة بسبب الكعبة، وكان أهل قريش يدعون جيران الله، بل وآل الله أي تماثله لله، وكان السبب في ذلك هو أنهم كانوا مجاورين وحاملي مفاتيحها، وكان العرب مبتلون بعبادة الأصنام منذ فترة، كما كانت الكعبة تذكار الخليل محطم الأصنام تزدان بثلاثمائة وستين معبوداً.

وكان الفرض الأساسي للإسلام هو تحطيم هذا اللغز، ولكن ذلك كان يعني أيضاً القضاء علي نفوذ قريش الواسع وعلي سلطاتها وعظمتها، ولهذا فإن قريشاً خالفته أشد مخالفة، وكان أكثر الناس مخالفة هم أولئك الذين يتوقعون خسارة أكبر لأنفسهم.

٢. كانت قريش بطبيعتها تنفر من المسيحيين، ومع ذلك فقد كانت هناك أمور مشتركة كثيرة بين الإسلام والمسيحية، والأكثر من هذا أن قبلة الإسلام في هذا الوقت هي بيت المقدس، ولهذه الأسباب تصورت قريش أن الرسول صلى الله عليه وسلم يريد أن يثبت المسيحية.

٣. وهناك سبب كبير آخر وهو العداوة التي كانت بين القبائل، وكانت هناك قبيلتان كبيرتان متميزتان من قريش تعادي كل مهما الأخرى، وهما بنو هاشم وبنو أمية، وكانت بنو أمية تعتبر نبوة النبي صلى الله عليه وسلم انتصاراً لخصمها (بنو هاشم)، ولهذا كانت هذه القبيلة أكثر القبائل التي خالفت النبي صلى الله عليه وسلم.

٤. وسبب كبير آخر أنه كانت هناك بعض الأخلاق السيئة منتشرة بين قريش، وكان كبار قريش وسادتها يرتكبون أفعالاً غاية في الشناعة والبشاعة، فقد سرق أبو لهب الغزال الذهبي من الحرم، وكان الأخنس بن شريف نمام وكــذاب والنضر بن الحارث كان من أكبر المعتادين علي الكذب، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يكشف سوء عبادة الأصنام من جانب، ويهاجم هذه الأخلاق السيئة من جانب آخر، ولذا فإن عظمة هؤلاء ونفوذهم وسلطاتهم كانت تتزلزل، وقد نزلت في القرآن الكريم آيات في شأن سيء الأخلاق هؤلاء تفضحهم علانية. المهم أننا لا نجد أي علاقة تدل علي الرغبة في الإيمان واليقين لدي قريش هذا أولاً. وثانياً: لو أن هذه الرغبة كانت موجودة إلي حدٍ ما لديهم فإن الموانع المذكورة سابقاً كانت قوية إلي حد أنه لم يكن من الممكن أن تظهر هذه الرغبة ما لم يتم التخلص من هذه الموانع.

وخلاصة هذا الكلام كله فيما يتعلق باليقين:

١. اليقين بذاته هو ميل نفسي وحالة ذهنية مثلها مثل الأحاسيس والعواطف الإنسانية العامة، واليقين الذي تخلقه الدلائل المنطقية للفلسفة والعلم بل والرياضيات أيضاً لا يزيد الميل إليه عن هذا الميل النفسي في كثيراً

٢. إن الأساس العقلي والنقلى لليقين هو بمثابة وزن الرغبة في اليقين ذاتها ثم موانع ومؤديات هذه الرغبة.

٣. إن بناء هذه الأسباب الأساسية لليقين يكون في معظمه معتمداً علي تلك العواطف والمعقدات والتصورات والافتراضات (العلوم العقلية)، والتي تسري في نفوس الأفراد والجماعات قبل تقديم شيء ما أمامهم لقبوله وتصديقه.

غاية المعجزات

المعجزة ليست دليلاً منطقياً:

إن المفهوم الذي وضحناه سابقاً في بداية الحديث يدلنا علي أن المعجزة ليست دليلاً منطقياً علي النبوة، إلا أن الشخص الذي يعتقد بالدين ويؤمن بالغيب وبالسنة الإلهية التي تفيد أنه لهداية وإرشاد العباد يرسل الله من بينهم عبداً مختاراً برسالته، وعندما يأتيه شخص يحمل رسالة أو أية نبي ويعرف أن هذا الداعي إلي الله أرفع مقاماً من عامة الناس من حيث الأوصاف الحميدة والكمالات الأخلاقية والظاهرة والباطنة فإن موجة من الإيمان تسري في قلب هذا الشخص، بحيث تفكر قائلاً أنه " لو ظهرت من هذا الرسول معجزة أو نسبت إليه معجزة فإن هذا سيعد آية علي صدقه، وتقوى بها الرغبة في الإيمان لديه، ويصير ذلك الأمر ذا معني في نفوس أولئك الذين يرغبون في الإيمان، فالمعجزة ليست دليلاً مباشراً علي النبوة إلا أنها تصير دليلاً نفسياً علي صدق مدعي النبوة.

الغاية الأصلية للمعجزة:

اعتبر أن الحقيقة النفسية للغاية والغرض الذي يمكن أن يكون لهذا الدليل أو الآية أن أساس الدين كله علي الأسرار والغيوب، وأكبر سرّ أو غيب، بل غيب الغيب هو وجود الله ذاته، الحشر و النشر، الجن والملائكة، الوحي والإلهام كلها أشياء غيبية. والنبوة عبارة عن الروابط والعلاقات مع عالم الغيب هذا، ولأن في المعجزة نوعاً ما من عالم الغيب أيضاً بمعني أنها منفصلة عن سلسلة العلل والأسباب للعالم الظاهري، لذا فإن الشخص الذي يؤمن بالغيب تميل نفسه بشكل طبيعي إلي اليقين علي الإنسان المبعوث الذي ظهرت من معجزة له علاقة خاصة بعالم الغيب، أما الشخص الذي لم يؤمن أصلاً، بمعني أنه ينكر وجود الله وينكر الدين تماماً فمن الواضح أن المعجزة لا يمكن أن تكون دليلاً أو برهاناً بالنسبة له علي تصديق النبوة، إذ أن تصديق النبي أو تكذيبه أمر لا حق فيما بعد، والمهم أن تكون نفس الإنسان أولاً معترفة بوجود الله، وأنه يمكن أن يرسل الأنبياء لهداية الخلق، وكيف تفهم شخصاً شكلاً من أشكال رياضيات إقليدس إذا كان لا يعترف أصلاً بمبادئ إقليدس من " النقطة والخط والسطح " وغيرها. وكما أنه لابد من

التسليم بمبادئ العلوم أولاً حتى يمكن التسليم بتفصيلاتها الفرعية.كذلك لابد من اليقين علي الدين نفسه أولاً حتى يمكن التيقن بتفصيلاته. وقد كتب " مل " منقحاً ما كتبه " هيوم " من إنكار للمعجزات فقال: ــ

" إن الشخص الذي لا يعترف بداية بذات فوق الفطرة، ولا بإمكانية تدخلها في أمور الإنسان فإنه لن يعتبر ما نقضه عليه من أمور فوق الفطرة وخارقة للعادة فيما يتعلق بشخص ما من قبيل المعجزة، ولا يمكن إثبات وجود الله ذاته بالمعجزات، فإذا لم يكن هناك اعتقاد بوجود الله بداية فإنه يمكن عندئذٍ تفسير تصرفات الذات فوق الفطرة، كذلك الأحداث المعجزة علي نحو آخر إلي هنا، ونستطيع أن نري لدليل هيوم معني، لكن أن يقول بأنه " إذا سلمنا بوجود قطعي أو ترجيحي لتلك الذات التي فوق الفطرة فستكــون هي خالقــة نظام الفطرة الحالي، ولهذا يمكنها إجراء التغيير والتعديل فيه " فإن دليل " هيوم " عندئذٍ يصبح لا معني له، فإذا كنت سلمت بوجود الله، فإنه لا يبقي هناك افتراض مزعوم لتأثير وتصرف إرادته علي شيء خلقته هذه الإرادة، وإنما يصير هذا " إمكان " جاد، إذ أن نوعية السؤال سوف تتغير في هذه الحالة، وسيكون القطع في هذا البحث بتدخل الله أو عدم تدخله مبني علي السؤال بـــ " ماذا كانت سنة الله في كائنات الفطرة، أو ماذا ينبغي أن تكون عقلاً ؟!. (1)

المهم أن الشرط الأول لاعتبار المعجزة معجزة وقبولها واليقين عليها هو أن يؤمن الشخص أولاً بالغيب " الله والدين " ثم انظر بعد ذلك ماذا يمكن أن تكون التفسيرات والصور المختلفة لوقوع المعجزة واضعاً في الاعتبار الغاية السابقة الذكر للمعجزة والشرط الأول لليقين عليها. وبصرف النظر عن الاحتمالات الثانوية والتي تمتلئ بها كتب

---

[1] ــ انظر كتاب " ثلاث مقالات عن الدين " ــ المطبعة الأسيوية ــ ص ٩٨، وكذلك " نظام المنطــق " الكتاب الثالث ــ باب ٢٥ ــ فصل الثاني ــ وفي هذا الفصل أزال " مل " سوء فهم فحــواه بأنــه بعــد الإيمان بالله لا يمكن أن نعتبر المعجزة خارقة لقانون الفطرة بشكل كامل، فإنك إذا ألقيــت حجــراً إلــي أعلي، ولم يكن هناك شيء يحول بينه وبين السقوط، فإن عدم سقوطه علي الأرض في هــذه الحالــة أو بقاؤه معلقاً في الهواء أمر خلاف الفطرة بلا شك، لكن إذا أوقفه أحد في طريق سقوطه فلن يكون عــدم سقوطه عندئذٍ خارقاً للعادة، لأن هناك مانعاً من سقوطه، وفي حالة المعجزة فإن الإرادة إلهيــة الخالقــة لسلسلة العلل والأسباب العادية تكون هي المانعة لعمل هذه السلسلة، ولهذا فإن المعجزة ليــست خلافــاً للفطرة، ولا تحدث بغير علة، لأن شرط عمل العلة هو أن لا يكون هناك مانع من عملها، وهو موجــود هنا.

علم الكلام القديم والحديث فإن هناك صورتين فقط بشكل مبدئي وهما اللتان أشار إليها " مل " في الاقتباس السابق.

الصورة الأولي:

وهي أن الله تعالي قد وضع بعض القوانين والمبادئ لتسيير أمور العالم، وكل جزء في هذا الكون يسير طبقاً لها، وأن الإرادة الإلهية لا تجري أي تغيير أو تبديل بأية صورة من الصور ذي هذه السنَة الجارية. وكما يقول " سبينوزا " فإن ألوهية الله وحكمته وعظمته الحقيقية تظهر وتتجلى في أن يكون العالم مقيداً بنظام لا يتغير، والقدرة الإلهية تعني أن يكون الكون كله تابعاً لقوانينها الأزلية الثابتة. (١)

وطبقاً لهذا الاحتمال فإن وقوع المعجزة ينبغي أن يكون بتأثير من أحد قوانين الفطرة الأزلية هذه التي لا يعلم الناس عنها شيئاً علي الأقل وقت ظهور المعجزة، ولهذا فإن المعجزة التي هي في أصل أمر فطري يبدو للناس في الظاهر معجزة، علي سبيل المثال ظل تحول عصا موسى إلي حية تسعي يعد معجزة طالما لم يتم اكتشاف قوانين الفطرة النفسية في مسألة التنويم المغناطيسي، أما اليوم فقد أصبح تحول الكرسي إلي أسد في نظر العارفين بهذا القانون النفسي أمراً فطرياً، ويمكن تفسير ظهور عصا موسى في شكل حية علي نفس المنوال. ومع هذا فإن هذا التفسير لا يعني أبداً أن هذه الحادثة لم تكن معجزة في عهد سيدنا موسى عليه السلام، وذلك لأن الغاية التي ذكرناها سابقاً للمعجزة قد تحققت بشكل كامل حتى ذلك الوقت، بمعني أنه كان يوجد بها نوع ما من الغيب، وكان حدوثها يبدو وكأنه منفصل عن سلسلة العلل والأسباب لهذا العالم الظاهري، ولهذا فإنه كان يتولد في النفس ميل إلي تصديق النبي " الذي هو علي صلة بعالم الغيب " مثلما تولد في نفوس السحرة، وصدقوا بنبوة سيدنا موسى عليه السلام.

لكنك عندما تقص هذه الحادثة اليوم علي " البرن مول " أو " وليم جيمس " فإنهما سيفهمونها علي أنها أمر فطري بدلاً من أن يعدونها معجزة، ولهذا فإنه إذا أراد نبي أو وليّ أن يخلق ميلاً إلي تصديق نبوته أو ولايته في قلب " مول " أو " جيمس " من خلال المعجزة أو الكرامة فإنه يتعين إظهار آية يعجز علمها الحالي عن تفسيرها مثلما عجز العلم في عهد الأنبياء السابقين عن تفسير معجزاتهم، ولا يزال عاجزاً عن تفسير بعضها

---

[1] – سبينوزا أحد أئمة الفلسفة الحديثة المشهورين ــ انظر مجموعة أعماله spenosars work ــ الجزء الأول ــ باب ٦ ــ بحث المعجزات.

إلي الآن مثل شق القمر، ولكن إذا تم في الأصل خلق نوع ما من الوسعة القياسية في تجارب التنويم المغناطيسي فإن عندئذٍ يمكن تفسير معجزة شق القمر وغيرها من المعجزات جميعها تقريباً، لأن اعتماد التنويم المغناطيسي كله يكون علي قوة التأثير لدي الوسيط، والاستعداد للتأثير لدي المتلقي المقصود التأثير عليه، وهذا التأثير والتأثر موجود بنسبة أو بأخرى لدي كل إنسان، ونجد أمثلة بسيطة لها في حياتنا اليومية، وعندنا في لغتنا مثل عامي يقول: " تنظر الشمامة إلي أخرى وتتلون بلونها " ويعني الإنسان يتأثر بالآخرين، وسر فوائد الصحبة الطيبة ومضار الصحبة السيئة هو تأثر غير محسوس، وبالقدر الذي تكون فيه قوة الإرادة أو قوة التأثير لدي شخص ما علي مستوي عالي بنفس القدر يستطيع هذا الشخص التأثير في الآخرين، وهذه القوة هي السر الكبير في نجاح أكابر الرجال، حيث يتأثر الناس بما يقولون فقط أكثر من تأثرهم بدلائل وبراهين الآخرين، وأكبر مثال حيّ علي هذا الأمر السيد " غاندي "، فقد جعل كبار الأمراء وأعيان البلد يعملون بمغازل النسيج اليدوية، وخلق يقيناً في قلوب مئات الألوف من البشر علي مميزات هذه المغازل بأحاديثه وكتاباته البسيطة، وهذا إلي حد كبير أثر لهذه القوة التي ذكرناها سابقاً، وإلا فإنك تجد في البلاد " الهند " مئات من المنطقيين والكتاب والخطباء الذين يفوقونه كثيراً، لكن سحر التأثير هذا لا يوجد في خطب أحدهم ولا في كتاباته ولا في أدلته كذلك. المهم أن قوة التأثير هذه ([1]) والتي ينميها وسيط التنويم بالعشق فيستطيع أن يجعل من الكرسي أسداً، ومن المقشة امرأة جميلة.

وبناءاً علي هذه الأحداث يحق لنا تأكيداً أن نقوم بتوسيع قياسنا بأن درجة قوة التأثير الروحية الموهوبة من الله لدي الأنبياء الكرام أعلي بكثير وأرفع من تلك التي توجد لدي خبراء التنويم المغناطيسي أو أكابر الرجال والمصلحين، ولهذا فإنهم يستطيعون خلق يقين في قلوب الناس علي أمور عجيبة ومحيرة للعقول أكثر مما يستطيعه غيرهم، إذ يحتاج وسيط التنويم المغناطيسي إلي بعض الحركات والسكنات الظاهرة وكذا بعض الألفاظ والكلمات من أجل التأثير، ويكون تأثيراً محدوداً علي الأفراد في الغالب، بينما تكفي الإرادة الباطنية لإحداث تأثير القوة الروحية العالية لدي الأنبياء، ويمكن أن يتعدى

---

[1] – يستخدم اصطلاح (suggestion) في اللغة الإنجليزية للدلالة علي هذا التأثير، ويمكن التعرف علي حقيقته كاملة بالتجارب والأمثلة من خلال كتاب " the psychology of suggestion " نفسيات التأثير لعالم اللغة الإنجليزية الدكتور / سيدس.

تأثيرها الأفراد إلي الجماعات. وهنا يتولد في القلب بعض الشك وينبغي إزالته، وهو أن قبول هذا التفسير للمعجزة سيعني أن حقيقة المعجزة ليس أكثر من نوع ما من السحر وخداع النظر والحواس، بمعني أن معجزة من المعجزات التي تبدو لشخص ما ليس لها وجود خارجي وحقيقي بعيداً عن أعين هذا الشخص وحواسه، أو بشكل أصح بعيداً عن ذهنه وعقله.

إجابة علي بعض الشكوك:

إن غاية المعجزة التي اتضحت فيما سبق يكون الجواب في ضوئها علي هذه الشبهة أنها غاية تحصل لكل نوع، فالمعجزة في ذاتها سواء كانت شيئاً خارجياً أو عقلياً محضاً يكون الفرد أو الجماعة التي تقدم لها المعجزة تحمل بداخلها نوعاً ما من الإيمان بالغيب، صحيح أن هذا يخلق إشكالاً قوياً آخر وهو أنه ما الفرق في هذه الحالة بين النبي وعامل التنويم المغناطيسي والساحر ؟!، وقد ورد حل هذا الإشكال ضمنياً فيما سبق وهو أ، المعجزة في ذاتها ليست دليلاً منطقياً علي النبوة، وإنما يكون الشخص الذي تجتمع فيه الكمالات الظاهرية والباطنية، أي الخصائص الأصلية للنبوة والأوصاف الحميدة، بشكل فوق العادة، تكون المعجزة في حقه مزيداً من التأييد، والشخص الذي لا تؤثر فيه هذه الخصائص الأصلية للنبوة وكمالاتها الروحية لابد وأنه سيعتبر النبي علي أكثر تقدير ساحراً كبيراً بالتأكيد، مثلما يقول المفكرون دائماً: هذا ساحر كذاب ــ إن هذا الساحر عليم ــ قالوا هذا سحر مبين ــ ويقولون سحر مستمر. [1] لكن الإجابة المؤكدة للشبهة التي

---

[1] ــ للسحر والمعجزة بحث مستقل لدي علماء الكلام المسلمين، لكن اتجاه المحققين من بينهم هو أنه ليس بينهما فرق نوعي، والفرق في نظر البعض هو في الاستخدام فقط، بمعني أن الأنبياء والأولياء يستخدمون قوتهم النفسية المعجزة في أعمال الخير، بينما يستخدمها الساحر في الشر (سفينة الراغب ــ ص١١٨)، ويستنتج مولانا حميد الدين الفراهي الذي يعد من أفضل من كتبت له سعادة فهم القرآن الكريم في عصرنا الحاضر من آية " لا يفلح الساحر " (طه ٦٩)، أن الفرق بين السحر والمعجزة هو أن الساحر لا يفلح، بمعني أنه لا يستخدم قوة سحره في أعمال الخير والفلاح لنفسه ولا للآخرين، بل إن أخلاق السحرة بشكل عام تكون منحطة، ولكن يبدو أ، الهدف الأكثر وضوحاً وصحة للآية القرآنية " لا يفلح الساحر حيث أتي " هو أنه عندما يتواجه سحر الساحر مع معجزة النبي فإنه ينهزم ويُغلب، مثلما حدث مع عصا موسى عليه السلام، وبالتالي يظهر مقياس يقيني للفرق الظاهري بين السحر والمعجزة عندما يتواجهان، أما الفرق بين الحقيقة الباطنية بين كل منهما فإن عالم السحر فقط هو الذي يعرف هذا الفرق مثلما يكون الحال في الحقائق الفنية كلها، ومثلما عرف السحرة في مواجهة سيدنا موسى الفرق.

تقول بأن المعجزة طبقاً للتفسير السابق مجرد وهم خيلي وتصوري، وليست لها حقيقة خارجية وواقعية تتعلق في الحقيقة بما وراء الطبيعة، والتي تعد آخر مرافعة في محكمة الدقائق العقلية، ولكن القرار الأخير لهذه المحكمة ليس بالتأكيد أن الوجود الحقيقي أو الواقعي يكون للأشياء الخارجية فقط، بل إن الأمر لديه مشتبهة فيه من أوله إلي آخره، وهو أن يكون هناك وجود خارجي أصلاً، واتجاه جماعة كبيرة من أساطين الفلسفة وهي التصورية هو أن العالم كله وهم وخيال، وأن الوجود الحقيقي للروح والذهن فقط، وما عدا ذلك من أنهار وجبال وأقمار وشموس وأراضين وسماوات، وكل ما نراه هو داخل التصور فقط، وأن المادة والعالم المادي وهو وخيال. ([1]) وقد فسرت هذه الجماعة العالم الخارجي بأن الأشياء التي نعتقد أنها موجودات خارجية هي مجرد تصورات ذهنية خلقها الله بداخلنا، وقد أشار المرحوم " أكبر " إلي هذا الأمر ضمناً فقال: إن كل ما هو موجود فهو الله ونحن الذين نتوهم ونتخيل، لهذا فإن القوة أ، الذات التي خلقت في الأذهان تصور القمر الثابت الكامل والعصا الموسوية هي نفسها التي خلقت في الأذهان لفترة وجيزة تصور الحية بدلاً من العصا، والقمر المشقوق بدلاً من القمر السليم الكامل، فما الفرق إذاً بين نوعية وحقيقة الوجوديين.

إن العلم الذي تصمت مادتيه أمام الدلائل ولا يحتمل الوجود الخارجي للماديات بالرغم من أنه يعتبر المادة غير مادية وغير جوهرية، ويجب أن يبقي دائماً متورطاً في مثل هذه الأمور الدقيقة كخيط العنكبوت، ولكنه بالرغم من ذلك مضطر علي الأقل فيما يتعلق بالمحسوسات إلي الاعتراف بأن وجود الكون والرائحة، الصوت والطعم والبرودة والحرارة مجرد إحساس ذهني أو تصور يخلق في أذهاننا شيء مجهول نطلق عليه المادة وليس لها وجود خارج أذهاننا، فإذا كان الوجود الحقيقي والواقعي الذي نراه بأعيننا، والصوت الذي نسمعه بآذاننا ليس أكثر من أننا نتصوره ونحسه فقط فما الداعي إذاً لأن نحاول أن نثبت وجوداً حقيقياً وواقعياً للمعجزات أكثر من هذا.

[1] ــ ليس المجال هنا لشرح هذه القضية الحساسة من قضايا ما وراء الطبيعة، لكن أولئك الذين لديهم تذوق للفلسفة يستطيعون مطالعة كتاب " مكالمات " لمؤسس مذهب التصورية في العصر الحديث " بركلي " وقد ترجمت فلسفته إلي اللغة الأردية، وربما يستطيع عامة الناس الاستفادة من فلسفة " بركلي " والكتاب طبعته دار المصنفين.

اعتراض آخر:

كانت هذه هي الشبهات التي تتولد فيما يتعلق بالتطابق بين المعجزة والتنويم المغناطيسي، أو بناءاً علي الوجود الذهني المحض للمعجزات، ولكن هناك اعتراض آخر علي كل التفسيرات الخاصة بالمعجزات والتي تجعل من المعجزة معلولاً لعمل ما خفي من العلل والأسباب (سواء كانت نفسية أم طبيعية أم مادية) وقوانين الفطرة الثابتة غير المتغيرة، ولم يكن عامة الناس يعلمون عن هذا شيئاً حتى وقت ظهور المعجزة. وهذا الاعتراض يثار باعتبار المعجزة أمراً ثانوياً. افترض أن علة شق القمر قانوناً نفسياً مثل التنويم المغناطيسي، أو مثل الاتصال والجذب الكيمائي الذي يصل ما بين أجزاء القمر المختلفة، أو قانون مادي للدفع والافتراق، والذي جعل من القمر شقين، فإن شق القمر في الحالتين يظل معجزة طالما لم يتم اكتشاف قوانينه وعلله المادية أو النفسية، فلقد كان من قبيل المعجزات قبل اكتشاف الاتصال باللاسلكي أن يجلس شخص في الهند ويعرف أمراً حدث في أمريكا في ثانية واحدة، بينما أصبح هذا الأمر الآن أمراً عادياً.

والمعجزة بالتأكيد في هذا الإطار تعد أمراً ثانوياً وستظل هكذا، ولا يمكن تقديم أية معجزة تخلو من هذا الاحتمال، لأن كل علم الإنسان نفسه ثانوي أيضاً، إلا أن علمه يستطيع أن يحيط بقوانين الفطرة القطعية النهائية، وإذاً تكون المطالبة بعدم تفسير المعجزة بأي قانون من قوانين الفطرة إلي ما لا نهاية في موضعها، ولكن إذا كان علمنا نحن ثانوياً فكيف تخلو أية معجزة من احتمال كونها ثانوية ؟!. وقد يستطيع أحد مدعي النبوة أن يرينا إعجازاً يتمثل في أن لا تغرب الشمس لأسبوع، لكن كيف يؤكد بشكل قطعي أنه لن يمكن تفسير هذا الإعجاز في ضوء اكتشافات علم الفلك مستقبلاً، فإذا افترضنا أن الشيء الذي هو معجزة اليوم ثبت بالغد أنه أمر عادي وطبيعي فإن ذلك لن يؤثر اليوم علي كونه معجزة، وهذا كاف لتحقيق الغرض والغاية من المعجزة (انظر ص ٤: ١٧٣)

الصورة الثانية:

وهي أن الكائنات كلها بشكل عام تسير وفقاً لقوانين وسنة مقررة ثابتة، ولكن الله تعالي في بعض الأحيان يتدخل في هذه السنن القائمة بالتغيير والتعديل كتأييد غيبي لأحد أنبيائه أو مقربيه، سواء كان هذا التغيير والتعديل بالإضافة أو الحذف أو كان منشأة الإرادة الإلهية بشكل مباشر، وكما يعتقد سبينوزا فإن ألوهية الله تظهر في أ، يكون العالم مقيداً بنظام غير متغير، وبنفس الطريقة يجد كثير من الفلاسفة عقولهم مضطرة إلي

الاعتراف بأنه ليس وراء كل معلول قوة مباشرة من قوي الفطرة، وإنما هي إرادة الذات العليا، ويصبح احتمال تدخل الإرادة إلهية بشكل مباشر فيما يتعلق بالمعجزة في نظر هؤلاء الفلاسفة هو الاحتمال الأكثر قبولاً.

الاحتمالات المختلفة لهذه الحالة:

وبالرغم من أنه لا يمكن التفريق بشكل قطعي بين الاحتمالات الثلاث لحالة التدخل هذه في كل مكان، لكن ينبغي فهم الفرق الواضح بينها من هذه الأمثلة: ـ

١. إن قانون الفطرة العام هو أن صغير الإنسان لا يولد بغير اتصال جنسي، ولكن إذا خلق الله في رحم الأم تلك المادة التي تنتج عن الاتصال الجنسي مثلما هو الحال في كثير من السوائل التي تظل تتولد في الجسم فعلاً، فإنه في هذه الحالة يمكن أن يولد الطفل بغير اتصال جنسي، وستكون حالة التدخل الإلهي هذه مبنية علي أساس إضافة مؤقتة في الفطرة، ومن الممكن أن تكون ولادة المسيح عليه السلام قد تمت بهذه الصورة من التدخل الإلهي.

٢. وبنفس الطريقة يكون مثل الحذف بدلاً من الإضافة بأن يحذف الله أو يسلب ذلك الجزء من القوة والذي يحفظ اتصال جزئي القمر ببعضهما لفترة وجيزة من بين القوة الكيمائية التي تحدث التجذب والاتصال بين أجزاء القمر المختلفة، وبالتالي تظهر معجزة شق القمر.

٣. الاحتمال الثالث هو أن يكون الله قد خلق المسيح وشق القمر بقدرة " كن فيكون " مباشرة ودون حذف أو إضافة مادية.

وهذه الصورة الأخيرة هي مسلك أهل الحق وعلماء الفلسفة والكلام عميقي النظر، بل إنه ليس هناك مجال للتنويم المغناطيسي بناءاً علي ما جاء في القرآن الكريم ذاته، وذلك لأن عملية التنويم تتحقق بعلم وإرادة عامل التنويم، وليس لإرادة الأنبياء ولا لعلمهم أي تدخل في المعجزات، ولذلك فإنهم يعلنون وبوضوح عن عجزهم الكامل عن تقديم أية معجزة فيما لو طلب منهم ذلك، وأن الآيات والمعجزات تكون بأمر الله فقط " وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله "، ولو أن الأنبياء كانوا يأتون بالمعجزات بعلمهم وإرادتهم مثلما هو الحال مع عامل التنويم المغناطيسي فلماذا إذاً يخاف سيدنا موسى عليه السلام من الثعبان الذي تحولت إليه عصاه، ولماذا إذاً ينسب الله تعالي تحويل العصا إلي ثعبان إليه مباشرة قائلاً: " لا تخف سنعيدها سيرتها الأولي "

أما باقي الاحتمالات والتي ذكرناها سابقاً فإنها لا تعدو كونها مجرد احتمالات وتأويلات، ولكن التأويل مهما كان بعيداً أهون من التكذيب، ولهذا فإن ذلك في الحقيقة إنقاذ لأصحاب العقول الصغيرة من طريق التكذيب والإنكار، أولئك الذين لا يلتفتون إلي أي
حقيقة عليا بغير ذكر العقل والحلوى كالأطفال، والذين ترتعد عقولهم من اسم العقل حتى أنهم لا يتمكنون من الوصول إلي الإمكانيات الناقصة للعقل.

والأمر الذي يحتاج إلي البحث والاهتمام واحد، وهو أن خالق الفطرة والكائنات ليس ذاتاً لا شعور لها ولا إرادة، وأن كل ما هو موجود في الكائنات هو ظهور لمشيئة وقدرة ذات عالمة مريدة وبشكل مباشر. والأمر الذي أصبح قديماً للغاية بالنسبة للفلسفة والعقل الفلسفي هو أن كل ما يحدث في أي مكان ما هو إلا مظهر من مظاهر تجليات ذات واحدة، وبناءً علي فلسفة التصورية (والتي راجت كثيراً بين الفلسفة الحديثة) فإن هذه الذات هي التي نطلق عليها شاعر الذات، النفس والروح، أما باقي اصطلاحات العوامل المادية والطبيعية والمادة والطبيعة وقوانينها فهي لا معني لها.

لقد خلقت كلماتك كل شيء. ..... وإلا فليس هناك شيء سوي قدرة الله.

أما الأمر الجديد والذي يستحق الاهتمام خصوصاً من أجل العقول الأذهان الخائفة باسم العلم والعلماء فهو أن الصخرة المؤكدة والتي أقيم عليها البناء الكامل للمادية، أو العوامل والقوانين الطبيعية للمادة هي الأخرى تذوب كالثلج في علوم الطبيعة الحديثة، إذ أصبح موضوع المادة غير الفانية والأزلية أو الأمور الثابتة الراسخة موضوعاً قديماً لا قيمة له، والآن لم يعد يعترف أحد بأن المادة حقيقة أساسية باعتبارها جوهراً قائماً بذاته، وأصبحت علمياً مدغمة في الطاقة الكهربائية، ولكن ما هي حقيقة الكهرباء أو البرق، لا يعرف أحد، ليس هذا فقط بل إنه أصبح من الضروري للعقل الإنساني العادي من أجل التعرف علي المادة في شكل موجود أن تكون موجودة في مكان ما، ولكن نظرية النسبية والإضافة قضت على هذا الأمل الأخير أيضاً.

" المادة التي كانت بالنسبة لعقولنا العادية جوهراً موجوداً في المكان قائماً في الزمان، وكانت الكائنات عبارة عن تلال من ذرات جوهر المادة، والتي تتحرك من مكان إلي آخر طبقاً لقوانين الزمان والمكان الخاصة جداً، والآن حدث انقلاب كبير من وجهة

النظر العملية وهو بالمعني الصحيح ناتج عن أن المادة والزمان والمكان لم تعد كلها تعتبر ثلاث حقائق منفصلة من الأساس. ([1])

وماذا يفهم الإنسان العادي بألفاظ صريحة غير أن المادة ليست في مكان ما أو في زمن ما، وإذاً فما معني أنها " تكون " وفهم هذا العمل العظيم للإضافية (النظرية النسبية) وشرحه هو من عمل المتخصصين في الرياضيات، فإذا ما سألت أحد العامة فإنه سيقول بشكل بديهي عن المادة التي تنفصل عن الزمان والمكان ولا وجود لها باعتبارها ضمن الزمان والمكان أن " لقد أغرقت الرياضيات في تحليل عالمنا الخارجي (المادي) حتى أوصلته إلي العدم تقريباً. ([2]) ولقد اتضح علي أية حال أنه لا يمكن أن نعتبر الكائنات آلة، ولقد أفلست المادية القديمة، أي تلك المادية التي تعتبر الكائنات والحياة والعقل وكل شيء أشياء مادية ([3]) وأخذت التصورية الفلسفية هي الأخرى تطل من نوافذ العلم والرياضيات لدرجة أن: ــ

" العلماء عرفوا من خلال بحثهم في الكائنات الطبيعية عن الحقائق الأساسية الخارجية القائمة أنه لو كانت هناك حقيقة خارجية من الأصل فإنها ستكون شيئاً غاية في الغرابة لم يتصورها أحد أبداً، وقد كتب " ايدنجتون " فيما يتعلق بنظرية الإضافية (النسبية) قائلاً: إن لم أكن مخطئاً فإننا تركنا هدف البحث عن الحقيقة الخارجية عند وصولنا إلي نظرية " كوانتم تهيوري "، واضطررنا إلي إذابتها في بعض عناصر الكائنات الطبيعية والتي تعد صراحة عقلية، فإنه كان من الصعب علينا أن نفصل العنصر الذهني لدينا عند معرفة العالم الخارجي، فسيكون فصله أكثر صعوبة في قضية الشعور الذاتي (knowing self)، حيث يصبح الذهن والخارج (يعني العارف والمعروف) حقيقة واحدة. " ([4])

المهم أن اتجاه الريح في العلم أيضاً بعد الفلسفة أصبح يتجه إلي التصورية، أي إلي التصور بأن الكائنات ومظاهرها ليست عملاً ميكانيكياً لمادة لا شعور لها، وإنما هي نتائج للذهن والشعور، وأصبح هناك ميل تجاه التصورية في العلم لدي فلاسفة علماء، وإن

---

[1] ــ الإيمان الحديث ــ المقدمة ــ ص ١٥١.

[2] ــ الإيمان الحديث ــ المقدمة ــ ص ١٤٣.

[3] ــ الإيمان الحديث ــ المقدمة ــ ص ١٤٣.

[4] ــ الإيمان الحديث ــ المقدمة ــ ص ٨.

لم يكون علماء تجريبيين خالصين مثل السيد " جيمس، وجيانس، ماكس، بلانك وشرود نجز اينستاين" وغيرهم، وقرروا أن المنبع الأساسي للكائنات هو الشعور، ويعترف بذلك السيد جيمس وجيانس اعترافاً صريحاً قائلاً: ــ إنني أميل إلي نظرية التصورية التي تقول بأن الحقيقة الأساسية هي الشعور، وأن الكائنات المادية مأخوذة منها (الإيمان الحديث ــ ص ٥٢٠).

وماذا يكون وجود المذاهب غير منبع الكائنات الأساسي صاحب الشعور والعلم، وطالما أن الكائنات كلها مأخوذة بشكل أو بآخر من هذا العلم والشعور، أو هي مخلوقة له، فأي حكمة عظيمة في البحث عن القوانين المادية أو العوامل والقوانين الميكانيكية عن طريق العقل ([1])، فالعقل والحكمة هما كما يقول الشاعر أكبر إله آبادي: ــ

لقد خلقت كلماتك كل شيء. .... وإلا فإنه ليس هناك غير قدرة الله.

شروط اليقين علي المعجزة:

المهم أن أول شرط لليقين علي المعجزة هو اليقين علي الله وعلى الغيب، ثم بعد ذلك يأتي تفسير وتوجيه المعجزة، كل حسب علمه وطبيعته، مثلما هو الحال في " الصورة الأولي " بأنها، أي المعجزة، نتيجة لعمل خفي لقوانين الفطرة العامة (سواء كانت نفسية أم مادية)، ومثلما هو الحال في صــــورة التدخل الإلهي (سواء بشكل مباشر، أو بشكل غير مباشر من الحذف والإضافة)، وهي " الصورة الثانية ". وقد كتب عالم كبير من علماء المنطق الإنجليز المشهورين السيد " وليم استال " كتاباً ضخماً بعنوان " مبادئ العلم " [2] استنتج في نهايته ما يلي: ــ

" إن الحديث السابق عن حقيقة العلم ونوعيته تظهر منه بوضوح نتيجة فحواها أننا لا نستطيع أبداً إبطال إمكانية التدخل الإلهي في الكائنات، وأنا أري أن القوة التي خلقت الكائنات المادية تستطيع أن تحذف منها وتضيف إليها، ومثل هذه الأحداث يمكن أن تكون ذات معني واحد ويمكننا تصورها، ومع ذلك فإنها ليست مستحيلة التصور مثلما هو الحال في ما يتعلق بالوجود ذاته. "

ولكن الشخص الذي ينكر تماماً هذه القوة الخالقة للكائنات، والذي لا يؤمن مطلقاً بالغيب، والذي يقرر بأن الله والروح والحشر والنشر وغيرها هي المعجــزات بمعني

---

[1] ــ سوف نتعرض بالتفصيل لهذه الأمور في ملحق فلسفة الإسلام إن طال بنا العمر وساعدتنا الصحة.

[2] ــ the princeple of science الحاشية ـــ الطبعة الأخيرة ـــ ١٩١٣ ـــ ص٧٦٦.

الخرافـات والأوهام مثل " ارنست هيجل " الملحد الألماني الشهير، والذي يري أن " اليقين علي المعجزات هو الدليل الأخير علي الجهالة والبربرية، والتي سيكون القضاء عليها انتصاراً للعلم والمدنية. " ([1])، فكيف إذا تتمكن من إقناع مثل هذا الشخص بأن المعجزات من عمل قوة غيبية ما، أو أنها دليل علي ارتباط وعلاقة (نبوة) الشخص الذي صدر منه المعجزة ؟!.

وطبقاً لحقيقة اليقين التي ذكرت سابقاً فإن الإيمان بالغيب ضروري لليقين علي المعجزة باعتبارها آية علي النبوة، وبغير هذا يكون تولد الرغبة في اليقين علي المعجزة أمراً مستحيلاً، ومع ذلك فإن حياة ذلك الشخص الذي تنسب إليه المعجزة والتي ظهرت علي يديه تفسير لقوله تعالي " وإنك لعلي خلق عظيم "، وكمالاته الظاهرة والباطنة بمثابة معجزة في حد ذاتها " وهذه الأشياء تؤدي عمل المؤيدات للرغبة في اليقين "، وآخر شرط وإن كان هو المقدم عليها جميعاً أنه لا يوجد في القلب موانع اليقين من الهوى والغرض والخصومة والعناد والأنانية والمصالح الشخصية مثلما كان الأمر مع فرعون وأبي جهل، وكما أنه لا يمكن لأي دليل أن يجعل الشخص يؤمن بالمعجزات في عدم وجود هذه الشروط، فإنه لا يمكن لأي دليل أيضاً في وجود هذه الشروط أن يمنع من الإيمان بالمعجزات.

لي صديق يعد من المسلمين القلائل المتعلمين تعليماً حديثاً للغاية كان مغرماً قبل سنوات قلائل بالعقلية والعلوم الغربية، وكان من المستحيل أن تجعله يؤمن بوجود الله، لأن ذلك لم يثبت في منطق " مل "، ولا في أبحاث " هكسلي، هيجل "، وكان يري أن العشرات من دقائق علم النفس مرعية في القرآن، وأن الذي جاء بهذا القرآن نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم له مكانة في الصف الأول من صفوف العلماء الكبار والقادة والمصلحين العظماء مثل الإسكندر الأكبر وقيصر وسقراط ونابليون، ولكن عندما تتلى أمامه آيات القرآن باعتبارها كلام الله، أو تشرح حياة النبي صلى الله عليه وسلم المليئة بمكارم الأخلاق علي أنها دليل علي نبوته صلى الله عليه وسلم فإنه كان يعتبر هذا " حلم الجهلاء " ويقابله بالصمت، أو علي الأكثر تصدر منه ضحكة تحقير ليس إلا. وبطبيعة الحال فإن حقيقة روايات المعجزة في هذه الحالة من سوء الاعتقاد لن يكون أكثر من مجرد عشق للخرافات والعجائب وحسن اعتقاد وعدم فهم من الرواة لا أكثر، ومع ذلك فقد

---

[1] ــ انظر كتاب هيجل wonders of life" عجائب الحياة ــــ باب ٣ المعجزات.

تحول عن موقفه هذا تحولاً كاملاً بحيث أصبحت عقليات الغرب وإفرازاته ليست أكثر من أوراق تستحق الإحراق بالنار، وأصبح القرآن الكريم مليئاً " بالحقائق الإلهية " بدلاً من " الدقائق النفسية "، وأصبح كل حرف من حروف " السيرة النبوية " شاهد عدل علي النبوة، ولسانه الذي كان رطب الذكر بأبحاث " جيمس " النفسية الآن أصبح يري منتهى السعادة في الحديث عن مناقب أولياء الله وكراماتهم وكشفهم وفي قضايا التصوف أيضاً، حتى أنه بدأ يتهم أحبابه وناصحيه من الفترة الأولي في حياته بعدم الفهم.

وكانت نتيجة هذا التحول التام أنه أصبح يري الأخلاق الطيبة التي يتحلى بها مؤسس حركة " ترك الموالاة " الحالية في البلاد انعكاساً للكمالات الروحية، فما بالك بالأنبياء العظام عليهم جميعاً الصلاة والسلام، والأكثر من هذا كله أن الكرامات التي تنسب إلي أولئك الأولياء ([1]) من بينها كرامة مشهورة تتحدث عن شيئي كالقطن يخرج من بعض الأشجار، وكان صديقي هذا يعتبر هذا الأمر علامة علي التأييد الغيبي " لحركة ترك الموالاة "، فقلت له إن بعض الناس يقول بأن هذا القطن ما هو إلا سائل تفرزه دودة، فقال: وحتى لو كان الأمر كذلك فإن الله منح تأييده بواسطتها.

فإذا ما وضعنا في اعتبارنا المقدمات السابقة لشروط اليقين وغاية المعجزات، ونظرنا سريعاً إلي حياة ذلك الإنسان الأمي من شبه الجزيرة العربية، ودعوته وتعاليمه، والذي وقف علي جبل الصفا قبل ثلاثة عشر قرناً ونصف وأعلن نبوته، فلقد جعلت أمانة وتدين هذا الإنسان ذي الصفات الملائكية، جعلت أهل وطنه يلقبونه بالأمين، ويعترف بصدقه العدو والصديق علي السواء، والسيدة خديجة رضي الله عنها والتي شرفت بالزواج منه صلى الله عليه وسلم لمدة خمسة وعشرين عاماً، كانت ذات مرة تطمئنه صلى الله عليه وسلم كَلاَّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعِينُ على نوائبِ الحَقِّ.([2])

---

[1] ــ كتب هذا الكلام في الفترة التي كانت فيها حركة ترك الموالاة علي أشدها في البلاد، وكانت مثل هذه الكرامات تتناقلها الألسنة.

[2] – وهذا نص الحديث كاملا: (٣) حدثنا يَحيى بنُ بُكَيْر قال: حدَّثنا اللَّيثُ عن عُقَيلٍ عن ابنِ شِهاب عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ أنَّها قالتْ: أوَّلُ مابُدِيءَ به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لايَرى رُؤيا إلا جاءتْ مِثْلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخْلو بِغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ ــ وهو التَّعَبُّدُ ــ اللياليَ ذواتِ العدَدِ، قَبلَ أن يَنْزِعَ إلى أهلهِ ويتزوَّدُ لِذلكَ، ثم يرْجِعُ إلى خَديجةَ فيَتَزَوَّدُ لمِثلِها، حتَّى جاءهُ الحَق وهوَ في غارِ حِراءٍ، فجاءهُ المَلَكُ فقال: اقرَأْ.

لقد كانت دعوة هذا الذي يواسى الجميع هي: أيها الناس قولوا " لا إله إلا الله " تفلحوا، وعندما تعب سادة قريش من محاولات منعه صلى الله عليه وسلم من هذه الدعوة عرضوا عليه صلى الله عليه وسلم عرش الحكم وكنوز الذهب والجواهر وثروة الجمال، وفي النهاية جاء وقت أراد فيه صلى الله عليه وسلم آخر مواس وملاذ له وهو عمه أبو طالب أن يتخلى عنه، فجاءه الجواب علي لسان أبي العزم من الرسل بقوله: " يا عم! والله لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في يساري علي أن أترك هذا الأمر ما تركته ". وكانت النتيجة المحتومة، أي انتصار الحق، ولكن هل حصل الداعي إلي الحق صلى الله عليه وسلم نفسه علي أي فائدة من وراء هذا الانتصار ؟

لقد كان مال الغنيمة علي كثرته يوضع أمام النبي صلى الله عليه وسلم في صحن المسجد النبوي، ولكن مقسم هذه الغنائم سيد الكونين صلى الله عليه وسلم نفسه يعيش علي حصير من الجلد، أو يجلس علي الأرض بغير حصير، وكان بيت النبوة لا يشعن فيه مصباح بالليل وإن كان في ذاته مظهراً للأنوار الإلهية، وتمر الأيام عليه صلى الله عليه وسلم بلا طعام سوى عدة أحجار مربوطة علي بطنه صلى الله عليه وسلم، يقوم بأعمال البيت بنفسه، يرقع الملابس، يكنس البيت، يحلب اللبن ويشتري حاجياته من الأسواق بنفسه ويخسف نعله بنفسه، ويعقل ناقته ويعلفها بنفسه، ويعجن الدقيق مع خادمه، كانت السيدة فاطمة أحب أولاده إليه، وكانت تعيش حياة عائلية صعبة وقاسية، تركت الرحي

قالَ: ما أنا بِقارىء. قال: فأخذَني فغَطَّني حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرْسَلَني فقال: اقْرأْ. قلتُ: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغَطَّني الثانيةَ حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: اقْرَأْ فقلت: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغَطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: {اقرأ بِاسْم ربِّكَ الذي خَلَقَ، خلقَ الإنسانَ مِنْ عَلَق. اقْرَأْ وربُّكَ الأكرَمُ} فرجعَ بها رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فدخلَ على خَديجةَ بنتِ خُوَيلِدٍ رضِيَ اللهُ عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني. فَزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهبَ عنه الرَّوعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لَقد خَشِيتُ على نَفسِي. فقالت خَديجةُ: كَلاَّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقِّ. فانطَلَقَتْ به خديجةُ حتى أتَتْ بهِ ورقةَ بنَ نوفَلِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى ــ ابنَ عَمِّ خديجة ــ وكانَ امْرَءاً تَنَصَّرَ في الجاهِلِيَّةِ، وكانَ يَكتُبُ الكِتابَ وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: يابنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِن ابنِ أخيكَ. فقال لهُ وَرَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا تَرَى؟ فأخبرَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خبرَ مارأى. فقال له ورقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسى، يالَيْتَني فيها جَذَعٌ، لَيْتَني أكونُ حَيّاً إذْ يُخْرِجُكَ قَوْمُك. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قال: نَعم، لمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ماجِئْتَ بهِ إلاَّ عُودِي، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤَزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ (يوسف عامر).

آثارها علي يديها، وآلمها صدرها كثيراً مما كانت تحمله عليه من إناء الماء. .....
وتمزقت ملابسها مما تبذله من جهد في كنس وتنظيف البيت، وبالرغم من كل هذا فإنها عندما طلبت من أبيها صلى الله عليه وسلم خادمة تقوم بأعمال البيت، وأرته أثر الرحى علي يديها رفض رسول الله صلى الله عليه وسلم ذلك تماماً وأخبر بأن هذا حق الفقراء واليتامى.

ولم يكن الرسول بعيداً عن كل رفاهيات الحياة فقط، بل إن أعداء الدين كانوا يذيقونه أنواع الأذى، كانوا يشتمونه (مع أن يده صلى الله عليه وسلم لم ترتفع أبداً إلا للدعاء لهم، وكان يأمر بحسن معاملتهم.)، وكانوا يلقون بالأشواك في طريقه، ويضعون النجاسات علي جسده الشريف أثناء صلاته. ذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يصلي في الحرم، فجاء عقبة بن معيط ولف رداءاً حول عنقه صلى الله عليه وسلم، وجذبه بقوة حتى وقع رسول الله صلى الله عليه وسلم علي ركبتيه، ومع ذلك فقد استمرت الدعوة إلي الحق ونشر تعاليم الفلاح والخير بلا أدني شائبة من التردد، لماذا ؟ لأنه صلى الله عليه وسلم كان علي يقين من كونه مبعوثاً من الله، وأنه ناصره ومعينه، وأن الباطل زهوق والحق منتصر مثلما أنت متيقن بأن الصبح يطلع بعد ظلام الليل، وضاق أبو طالب بإيذاء الكفار وعداوتهم ذرعاً، فكان يقول له صلى الله عليه وسلم: يا بني، ارفع يدك من هذا الأمر. وكان صلى الله عليه وسلم يخبره بألا يفكر في وحدته، فإن الحق لا يبقي وحيداً لفترة طويلة، ويوماً ما سيتبعه العرب والعجم. وخرج كفار قريش في تعقبه صلى الله عليه وسلم بنية قتله، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم مختبئاً في غار ثور، فلما اقتربوا منه اضطرب رفيقه في الغار سيدنا أبو بكر رضي الله عنه وقال: لقد اقتربوا منا كثيراً بحيث لو نظر أحدهم تحت قدميه لرآنا، فقال صلى الله عليه وسلم: اسكُتْ يا أبا بكر، اثنانِ اللهُ ثالثُهما».[1] وذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستريح تحت شجرة وحيداً، وإذ بأعرابي ــ أغلب الظن أنه كان يتحين هذه الفرصة ــ يأتي، ويتناول سيف رسول الله صلى الله عليه وسلم من علي الشجرة وهو نائم، ويسحبه من غمده ويقف

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري،كتاب مناقب الأنصار، باب هجرة النبي ﷺ: (٣٨٣٥) ــــ حدَّثنا موسىٰ بنُ إسماعيلَ حدثَنا همَّامٌ عن ثابتٍ عن أنسٍ عن أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال: «كنــتُ مــع النبيِّ صلى الله عليه وسلم في الغارِ، فرفعت رأسي فإذا أنا بأقدام القَومِ، فقلتُ: يا نبيَّ اللهِ لو أنَّ بعضَهم طأطأ بصَرَهُ رآنا. قال: اسكُتْ يا أبا بكر، اثنانِ اللهُ ثالثُهما». (يوسف عامر).

أمامه صلى الله عليه وسلم، فانتبه رسول الله صلى الله عليه وسلم من نومه، ورأى الأعرابي شاهراً السيف في وجهه، فقال الأعرابي للرسول صلى الله عليه وسلم: يا محمد من ينجيك الآن ؟ وجاء صوت رسول الله في اطمئنان تام قائلاً: الله.

ألا يكفي هذا الصوت ليكون معجزة للظامئين للإسلام، وهل يتصور من هذه الشفاه التي خرج من بينها الصوت أنها لكاذب، لقد كان نتيجة ذلك أن سيدنا عبد الله بن سلام صاح قائلاً ليس هذا بوجه كذاب.

كانت هذه بعض قطرات قليلة من بحر، ورغم أن الإنسان لا يستطيع أن يبرز ملامح السيرة النبوية كما حقها بقلمه العاجز، إلا أنك تستطيع من خلال الجزءين السابقين من كتاب ســيرة النبي هذا، والذي استقينا منه هذه القطرات المتفرقة، أن تعرف أن ظهور هذه " الجامعية الكبرى " لقوله تعالي " وإنك لعلي خلق عظيم " بداخل هذا الإنسان من البشر هو في ذاته إعجاز كبير لا يمكن أن تطلب أو تقدم بعده معجزة أكبر منه، فإذا ما ذكرت واقعة عن هذه الشخصية الجامعة، والإعجاز المجســم كعلامة أو دليل علي التأييد الغيبي من قبل الله تعالي لصاحب السيف والتاج، للدرويش والملك، للزاهــد وفاتح البلاد، للقانع والغني، لمن كان لسانه مشغولاً دائماً بذكر الله وتسبيحه وتهليله، لمن كانت قدماه تتورم من القيام للصلاة طيلة الليل، فكيف يتردد من يؤمن بالله وبالغيب في قبولها والإيمان بها واليقين عليها، لكن ذلك الذي ينكر الله والغيب مثل " هيجل " أو يعتقد في نفسه إلهاً مثل فرعون " أنا ربكم الأعلى "، أو سوّد ظلام الكفر والعناد قلبه مثل أبو جهل وأبي لهب، إذا ما قدمت له أكبر المعجزات وأعظمها فلن يكون جوابه أكثر من " هذا سحر مستمر "

كان هذا هو السّر في أننا نجد في كتب السيرة النبوية قلة قليلة من الوقائع التي تدل علي تصديق الناس للرسالة المحمدية بناءاً علي المعجزات، بل إن آلاف الذين آمنوا في عهد الرسالة هم أولئك الذين كان طعم الإيمان في قلوبهم، وكان وجه النبي صلى الله عليه وسلم وصوته الشريف هو المعجزة الأصلية لهم، ورغم أن هذا الوجه وهذا الصوت ليس معنا اليوم، لكن سيظل الإنسان المعنوي " القرآن" والسيرة الطيبة لوجه النبي صلى الله عليه وسلم يمثلان معجزة لأولئك الذين يتذوقون طعم الإيمان إلي أبد الآبدين.

الخلاصة

وهذه هي خلاصة المباحث السابقة: ـــ

١. المعجزة اسم لظهور حادثة ما فيما يتعلق بإنسان جامع لمكارم الأخـلاق وللأوصاف النبوية، لم يمكن توجيهها علي الأقل وقت ظهورها بالأسباب والعلل العامة.

٢. ظهور مثل هذه الحوادث في ذاته ليس مستحيلاً عقلياً، وإنما تكون علي أكثر تقدير أحداث مستبعدة ومحيرة للغاية، ولذا فمن الطبيعي أن يتطلب قبولها شهادة غير عادية تماماً.

٣. لكن هذا الاستبعاد ليس إلي الحد الذي لا نجد معه أمثلة مشابهة في الحياة العامة، والتي لا تطلب من أجل تصديقها شهادة غير عادية، ولذا فإن الشهادة العادية يمكن أن تكون كافية لليقين علي المعجزات.

٤. لكن اليقين لا يتأتى من الأشياء الخارجية مثل الشهادة وغيرها، بل إنه يعتمد بشكل كبير علي الرغبة في اليقين وموانعها ومؤيداتها، والتي تتعلق إلي حد كبير بالمعتقدات والادعاءات السابقة للمتيقن نفسه.

٥. يتوقف تولد الرغبة في اليقين علي المعجزات علي الإيمان بالغيب.

٦. فإن كان هناك إيمان بالغيب، ولم تكن هناك موانع التعصب والعناد مثل فرعون وأبي جهل، وقائم ذلك كون نبوة الأنبياء وأحوالهم وأخلاقهم هي بذاتها مؤيدة للنبوة، فعند ذلك لا تكون المعجزة هي الخارقة للعادة فقط، بل إن صوت النبي نفسه يصبح معجزة.

الأنبياء والآيات والدلائل:

إن ما ذكر في الصفحات السابقة هو شرح للأفكار والتصورات الإنسانية ومحاولة للوصول إلي التمكن منها، لكن المنبع الأصلي للهداية والإرشاد لدي المسلمين هو القرآن الكريم، ولهذا فإن القرار الأخير فيما يتعلق بالآيات والدلائل يجب أن يكون في عدالته، ونجد في القرآن الكريم ذكر لتلك الآيات والمعجزات التي نزلت علي الأنبياء الكرام في ثنايا الحديث عن حياتهم وأحوالهم، ويُعلم منها أن هذه الآيات والدلائل هي جزء ضروري من سيرة الأنبياء، وقد وردت معجزات سيدنا موسى وسيدنا عيسي في القرآن الكريم

بشكل تفصيلي ومكرر، إذ أن قومي هذين النبيين كانا موجودين بين العرب وقت نزول القرآن، وقدم الإسلام مبادئه ومطالبه أمامهما.

وقد وردت آيات ودلائل الأنبياء التالية أسماؤهم من بين الأنبياء الذين ورد ذكرهم في القرآن الكريم وهم سيدنا نوح، سيدنا لوط، سيدنا صالح، سيدنا شعيب، سيدنا هود، سيدنا زكريا، سيدنا يونس، سيدنا موسى، سيدنا عيسي وسيدنا محمد صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين، وصمت القرآن عن ذكر آيات ودلائل بعض الأنبياء مثل سيدنا إسحاق، سيدنا إسماعيل، سيدنا ذي الكفل، سيدنا اليسع وغيرهم، ولكن هذا الصمت لا يعني أن الله لم ينزل عليهم آية أو دليل، وقد قال صلى الله عليه وسلم فيما ذكره البخارى ([1]) ومسلم ([2]) ما من الأنبياء نبي إلا أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر.

إلا أنه يبدو من مطالعة أحوال الأنبياء الكرام أن الآيات والدلائل العظيمة قد أنزلت علي أولئك الأنبياء الذين عانوا معاناة شديدة من المعاندين والمنكرين، وهؤلاء الأنبياء هم الذين كانوا في حاجة ماسة إلي وسيلة لتفنيد عنادهم وإنكارهم، أما باقي الأنبياء فقد أرسلوا إلي أقوامهم للتجديد والإصلاح فقط، ولم يكونوا في حاجة إلي هذا النوع من الدلائل، إذ لم تظهر أقوامهم عناداً وإنكاراً لدعوتهم.

القرآن المجيد واصطلاح الآيات والدلائل:

وقد عبر القرآن الكريم عموماً عن تلك المعجزات بلفظ " آية ":

" كلما جاءهم موسى بآياتنا قالوا ما هذا إلا سحر مفترى " (القصص ٤)

" فأرسلنا عليهم الطوفان والجراد والقمل والضفادع والدم آيات مفصلات "(الأعراف ١٦)

---

[1] ــ كتاب الاعتصام باب قول النبي صلى الله عليه وسلم بعثت بجوامع الكلم. وهذا نص الحديث: (٧١١٢) ــــ حدَّثنا عبدُ العزيز بنُ عبدِ اللَّه حدَّثنا الليثُ عن سعيد عَن أبيه عن أبي هريرةَ عنِ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما منَ الأنبياءِ نبيٌّ إلاّ أُعطيَ منَ الآيات ما مثلهُ أُومن ــ أو آمن ــ عليه البشر، وإنما كان الذي أُوتيتهُ وَحْياً أَوحاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجو أني أكثرُهم تابعاً يومَ القيامة». (يوسف عامر).

[2] ــ كتاب الإيمان ــ باب وجوب الإيمان برسالة نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، علي جميع الناس ونسخ الملل والنحل. وهذا نص الحديث: (٣٤١) ــــ حدَّثني يُونُسُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَىٰ: أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ قَالَ: وَأَخْبَرَنِي عَمْرٌو أَنَّ أَبَا يُونُسَ حَدَّثَهُ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ عَنْ رَسُولِ اللّهِ أَنَّهُ قَالَ: «وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لاَ يَسْمَعُ بِي أَحَدٌ مِنْ هٰذِهِ الأُمَّةِ يَهُودِيٌّ وَلاَ نَصْرَانِيٌّ، ثُمَّ يَمُوتُ وَلَمْ يُؤْمِنْ بِالَّذِي أُرْسِلْتُ بِهِ، إلاَّ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ».(يوسف عامر).

ويقول فرعون لسيدنا موسى: ــ

" إن كنت جئت بآية فأت بها إن كنت من الصادقين، فألقي عصاه فإذا هي ثعبان مبين " (الأعراف ١٣)

ويطلب الكفار معجزة فيأتيهم الجواب: ــ

" إنمــــا الآيـــــات عنـــــد الله " (الأنعام ٤)

" إنمــــا الآيـــــات عنـــــد الله (العنكبوت ٥)

ويقول الكفار: ــ

" فليأتنا بآيـــة كما أرسل الأولون " (الأنبياء ١)

ويقول سيدنا صالح عن معجزته: ــ

" ويا قوم هذه ناقـــة الله لكم آيـــة " (هود ٦)

حقيقة لفظ " أيـــة " و " معجزة ":

والآية تعني العلامة، وما وسائل العلم والإحساس التي منحها الله للبشر إلا تذكرة للآيات والعلامات في الحقيقة، بمعني كيف تعرف وتتعرف علي كل الأشياء الموجودة في العالم ؟ إنه بالآيات والعلامات فقط، وكل علم نحصل عليه من الخارج بداية من الكليات والقواعد وحتى الجزئيات نعرفها عندما نري العلامات فقط فنعرف أن هذا حصـــان وهذا إنسان، وهذه شجرة، وهذه تفاحة، وهذا عنب، لكن كيف نعرف هذا ؟ عن طريق العلامات الخاصة بتلك الأشياء والمحفوظة في ذهننا بشكل مستقل لكل شيء، وعن طريق هذه العلامات نقـول أن هذا هو الشيء الفلانى، إننا نعرف أن هذا زيد، وهذا عمر، وهذا صديقي، وهذا حصاني، وهذا بيتي، وكل ذلك يتم من خلال العلامات، فإذا ما محيت العلامات الخاصة بكل شيء في هذا العالم فإننا تأكيداً لن نستطيع التعرف علي شيء، ولن نعرفه.

وهذه العلامات والآيات الخاصة بالتعرف علي الأشياء هي التي تخلق الفرق بين الإنسان والحيوان، والعاقل والأحمق، ومن تكون لديه قوة في التعرف علي الآيات والعلامات والتمييز يكون كمال عقله وعلمه بنفس القدر من القوة، وما أكثر استدلالاتنا المنطقية إلى هذه الآيات والعلامات، وإذا ما أردنا أن نقيم دليلاً علي شيء ندعيه فإنه يكون من خـــلال تلك الآيات والعلامات، ليس هذا فقط، بل إن كل تجربتنا ومشاهداتنا، بل والعلوم الطبيعية والكيميائية والنباتات والحيوانات وعلوم الأرض والهندسة

والرياضيات وغيرها من العلوم ما هي إلا مجموعة من العلامات المميزة نحصل من خلالها علي معرفة الجزئيات بشكل مباشر، ومن خلال هذه نعد القواعد والكليات.

المهم أن كل فنون استدلالاتنا تعتمد علي هذه الآيات والعلامات، فإذا محيت علامات وآيات الأشياء فلن نستطيع التعرف علي أي شيء، ولن نستطيع أن نقيم الدليل علي أي شيء، إننا نستدل علي المعلول بالعلة، وعلي العلة بالمعلول، ولكننا عرفنا بالتجربة من خلال تلك الآثار والعلامات أن الشيء عندما يوجد تظهر معه آثاره وآياته، وبالتالي نستدل أحياناً علي أن هذا الشيء قد وجد لأن علامته قد ظهرت، ولهذا فإنه شيء أيضاً، وهذا استدلال بالمعلول علي العلة، ونستدل أحياناً علي وجود الحرارة بوجود النار، وأحياناً علي وجود النار بوجود الحرارة.

لو أننا وصلنا إلي مكان مهجور، ووجدنا هناك مبني عظيماً، عندئذ فبالرغم من أننا لم نر من قام ببناء هذا المبني، إلا أننا برؤية هذا المبني نتيقن من أنه من عمل مهندس ما. ولو وجدنا رجلاً جريحاً وحيداً في كوخ في غابة، ولكننا رأينا جرحه نظيفاً ومضمداً بشكل جيد، وكل أدواته وأمتعته مرتبة بشكل جيد، عندئذٍ وبرغم أننا لم نر من يقوم بعلاجه إلا أن الآثار والعلامات من حوله تدل علي أن هناك من يعالجه وهو إنسان رحيم وعطوف يهتم به ويرعاه، وعندما يأتي شخص ويقول " أنا طبيب "، ويأتيه المرضى، ويكتب الله لهم الشفاء بما يصفه لهم من أدوية، عندئذٍ وبرغم أننا لم نره حال تحصيله لعلم الطب، إلا أن الآثار والعلامات حوله تجعلنا نصدق دعواه، هذا هو فن الاستدلال لدينا، وعليه يعتمد حصولنا علي العلم.

آيات الله:

ولقد وردت كلمة " آية " في القرآن الكريم كثيراً بمعان يصعب حصرها، ونحن ننقل هنا بعض الآيات التي توضح مفهومها: ـــ

" إن في السماوات والأرض لآيات للمؤمنين وفي خلقكم وما يبث من دابة آيات لقوم يوقنون واختلاف الليل والنهار وما أنزل الله من السماء من رزق فأحيا به الأرض بعد موتها وتصريف الرياح آيات لقوم يعقلون تلك آيات الله نتلوها عليك بالحق فبأي حديث بعد الله وآياته يؤمنون " (الجاثية ١)

" إن في خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى في البحر بما ينفع الناس وما أنزل الله من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث

فيها من كل دابة وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والأرض لآيات لقوم يعقلون " (البقرة ٢)

" وهو الذي أنزل من السماء ماءاً فأخرجنا به نبات كل شيء فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكماً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبهاً وغير متشابه انظروا إلي ثمره إذا أثمر وينعه إن في ذلكم لآيات لقوم يؤمنون " (الأنعام ١٢)

" هو الذي جعل لكم الليل لتسكنوا فيه والنهار مبصرا إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون" (يونس)

" ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون ومن آياته خلق السماوات والأرض واختلاف ألسنتكم وألوانكم إن في ذلك لآيات للعالمين ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون ومن آياته يريكم البرق خوفاً وطمعاً وينزل من السماء ماءً فيحيى به الأرض بعد موتها إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون ومن آياته أن تقوم السماء والأرض بأمره " (الروم ٣)

" ومن آياته الليل والنهار والشمس والقمر " (فصلت٥)

هذه الآيات علامات علي وجود الله وعلي صفاته الكاملة، ومثلما يدل المبني في المكان المهجور علي وجود المهندس، ومثلما يُظهر علاج الجريح وتضمين جراحه والاهتمام بوسائل راحته صفات الرحمة والكرم لدي المعالج، فإن المبني العظيم لهذا العالم، والذي تمثل السماء سقفه، وتمثل الأرض صحنـــه، يدل علي وجود صانع وخالق، ويبرز ما بداخل الأرض وخارجها من سحاب ومطر، وليل ونهار، وقمر وشمس وأشجار وفواكه بأنواعها، وكذلك أدوات ووسائل حياة الأحياء علي الأرض رحمة الخالق والصانع وكرمه وعطائه ومنحه وصفات الكمال الأخرى لديه، وتدل علي علاقة خاصة للخالق مع المخلوقات كلها واعتناء بها، بينما يتولد الكفر وينمو في قلوب أولئك الذين لا يتفكرون في هذه الآيات، ولا يحاولون فهم تجلي تلك الذات من خلال تلك الآيات: ـــ

" وتلك عادٌ جحدوا بآيات ربهم " (هود ٥)

" أولئك الذين كفروا بآيات ربهم " (الكهف ١٢)

" ولا تكونن من الذين كذبوا بآيات الله " (يونس ١٠)

" فمن أظلم ممن كذب بآيات الله " (الأنعام ٢٠)

ومثلما تُظهر هذه الآيات العلاقة والارتباط بين العبد وبين الله، وبين الخالق والمخلوق، فإن الله تعالي يظل يظهر علاقتـــه وارتباطه بعبد خاص من عباده عن طريق الآيات والعلامات المخصوصة: ــ

١ــ يأتي الأنبياء وحدهم إلي الشعوب حاملين في يدهم مشعل النور الإلهي في أكثر عهود هذه الشعوب ظلاماً، ويريد الناس إطفاء هذا النور، ويريدون قطع تلك اليد التي تحمل المشعل بالسيف والخنجر، ولكن ذلك الشمع الإلهي يظل ينشر النور الإلهي ويوسع من دائرته تدريجياً بدلاً من أن ينطفئ، وفي النهاية يصل حتى أطراف الأرض.

" يريدون ليطفئوا نور الله بأفواههم والله متم نوره ولو كره الكافرون، هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله ولو كره المشركون " (الصف ١)

٢ــ انتشار هذا النور الإلهي بالرغم من كل محاولات المعاندة والجهود المخالفة هو بذاته شهادة علي أنه من عند الله، وأن هناك قوة غير مرئية من قبل الله تعمل في يد حامل هذا المشعل.

" وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي " (الأنفال ٢)

وتعينه التأييدات الإلهية في كل خطوة من خطواته:

" إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون " (الحجر ١)

٣ــ تكون كل صفحة من صفحات صحيفة حياة النبي نقية من كل العيوب الأخلاقية، ويكون صدقه وقوله الحق مشهود به لدي العدو والصديق، وقد شهد الكفار لسيدنا صالح عليه السلام قائلين:

" يا صالح قد كنت فينا مرجواً قبل هذا " (هود ٦)

واضطروا إلي الاعتراف بأن سيدنا شعيباً كثير العبادة بالرغم من مخالفتهم له:

" يا شعيب أصلواتك تأمرك أن نترك ما يعبد آباؤنا " (هود ٨)

وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم يقدم حياته في شهادة:

" فقد لبثت فيكم عمراً من قبله أفلا تعقلون " (يونس ٢)

٤ــ وفي النهاية تظهر علامات عجيبة وغريبة وفوق الفهم في تبليغ الدعوة، وفي نشر الدين الإلهي ونصرته، وفي هزيمة المخالفين ودحرهم، وفي حصول الصحابة علي مزيد من الإيمان والاطمئنان، وهو ما يعرفه العامة باسم " المعجزات "

المهم أن هذه هي الأمور التي تبرز الارتباط الخاص والعلاقة الخاصة بين خالق الفطرة والداعي إلي الحق، وهي التي يعلم منها أنه مرسل من قبل الله تعالي.

الآيات والدلائل قسمان: " ظاهري وباطني ":

ويتضح من التفصيل السابق أن الآيات والعلامات قسمان:

أحدهما: ظاهري ومادي، والآخر: باطني وروحاني. أما الآيات والدلائل المادية فهي الخوارق التي يسميها الناس بشكل عام " المعجزات " مثل إحياء الموتى، وتحول العصا إلي حية تسعي، ونبع الماء من بين الأصابع وشفاء المرضي وغيرها، بينما تكون الآيات والدلائل الباطنية والروحانية تأييد لفلاح وإرشاد وتعاليم وهداية وتأثير وتزكية ومعصومية وصدق مدعي النبوة، وهذه الآيات والآثار الباطنية في نظر العارفين بالحقيقة هي العلامات الحقيقية للنبوة. أما العلامات الظاهرية فهي لأصحاب النظرة السطحية والذين يتوقفون عند الظاهر، ويرون الأشياء بعين الظاهر.

العلامات الباطنية للنبوة في ضوء الأحداث:

لقد بينا أن للنبوة قسمين من العلامات هما: الظاهرة والباطنة، ورجحنا العلامات الباطنة علي العلامات الظاهرة، وقلنا أن العارفين بالحقيقة يطلبون العلامات الباطنة فقط، وسوف نبين فيما بعد أن القرآن الكريم أيضاً يؤكد أن هذه هي العلامات الأصلية للنبوة، ونحن هنا نوضح في ضوء الأحداث أن أهل النظر في العهد النبوي أيضاً كانوا يبحثون عن تلك العلامات، ولذلك فإنه بغض النظر عن أولئك الذين صدقوا النبوة، لننظر إلي أولئك اليهود والنصارى في ذلك العهد والذين لم يجرؤا لسبب أو لآخر علي إعلان تصديقهم للنبوة، إلا أنهم كانوا قد تأثروا من داخلهم بالفعل.

لم يكن هناك شخص في العرب يعرف العلامات الإلهية أكثر من بني إسرائيل، ولقد جاء كثير من اليهود المتشككين إلي حضرة النبي صلى الله عليه وسلم وامتحنوه، وحاولوا قدر إمكانهم، لكن ماذا كان امتحانهم ومحاولاتهم ؟ كان عبارة عن اختبار لأخلاق النبي صلى الله عليه وسلم، وكانوا يطلبون منه صلى الله عليه وسلم إجابة للأسئلة التي وردت في صحف أنبياء بني إسرائيل، وكانوا يدرسون تعاليمه صلى الله عليه وسلم بعمق، ولم يطالبه واحد من هؤلاء بمعجزة خارقة للعادة، لأنهم كانوا يعلمون أن مثل هذا الأمر يمكن أن يقوم به الآخرون أيضاً، وهذه الخوارق ليست علامات باطنية وداخلية علي النبوة، وكانت بشارات وصفات النبي القادم مذكورة في التوراة والإنجيل، ولكن لم

يذكر في أي منها أن من صفات هذا النبي أنه صاحب خوارق، ويُظهر معجزات مادية، بل إن أوصافه صلى الله عليه وسلم التي جاءت في التوراة كانت أنه صلى الله عليه وسلم سيخرج من " فاران "، وسيأتي ومعه عشرة آلاف قدوسي، وستكون معه شريعة نارية، وسيكون عابداً مطيعاً لأحكام الله، وسيولد في أولئك الذين يختتنون (العرب). أما الإنجيل فقد ذكر أنه صلى الله عليه وسلم سيكون روح السكينة، وسيكمل تعاليم المسيح التي لم تكتمل، وسيتكلم بلسان الله.

لقد جاء إليه صلى الله عليه وسلم مئات من اليهود والنصارى واختبروا نبوته، لكن لم يكن ضمن مادة هذا الامتحان سؤال المعجزات المادية، وإنما كانت استفسارات دينية وعلمية عادية. وقد ردّد القرآن الكريم سؤالين من أسئلتهم:

" يسألونك عن ذي القرنين " (الكهف)

" يسألونك عن الروح "

ففي السؤال الأول سألوا عن قصة " ذي القرنين "، وفي السؤال الثاني استفسروا عن حقيقة الروح، بالإضافة إلي ذلك فقد ذكر القرآن المجيد أسئلة واعتراضات كثيرة لأهل الكتاب، ولكن لم يكن من بينها كلها من قال للنبي صلى الله عليه وسلم بأن عليك أن تقدم لنا معجزة خارقة للعادة لتثبت صدق نبوتك، وإنما كانوا يسألون نفس السؤال الذي يتعلق بعلم النبي وعمله وتعاليمه وتزكيته. ولقد جمعنا في باب تال كل أسئلة الاختبارات التي طرحها اليهود، وتستطيع بعد قراءتها أن تصدر حكماً صحيحاً، وقد ورد في القرآن الكريم سؤال منهم يبدو منه أنه كان لديهم رغبة في طلب معجزة مادية من الرسول صلى الله عليه وسلم: " يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء " (النساء ٢٢)

لكن الحقيقة هي أن ذلك لم يكن طلباً للمعجزة من اليهود، ولكن لأنهم كانوا يتصورون بالنسبة للتوراة أن يقدم آية معجزة علي النبوة، في حين أنه لو كانت خوارق العادة علامات حقيقية علي النبوة لكان علي القيصر النصراني أن يسأل هذا السؤال قبل كل شيء.

لقد تحدث سيدنا جعفر رضي الله عنه في بلاط النجاشي عن الإسلام فقال: أيها الملك لقد كنا قوماً جهلاء، كنا نعبد الأصنام، ونأكل الميتة، ونفجر ونفسق، ونظلم الجار ويظلم الأخ أخاه، ويأكل القوى الضعيف، وفي أثناء ذلك ولد بيننا شخص كنا نعرف عن شرفه وصدقه وتدينه، دعانا إلي الإسلام، وعلمنا أن نترك عبادة الأحجار، وأن نقول

الصدق، وأن لا نسفك الدماء، ولا نأكل مال اليتامى، ولا نؤذي الجار ولا نقذف المحصنات ونصلي ونصوم ونزكي، وآمنا به، وتركنا الشرك وعبادة الأصنام وتركنا أعمال السوء كلها ([1])

وعندما جاء نصارى نجران إلي النبي صلى الله عليه وسلم تلا عليهم بعض آيات القرآن، ورأوا أحوال المسلمين الروحانية، وسألوا عما يقوله الإسلام بخصوص سيدنا عيسي عليه السلام، وبعد ذلك أراد الرسول صلى الله عليه وسلم مباهلتهم ومناظرتهم طبقاً لحكم القرآن الكريم، لكنهم لم يوافقوا علي ذلك، وقالوا لأنفسهم إن كان هذا نبياً حقيقة فسوف يصيبنا نحن الدمار، وفي النهاية صالحوه صلى الله عليه وسلم علي خراج سنوي، انظر، لقد اختبروا تعاليم الإسلام بمختلف الطرق، لكنهم لم يطلبوا منه صلى الله عليه وسلم علامة ظاهرية لإثبات دعواه.

وادرس إن شئت شخصية أولئك العرب العارفين بالحقيقة. فقد آمن منهم آلاف الأشخاص بنبوته صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء تشهد أحوالهم وأحداث حياتهم علي فضلهم وكمالهم ورجاحة عقلهم وفهمهم وذكائهم، ولكن بعدما رأوا الآيات الباطنية لم يطلب أحد منهم علامات ظاهرية، لقد كانت السيدة خديجة رضي الله عنها أول من أسلم من المسلمين، فعندما قص الرسول صلى الله عليه وسلم علي السيدة خديجة رضي الله عنها مشاهداته الروحانية في بداية الوحي آمنت به، ولكن كيف آمنت ؟ يتضح هذا من إجابتها علي رسول الله صلى الله عليه وسلم عندما ذكر لها خوفه باعتبار ما تقتضيه بشريته بقولها: " **كَلاَّ والله ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدُومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقِّ.**" (البخاري ــ بدء الوحي)([2])

---

[1] ــ مسند ابن حنبل ــــ الجزء الأول ــــ ص ٣٠٢.

[2] – وهذا نص الحديث كاملا: (٣) حدثنا يَحيى بنُ بكَيْر قال: حدَّثنا اللَّيثُ عن عُقَيلٍ عن ابنِ شِهابٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ أنَّها قالتْ: أوَّلُ مابُدِىءَ به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم مِنَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لايَرى رُؤيا إلا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخْلو بِغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ ــ وهو التَّعَبُّدُ ــ الليالي ذواتِ العدَدِ، قَبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلِه ويَتَزوَّدُ لذلكَ، ثم يرْجِعُ إلى خَدِيجةَ فيَتَزَوَّدُ لمثلِها، حتَّى جاءهُ الحَق وهوَ في غارِ حِراءٍ، فجاءهُ المَلَكُ فقال: اقرَأْ. قالَ: ما أنا بِقارىءٍ. قال: فأخذَني فغَطَّني حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرْسَلَني فقال: اقْرَأْ. قلتُ: ما أنا بقارىءٍ. فأخَذَني فغَطَّني الثانيةَ حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرسلَني فقال: اقرَأْ فقلت: ما أنا بقارىءٍ. فأخَذَني فغطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسلَني فقال: {اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ، خلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَق. اقْرَأْ ورَبُّكَ الأكْرَمُ}

وعندما علم سيدنا أبو ذر رضي الله عنه بحال بعثته صلى الله عليه وسلم طلب من أخيه أن يذهب إلي ذلك الشخص، ويري إن كان لديه خبر من السماء فيما يدعيه، وذهب الأخ إلي مكة، وبحث في الأمر وعاد يقول لأبي ذر رضي الله عنه: رأيته يأمر بمكارم الأخلاق ويقول كلاماً ما هو بالشعر. (مسلم ــ مناقب أبي ذر) ([1])

فرجعَ بها رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فؤادُهُ، فدخلَ على خَديجةَ بنتِ خُوَيلدٍ رضيَ اللهُ عنهـا فقال: زَمِّلوني زملوني. فزَمَّلوهُ حتَّى ذَهبَ عنه الرَّوعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لقد خَـشيتُ علـى نَفسي. فقالت خَديجةُ: كَلاَّ واللهِ ما يُخزيكَ اللهُ أبداً، إنكَ لتَصلُ الرَّحمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْـسبُ المَعْـدومَ، وتَقري الضَّيفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقِّ. فانطَلَقَتْ به خديجةُ حتى أتتْ بهِ ورقةَ بنَ نوفلِ بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى ــ ابنَ عَمِّ خديجة ــ وكانَ امرَءاً تَنَصَّرَ في الجاهليَّةِ، وكانَ يَكتُبُ الكِتابَ وكانَ شيخاً كبيـراً قـد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: ياابنَ عَمِّ، اسمعْ مِن ابنِ أخيكَ. فقال لهُ وَرَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا تـرَى؟ فـأخبرَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خبرَ مارأى. فقال له ورَقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ علـى مُوسـى، ياليتني فيها جَذَعٌ، ليتني أكونُ حَيّاً إذ يُخرجُكَ قَومُكَ. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخرِجِـيَّ هُمْ؟ قال: نعم، لمْ يأتِ رَجُلٌ قطُّ بِمثْلِ ماجِئتَ بهِ إلاَّ عُودي، وإنْ يُدرِكْني يَومُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفتَرَ الوَحْيُ (يوسف عامر).

[1] – وهذا نص الحديث كاملا: (٦٣١٥) ـــ وحدّثني إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُحَمَّدِ بْنُ عَرْعَرَةَ السَّامِيُّ وَ مُحَمَّدُ بْـنُ حَاتِمٍ وَتَقَارَبَا فِي سِيَاقِ الْحَدِيثِ. وَاللَّفْظُ لابْنِ حَاتِمٍ قَالاَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بْنُ مَهْدِيَ. حَدَّثَنَا الْمُثَنَّـىٰ بْـنُ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي جَمْرَةَ، عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: لَمَّا بَلَغَ أَبَا ذَرَ مَبْعَثُ النَّبِيِّ بِمَكَّةَ قَالَ لأَخِيهِ: ارْكَبْ إِلَىٰ هَـذَا الْوَادِي. فَاعْلَمْ لِي عِلْمَ هٰذَا الرَّجُلِ الَّذِي يَزْعُمُ أَنَّهُ يَأْتِيهِ الْخَبَرُ مِنَ السَّمَاءِ. فَاسْمَعْ مِنْ قَوْلِـهِ ثُـمَّ ائْتِنِـي. فَانْطَلَقَ الآخَرُ حَتَّىٰ قَدِمَ مَكَّةَ. وَسَمِـعَ مِنْ قَوْلِهِ. ثُمَّ رَجَعَ إِلَىٰ أَبِي ذَرَ فَقَالَ: رَأَيْتُهُ يَأْمُرُ بِمَكَارِمِ الأَخْـلاَقِ. وَكَلاَماً مَا هُوَ بِالشِّعْرِ. فَقَالَ: مَا شَفَيْتَنِي فِيمَا أَرَدْتُ. فَتَزَوَّدَ وَحَمَلَ شَنَّةً لَهُ، فِيهَا مَاءٌ. حَتَّىٰ قَدِمَ مَكَّةَ. فَأَتَىٰ الْمَسْجِدَ فَالْتَمَسَ النَّبِيَّ وَلاَ يَعْرِفُهُ. وَكَرِهَ أَنْ يَسْأَلَ عَنْهُ. حَتَّىٰ أَدْرَكَـهُ ـــــــ يَعْنِـي اللَّيْـلَ ــــــــ فَاضْطَجَعَ. فَرَآهُ عَلِيٌّ فَعَرَفَ أَنَّهُ غَرِيبٌ. فَلَمَّا رَآهُ تَبِعَهُ. فَلَمْ يَسْأَلْ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَـيْءٍ. حَتَّـىٰ أَصْبَحَ. ثُمَّ احْتَمَلَ قُرَيْبَتَهُ وَزَادَهُ إِلَىٰ الْمَسْجِدِ. فَظَلَّ ذٰلِكَ الْيَوْمَ. وَلاَ يَرَىٰ النَّبِيَّ. حَتَّىٰ أَمْـسَىٰ. فَعَـادَ إِلَـىٰ مَضْجَعِهِ. فَمَرَّ بِهِ عَلِيٌّ. فَقَالَ: مَا أَنَى لِلرَّجُلِ أَنْ يَعْلَمَ مَنْزِلَهُ؟ فَأَقَامَهُ. فَذَهَبَ بِهِ مَعَهُ. وَلاَ يَسْأَلُ وَاحِدٌ مِنْهُمَا صَاحِبَهُ عَنْ شَيْءٍ. حَتَّىٰ إِذَا كَانَ يَوْمُ الثَّالِثِ فَعَلَ مِثْلَ ذٰلِكَ. فَأَقَامَهُ عَلِيٌّ مَعَهُ. ثُمَّ قَالَ لَهُ: أَلاَ تُحَدِّثُنِي؟ مَـا الَّذِي أَقْدَمَكَ هٰذَا الْبَلَدَ؟ قَالَ: إِنْ أَعْطَيْتَنِي عَهْداً وَمِيثَاقاً لَتُرْشِدَنِّي. فَعَلْتُ. فَفَعَلَ. فَأَخْبَرَهُ. فَقَالَ: فَإِنَّهُ حَـقٌّ. وَهُوَ رَسُولُ اللّهِ. فَإِذَا أَصْبَحْتَ فَاتَّبِعْنِي. فَإِنِّي إِنْ رَأَيْتُ شَيْئاً أَخَافُ عَلَيْكَ، قُمْتُ كَأَنِّي أُرِيقُ الْمَـاءَ. فَـإِنْ مَضَيْتُ فَاتَّبِعْنِي حَتَّىٰ تَدْخُلَ مَدْخَلِي. فَفَعَلَ. فَانْطَلَقَ يَقْفُوهُ. حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَىٰ النَّبِيِّ وَدَخَلَ مَعَهُ فَسَمِـعَ مِـنْ قَوْلِهِ. وَأَسْلَمَ مَكَانَهُ. فَقَالَ لَهُ النَّبِيُّ: «ارْجِـعْ إِلَىٰ قَوْمِكَ فَأَخْبِرْهُمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَكَ أَمْرِي». فَقَالَ: وَالَّذِي نَفْـسِي بِيَدِهِ لأَصْرُخَنَّ بِهَا بَيْنَ ظَهْرَانَيْهِمْ. فَخَرَجَ حَتَّىٰ أَتَىٰ الْمَسْجِدَ. فَنَادَىٰ بِأَعْلَىٰ صَوْتِهِ: أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ اللّهُ، وَأَنَّ مُحَمَّداً رَسُولُ اللّهِ. وَثَارَ الْقَوْمُ فَضَرَبُوهُ حَتَّىٰ أَضْجَعُوهُ. فَأَتَىٰ الْعَبَّاسُ فَأَكَبَّ عَلَيْهِ. فَقَالَ: وَيْلَكُمْ أَلَـسْتُمْ

وهناك عشرات الحوادث كهذه توضح حقيقة الحال وتشرحه، ونجد تفصيله بتركيز في الجزأين السابقين من " سيرة النبي " صلى الله عليه وسلم.

القرآن المجيد والعلامات الباطنية للنبوة:

وهذه الأمور كلها هي في الحقيقة شرح لآيات القرآن الكريم والتي ذكرت حقيقة النبوة، وآثارها وعلاماتها الأصلية: ـ

" يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم كثيراً مما كنتم تخفون من الكتاب ويعفو عن كثير قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين يهدي به الله من اتبع رضوانه سبل السلام ويخرجهم من الظلمات إلي النور بإذنه ويهديهم إلي صراط مستقيم " (المائدة ٣)

" رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " (الجمعة ١)

" رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " (آل عمران ١٧)

" الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم " (الأعراف ١٩)

" يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلي الله بإذنه وسراجاً منيرا " (الأحزاب ٦)

المهم أن الآثار والعلامات الأصلية للنبوة هي أنه يتلو آيات الله، ويجلو القلوب السوداء والنفوس الصدئة، ويعلم الناس الأخلاق والحكمة والكتاب، وينشر أمور الخير، ويمنع من السوء، ويحل الطيبات ويحرم الخبائث، ويزيح عن الشعوب أعباءهم، ويقطع أغلالهم، ويأتي إلي هذه الدنيا شاهداً لله، ويدعو الناس إليه، ويبشر الذين يعملون الصالحات، وينذر الذين يعملون السوء من عذاب الله، ويكون بمثابة مصباح الهداية في عالم الظلام هذا، ولقد طلبت قريش من رسول الله صلى الله عليه وسلم المعجزة فقال الله في الرد عليهم:

" وقال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون، إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم " (البقرة ١٤)

تَعْلَمُونَ أَنَّهُ مِنْ غِفَارٍ. وَأَنَّ طَرِيقَ تُجَارِكُمْ إِلَىٰ الشَّامِ عَلَيْهِمْ. فَأَنْقَذَهُ مِنْهُمْ. ثُمَّ عَادَ مِنَ الْغَدِ بِمِثْلِهَا. وَثَـارُوا إِلَيْهِ فَضَرَبُوهُ. فَأَكَبَّ عَلَيْهِ الْعَبَّاسُ فَأَنْقَذَهُ. (يوسف عامر).

إن الكفار يريدون علامة علي صدق النبي صلى الله عليه وسلم، ويأتيهم الجواب أن وجود كله ضياء لصدقه، وظهرت كل علامات صدقه لأهل اليقين، وحقانيته في تبشير الذين يعملون الصالحات، وتخويف الذين يعملون السيئات وتحذيرهم، وإحداث انقلاب إنساني، وظهور نتائج روحانية، هذه كلها علامات واضحة علي صدقه: ـ

" وقالوا لو لا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم " (العنكبوت ٥)

بمعني أن هذه الدعوة الإلهية والرسالة الربانية بمثابة الآية والعلامة، وهي كذلك بمثابة المعجزة لأهل البصيرة.

" أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل " (الشعراء ١١)

يعني أن معجزة رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم هي أنه جاء بكتاب وتعاليم يعلم صدقها ويفهمه علماء بني إسرائيل بالرغم من أنه أميّ، ألم تكن هذه المعجزة كافية لطمأنة جهلاء قريش وهي أن العلماء الكبار يعترفون من قلوبهم بصدقه:

" وقالوا لو لا يأتينا بآية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولي ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولاً فنتبع آياتك " (طه ٨)

بمعني أن الآيات والصفات التي ذكرت في كتب الأنبياء السابقين للنبي القادم علي رسول الإسلام صلى الله عليه وسلم بشكل كامل هي أكبر علامة أن المعني الآخر لهذه الآية هو أن الكفار يطلبون دائماً تقديم معجزة، فأراهم الله معجزة، ألم يعلموا كيف كان عاقبة الأمم السابقة الذين رأوا معجزات الأنبياء ولم يؤمنوا ؟ لقد كان سؤال الكفار هو:

" ويقول الذين كفروا لو لا أنزل عليه آية من ربه " (الرعد ١)

فقال الله تعالي في الردّ عليهم:

" إنما أنت منذر ولكل قوم هاد " (الرعد ١)

والمقصود هو أن المعجزة ليست حقيقة النبوة، وإنما الإنذار والهداية.

الآيات والعلامات الظاهرية:

لكن ليس معني هذا أنه ليس لدي الأنبياء آيات مادية وعلامات ظاهرية، إذ أن سير الأنبياء جميعاً تشهد علي هذا تماماً بأنهم قد أعطوا نصيباً من الآيات الظاهرية جنباً إلي جنب مع الآيات الباطنية، ولقد بين القرآن الكريم آيات الأنبياء وعلاماتهم الظاهرية تفصيلاً ضمن الحديث عن حياة الأنبياء وأحداثها، بل يجب القول بأن هذه العلامات

المادية الظاهرية خارجة عن أصل حقيقة النبوة، وهذا هو السبب في أن القرآن الكريم قال علي لسان النبي صلى الله عليه وسلم رداً علي طلب الكفار للعلامات المادية:

" هل كنت إلا بشراً رسولاً " (الإسراء)

المعاندون فقط هم الذين يطلبون الآيات الظاهرية:

لكن العلامات والآثار الظاهرية للنبوة، يعني خوارق العادات والمعجزات، لا يطلبها إلا تلك الفرقة التي عميت عيون قلوبهم، وليسوا علي استعداد للاعتراف بالحق بسبب تعصبهم وعنادهم وجهلهم، ولهذا عندما تتمعن في أحوال أولئك الذين آمنوا بالأنبياء الكرام تعرف أن هؤلاء المؤمنين لم يطلبوا المعجزات، وقد أعطيت المعجزة لسيدنا موسى عليه السلام في مقابل فرعون وليس بني إسرائيل، ولم يطلب حواريو عيسي عليه السلام المعجزة، وإنما طلبها اليهود، ولم يطلب أبو بكر وعمر رضي الله عنهما المعجــزة من رسول الله صلى الله عليه وسلم، وإنما طلبها أبو جهل وأبو لهب، وهذا هو نفس حال الأنبياء الآخرين، وقد صرح القرآن الكريم بهذه الحقيقة بشكل واضح، ونسب طلب المعجزة إلي الكفار دائماً: ـ

" وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية " (البقرة ١٤)

" وقالوا لو لا نزل عليه آية " (الأنعام ٤)

" ويقول الذين كفروا لو لا أنزل عليه آية " (الرعد ١)

" وقالوا لو لا يأتينا بآية من ربه " (طه ٨)

وهكذا يظهر في كل آية أن الكفار هم الذين طلبوا المعجزات.

طلب الكفار للمعجزة ليس دليلاً علي نفي المعجزة:

ويفهم بعض الحمقى هذا الإصرار من الكفار علي أن يريهم النبي صلى الله عليه وسلم معجزة على أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يريهم آية معجزة، فإذا كان قد أراهم معجزة فلماذا يصرون هكذا علي طلبها ؟! لكن هذا الاستدلال خطأ من أوله إلي آخره، فلقد تم تحذيرهم وتنبيههم عندما طلبوا المعجزات المادية والظاهرية بأنهم مصرون علي طلب المعجزة حتى بعد ظهور العلامات والآيات بسبب العناد، وهكذا فحيثما ورد طلب الكفار للمعجزة نجد هذا التصريح موجوداً أيضاً، وقيل لهم أنهم لن ينالوا السكينة لهذه الخوارق، وعليهم أن يهتموا بالعلامات والآثار الأصلية للنبوة، فمن خلالها فقط تتيسر الطمــأنينة للقلوب السعيدة.

" وقال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون إنا أرسلناك بالحق بشيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم " (البقرة ١٤)

وقد أوضحت الآية الكريمة أن العلامات قد ظهرت لهم، لكن الذين يستطيعون الاستفادة من هذه العلامات هم أهل اليقين فقط، أما الذين يشكون في كل أمر فإن علاجهم النار فقط، وقد جاء في آية أخرى:

" وقالوا لو لا يأتينا بأية من ربه أولم تأتهم بينة ما في الصحف الأولي ولو أنا أهلكناهم بعذاب من قبله لقالوا ربنا لو لا أرسلت إلينا رسولاً نتبع آياتك " (طه ٨)

فقد تم توجيه أولئك الذين طلبوا مزيداً من المعجزات حتى بعد ظهور المعجزات إلي الأمم السابقة وأحداث حياتهم، والتي ذكرت في الكتب السابقة بأن انظروا إلي عاقبتهم في الدنيا أولئك الذين رأوا المعجزات ولم يؤمنوا.

والمعجزات علي أية حال تظهر في أوقات معينة مخصوصة ثم تنتهي مثلما تنتهي الأحداث الأخرى في الدنيا، وبناءاً علي هذا فإذا ظل النبي صلى الله عليه وسلم يقدم المعجزة عندما يطلبها كل معاند فربما لا تنتهي هذه السلسلة، وتصبح حياة النبي بمثابة حياة العارض، ولهذا يتم التأكيد علي الذين يطلبون المعجزة الظاهرية إلي أن يلتفتوا إلي المعجزة الدائمة الخالدة:

" وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم " (العنكبوت ٥)

لا تتيسر السكينة للمعاندين حتى من المعجزة:

هناك خصوصية للنفس الإنسانية وهي أنه عندما يكون هناك أمر ما يخالفها فإنها لا تحمل أي شيء فيه علي محمل الظن الحسن، ويبدو لها الشر والخبث في كل جوانبه، ولا تستطيع أوضح الأدلة والبراهين أن تبعد الريب والشك من قبلها، والمعـــاندون الذين لم يعترفون بمكارم أخلاق الأنبياء، ولا بحسن عملهم ولا بحسن تعاليمهم، ولا بأي شيء آخر يقولونه أو يفعلونه، ولا يكونون مستعدين للإيمان بدعوتهم الواضحة الفطرية، ولا يستطيعون التخلص من مرض الشك الذي لا علاج له حتى بعد أن سمعوا كل الأدلة والبراهين، فإنهم يلجئون إلي طلب خوارق العادة والمعجزات كنوع من آخر الحيل، لأنهم بسوء ظنهم علي يقين من أن الشخص المدعي كمثلهم لا يملك القدرة علي إظهار الأمور

العجيبة والغريبة، ولذا فلن يستطيع تقديم أي أمر خارق للعادة، وهكذا يفتضح أمره في العالم كله، وبالتالي تتفرق خيوط دعواه وتتقطع بيده هو، لكن القدرة الإلهية تقدم إليهم المعجزات والخوارق للعادات كحجة أخيرة، ومع ذلك لا تسمح روحهم المعاندة بتولد اليقين علي صدق الأنبياء في قلوبهم حتى بعد رؤية المعجزات، ويؤكد لهم سوء ظنهم أنه بالرغم من أنه لا شك في هذه الخارقة للعادة التي ظهرت، لكنها ليست معجزة للقدرة الإلهية، وإنما هي من عمل الشيطان ومن قوة السحر والشعوذة، ولأنه لا يوجد فرق ظاهر بين المعجـــزة والسحر والشعوذة فإن قلوبهم السيئة لا تطمئن بهذا، وقد أظهر سيدنا موسى عليه السلام أكثر من معجزة لفرعون، ولكنه كان يجيبه في كل مرة:

" هذا سحر مبين " (النمل ١)

" إن هذا لساحران " (طه ٣)

ولقد خرّ سحرة مصر سجداً عندما رأوا معجزة عصا موسى عليه السلام، وآمنوا بنبوة سيدنا موسى عليه السلام، لكن فرعون ظل يقول:

" إنه لكبيركم الذي علمكم السحر " (طه ٢)

وهذه الواقعة كلها موجودة بالتفصيل في التوراة، وهي أنه حين كان سيدنا موسى عليه السلام يعرض علي فرعون إحدى معجزاته فإن قسوة قلب فرعون كانت تبقي علي حالها بعد كل معجزة، ولهذا فإن التوراة تذكر بعد كل معجزة قائلة " لكن قلب فرعون ظل قاسياً، ولم يستمع إلي شيء " ([1])، وطبقاً لما يقوله الإنجيل فقد أتي سيدنا عيسي بمعجزات كثيرة، لكن الإنجيل يذكر أن الحاضرين كانوا ينقسمون إلي فريقين بعد كل معجزة، فريق يؤمن بالمعجزة، ويتيقن أنها من عند الله، ويقول الفريق الآخر أن الشيطان يعيش مع يسوع، وهكذا اختلف اليهود بسبب هذه الأمور، وقال كثيرون منهم أن جناً يعيش معه، وأنه مجنون ([2]) لماذا تسمعون له، وقال آخرون أن هذا كلامه، وفيه جن، وهل يستطيع الجن أن يفتح العيون ([3]). وذات مرة أنطق سيدنا عيسي أخرساً، فتحير الناس لكن اليهود الفريسيين قالوا أنه يخرج الجن بمعاونة كبيرهم ([4]) وقال سيدنا عيسي رداً علي المخالفين

---

[1] – التوراة، كتاب الخروج.

[2] ــ إنجيل يوحنا ـــ باب ١٠ــ ١٩.

[3] ــ إنجيل متي ــ باب ٩ــ ٣٤.

[4] ــ إنجيل لوقا ــ ١١ــ ١٨.

لقد تقولون إنني أُخرج الجن بمعاونة بعل زبلول (اسم أحد الجن)، وقال سيدنا عيسي لهم مرات عديدة: " إنكم ترون المعجزات لكنكم لا تؤمنون " ([1]). قال يسوع (عيسي) هذا الكلام. وأخفي نفسه عن اليهود الفريسيين، لقد عرض عليهم معجزات عديدة وجهاً لوجه، لكنهم لم يؤمنوا به ([2]) فبدأ يعاتب أهل تلك المدن التي ظهرت فيها أكثر معجزاته لأنهم لم يتوبوا. ([3])

وكان كفار قريش يطلبون المعجزات من النبي صلى الله عليه وسلم، لكنهم كانوا يرون هذه المعجزات ويقولون إنه كاهن وساحر ([4])، وكان الكهان العرب يتنبئون بالمستقبل، فلما رأي المعاندون تنبؤاته لقبوه بالكاهن، ولهذا قال القرآن الكريم:

" فما أنت بنعمة ربك بكاهن " (الطور ٢)

" ولا بقول كاهن " (الحاقة ٢)

لقد كانوا يرون معجزاته صلى الله عليه وسلم وخوارقه ويظنون أنها أثر السحر:

" ثم أدبر واستكبر فقال إن هذا إلا سحر يؤثر " (المدثر ١)

وكان الكفار يمنع بعضهم بعضاً من أن يذهبوا إلي محمد صلى الله عليه وسلم لأنه يستعمل السحر:

" هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون " (الأنبياء ١)

" قال هذا الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين " (الأحقاف ١)

وعندما حدثت معجزة شق القمر قال الكفار إنه سحر:

" اقتربت الساعة وانشق القمر وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " (القمر ١)

وكانوا يقولون عندما يروا المعجزات الأخرى أن محمد صلى الله عليه وسلم ساحر: ـ

" ما كان للناس عجباً أن أوحينا إلي رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم قال الكافرون إن هذا لساحر مبين " (يونس ١)

المعاندون لا يؤمنون بسبب المعجزات أيضاً:

---

[1] ــ إنجيل يوحنا ــ ١٣ــ ٣٧.

[2] ــ انجيل متي ــ ١١ــ ١٠.

[3] ــ انجيل متي ــ١١ــ١٠.

[4] ــ صحيح مسلم ـــ مناقب أبو ذر.

ولأنه ليس لدي المعاندين قوة التمييز بين الحق والباطل وهم محرومون من سعادة اليقين، لهذا فإن أكبر معجزة لا تستطيع أن تخرجهم من دوامة الشك والظنون، فأحياناً يعتبرونها نتيجة للصدفة والحظ، وأحياناً أخرى يكذبونها علي أنها سحر وشعوذة، وأحيـــاناً تبدو لهم خداعاً من القوة الشيطانية، ولهذا لم تكتب لهم الهداية بالمعجزات أيضاً، وذات مرة عرضت عليهم معجزة لتكون حجة عليهم، ولكن شكهم لم ينته، وعندما طلبوا معجزة أخرى قال القرآن الكريم: إنهم لن يطمئنوا أبداً، ولهذا بين الله تعالي كل هذه الأمور في بداية سورة الأنعام بقوله: ـــ

" وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين " (الأنعام ١)

" ولو نزلنا عليك كتاباً في قرطاس فلمسوه بأيديهم لقال الذين كفروا إن هذا إلا سحر مبين" (الأنعام ١)

" وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين " (الأنعام ٣)

" وقالوا لو لا أنزل عليه ملك، ولو أنزلنا ملكاً لقضي الأمر ثم لا ينظرون، ولو جعلناه ملكاً لجعلناه رجلاً وللبسنا عليهم ما يلبسون " (الأنعام ١)

" ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتي وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون " (الأنعام ١٤)

وكان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم يفكر دائماً من فرط الشفقة والعطف أن لا يبقي كبار قريش محرومين من نعمـة الإيمان، وقال الله تعالي: إنهم لا ينكرون النبوة حقيقة بشكل مباشر، ولكنهم ينكرون النبوة لأنهم بداية لا يؤمنون بالله أصلاً، إنهم في الظاهر يطلبون علامات علي النبوة، لكن الواقع هو أنهم لا يؤمنون بعلامات الله أيضاً، ولم تكتب لمثل هؤلاء الناس سعادة الإيمان، والمعجزات لا تفيدهم بشيء، وإنما يحصل علي هذه السعادة من يطلب الحق ويسمع القول الحق: ـــ

" قد نعلم إنه ليحزنك الذي يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن الظالمين بآيات الله يجحدون ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا علي ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدّل لكلمات الله، ولقد جاءك من نبأ المرسلين وإن كان كبر عليك إعراضهم فإن استطعت أن تبتغي نفقاً في الأرض أو سلماً في السماء فتأتيهم بآية ولو شاء الله لجمعهم علي الهدي فلا تكونن من الجاهلين إنما يستجيب الذين يسمعون والموتى يبعثهم الله ثم إيه

يرجعون وقالوا لو لا نزل عليه آية من ربه قل إن الله قادر علي أن ينزل آية ولكن أكثرهم لا يعلمون " (الأنعام ٤)

لكن قلوبهم لا تطمئن حتى بعد أن يروا المعجزات، لأن أصل هذا الشك لديهم هو العناد وليس طلب الحق، ولو أنهم يقصدون إلي طلب الحق لكانوا آمنوا من أول مرة:

" وأقسموا بالله جهد أيمانهم لئن جاءتهم آية ليؤمنن بها قل إنما الآيات عند الله وما يشعركم أنها إذا جاءت لا يؤمنون ونقلب أفئدتهم وأبصارهم كما لم يؤمنون به أول مرة ونذرهم في طغيانهم يعمهون ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلا ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن أكثرهم يجهلون وكذلك جعلنا لكل نبي عدواً شياطين الإنس والجن يوحي بعضهم إلي بعض زخرف القول غروراً " (الأنعام ١٣)

ولو عرضت عليهم معجزة لرفع حجتهم فإنهم يحتالون قائلين: بأننا لن نؤمن إلا أن ترينا نفس المعجزات التي جاء بها الأنبياء السابقون: ــ

" فلتأتينا بآية كما أرسل الأولون " (الأنبياء ١)

لكن افترض أنه عرضت عليهم نفس المعجزات فلن تطمئن إليها نفوسهم المحتالة، وسيقولون علي الفور كما قالوا مرات عديدة من قبل أن هذا ما هو إلا سحر، وقد سحرت أعيننا: ــ

" وقالوا يا أيها الذي أنزل عليه الذكر إنك لمجنون لو ما يأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما تنزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ولقد أرسلنا من قبلك في شيم الأولين وما تأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزءون كذلك نسلكه في قلوب المجرمين لا يؤمنون به وقد خلت سنة الأولين ولو فتحنا عليهم باباً من السماء فظلوا فيه يعرجون لقالوا إنما سكرّت أبصارنا بل نحن قوم مسحرون " (الحجر ١)

والنتيجة أن سحب الشك والريب لدي هؤلاء المعاندين لا تنقشع بنور هذه الآيات والمعجزات أيضاً، وعندما قدم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم دعــوة الإســلام لأول مرة أطلقوا عليه لقب " مجنون " وقد ردّ القرآن المجيد عليهم قولهم هذا: ــ

" ما أنت بنعمة ربك بمجنون " (ن ١)

وبعد ذلك قدم لهم الرسول صلى الله عليه وسلم معجزات كثيرة ليعرفوا هل يمكن أن تصدر مثل هذه الأفعال من مجنون ؟ فأطلقوا عليه صلى الله عليه وسلم لقب " كاهن " و "ساحر " بالإضافة إلي " مجنون ": ـــ

" فما أنت بنعمة ربك بكاهن ولا مجنون " (الطور)

" قال الكافرون إن هذا لساحر مبين " (يونس ١)

وقدم لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم تعاليمه وإرشاداته رداً علي اتهامهم هذا ليعلموا بأن الكاهن والساحر لا يملكان هذه الثروة من العلم والحكمة، لكن قلبيهما المليئين بالعناد لم يقتنعا بهذا أيضاً، وقالوا أن هناك من يعلمه أسرار العلم والحكمة: ـــ

" وقالوا معلّم مجنون " (الدخان ١)

المهم أن كل الطرق والأساليب الممكنة لتفهيم الإنسان وهدايته وإرشاده قد استخدمت معهم، إلا أنهم لم يستطيعوا التخلص من شكوكهم وشبهاتهم.

ومع كل هذا فإن الأنبياء جميعاً يعرضون المعجزات علي المعاندين والمعاندون يعرضون: ـــ

ويُتصور من إصرار المعاندين وطلبهم المتواصل أنه ربما إن جاءتهم معجزة آمنوا، لكن سير الأنبياء جميعاً تشهد أن هذا لم يحدث، فقد رأوا المعجزات، ومع ذلك فقد ظلوا قائمين علي إعراضهم متمسكين به. ولقد جاء سيدنا موسى إلي فرعون بمعجزات عديدة، لكن إنكاره لم يتحول إلي إيمان، وقد ذكر القرآن والتوراة هذا الأمر مرات عديدة، فجاء في القرآن الكريم: ـــ

" فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أُختها وأخذناهم بالعذاب لعلهم يرجعون وقالوا يا أيها الساحر ادع لنا ربك بما عهد عندك إننا لمهتدون فلما كشفنا عنهم العذاب إذا هم ينكثون " (الزخرف ٥)

وهناك أمر يستحق الاهتمام في هذا الخصوص، وهو من قصة سيدنا موسى عليه السلام التي كانت من أحداث الماضي، وكان يجب أن يقص بصيغة الماضي، لكن الله استخدم صيغة المضارع فيه ثلاث مرات، وهو الزمن المخصص للحال والاستقبال: ـــ

١ـــ فلما جاءهم بآياتنا إذا هم منها يضحكون.

٢ـــ وما نريهم من آية إلا هي أكبر من أختها. لقد وعدوا أنه إذا قبل دعاء موسى فسوف يؤمنون، ولكن عندما قبل الدعاء فعلاً إذا هم ينكثون.

واستعمال صيغة المضارع في هذا الخصوص ينم عن أنه بالرغم من أن هذه الواقعة حدثت مع فرعون بشكل خاص، لكنها ليست خاصة بسيدنا موسى وفرعون فقط، وإنما تكون الحالة النفسية لمعاندي كل نبي، ولفرعون كل عصر أنه عندما يأتيهم رسول الله بأحكام الله وآياته فإنهم يسخرون منه ويحقرونه، ولكن الله يريهم الآية بعد الآية، ومع ذلك فإنهم لا يقتنعون، ويطلبون آية أخرى، ويقولون إن أوتينا هذه الآية لنكونن من المؤمنين، ولكن عندما تأتيهم هذه الآية فإنهم لا يقتنعون، ويظلون محرومين من سعادة الإيمان حتى النهاية.

لقد طلب قوم صالح من صالح عليه السلام آية، فقال لهم: إن هذه الناقة آية لكم، وكانت تشرب ماءهم كله في يوم واحد، وفي اليوم التالي تشرب حيواناتهم، لكنهم عندما رأوا هذه الآية وهي أن الناقة تشرب الماء كله لم يقتنعوا وعقروا الناقة فدمدم عليهم ربهم بذنبهم وأهلكهم، فجاء في سورة الشعراء: ــ

" ما أنت إلا بشر مثلنا فأت بآية إن كنت من الصادقين قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ولا تمسوها بسوء فيأخذكم عذاب يوم عظيم فعقروها فأصبحوا نادمين فأخذهم العذاب إن في ذلك لآية وما كان أكثرهم مؤمنين " (الشعراء ٨)

وكانت هذه هي الحالة النفسية أيضاً لفراعين العهد النبوي ومعانديه، فكانت تأتيهم الآيات، لكنهم لم يكونوا يقتنعون بسبب عناد باطنهم المظلم، ولهذا يبين القرآن الكريم حال كفار قريش بقوله: ــ وما تأتيهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين فقد كذبوا بالحق لما جاءهم فسوف يأتيهم أنباء ما كانوا به يستهزءون " (الأنعام ١)

وفي مكان آخر ذكر القرآن الكريم واقعة أنه عندما كانت تظهر آية علي صدق نبوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم كان معاندو قريش يقولون: نحن لا نقتنع بهذه الآيات طالما لم نعط نفس الآيات التي جاء بها الأنبياء السابقون، بمعني أن كل آثار النبوة وأحوالها لا تطرأ علينا حتى لا يبقي لدينا شك ولا خداع، فقال الله لهم إن هذه النبوة ليست لكل أحد: ــ

" وإذا جاءتهم آية قالوا لن نؤمن حتى نؤتي مثل ما أوتي رسل الله، الله أعلم حيث يجعل رسالته " (الأنعام ١٥)

ولذا يتم التغاضي في النهاية عن طلب المعاندين للمعجزة: ـــ

وبعد هذه المراحل كلها تتم الحجة علي المعاندين، ثم لا يلقى بال لطلبهم المعجزة وإصرارهم علي ذلك وإلحاحهم فيه، وتبقي لهم الآية الأخيرة وهي العذاب الإلهي، وكما يذكر الإنجيل فإن سيدنا عيسي هو أكثر نبي جاء بمعجزات وآيات، ولكن بقي ظمأ اليهود الفريسيون للمعجزة كما هو، وكان يطلبون منه معجزة في كل مرة يلقونه فيها: ـــ

"عندئذٍ خرج الفريسيون، وطلبوا منه آية من السماء بعد مناقشته بغرض امتحانه " (مرقس ٨ـــ ١١)

وقال سيدنا عيسي وهو حزين: ـــ

" لماذا يريد أناس هذا الزمان آية، إني أقول لكم أنه لن تُنزل آية علي أناس الزمان " (مرقس ١٨ـــ ١٢)

وذات مرة أُنطق سيدنا عيسي أبكماً فقال البعض: ـــ

" إنه يقوم بهذا العمل العجيب بمعاونة الجن بعل زبلول، وطلب الآخرون منه آية لاختباره " (لوقا ١١ـــ ١٦)

فأجابهم سيدنا عيسي بقوله: ـــ

" إن أناس هذا الزمان سيئون، إنهم يبحثون عن الآية، ولكن لن تنزل عليهم آية آية إلا آية النبي يونس " (لوقا ١١ـــ ٢٩)

وقد ردّ الله في القرآن الكريم علي معاندي قريش موضحاً هذا الأمر بقوله: ـــ

" وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون " (الإسراء ٦)

وقد ردّ الله في القرآن الكريم عدة مرات ما قاله المعاندون في العهد المحمدي: ـــ

" لو لا أنزل عليه آية من ربه " (الرعد ٤)

ورداً عليهم في هذا فقد وجهوا إلي حقيقة أصل النبوة والإنذار والتبشير والهداية، وتم تجاهل طلبهم في رؤية مزيد من آيات خرق العادة، ويقدم المسيحيون المعارضون هذه الآيات القرآنية قائلين أن محمداً صلى الله عليه وسلم رفض الإتيان بالمعجزات لأنه لم يؤت معجزة من قبل الله تعالي، ولو كان هذا الاستنباط من هذه الآيات صحيحاً فماذا يكون معني آيات الإنجيل التي ذكرناها سابقاً ؟ هل يمكن أن يكون معني رفض سيدنا عيسي عليه السلام تقديم معجزة للفريسيين أنه ـــ والعياذ بالله ـــ لم يؤت معجزة من الله.

أسباب رفض المعجزة أو تأخيرها:

والحقيقة أن الله تعالي قد وضع أصولاً ونظاماً للكائنات الروحانية، وبناءً علي هذا فإننا نحتاج إلي معرفة المصالح والأسباب التي تم رفض المعجزات أو تأخير ظهورها بناءً عليها بالرغم من الحاجة إلي ذلك والقدرة علي تحقيقه، ويمكن تحديد هذه الأسباب بعد قراءة القرآن الكريم بتمعن في الصور التالية: ـ

١ ـ إن الذين يؤمنون بسبب المعجزات يكون إيمانهم اضطرارياً وتقليداً محض وبطريقة غير مباشرة. لم يكن في قلوب النـــاس ذوقا خاصا لتعاليم الأنبياء، وكل ما يعجبهم ويحيرهم هو المعجزات والأمور الخارقة، مع العلم أن الهدف الأساسي لتعاليم الأنبياء هو أن يظهر في أمتهم مثل هؤلاء الأفراد الذين يقفون علي أسرار الشريعة وأحكامهـــا، وعبر القرآن الكريم عن هذا بشرح الصدر في قوله: " فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام " (الأنعام ـ آية ١٢٥)، وهذا النوع من الناس لا يحتاج إلي معجزة، فكل شيء في الدنيا بالنسبة لهم كالشمس والقمر، والسماء والأرض، والليل والنهار يمثل معجزة من معجزات الله، فهم يدللون مباشرة علي وجود الله ووحدانيته ونبوة رسوله، وكل ما يحتاجونه هو البصيرة والتدبير، وهذه الفئة من الناس هي التي يقع عليها في الغالب نظر اختيار الأنبياء، فكل ما يفعلونه معهم هو تحفيزهم علي التدبر والتمعن. ومقابل هذه الفئة من الناس هناك فئة أخرى وهم أهل الباطن المظلم، والتي لا يتأثر أصحابها بأي معجزة مثل الآيات والدلائل الأخرى لنظام الطبيعة. والأنبياء منذ بداية البعثة تعاملوا مع هاتين الفئتين من الناس، وبما أن أحدهما لا يحتاج بطبيعته إلي معجزة، ولا يتأثر الثاني بالمعجزات ؛ لذا فالمعجزة لكليهما شيء لا قيمة له. وبناءاً علي هذا يرفض الأنبياء تقديم معجزة هؤلاء، وقد بين الله سبحانه وتعالي هذه النقطة بقوله: " قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون ". (يونس ـ آية ١٠١) - " ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب ". (الرعد: ٢٧)

٢ـ يطلب بعض المعاندين أحياناً مثل هذه الآيات التي لا يمكن للقوة البشرية أن تتحمل عبئها، كتجلي الله أمام البشر والحديث معهم، ومشاهدة الملائكة، ونزول الصحف السماوية، وصعود الأنبياء إلي السماء مثل السحرة، كل هذه الأشياء عندما طلبها الكفار رفضها الأنبياء علي الدوام، ومنشأ هذا الرفض هو طبيعة المنكرين أنفسهم. " يسألك أهل

الكتاب أن تنزل عليهم كتاباً من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ". (النساء: ١٥٣) - " وقال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم ". (البقرة: ١١٨) - " لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذاً منظرين ". (الحجر: ٧ - ٨).

٣ ـ وفي عصر التقدم المادي أصبح محور المحاسن والفضائل هو المال والعقارات والمتاع، وهذا هو السبب الذي جعل عامة الناس يقلدون الأمراء في كل شيء من الأخلاق والعادات وغير ذلك من أمور التمدن، إلا أن الأنبياء ظلوا يثبتون دائماً بسلوكهم ولباسهم ووضعهم أن منبع الفضائل هو الروح، وإنهم لا علاقة لهم بزخارف ومظاهر الدنيا، ولهذا عندما كان المنكرون يطلبون من الأنبياء مثل هذه النوع من المعجزات التي هي خاصة بالأمراء كانوا عموماً يضطرون لرفضها. " وقالوا مالِ هذا الرسول يأكل الطعام ويمشي في الأسواق لولا أنزل إليه ملك فيكون معه نذير. أو يلقي إليه كنز أو تكون له جنة يأكل منها وقال الظالمــون إن تتبعــون إلا رجـــلاً مسحـــورا " (الفرقان: ٦ - ٨).

٤ ـ يتضح من الآية السابقة أن سبب هذا الإنكار أن الكفار كانوا يعتقدون أن الذي يأتي رسولاً من عند الله لابد وأن يكون فوق البشر، ويجب أن تكون لديه قدرات لا حصر لها ؛ لذا عندما طُلب مثل هذا النوع من المعجزات التي تؤيد هذا الاعتقاد الباطل رفض الأنبياء الإتيان بها. " قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحي إليّ ". (الأنعام: ٥٠)

٥ ـ المعجزات المتحدّى بها، يعني تلك الآيات التي جاءت طبقاً لمطالبة الكفار، كان السبب في أنها جاءت متأخرة هو أن الأنبياء أمروا بالهجرة بعدما أنكر هؤلاء الكفار مثل هذه المعجزات وأهلك الله هؤلاء المنكرين. والتاريخ يقدم لنا أمثلة كثيرة لهؤلاء، ابتداء من قوم نوح والنمرود وفرعون وحتى قريش، وقد صرح القرآن الكريم بهذا حيث طلبت أمة صالح منه آية، فقال الله سنريكم آياتنا، ولكن عدم إيمانكم بها سيكون فيه هلاككم: " وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلاّ تخويفا " (الإسراء: ٥٩). ومثلما يكــون للأفــراد فترة للحيـــاة والموت، فهناك للأمم أيضاً زمن محدد للهلاك والدمار " ولكل أمة أجل ". (الأعراف: ٣٤، يونس: ٤٩)، ولهذا أُجلت ظهور مثل هذه المعجزات لهذه الفترة المِعينة، وكان

ينتظرها كل من الأنبياء والمنكرين. " ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين " (يونس: ٢٠)، وهذا هو السبب في أن الله جعل هؤلاء الأنبياء ظلاً لرحمته، وكانت معجزات التحدي هذه تأتيهم بقليل من التأخير. لقد مرت علينا آيات الإنجيل التي تتعلق بعيسي عليه السلام، وقد صدرت عنه الكثير من المعجزات، ولكنه علي العموم رفض معجزات المطالبة للتحدي، حيث كان لا يريد أن يري هلاك بني إسرائيل، لدرجة أن الحواريين طلبوا من النبي عيسي عليه السلام الإتيان بالمعجزات لكي يزيد الإيمان وينمو، فأجابهم الله تعالي بقوله: " إني منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإني أعذبه عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين " (المائدة: ١١٥).

الخلاصـــة أنه كانت هذه هي مبادئ البشـــر أمام الرسول صلي الله عليه وسلم، والتي بسببها لم يهتم بمطالب الكفار، لأنه كان يعلم أن نزول المعجزة طبقاً لمطالبهم وتحديهم لن يعطي لهم فرصة، وسيهلكون، وهكذا كان كفار قريش يطلبون من النبي صلي الله عليه وسلم المعجزات، كأن يأتي لهم بالملائكة أمام أعينهم، وقال الله لئن جاءوا فسوف يكونوا في صورة البشر، وسيظل الشك لديكم، بالإضافة إلي أنها ستكون آخر الحجج في القانون الإلهي، فلو نزّل الملائكة ولم تؤمنوا بها، فلن تجدوا الفرصة بعد المطالبة بهذه المعجزات، وستهلكون. " لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين ما ننزل الملائكة إلا بالحق وما كانوا إذا منظرين " (الحجر: ٧ – ٨).

٦ ـــ في الغالب يُكذب الكفار الأنبياء ويطالبونهم بالإتيان بمعجزة العذاب التي يهددهم بها بقولهم: متي ستأتي، ولماذا لا تأتي بسرعة ؟. وبسبب فهمهم القاصر كانوا علي يقين بأن معجزات العذاب لا تظهر ؛ لهذا ظلوا يطالبون بها تكراراً وتكراراً حتى يكذب الناس الأنبياء مثلهم، وهكذا تكررت في القرآن الكريم مقولة الكافرين عبر كل القرون، وأجابهم القرآن الكريم عندما قال علي لسان أمة سيدنا شعيب عليه السلام: " وإن نظنك لمن الكاذبين. فاسقط علينا كسفاً من السماء إن كنت من الصادقين ". (الشعراء: ١٨٦ – ١٨٧)، ولكن لهذا قانون محدد عند الله: " لكل أمة أجل إذا جاء أجلهم فلا يستأخرون ساعة ولا يستقدمون. قل أرءيتم إن أتاكم عذابه بياتاً أو نهاراً ماذا يستعجل منه المجرمون أثم إذا ما وقع آمنتم به الآن وقد كنتم به تستعجلون ". (يونس: ٤٩ – ٥١)

إصلاح عقيدة المعجزات:

ومن قراءة القرآن يتضح جلياً أنه ليس لهذه المعجزات الظاهرة أي وقعة في نظره، إنه يريد أن يوجه الناس إلي أصل روح النبوة فقط، ولهذا أسباب خاصة. لقد جاء الإسلام إلى الدنيا لتصحيح الأخطاء في المذاهب السابقة وتكميل الدين الإلهي، وقد تولدت من هذه المعجزات الظاهرة الكثير من المعتقدات الفاسدة بين الأمم السابقة، وآمن الناس بعنصر الألوهية في الأنبياء والأولياء الذين صدرت عنهم هذه المعجزات، وهكذا تزلزل المفهوم الحقيقي للوحدانية والنبوة الذي هو أساس الدين، ولهذا فقد كشف القرآن بكل وضوح وصراحة النقاب عن هذه الأخطاء، وأقام التوحيد والنبوة في صورتها الحقيقية بالدنيا بكل قوة، حتى ينجوا الدين من الفساد وسوء العقيدة في المستقبل.

١- أولاً أن الله قد أوضح حقيقة أنه ليس هناك إلزام بأن تكون المعجزة الظاهرة مرتبطة بالنبوة، وأن هذه الدلائل والأمـــور خارجـــة عن إطار حقيقة النبوة. ومن لوازم النبوة الحقيقية الوحي، والخطاب الإلهي، والاصطفاء، وأسلوب التبشير، والتعليم والهداية كما ذكرنا بالتفصيل سابقاً، ولهذا عندما طالب المعاندون بالمعجزات أشار القرآن في أكثر من موضع إلى حقيقة النبوة حيث قال: " وقال الذين لا يعلمون لو لا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون. إنا أرسلناك بالحق بشيراً ونذيراً ولا تسأل عن أصحاب الجحيم ". (البقرة ١١٩) " وقالوا لو لا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم ". (العنكبوت: ٥٠ – ٥١) ٠ – " ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه إنما أنت منذر ولكل قوم هاد ". (الرعد ٧).

وقد كرر القرآن في أكثر من موضع حقيقة أن رسولنا بشر، وليس فيه أي شيء من الألوهية، ولهذا لا يستطيع أن يفعل شيئاً بغير أمر الله. " قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ " (الكهف: ١١٠)

لقد كان كفار قريش يعتقدون أنه يجب علي الرسول الإتيان بالله والملائكة، وأن يكون له قصر من ذهب وفضة، وان يكون له جنة من أنواع عجيبة وغريبة، وأن يصعد إلي السماء ويأتي لهم بكتاب " وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا. أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا. أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكـــة قبيلا. أو يكون لك بيت من زخرف أو ترقي في

السماء ولن نؤمن لرقيك حتى تنزل علينا كتاباً نقرؤه " (الإسراء: ٩٠ – ٩٢)، وفي الإجابة علي كل هذا علم القرآن الرسول بقوله " قل سبحان ربي هل كنت إلا بشراً رسولا ". (الإسراء: ٩٣) – " قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إني ملك إن أتبع إلا ما يوحي إليّ ". (الأنعام ٥٠) – " قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير و بشير لقوم يؤمنون ". (الأعراف ١٨٨)

٢ـ علينا أن نتمعن في أن إخراج حديقة من الأرض، وإقامة قصر من الذهب، وتفجير ينبوع من الأرض وإنزال كتاب من السماء لم يكن خارجاً عن قدرة الله، وأنها ليست فوق طاقة رسولنا الذي نبع الماء من بين أصابعه، والذي تحركت الأشجار بإشارة منه، والذي صعد إلي السماوات السبع في المعراج. فلو حدثت هذه الأمور طبقاً لمطالبهم، ولو أفسح الطريق لسوء العقيدة، سيقولون بأنه ساحر، ولو أظهر حسن عقيدتهم فسوف يعتقدون بأنه فوق البشر، وكلا الأمرين منافي لحقيقة الإسلام، ولهذا أنكر مطالبهم الجاهلة من البداية، إذ لا يمكن بسبب إيمان وعدم إيمان بعض الناس أن تفسد مبادئ وأصول الدعوة والرسالة.

٣ ـ ظهرت عقيدة خاطئة فيما يتعلق بالأنبياء بين عامة الناس، وهي أن للأنبياء القدرة والتصرف المباشر بعالم الكائنات، وهكذا فإن مؤلفي الإنجيل الحديث عرضوا معجزات السيد المسيح بطريقة هدفها أن يجعلوا النصارى يؤمنون بأن جميع الكائنات كانت تحت تصرف السيد المسيح، وكان يتصرف فيها كيفما يشاء، وهذا هو حجر الزاوية الذي أقام عليه مؤلفو الإنجيل الحديث حائط الدين المعوج، والذي كانت نتيجته أن عمارة التوحيد لم تستطع أن تقوم عليه، وقد أوضح القرآن هذه الحقيقة بكل صراحة ووضوح، وهي أن المعجزات خارجة عن إرادة وقوة الرسول، بل إنها تظهر مشيئة وقدرة الله: " قل إنما الآيات عند الله " (الأنعام ١٠٩) – " قل إنما الآيات عند الله " (العنكبوت ٥٠) " قل إن الله قادر علي أن ينزل آية ". (الأنعام: ٣٧)، وأوضح آية في هذا الشأن هي " وما كان لرسولٍ أن يأتي بآيةٍ إلا بإذن الله ". (الرعد: ٣٨)

وفيما يتعلق بمعجزات السيد المسيح التي ورد ذكرها في الإنجيل فقد قدمت وكأن ملكوت الكائنات جميعها قد عُهد بها إلي السيد المسيح، ولهذا كان يفعل كل ما يريد بقدرته وإرادته الخاصة. وجاء القرآن رافضاً لهذا الاعتقاد موضحاً جميع معجزات السيد المسيح

وبجانبها رفض هذا الاعتقاد بشكل واضح وصريح، ومؤكداً بأن كل ما حدث هو بإرادة الله وقدرته، وأن السيد المسيح لا اختيار له في هذا، وقد جاء هذا في القرآن الكريم علي لسان سيدنا عيسي عليه السلام: " أني قد جئتكم بآيةٍ من ربكم أني أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحي الموتى بإذن الله " (آل عمران: ٤٩). وفي موقع آخر ذكر الله مدي فضله وكرمه علي المسيح بقوله: " وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذني فتنفخ فيها فتكون طيراً بإذني وتبرئ الأكمه والأبرص بإذني وإذ تخرج الموتى بإذني " (المائدة ١١٠)، وكان هذا أثر القرآن الكريم في إظهار حقيقة أنه لا يوجد شك ولا شبهة حول حقيقة النبوة والتوحيد في الإسلام، وأنه لا يقبل إطلاقاً من المسلمين أي شكٍ حول بشرية الرسول صلي الله عليه وسلم، وأن الإسلام هو الوحيد في جميع عقائد العالم الذي يحمل راية التوحيد.

الإفراط والتفريط في قضية الأسباب والعلل:

علينا أن نتعرف علي قضية الأسباب والعلل فيما يتعلق بإصلاحات عقيدة المعجزات، والتي أنتجت في الإسلام فرقتين مثلما حدث في الأديان الأخرى. الفرقة الأولي: هي التي تعترف في هذه الدنيا بسلطة الأسباب والعلل فقط، وتعتبر هذه السلطة غير قابلة للتغير والتبديل، ويرون أن كل ما يحدث في هذا العالم إنما يقع طبقاً لهذه الأسباب والعلل المادية، وأنه لا يحدث بها أي تبديل أو تغير ؛ ولذا فإنهم يؤمنون باستحالة وامتناع خرق العادة؛ لأن هذه الأسباب والعلل وهذا النظام الذي تسير عليه الدنيا إنما هي سنن إلهية، وليس في السنن الإلهية تغير ولا تبديل كما ثبت في القرآن الكريم في الآيات التالية: ــــ

" ولن تجد لسنة الله تبديلا " (الأحزاب ٦٢)

" ولن تجد لسنة الله تحويلا " (فاطر ٤٣)

" لا تبــديــل لخلــق الله " (الروم ٣٠)

الفريق الثاني: يعتقد أن ربط وتقيد الله تعالي لنظام خاص وقوانين فطرية وأسباب وعلل منافٍ لعظمة قدرته تعالي، ويؤمن بأنه هو الحاكم المطلق بغير كل هذه الوسائط البينية. وهذا الفريق يقدم الأدلة التالية علي دعواه: ــ

" فعال لما يريد " (البروج: ١٦)

" كذلك الله يفعل ما يشاء " (آل عمران: ٤٠)

" ويفعل ما يشاء " (إبراهيم: ٢٧)

" إن الله يفعل ما يشاء " (الحج: ١٨)

" ولكن الله يفعل ما يريد " (البقرة: ٢٥٣)

" إن الله يحكم ما يريد " (المائدة: ١)

" إن الله يفعل ما يريد " (الحج: ١٤)

وبالإضافة إلي هذه الآيات فقد وردت الآية التالية في القرآن الكريم في ثمانية مواضع مختلفة بتغيير وتبديل بسيط: ــ

" والله علي كل شيء قدير " (البقرة: ٢٨٤ ؛ آل عمران: ٢٩، ١٨٩ ؛ المائدة: ١٧، ١٩، ٤٠ ؛ الأنفال: ٤١ ؛ التوبة: ٣٩ ؛ النحل: ٧٧ ؛ الحشر: ٦)

وهذه الآيات تعني أن علة كل شيء هي قدرة الله ومشيئته وإرادته ولذا فإن خرق العادة بمختلف أشكالها ممكن. والحقيقة هي أن كلا الفريقين يقف علي جانبي الإفراط والتفريط، ولم يتدبر أو يتمعن كل آيات القرآن الكريم، وهذا هو السبب في أنهما أنكرا خصائص الأشياء وطبائعهما والمصالح العقلية وحكمهما.

القرآن المجيد يعترف بالأسباب والمصالح:

في حين أن الإدعاء بأن القرآن الكريم ينكر الأسباب والعلل والمصالح والحكم بناءاً علي الآيات السابقة هو بمثابة دليل علي الجهل بالكتاب الإلهي ونفي للصفات الكاملة لله تعالي، ولكونه حكماً، فقد دعا القرآن الكريم في مواضع مختلفة إلي التفكر والتدبر في خلق الله، فإذا خلا الوجود هذا من الأسباب والمصالح كانت هذه الدعوى بلا جدوى، والقرآن الكريم يصف عجائب القدرة هذه بأنها آيات الله، ويأمر بالتدبر والتفكر في حكمها وأسرارها، ويستدل بالدليل نفسه علي وجود ذات الله القادرة الحكيمة. فإن كانت هذه الأشياء خالية من الأسباب والمصالح فإن التفكر والتدبر فيها يكون عبثاً. ولقد قرر القرآن الكريم أن السماء والأرض، والشمس والقمر، والهواء والسحاب، والورود والثمار، والجسم والروح، كل شيء منها جميعاً هو بمثابة إعلان واضح علي قدرة الله تعالي الواسعة وحكمته البالغة، ولفت أنظار الإنسان إلي هذا الجانب مرات ومرات.

" إن في خلق السماوات واختلاف الليل والنهار لآيات لأولي الألباب. الذين يذكرون الله قياماً وقعوداً وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلاً. " (آل عمران: ١٩٠ - ١٩١)

كما زجر الله تعالي أولئك الذين يعتقدون أن خلق الأشياء خال من المصلحة بقوله: ــ

" أفحسبتم أنمـــا خـــلقنـــاكم عبثـــا وأنكم إلينا لا ترجعون " (المؤمنون: ١١٥)

" وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهما لاعبين " (الدخان: ٣٨)

" وهو الذي أنزل من السماء ماءً فأخرجنا به نبات كل شئ فأخرجنا منه خضراً نخرج منه حباً متراكباً ومن النخل من طلعها قنوان دانية وجنات من أعناب والزيتون والرمان مشتبها وغير متشابه انظروا إلى ثمره إذا أثمر وينعه " **(الأنعام: ٩٩)**

فإن لم يضع الله تعالي في كل هذه الأشياء أثار الحكمة والمصلحة فلماذا يدعو إلي التفكير والنظر فيها، ولقد صرح الله تعالي في مواضع عديدة بهذه المنافع لخلقه فقال: ــ

" والأنعام خلقها لكم فيها دفء ومنافع ومنها تأكلون. ولكم فيها جمال حين تريحون وحين تسرحون. وتحمل أثقالكم إلى بلد لم تكونوا بالغيه إلا بشق الأنفس إن ربكم لرؤوف رحيم. والخيل والبغال والحمير لتركبوها وزينة ويخلق ما لا تعلمون. وعلى الله قصد السبيل ومنها جائر ولو شاء لهداكم أجمعين. هو الذي أنزل من السماء ماءً لكم منه شراب ومنه شجر فيه تسيمون. ينبت لكم به الزرع والزيتون والنخيل والأعناب ومن كل الثمرات إن في ذلك لآية لقوم يتفكرون. وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون. وما ذرأ لكم في الأرض مختلفاً ألوانه إن في ذلك لآية لقوم يذكرون. وهو الذي سخر البحر لتأكلوا منه لحماً طرياً وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون " **(النحل: ٥ – ١٤)**

فلو لم تكن في هذه الأشياء فوائد وحكم فلماذا أمرنا الله نحن البشر بالشكر لوجود هذه الأشياء ؟. وأسباب وفوائد بعض الأشياء قد أوضحها القرآن نفسه بكل وضوح. فقد أظهر فائدة الجبال بقوله: " وألقي في الأرض رواسي أن تميد بكم " (النحل: ١٥)

وكذلك الهدف من خلق النجوم بقوله " وبالنجم هم يهتدون " (النحل: ١٦)

وفائدة الليل " جعل لكم الليل لتسكنوا فيه " (يونس: ٦٧)

وفائدة ازدياد القمر ونقصه: ــ " يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس " (البقرة: ١٨٩)

وعلمنا فائدة الظل والشمس، والليل والنهار، والهواء والماء بقوله: ــ

" ألم تر إلي ربك كيف مد الظل ولو شاء لجعله ساكناً ثم جعلنا الشمس عليه دليلاً. ثم قبضناه إلينا قبضاً يسيراً. وهو الذي جعل لكم الليل لباساً والنوم سباتاً وَجعل النهار

نشوراً. وهو الذي أرسل الرياح بشراً بين يدي رحمته وأنزلنا من السماء ماءً طهورا. لنحيي به بلدة ميتة ونسقيه مما خلقنا أنعاماً وأناسيّ كثيراً " (الفرقان: ٤٥ – ٤٩)

وأقر القرآن الكريم بكل وضوح أسباب وعلل الأشياء، فمثلاً جاء ذكر المطر بأنه سبب لإنتاج الثمرات في أماكن متفرقة. " وأنزل من السماء ماء فأخرج به من الثمرات رزقاً لكم " (البقرة: ٢٢)

وكل الكائنات تحيا بالماء: ـ

" والله خلق كل دابة من ماء " (النور: ٤٥)

" وجعلنا من الماء كل شيء حي " (الأنبياء: ٣٠)

وتنبت كل أنواع النباتات بالماء: ـ

" هو الذي أنزل من السماء ماء فأخرجنا به نبات كل شيء " (الأنعام: ٩٩)

وكيف أن الرياح يمكن أن تكون وسيلة للهلاك: ـ

" فأرسلنا عليهم ريحاً صرصراً في أيام نحسات لنذيقهم عذاب الخزى " (فصلت: ١٦)

" ريح فيها عذاب أليم. تدمر كل شيء بأمر ربها " (الأحقاف: ٢٤ – ٢٥)

" إذ أرسلنا عليهم الريح العقيم. ما تذر من شيء أتت عليه إلا جعلته كالرميم " (الذاريات: ٤١ – ٤٢)

وأن النار تحرق " تلفح وجوههم النار " (المؤمنون: ١٠٤)

وجعل من الخشب ناراً: ـ

" الذي جعل لكم من الشجر الأخضر ناراً " (يس: ٨٠)

ولا ينكر القرآن الخواص الطبيعية للأشياء، فمثلاً خواص الخمرة ذكرها هكذا: ــــ

" قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما" (البقرة: ٢١٩)

ومنها يحصل الإنسان علي الدفء: " فيها دفء " (النحل: ٥)

وخاصة زرع الأشجار وإطفاء الماء للظمأ: ـ

" هو الذي أنزل من السماء ماء لكم منه شراب ومنه شجر " (النحل: ١٠)

وأن العسل فيه خاصية الشفاء من الأمراض: ـ

" يخرج من بطونها شراب مختلف ألوانه فيه شفاء للناس " (النحل: ٦٩)

يتضح جلياً من هذه الآيات الكريمة أن القرآن سلم بطبائع وخواص الأشياء ولا يؤيد هذه الجماعة التي تنكر هذه الأشياء، والتي تعتقد بأن الإيمان بهذه الأشياء يبطل

عقيدة وقدرة المشيئة الإلهية، في حين يلزم في هذا الوقت التسليم باستغناء واستقلال العلل والأسباب والخواص والطبائع عن الله، وأن القرآن لا يلقننا ذلك، وإنما يرشدنا إلى إن الأشياء تظهر من الأسباب والعلل، وتحمل بداخلها طبائعها وخصائصها. لكن هذه الأسباب والعلل والطبائع والخواص أودعها وحددها خالق الكون. وفي الغالب يظل يعمل بها، لكن ليس لدرجة أن تظل مجبورة ومقيدة. ولا يمكن تغييرها، أولا يمكن إبطالها إطلاقاً بإرادته الخاصة، لأن هذا الاعتقاد يؤدي إلي الكفر، ويحدث اختلاف في قدرة وعظمة الله ؛ ولهذا اهتم القرآن الكريم في كل مناسبة بأن ينبه إلي نقطة أنه مع الأسباب والعلل يجب أن نضع أمام أعيننا قدرة ومشيئة الله، حتى لا يتصور البشر عدم قدرة الله وعجزه، وأنه ليس لإرادته ومشيئته أي عوائق خارجية سوي قدرته ومشيئته هو نفسه. وهكذا فإن كل الآيات التي تتعلق بمشيئة الله وقدرته ذكرت من قبل الفريق الثاني سابقاً ليدلل بها في هذا الشأن، وهذا هو الهدف من تعليمها.

وعلينـــا أن نمعن النظر في الآيات التي ذكرناها في الاستدلال علي الخواص والطبائع والأسباب والعلل السابقة، وأن الله نسب إمكانية الفعل فيها جميعاً إلي نفسه، والتي تعني أن خواص وطبائع الأشياء والعلل والأسباب ومسبباتها قد جعلها الله تحت تصرفه ومشيئته وأمره، وأوضح هذا في كل موضع حتى لا ينكر الإنسان العلة الحقيقية للأشياء بعد أن يرى الخواص والطبائع والأسباب والعلل الظاهرية ويصيبه الإلحاد، أو يعتقد أن الأسباب والخواص شريكة في التأثير، ويصيبه الشرك، وهذه طريقة خاصة لتعليم الأنبياء، ولم يغفل القرآن هذه النقطة لدرجة أن الله نبه أنبياءه والصالحين من عباده عندما اختلف في التأكيد على مخالفة العلل والأسباب الظاهرية، وأزاح عنهم التعجب وذكرهم بقدرته ومشيئته مثلما بشر السيدة سارة وسيدنا إسحاق عليه السلام وهما في سن الشيخوخة، فجاء في القرآن والتوراة أنهما تعجبا كثيراً من أمر الله هذا: ـــــ

(قَالَتْ يَا وَيْلَتَى أَأَلِدُ وَأَنَا عَجُوزٌ وَهَذَا بَعْلِي شَيْخاً إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجِيبٌ) (هود:٧٢)

فأجابتها الملائكة: ــ (قَالُوا أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ رَحْمَتُ اللَّهِ وَبَرَكَاتُهُ عَلَيْكُمْ أَهْلَ الْبَيْتِ إِنَّهُ حَمِيدٌ مَجِيدٌ) (هود:٧٣) وكان هذا القدر من التنبيه كافٍ لإيمانهم. وقد كان زكريا عليه السلام عجوزاً، وكانت زوجته عقيم وكان زكريا علي علم تام بحالته وحالة زوجته، لكنه كان علي يقين كامل بقدرة الله وإرادته حتى في صورة عدم وجود الأسباب والعلل الظاهرة له ولزوجته، وهكذا وجدناه في هذه الصورة يطلب من الله وريثاً له، وعندما بشر

بتقبل دعوته، وكان مقتضى البشرية هو تعود الإنسان أن يري الأسباب والعلل الظاهرة، ولهذا فبالرغم من إيمانه الكامل بقدرة الله فقد استبعد حدوث هذا الأمر، ولذا قال كما ورد في القرآن الكريم:

" رب أني يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقراً وقد بلغت من الكبر عتيا " (مريم: ٨)

فأجابه الله تعالي بقوله: ــ

" قال كذلك قال ربك هو علي هين وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئاً " (مريم: ٩)

وعندما بشرت السيدة مريم بعيسي عليه السلام أظهرت حيرتها وتعجبها لما هو خلاف للعلل والأسباب الظاهرة: ــ

" قالت أني يكون لي غلام ولم يمسسني بشر ولم أك بغيا " (مريم: ٢٠)

فأجابتها الملائكة:

" قال كذلك قال ربك هو علّي هين ولنجعله آية للناس ورحمة منا " (مريم: ٢١)

مفهوم سنة الله في القرآن:

ويستدل الفريق الذي ينكر خرق العادات على خلاف الأسباب والعلل والتي ليس فيها تبديل هو في الحقيقة مذنب ومحرف لمفهوم آيات القرآن الكريم سواء بجهل أو بعلم منه، فهناك مفهوم خاص لسنة الله في القرآن، وقد استعمل هذا الاصطلاح الخاص في أماكن عدة في القرآن الكريم، وعندما يصطدم الخير والشر، والحق والباطل، والنور والظلام والعدل والظلم، عندئذ ينصر الله الحق على الباطل والنور على الظلام والخير على الشر والعدل على الظلم، وعندما لا تقبل الأمم المذنبة والضالة دعوة الحق، وتصبح الدعوة والحكمة غير مؤثرة فيهم عندئذ ينزل الله عذابه علي هؤلاء القوم، وفي النهاية يهلكون عن طريق الرعد والبرق والرياح الصرصر والطوفان، أو حتى بسيوف أعدائهم. وهذه هي سنة الله منذ الأزل، وستظل قائمة ولن نجد لها تبديلا، وحينما جاء هذا اللفظ في القرآن الكريم جاء بهذا المفهوم، وهكذا سنذكر جميع الآيات التالية التي بها نقطع الشك باليقين. فقريش استعدت وجهزت لرد داعي الحق من مكة، ورفضت علانية قبول هذه الدعوة فقال الله تعالي: ــــ

" وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا " (الإسراء: ٧٦ – ٧٧)

لم يرجع المنافقون في المدينة عن شرورهم فقال الله تعالي: ــــ

" أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا. سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا " (الأحزاب: ٦١ – ٦٢)

ولمزيد من إيضاح هذا المفهوم فلن نجد أكثر دلالة من هذه الآية التي وردت في سورة فاطر:

" ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين فلن تجد لسنت الله تبديلا ولن تجد لسنة الله تحويلا. أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم " (فاطر: ٤٣ – ٤٤)

وفي واقعة الحديبية نبه الله كفار قريش وطمأن المسلمين بقوله: ـــ

" ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً " (الفتح: ٢٢)

بعد قراءة هذه الآيات هل من الممكن أن يخطأ أحد في مفهوم سنة الله.

مفهوم فطرة الله في القرآن:

هناك آية أخري في القرآن الكريم يستدل بها هذا الفريق دائماً وهي: " فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله " (الروم: ٣٠)

إن عرض هذه الآية في هذا المعني هو تحريف معنوي للقرآن الكريم، فالمقصود من فطرة الله في اصطلاح القرآن هو التوحيـد، والذي عبر عنه بدين الفطرة، وهكذا، فلو تمعنا الآية السابقة فسيتضح المفهوم نفسه من خلالها، فالله يقول: ـــ

" فأقم وجهك للدين حنيفاً فطرت الله التي فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله ذلك الدين القيم ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (الروم: ٣٠)

كما جاء الحديث الشريف مفسراً لهذا الاصطلاح القرآني، وقد رواه أبو هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: ـــ " ما من مولود إلا يولد علي الفطرة فأبواه يهودانه أو ينصرانه أو يمسحانه كما تنتج البهيمة جُمعاء هل تحسون فيها من جدعاء ثم يقول فطرة الله التي فطر الناس عليها " الخ الحديث (البخاري تفسير سورة الروم. ص٧٠٤. ج٢)

المعجزة ليست إرادة الله فقط:

الخلاصة أنه يتضح من هذه التفصيلات أن القرآن الكريم لا ينكر الأسباب العادية، ولا يسلم بأن نظام الكون خال من العلل والمصالح، ولكن يؤكد أن هناك قادراً وحاكماً مطلقاً فوق هذه العلل والأسباب جميعها، والذي بمشيئته وقدرته تدور عجلة

الحياة، وعلة وسبب المعجزة تخضع لإرادته ومشيئته مباشرة، فأحياناً تظهر مشيئته وقدرته في ضوء الأسباب والعلل الظاهرة والأعراف الجارية مثل: الطوفان الذي جاء لقوم نوح عليه السلام، والبراكين والزلازل لقوم هود عليه السلام، وشفاء سيدنا أيوب عليه السلام بالماء، ومثل الريح التي جاءت لقوم صالح عليه السلام أو ظهور القحط في مكة أو هبوب الريح في غزوة الخندق. كل هذه الآيات ليست ضد الأسباب والعلل الظاهرة، ولكن سبب ظهور تلك الأسباب لم يكن لنصرة الحق علي الباطل ونجاة الأبرار وهلاك المشركين. ولم يكن هذا بمحض الصدفة، بل إن إرادة الله جاءت بها لهم كعلامة من علامات قدرة الله. وأحياناً تأتي مشيئة الله علي عكس هذه الأسباب والعلل الظاهرة مثل: قلب العصا ثعبان و خروج الماء من بين أصابعه صلى الله عليه وسلم أو إحياء الموتى وانشقاق القمر أو نبع الماء من الصخر وحركة الأشجار من مكانها وخروج الأصوات من الأشياء الصامتة. ولا يمكن شرح هذه الأشياء في ضوء الأسباب والعلل الظاهرة، ولا يمكن أن نقول أنها من الأمور العادية لهذه الأشياء ؛ لذا فالتعليل الطيب والأفضل لها هي أنها قدرة الله ولا شيء سوي ذلك، ولهذا صرح الأنبياء بقولهم: أن كل ما صدر عنهم ما هو إلا بمشيئة الله وقدرته، ولو تم قياسها طبقاً للعلل والأسباب الظاهرة فلماذا تحتاج إلي دليل يوضح علاقة النبي أو الرسول بالله سبحانه وتعالي، ويمكن أن يقول الكفار بعد رؤيتها فوراً إن هذا تم بسبب كذا وكذا، ولا يمكن أن تكون آية من آيات الله.

هناك أربعة أقسام للمعجزة باعتبارها خارقة للعادة:

وبنـــاءاً علي هذا يكون من الضروري أن تكون المعجزة أو الآيات خارقة للعادة بأي حال من الأحوال هكذا: ــ

١- أحياناً تكون الواقعة نفسها خارقة للعادة كقلب العصا ثعباناً، وانشقاق القمر، وخروج الماء من الأصابع وإحياء الموتى وغيرها.

٢- كيف تكون الواقعة نفسها طبقاً للعادة، ولكن ظهورها في وقت خاص يعني خرقاً للعادة مثل: مجيء الطوفان، والريح العاتية، والزلازل، ورعب الكفار رغم كثرة عددهم من المؤمنين الذين لا حول لهم ولا قوة وكل التأيدات الإلهية تدخل في هذا النوع من المعجزات.

٣- هناك الصورة وهي أن نفس الواقعة وظهورها في وقت خاص لا يكون خلافاً للعادة، ولكن طريقة ظهورها تكون مخالفة للعادة كنزول الأمطار بسبب دعاء

الأنبياء وشفاء المريض، وبعد الآفات والمصائب فكل من نزول الأمطار وشفاء المريض والاتقاء من المصائب كل هذه الأمور ليست خلاف العادة ولا ظهورها محدد بوقت خاص، ولكن بالطريقة والأسباب والعلل فإن ظهور مثل هذه المعجزات تعد أمراً خارقاً للعادة.

وتدخل في قسم استجابة الدعاء: ــ

٤- أحياناً لا تكون الواقعة علي خلاف العادة، وطريق ظهورها أيضاً ليس مخالفاً للعادة، ولكن معرفتها قبل حدوثها أمر خارق للعادة، فمثلاً تنبؤ الأنبياء. ذات مرة هبت ريح قوية، وكان الرسول صلي الله عليه وسلم خارج المدينة فأخبر صلي الله عليه وسلم أن هذه الريح قد هبت لموت أحد المنافقين، وهكذا عندما وصل الناس المدينة علموا أن أحد المنافقين مات بهذه الريح. ففي هذه المعجزة لا تجد أن هبوب الريح أمر خارق للعادة، ولا أن موت إنسان بسبب الريح مخالف للأسباب والعلل، ولكن معرفة الشيء قبل حدوثه هو الأمر الخارق للعادة.

تنقسم المعجزات إلي قسمين تبعاً لتأثيرها علي أهل الإيمان

حياة الأنبياء علم وعمل، وكل تعليماتهم وإرشاداتهم هدفها تكميل وتطوير العلم والعمل، ومن هنا فإن أثر بعض معجزات الأنبياء تكون بالعلم واليقين فقط، ولا يترتب عليها أي نتائج عملية فمثلاً: خروج اليد البيضاء وقلب العصا ثعباناً، وشق القمر. .. مع إنها معجزات عظيمة، إلا أنه ينتج عنها أن بعض الناس آمنوا بها، وأنكرها الآخرون، ولكن هناك العديد من معجزات الأنبياء والتي جاءت بنتائج عملية عظيمة فمثلاً: قلب العصا ثعباناً لم يستفد منها بنو إسرائيل، ولكن عن طريقها نبع الماء الذي كان بمثابة الحياة لهم.

أما القسم الأول من المعجزات فقد عبر عنه القرآن الكريم بلفظ الحجة والسلطان والبرهان حتى ينمو لديهم العلم واليقين. وأما القسم الثاني من المعجزات: ــ جاء كنصر من الله وتأييد لآياته.

وكان القسم الأول من المعجزات يحتاج إلي الطلب والسؤال، ولم يكن مقيداً بنصرة الله وتأييده. وبما أن الأنبياء في بداية النبوة جاءوا ليهدون الناس إلي العقيدة، وكان الكفار ينكرون هذه العقائد، وكانت الدلائل تأتي لإثبات هذه العقائد ؛ لذا ظهر هذا النوع من المعجزات عند أوائل الأنبياء والتي اقتصر أثرها علي العلم واليقين، وهذا هو السبب

في أن قد أرسل الله سيدنا موسى عليه السلام لفرعون بمعجزتين من هذا النوع، وبناءاً علي هذا جاءت معجزة شق القمر لكفار قريش، ولكن بعدها ظهرت جماعة من المؤمنين المخلصين عن طريق تعاليم الأنبياء والذين هـم عامة من رقيقي الحال ومن البدو الفقراء، وبما أن هذه الجماعة - بسبب إيمانها وخلوص نيتها ونقاء باطنها - لم تكن بحاجة إلي معجزة، إلا أن نصر الله كان ضرورياً، وقد نصرهم الله في كل موقع، ولهذا السبب ظهرت التأيدات والبراهين الإلهية بدون طلب أو سؤال، ولم يطلب المسلمون من النبي صلى الله عليه وسلم أي معجزة، ولكن معظم معجزات النبي صلى الله عليه وسلم ظهرت بينهم، وخاصة في وقت الغزوات، فأيد الله المسلمين بنزول الملائكة من السماء في غزوة بدر وحنين، وحلول البركة في زاد المسلمين القليل، وخروج الماء من بين أصابعه. وكثير من هذا النوع من المعجزات صدرت عن الرسول في زمن الغزوات. وقد استفاد منها المسلمون جميعاً في حين قد انقطعوا عن جميع الوسائل والأسباب الدنيوية.

وهذا هو ما ذكره القرآن الكريم بنصر الله وتأييده لتأييد، وقد وهب الله الأنبياء هذه الأشياء في نهاية الوقت الذي كانوا يواجهون فيه جميع مشاهد اليأس والأسباب الظاهرة، ولم تكن هناك أية وسيلة لتأييد الحق، وفجأة يأتي نصر الله علي خلاف التوقعات المحيطة.

" أم حسبتم أن تدخلوا الجنة ولما يأتكم مثل الذين خلوا من قبلكم مستهم البأساء والضراء وزلزلوا حتى يقول الرسول والذين آمنوا معه متي نصر الله ألا إن نصر الله قريب " (البقرة: ٢١٤)

" حتى إذا استيأس الرسل وظنوا أنهم قد كذبوا جاءهم نصرنا فنجي من نشاء ولا يرد بأسنا عن القوم المجرمين " (يوسف: ١١٠)

وهذا هو وعد الله المتين في أن ينصر أهل الحق في النهاية دائماً:

" وكان حقــــاً عــلــينـــا نـــصر المؤمنيـــن " (الروم: ٤٧)

وهذا النصر بمثابة رسالة طمأنينة للمسلمين في كل خطواتهم سواء في غزوة بدر أو أحد أو الخندق أو غزوة حنين، فقد كان النصر حليفهم في كل المواقع: ـــ

" لــقد نصركم الله في مواطن كثيرة " (التوبة: ٢٥)

وكان النصر الكبير في بدر، وذلك عندما هزم ثلاثمائة مجاهد بغير عتاد ألف رجل مسلح من قريش " ولقد نصركم الله ببدر وأنتم أذلة " (آل عمران: ١٢٣)

ولكن الفرق بين المعجزات العامة ونصر الله هو أن المعجزات تأتي كحجة وبرهان، وأنـــها فيض لطاقة الأنبياء الروحية، وهذا الفيض يكون سبباً في ظهور قدرة الله و، لكن في نصر الله لابد من الإيمان القوى واليقين الكامل للمؤمنين مع طاقة النبي الروحية ؛ ولذا عندما طلبت أمة عيسي عليه السلام أن ينزل عليهم مائدة من السماء فأرشدهم عيسي عليه السلام باتباع التقوى.

" إذ قال الحواريون يا عيسي بن مريم هل يستطيع ربك أن ينزل علينا مائدة من السماء قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين " (المائدة: ١١٢)

وعندما بشر رسولنا صلي الله عليه وسلم أصحابه بنزول الملائكة أرشدهم إلي اتباع الصبر والتقوى. " إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمددكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلي إن تصبروا وتتقوا يأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين" (آل عمران: ١٢٤ – ١٢٥)

هذه هي المعجزات التي يبينها الصحابة الكرام على اعتبار أنها بركة. وكما أن هناك قسمين من المعجزات للمؤمنين طبقاً لأثرها فهناك أيضاً قسمان للكفار طبقاً لنتائجها:

معجزة الهداية ومعجزة الهلاك. فالأنبياء يعرضون علامات الهداية أولاً ثم يدعونهم إلي الحق، وكثير من الكفار يقبلون هذه الدعوة إلي أن يحين الوقت عندما لا يبقى لدى جماعة الكفار أية قابلية لإصلاح هذا العنصر الفاسد بينهم، وهنا يحل عليهم عذاب الله سواء في شكل رعد وبرق وريح وعواصف أو سيول حتى تطهر الأرض من وجودهم .

لقد وهب الله سيدنا موسى عليه السلام العديد من المعجزات حتى يؤمن فرعون ومن معه من أهل مصر، وظل نزول المعجزات لفترة محددة، وهى الفترة التي كان يمكن فيها لأهل مصر أن يؤمنوا إلي أن أنزل الله علي سيدنا موسى عليه السلام معجزة شق البحر، وهكذا ابتلعت أمواج البحر الأحمر فرعون ومن معه. وبنفس الطريقة كانت معجزة الطوفان لنوح عليه السلام، ومعجزة الناقة لسيدنا صالح عليه السلام، وهلاك أهل لوط عليه السلام، وصاعقة البحر لسيدنا شعيب، وآية رفع سيدنا عيسي عليه السلام إلي السماء، ومعجزة البطشة الكبرى لسيدنا محمد صلي الله عليه وسلم في غزوة بدر. كل هذا يدخل في إطار القسم الثاني من المعجزات والتي عن طريقها كان يتم استئصال وهلاك

المعاندين، وهي المعجزات أو الآيات التي عبر عنها القرآن الكريم بقوله: سنة الله وسنة الأولين وهي السنة التي كانت في كل أقوام الأنبياء.

" ولا يحيق المكر السيئ إلا بأهله فهل ينظرون إلا سنت الأولين " (فاطر: ٤٣)

" أينما ثقفوا أُخذوا وقتلوا تقتيلا. سنة الله في الذين خلوا من قبل " (الأحزاب: ٦١ – ٦٢)

وعموماً يتم تأخير ظهور معجزة العذاب هذه إلى وقت معين، ومن أسباب ذلك: ــ

١- لا تظهر آية العذاب إلا إذا انفصلت كل العناصر الصالحة من العناصر الفاسدة في الأمة عن طريق آيات الهداية، وانفصل المؤمنين عن الكافرين، ويئس الرسول من دعوة بقية العناصر للإيمان. فقد ظل سيدنا نوح عليه السلام يدعو قومه لمدة طويلة إلي أن يئس منهم ودعا الله أن ينزل عليه آخر المعجزات: ــ

" ربِ لا تذر علي الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً " (نوح: ٢٦ – ٢٧)

وبعدها جاء الطوفان، وأغرق قوم نوح عليه السلام. وهكذا عندما يئس سيدنا موسى عليه السلام من فرعون دعا الله: ــ

" ربنا إنك أتيت فرعون وملأه زينةً وأموالاً في الحياة الدنيا ربنا ليضلوا عن سبيلك ربنا اطمس علي أموالهم واشدد علي قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم " (يونس: ٨٨)

وهناك أنبياء آخرون دعوا الله في مثل هذه الظروف.

٢- وعندما يصل الرسول إلي هذه الحالة يأمره الله بالهجرة مع المؤمنين من قومه مثلما أنقذ نوحاً وأهله من الكفار بالسفينة، وأعلن سيدنا إبراهيم عليه السلام هجرته من بلد النمرود " قال إني مهاجر إلي ربي " (العنكبوت: ٢٦)

كما خرج موسى عليه السلام مع بني إسرائيل من مصر، وهكذا انفصل بقومه كل من سيدنا لوط، سيدنا هود، سيدنا شعيب، وسيدنا صالح عليهم جميعاً السلام مع أهليهم عن الكافرين، وطالما لم تتم الهجرة ولم ينفصل المؤمنون عن الكافرين لا تنزل آية العذاب، فطوفان نوح عليه السلام لم يأت إلا بعد أن ركب السفينة، ولم ينزل العذاب علي أهل سيدنا إبراهيم إلا بعد أن خرج من أرض الكلدانين (العراق) إلي الشام ومصر. وبنفس الطريقة حدث مع سيدنا لوط، وسيدنا هود، وسيدنا صالح وسيدنا شعيب عليهم جميعاً السلام، إذ لم تنزل آيات العذاب إلا بعد أن رحلـــوا مع أهليهم، وبعد أن هاجر كل هؤلاء نزلت معجزة العذاب بصورها المختلفة، فهلك الكافرون ونجا المؤمنون. وقد بين القرآن

الكريم هذه الأحداث في مواقع عدة، وجعله الله قانوناً لا يمكن أن يبدل أو يغير مثلما فصله القرآن قبل ذلك ضمن مفهوم سنة الله، وقد بين الله هذه الأصول في سورة يونس.

" فهل ينتظرون إلا مثل أيام الذين خلوا من قبلهم قل فانتظروا إني معكم من المنتظرين. ثم ننجي رسلنا والذين آمنوا كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين " (يونس: ١٠٢ – ١٠٣)

الرسول صلي الله عليه وسلم ومعجزة الهداية

كان جزء كبير من المعجــزات التي جاءت للهداية عن طريق النبي صلي الله عليه وسلم في شكل النصر والتأييد، وقوة التأثير غير العادية، واستجابة الدعاء والتنبؤ. وكانت نتيجة هذه القوة المؤثرة غير العادية أن قريشاً كانت تمنع الناس من الذهاب إليه. وهناك ذكر للعديد من الواقعات في كتب السيرة، وهذه الآية تدلنا علي ما كان يعترف به الكافرون بداخلهم: ـــ

" ولا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون " (فصلت: ٢٦)

فكان يرعبهم أثر القرآن، ولم يكن أمامهم إلا أن يبعــدوا الناس عنه، وأن يشوشوا عليه حتى لا يصل إلي آذان الناس، وكان الكفار يؤمنون إيماناً كاملاً باستجابة دعاء النبي صلي الله عليه وسلم. وذات مرة عندما حاول أبو جهل وسادة قريش أن يشوشوا علي الرسول صلي الله عليه وسلم أثناء أدائه الصلاة في الحرم فدعا عليهم الرسول كما صرح بذلك البخاري ومسلم أنهم ارتعشوا لسماعه ([1]) !. وذات مرة عندما حدث قحط عظيم في

---

[1] ــ صحيح البخاري آخر كتاب الوضوء، وهذا نص الحديث: (٢٤١) ـــ حدَّثنا عبدانُ قال: أخبرَنــي أبي عن شُعبة عن أبي إسحاقَ عن عَمرو بنِ مَيمونٍ عن عبدِاللَّهِ قال: بَيْنا رسولُ اللَّهِ صــلى الله عليــه وسلم سَاجِدٌ ح. قال وحدَّثني أحمدُ بنُ عثمانَ قال: حدَّثَنا شُرَيحُ بنُ مَسلَمَةَ قال: حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ يوسُـفَ عن أبيهِ عن أبي إسحاقَ قال: حدَّثني عَمرُو بنُ مَيمونٍ أنَّ عبدَاللَّهِ بنَ مَسعودٍ حدَّثَهُ أنَّ النبيَّ صــلى الله عليه وسلم كان يُصلِّي عندَ البيتِ وأبو جَهلٍ وأصحابٌ لهُ جُلوسٌ إذْ قال بعضُهُمْ لِبَعضٍ: أيُّكمْ يَجيءُ بِسلَى جَزورِ بَني فلانٍ فيَضَعُه علَى ظَهرِ مُحمدٍ إذا سَجَدَ. فانبَعَثَ أشْقَى القومِ فجاءَ بهِ، فنظَرَ حتــى إذا ســجدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وضعَهُ علَى ظَهرهِ بَينَ كَتِفَيْهِ وأنا أنْظُرُ لا أُغَيِّرُ شيئاً، لو كان لي مَنَعَةٌ. قــال: فَجَعَلوا يَضْحكونَ ويُحيلُ بَعضُهم علَى بَعضٍ، ورسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ساجِدٌ لا يَرفَــعُ رأسَــه، حتى جاءَتْهُ فاطمةُ فَطَرحَتْ عن ظهرِهِ، فرفَعَ رأسَه ثمَّ قال: «اللهمَّ عليكَ بقُرَيش» ثلاثَ مــرَّاتٍ. فــشَقَّ عليهم إذ دَعا عليهم. قال: وكانوا يَرونَ أنَّ الدَّعوةَ في ذلكَ البَلَدِ مُستجابة. ثم سَمَّى: «اللهمَّ عليــكَ بــأبي جَهل، وعليكَ بعُتبَةَ بن رَبيعةَ، وشَيبةَ بنِ ربيعةَ، والوَليدِ بن عُتبةَ، وأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وعُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ» وعدَّ السَّابعَ فلم نحفَظْهُ. قال: فوَالذي نفسي بِيَدِهِ، لقد رأيتُ الذينَ عدَّ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليــه وســلم

مكة فجاء أبو سفيان إلي النبي وقال له يا محمد إن قومك قد أصابهم الهلاك فادعوا ربك أن يبعد عنهم هذا البلاء ([1])، وبالفعل دعا الرسول ربه فاستجاب له وأزاح البلاء عنهم. وهكذا كانت تعترف قريش بصدق تنبؤاته فلو تتذكر قبل غزوة بدر عندما علم أُمية عن طريق سعد الأنصاري أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد تنبأ بقتله فأصابه القلق وأثر هذا علي زوجته لدرجة أنها أمسكت بتلابيب زوجها في غزوة بدر وقالت له ألم تذكر تنبؤ محمد لك.[2] ونبوءته المشهورة بانتصار الروم وفي اليوم التي تحقق فيه هذه النبوءة دخل

صَرعى في القَليبِ، قَليبِ بَدْر. (يوسف عامر). وصحيح مسلم باب " مـا لقـي النبـي (ص) مـن أذى المشركين.

[١] ــ صحيح البخاري تفسير سورة الدخان، وهذا نص الحديث: (٤٧٠٣) ــــ حدَّثنا يحيى حـدَّثنا أبـو مُعاويةَ عن الأعمش عن مسلم عن مَسروقٍ قال: «قال عبدُ الله: إنما كان هذا لأنَّ قُريشاً لما استعـصَوا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم دَعا عليهم بِسِنين كسِنِي يوسفَ، فأصابهم قَحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظامَ، فجعلَ الرجلُ يَنظُرُ إلى السماءِ فيَرى ما بَيْنَهُ وبينها كهيئةِ الدُّخانِ منَ الجهد. فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ {فارتَقِبْ يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبينٍ، يَغشى الناسَ، هذَا عَذَابٌ أليم} قال: فأُتيَ رسولُ الله فقيل له: يا رسـولَ الله استَسْقِ اللَّهَ لمضَرَ فإنها قد هَلَكت. قال لمضَرَ؟ إنكَ لجرِيء، فاستسقى، فسُقوا، فنزلت {إنكـم عائـدون} (الدخان: ١٥) فلما أصابتهمُ الرَّفاهية عادُوا إلى حالِهم حين أصابتهمُ الرفاهية، فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ {يوم نَبطِشُ البَطْشَةَ الكبرَى إنا مُنتَقِمون} (الدخان: ١٧) قال: يعني يوم بدر». (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح البخاري أول كتاب المغازي. وهذا نص الحديث: (٣٨٦٤) ــــ حدثني أحمدُ بـن عثمـانَ حدَّثَنا شُرَيحُ بن مَسلمةَ حدَّثَنا إبراهيمُ بن يوسفَ عن أبيهِ عن أبي إسحاقَ قال: حدَّثني عمْرو بن مَيمـونٍ أنهُ سمعَ عبدَ الله بن مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه حدَّثَ «عن سعدِ بن مُعاذ أنه قال: كان صَـديقاً لأُميـةَ بـن خَلَف، وكان أُميةُ إذا مرَّ بالمدينة نزلَ على سعدٍ، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكةَ نزلَ على أُمية. فلما قدِمَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم المدينةَ انطلَقَ سعدٌ مُعتمِراً، فنزلَ على أُميةَ بمكةَ، فقال لأُميةَ: انظُرْ لي سـاعةَ خَلوةٍ لعلِّي أن أطوفَ بالبيت. فخرَجَ بهِ قريباً من نصفِ النهارِ، فلَقِيَهما أبو جَهلٍ، فقال: يا أبا صَـفوانَ، مَن هذا معَك؟ فقال: هذا سعدٌ. فقال له أبو جهل: ألا أراكَ تطوفُ بمكةَ آمناً وقد آوَيتمُ الصُّبَاةَ وزعمـتم أنكم تَنصُرُونَهم وتُعِينونَهم. أما واللهِ لولا أنكَ مع أبي صَفوانَ ما رَجعتَ إلى أهلكَ سالماً. فقال له سعد ــ ورَفَعَ صوتَهُ عليه ــ: أما واللهِ لئن مَنَعتَني هذا لأمنعنَّكَ ماهو أشدُّ عليكَ منه: طريقَكَ على المدينة، فقال له أُميةُ: لا تَرفَعْ صوتَكَ يا سعدُ على أبي الحكم سيدِ أهلِ الوادي. فقال سعدٌ: دَعْنا عنكَ يا أُمية، فواللهِ لقد سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «إنهم قاتلوك». قال: بمكةَ؟ قال: لا أدري. ففَزِعَ لذلكَ أُميةُ فزَعاً شديداً. فلما رجعَ أُميةُ إلى أهله قال: يا أُمَّ صفوانَ، ألم تَرَي ما قال لي سعدٌ؟ قالت: وما قال لـك؟ قال: زعمَ أنَّ محمداً أخبرهم أنهم قاتليَّ. فقلت له: بمكةَ؟ قال: لا أدري. فقال أُميةُ: واللهِ لا أخـرجُ مـن مكةَ. فلما كان يومُ بدرٍ استنفَرَ أبو جهلٍ الناسَ قال: أدرِكوا عِيرَكم. فكَرِهَ أُميةُ أن يَخرُجَ، فأتاهُ أبو جهـلٍ

العديد من الناس في الإسلام بصداقة هذه الآية.([1]) ولقد شاهد القرشيون كل الآيات التي جاءت لتأييد وقوة سيدنا محمد ([2])صلي الله عليه وسلم. وكانوا يجهزون للهجوم عليه أكثر من مرة ولكن الفشل كان حليفهم دائماً، وذات مرة عزم أبو جهل في أن يؤذي النبي إلا

فقال: يا أبا صفوان إنكَ متى ما يَراكَ الناسُ قد تخلَّفتَ وأنتَ سيدُ أهلِ الوادي تخلَّفوا معك. فلم يَزَلْ بـه أبو جهلٍ حتى قال: أمّا إذ غلبْتني فوالله لأشترينَّ أجودَ بعير بمكة. ثمَّ قال أميةُ: يا أمَّ صفوانَ جَهِّزيني. فقالت له: يا أبا صفوانَ وقد نَسيتَ ما قال لكَ أخوكَ اليَثْرِبيُّ؟ قال: لا، ما أُريدُ أن أجوزَ معَهم إلا قَريباً. فلما خَرجَ أميةُ أخذ لا ينزِلُ منزِلاً إلا عقَلَ بعيرَه، فلم يزَلْ بذلكَ حتى قتلَه الله عزَّ وجلَّ ببَدر». (يوسف عامر).

[1] ــ الترمذي تفسير سورة النور. وهذا نص الحديث: (٣٣١٤) ـــ حدثنا مُحَمَّدُ بنُ إِسْمَاعِيلُ حدثنا اسْمَاعِيلُ بنُ أَبِي أُوَيْسٍ حدثني ابنُ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ أَبِي الزِّنَادِ عَنْ عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيْرِ عَنْ نِيَارِ بـنِ مُكْـرَمٍ الأَسْلَمِيِّ، قَالَ «لَمَّا نَزَلَت {الم غُلِبَتِ الرُّومُ في أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِينَ} فَكَانَتْ فَارِسُ يَوْمَ نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ قَاهِرِينَ للرُّومِ وكانَ المُسْلِمُونَ يُحِبُّونَ ظُهُورَ الرُّومِ عَلَيْهِمْ لأَنَّهُمْ وإِيَّاهُمْ أَهْلُ كِتَابٍ وفي ذَلِكَ قَوْلُ الله تَعَالَى {وَيَوْمَئِذٍ يَفْرَحُ المُؤْمِنُونَ بِنَصْرِ الله يَنْصُرُ مَنْ يَـشَاءُ وَهُـوَ العَزِيـزُ الرَّحِيمُ} وكَانَتْ قُرَيْشٌ تُحِبُّ ظُهورَ فَارِسَ لأَنَّهُمْ وإِيَاهُمْ لَيْسُوا بأَهْلِ كِتَابٍ وَلاَ إِيمَانٍ بِبَعْثٍ، فَلَمَّـا أَنْـزَلَ تَعَالَى الله هَذِهِ الآيَةَ خَرَجَ أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ رضي الله عنه يَصِيحُ في نَوَاحِي مَكَّةَ {الم غُلِبَتِ الـرُّومُ فـي أَدْنَى الأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلَبِهِمْ سَيَغْلِبُونَ في بِضْعِ سِنِينَ} قَالَ نَاسٌ مِنْ قُرَيْشٍ لأَبِي بَكْـرٍ فَـذَلِكَ بَيْنَنَـا وَبَيْنَكُمْ زَعَمَ صَاحِبُكم أَنَّ الرُّومَ سَتَغْلِبُ فَارِسَ فِي بِضْعِ سِنِينَ أَفَلاَ نُرَاهِنُكَ عَلَى ذَلِكَ قَالَ بَلَى، وَذَلِكَ قَبْـلَ تَحْرِيمِ الرِّهَانِ فَارْتَهَنَ أَبُو بَكْرٍ والمُشْرِكُونَ وَتَوَاضَعُوا الرِّهَانَ وقَالُوا لأَبِي بَكْرٍ كَمْ تَجْعَلُ البِـضْعُ ثَـلاَثَ سِنِينَ إِلَى تِسْعِ سِنِينَ فَسَمِّ بَيْنَنَا وَبَيْنَكَ وَسَطاً تَنْتَهِي إِلَيهِ. قَالَ فَسَمَّوا بَيْنَهُمْ سِتَّ سِنِينَ، قَالَ فَمَضَتِ الـسِّتُّ سِنِينَ قَبْلَ أَنْ يَظْهَرُوا فَأَخَذَ المُشْرِكُونَ رَهْنَ أَبِي بَكْرٍ، فَلَمَّا دَخَلَت السَّنَةُ السَّابِعَةُ ظَهَرَتِ الرُّومُ عَلَى فَارِسَ فَعَابَ المُسْلِمُونَ عَلَى أَبِي بَكْرٍ تَسْمِيَةَ سِتِّ سِنِينَ قَالَ لأَنَّ الله تعالى قَالَ في بِضْعِ سِنِينَ، قَالَ وَأَسْلَمَ عِنْـدَ ذَلِكَ نَاسٌ كَثِيرٌ».

قَالَ أَبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ غَرِيبٌ لا نَعْرِفُهُ إِلاَّ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ الرَّحمٰنِ بنِ أَبـي الزِّنَـادِ. (يوسف عامر).

[2] – صحيح مسلم باب قوله تعالي " وما كان الله ليعذبهم ". وهذا نص الحديث كمـا ورد فـي صـحيح البخاري، باب وما كان الله ليعذبهم: (٤٥٣١) حدَّثنا محمدُ بن النَّضرِ حدَّثنا عُبيدُ الله بن مُعاذٍ حدَّثنا شعبةُ عن عبدِ الحميد صاحب الزِّياديِّ سمعَ أنسَ بن مالكٍ «قال: قال أبو جَهل: {اللهمَّ إن كان هذا هو الحقَّ من عندِك فأمطِرْ علينا حجارةً منَ السماءِ أوِ ائتنا بعذابٍ أليم} فنزلت {وما كان اللّهُ ليُعذِّبَهم وأنتَ فيهم، ومـا كان اللّهُ معذِّبَهم وهم يستغفرون. وما لهم أن لا يُعذِّبهم اللّه وهم يَصدُّونَ عن المسجد الحـرام} الآيـة». (يوسف عامر).

أنه خاف ورجع فسأله رفاقه ماذا حدث فقال أني أري بيني وبين محمد خندق من نار وبعض المخلوقات الطائرة. ([1])

كان شق القمر آخر علامات الهداية

كانت معجزة شق القمر من بين معجزات الهداية الفاصلة والقاطعة لكفار قريش والتي كانت تبدأ بعدها آيات الهلاك. وورد في الأحاديث الشريفة أن كفار مكة كانوا يطالبون الرسول بالمعجزات، فأراهم الرسول صلي الله عليه وسلم معجزة شق القمر، فانشق القمر إلي نصفين، ولكن لم يؤمن المعاندون بهذه المعجزة الجلية، وادعي البعض أن محمداً صلي الله عليه وسلم، قد سحرهم وقال أحدهم: أن مثل هذه الأمور الغريبة تحدث دائماً. وهكذا ورد ذكر هذه الحادثة في القرآن الكريم: ـــ

" اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر" (القمر: ١ – ٢)

لقد اختارت رحمة الله أسلوباً آخر، يعني أن قهره وغضبه عزم علي أن يطهر سطح الأرض من هذه الكائنات والعناصر الفاسدة، وأن السنة الإلهية التي جرت مع الأمم السابقة، يعني حتمية هلاك الكفار بعد كفرهم بمعجزات الله، وهـــو ما حدث مع قريش، وطبقـــاً لتفسير سنة الله السابقة، كان من الضروري أن يحدث أحد أمرين قبل نزول العذاب: ـــ

١ـــ أن يهاجر الرسول صلى الله عليه وسلم مع أتباعه من مكة إلي المدينة.

٢ ـــ ظهور معجزة الهداية قبل الهجرة. وهكذا ظهرت معجزة شق القمر قبل الهجرة، وعندما لم يؤمن بها سادة قريش جاء الحكم للنبي صلى الله عليه وسلم بالهجرة من مكة، وقرب وقت نزول الهلاك، ففهم العارفون بأسرار النبوة من الصحابة أن الهجرة

---

[٢] – كنا نعتقد وطبقاً للأحكام الإلهية الواردة في القرآن الكريم أن معجزة شق القمر ظهرت قبل الهجـــرة ولكن كتب المغازي وكُتب الأحاديث المطبوعة ظلت صامتة حول إنكار وإثبات هذه المعجزة. وفي تلـــك الأثناء وصل إلي أيدي كتاب الحاكم " المستدرك " المجلد الثاني والذي طبع في حيدر آباد فيه تـــصريح عن عبد الله بن مسعود والذي كان شاهدَ عيان في معجزة شق القمر، يقول فيه أن هذه المعجزة ظهـــرت قبل هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وجاءت رواية انحاكم هذا مطابقة لما جاء في صحيح البخاري ومسلم وقد لخصها الحافظ الدهني في كتابه " تلخيص المستدرك "، وكتب أيضاً أن هذه الرواية موجودة عند المؤلف عبد الرازق (المستدرك الجزء الثاني ـــ ص. ٤٧١ ـــ حيدر آباد)، لا يشار للحاشـــية فـــي النص.

هي بداية أو مقدمة لنزول العذاب (المستدرك ــ الجزء الثالث ص ٧، ومسند ابن حنبل ــ الجزء الأول. ص ٢١٦)، وعندما خرج الرسول صلي الله عليه وسلم من مكة قال أبو بكر: إن أهل مكة أخرجوا رسولهم، ولابد وأن يحيق بهم العذاب ونزلت آية القتال " أذن للذين " ([1])

الرسول صلي الله عليه وسلم ومعجزة الهلاك

ظل الرسول صلى الله عليه وسلم يدعوا قريشاً في مكة لمدة ثلاث عشر عاماً، وقد تحمل خلال هذه السنوات كل أنواع الأذى في سبيل هذه الدعوة، وأراهم كل آيات الهداية المختلفة، وفي النهاية رأوا بــعينهم واقعة شق القمر وأخيراً جاء الوقت الذي مر علي الأمم الأخرى أمام أنبيائهم، وقبل الصالحون من أبناء قريش دعوة الحق دون خوف وتردد، وظل سادة قريش الذين لم تكن لديهم الأهلية مطلقاً لقبول الحق، أو الضعفاء الذين كانوا يخضعون لجبروت سادتهم ؛ ولهذا كان من الضروري أن تُطهر أرض الحرم من وجود هؤلاء السادة. ويئس الرسول صلى الله عليه وسلم من مكة، وذهب إلي الطائف، ولم يكن أيضاً أحد مستعداً لسماع كلمة الحق، وألقي الأشرار الحجارة علي النبي صلى الله عليه وسلم في الطريق والسوق، إلي أن جرحت قدمه صلي الله عليه وسلم، وكان عائداً إلي مكة فنادته ملائكة الجبال: لو أردت لأطبقت عليهم الجبال، ولم ييئس الرسول صلى الله عليه وسلم، وطلب من ربه أن لا يهلكهم، فلربما يخرج من صلبهم من يقول " لا إله إلا الله ". وورد في صحيح البخاري ومسلم أن السيدة عائشة رضي الله عنها سألت الرسول صلى الله عليه وسلم: ما هي أصعب الأيام التي مرت بك بالإضافة إلي أُحد ؟ فأخبرها ﷺ بأنه ذلك اليوم الذي عرض فيه دعوته ﷺ أمام زعيم الطائف (عبد يا ليل) فرفض. وكان عائداً مغموماً فجاءه ملك الجبال وطلب منه أن يهلكهم فأجبته.([2]) فاعتبره

---

[1] ــ (النسائي كتاب الجهاد، والترمذي، وفي تفسير الآية السابقة ورد هذا الحديث "س")

[2] ــ مسلم باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين، والبخاري - كتاب بــدء الخلــق. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٣١٦١) ـــ حدّثنا عبدُ اللهِ بن يوسفَ أخبرَنا ابنُ وهب قال: أخبرني يونسُ عن ابنِ شهاب قال: حدَّثني عروةُ: «أنَّ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها زوجَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم حدَّثتهُ أنها قالت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُدٍ ؟ قــال: لقــد لَقِيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشدُّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبةِ إذ عرَضتُ نفسي على ابنِ عبد يا ليل بــنَ عبد كُلال فلم يُجِبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مَهمومٌ، على وَجهي، فلم أستَفِق إلا وأنا بقرنِ الثَّعالــب، فرَفَعتُ رأسي، فإذا أنا بَسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمعَ قــولَ

الرسول من أشد الأيام صعوبة عليه. ويُفهم من هذا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قرر أن يوم الطائف هو أشد الأيام وأصعبها كلفة عليه. ولكن ليست هذه الحادثة الوحيدة، فقد مرت عليه ساعات إيذاء وابتلاء أشد منها، ولكنه عدها أصعب الأيام لأنها كانت آخر فرصة ومهلة لقريش. وكانت معجزة الهلاك تطل علي رءوسهم، وكان صلي الله عليه وسلم قلقاً بشأن هؤلاء عندما علم بنزول الهلاك عليهم، في حين أن هؤلاء الحمقى كانوا يسخرون منه كما فعلت الأمم السابقة مع أنبيائها، وكان كفار قريش يذهبون إلي النبي صلى الله عليه وسلم يستعجلونه بالعذاب، وكانوا يقولون لو أن لك قدرة وصدق فلترنا آخر الآيات.

" ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إني معكم من المنتظرين " (يونس: ٢٠)

وأحياناً كانوا يقولون: ـــ

" أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفاً أو تأتي بالله والملائكة قبيلا " (الإسراء: ٩٢)

" لو ما تأتينا بالملائكة إن كنت من الصادقين " (الحجر: ٧)

فرد عليهم الله: ـــ

" وما كانوا إذاً منتظرين " (الحجر: ٨)

كان كفار قريش يستعجلون العذاب، لأنهم كانوا يعتقدون بأنها نبوءة كاذبة. فقال الله طالما إن بركات قدوم النبي لم تنته، بمعني أنه إذا لم ينفصل الصالح عن الطالح منهم فلن يأتي العذاب.

" ويستعجلونك بالسيئة قبل الحسنة وقد خلت من قبلهم المثلات وإن ربك لذو مغفرة للناس علي ظلمهم وإن ربك لشديد العقاب " (الرعد: ٦)

وقد ذكر الله هذه المعجزة في القرآن الكريم: ـــ

" لا يؤمنون به حتى يروا العذاب الأليم. فيأتيهم بغتة وهم لا يشعرون. فيقولوا هل نحن منظرون. أفبعذابنا يستعجلون. أفرأيت إن متعناهم سنين. ثم جاءهم ما كانوا يوعدون. ما

قومكَ لك وما ردّوا عليك، وَقد بعث اللهُ إليكَ مَلَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهم، فناداني ملكُ الجبالِ فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلكَ فيما شئتَ، إن شئتَ أن أطبقَ عليهم الأخشبَين. فقال النبيُ صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم من يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشركُ بهِ شيئاً». (يوسف عامر).

أغنى عنهم ما كانوا يمتعون. وما أهلكنا من قرية إلا لها منذرون " (الشعراء: ٢٠٢ ٢٠٨)

وطبقاً لهذه الأصول فإنه قبل هلاك أية أمة لابد وأن يكون من بينهم منذر ينذرهم، ولهذا جاء إلي قريش منذر، فلو لم يستجيبوا له فسيكونون مثل القوم السابقين، ويمحو من الأرض، وقد بين الله لقريش صورة الأمم السابقة في سورة الحج.

" فكأين من قرية أهلكناها وهي ظالمة فهي خاوية علي عروشها وبئر معطلة وقصر مشيد. أفلم يسيروا في الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمي الأبصار ولكن تعمي القلوب التي في الصدور. ويستعجلونك بالعذاب ولن يخلف الله وعده وإن يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون. وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإليّ المصير. قل يا أيها الناس إنما أنا لكم نذير مبين " (الحج: ٤٥ – ٤٩)

فقد أشار الله إلي سادة قريش بقوله: –

" فهل ينظرون إلا سنة الأولين " (فاطر: ٤٣)

وهكذا اكتملت أيام قانون الأمم السابقة، وجاء الأمر للرسول بأن يخرج من بين الكفار، وكما ذكرنا سابقاً فطالما لم يهاجر الرسول مع قومه فلن ينزل العذاب، وهكذا فإن كفار قريش كانوا متلهفين لنزول هذه المعجزة، وكانوا قد استفزوه من قبل.

" وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولن تجد لسنتنا تحويلا " (الإسراء: ٧٦ – ٧٧) وذات مرة كان الرسول صلي الله عليه وسلم يصلي في صحن الحرم، وكان كفار قريش يستهزءون ويقهقهون حوله، فنهض أبو جهل وقال: من منكم يذهب المذهب ويأتينا بكرش البعير. وهكذا فعل أحد الأشرار ووضعوه علي رأس الرسول صلى الله عليه وسلم، ولم يستطع الرسول صلى الله عليه وسلم أن يرفع رأسه من هذا الحمل، وقهقه الكفار لهذا المنظر، وكان سيدنا عبد الله بن مسعود شاهداً لهذه الحادثة وقال: كنت أشاهد هذا، ولكن لم تكن لدي القوة بأن أتفوه بشيء أمامهم. وفي تلك الأثناء ذهب شخص وأبلغ السيدة فاطمة رضي الله عنها، وكانت طفلة في ذلك الوقت، فجاءت، وأماطت النجاسة عنه، فرفع الرسول صلى الله عليه وسلم رأسه، وكانت هذه هي المرة الأولي التي يأس فيها الرسول صلى الله عليه وسلم من إيمان سادة قريش، ليس لأن جسده المبارك أُوذي، بل لوقوع الخلل في الصلاة التي كانت أحب الأشياء عند رسول الله صلي الله عليه وسلم.

" أ رأيت الذي ينهي عبداً إذا صلي " (العلق: ٩ - ١٠)

وكانت هذه الفرصة الأخيرة لسادة قريش، فدعا عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم بصوت مسموع، وطلب من ربه أن ينزل عليهم معجزة الهلاك الأخيرة، ولكن انظر إلي شفقة ورحمة الرسول الكريم، إذ أنه لم يطلب كسيدنا نوح وسيدنا موسى عليهما السلام أن يهلك الله كل قومه، ولكن دعا علي سادة قريش فقط، وخص اسم سبعة فقط من سادتهم وقال: اللهمَّ عليكَ بأبي جَهل، وعليكَ بعُتبةَ بن رَبيعةَ، وشَيبةَ بنِ ربيعةَ، والولَيدِ بن عُتبَةَ، وأُمَيَّةَ بنِ خلَفٍ، وعُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ» وعندما سمع هؤلاء دعاءه عليهم جن جنونهم ([1])، وطبقاً لسنة الله فقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بدعاء الهجرة أثناء المعراج:

" ربِ ادخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيراً "([2]) (الإسراء: ٨٠)

وقُبل الدعاء، وجاءت البشري للرسول الكريم:

" جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " (الإسراء: ٨١)

---

[1] - البخاري ومسلم باب ما لقي النبي من أذى المشركين. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٢٤١) حدَّثنا عبدانُ قال: أخبرَني أبي عن شُعبة عن أبي إسحاقَ عن عَمرِو بنِ مَيمونٍ عن عبدِاللَّهِ قال: بَيْنا رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم سَاجِدٌ ح. قال وحدَّثني أحمدُ بنُ عثمانَ قال: حدَّثَنا شُرَيحُ بنُ مَسلَمَةَ قال: حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ يوسُفَ عن أبيهِ عن أبي إسحاقَ قال: حدَّثني عَمرُو بنُ مَيمونٍ أنَّ عبدَاللَّهِ بنَ مَسعودٍ حدَّثَهُ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يُصلِّي عندَ البيتِ وأبو جَهلٍ وأصحابُ لهُ جُلوسٌ إذْ قال بعضُهُمْ لِبَعضٍ: أيُّكمْ يَجيءُ بسلَى جَزورِ بَني فلانٍ فيَضَعُه علَى ظَهرِ مُحمدٍ إذا سَجَدَ. فانْبَعَثَ أشْقَى القومِ فجاءَ بهِ، فنظَرَ حتى إذا سَجدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وضعَهُ علَى ظَهرِهِ بَينَ كَتِفَيْه وأنا أنْظُرُ لا أُغيِّرُ شيئاً، لو كان لي مَنَعَةٌ. قال: فَجَعَلوا يَضْحكونَ ويُحيلُ بَعضُهم علَى بَعضٍ، ورسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ساجدٌ لا يَرفَعُ رأسَه، حتى جاءَتْهُ فاطمةُ فَطَرحَتْ عن ظهرِهِ، فرفَعَ رأسَه ثمَّ قال: «اللهمَّ عليكَ بقُرَيش» ثلاثَ مرَّاتٍ. فشَقَّ عليهم إذ دَعا عليهم. قال: وكانوا يَرونَ أنَّ الدَّعوةَ في ذلكَ البَلَدِ مُستجابة. ثم سَمَّى: «اللهمَّ عليكَ بأبي جَهل، وعليكَ بعُتبةَ بن رَبيعةَ، وشَيبةَ بنِ ربيعةَ، والولَيدِ بنِ عُتبةَ، وأُميَّةَ بنِ خلَفٍ، وعُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ» وعدَّ السابعَ فلم نحفَظْهُ. قال: فوَالذي نفسي بيدهِ، لقد رأيتُ الذينَ عَدَّ رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم صَرعى في القَليبِ، قَليبِ بَدْر.(يوسف عامر).

[2] - الترمذى تفسير الآية المذكورة في سورة (الإسراء)، ومستدرك الحاكم باب الهجرة صرح بأن هذا كان دعاء الهجرة.

وطبقاً للسنة المتبعة مع الأنبياء فقد هاجر الرسول مع أصحابه وأتباعه، وجاء اليوم الذي كان منتظراً، وقد ذكر القرآن أنه لنزول آية العذاب علي سادة قريش، وكان انتظاراً لحدوث الهجرة، أما وإن الهجرة قد تمت، فليس هناك انتظار أكثر من هذا.

" وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين. وإذا تتلي عليهم آياتنا قالوا قد سمعنا لو نشاء لقلنا مثل هذا إن هذا إلا أساطير الأولين. وإذ قالوا اللهم إن كان هذا هو الحق من عندك فأمطر علينا حجارة من السماء أو ائتنا بعذاب أليم. وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون. وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه إن أولياؤه إلا المتقون " (الأنفال: ٣٠ – ٣٤)

كانت غزوة بدر معجزة للهلاك

مثلما حدث للأمم الأخرى معجزات العذاب المختلفة كانت أيضاً معجزة غزوة بدر، إذ كانت عذاباً للقوم الذي بعث فيهم الرسول صلي الله عليه وسلم، وبدعاء الرسول عليهم أصاب قريش القحط قبل الهجرة، لدرجة أن ضعفت أبصارهم من الجوع، وكانوا ينظرون إلي السماء فتبدو كدخان في أعينهم، فذهب بعض سادة قريش إلي النبي صلى الله عليه وسلم، وطلبوا منه أن يسأل الله لهم الرحمة والمغفرة. ألا تري كيف صار حال قريش من جراء هذا القحط ؟ فدعا لهم الرسول صلى الله عليه وسلم، وأزاح الله عنهم البلاء، ولكن انحرفت قريش مرة أخري، واستكبرت، ولم تكن هناك طريقة أخري لعلاجهم أو لإصلاحهم سوي نزول معجزة العذاب عليهم. وهكذا جاءت غزوة بدر بمثابة البطشة الكبرى لهم، وقد وضح القرآن الكريم لهم هذا قبل الهجرة في مكة بأنهم سيصيبهم قحط، ثم التماسهم بأن يكشف الله عنهم الغمة، وأنبأهم بعدها بغزوة بدر.

" فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. يغشي الناس هذا عذاب أليم. ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون. أنى لهم الذكري وقد جاءهم رسول مبين. ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون. إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون. يوم نبطش البطشة الكبرى منتقمون. ولقد فتنا قبلهم قوم فرعون " (الدخان: ١١ – ١٧)

وقد صورت الآية الكريمة كل هذه الأحداث، وبينت في النهاية أن البطشة الكبرى لسادة قريش تحتل نفس المكانة التي كانت لغرق فرعون في البحر. وقد بين عبد الله بن مسعود أن هناك آيتين نزلا في حق قريش: واحدة عندما أعرضوا وكفروا ودعا النبي

صلى الله عليه وسلم عليهم بقوله: "اللهمَّ أعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبع يوسفَ".([1]) وهكذا أصاب مكة قحط شديد لدرجة أن السماء كانت تبدو لقريش من الجوع كدخان يطير، ثم جاءوا وطلبوا من الرسول صلى الله عليه وسلم الدعاء بالمغفرة لهم، فقبل الله دعاء الرسول صلى الله عليه وسلم، ونزل المطر، وقال الله تعالى(إِنَّا كَاشِفُو الْعَذَابِ قَلِيلاً إِنَّكُمْ عَائِدُونَ) (الدخان:١٥)

بمعني أنهم لن يقبلوا الإيمان. وهذا ما حدث بالفعل، ثم حدد الله لهم بعد ذلك يوم البطشة الكبرى (بدر) ([2]). وكما ذكرنا أن قريشاً آذوا الرسول أثناء الصلاة، ودعا الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بأسمائهم، وقبلها كانت غزوة قريش قد حدثت، وبعد الهجرة أنذرهم بالهلاك والعذاب، وقبل بدر كان سعد الأنصاري كان ذاهباً إلي العمرة، فمنعه أبو جهل، فأراد أُمية أن يتدخل، فقال له سعد: لا تتدخل يا أُمية، لأن الرسول صلى الله عليه وسلم قال بأنك ستقتل علي يديه، فخاف أُمية بعد أن سمع هذا، وعندما وقعت غزوة بدر تردد في الذهاب إلي المعركة، وأراد أن يتجنب لعنات الناس له، فأمسكت به زوجته وقالت له: ألا تتذكر كلام الصديق اليثربي (يقصد سيدنا سعد). ([3])

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح البخاري: (٤٦٥٦) ـــ حدَّثَنا محمدُ بن كثيرٍ حدَّثَنا سفيانُ حدَّثَنا منصورٌ و الأعمش عن أبي الضحى عن مَسروق قال: «بينما رجلٌ يُحدِّثُ في كِندَةَ فقال: يجيء دُخانٌ يومَ القيامة فيأخُذُ بأسماع المنافقين وأبصارِهِم يأخذُ المؤمنَ كهيئةِ الزُّكام، فَفَزِعنا. فأتيتُ ابنَ مسعودٍ وكان متَّكئاً، فغضبَ فجلسَ فقال: مَن علم فليَقُل، ومن لم يعلم فليَقُل: اللَّهُ أعلم؛ فإنِ منَ العلم أن يقول لما لا يَعلم: لا أعلم، فإنَّ اللَّهَ قال لنبيِّهِ: {قل ما أسألُكم عليهِ من أجرٍ وما أنا منَ المتكلِّفين} (ص: ٨٦). وإنَّ قُرَيشاً أبطؤوا عنِ الإسلام، فدعا عليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: اللهمَّ أعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبع يوسفَ؛ فأخذَتهم سَنَةٌ حتى هَلَكوا فيها وأكلوا الميتةَ والعظامَ، ويرَى الرجلُ ما بينَ السماءِ والأرض كهيئةِ الدُّخان، فجاءهُ أبو سفيانَ فقال: يا محمدُ، جئتَ تأمرُنا بصِلةِ الرَّحم، وإنَّ قومكَ قد هلكوا، فادعُ اللَّهَ. فقرأ {فارتقب يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مبين ــ إلى قوله ــ عائدون} (الدخان: ١٠ ــ ١٥) أفيُكشَفُ عنهم عذابُ الآخرةِ إذا جاء، ثم عادوا إلى كفرهم.فذلك قولَهُ تعالى: {يومَ نبطِشُ البطشةَ الكبرى} (الدخان: ١٦) يومَ بدرٍ. و{لِزاماً} (الفرقان: ٧٧) يوم بدر. {آلم غُلِبت الرومُ ــ إلى ــ سيغلِبون} (الروم: ١ ــ ٣) والرُّوم قد مضى. (يوسف عامر).

[2] – صحيح البخاري تفسير سورة الدخان. وصحيح البخاري كتاب المغازي.

[3] ــ صحيح البخاري كتاب المغازي. وهذا نص الحديث: (٣٨٦٤) ـــ حدَّثني أحمدُ بن عثمانَ حدَّثَنا شُرَيحُ بن مَسلمةَ حدَّثَنا إبراهيمُ بن يوسفَ عن أبيهِ عن أبي إسحاقَ قال: حدَّثني عمرُو بن مَيمونٍ أنهُ سمعَ عبدَ اللهِ بن مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه حدَّثَ «عن سعدِ بن مُعاذٍ أنه قال: كان صَديقاً لأميةَ بن خَلَف، وكان

وعندما خرج الرسول صلى الله عليه وسلم مع أتباعه لغزوة بدر، كان في ذلك الوقت - كما ذكرنا بالتفصيل في الجزء الأول - هناك جيشان لقريش أحدهما: القافلة الشامية التي كانت تأخذ طريقها من المدينـــة إلي مكة، والثانية: الكتيبة الحربية لسادة قريش التي كانت خارجة لقتال المسلمين، وقد وعد الله المسلمين بأن يستولي المسلمون علي أحدهما، وكان المسلمون في الغالب يعتقدون أن القافلة التجارية هي التي سيتم الاستيلاء عليها، إلا أن الرسول صلي الله عليه وسلم كان يعلم جيداً أن هذا النصر اليوم لن يكون نصراً عادياً، بل إنه البطشة الكبرى الذي وعده الله إياها من قبل. وعندما وصل المسلمون إلي ميدان بدر فكروا في أن يتجسسوا ليعرفوا أين قافلة قريش التجارية وهكذا أرسلوا بعيونهم هنا وهناك، وقبضوا علي أحد الرعاة وسألوه عن حال قافلة قريش، فأجابهم أنه لا يعرف شيئاً عن هذه القافلة، ولكن جيشهم ومعسكرهم هناك، وضربه المسلمون عندما سمعوا منه هذا، وقالوا له إنك تخفي الحقيقة، وبعد أن ضرب قال: سأخبركم الآن عن القافلة، وعندما تركوه أنكر معرفته بالقافلة وقال: كل ما أعرفه أن جيش قريش أمامكم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم وقتها مشغول في الصلاة، وعندما فرغ منها قال: إذا صدقكم ضربتموه وإذا كذبكم تركتموه صدق، وبعدها قال

أميةُ إذا مرَّ بالمدينة نزلَ على سعدٍ، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكةَ نزلَ على أُميةَ. فلما قدِمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم المدينةَ انطلَقَ سعدٌ مُعتمِراً، فنزلَ على أُميةَ بمكةَ، فقال لأميةَ: انظُرْ لي ساعةَ خَلوةٍ لعلّـــي أن أطوفَ بالبيت. فخَرَجَ بهِ قريباً من نصفِ النهارِ، فلَقِيَهما أبو جَهلٍ، فقال: يا أبا صَفوانَ، مَن هذا معَـــك؟ فقال: هذا سعدٌ. فقال له أبو جهل: ألا أراكَ تطوفُ بمكة آمناً وقد آوَيتمُ الصُّبَاةَ وزعمتم أنكم تَنــصُرونَهم وتُعينونَهم. أما واللهِ لولا أنكَ مع أبي صَفوانَ ما رَجعتَ إلى أهلكَ سالماً. فقال له سعد ــ ورَفَعَ صـــوتَهُ عليه ـــ: أما واللهِ لئن مَنَعتَني هذا لأمنعنَّكَ ماهو أشدُّ عليكَ منه: طريقَكَ على المدينة، فقال له أُميـــة، لا تَرفَعْ صوتكَ يا سعدُ على أبي الحكم سيدِ أهل الوادي. فقال سعدٌ: دَعْنا عنكَ يا أمية، فواللهِ لقـــد ســـمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «إنهم قاتِلوك». قال: بمكةَ؟ قال: لا أدري. ففَزِع لذلكَ أُميةُ فزَعـــاً شديداً. فلما رجعَ أُميةُ إلى أهله قال: يا أُمَّ صفوانَ، ألم تَرَي ما قال لي سعدٌ؟ قالت: وما قال لك؟ قـــال: زعمَ أنَّ محمداً أخبرَهم أنهم قاتليَّ. فقلت له: بمكةَ؟ قال: لا أدري. فقال أُميةُ: واللهِ لا أخرجُ من مكـــةَ. فلما كان يومُ بدرٍ استَنفَرَ أبو جهلٍ الناسَ قال: أدرِكوا عيرَكم. فكَرِهَ أُميةُ أن يَخرُجَ، فأتاهُ أبو جهلٍ فقال: يا أبا صفوان إنكَ متى ما يَراكَ الناسُ قد تَخلَّفتَ وأنتَ سيدُ أهلِ الوادي تَخلَّفوا معك. فلم يَزَلْ به أبو جهلٍ حتى قال: أمّا إذ غَلَبْتَني فواللهِ لأشتَرِينَّ أجودَ بعير بمكة. ثمَّ قال أميةُ: يا أُمَّ صفوانَ جَهِّزيني. فقالت لـــهُ: يا أبا صفوانَ وقد نَسيتَ ما قال لكَ أخوكَ اليَثْرِبيُّ؟ قال: لا، ما أُريدُ أن أجوزَ معَهم إلا قَريباً. فلما خَرَجَ أُميةُ أخذ لا ينزلُ منزِلاً إلا عقَلَ بعيرَه، فلم يزَلْ بذلكَ حتى قتلَه اللهُ عزَّ وجلَّ ببَدرٍ». (يوسف عامر).

الرسول صلى الله عليه وسلم: هذه مكة قد ألقت إليكم أفلاذ كبدها.([1]) وكما يقول الراوي إن مكان مقتلهم لم يتغير سنتيمتراً واحداً عما حدده الرسول صلي الله عليه وسلم، وبالفعل وجد مقتولاً كل من أشار إليه الرسول صلى الله عليه وسلم، وكان عبد الله بن مسعود في صحن المسجد يوم أن دعا الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم. سبحانك يا رب، إن كل سادة قريش السبعة الذين دعا عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم قتلوا في ميدان بدر ([2])، وتحققت بذلك نبوءة البطشة الكبرى.

وقد ورد في سورة الأنفال كل أحداث غزوة بدر، وقال الله تعالي: إنه كان يوم الفصل الذي كان منتظراً من قبل.

" يريد الله أن يحق الحق بكلماته ويقطع دابر الكافرين. ليحق الحق ويبطل الباطل ولو كره المجرمون " (الأنفال: ٧ – ٨)

وجاء في وسط السورة: ـــ

" كدأب آل فرعون والذين من قبلهم كفروا بآيات الله فأخذهم الله بذنوبهم " (الأنفال: ٥٢)

إنه كان يوم الفصل: ـــ

" وما أنزلنا علي عبدنا يوم الفرقان يوم التقي الجمعان " (الأنفال: ٤١)

وقد حدث كل هذا: ـــ

" ليقضي الله أمراً كان مفعولاً " (الأنفال: ٤٢)

نكتة:

عندما تقابل في ميدان بدر ثلاثمائة مسلم بدون عتاد وأسلحة مع ألف من الكفار مسلحين، دعا الرسول صلى الله عليه وسلم عليهم بهذا الدعاء مثلما دعا سيدنا نوح عليه السلام وسيدنا موسى عليه السلام علي قومه فقال نوح: ـــ " ربِ لا تذر علي الأرض من الكافرين ديارا. إنك إن تذرهم يضلوا عبادك ولا يلدوا إلا فاجراً كفاراً "(نوح: ٢٦ – ٢٧). إنهم إن يبقوا يضلوا عبادك، ولن يخرج من نسلهم من يذكر اسمك.

وقال موسى يا ربِ : ـــ " واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم " (يونس: ٨٨)، إلا أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال في هذه الغزوة: «اللَّهُمَّ! أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ! آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ! إِنْ تَهْلِكْ هَــذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ

---

[1] – أي إن هذا اليوم هو يوم انهيار قريش ومستقبل أبو جهل وعتبة وأُبي وغيرهم. (يوسف عامر).

[2] – ورد ذكر كلا الواقعتين في صحيح البخاري ومسلم.

فِي الأَرْضِ»([1]) وقد نقل الحاكم في المستدرك الجزء الثالث. ص٢١ عندما أوتي بأسر بدر، وعندما شاور الرسول أصحابه فيما يتعلق بهم اختلفت آراء الصحابة حولهم، فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن كفار قريش مثلهم في ذلك مثل إخوانهم في الأمم السابقة. فقد دعا نوح عليه السلام علي أمته " رب لا تذر علي الأرض من الكافرين ديارا " ودعا موسى: ربنا امح ثروتهم واغلظ علي قلوبهم، وقال إبراهيم عليه السلام: من

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح مسلم: (٤٥٤٢) ــــ حدثنا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ: حَدَّثَنِي سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ. ح وَحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَاللَّفْظُ لَهُ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ: حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ. حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ! أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ! آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ! إِنْ تَهْلِكْ هَـٰذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ» فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادّاً يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّىٰ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ. ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ. وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتُكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ}. (١٨الأنفال الآيـة: ٩) فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلاَئِكَةِ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَ(حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ. فَنَظَرَ إِلَىٰ الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِياً. فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «صَدَقْتَ. ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ» فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَىٰ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَـٰؤُلاَءِ الأُسَارَىٰ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَىٰ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «مَا تَرَىٰ؟ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ!» قُلْتُ: لاَ. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَرَى الَّذِي رَأَىٰ أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَىٰ أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيّاً مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ (نَسِيباً لِعُمَرَ) فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَإِنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ. لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَىٰ مِنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ» (شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ) وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ}. إِلَىٰ قَوْلِهِ: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً} (١٨الأنفال الآيات: ٦٩ ــ ٦٧) فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ. **(يوسف عامر).**

اتبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم، وقال عيسي عليه السلام: لو عذبتهم فإنهم عبيدك ولو غفرت لهم فإنك القوي العزيز. وبعدها خطب الرسول صلى الله عليه وسلم في قريش قائلاً إنكم قوم تقتلون بغدر، فلن يذهب أحد منكم دون أن يدفع الفدية أو يقتل. وقد أيدت هذه الرواية مبادئنا حرفاً بحرف بمعني أن:

١ــ إن بدراً كانت يوم هلاك لقريش مثلما حدث للأمم السابقة.

٢ــ إن الرسول صلي الله عليه وسلم ذكر نوعين من دعاء الأنبياء في مثل هذه الآية.أحدهما اختار جانب الشدة مثل سيدنا نوح وسيدنا موسى. والثاني اختار جانب الرأفة مثل سيدنا عيسي وسيدنا إبراهيم لكن الرسول صلى الله عليه وسلم اختار طريقاً وسطاً.

الفرق بين السحر والمعجزة، والفرق بين الساحر والرسول

إن مميزات وخصائص الأنبياء التي تم ذكرها في الصفحات السابقة يظهر منها الفرق بين المعجزة والسحر كما يظهر منها الفرق بين الساحر والرسول. فالسحر والشعوذة أدوات للتسلية، في حين أن المعجزة تحمل معها أدوات الصلاح والفساد، والتعمير والتخريب، والتطور والتأخر. وهدف الساحر أن يظهر مهارته بطريقة مثيرة حتى يعجب منها المشاهد لفترة بسيطة، وهدف النبي أو الرسول هو تدعيم وتقوية الدين الإلهي، كما يهدف إلي إصلاح الأمة وتهذيبها، فهو رسول وبشير ونذير وهادي وسراج منير، وتنعدم كل هذه الصفات في الساحر، إذ لا يملك إلا ألاعيب السحر المثيرة. والآيات التي وردت عن السحر في القرآن الكريم يتضح منها أن القرآن لا يؤمن بالسحر، ولا يهتم به أكثر من كونه نوع من الخيال وخداع للنظر، وبين ما قد يصل إليه السحر في قصة هاروت وماروت:

" ما يفرقون به بين المرء وزوجه وما هم بضارين به من أحد إلا بأذن الله ويتعلمون ما يضرهم ولا ينفعهم " (البقرة: ١٠٢)

الخلاصة أنه ليس في السحر شيء حقيقي مؤثر وقد جاءت هذه الحقيقة جلية في سورة طه من أنه خيال ليس إلا.

" حبالهم وعصيهم يخيل إليه من سحرهم أنها تسعي " (طه: ٦٦)

وقد أمر الله سيدنا موسى بأن يلقي عصاه، وكانت النتيجة أن انتصر الحق علي الباطل.

" قلنا لا تخف إنك أنت الأعلى. وألق ما في يمينك تلقف ما صنعوا إنما صنعوا كيد ساحر ولا يفلح الساحر حيث أتي " (طه: ٦٨ - ٦٩)

والفرق الذي أوضحه الله تعالي بين النبي والساحر هو أن النبي يفلح والساحر لا يفلح، وأن محور أفعال وأعمال النبي هو الفلاح والخير وهدف الساحر هو الشر والكذب والخداع. وقد تكرر هذا المفهوم في موضع آخر حينما خاطب سيدنا موسى سحرة مصر:

" ما جئتم به السحر إن الله سيبطله إن الله لا يصلح عمل المفسدين" (يونس: ٨١)

ومعني هذا أن أثر السحر عارض، بينما أثر المعجزة دائم، ونتائجها في الدنيا عظيمة الشأن، وعندما رأي فرعون معجزة موسى عليه السلام قال: إن هذا لسحر، فأجابه سيدنا موسى عليه السلام: " أسحر هذا ولا يفلح الساحرون" (يونس: ٧٧)

الخلاصة إن النجاح والفلاح هما الفرق الأساسي بين والمعجزة.

كان الكفار ينسبون إلي النبي صلي الله عليه وسلم أن كلامه ما هو إلا بقوة الشيطان، فأجابهم الله بأن معرفة هذه الحقيقة أمر يسير إذا كان منبعها الخير أو الشر أو أنها نتيجة لقوة الشيطان أو أنها إعجاز من عند الله، كما تشهد بذلك أفعال وأعمال المدعي، وكما قال سيدنا عيسي عليه السلام أن الشجرة تعرف بثمارها. والفرق بين هاتين القوتين أمر ليس فيه صعوبة، فقال لهم الله نحن نخبركم بأن الشيطان ينزل علي من ؟ " علي كل أفاك أثيم يلقون السمع وأكثرهم كاذبون " (الشعراء: ٢٢٢)

والفرق بين النبي والمتنبي تخبرنا به حياته وأخلاقه بالإضافة إلي أن أعمال الشرير والأفاك لا تكون دائمة: " إن الذين يفترون علي الله الكذب لا يفلحون. متاع قليل ولهم عذاب أليم " (النحل: ١١٦ - ١١٧)

من من الناس يهتدي بهذه الآيات؟

من من الناس يهتدي بهذه الآيات؟ لقد ذكر القرآن صفاتهم وشرائطهم:

١ــ الإيمان بالله: فلو لم يكن مؤمناً فلا يمكن أن يهتدي بالمعجزة، فيجب عليه أولاً أن يتأمل وينظر إلي أسرار وعجائب المخلوقات، ويؤمن بوجود الخالق المطلق، وبعدها تكون الهداية من نصيبه عن طريق الآيات والمعجزات.

" قل انظروا ماذا في السماوات والأرض وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون " (يونس: ١٠١)

٢- أن من لا يتعظ من الآيات والمعجزات فهو متكبر ومغرور، وبما أن المعاندين هم في الغالب أصحاب الثروة والمال ومدعو العقل، لذا ينظرون لمن يهديهم إلي الحق نظرة دنيوية، وبناءاً علي هذا يكون من الضروري عليهم أولاً التخلي عن هذه الصفات لكي يجدوا الهداية من الآيات والمعجزات. فهم يقولون دائماً للأنبياء: " بشراً منا واحداً نتبعه "، فملوك ورؤساء مصر أنكروا بناءاً علي هذا الأمر دعوة سيدنا موسى وهارون رغم أُنهم شاهدوا العديد من المعجزات إلا إنهم لم يؤمنوا.

" ثم أرسلنا موسى وأخاه هارون بآياتنا وسلطان مبين. إلي فرعون وملأه فاستكبروا وكانوا قوماً عالين. فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون" (المؤمنون: ٤٥، ٤٧)

وقد أصدر الله تعالي حكمه فيما يتعلق بهؤلاء المتكبرون في القرآن الكريم:

" سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها " (الأعراف: ١٤٦)

إن معاندي قريش الذين كانوا من أكابر وسادة قومهم لم يهتدوا ولم يكونوا يقبلون دعوة هذا الإنسان الفقير الذي لا ناصر ولا مساعد له، وكانوا يقولون لو أن النبوة حدثت فكان لابد وأن تكون من نصيب أكابر مكة.

" وقالوا لولا نزل هذا القرآن علي رجل من القريتين عظيم " (الزخرف: ٣١)

وآخر هذه الأشياء التي تولد داخل الإنسان أهلية الهداية بالآيات والمعجزات هي ميوله القلبي نحو قبول الحق، وإلا فإن أكبر المعجزات والخوارق عند هؤلاء ما هي إلا نوع من السحر والشعوذة، وذلك لأن قلوبهم خالية من قبول الحق.

" ويقول الذين كفروا لولا أنزل عليه آية من ربه قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب (الرعد: ٢٧)

ولو أن هذه الاستعداد لا يوجد داخل هؤلاء فإن أكبر المعجزات ما هي إلا باطل، لأن الكفر قد طبع علي قلوبهم فهم لا يؤمنون بأي عقيدة حق:

" ولئن جئتهم بآية ليقولن الذين كفروا إن أنتم إلا مبطلون. كذلك يطبع الله علي قلوب الذين لا يعلمون " (الروم: ٥٨ – ٥٩)

وقد طلب أهل الكتاب، يعني اليهود والنصارى، دليلاً علي صداقة نبوة الرسول صلي الله عليه وسلم، وقالوا إننا لا نؤمن بنبوته حتى يرينا مثل هذه المعجزات التي أتي بها الأنبياء من قبله، فأخبر القرآن أنه لو فرضنا أن النبوة لا تكون مصداقيتها إلا بإظهار

مثل هذه المعجزات الذي أراها هؤلاء الرسل من قبل، إذاً فلماذا لم يؤمن المعاندون في زمنهم بعدما رأوا هذه المعجزات، وفي النهاية اعتبروهم من السحرة:

" فلما جاءهم الحق من عندنا قالوا لولا أوتي مثل ما أوتي موسى أولم يكفروا بما أوتي موسى من قبل قالوا سحران تظاهرا وقالوا إنا بكل كافرون " (القصص: ٤٨)

آية الصدق هي الهداية فقط:

وقد ذكر القرآن الكريم أن آية الصدق هي التي تقود فقط إلي الهداية، وأن الرسالة والأحكام التي يقدمها صاحب الدعوة هي دائماً تقود إلي الرشد والنجاة وفلاح الإنسان، والذي ينكر منهم فهو ظالم ومتكبر، ولن ينال سعادة الهداية.

" قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدي منهما أتبعه إن كنتم صادقين. فإن لم يستجيبوا لك فاعلم أنما يتبعون أهواءهم ومن أضل ممن اتبع هواه بغير هدي من الله إن الله لا يهدي القوم الظالمين (القصص: ٤٩ – ٥٠)

تفصيل آيات والدلائل النبوية

بعد مناقشة كل جوانب المعجزة بشكل إجمالي يأتي دور تفصيل الأحداث التي هي فوق فهم البشر بالنسبة للرسول صلي الله عليه وسلم: وتنقسم هذه الأحداث إلي قسمين:

أحدهما يتعلق في الحقيقة بمقتضيات النبوة، والتي يشترك فيها تقريباً كل الأنبياء، وقد سميناها " خصائص النبوة ".

ثانيها يدخل فيه الأحداث الجزئية التي تختلف من رسول لأخر طبقاً لأحواله وظروف عصره، والتي تعرف في الاصطلاح العام باسم المعجزات.

وقد قسمنا هذه المعجزات إلي ثلاثة أقسام من حيث سندها ومرجعها. ويأتي في الباب الأول تلك المعجزات التي ورد بها نص قرآني صريح. وفي الباب الثاني تأتي المعجزات التي ثبت ذكرها بروايات صحيحة وموثقة. وفي الباب الثالث تأتي تلك المعجزات التي أفسح لها كُتاب السير وأهل الحديث مكاناً في مؤلفاتهم، ولكنها طبقاً لأصول الحديث ضعيفة وغير موثقة، وبعد ذلك أضفنا نبوءات الكتب السابقة التي تتعلق بظهور النبي صلي الله عليه وسلم، وفي الباب الأخير ذكرنا خصائص النبوة وفصلناها حسب الترتيب التالي: ــ

١ــ خصائص النبوة.

٢ــ الآيات والدلائل التي ورد ذكرها في القرآن الكريم.

٣ـ الآيات والدلائل الموثقة بالأدلة الصحيحة.

٤ـ الروايات غير الموثقة ونقدها.

٥ ـ بشارات الكتب السابقة.

٦ـ خصائص النبوة المحمدية.

خصائص النبوة

لكل جنس ونوع في الدنيا خصائص تميزه عن غيره، ولا يخلو منها أي فرد من هذا النوع أو الجنس. وهكذا النبوة، لها خصائص خاصة هي بمثابة حقائق ثابتة، وهكذا جاء لكل زمان ولكل أمة نبي يتميز بكل هذه الخصائص. فمثلاً أطلعهم الله بوسيلة من الوسائل علي أحكامه وأوامره، وأعلي طاقاتهم وأحاسيسهم بالدرجة التي تميزهم عن عامة الناس، وأسمعهم الأصوات التي لا يسمعها عامة البشر، وأنزل الملائكة عليهم كرسل من عنده، وظل عالم الرؤيا واليقظة واحداً عندهم، وكانت أعينهم تنام ([1])، إلا أن قلوبهم متيقظة، لأن الله وهبهم آية من آياته ([2]). وبما أن الرسول صلي الله عليه وسلم أفضل الرسل وخاتم الأنبياء، لهذا اختصه الله بجزء كبير من هذه الخصائص تفوق كل ما أعطاه

---

[1] ــ صحيح البخاري كتاب المناقب باب صفة النبي صلى الله عليه وسلم، وباب التوحيد باب وكلم الله موسى تكليماً. ورد في صحيح البخاري، باب صفة النبي: (٣٤٩٣) ـــ حدّثنا عبدُ اللهِ بن مَسلمةَ عن مالكٍ عن سعيدٍ المقبُريِّ عن أبي سَلمةَ بنِ عبدِ الرحمٰن أنهُ سألَ عائشة رضيَ اللهُ عنها: كيفَ كانت صلاةُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في رمضانَ ؟ قالت: «ما كان يَزيد في رمضانَ ولا غيره على إحدىَ عشرةَ ركعة: يُصلِّي أربعَ ركعاتٍ فلا تسألْ عن حُسنِهنَّ وطُولهنَّ، ثم أربعاً فلا تسألْ عن حُسنِهنَّ وطولهن، ثم يُصلِّي ثلاثاً. فقلتُ: يا رسولَ اللهِ تَنامُ قبلَ أن تُوتِرَ ؟ قال: تَنامُ عيني ولا يَنام قلبي». (يوسف عامر).

[2] – باب الاعتصام. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٧١١٨) ـــ حدَّثنا محمدُ بن عُبادةَ أخبرنا يزيدُ حدَّثنا سليمُ بن حيّان ــ وأثنى عليه ــ حدَّثنا سعيدُ بن ميناءَ حدَّثنا ــ أو سمعتُ ــ جابرَ بن عبد اللّه يقول: «جاءت ملائكة إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهو نائم فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم: إن العينَ نائمةٌ والقلبَ يقظانُ، فقالوا: إن لِصاحبكم هذا مثلاً، قال: فاضربوا له مثلاً. فقال بعضهم: إنه نائمٌ، وقال بعضهم: إن العينَ نائمةٌ والقلبَ يقظان، فقالوا: مثلهُ كمثل رجلٍ بَنى داراً وجَعلَ فيها مأدُبةً وبَعثَ داعياً، فمن أجاب الداعيَ دخلَ الدارَ وأكلَ من المأدبة، ومن لم يجبِ الداعيَ لم يدخل الدار ولم يأكل منَ المأدبة. فقالوا: أولوها له يَفقهها، فقال بعضهم: إنه نائم، وقال بعضهم إنَّ العينَ نائمةٌ والقلبَ يقظانٌ، فقالوا: فالدارُ الجنة والداعي محمدٌ صلى الله عليه وسلم، فمن أطاعَ محمداً فقد أطاعَ اللّه، ومن عصى محمداً صلى الله عليه وسلم فقد عصى اللّه، ومحمدٌ فرَّق بينَ الناس» تابعَهُ قُتيبة عن ليث عن خالد عن سعيد بن أبي هِلال «عن جابرٍ خرج علينا النبيُّ صلى الله عليه وسلم....». (يوسف عامر).

الله لباقي الأنبياء عليهم السلام كمخاطبة الله، ونزول الملائكة، وغير ذلك من الخصائص الأخرى. وهكذا جاء تفصيلها في الآيات القرآنية والأحاديث الصحيحة، وقد بين القرآن الكريم بعض خصائص التي أنعم بها على الأنبياء:

" تلك الرسل فضلنا بعضهم علي بعض منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات وآتينا عيسي بن مريم البينات وأيدناه بروح القدس " (البقرة: ٢٥٣)

فانظر إلي هذه الأمور الأربعة وهي: مخاطبة الله، ورفع الدرجات، والآيات، وتأييد الله هذه كلها لم يحرم منها أي رسول، إلا أن هذه الأشياء ليست كلها واحدة عند كل الأنبياء، بل إن بعضها كان أكثر وفرة عند البعض، وأقل عند الآخر. ولهذا اختص كل نبي بشيء خاص بمقدار حظه من هذه الأشياء، ولا يعني هذا أن أي نبي حرم من هذه الأشياء، فكان الوحي ونزول الملائكة أكثر هذه الخصائص قوة، وكأنها صارت نعتاً للرسل والأنبياء، والشخص الذي اصطفاه الله ليكون رسولاً له لابد وأن يهبط عليه وحيه.

وهكذا وصف الله أنبياءه في سورة النحل والأنبياء:

" وما أُرسلنا من قبلك إلا رجالاً نوحي إليهم " (يوسف: ١٠٩)

وفيما يتعلق بنزول الملائكة قال الله تعالي إنه ينزل ملائكته علي من يشاء من عباده حتى يوصل إليهم كلامه: " ينزل الملائكة بالروح من أمره علي من يشاء من عباده" (النحل: ٢)

بالإضافة إلي أن الرؤيا والتنبؤ بالغيب والسير والاطلاع علي ملكوت الله تأتي طبقاً لمراتب ودرجات الأنبياء. ويثبت هذا من الأسفار والكتب الإلهية كما سيعرفه القارئ في الأوراق التالية.

الكلام مع الله

" وما كان لبشراً أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب " (الشورى: ٥١)

من بين الخصائص المهمة للرسل الحديث مع الله، وقد صرح القرآن في مواضع عدة عن حديث الله مع الرسل، والأدلة فيما يتعلق بالرسل في كتب التوراة، فلماذا يخاطب الله الأنبياء ؟ لقد بين القرآن الكريم ذلك في إحدى آياته:

" وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحي بإذنه ما يشاء إنه عليّ حكيم " (الشورى: ٥١)

في هذه الآيات ثلاث صور لكلام الله مع أنبيائه، فكل رسول منح هذا الشرف بطريقة أو بأخرى، سواء كان بالوحي أومن وراء حجاب أو عن طريق الرسل، منهم من اختص بالكلام من وراء حجاب، ولهذا أفرد لفضيلة لتكليمه الله مكانة مستقلة ضمن فضائله مثلما حدث مع سيدنا موسى عليه السلام.

" وكلم الله موسى تكليماً " (النساء: ١٦٤)

فقد جاءه صوت الله من وراء شجرة في جبل سيناء، وقد وضحت سورة البقرة طريقة الحديث مع الله، وقال الله في وصف الأنبياء: " منهم من كلم الله " (البقرة: ٢٥٣)

ولكن لم تصرح الآية الكريمة بمَن من الأنبياء نالهم شرف مخاطبة الله، فلابد وأن يكون هناك أنبياء آخرون نالوا هذا الشرف بجانب سيدنا موسى عليه السلام، وقد نال رسولنا صلى الله عليه وسلم شرف الحديث بالصور الثلاث السابقة، بل إنه في حادثة المعراج نال هذا المقام الذي التقي فيه الحبيب بحبيبه حيث لا يوجد جبل سيناء ولا الوادي الأيمن ولا حتى الزمان والمكان.

" فأوحي إلي عبده ما أوحي " (النجم: ١٠)

الوحي

" وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحي " (النجم: ٣ – ٤)

وهكذا فإن من بين صور الحديث مع الله الوحي، ولكن مفهوم الوحي في الإسلام واسع بالدرجة التي تأتي كل صور الوحي في إطاره. فالوحي معناه في اللغة: ــ الوحي، الإشارة، الكتابة، الرسالة والإلهام والكلام الخفي. وكل ما ألقيته إلي غيرك، (لسان العرب)، ففي معني الكتابة كما جاء في شعر العجاج: ــ

حتى نحاهم جدنا ولنا حي لقدر كان وحاه الواحي

وفي معني الكتابة والرسالة كتب لبيد:

فمدافع الريان عري رسمه خلقاً كما ضمن الوحي سلامها

وفي معني الأمر كتب العجاج: ــ

وحي لها القرار فاستقرت وشدها بالراسيات الثبت

وفي معني الكلام الخفي قال أبو ذؤيب: ــ

فقال لها وقد أوحت إليه إلا لله أمك ما تصيف

وفي معني الإشارة: ــ يوحي إليها بأنقاض ونقنقة.

وفي معني الصوت: ــ مرتجز الجوف يوحي أعجم.

ولكن أهل اللغة يقولون أن المعني الأصلي لهذا اللفظ هو أن تهامس أحدا ما بكلام عن طريق الخفية، وقد أخبر الكساني بأنها محاورة " وحيت إليه بالكلام وأوحيه إليه هو أن تكلمه بكلام تخفيه عن غيره ". ويقول أبو إسحاق اللغوي " الوحي في اللغة كلها إعلام في خفاء ".

وقد ورد هذا اللفظ في القرآن الكريم بثلاث معانٍ: ــ

١ــ الأمر الطبيعي (الحكم): " وأوحي ربك إلي النحل " (النحل: ٦٨)

" بأن ربك أوحي لها " (الزلزلة: ٥)

وهذا هو معني الشعر عند العجاج:

وحي لها القرار فاستقرت وشدها بالراسيات الثبت

٢ــ الإلهام: " وإذ أوحيت إلي الحواريين أن آمنوا بي وبرسولي " (المائدة: ١١١)

" وأوحينا إلي أم موسى أن أرضعيه " (القصص: ٧)

٣ــ بمعني الهمس: " يوحي بعضهم إلي بعض زخرف القول " (الأنعام: ١١٢)

" وأن الشياطين ليوحون إلي أوليائهم " (الأنعام: ١٢١)

وهناك شيء مشترك بين هذه المعاني الثلاث وهو أن يُفهم شخص ما شخصاً آخر دون أن يتفوه بكلمة له. ولو أن هناك ألفاظ وكلام فلابد وأن يكون همساً بحيث لا يستطع أن يسمعها شخص آخر، ولهذا فإن الإشارة والكتابة والإلهام والأمر للطبيعة والمراسلة وإظهار الحيوانات لما تريد بالحركة، كل هذا يدخل في معني الوحي، ويتضح من هذا التفصيل أن المفهوم الديني لكلمة الوحي أن كلام الله للرسول ووحيه له بدأ بالرؤيا. وروي عن عائشة رضي الله عنها كما ورد في صحيح البخاري " أول ما بدأ به الرسول صلي الله عليه وسلم من الوحي الرؤيا الصالحة في النوم فكان لا يري رؤيا إلا إذا جاءت مثل فلق الصبح ".

وهناك حديث ورد في الباب الأول من صحيح البخاري: " سأل أحد الصحابة رسول الله صلي الله عليه وسلم كيف يأتيك الوحي فقال الرسول: أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني فأعي ما يقول "

وقد شرح علماء الكلام معني صلصلة الحرس طبقاً لأهوائهم، ولكن المعني الواضح والصريح الذي نفهمه هو سماع صوت الغيب بحيث لا يكون هناك مناد أو أي صورة لشخص، وتشبيهه بصلصلة الجرس هنا هي أنه كما تسمع رنين الجرس من بعيد يستطيع إنسان أن يحدد بعض الإشارات منه، مع العلم أن الجرس وضارب الجرس بعيدان عن الأنظار. وهكذا يسمع الرسول نداء الغيب دون أن يري شكلاً أو صورة أمامه، وعلي العكس من هذا تأتي الصورة الثانية التي وضحها الرسول أن الملك (أو الوحي) يأتي للنبي في شكل وفي صورة مجسمة ويخاطبه. وهناك صورة أخري أو ثالثة وضحها الرسول صلى الله عليه وسلم وهي " أن روح القدس نفث في روعي " وأحياناً يأتي في صيغة المجهول: " نفث في روعي ".

وقد قسم الحافظ بن القيم أنواع الوحي في ضوء هذه الأحاديث كالتالي:

١ــ الرؤيا الصادقة.

٢ــ نفث في الروع أو إلقاء في القلب.

٣ـ صلصلة

٤ - التمثيل.

٥ ـ ظهور الوحي في صورته الحقيقية.

٦ ـ عن طريق ما حدث في المعراج.

٧ـ الحديث المباشر.

وقد أخبرنا الرسول صلي الله عليه وسلم كما ورد في صحيح البخاري أن الشكل الثالث وهو النفث في الروع من أشق أشكال الوحي عليه، وعندما كان يأتيه الوحي كانت تنتابه حالة خاصة. وقد ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها قالت كنت أراه وهو في حالة نزول الوحي عليه، فكان عندما ينتهي من هذه الحالة يعرق جبينه في أيام البرودة الشديدة ([1])، وقد ورد عن السيدة عائشة رضي الله عنها في موضع آخر أنها قالت عندما كانت تشتد عليه هذه الكيفية وهو في حالة الوحي كان العرق يتساقط من علي جبينه مثل اللآلئ ([2]). وقد بين الصحابة أن جسم الرسول صلى الله عليه وسلم يكون مثقلاً في حالة نزول الوحي حتى يكاد ظهر الجمل ينقصم. يقول سيدنا زيد بن ثابت أنه ذات مرة نزل الوحي على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وكانت رجلي تحت ركبته صلي الله عليه وسلم فشعرت وكأن رجلي ستنكسر من ثقل ركبته صلى الله عليه وسلم ([3])، وكان أحد الصحابة ويدعي يعليّ بن أمية يرغب دائما أن يري النبي وهو في حالة نزول الوحي عليه، وبالصدفة نال هذا الشرف وهو في طريقه إلي الحج فيقول: رأيت وجه رسول الله محمراً، وانتهت هذه الحالة بعد فترة ([4])، ويروي عبادة بن الصامت أنه عندما كان الوحي

---

[1] – صحيح البخاري بدء الوحي.وهذا نص الحديث: (٢) حدَّثنا عبدُ اللّهِ بنُ يُوسُفَ قال: أخبرَنا مالكٌ عن هِشامِ بنِ عُرْوَةَ عن أبيهِ عن عائشَةَ أمِّ المُؤْمِنِينَ رضي الله عنها أنَّ الحارِثَ بنَ هِشام رضي الله عنه سَأَلَ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم فقالَ: يا رسولَ اللّهِ كيفَ يأتِيكَ الوَحيُ؟ فقالَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: «أحْياناً يأتيني مِثلَ صَلْصلَةِ الجَرَسِ وهُوَ أشَدُّه عَليَّ فَيُفْصِمُ عَنّي وقد وَعَيْتُ عنهُ ما قالَ، وأحْياناً يَتَمثَّلُ ليَ المَلَكُ رَجُلاً فيُكلِّمُني فأعِي ما يَقولُ». قالتْ عائشةُ رضيَ الله عنها: ولَقدْ رأيتُهُ يَنزِلُ عليهِ الوَحيُ في اليومِ الشَّديدِ البَرْدِ فيَفْصِمُ عنه وإنَّ جَبِينَهُ لَيَتَفصَّدُ عَرَقاً. (يوسف عامر).

[2] ـ مسند ابن حنبل بسند عائشة والمستدرك للحاكم تفسير سورة المزمل

[3] ـ صحيح البخاري وجامع الترمذى تفسير سورة النساء

[4] ـ صحيح البخاري كتاب الحج باب كيفية نزول للوحي. وهذا نص الحديث: (١٥١٨) ــ قال أبو عاصمٍ أخبرَنا ابنُ جُرَيجٍ أخبرَني عَطاءٌ أن صَفوانَ بنَ يَعلىٰ أخبرَهُ «أنّ يَعلى قال لعُمرَ رضيَ اللهُ عنه:

يأتيه صلي الله عليه وسلم كان يبدو عليه القلق، ويتلون وجهه، وكان يحني رأسه، وكان الصحابة الذين يجلسون معه يحنون رءوسهم أيضاً، وبعد الوحي يرفعون رءوسهم ([1]).

وقد هبط الوحي عليه صلى الله عليه وسلم أولاً في غار حراء، وكان عمره المبارك أربعين عامــاً، وكانت " اقرأ باسم ربك الذي خلق " (العلق: ١) أول الدروس القرآنية، وتوقف الوحي بعدها لفترة، وصدم صلي الله عليه وسلم. وكما روي عن ابن إسحاق أن هذه الآيات نزلت علي رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذا الوقت:

" والضحى. والليل إذا سجي. ما ودعك ربك وما قلي " (الضحى: ١ – ٣)

ولكن في صحيح البخاري باب كيفية نزول الوحي ورد سبب نزول هذه السورة أن الرسول صلي الله عليه وسلم كان مريضاً ذات مرة ولم يستطع أن يتهجد ليلاً لعدة أيام، فقالت له إحدى جاراته تهكماً يبدو أن شيطانك (نعوذ بالله) قد تركك لأنه لم يأتِ إليك منذ ثلاثة أيام ؛ ولهذا نزلت هذه السورة. وهناك رواية في موضع آخر أن هذه المرأة قالت: إن رفيقك تأخر في لقائك. يتضح من هذا أن هذه السورة نزلت بعدها في وقت آخر.

ويتفق جميع أهل الحديث ([2]) أن آيات سورة المدثر هي أول ما نزل بعد فترة توقف الوحي، حيث كان الرسول صلى الله عليه وسلم عائداً من غار حراء فسمع صوتاً في

أرِني النبيَّ صلى الله عليه وسلم حينَ يُوحى إليه. قال: فبينما النبيّ صلى الله عليه وسـلم بالجِعْرانَــةِ ــ ومعهُ نفرٌ من أصحابهِ ــ جاءهُ رجلٌ فقال: يا رسولَ الله، كيفَ تَرَى في رجلٍ أحرمَ بُعمرةٍ وهو مُتَضمِّخٌ بطيبٍ؟ فسَكتَ النبيّ صلى الله عليه وسلم ساعةً، فجاءَهُ الوَحيُ، فأشارَ عمرُ رضيَ اللهُ عنه إلى يَعلَــى، فجاءَ يَعلَى ــ وعلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ثوبٌ قد أُظِلَّ به ــ فأدخلَ رأسَهُ، فــإذا رســولُ الله صلى الله عليه وسلم محمرّ الوَجهِ وهوَ يَغِطُّ، ثمّ سُرّيَ عنهُ فقال: أينَ الذي سألَ عنِ العُمرة؟ فأتيَ برجُلٍ فقال: اغسلِ الطِّيبَ الذي بكَ ثلاثَ مرات، وانزِعْ عنكَ الجُبَّةَ، واصنَعْ في عُمرتِـكَ كمــا تَــصنَعُ فــي حَجّتِكَ». قلت لعطاء: أرادَ الإِنقاءَ حينَ أمرَهُ أن يَغسِلَ ثلاثَ مرّات؟ قال نعم». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح مسلم باب عرق النبي صلي الله عليه وسلم. وهذا نص الحديث: (٦٠١٤) ـــ وحدثنا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ. حَدَّثَنَا مُعَاذُ بْنُ هِشَامٍ. حَدَّثَنَا أَبِي(عَنْ قَتَادَةَ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ حِطَّانَ بْنِ عَبْدِ اللّهِ الرَّقَاشِــيِّ عَــنْ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ،. قَالَ: كَانَ النَّبِيُّ إِذَا أُنْزِلَ عَلَيْهِ الْوَحْيُ نَكَسَ رَأْسَهُ، وَنَكَسَ أَصْحَابُهُ رُؤُوسَــهُمْ. فَلَمَّــا أُتْلِيَ عَنْهُ، رَفَعَ رَأْسَهُ.(يوسف عامر).

[2] – علي العكس منهم هناك رواية لــ سيدنا جابر رضي الله عنه وردت في صحيح البخاري، باب بدء الوحي، وباب كيفية نزول الوحي أنه سمع من رسول الله صلي الله عليه وسلم أن بداية الــوحي كانــت بآيات سورة المدثر، ولكن الإجماع إن هذا اعتقاد خاطئ من سيدنا جابر رضي الله عنه، وأن هذه الآيات أول من نزلت بعد فترة توقف الوحي.وهذا نص الحديث: (٤٨٠٥) ـــ حدَّثَنا يحيى بن بُكيرٍ حدَّثَنا الليثُ

الطريق، فنظر الرسول صلى الله عليه وسلم حوله هنا وهناك فلم يرَ شيئاً، فبدا له ملك الوحي، وجاء إلي السيدة خديجة وقال لها: دثريني وألق عليّ ماءاً بارداً، فنزلت عليه هذه الآيات في هذه الحالة:

" يا أيها المدثر. قم فأنذر. وربك فكبر " (المدثر: ١ – ٣)

وبعدها بدأ الوحي يأتي للرسول صلى الله عليه وسلم بانتظام ([1])، ولم ينقطع حتى وفاته صلى الله عليه وسلم، يعني من عمر الأربعين وحتى عمر الثالثة والستين، أي ثلاثة وعشرين عاماً، وروي عن سيدنا أنس أن مجيء الوحي كثر في أواخر عمر الرسول صلى الله عليه وسلم ([2])، وقد فسر أهل الحديث السبب في ذلك بازدياد عدد المسلمين، وكانت الوفود تأتي من جميع الأطراف، وزاد استفسار الناس عن بعض الأحكام، فكان من الضروري أن يزداد كلام الله لمواكبة ما حدث. وعندما كان يتذكر الصحابة رضوان الله عليهم هذه الأيام بعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم، وذلك عندما كانت المدينة وحواريها ممراً لأنوار الوحي كانت عيونهم تدمع، ولقد كان الرسول صلى الله عليه وسلم عادة بعد صلاة الجمعة يذهب لمقابلة صحابية جليلة، وبعد وفاة الرسول صلى الله عليه وسلم واصل سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما الزيارة لهذه الصحابية، فوجدا أن دموعها لم تجف من عيونها، فسألوها عن السبب فقالت: لقد رحل الرسول صلى الله عليه وسلم وانقطع الوحي، فلما سمع الصحابة بذلك جرت دموعهم من مآقيهم ([3]).

عن عُقَيل عن ابن شهابٍ.ح. وحدَّثني عبدُالله بن محمدٍ حدَّثنا عبدُ الرَّزَّاق أخبرَنا مَعمرٌ عن الزُّهريِّ، فأخبرَني أبو سلمةَ بن عبد الرحمن «عن جابرِ بن عبدالله رضي الله عنهما قال: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم وهو يحدِّث عن فترةِ الوَحي فقال في حديثِه: فبينا أنا أمشي إذ سمعتُ صَوتاً من السماء، فرفعتُ رأسي فإذا المَلك الذي جاءني بحِراءٍ جالسٌ على كُرسيٍّ بين السماء والأرض، فَجُئِثْتُ منه رعباً. فرجَعتُ فقلت زَمِّلوني زمِّلوني. فدثَّروني. فأنزلَ الله تعالى: {يا أيها المدَّثِّر ــ إلى ــ والرِّجْزَ فاهجُر} (المدثر: ٥) قبلَ أن تُفرَضَ الصلاة. وهي الأوثانُ». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري باب بدء الوحي تفسير سورة بدر..

[2] ــ صحيح البخاري باب كيف نزول الوحي

[3] ــ صحيح مسلم: فضائل السيدة أم أيمن. وهذا نص الحديث: (٦٢٧١) ــ حدّثنا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. أَخْبَرَنِي عَمْرُو بْنُ عَاصِمٍ الْكِلاَبِيُّ. حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللّهُ عَنْهُ، بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللّهِ، لِعُمَرَ: انْطَلِقْ بِنَا إِلَىٰ أُمِّ أَيْمَنَ نَزُورُهَا. كَمَا كَانَ رَسُولُ اللّهِ يَزُورُهَا. فَلَمَّا انْتَهَيْنَا إِلَيْهَا بَكَتْ. فَقَالاَ لَهَا: مَا يُبْكِيكِ؟ مَا عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِه. فَقَالَتْ: مَا أَبْكِي أَنْ لاَ أَكُونَ أَعْلَمُ أَنَّ مَا

وقد أعلن القرآن الكريم حقيقة الوحي، وجعله مرادفاً للنبوة، إلا أن حقيقة النب في الأديان الأخرى إما أنها مفقودة، أو أنهم نزهوها عن مفهوم البشرية، وجعلوها موازية للألوهية، إلا أن القرآن الكريم أكدّ علي الرسول في أكثر من موضع:

" قل إنما أنا بشر مثلكم يوحي إليّ أنما إلهكم إله واحد " (الكهف: ١١٠، فصلت: ٦)

وكل ما كان يقصه الرسول صلى الله عليه وسلم للناس هو من عند الله، ولم يكن من اختراعه بل كان يوحي إليه:

" وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحيٌ يوحي " (النجم: ٣ – ٤)

فكان مهبط كل هذه الأحكام قلبه صلي الله عليه وسلم:

" فإنه نزله علي قلبك بإذن الله " (البقرة: ٩٧)

" نزل به الروح الأمين علي قلبك " (الشعراء: ١٩٣)

كان الوحي من أكبر معجزات النبي صلى الله عليه وسلم، وكما قال صلى الله عليه وسلم " ما من الأنبياء من نبي إلا قد أعطي من الآيات ما مثله آمن عليه البشر" ([1]).

والثروة التي كرم الله بها الإسلام جاءت في شكل القرآن الكريم، وما زال محفوظاً في صدور وبيوت المسلمين. هذا بالإضافة إلي الثروة القيمة من الأحاديث الصحيحة، وكما أخبر الرسول صلي الله عليه وسلم بأن الله تعالى قد أعطاه القرآن وزيادة.([٢])، يعني أن الأحكام والأوامر التي قام بحفظها السلف المجاهدون للخلف. وقد روي عن الصحابي يعليّ بن أُمية رضي الله عنه في حجة الوداع أن النبي صلي الله عليه وسلم كان في منطقة جعرانة، فجاء رجل وسأله: يَا رَسُولَ اللّهِ كَيْفَ تَرَىٰ فِي رَجُلٍ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ فِي جُبَّةٍ بَعْدَمَا تَضَمَّخَ بِطِيبٍ؟ فَنظَرَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ سَاعَةً. ثُمَّ سَكَتَ. فَجَاءَهُ الْوَحْيُ. فَأَشَارَ عُمَرُ بِيَدِهِ إِلَىٰ يَعْلَىٰ بْنِ أُمَيَّةَ: تَعَالَ. فَجَاءَ يَعْلَىٰ. فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ. فَإِذَا النَّبِيُّ مُحمَرُّ الْوَجْهِ. يَغِطُّ سَاعَةً. ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ. فَقَالَ: «أَيْنَ الَّذِي سَأَلَنِي عَنِ الْعُمْرَةِ آنِفاً؟» فَالْتُمِسَ

عِنْدَ اللّهِ خَيْرٌ لِرَسُولِهِ. ولَكِنْ أَبْكِي أَنَّ الْوَحْيَ قَدِ انْقَطَعَ مِنَ السَّمَاءِ. فَهَيَّجَتْهُمَا عَلَىٰ الْبُكَاءِ. فَجَعَلاَ يَبْكِيَـانِ مَعَهَا. (يوسف عامر).

[1] صحيح البخاري، باب كيف نزول الوحي. وصحيح مسلم كتاب الإيمان. وهذا نص الحـديث: (٣٤٠) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا لَيْثٌ عَنْ سَعِيدِ بْنِ أَبِي سَعِيدٍ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللّـهِ قَـالَ: «مَا مِنَ الأَنْبِيَاءِ مِنْ نَبِيَ إِلاَّ قَدْ أُعْطِيَ مِنَ الآيَاتِ مَا مِثْلُهُ آمَنَ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيتُ وَحْيـاً أَوْحَى الله إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعا يَوْمَ الْقِيَامَةِ». (يوسف عامر).

[2] – أبو داود كتاب السنة.

الرَّجُلُ، فَجِيءَ بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ: «أَمَّا الطِّيبُ الَّذِي بِكَ، فَاغْسِلْهُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. وَأَمَّا الْجُبَّةَ، فَانْزِعْهَا. ثُمَّ اصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ، مَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ». ([1]). وروي عن الرسول صلى الله عليه وسلم في حديث آخر أن روح القدس ألقي في قلبه هذا، وهو أنه لا يمكن لأي إنسان أن يموت حتى يستوفي رزقه. وأمر الناس بالخوف من الله تعالى، وأن يبحثوا عن أرزاقهم بطريقة صحيحة، ولا يجعلون التأخير في الرزق يحضهم علي ارتكاب المعاصي فكل ما عند الله يمكن الحصول عليه بعبادته ([2]). وروي عن سيدنا أبي ذر أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال: " «قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: قال لي جبريلُ: مَن ماتَ من أُمتِكَ لا يشرك باللهِ شيئاً دخلَ الجنةَ، أو لم يَدخل النار." ([3]). وهناك أحاديث أخري كثيرة ورد فيها أن الله أمرني و أن الله قال لي، ولكن لم يرد هذا في القرآن الكريم ؛ ولهذا قسم الفقهاء الوحي إلي قسمين: ــ

١ــ الوحي المتلو، بمعني ما تلي علي الرسول من آيات القرآن الكريم.

٢ــ وحي غير متلو، مثل الأحكام والأوامر التي ذكرت في الأحاديث الصحيحة.

---

[1] – صحيح البخاري، باب نزول القرآن. وهذا نص الحديث: ٢٧٥٣) ـــ حدثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ. حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ. ح وَحَدَّثَنَا عَبْدُ بْنُ حُمَيْدٍ. أَخْبَرَنَا مُحَمَّدُ بْنُ بَكْرٍ. قالا: أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ.ح وَحَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ خَشْرَمٍ وَاللَّفْظُ لَهُ. أَخْبَرَنَا عِيسَىٰ عَنِ ابْنِ جُرَيْجٍ قَالَ: أَخْبَرَنِي عَطَاءٌ أَنَّ صَفْوَانَ بْنَ يَعْلَىٰ بْنِ أُمَيَّةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ يَعْلَىٰ كَانَ يَقُولُ لِعُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: لَيْتَنِي أَرَىٰ نَبِيَّ اللَّهِ حِينَ يُنْزَلُ عَلَيْهِ. فَلَمَّا كَانَ النَّبِيُّ بِالْجِعْرَانَةِ. وَعَلَىٰ النَّبِيِّ ثَوْبٌ قَدْ أُظِلَّ بِهِ عَلَيْهِ. مَعَهُ نَاسٌ مِنْ أَصْحَابِهِ. فِيهِمْ عُمَرُ. إِذْ جَاءَهُ رَجُلٌ عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ. مُتَضَمِّخٌ بِطِيبٍ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ كَيْفَ تَرَىٰ فِي رَجُلٍ أَحْرَمَ بِعُمْرَةٍ فِي جُبَّةٍ بَعْدَمَا تَضَمَّخَ بِطِيبٍ؟ فَنَظَرَ إِلَيْهِ النَّبِيُّ سَاعَةً. ثُمَّ سَكَتَ. فَجَاءَهُ الْوَحْيُ. فَأَشَارَ عُمَرُ بِيَدِهِ إِلَىٰ يَعْلَىٰ بْنِ أُمَيَّةَ: تَعَالَ. فَجَاءَ يَعْلَىٰ. فَأَدْخَلَ رَأْسَهُ. فَإِذَا النَّبِيُّ مُحمَرُّ الْوَجْهِ. يَغِطُّ سَاعَةً. ثُمَّ سُرِّيَ عَنْهُ. فَقَالَ: «أَيْنَ الَّذِي سَأَلَنِي عَنِ الْعُمْرَةِ آنِفاً؟» فَالْتُمِسَ الرَّجُلُ، فَجِيءَ بِهِ. فَقَالَ النَّبِيُّ: «أَمَّا الطِّيبُ الَّذِي بِكَ، فَاغْسِلْهُ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ. وَأَمَّا الْجُبَّةَ، فَانْزِعْهَا. ثُمَّ اصْنَعْ فِي عُمْرَتِكَ، مَا تَصْنَعُ فِي حَجِّكَ». (يوسف عامر).

[2] – المستدرك للحاكم، ج ٢، ص ٤، حيدر آباد.

[3] – صحيح البخاري، كتاب الجنائز، باب بدء الخلق. وهذا نص الحديث: (٣١٥٢) ـــ حدثنا محمدُ بن بَشّارٍ حدثنا ابنُ أبي عَدِيّ عن شُعبةَ عن حبيب بن أبي ثابتٍ عن زيدِ بن وهب عن أبي ذرٍّ رضيَ الله عنه قال: «قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: قال لي جبريلُ: مَن ماتَ من أُمتِكَ لا يشرك باللهِ شيئاً دخلَ الجنةَ، أو لم يَدخل النار. قال: وإن زنىٰ وإن سرقَ؟ قال: وإن». (يوسف عامر).

وخاصية القسم الأول من الوحي أن كل حرف فيه ثبت مروياً بالتواتر، وكله سواء من ناحية لفظه أو معناه هو من عند الله. أما القسم الثاني فتواتر الروايـــة فيه قليل، ومن ناحية لفظه فهو ليس من عند الله إلا أنه من عند الله في معناه.

(اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلائِكَةِ رُسُلاً وَمِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ) (الحج:٧٥)
مفرد ملائكة ملاك، وملك، طبقاً لقواعد اللغة العربية، وهو مشتق من كلمة (ألوكة) التي تعني رسالة، ولهذا فإن معني الملائكة هو المبلغ أو الرسول. والملائكة هم الرسل بين الخالق والمخلوق، وقد جاء هذا المعني في القرآن الكريم عدة مرات:

" الله يصطفي من الملائكة رسلا " (الحج: ٧٥)

بالإضافة إلي أنهم يقودون دفة العالم بأمر الله، لذا أطلق عليهم قوله " والمدبرات أمراً " (النازعات: ٥)، ومن صفاتهم إطاعة أوامر الله، ولا يعصونه أبداً:

" عليها ملائكة غلاظ شداد لا يعصون الله ما أمرهم ويفعلون ما يأمرون "(التحريم: ٦)

وكل سير الأنبياء زاخرة بمجيء الملائكة للنصرة والبشارة، وتشهد كل كتب الله السماوية علي أفعالهم، فقد سجدوا لآدم، وبعثوا في ضيافة سيدنا إبراهيم، وأمروا بحماية سيدنا لوط وتدمير قومه، وجاءوا للسيدة هاجر في الصحراء وتجمعوا في خيمة سيدنا يعقوب، وكانوا حكاماً في مناظرة الجبر والاختيار لسيدنا أيوب، وبشروا سيدنا زكريا والسيدة مريم، وأمروا بواجبات كثيرة في خدمة النبي صلي الله عليه وسلم، وكانوا رسل الله في إبلاغ أوامره، وحفظوا وجوده من الأعداء، وكان سر واجبهم مناصرة الضعفاء من المسلمين. وجبريل رئيس الملائكة وهو الموكول له بالوساطة بين الله ورسله، وهو الذي كان يبلغ رسولنا الكريم كل أوامر الله.

نزول جبريل

كلمة جبريل عبرية الأصل، وتعني " رجل الله "، إلا أن معناها في الاصطلاح الشرعي اسم الملك الذي يؤدي فريضة الرسالة بين الله وأوليائه الصالحين، والاسم في التوراة والإنجيل في ضوء هذا المعني. وهكذا فقد ورد في إنجيل دانيال (٨، ١٦، ١٩، ٢١)، وكذلك في إنجيل لوقا (١،١٩،٢٦) جاء أن الملك جاء ببشارة يحيي لسيدنا زكريا، وبشارة عيسي للسيدة مريم. وقد أخبر القرآن الكريم أن رسول الوحي الذي كان يبلغ أوامر الله لسيدنا محمد صلي الله عليه وسلم هو جبريل. " قل من كان عدواً لجبريل فإنه نزله علي قلبك بإذن الله " (البقرة: ٩٧)

وقد ورد في سورة النحل باسم " روح القدس ":

" قل نزله روح القدس من ربك بالحق " (النحل: ١٠٢)

واستعمل لفظ الرسول في شأنه بقوله " إنه لقول رسول كريم" (الحاقة: ٤٠)

وجاء ذكر صفات عديدة لمفهوم الرسول في سورة التكوير " إنه لقول رسول كريم. ذي قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين " (التكوير: ١٩ – ٢١)

كما وردت في سورة النجم صفات أخري:

" علمه شديد القوي. ذو مرة فاستوي " (النجم: ٥ – ٦)

وفي بداية الوحي أطلق الرسول صلى الله عليه وسلم علي جبريل اسم " الملك "، وقد أطلق عليه ورقة بن نوفل اسم " الناموس"، وأصل كلمة ملك كما ذكرنا سابقاً مشتقة من الكلمة (ألوكة)، والتي تعني الرسالة، ولهذا فإن معني الملك هو الرسول ومعني كلمة ناموس هو حافظ وكاتم الأسرار. وخلاصة القول أن كل هذه الكلمات علي اختلافها تؤدي مفهوماً واحداً وهو الرسول. وقد ورد اسم جبريل في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع، اثنان منهما في سورة البقرة، وموضع في سورة التحريم. ولكن في معني الوحي المحمدي وحامل القرآن الكريم لم يأتِ ذكره فيما عدا ذلك إلا في موضع واحد في هذه الآية.

" من كان عدواً لجبريل فإنه نزله علي قلبك بإذن الله " (البقرة ١: ٩٧)

وفي الآيتين الأخيرتين جاء بمعني الملك الحامل للقرآن الكريم وبلفظ رسول كريم. لكن في الأحاديث والروايات في الغالب جاء ذكره بلفظ جبريل عليه السلام. وقد جاء للرسول صلى الله عليه وسلم في أول الأمر كرسول من عند الله عندما كان معتكفاً في غار حراء. وقد ورد عن السيدة عائشة أنها قالتْ: أوّلُ مابُدِىءَ به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لايَرى رُؤيا إلا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُبْحِ. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخْلو بِغارِ حِراءٍ فَيَتَحَنَّثُ فيهِ ــ وهو التَّعَبُّدُ ــ الليالي ذواتِ العدَدِ، قَبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلهِ ويتزوَّدُ لِذلكَ، ثم يرْجِعُ إلى خَديجةَ فيَتَزَوَّدُ لمثلِها، حتَّى جاءهُ الحَق وهوَ في غارِ حِراءِ، فجاءهُ المَلَكُ فقال: اقْرَأْ. قالَ: ما أنا بِقارىء. قال: فأخذَني فغَطَّني حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرْسَلَني فقال: اقْرَأْ. قلتُ: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغطَّني الثانيةَ حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أُرسَلَني فقال: اقْرَأْ فقلت: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغَطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسَلَنِي فقال: {اقرأ بِاسْمِ رَبِّكَ الذي خَلَقَ، خلَقَ الإنْسانَ مِنْ عَلَق. اقْرَأْ وربُّكَ الأكرَمُ} فرجعَ بها رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فدخلَ على خَدِيجةَ بنتِ خُوَيلِدٍ رضيَ اللهُ عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني. فَزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهبَ عنه الرَّوعُ، فقال

لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لقد خَشِيتُ على نَفسِي. فقالت خَديجةُ: كَلاَّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقّ. فانطَلَقَتْ به خديجةُ حتى أتَتْ بهِ ورقةَ بنَ نوْفَل بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى ــ ابنَ عَمِّ خديجة ــ وكانَ امْرَءاً تَنصَّرَ في الجاهِليَّةِ، وكانَ يَكتُبُ الكِتابَ([1]) وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: يابنَ عَمِّ، اسْمعْ مِن ابنِ أخيكَ. فقال لهُ وَرَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا ترَى؟ فأخبرَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خبرَ ماراأى. فقال له ورقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسى، ياليْتني فيها جَذَعٌ، لَيْتني أكونُ حَيّاً إذْ يُخرِجُكَ قَوْمُك. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخْرِجيَّ هُمْ؟ قال: نَعم، لمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمِثْلِ ماجِئتَ بهِ إلاّ عُودِي، وإنْ يُدْرِكْنِي يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ".([2]) وظل الرسول صلى الله عليه وسلم يذهب إلي غار حراء. وذات

---

[1] – هناك روايتان: إحداهما أنه كان يعرف الكتابة بالعبرية، والثانية أنه كان يعرف الكتابة بالعربية.

[2] – هذه الحادثة تم ذكرها فى صحيح البخاري فى باب بدء الوحي وكتاب التفسير. تفسير سورة المدثر، فقد جمعت الروايات الثلاث مسلسلة لأن أستاذنا (يقصد سيد سليمان الندوي) تركها فى المجلد الأول، فكانت كتابتها هنا ضرورية. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري: (٣) حدثنا يَحيى بنُ بُكَيْر قال: حدَّثنا اللَّيثُ عن عُقَيلٍ عن ابنِ شِهابٍ عن عُرْوَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عائشةَ أمِّ المُؤمنينَ أنَّها قالتْ: أوَّلُ مابُدِىءَ به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منَ الوَحْيِ الرُّؤيا الصالحةُ في النَّومِ، فكانَ لايَرى رُؤيا إلا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبْح. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخلو بغارِ حِراءٍ فيَتَحَنَّثُ فيهِ ــ وهو التَّعبُّدُ ــ الليالي ذواتِ العدَدِ، قبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلهِ ويتزوَّدُ لذلكَ، ثم يرْجِعُ إلى خَديجةَ فيَتَزوَّدُ لمثلها، حتَّى جاءهُ الحَقُّ وهوَ في غارِ حِراءٍ، فجاءهُ المَلَكُ فقال: اقرَأْ. قالَ: ما أنا بِقارىء. قال: فأخذَني فغَطَّني حتى بلَغَ منِّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: اقرَأْ. قلتُ: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغَطَّني الثانيةَ حتى بلغَ منِّي الجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: اقرَأْ فقلت: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغَطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: {اقرأ باسْمِ رَبِّكَ الذي خلَقَ، خلَقَ الإنْسانَ مِنْ علَق. اقرَأْ وربُّكَ الأكرَمُ} فرجعَ بها رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فدخلَ على خَديجةَ بنتِ خُوَيلِدٍ رضيَ اللهُ عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني. فَزَمَّلوهُ حتَّى ذَهبَ عنه الرَّوْعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لقد خَشِيتُ على نَفسِي. فقالت خَديجةُ: كَلاَّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكْسِبُ المَعْدومَ، وتَقْرِي الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَقّ. فانطَلَقَتْ به خديجةُ حتى أتَتْ بهِ ورقةَ بنَ نوْفَل بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى ــ ابنَ عَمِّ خديجة ــ وكانَ امْرَءاً تَنصَّرَ في الجاهِليَّةِ، وكانَ يَكتُبُ الكِتابَ وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: يابنَ عَمِّ، اسْمعْ مِن ابنِ أخيكَ. فقال لهُ وَرَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا ترَى؟ فأخبرَهُ رَسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خبرَ ماراأى. فقال له ورقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على مُوسى، ياليْتني فيها جَذَعٌ، لَيْتني أكونُ حَيّاً إذْ يُخرِجُكَ قَوْمُك. فقال رسولُ اللهِ صلى

مرة كان النبي صلي الله عليه وسلم قادماً من غار حراء، ونزل الوادي، فجاءه صوت من الغيب، فنظر الرسول صلى الله عليه وسلم عن يمينه ويساره وأمامه وخلفه، وبعدها رفع نظره إلي السماء فرأي هذا الملك الذي كان قد رآه في غار حراء جالساً علي عرش بين السماء والأرض، فرعب وعاد إلي المنزل، وبعدها جاءه جبريل بشكل منتظم بعد ذلك.([1])

" لا تحرك به لسانك لتعجل به. إن علينا جمعه وقرآنه " (القيامة: ١٦ – ١٧)

وعندما كان يهبط جبريل عليه صلى الله عليه وسلم كان يستمع إليه وينصت، وكان يقرأ بعده، ولم يكن هناك وقت محدد لنزول سيدنا جبريل صباحاً ومساءاً ليلاً ونهاراً في السلم والحرب، في كل وقت كان الفيض الإلهي ينزل علي الرسول صلي الله عليه وسلم.

ويروي عن السيدة عائشة أنه ذات مرة وفي ليلة النصف من شعبان نهض الرسول صلى الله عليه وسلم وذهب إلي قبور البقيع، وعندما استيقظ أخبر بأن جبريل أمره بالذهاب إلي البقيع والاستغفار لهؤلاء الناس في البقيع ([2]) وقد أخبر الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة بدر أنه رأي جبريل واقفاً يمسك بلجام فرسه ([3]). وفي عودته من غزوة الخندق مع جيش المسلمين اغتسل بعد أن خلع سلاحه، فجاء جبريل أمامه وقال له: قد وضعت السلاح؟ والله ما وضعناه فاخرج إليهم. قال ﷺ: فإلى أين؟ قال: ها هنا وأشار إلى بني قريظة. ([4]). علي أي حال كان شهر رمضان هو أكثر الشهور الذي نزل فيه سيدنا جبريل حيث كان يسمع منه القرآن كل يوم، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم

الله عليه وسلم: أوَ مُخْرِجِيَّ هُمْ؟ قال: نَعم، لمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بِمِثْلِ ماجِئْتَ بهِ إلاَّ عُـودِيَ، وإنْ يُـدْرِكْنِي يَوْمُكَ أَنْصُرْكَ نَصْراً مُؤزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقَةُ أَنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ (يوسف عامر).

[1] – صحيح البخاري باب بدء الوحي. وهذا نص الحديث: (٤) قال ابنُ شِهابٍ: وأخبرَني أبو سَلَمَةَ بـنُ عبدِ الرَّحمنِ أنَّ جابرَ بنَ عبدِ اللَّهِ الأنصاريَّ قال: وهُو يحدِّثُ عن فَتْرَةِ الْوَحْيِ ــ فقالَ في حَديثِه: «بيْنا أنا أمْشِي، إذْ سَمِعْتُ صَوْتاً منَ السماءِ، فرَفَعْتُ بَصَرِي فإذا المَلَكُ الذي جاءَني بحِراء جالسٌ على كُرْسِيٍّ بَيْنَ السماءِ والأرضِ، فرُعِبْتُ منه، فرَجَعْتُ فقلتُ: زَمِّلوني. فأنزَلَ اللَّهُ تعالى {يا أيُّها المُدَّثِّر، قُمْ فَأَنْـذِرْ} ــ إلى قولِه: {والرُّجْزَ فاهْجُرْ}. فَحَمِيَ الوَحْيُ وتَتَابع». تابَعَهُ عبدُ اللَّهِ بنُ يوسُفَ وأبو صـالحٍ، وتابَعَـهُ هِلالُ بنُ رَدَّادٍ عن الزُّهْرِيِّ، وقال يُونُسُ ومَعْمَرٌ «بَوادِرُهُ» (يوسف عامر).

[2] – النسائي باب الاستغفار للمؤمنين.

[3] – صحيح البخاري غزوة بدر

[4] – صحيح البخاري غزوة الخندق.

يتلو عليه القرآن ([1])، وكان جبريل يأتي وهو في مجمع من الناس، لكن كل ما كان يراه ويسمعه الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن في الغالب يحكيه أو يريه للآخرين. وذات مرة كان صلي الله عليه وسلم جالساً مع عائشة رضي الله عنها، فقال لها الرسول صلى الله عليه وسلم يا عائش هذا جبريل يقرئك السلام، فقالت: وعليه السلام ورحمة الله وبركاته تري مالا أري ([2]).

وهناك ذكر لملك الغيب بشكله وجسده في قصص أنبياء بني إسرائيل في التوراة، وكذلك في الإنجيل أن هذا الوحي كان ينزل علي سيدنا عيسي في شكل حمامة. وقد روي سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان جالساً ذات مرة مع أصحابه في الخارج، فجاءه رجل وجلس بجواره وسأل: ما الإيمان ؟ فقال لله الرسول صلى الله عليه وسلم: أن تؤمن بالله وملائكته وكتابه ولقائه ورسله وتؤمن بالبعث الآخرب. ثم سأل مرة أخري: ما الإسلام ؟ فأجابه الرسول صلى الله عليه وسلم: الإسلام أن تعبد الله ولا تشرك به شيئا وتقيم الصلاة المكتوبة وتؤدي الزكاة المفروضة وتصوم رمضان. فسأله: ما الإحسان ؟ فأجابه: أن تعبد الله كأنك تراه، فإنك إن لا تراه فإنه يراك. ثم سأله: متى الساعة؟. قال: ما المسئول عنها بأعلم من السائل، ولكن سأحدثك عن أشراطها إذا ولدت الأمة ربها فذاك من أشراطها، وإذا كانت العراة الحفاة رؤوس الناس فذاك من أشراطها، وإذا تطاول رعاة البهم فى البنيان فذاك من أشراطها، فى خمس لا يعلمهن إلا الله. ثم تلي ﷺ " إن الله عنده علم الساعة "، ثم نهض هذا الرجل ومشي، فطلب الرسول صلي الله عليه وسلم من الصحابة أن يستدعوه، فنظر الصحابة هنا وهناك فلم يجدوا شيئاً، فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم: هذا جبريل جاء ليعلم الناس دينهم.

كان هناك واحد من الصحابة يدعي دحية رضي الله عنه، وكان وسيماً وكان جبريل يتخذ صورته وينزل إلي الأرض، وكان الناس يرونه أحياناً في هذه الحالة، وتقول السيدة أم سلمة أنني رأيت ذات مرة أن دحية رضي الله عنه كان جالساً أمام الرسول صلى الله عليه وسلم ويخاطبه، ووقتها لم يعترني أي شك في أن هذا دحية، وبعدها بلحظات سمعت صوت خطبة النبي صلي الله عليه وسلم في المسجد النبوي يعلن أن جبريل كان معي الآن ففهمت السيدة أم سلمة رضي الله عنها أن الشخص الذي كان مع

---

[1] - صحيح البخاري باب بدء الوحي.

[2] - صحيح البخاري باب الوحي.

الرسول هو سيدنا جبريل وليس الصحابي دحية ([1]). وقد بينت السيدة عائشة رضي الله عنها أن الرسول صلي الله عليه وسلم رأي جبريل مرتين في شكله الحقيقي. مرة عند سدرة المنتهي أثناء المعراج، والمرة الثانية في الأفق الأعلى في المكان الذي ورد ذكره في آيات سورة النجم: "علمه شديد القوي. ذو مرة فاستوي. وهو بالأفق الأعلى. ثم دني فتدلي. فكان قاب قوسين أو أدني. فأوحي إلي عبده ما أوحي. ما كذب الفؤاد ما رأي. أفتمارونه علي ما يري. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهي " (النجم: ٥ – ١٤)

وجاء في سورة التكوير أن الكفار أطلقوا علي الرسول صلى الله عليه وسلم أنه مجنون لأنه ادعي رؤية أشياء غير مرئية " إنه لقول رسول كريم. ذو قوة عند ذي العرش مكين. مطاع ثم أمين. وما صاحبكم بمجنون. ولقد رآه بالأفق المبين" (التكوير: ١٩، ٢٣)

والرغبة والشوق لدى الرسول صلى الله عليه وسلم في لقاء الله ظهر عندما قال لجبريل: لماذا لم تكثر من المجيء إليّ فقال: " وما نتنزل إلا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً " (مريم: ٦٤)

ويقول سيدنا أبو ذر أنه خرج ذات ليلة فرأي الرسول صلي الله عليه وسلم يتمشى في ضوء القمر وحيداً، ففهمت أنه يريد أن يبقي وحيداً في هذا الوقت، ولا يرغب أن يكون معه أحد ؛ وبناءاً علي هذا التصور وقفت في ظل، ولكن وقع نظره صلى الله عليه وسلم عليّ، وقال من هذا ؟، قلت فداك يا رسول الله، أنا أبو ذر، فأخذني معه وظللنا نتنزه لفترة قصيرة، وقال: الأكثرون همُ الأقلُّون إلا مَن قال هكذا وهكذا. ويقول سيدنا أبو ذر رضي الله عنه ظللت أتنزه مع الرسول لفترة وجيزة، وبعدها أشار إلي مكان خاص وقال لاتبرَحْ، وذهب إلي الجبل، وغاب عن نظري وسمعت صوتاً من بعيد فخفت، ولأن الرسول أمرني بأن لا أغادر مكاني فلم أغادر المكان، وبعد فترة ظهر الرسول صلى الله عليه وسلم أمامي، وكان يردد علي لسانه المبارك " حتى ولو زنا وسرق "، فقلت فداك يا رسول الله هل تخاطب أحداً من خلف الجبل ؟ فقال: هل سمعت صوتاً فقلت: نعم فقال: ذاك جبريل أتاني فأخبرَني أنه من مات من أمَّتي لايُشركُ بالله شيئاً دخلَ الجنة. قلت:

[1] ـــ صحيح البخاري باب الوحي

يارسولَ الله، وإن زنى وإن سرق. قال: وإن زنى وإن سرق. ([1])، فقال: نعم، فقلت للمرة الثالثة حتى ولو زنا وسرق، فأجابني بنفس الإجابة.

نزول الملك ميكائيل:

وقد ثبت أيضاً أن هناك ملائكة أخرى غير سيدنا جبريل نزلوا علي الرسول صلي الله عليه وسلم، ويأتي ذكر اسمين من أسماء الملائكة في القرآن الكريم بجانب سيدنا جبريل، أحدهما ميكائيل، وذلك عندما أنكر اليهود القرآن لأنه جاء عن طريق جبريل فأجابهم الله بقوله:

" من كان عدواً لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين " (البقرة: ٩٨)

وكما يعتقد اليهود بأن ميكائيل هو أحد ملائكة العرش الأربعة، وكان يعتبرونه الحارس لإسرائيل وأسرته وساعدهم في الحروب (دانيال ١٠، ١٣، ٢١)، وطبقاً للمسيحين فإنه هو الملك الذي شارك موسى عليه السلام علي جبل الطور (أعمال ٧ــــ ٣٨). وقد حضر ميكائيل للرسول صلى الله عليه وسلم أكثر من مرة، ففي واقعة المعراج كان بصحبة سيدنا جبريل، وكذلك في غزوة أحد، فإن الملكين الذين قاما بحماية الرسول صلي الله عليه وسلم هما ميكائيل وجبريل، وتقول بعض الروايات أن ميكائيل كان مع النبي صلي الله عليه وسلم في الأعوام الثلاثة الأول من النبوة.

---

[1] ــ صحيح البخاري كتاب الرفاق. وهذا نص الحديث: (٦١٢٥) ــــ حدَّثنا عمرُ بن حفص حدَّثنا أبي حدَّثنا الأعمش حدَّثنا زيدُ بن وَهب «حدثَنا ــ واللّهِ ــ أبو ذرٍّ بالرَّبذة قال: «كنتُ أمشي معَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في حَرَّة المدينة عِشاء استقبَلنا أحُدٌ فقال: ياأبا ذرّ، ماأُحبُّ أنَّ أحُداً لي ذهَباً تأتي عليَّ ليلةٌ أو ثلاث عندي منه دِينار إلا أرصدُه لِدَين إلا أن أقولَ به في عبادِ الله هكذا وهكذا وهكذا ــ وَأرانا بيده ــ ثم قال: ياأبا ذرّ، قلت: لبَّيكَ وسعدَيك يارسولَ الله. قال: الأكثرون همُ الأقلُّون إلا مَن قال هكذا وهكذا. ثم قال لي: مَكانك لاتبَرَحْ ياأبا ذَرّ حتى أرجِعَ. فانطلقَ حتى غابَ عني فسمعتُ صوتاً، فخَشِيتُ أن يكونَ عُرِضَ لرسول الله صلى الله عليه وسلم، فأردتُ أن أذهبَ ثم ذكرت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: لاتبرَحْ. فمكثتُ. قلتُ: يارسولَ الله سمعت صَوتاً خَشِيتُ أن يكون عُرِضَ لك، ثم ذكرتُ قولك فقمتُ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ذاك جبريل أتاني فأخبرني أنه من مات من أمَّتي لايُشركُ بالله شيئاً دخلَ الجنة. قلت: يارسولَ الله، وإن زنى وإن سرق. قال: وإن زنى وإن سرق. قلتُ لزيدٍ إنه بلغَني أنه أبو الدَّرداء فقال: أشهدُ لَحَدَّثنيه أبو ذرّ بالرَّبذة» «قال الأعمش: وحدثني أبو صالح عن أبي الدرداءِ نحوه. وقال أبو شهاب عن الأعمشِ «يمكثُ عندي فوق ثلاث». (يوسف عامر).

وقد ثبت أيضاً يصحح الرواية أن هناك العديد من الملائكة بجانب سيدنا جبريل وميكائيل نزلوا علي الرسول صلي الله عليه وسلم، وكانت نتيجة قدومهم أن عَمر قلب الرسول بالسكينة والطمأنينة، ونحن نعرف عبء النبوة الذي وضع على كتف الرسول صلى عليه وسلم يقيناً نعرفه، فمن ناحية أنه كان في الظاهر إنساناً لا سند له، كما أنه لا يملك الثروة والجاه، ولم يكن تحت رايته أي جندي آخر، ومن ناحية أخرى الدنيا التي تضم بين جنباتها الثروة والمال والتي تحت رايتها تتشاجر أسراب الجراد كل وقت لمحو الحق، هذا هو الوقت الذي أمر الله فيه رسله بأن يبشروا رسوله يقول:

" إن الله وملائكته يصلون على النبي، يا أيها الذين آمنوا صلوا عليه وسلموا تسليما " (الأحزاب: ٥٦)

وكان سيد قريش يفخر بقوته وسلطانه، ويعلن أن سادة قريش معه، فجاء نداء الله على لسان نبيه: " فليدع ناديه. سندع الزبانية " (العلق: ١٧ – ١٨)

وكذلك عندما أراد المنافقون أن يبثوا الفرقة في مجلس الرسول صلى الله عليه وسلم وبيته، وغضب الرسول من بعض ازواجه، فجاء قول الله:

" فإن الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير" (التحريم: ٤)

وذات مرة سأل أبو جهل الكفار هل رأيتم محمداً يسجد أمامكم أحياناً، فأجاب الجميع نعم، فقال: واللات والعزى لو رأيته مرة يسجد فسأقطع رقبته وأمرغ رأسه في التراب، وهكذا ذات مرة عندما كان الرسول صلى الله عليه وسلم مستغرقاً في الصلاة تقدم منه أبو جهل لتحقيق رغبته ونيته التي بيتها للرسول صلى الله عليه وسلم، إلا إنه علي الفور خاف ورجع، فسأله الكفار عن السبب فقال: إن هناك خندقاً من نار وأجنحة ملائكة حالت بيني وبينه. وأخبر الرسول صلي الله عليه وسلم أنه لو اقترب (أبو جهل) منه ﷺ فإن الملائكة كانوا سيقطعونه إرباً، كما ورد في الآية القرآنية

" أ رأيت الذي ينهي. عبداً إذا صلي " (العلق: ٩ – ١٠) وهذه الآية تشير إلي هذه الحادثة. ([1])

وعندما عاد الرسول صلي الله عليه وسلم من سفر الطائف غير موفق، وطبقاً لبشريته فقد انهزم قلبه، وعندما وصل إلي منطقة " قرن الثعالب " رفع رأسه، فرأي

[1] ــ صحيح مسلم باب قوله تعالي " وما كان الله ليعذبهم".

غمامة تظله، وبدا منها ملك نادي وقال: يا محمد أنا ملك الجبال، لقد سمع ربك حديثك مع قومك، فلو أمرتني لأطبقت عليهم الجبال، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابهم من يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشركُ بهِ شيئاً».[1]

وكانت موقعة بدر أول محنة وأول ابتلاء وامتحان يتعرض له المسلمون في تاريخ الإسلام، ولم يكن عدد المسلمين يتجاوز ٣١٩ فرداً، وكان في مواجهة هذه الفئة القليلة سرب من جند الكفار، عندما شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم هذا المنظر توجه إلي القبلة ورفع يديه إلي السماء ودعا الله، وفجاءة نزل ألف من الملائكة ووقفوا في صف المسلمين في المعركة كما جاء في القرآن الكريم:

" إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين " (الأنفال: ٩)

وهذا الجيش الروحي الذي ساعد المسلمين وصفه عبد الله بن عباس هكذا " كان أحد المسلمين يتعقب أحد الكفار، فسمع المسلم صوت قرع سوط من فوق رأس الكافر، وسمع صوت يقول " تقدم يا حيزوم "، وبعد أن قال هذا وقع الكافر علي الأرض، فتقدم المسلمون ورأوا أن في أنف الكافر ثقب وفيه رسن، ووجهه ممزق، وعليه كدمات زرقاء، فذكر هذا الصحابي الأمر أمام الرسول صلي الله عليه وسلم، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: «صَدَقْتَ. ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ».[2]

---

[1] ـــ صحيح البخاري باب (الملائكة)، وصحيح مسلم غزوة أحد. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٣١٦١) حدثنا عبدُ اللهِ بن يوسفَ أخبرَنا ابنُ وهب قال: أخبرني يونسُ عن ابنِ شهاب قال: حدثني عروةُ: «أنَّ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها زوجَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم حدَّثتهُ أنها قالت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: هل أتى عليكَ يومٌ كان أشدَّ من يوم أُحُدٍ ؟ قال: لقد لَقيتُ من قومك ما لقيت، وكان أشدَّ ما لقيتُ منهم يومَ العقبةِ إذ عرَضتُ نفسي على ابنِ عبد يا ليل بن عبد كُلال فلم يُجبني إلى ما أردتُ، فانطلقتُ وأنا مَهمومٌ، على وَجهِي، فلم أستفق إلا وأنا بقرنِ الثعالب، فرَفَعتُ رأسي، فإذا أنا بسحابةٍ قد أظلَّتني، فنظرتُ فإذا فيها جبريل، فناداني فقال: إن الله قد سمعَ قولَ قومكَ لك وما ردّوا عليك، وقد بعث اللهُ إليكَ ملَكَ الجبالِ لتأمرَهُ بما شئتَ فيهم، فناداني ملكُ الجبال فسلم علي ثم قال: يا محمد، فقال: ذلكَ فيما شئتَ، إن شئتَ أن أطبِقَ عليهم الأخشَبَينِ. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: بل أرجو أن يُخرجَ الله من أصلابِهم من يَعبُدُ اللهَ وحدَهُ لا يُشركُ بهِ شيئاً».(يوسف عامر).

[2] ـــ صحيح مسلم ـــ ج٢، كتاب الجهاد باب إمداد الملائكة. وهذا نص الحديث: (٤٥٤٢) حدثنا هَنَّادُ بْنُ السَّرِيِّ: حَدَّثَنَا ابْنُ الْمُبَارَكِ عَنْ عِكْرِمَةَ بْنِ عَمَّارٍ: حَدَّثَنِي سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ قَالَ: سَمِعْتُ ابْنَ عَبَّاسٍ يَقُولُ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ. قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ. ح وَحَدَّثَنَا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَاللَّفْظُ لَهُ: حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْحَنَفِيُّ: حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ. حَدَّثَنِي أَبُو زُمَيْلٍ هُوَ سِمَاكٌ الْحَنَفِيُّ: حَدَّثَنِي عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ

وكان عدد المسلمين في غزوة أحد أيضاً أقل من عدد الكفار، وقلق المسلمو
عندما رأوا ذلك، لكن الرسول صلى الله عليه وسلم طمأنهم ونصحهم بألا يقيسوا الأمور بقلة العدد والذخائر، إذ أن الله تعالى سيمدهم بآلاف من ملائكته، فقال الله: لاشك أن المسلمين لو تحلوا بالصبر والجرأة والشجاعة سنمدهم بخمسة آلاف من الملائكة كما جاء في سورة آل عمران تفصيلاً:

" إذ تقول للمؤمنين ألن يكفيكم أن يمدكم ربكم بثلاثة آلاف من الملائكة منزلين. بلي إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين.

قَالَ: حَدَّثَنِي عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، قَالَ: لَمَّا كَانَ يَوْمُ بَدْرٍ، نَظَرَ رَسُولُ اللَّهِ إِلَىٰ الْمُشْرِكِينَ وَهُمْ أَلْفٌ، وَأَصْحَابُهُ ثَلاَثُمِائَةٍ وَتِسْعَةَ عَشَرَ رَجُلاً، فَاسْتَقْبَلَ نَبِيُّ اللَّهِ الْقِبْلَةَ، ثُمَّ مَدَّ يَدَيْهِ فَجَعَلَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ: «اللَّهُمَّ! أَنْجِزْ لِي مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ! آتِ مَا وَعَدْتَنِي، اللَّهُمَّ! إِنْ تَهْلِكْ هَـٰذِهِ الْعِصَابَةُ مِنْ أَهْلِ الإِسْلاَمِ لاَ تُعْبَدْ فِي الأَرْضِ» فَمَا زَالَ يَهْتِفُ بِرَبِّهِ، مَادّاً يَدَيْهِ، مُسْتَقْبِلَ الْقِبْلَةِ، حَتَّىٰ سَقَطَ رِدَاؤُهُ عَنْ مَنْكِبَيْهِ، فَأَتَاهُ أَبُو بَكْرٍ، فَأَخَذَ رِدَاءَهُ فَأَلْقَاهُ عَلَىٰ مَنْكِبَيْهِ. ثُمَّ الْتَزَمَهُ مِنْ وَرَائِهِ. وَقَالَ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ كَذَاكَ مُنَاشَدَتَكَ رَبَّكَ، فَإِنَّهُ سَيُنْجِزُ لَكَ مَا وَعَدَكَ. فَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُمْ بِأَلْفٍ مِنَ الْمَلاَئِكَةِ مُرْدِفِينَ}. (٨الأنفال الآية: ٩) فَأَمَدَّهُ اللَّهُ بِالْمَلاَئِكَةِ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: فَـ(حَدَّثَنِي ابْنُ عَبَّاسٍ قَالَ: بَيْنَمَا رَجُلٌ مِنَ الْمُسْلِمِينَ يَوْمَئِذٍ يَشْتَدُّ فِي أَثَرِ رَجُلٍ مِنَ الْمُشْرِكِينَ أَمَامَهُ، إِذْ سَمِعَ ضَرْبَةً بِالسَّوْطِ فَوْقَهُ، وَصَوْتَ الْفَارِسِ يَقُولُ: أَقْدِمْ حَيْزُومُ. فَنَظَرَ إِلَىٰ الْمُشْرِكِ أَمَامَهُ فَخَرَّ مُسْتَلْقِياً. فَنَظَرَ إِلَيْهِ فَإِذَا هُوَ قَدْ خُطِمَ أَنْفُهُ، وَشُقَّ وَجْهُهُ كَضَرْبَةِ السَّوْطِ، فَاخْضَرَّ ذَلِكَ أَجْمَعُ. فَجَاءَ الأَنْصَارِيُّ فَحَدَّثَ بِذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ. فَقَالَ: «صَدَقْتَ. ذَلِكَ مِنْ مَدَدِ السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ» فَقَتَلُوا يَوْمَئِذٍ سَبْعِينَ، وَأَسَرُوا سَبْعِينَ. قَالَ أَبُو زُمَيْلٍ: قَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَلَمَّا أَسَرُوا الأُسَارَىٰ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ لأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ: «مَا تَرَوْنَ فِي هَـٰؤُلاَءِ الأُسَارَىٰ؟» فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: يَا نَبِيَّ اللَّهِ هُمْ بَنُو الْعَمِّ وَالْعَشِيرَةِ، أَرَىٰ أَنْ تَأْخُذَ مِنْهُمْ فِدْيَةً، فَتَكُونُ لَنَا قُوَّةً عَلَى الْكُفَّارِ، فَعَسَىٰ اللَّهُ أَنْ يَهْدِيَهُمْ لِلإِسْلاَمِ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «مَا تَرَىٰ؟ يَا ابْنَ الْخَطَّابِ!» قُلْتُ: لاَ. وَاللَّهِ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا أَرَى الَّذِي رَأَىٰ أَبُو بَكْرٍ، وَلَكِنِّي أَرَىٰ أَنْ تُمَكِّنَّا فَنَضْرِبَ أَعْنَاقَهُمْ، فَتُمَكِّنَ عَلِيّاً مِنْ عَقِيلٍ فَيَضْرِبَ عُنُقَهُ، وَتُمَكِّنِّي مِنْ فُلاَنٍ (نَسِيباً لِعُمَرَ) فَأَضْرِبَ عُنُقَهُ. فَإِنَّ هَؤُلاَءِ أَئِمَّةُ الْكُفْرِ وَصَنَادِيدُهَا. فَهَوِيَ رَسُولُ اللَّهِ مَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَلَمْ يَهْوَ مَا قُلْتُ. فَلَمَّا كَانَ مِنَ الْغَدِ جِئْتُ فَإِذَا رَسُولُ اللَّهِ وَأَبُو بَكْرٍ قَاعِدَيْنِ يَبْكِيَانِ. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَخْبِرْنِي مِنْ أَيِّ شَيْءٍ تَبْكِي أَنْتَ وَصَاحِبُكَ، فَإِنْ وَجَدْتُ بُكَاءً بَكَيْتُ، وَإِنْ لَمْ أَجِدْ بُكَاءً تَبَاكَيْتُ لِبُكَائِكُمَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: أَبْكِي لِلَّذِي عَرَضَ عَلَيَّ أَصْحَابُكَ مِنْ أَخْذِهِمُ الْفِدَاءَ. لَقَدْ عُرِضَ عَلَيَّ عَذَابُهُمْ أَدْنَىٰ مِنْ هَـٰذِهِ الشَّجَرَةِ» (شَجَرَةٍ قَرِيبَةٍ مِنْ نَبِيِّ اللَّهِ) وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: {مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى حَتَّىٰ يُثْخِنَ فِي الأَرْضِ}. إِلَىٰ قَوْلِهِ: {فَكُلُوا مِمَّا غَنِمْتُمْ حَلاَلاً طَيِّباً} (٨الأنفال الآيات: ٦٩ ــ ٦٧) فَأَحَلَّ اللَّهُ الْغَنِيمَةَ لَهُمْ. **(يوسف عامر).**

وما جعله الله إلا بشري لكم ولتطمئن قلوبكم به وما النصر إلا من عند الله " (آل عمران: ١٢٤ - ١٢٦)

ولكن عندما بدأت الحرب، ونفذ صبر المسلمين، حُرموا من نصرة الله، ولكن الله لكي يُؤمن رسوله أحاطه بملكين كما ذكر الصحابي سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه: " رأيت رجلين يرتديان ملابس بيضاء كانوا يحاربون بكل فدائية بجانبه صلي الله عليه وسلم، ولم أراهم من قبل ولم أشاهدهم بعد ذلك. (١) وجاء في صحيح مسلم أنهما كانا جبريل وميكائيل (٢). وبعد غزوة أحد جاءت غزوة الخندق، وكان المسلمون في هذه الغزوة قليلي العدد والعتاد لدرجة أن الإمدادات للجيش الإسلامي كانت سيئة، وكان الرسول صلي الله عليه وسلم وجنوده يظلون لفترة طويلة بدون طعام. ولكن الله أمدهم بجيشه الروحي الذي أنساهم الجوع والعطش. وقد ذكّر الله عباده المسلمين في سورة الأحزاب " يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً " (الأحزاب: ٩)

يروي سيدنا أبو ذر وهو قديم عهد بالإسلام أنه ذات مرة استفسر من الرسول صلى الله عليه وسلم يا رسولَ اللَّهِ كيفَ علِمْتَ أنَّكَ نبيٌّ حينَ استُنبِئتَ فقالَ: «يا أبا ذرٍ أتَاني ملَكانِ وأنَا ببعضِ بطحاءِ مكةَ، فوقَعَ أحدُهُما علَى الأرضِ وكانَ الآخَرُ بَيْنَ السماءِ والأرضِ، فَقَالَ أحدُهُما لصاحِبِهِ: أهو هو قال: نعم قال: فزِنْهُ برجلٍ فوُزِنْتُ بِهِ فوزنتُهُ، ثم قالَ: فَزِنْهُ بِعَشَرَةٍ فوُزِنْتُ بِهِم فرجحتُهُم، ثم قالَ: زِنْهُ بمائةٍ فَوُزِنْتُ بهم فرجحتُهُم، ثمَّ قَالَ: زِنْهُ بألفٍ فوُزِنْتُ بهم فرجحتُهُم، كأني أنظُرُ إليهم ينتثرونَ عليَّ مِنْ خفةِ الميزانِ، قالَ فقالَ أحدُهما لصاحبِهِ: لَوْ وَزَنْتَهُ بأمَّتِهِ لرجَحَهَا». (٣)

---

١ - صحيح البخاري باب غزوة أحد ــ ص ٥٨٠

٢ - صحيح مسلم، ج٢، كتاب الفضائل باب قتال جبريل وميكائيل.

٣ - حديث سنن الدارمي باب كيف كان أول شأن النبي (ص) وسلسلة سند هذا الحديث. أخبرنا عبد الله بن عمر: حدثنا أبو داود حدثنا جعفر بن عثمان القرشي عن عثمان بن عروة بن الزبير عن لبيد عن أبي ذر الغفارى والراوي الثالث هو جعفر بن عثمان القرشي واسمه الصحيح هو جعفر بن عبد الله بن عثمان القرشي الذي يعد من الرواة غير الثقة. وهذا نص الحديث: (١٤) أخبرنا عبدُاللَّهِ بنُ عِمرانَ حدثنا أبو داودَ حدثنا جعفرُ بنُ عثمانَ القرشيُّ، عنْ عثمانَ بنِ عُروةَ بنِ الزبيرِ عن أبيه، عَنْ أبي ذرٍ الغفاريِّ،، قال: قلتُ يا رسولَ اللَّهِ كيفَ علِمْتَ أنَّكَ نبيٌّ حينَ استُنبِئتَ فقالَ: «يا أبا ذرٍ أتَاني ملَكــانِ وأنَا ببعضِ بطحاءِ مكةَ، فوقَعَ أحدُهُما علَى الأرضِ وكانَ الآخَرُ بَيْنَ الســماءِ والأرضِ، فقَــالَ أحــدُهُما

وفي الحقيقة هذا مثال لأفضليته البشرية، وقد حدثنا عبد الله بن مسعود عن واقعة مكة أنه ذات ليلة كان الرسول صلي اله عليه وسلم عائداً من صلاة العشاء فأمسك يدي، وخرجنا في أحد ميادين مكة، ثم خط خطاً في مكان ما قال: «لا تَبْرَحَنَّ خَطَّكَ فَأَنَّهُ سَيَنْتَهِي إِلَيْكَ رِجَالٌ فَلاَ تُكَلِّمْهُمْ فَإِنَّهُمْ لن يُكَلِّمُوكَ». قال هذا وذهب إلي اتجاه آخر، وفي تلك الأثناء رأيت هؤلاء الناس، فبدوا إليّ وكأنهم قوم " الزط "، ولم يكونوا عراة، كما أنهم لم تكن عليهم أي ملابس. فجاءوا ناحيتي، وبعدها ذهبوا في اتجاه الرسول صلي الله عليه وسلم، ولم يكونوا يتجاوزون الخط الذي خطه الرسول علي الأرض، وبعد منتصف الليل رجع الرسول صلى الله عليه وسلم وقال «لَقَدْ أَرَانِي مُنْذُ اللَّيْلَةَ»، قال هذا ووضع رأسه الشريفة علي ركبتي ونام، وفي تلك الفترة جلس رجال بالقرب منه يرتدون ملابس زاهية ذوو جمال وحسن لا يعلمه إلا الله، جلس بعضهم عند رأسه الشريفة والبعض الآخر عند قدميه، والتقي الفريقان، وعرضوا رسالته ونبوته صلي الله عليه وسلم، وقالوا هذا هو الرسول التي عيناه تنام وقلبه يقظ وذهبوا بعد ذلك، فاستيقظ الرسول وقال: سَمِعْتُ مَا قَالَ هَؤُلاءِ. وَهَلْ تَدْرِي مَنْ هُمْ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: هُمُ المَلاَئِكَةُ، فَتَدْرِي مَا المَثَلُ الَّذِي ضَرَبُوهُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: المَثَلُ الَّذِي ضَرَبُوهُ: الرَّحْمَنُ تبارك وتعالى بَنَى الْجَنَّةَ وَدَعَى إِلَيْهَا عِبَادَهُ، فَمَنْ أَجَابَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ عَاقَبَهُ أو عَذَّبَهُ». [1]

لصاحبه: أهو هو قال: نعم قال: فزنْهُ برجلٍ فوُزِنْتُ بهِ فوزنتُهُ، ثم قالَ: فَزِنْهُ بعَشْرةٍ فوُزِنْتُ بهم فرجحتُهُم، ثم قالَ: زِنْهُ بمائةٍ فوُزِنْتُ بهم فرجحتُهُم، ثمَّ قالَ: زِنْهُ بألفٍ فوُزِنْتُ بهم فرجحتُهُم، كأني أنظرُ إليهم ينتثرونَ عليَّ مِنْ خفةِ الميزانِ، قالَ فقالَ أحدُهما لصاحبِهِ: لَوْ وَزَنْتَهُ بأمّتِهِ لرجَحَهَا». (يوسف عامر).

[1] – الترمذى أبواب الأمثال. وقال الترمذى حول هذا الحديث بأنه حسن غريب. وهذا نص الحديث: (٢٩٣٩) حدثنا مُحمَّدُ بنُ بَشَّارٍ، أخبرنا مُحمَّدُ بنُ أبي عَدِيٍّ عن جَعْفَرِ بنِ مَيْمُونٍ، عن أبي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ عن أبي عُثْمَانَ، عن ابنِ مَسْعُودٍ، قال: «صَلَّى رَسُولُ الله الْعِشَاءَ ثُمَّ انْصَرَفَ فَأَخَذَ بِيَدِ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ حَتَّى خَرَجَ بِهِ إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ فَأَجْلَسَهُ ثُمَّ خَطَّ عَلَيْهِ خَطّاً، ثمَّ قال: «لا تَبْرَحَنَّ خَطَّكَ فَإنَّهُ سَيَنْتَهِي إِلَيْكَ رِجَالٌ فَلاَ تُكَلِّمْهُمْ فَإِنَّهُمْ لن يُكَلِّمُوكَ»، قال: ثُمَّ مَضَى رَسُولُ الله حَيْثُ أَرَادَ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ في خَطِّي إِذْ أَتَانِي رِجَالٌ كأَنَّهُمْ الزُّطُّ أَشْعَارَهُمْ وَأَجْسَامَهُمْ. لا أَرَى عَوْرَةً ولا أَرَى قِشْراً، وَيَنْتَهُونَ إِلَيَّ ولا يُجَاوِزُونَ الْخَطَّ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ إِلَى رَسُولُ الله حَتَّى إِذَا كَانَ مِنْ آخِرِ اللَّيلِ، لَكِنَّ رَسُولُ الله قَدْ جَاءَنِي وَأَنَا جَالِسٌ فَقَالَ: «لَقَدْ أُرَانِي مُنْذُ اللَّيْلَةَ»، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ في خَطِّي فَتَوَسَّدَ فَخِذِي وَرَقَدَ، وكَانَ رَسُولُ الله إِذَا رَقَدَ نَفَخَ، فَبَيْنَا أَنَا قَاعِدٌ ورَسُولُ الله مُتَوَسِّدٌ فَخِذِي، إِذَا أنا بِرِجَالٍ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ بِيضٌ. الله أَعْلَمُ مَا بِهِمْ مِنَ الْجَمَالِ **فَانْتَهَوْا إِلَيَّ، فَجَلَسَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ** رَأْسِ رَسُولَ الله وَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا بَيْنَهُمْ: مَا رَأَيْنَا

يقول سيدنا حذيفة أنه ذات مرة صلّي الرسول صلى الله عليه وسلم العشاء وذهب، فمشيت خلفه، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم مَنْ هَذَا حُذَيْفَةُ ؟ قُلْتُ نَعَمْ. فقال: إنَّ هَذَا مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلْ الأَرْضَ قَطُّ قَبْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ وَيُبَشِّرَنِي بِأَنَّ فاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِساءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ الْحَسَنَ والْحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ». (1)

عَبْداً قَطُّ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا النبيُّ، إنَّ عَيْنَيْهِ تَنَامَانِ وَقَلْبَهُ يَقْظَانُ، اضْرِبُوا لَه مَثَلاً: مَثَلُ سَيِّدٍ بَنَى قَصْراً ثُمَّ جَعَلَ مَائِدَةً فَدَعَا النَّاسَ إلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، فَمَنْ أَجَابَهُ أَكَلَ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرِبَ مِنْ شَرَابِهِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ عَاقَبَهُ، أو قال عَذَّبَهُ. ثُمَّ ارْتَفَعُوا وَاسْتَيْقَظَ رَسُولُ الله عِنْدَ ذَلِكَ، فقال: سَمِعْتُ مَا قَالَ هَؤُلاءِ. وَهَلْ تَدْرِي مَنْ هُمْ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: هُمُ المَلاَئِكَةُ، فَتَدْرِي مَا المَثَلُ الَّذِي ضَرَبُوهُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: المَثَلُ الَّذِي ضَرَبُوهُ: الرَّحْمَنُ تبارك وتعالى بَنَى الْجَنَّةَ وَدَعَىَ إلَيْهَا عِبَادَهُ، فَمَنْ أَجَابَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ عَاقَبَهُ أو عَذَّبَهُ».

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الْوَجْه. (يوسف عامر).

1 - الترمذي. مناقب الحسنين، حديث حسن غريب. وهذا نص الحديث: (٣٩٤٣) ـــ حَدَّثَنَا عبدُ اللَّهِ بنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ وَ إسْحَاقُ بنُ مَنصورٍ قالاَ أخبرنا مُحمّدُ بنُ يُوسُفَ عَن إسرَائيلَ عَن مَيْسَرَةَ بنِ حَبِيبٍ عَن المِنْهَالِ بنِ عَمْرٍو عَن زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ عَن حُذَيْفَةَ قالَ: «سَأَلَتْنِي أُمِّي مَتَى عَهْدُكَ؟ تَعْنِي بالنبيِّ فَقُلْتُ مَالي بِهِ عَهْدٌ مُنْذ كَذَا وَكَذَا، فَنَالَتْ مِنِّي فَقُلْتُ لَهَا دَعِينِي آتِي النبيَّ فَأُصَلِّي مَعَهُ المَغْرِبَ وَأَسْأَلُهُ أنْ يَسْتَغْفِرَ لِي وَلَك فأتَيْتُ النبيَّ فَصَلَّيْتُ مَعَهُ المَغْرِبَ فَصَلَّى حَتَّى صَلَّى العِشَاءَ ثُمَّ انْفَتَلَ فَتَبِعْتُهُ فَسَمِعَ صَوْتِي فقالَ: مَنْ هَذَا حُذَيْفَةُ ؟ قُلْتُ نَعَمْ. قالَ: مَا حَاجَتُكَ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلأُمِّكَ؟ قالَ: إنَّ هَذَا مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلْ الأَرْضَ قَطُّ قَبْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، اسْتَأْذَنَ رَبَّهُ أنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ وَيُبَشِّرَنِي بِأَنَّ فاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِساءِ أَهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ الْحَسَنَ والْحُسَيْنَ سَيِّدَا شَبَابِ أَهْلِ الْجَنَّةِ».

قالَ أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ لا نعْرِفهُ إلاَّ مِنْ حَدِيثِ إسْرَائيلَ. (يوسف عامر).

عالم الرؤيا

" لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق " (الفتح: ٢٧)

الحلم والرؤيا في الحقيقة أحد طلاسم وعجائب الروح أو النفس. ويقول علماء النفس: إن حقيقة الرؤيا أو الحلم هي أن القوة الذهنية للإنسان دائماً ما تنشغل بالأعمال الفكرية والعقلية، وعندما ينام الإنسان تتعطل حواسه الظاهرية، إلا أن فكره وذهنه يظلان يعملان، وبما أن الإنسان يستغرق في نومه عامة ؛ لذا لا يشعر الإنسان بعد اليقظة بالحلم، ولكن عندما يكون نومه غير عميق، هنا يتذكر الإنسان نصف أوكل المشاهد التي مرت في ذهنه، وهذا ما يعرف بالحلم.

وكان هذا هو الفكر والتصور القديم البالي للفلسفة القديمة، ولكن بعد التطور العلمي ظهرت نظرية مقبولة ومشهورة لفلاسفة وعلماء النفس تقول: بأن عواطفنا وأمانينا وأفكارنا التي نخفيها في عالم اليقظة سواء كان ذلك بسبب نعلمه أولا نعلمه، كل هذا تُظهره قوانا العقلية المتحكمة فينا أثناء النوم في شكل حلم، وعلي كل حال يمكننا أن نطلق عليه الأوهام الذهنية.

ولا ينكر العارفون بأمر الروح هذه الأوهام الذهنية، إلا أن حقيقة الرؤيا عندهم شيء آخر، ويقولون أن الإنسان عبارة عن جسم وروح، وطالما بقيت الروح في الجسد فهناك وجهين أو جهتين لظهورها: أحدهما جسماني، والآخر روحاني، وعندما تنظر الروح من باب جسمها تبدو لها ألوان وملامح عالمها المادي والجسماني، وهي الروابط والرغبات التي ترتبط بعالمها المادي والجسماني، ولكن عندما تنظر من الباب الآخر تستطيع أن تطـوف عالمها الروحي، وتقدر ما هي ارتباطها بعالم الجسم، وبنفس القدر عدم الرغبة والتعلق بالعالم الآخر، إلا أنها في حالة الحلم يقل نقل مشاغل الجسم الظاهرة، لهذا تجد فرصة للنظر من نافذة العالم الآخر. ومن هنا تخرج الروح إلي العالم الآخر وتتجول فيه وتذهب بعيداً في عالم ملكوت، وكل ما تشاهده من مناظر هناك تكون صادقة وصحيحة، والأرواح التي تتحرر من قيود عالم الجسم برغم وجودها فيه، لن يمنعها عالم اليقظة من أن تتجول في إقليم الروح، وهذا ما يعرف بالمشاهدة والمكاشفة.

والأرواح الطيبة التي يمكن أن تسكن أجسام الأنبياء المقدسة، تتحرر إلي حد ما من قيود العالم الظاهرية بدرجة أكبر وأعلى من الإنسان العادي ؛ ولهذا ينكشف أمامهم عالم الأسرار والحقائق في عالم الرؤيا وعالم المشاهدة، فاليقظة يقظة علي أي حال، ولكنهم حتى في نومهم يظلون في يقظة، ولا تنام إلا أجسادهم، وتستيقظ أُرواحهم. " تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم " (البخاري باب الأنبياء)، والإنسان الغافل لا يلتفت إلي هذه المهمة، وإلا فإن النوم والحلم سر من أسرار الله.

" ومن آياته منامكم بالليل والنهار وابتغاؤكم من فضله إن في ذلك لآيات لقوم يسمعون " (الروم: ٢٣)

والموت والنوم في هذه الناحية أمر واحد. والفرق ينحصر في أنه في حالة الموت تفارق الروح الجسد للأبد، وتفارقه في النوم بشكل مؤقت. كما أنه في الموت تتحطم كل القيود الظاهرة، أما في حالة النوم فيبقي البعض وينقطع البعض. والقرآن الكريم يوجهنا نحو هذا الأمر المحير:

" الله يتوفى الأنفس حين موتها والتي لم تمت في منامها فيمسك التي قضي عليها الموت ويرسل الأخرى إلي أجل مسمي إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون " (الزمر: ٤٢)

ويفسر الإمام الرباني هذه الآية: (والوفاة في النوم هي من قبيل أن يخرج شخ من وطنه بمحض رغبته بقصد التنزه والتجوال حتى يتحقق له الفرح والسعادة، ثم يعود فرحاً مسروراً إلى وطنه، بعد أن يتجول في عالم المثال الذي يتضمن عجائب الملك والملكوت " (المكتوب الحادي والثلاثون - المجلد الثالث)

وللحلم في اللغة العربية لفظين:

١ــ حلم وجمعها أحلام ومعناها الحلم والخيال بمعني أنه وهم وخيال.

٢ــ رؤيا: ويطلق هذا علي الحلم الذي يُبني علي حقيقة ومعرفة.

وهناك فرق آخر بين هذين الفظين وهو أن الأول من وسوسة الشيطان، في حين أن الرؤيا منزهة عن ذلك، ويظهر الفرق من الآيات في سورة يوسف عندما رأي عزيز مصر الحلم وسأل أهل البلاد عن تفسير هذا الحلم فقالوا له إن هذا أضغاث أحلام.

" يا أيها الملأ أفتوني في رؤياي إن كنتم للرؤيا تعبرون. قالوا أضغاث أحلام وما نحن بتأويل الأحلام بعالمين " (يوسف: ٤٣ - ٤٤)

وكأن مشاهدة عالم الرؤيا يمكن أن تحدث أحياناً لكل كيان تتعلق به الروح، ولا تميز بين كافر ومؤمن، وشقي وسعيد، وأبيض وأسود، هذا الشيء الدقيق والبعيد يمكن أن تراه الكثير من الأعين، ولكن صحة وحقيقة هذا الشيء يعتمد علي قوة البصر والبصيرة، والقدرة على الفهم والاستنباط، وهكذا فإن الرؤيا الحقيقية لمشاهدات عالم الرؤيا لا يدركها إلا من كان بصره وروحه وعينه وإدراكه علي درجة كبيرة من الحس والإدراك الذي يصقله تقوى النفس وصلاحها: " ومن كان في هذه أعمي فهو في الآخرة أعمي " (الإسراء: ٧٢)

" واتقوا الله ويعلمكم الله والله بكل شئ عليم " (البقرة: ٢٨٢)

ولذلك فقد اهتمت كل الأديان بالرؤيا، واعتبرها الإسلام والشرع الإسلامي مكملة لشعب الدين، وقد وضح هذا بجلاء في الآية القرآنية:

" الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشري في الحياة الدنيا وفي الآخرة لا تبديل لكلمات الله ذلك هو الفوز العظيم " (يونس: ٦٣ – ٦٤)

وعندما نزلت هذه الآية سأل الصحابة رضوان الله عليهم ما هي البشارة يا رسول الله، فقال: هِي الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا المُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ» ([1])، وقال صلي الله عليه وسلم: «لا نبوّة بعدي إلا المبشرات، قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الحسنة ــ أو قال: الرؤيا الصالحة ــ». ([2])

ويروي عن مختلف الصحابة في أكثر من رواية في الترمذي ومسلم والبخاري أن الرسول صلي الله عليه وسلم قال: «الرُّؤيا الحسنةُ منَ الرجُلِ الصالح جُزءٌ من ستةٍ

---

[1] – صحيح الترمذي كتاب الرؤيا. وهذا نص الحديث: (٢٣١٢) حدَّثنا محمدُ بنُ بَشَّارٍ، حدثنا أَبُو دَاوُدَ، حدثنا حَرْبُ بنُ شَدَّادٍ و عِمْرَانُ القَطَّانُ عنْ يَحيَى بن أَبي كَثِيرٍ عنْ أَبي سَلَمَةَ قَالَ نُبِّئتُ عنْ عُبَادَةَ بنِ الصَّامِتِ، قَالَ: «سَأَلْتُ رَسُولَ الله عنْ قَوْلِه تعالى: {لَهُمُ الْبُشْرَى فِي الْحَيَاةِ الدُّنيَا} قَالَ: هِي الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ يَرَاهَا المُؤْمِنُ أَوْ تُرَى لَهُ». قالَ حَرْبٌ فِي حَدِيثِهِ حدثني يَحيَى بن أبي كثير. قال أبو عيسَى: هذا حديث حسن.(يوسف عامر).

[2] – صحيح الترمذي كتاب الرؤيا. وهذا نص الحديث: (٢٣٤١٠) حدّثنا عبد الله حدّثني أبي حدثنا يونس بن محمد حدثنا حماد ــ يعني ابن زيد ــ حدثنا عثمان بن عبيد الراسي قال: سمعت أبا الطفيل قال قال: رسول الله صلى الله عليه وسلم: «لا نبوّة بعدي إلا المبشرات، قال: قيل: وما المبشرات يا رسول الله؟ قال: الرؤيا الحسنة ــ أو قال: الرؤيا الصالحة ــ».(يوسف عامر).

وأربعينَ جزءاً منَ النبَّوة».[1] فماذا يكون أكثر من هذا البيان أهمية، حيث أن الرؤيا جزء من النبوة، لكن يجب أن نعلم أي رؤيا ؟ فقد أشرنا سابقاً إلي هذا في أن لكلمة حلم في العربية لفظين هما: الحلم وهو يعبر عن القلق النفسي والفكري، والرؤيا كما جاء في الحديث هي: " الرؤيا من الله والحلم من الشيطان ".

وفي بداية المقال فضلنا شرح علماء النفس وأهل المعرفة فيما يتعلق بهذا، ويظهر هذا جلياً من الحديث التالي الذي جاء في الترمذي وصحيح مسلم في قول الرسول صلي الله عليه وسلم: " أصدقكم رؤيا أصدقكم حديثا " والحقيقة هي أن ظاهر الإنسان ما هو إلا انعكاس لباطنه، ومن يقول لسانه الصدق لابد وأن تري روحه الأشياء الصادقة. وقد حلل علماء النفس هذه الفقرة في الحديث، ويمكن أن نفرد لها باباً في توضيحها. وبعدها قول الرسول صلي الله عليه وسلم أن الحلم ثلاثة أنواع: ـ

أحدهما: ـ فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَىٰ مِنَ اللَّهِ.

ثانيهما: ـ وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ.

ثالثهما: ـــ وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ. (2)

ويظهر من هذا التقسيم أن ما يشرحه علماء النفس والعارفين عن الحلم والرؤيا أمر منفصل عن الحقيقة، والنوع الذي بحث تحت عالم الرؤيا هو القسم الأول فقط، والفرق بين رؤيا الإنسان العادي وأنبياء الله الصالحين هو نفس الفرق بين شخصية كل منهما، بمعني أنه عندما تنام عين الإنسان العادي ينام معه قلبه تقريباً، ولكن إذا نامت عيون الأنبياء الكرام فلن تغفل قلوبهم. وتقول السيدة عائشة رضي الله عنها: ذات مرة

---

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٦٨٣١) حدثنا عبدُ الله بنُ مَسلمةَ عن مالكٍ عن إسحٰقَ بن عبد الله بنِ أبي طلحةَ عن أنس بن مالكٍ أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلمَ قال: «الرُّؤيا الحسنةُ منَ الرجُلِ الصالحِ جُزءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءاً منَ النبُوة».(يوسف عامر).

[2] - صحيح البخاري ومسلم والترمذي. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٨٥٧) محَمَّدُ بْنُ أَبِي عُمَرَ الْمَكِّيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ الْوَهَّابِ الثَّقَفِيُّ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ عَنْ مُحَمَّدِ بْنِ سِيرِينَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، عَنِ النَّبِيِّ. قَالَ «إِذَا اقْتَرَبَ الزَّمَانُ لَمْ تَكَدْ رُؤْيَا الْمُسْلِمِ تَكْذِبُ. وَأَصْدَقُكُمْ رُؤْيَا أَصْدَقُكُمْ حَدِيثاً. وَرُؤْيَا الْمُسْلِمِ جُزْءٌ مِنْ خَمْسٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءاً مِنَ النُّبُوَّةِ. وَالرُّؤْيَا ثَلاَثَةٌ: فَرُؤْيَا الصَّالِحَةِ بُشْرَىٰ مِنَ اللَّهِ. وَرُؤْيَا تَحْزِينٌ مِنَ الشَّيْطَانِ. وَرُؤْيَا مِمَّا يُحَدِّثُ الْمَرْءُ نَفْسَهُ. فَإِنْ رَأَىٰ أَحَدُكُمْ مَا يَكْرَهُ، فَلْيَقُمْ فَلْيُصَلِّ، وَلاَ يُحَدِّثْ بِهَا النَّاسَ». قَالَ: «وَأُحِبُّ الْقَيْدَ وَأَكْرَهُ الْغُلَّ. وَالْقَيْدُ ثَبَاتٌ فِي الدِّينِ» فَلاَ أَدْرِي هُوَ فِي الْحَدِيثِ أَمْ قَالَهُ ابْنُ سِيرِينَ. (يوسف عامر).

أطال الرسول صلى الله عليه وسلم في صلاة التهجد واضطجع قبل أن يؤدي صلاة الوتر فقالت السيدة عائشة يا رسول الله، أتنام قبل أنْ تؤدي صلاة الوتر، فقال صلي الله عليه وسلم: تَنامُ عيني ولا يَنام قلبي ([1])

وفي حادثة المعراج كان الرسول صلى الله عليه وسلم في حالة خاصة، حيث كانت عيناه تنامان، ولكن قلبه كان يقظاً، وهذا هو حال الأنبياء رضوان الله عليهم في أنهم تنام أعينهم وتستيقظ قلوبهم. ([2])

وعندما نضع أمام أعيننا هذه الأحاديث فإن الحكم الإسلامي في هذه الأمر هو أن رؤيا الأنبياء مؤكدة وقطعية بنفس القدر الذي خاطب به الله سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما رأي أنه يذبح ابنه، فلم يتردد للحظة في تنفيذ أمر الله، تماماً مثلما كان سيفعل لو جاءه الحكم وهو في حالة اليقظة. وهذا ما نراه عند بقية الأنبياء في أنهم لا يشكون مطلقاً في تنفيذ رؤياهم، وهذا ما نراه كثيراً في سيرة النبي صلي الله عليه وسلم. فإن الأحكام التي صدرت له في هذا العالم قطعية ومؤكدة، وبنفس الطريقة التي جاءت فيها عن طريق الوحي أو طرق أخري. وقد نقل الترمذي قول ابن عباس رضي الله عنه: «إِن رؤيا الأنبياء وحيٌ» ([3])

وكما أشرنا سابقاً فإن علماء الإسلام وأصحاب الكشف والعرفان يقولون بعالم ثالث بين العالم الجسماني والعالم الملكوتي وهو عالم البرزخ أو "عالم الوسط ". ومن القائلين بهذا من العلماء نجد الإمام خطابي والإمام الغزالي والإمام السيوطي وشاه ولي الله، ومن المتصوفة الإمام رباني وجميع أئمة المجد دية، وقد أفرد شاه ولي الله الدهلوي باباً كاملاً وذلك في كتابه " حجة الله البالغة " حاول من خلاله تأييد رأيه بأحاديث وكتابات العلامة السيوطي والإمام الغزالي، والعالم المثالي عنده هو نهر ماء جار، والأشياء التي

---

[1] – صحيح مسلم والترمذي كتاب الرؤيا. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣٤٩٣) حدّثنا عبدُ اللهِ بن مَسلمةَ عن مالكٍ عن سعيدٍ المقبُريِّ عن أبي سَلمةَ بنِ عبدِ الرحمٰن أنهُ سألَ عائشةَ رضيَ اللهُ عنها: كيفَ كانت صلاةُ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم في رمضانَ ؟ قالت: «ما كان يَزيد في رمضانَ ولا غيره على إحدىَ عشرةَ ركعة: يُصلّي أربعَ ركعاتٍ فلا تسألْ عن حُسنِهنَّ وطُولهنّ، ثم أربعاً فلا تسألْ عن حُسنِهنَّ وطولهن، ثم يُصلّي ثلاثاً. فقلتُ: يا رسولَ اللهِ تَنامُ قبلَ أن تُوتِرَ ؟ قال: تَنامُ عيني ولا يَنام قلبي». (يوسف عامر).

[2] – صحيح مسلم باب صلاة الليل.

[3] – صحيح البخاري بدء الحي كتاب التعبير وغيره وصحح مسلم بدء الوحي.

في عالم الشهادة هذه ليست حية أو مجسمة كالصفات والخير والشر والإيمان والعلم وغيرها. كل هذا يظهر في أشكال موزونة ومناسبة بعد أن تجسد فمثلاً الخير أو الحسنة تظهر في شكل جميل، والسيئة تظهر في شكل كريه المنظر، والإيمان يأخذ شكل الشمس، والعلم يأخذ لون البحر أو النهر، وهكذا أمور عالم الغيب مثل الجنة والنار والملائكة، كلها تنعكس في هذا النهر والمرآة، فيراها أهل عالم الشهادة، وبهذه الطريقة الذي يظهر فيها عكس الصورة في النهر، وعكس عالم الغيب ومجسمات عالم المثال.

علي كل حال سواء كان لهذا العالم وجود مستقل أم لا، لكن الذي لا شك فيه أن هناك أحداثاً وكيفيات مذكورة في القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة يمكن شرحها عن هذا العالم بشكل جديد، وقد ورد في الإنجيل والقرآن الكريم أن جبريل جاء لبشارة سيدنا عيسي عليه السلام:

" فتمثل لها بشراً سويا " (مريم: ١٧)

وفي الأحاديث ورد أنه ذات مرة تمثلت الجنة والنار أمام الرسول صلي الله عليه وسلم في الصلاة، وقد شرح مختلف الصحابة هذا المفهوم بألفاظ مختلفة كالتالي: ــ

" أنه صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط "

" لقد رأيت الآن منذ صليت بكم الصلاة الجنة والنار ممثلين في قبلة هذا الجدار "

" أني رأيت الحنة ورأيت النار " (البخاري باب الكسوف)

" فعرضت عليّ الجنة وعرضت عليّ النار " (مسلم باب الكسوف)

" لقد جيء بالنار ثم جيء بالجنة " (مسلم باب الكسوف)

" اطلعت في الجنة واطلعت في النار " (بخاري باب صفة الجنة)

إنه مفهوم واحد أداه الرواة بألفاظ مختلفة، ولكننا جميعاً نعلم أن الإمام البخاري كان محتاطاً في اختيار الألفاظ لدرجة أنك لا تجد هذا الاحتياط عند أحداً غيره ؛ ولهذا فإن تصوير وتمثيل ألفاظ الإمام البخاري، وألفاظ الإمام مسلم كذلك وتقديمها يحتاج إلي تأمل. والحقيقة أن لغة الإنسان قاصرة عن أداء هذا المفهوم، لأنها لا تمكنه من كشف أحوال عالم المحسوسات بألفاظها، ثم كيف نتوقع منها أن تصيغ لنا عالم غير المحسوسات الذي نريد أن نعبر عنه، وأن كل ما وصل إلينا بطريقة صحيحة ومستندة نبلغه للآخرين.

فقد بدأ الوحي النبوي بالرؤيا الصالحة، وكانت هذه الأشياء تعرض علي الرسول صلي الله عليه وسلم في الرؤيا، وكانت تفسيرها يأتي كفلق الصبح ([1]).

كانت عادة رسول صلي الله عليه وسلم بعد الانتهاء من الصلاة الصبح أن يتوجه ناحية أصحابه ويسألهم من منكم رأي حلماً ؟ وكان الصحابة يقولون ما رأوه، فلو كانت الرؤيا صالحة فإن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يفسرها، ولو كانت خيالاً وحلماً يخبر بأنها وهم وخيال. وفي هذه الأثناء لو كان الرسول صلى الله عليه وسلم قد رأي شيئاً في هذه الليلة فإنه كان يقصها عليهم ([2])، وهناك قدر كبير من رؤى الرسول صلى الله عليه وسلم مذكورة في الأحاديث وهما قسمين: ــ

أحدهما: ــ عرض بشكل تمثيلي وفسرها الرسول صلي الله عليه وسلم بنفسه.

ثانيـــهـــا: - هي الرؤيا التي هي حقيقية وواقعة. ولهذا لم يفسرها الرسول صلى الله عليه وسلم عندما قصها، وهي بذاتها قسمان: ــ

الأول: ــ رؤيا الأخبار بالغيب.

الثاني: ــ يتعلق بالآخرة وأحوالها. وهنا سندرج بالتفصيل كل هذه الأنواع تحت عناوين منفصلة:-

الرؤيا التمثيلية:

كان الرسول صلي الله عليه وسلم في مكة المعظمة، وكان الإسلام يواجه أياماً صعبة وقاسية، وكان عدد المسلمين في ذلك الوقت قليلاً، فرأي الرسول صلى الله عليه وسلم رؤيا وهي أنه كان هو وأصحابه في بيت عقبة بن رافع، فأحضر ابن طاب رطباً طازجاً، وقدمه للرسول صلى الله عليه وسلم ورفقائه، ففسرها الرسول صلى الله عليه وسلم أن المسلمين سيتقدمون في الدنيا، وعاقبتهم ستكون خيراً، وأن عقيدتهم ستنتشر كثيراً ([3])، وذات مرة كان وقت هجرته قد قرب، فرأي الرسول صلي الله عليه وسلم كل أحداث

---

[1] – صحيح البخاري بدء الحي كتاب التعبير وغيره وصحح مسلم بدء الوحي.

[2] – المرجع السابق.

[3] – صحيح مسلم كتاب الرؤيا، وصحيح البخاري كتاب التفسير. وهذه رواية مسلم: (٥٨٨٤) حدثنا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْلَمَةَ بْنِ قَعْنَبٍ. حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ عَنْ ثَابِتٍ الْبُنَانِيِّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «رَأَيْتُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فِيمَا يَرَىٰ النَّائِمُ، كَأَنَّا فِي دَارِ عُقْبَةَ بْنِ رَافِعٍ. فَأُتِينَا بِرُطَبٍ مِنْ رُطَبِ ابْنِ طَابٍ. فَأَوَّلْتُ الرِّفْعَةَ لَنَا فِي الدُّنْيَا وَالْعَاقِبَةَ فِي الآخِرَةِ. وَأَنَّ دِينَنَا قَدْ طَابَ». (يوسف عامر).

الهجرة في المنام وقال رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ أَرْضٍ بِهَا نَخْلٌ. فَذَهَبَ وَهَلِي إِلَىٰ أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ. فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ. وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَـٰذِهِ أَنِّي هَزَزْتُ سَيْفاً. فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ. فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ. ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَىٰ فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ. فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ. وَرَأَيْتُ فِيهَا أَيْضاً بَقَراً، وَاللّهُ خَيْرٌ. فَإِذَا هُمُ النَّفَرُ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ. وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللّهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ بَعْدُ، وَثَوَابُ الصِّدْقِ الَّذِي آتَانَا اللّهُ بَعْدُ، يَوْمَ بَدْرٍ». ([1])

وعندما هاجر السلمــون إلي المدينة، ولم يوافقهم جو المدينة، وعم الوباء، وعم القلق واضطرب المهاجرون، فرأي الرسول صلى الله عليه وسلم في المنام امرأة ترتدي السواد وشعرها مبعثر، وكانت خارجة من المدينة، ومتجهة إلي جحفة، ففسرها الرسول صلي الله عليه وسلم أن الوباء انتقل من المدينة إلي جحفة ([2])، وهذا هو ما حدث بالفعل، وزال الوباء من المدينة.

وقد رأى الرسول صلي الله عليه وسلم في المنام ذات مرة أن في يده أسورة من ذهب، وتألم الرسول صلى الله عليه وسلم لذلك كثيراً، فجاءه الأمر بأن ينفخ فيها،

---

[1] – صحيح مسلم كتاب الرؤيا. وهذا نص الحديث: (٥٨٨٦) حدثنا أَبُو عَامِرٍ، عَبْـدُ اللّـهِ بْـنُ بَـرَّادٍ الأَشْعَرِيُّ وَأَبُو كُرَيْبٍ، مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاَءِ وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ. قَالاَ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ بُرَيْدٍ عَنْ أَبِي بُـرْدَةَ جَدِّهِ، عَنْ أَبِي مُوسَىٰ، عَنِ النَّبِيِّ قَالَ: رَأَيْتُ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أُهَاجِرُ مِنْ مَكَّةَ إِلَىٰ أَرْضٍ بِهَا نَخْـلٌ. فَـذَهَبَ وَهَلِي إِلَىٰ أَنَّهَا الْيَمَامَةُ أَوْ هَجَرُ. فَإِذَا هِيَ الْمَدِينَةُ يَثْرِبُ. وَرَأَيْتُ فِي رُؤْيَايَ هَـٰذِهِ أَنِّـي هَـزَزْتُ سَـيْفاً. فَانْقَطَعَ صَدْرُهُ. فَإِذَا هُوَ مَا أُصِيبَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ. ثُمَّ هَزَزْتُهُ أُخْرَىٰ فَعَادَ أَحْسَنَ مَا كَانَ. فَإِذَا هُوَ مَا جَاءَ اللّهُ بِهِ مِنَ الْفَتْحِ وَاجْتِمَاعِ الْمُؤْمِنِينَ. وَرَأَيْتُ فِيهَا أَيْضاً بَقَراً، وَاللّهُ خَيْرٌ. فَإِذَا هُمُ النَّفَرُ مِنَ الْمُـؤْمِنِينَ يَوْمَ أُحُدٍ. وَإِذَا الْخَيْرُ مَا جَاءَ اللّهُ بِهِ مِنَ الْخَيْرِ بَعْدُ، وَثَوَابُ الصِّدْقِ الَّذِي آتَانَا اللّهُ بَعْدُ، يَوْمَ بَدْرٍ». (يوسف عامر).

[2] – صحيح البخاري والترمذي كتاب الرؤيا. وهذا نص الحديث كمـا ورد فـي صـحيح البخـاري: (٦٨٨٧) حدثنا أبو بكرٍ المقدَّمي حدَّثنا فُضيل بن سليمانَ حدَّثنا موسى حدَّثنا سالمُ بن عبد الله عن عبد الله بن عمرَ رضيَ الله عنهما في رُؤيا النبيِّ صلى الله عليه وسلم في المدينة: «رأيت امرأةً سـوداء ثـائرةَ الرأس خرجَت من المدينة حتى نزلت بمَهْيَعَةَ، فتأولتها أنَّ وباء نُقلَ إلى مَهيْعةَ، وهي الجحفة». (يوسـف عامر).

فانفصلت كلتا الإسورتين وغابتا، ففسره الرسول صلي الله عليه وسلم بأنها تشير إلى شخصين سيدعيان النبوة (مسيلمة والأسود العنسي) وسيظهران بعدي ([1]).

وجيء للرسول صلى الله عليه وسلم بكوب من اللبن في المنام، فشرب الرسول صلى الله عليه وسلم حتى سال اللبن من يديه الشريفتين، وأعطي الباقي لسيدنا عمر رضي الله عنه، وعندما فسر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الرؤيا بعدما سألوه عن تفسيرها قال "العلم" ([2])، وذات مرة قال الرسول صلي الله عليه وسلم: بينا أنا نائم رأيتُ الناسَ عُرَضوا عليَّ وعليهم قُمص، فمنها ما يَبلغُ الثُّديَ، ومنها ما يبلغُ دُونَ ذلك، وعُرِضَ عليَّ عمرُ وعليه قميص اجترّه. قالوا: فما أوّلتَهُ يا رسول الله؟ قال: الدِّين». ([3]).

وفي إحدى الليالي أيضاً رأي الرسول صلي الله عليه وسلم رؤيا تشير إلى تكميل الدين وختم النبوة، وكانت عيونه صلى الله عليه وسلم بين اليقظة والنوم، إلا أن قلبه الطاهر كان يقظاً، فجاء بعض الملائكة وجلسوا بجواره، وبدأ يتحدث بعضهم إلي بعض في أن يبينوا مثالاً لهذا الرسول، وكان مثاله أنه سيد جهز قصراً وأعد فيه مائدة، ودعا الناس إلي الطعام، فكل من آمن وقبل أكل وشبع، ومن لم يأت عُاقبه. ولما استيقظ الرسول صلي اله عليه وسلم حكي لعبد الله بن مسعود هذه الرؤيا، فقال المَثَلُ الَّذي ضَرَبُوهُ:

---

[1] - صحيح البخاري ومسلم والترمذي كتاب الرؤيا والتعبير. وهذه رواية مسلم: (٥٨٨٨) فقَالَ ابْنُ عبّاس،: فَسَأَلْتُ عَنْ قَوْلِ النَّبِيِّ: «إِنَّكَ أَرَى الَّذِي أُرِيتُ فِيكَ مَا أُرِيتُ» فَأَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ أَنَّ النَّبِيَّ قَالَ: «بَيْنَا أَنَا نَائِمٌ رَأَيْتُ فِي يَدَيَّ سِوَارَيْنِ مِنْ ذَهَبٍ. فَأَهَمَّنِي شَأْنُهُمَا. فَأُوحِيَ إِلَيَّ فِي الْمَنَامِ أَنِ انْفُخْهُمَا. فَنَفَخْتُهُمَا فَطَارَا. فَأَوَّلْتُهُمَا كَذَّابَيْنِ يَخْرُجَانِ بَعْدِي. فَكَانَ أَحَدُهُمَا الأَسْوَدُ الْعَنْسِيُّ، صَاحِبَ صَنْعَاءَ. وَالآخَرُ مُسَيْلِمَةَ، صَاحِبَ الْيَمَامَةِ». (يوسف عامر).

[2] - صحيح البخاري كتاب التعبير ومناقب عمر رضي الله عنه، جامع الترمذي، أبواب الرؤيا. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٣٥٩٩) حدثني محمدُ بن الصلْتِ أبو جعفرٍ الكوفيُّ حدَّثنا ابنُ المباركِ عن يونسَ عن الزُّهريِّ قال: أخبرَني حمزةُ عن أبيهِ أن رسولَ اللّه صلى الله عليه وسلم قال: بَينا أنا نائمٌ شربتُ ـ يعني اللّبن ـ حتى أنظرُ إلى الرِّيِّ يَجري في ظُفُري ـ أو في أظفاري ـ ثم ناولتُ عمرَ. قالوا: فما أوّلتَهُ يا رسولَ الله، قال: العِلم» (يوسف عامر).

[3] - المرجع السابق. وهذا نص الحديث: (٣٦٠٩) حدثنا يحيى بن بُكَير حدثنا الليثُ عن عُقَيلٍ عن ابن شهاب قال أخبرَني أبو أُمامةَ بنُ سهلِ بن حُنَيفٍ عن أبي سعيدِ الخدريِّ رضيَ اللّه عنه قال: سمعتُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم يقول: بينا أنا نائم رأيتُ الناسَ عُرِضوا عليَّ وعليهم قُمص، فمنها ما يَبلغُ الثُّديَ، ومنها ما يبلغُ دُونَ ذلك، وعُرِضَ عليَّ عمرُ وعليه قميص اجترُّه. قالوا: فما أوّلتَهُ يا رسول الله؟ قال: الدِّين». (يوسف عامر).

الرَّحْمَنُ تبارك وتعالى بَنَى الْجَنَّةَ وَدَعَىَ إِلَيْهَا عِبَادَهُ، فَمَنْ أَجَابَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ عَاقَبَهُ أَو عَذَّبَهُ». ([1]).

وذات مرة رأي الرسول صلي الله عليه وسلم أنه كان واقفاً علي حافة بئر، وفي بعض الروايات رأي أنه واقفاً علي حوض الكوثر وحوله جمع غفير من الناس، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يسحب الماء بدلو ويسقي هؤلاء الناس. يقول النبي صلى الله عليه وسلم: فجاءَ أبو بكرٍ فنزَع ذَنوباً أو ذنوبَين نَزعاً ضَعيفاً واللَّهُ يَغفرُ له. ثمَّ جاء عمرُ بن الخطّاب فاستحالت غَرْباً، فلم أرَ عَبقَرِيّاً يَفري فَرِيَّه، حتى رَوِيَ الناسُ وضَرَبوا بعطَن».([2]). وكانت هذه الرؤيا واضحة، ولم يحتج الرسول صلى الله عليه وسلم إلي

---

[1] – جامع الترمذي أبواب الأمثال. وهذا نص الحديث: (٢٩٣٩) حدثنا مُحمَّدُ بنُ بَشَّارٍ، أخبرنا مُحمَّدُ بنُ أبي عَدِيٍّ عن جَعْفَرِ بنِ مَيْمُونٍ، عن أبي تَمِيمَةَ الْهُجَيْمِيِّ عن أبي عُثْمَانَ، عن ابنِ مَسْعُود، قال: «صَـلَّى رَسُولُ الله الْعِشَاءَ ثُمَّ انصَرَفَ فَأَخَذَ بِيَدِ عَبْدِ الله بنِ مَسْعُودٍ حَتَّى خَرَجَ بِهِ إِلَى بَطْحَاءِ مَكَّةَ فَأَجْلَسَهُ ثُمَّ خَطَّ عَلَيْهِ خَطّاً، ثمَّ قال: «لا تَبْرَحَنَّ خَطَّكَ فَأَنَّهُ سَيَنْتَهِي إِلَيْكَ رِجَالٌ فَلاَ تُكَلِّمْهُمْ فَإِنَّهُمْ لن يُكَلِّمُوكَ»، قـال: ثُـمَّ مَضَى رَسُولُ الله حَيْثُ أَرَادَ، فَبَيْنَا أَنَا جَالِسٌ في خَطِّي إِذْ أَتَانِي رِجَالٌ كَأَنَّهُمْ الزُّطُّ أَشْعَارُهُمْ وَأَجْسَامُهُمْ. لا أَرَى عَوْرَةً ولا أَرَى قِشْراً، وَيَنْتَهُونَ إِلَيَّ ولا يُجَاوِزُونَ الْخَطَّ، ثُمَّ يَصْدُرُونَ إِلَى رَسُولُ الله حَتَّى إِذَا كَـانَ مِنْ آخِرِ اللَّيلِ، لَكِنَّ رَسُولُ الله قَدْ جَاءَنِي وَأَنَا جَالِسٌ فَقَالَ: «لَقَدْ أَرَانِي مُنْذُ اللَّيْلَةَ»، ثُمَّ دَخَلَ عَلَيَّ في خَطِّي فَتَوَسَّدَ فَخِذِي وَرَقَدَ، وَكَانَ رَسُولُ الله إِذَا رَقَدَ نَفَخَ، فَبَيْنَا أَنَا قَاعِدٌ ورَسُولُ الله مُتَوَسِّدٌ فَخِذِي، إِذَا أنا بِرِجَالٍ عَلَيْهِمْ ثِيَابٌ بِيضٌ. الله أَعْلَمُ مَا بِهِمْ مِنَ الْجَمَالِ فَانْتَهَوْا إِلَيَّ، فَجَلَسَ طَائِفَةٌ مِـنْهُمْ عِنْـدَ رَأْسِ رَسُـولَ الله وَطَائِفَةٌ مِنْهُمْ عِنْدَ رِجْلَيْهِ، ثُمَّ قَالُوا بَيْنَهُمْ: مَا رَأَيْنَا عَبْداً قَطُّ أُوتِيَ مِثْلَ مَا أُوتِيَ هَذَا النبيّ، إِنَّ عَيْنَيْهِ تَنَامَانِ وَقَلْبَهُ يَقْظَانُ، اضْرِبُوا لَه مَثَلاً: مَثَلُ سَيِّدٍ بَنَى قَصْراً ثُمَّ جَعَلَ مَائِدَةً فَدَعَا النَّاسَ إِلَى طَعَامِهِ وَشَرَابِهِ، فَمَـنْ أَجَابَهُ أَكَلَ مِنْ طَعَامِهِ وَشَرِبَ مِنْ شَرَابِهِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ عَاقَبَهُ، أو قال عَذَّبَهُ. ثُمَّ ارْتَفَعُوا وَاسْتَيْقَظَ رَسُـولُ الله عِنْدَ ذَلِكَ، فقال: سَمِعْتُ مَا قَالَ هَؤُلاءِ. وَهَلْ تَدْرِي مَنْ هُمْ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: هُمُ الْمَلاَئِكَةُ، فَتَدْرِي مَا الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبُوهُ؟ قُلْتُ: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ، قال: الْمَثَلُ الَّذِي ضَرَبُوهُ: الرَّحْمَنُ تبارك وتعالى بَنَى الْجَنَّةَ وَدَعَىَ إِلَيْهَا عِبَادَهُ، فَمَنْ أَجَابَهُ دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ لَمْ يُجِبْهُ عَاقَبَهُ أو عَذَّبَهُ». قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ غريبٌ من هذا الْوَجْهِ. (يوسف عامر).

[2] ـــ صَحيح البخاري ومسلم والترمذي ـــ كتاب التعبير وكتاب الرؤيا مناقب عمر رضي الله عنه. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٣٦٠٠) حدَّثنا محمدُ بن عبدِ اللّه بن نُميرٍ حدثنا محمدُ بـن بِشرٍ حدَّثنا عُبَيدُ اللّهِ قال: حدَّثني أبو بكرِ بن سالمٍ عن سالمٍ عن عبدِ اللّه بن عمرَ رضيَ الله عنهمـا أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «أُريتُ في المنامِ أني أنزِعُ بدَلْوِ بَكرةٍ علَى قَليبٍ، فجاءَ أبو بكـرٍ فنـزَع ذَنوباً أو ذنوبَين نَزعاً ضَعيفاًو اللَّهُ يَغفرُ له. ثمَّ جاء عمرُ بن الخطّاب فاستحالت غَرْباً، فلـم أرَ عَبقَرِيّـاً

تفسيرها، لأنها كانت تفسر نفسها، حيث كان المراد من الماء والدلو هو الخلافة وخدمة الخلق.

كان سيدنا عمر رضي الله عنه من بين المبشرين بالجنة، فقال الرسول صلى الله عليه وسلم بينا أنا نائمٌ رأيتني في الجنةِ، فإذا امرأةٌ تتوضأُ إلى جانبِ قصرٍ، فقلتُ: لمن هذا القَصرُ؟ فقالوا: لعُمرَ بنِ الخطّاب، فذكَرتُ غيرتَهُ، فولّيتُ مُدْبِراً. فبكى عمرُ وقال: أعليكَ أغارُ يا رسولُ الله»؟. ([1]). وذات مرة سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا بلالاً رضي الله عنه قائلاً يَا بِلاَلُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَىٰ عَمَلٍ عَمِلْتَهُ، عِنْدَكَ، فِي الإِسْلاَمِ مَنْفَعَةً. فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ». قَالَ بِلاَلٌ: مَا عَمِلْتُ عَمَلاً فِي الإِسْلاَمِ أَرْجَىٰ عِنْدِي مَنْفَعَةً، مِنْ أَنِّي لاَ أَتَطَهَّرُ طُهُوراً تَامًّا، فِي سَاعَةِ مِنْ لَيْلٍ وَلاَ نَهَارٍ، إِلاَّ صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ، مَا كَتَبَ اللّهُ لِي أَنْ أُصَلِّيَ. ([2]).

لقد مر بنا اسم ورقة بن نوفل ضمن حديثنا عن بداية الوحي، وكان من أقرباء السيدة خديجة رضي الله عنها، وكان مسيحياً ورعاً قبل مجيء الإسلام، وعندما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم وحكي له الرسول أحوال نزول جبريل، فأكد نبوة النبي صلى الله عليه وسلم، وقال: لو ظللت حياً وأراد قومك أن يخرجوك فسأكون عوناً لك. وعندما سألت السيدة خديجة رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل دخل ورقة الجنة أم

يَفري فَريَّه، حتى رَوِيَ الناسُ وضَرَبوا بعطَن». قال ابن جُبَير: العبقريُّ عِتاقُ الزَّرابيّ. وقال يحيى: الزرابيُّ الطنافسُ لها خَملٌ رقيق. {مَبْثوثة}: (الغاشية: ١٦) كثيرة. (يوسف عامر).

[1] ــ نفس المرجع. وهذا نص الحديث: (٣١٧٢) حدّثنا سعيدُ بن أبي مَريمَ حدَّثَنا الليثُ قال: حدَّثني عُقَيل عنِ ابن شهابٍ قال: أخبرَني سعيدُ بنُ المسيَّبِ أنَّ أبا هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: «بَينا نحنُ عندَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم إذ قال: بينا أنا نائمٌ رأيتُني في الجنة، فإذا امرأةٌ تتوضأُ إلى جانبِ قَصرٍ، فقلتُ: لمن هذا القَصرُ؟ فقالوا: لعُمرَ بنِ الخطّاب، فذكَرتُ غيرتَهُ، فولَّيتُ مُدْبِراً. فبَكى عمرُ وقال: أعليكَ أغارُ يا رسولُ الله»؟(يوسف عامر).

[2] – البخاري ومسلم مناقب بلال والترمذي مناقب عمر رضي الله عنه. وقد ورد هذا الحديث في صحيح مسلم: (٦٢٧٧) حدثنا عُبَيْدُ بْنُ يَعِيشَ وَ مُحَمَّدُ بْنُ الْعَلاَءِ الْهَمْدَانِيُّ. قَالاَ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ عَنْ أَبِي حَيَّانَ. ح وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ بْنِ نُمَيْرٍ وَاللَّفْظُ لَهُ. حَدَّثَنَا أَبِي. حَدَّثَنَا أَبُو حَيَّانَ التَّيْمِيُّ، يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ لِبِلاَلٍ، عِنْدَ صَلاَةِ الْغَدَاةِ: «يَا بِلاَلُ حَدِّثْنِي بِأَرْجَىٰ عَمَلٍ عَمِلْتَهُ، عِنْدَكَ، فِي الإِسْلاَمِ مَنْفَعَةً. فَإِنِّي سَمِعْتُ اللَّيْلَةَ خَشْفَ نَعْلَيْكَ بَيْنَ يَدَيَّ فِي الْجَنَّةِ». قَالَ بِلاَلٌ: مَا عَمِلْتُ عَمَلاً فِي الإِسْلاَمِ أَرْجَىٰ عِنْدِي مَنْفَعَةً، مِنْ أَنِّي لاَ أَتَطَهَّرُ طُهُوراً تَامًّا، فِي سَاعَةِ مِنْ لَيْلٍ وَلاَ نَهَارٍ، إِلاَّ صَلَّيْتُ بِذَلِكَ الطُّهُورِ، مَا كَتَبَ اللّهُ لِي أَنْ أُصَلِّيَ. (يوسف عامر).

النار، فهو قد آمن بك إلا أنه مات قبل بعثتك، فأخبر الرسول صلي الله عليه وسلم أنه قد رآه يرتدي لباساً أبيضاً، ولو أنه في جهنم فلن يكون علي جسده لباس ([1]).

وذات ليلة كان الرسول صلى الله عليه وسلم منهمكاً في الصلاة فانكشف الحجاب الإلهي. وإلي جانب الصحيحين فقد ورد في كتب الحديث الأخرى أن النبي صلي الله عليه وسلم جاء متأخراً لصلاة الصبح ذات مرة وبعد أن فرغ من الصلاة أشار إلي الصحابة بأن ينتظر كل في مكانه، ثم قال: أَنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلاَتِي حتى اسْتَثْقَلْتُ فإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالى في أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ لَبَيْكَ رَبِّ، قالَ فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: لاَ أَدْرِي رَبِّ قَالَهَا ثَلاَثاً، قَالَ فرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ. قَدْ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فتجلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ. قُلْتُ لَبَيْكَ رَبِّ، قَالَ فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأعْلَى؟ قُلْتُ في الكَفَّارَاتِ، قَالَ مَاهُنَّ؟ قُلْتُ مَشْيُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجَماعَاتِ، وَالْجُلُوسُ في المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوات، وإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ في المَكْرُوهَاتِ، قَالَ ثُمَّ فِيمَ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الكَلاَمِ، والصَّلاَةُ بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَامٌ. قَالَ سَلْ، قُلْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ، وَتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وأَنْ تَغْفِرَ لِي وتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ. قَالَ رَسُولُ الله إِنَّهَا حَقٌّ فادْرُسُوهَا ثُمَّ تَعَلَّمُوهَا». ([2]).

---

[1] – مشكاة كتاب الرؤيا نقلاً عن الترمذي كتاب الرؤيا مسند احمد.

[2] – برواية جامع الترمذي تفسير سورة "ص"، ومسند ابن حنبل بسند معاذ – ج٥ —— ص ٢٤٣ واعتبره الترمذي حديث صحيح حسن. وهذا نص الحديث عند الترمذي: (٣٣٥٧) حدثنا مُحمَّدُ بنُ بَشَّارٍ حَدَّثَنَا مُعَاذُ بنُ هَانِيءٍ حَدَّثَنَا أَبُو هانِيءٍ السَّكَّرِيُّ حدثنا جَهْضَمُ بنُ عَبْدِ الله عَن يَحْيَى بن أبي كَثِيرٍ عن زَيْدِ بنِ سَلاَّمٍ عَن أَبي سَلاَّمٍ عَن عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ عَائِشٍ الْحَضْرَمِيِّ أَنَّهُ حَدَّثَهُ عَن مَالِكِ بن يُخَامِرَ السَّكْسَكِيِّ عَن مُعَاذِ بن جَبَلٍ، رضي الله عنه قَالَ «احتَبَسَ عَنَّا رَسُولُ الله ذَاتَ غَدَاةٍ مِنْ صَلاَةِ الصُّبْحِ حَتَّى كِدْنَا نَتَراءَى عَيْنَ الشَّمْسِ فخرَجَ سريعاً فَثُوِّبَ بالصَّلاَةِ فَصَلَّى رَسُولُ الله وَتَجَوَّزَ في صَلاَتِه، فَلَّما سَلَّمَ دَعَا بِصَوْتِه فَقَالَ لَنَا: عَلَى مَصَافِّكُمْ كَمَا أَنْتُمْ ثُمَّ انفَتَلَ إِلَيْنَا ثم قَالَ: أَمَا إِنِّي سَأُحَدِّثُكُمْ مَا حَبَسَنِي عَنْكُم الغَدَاةَ أَنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ فَتَوَضَّأْتُ فَصلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي فَنَعَسْتُ فِي صَلاَتِي حتى اسْتَثْقَلْتُ فإِذَا أَنَا بِرَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالى في أَحْسَنِ صُورَةٍ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ، قُلْتُ لَبَيْكَ رَبِّ، قالَ فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأَعْلَى؟ قُلْتُ: لاَ أَدْرِي رَبِّ قَالَهَا ثَلاَثاً، قَالَ فرَأَيْتُهُ وَضَعَ كَفَّهُ بَيْنَ كَتِفَيَّ. قَدْ وَجَدْتُ بَرْدَ أَنَامِلِهِ بَيْنَ ثَدْيَيَّ فتجلَّى لِي كُلُّ شَيْءٍ وَعَرَفْتُ فَقَالَ يَا مُحَمَّدُ. قُلْتُ لَبَيْكَ رَبِّ، قَالَ فِيمَ يَخْتَصِمُ المَلأُ الأعْلَى؟ قُلْتُ في الكَفَّارَاتِ، قَالَ مَاهُنَّ؟ قُلْتُ مَشْيُ الأَقْدَامِ إِلَى الْجَماعَاتِ، وَالْجُلُوسُ في المَسَاجِدِ بَعْدَ الصَّلَوات، وإِسْبَاغُ الْوُضُوءِ في المَكْرُوهَاتِ، قَالَ ثُمَّ فِيمَ؟ قُلْتُ: إِطْعَامُ الطَّعَامِ، وَلِينُ الكَلاَمِ، والصَّلاَةُ بِاللَّيْلِ والنَّاسُ نِيَامٌ. قَالَ سَلْ، قُلْتُ اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ،

وبعد علامات القيامة عُرضت عليه صلي الله عليه وسلم بعض هذه الأحداث في هذه الدنيا. فذات مرة قال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو في جمع من أصحابه: «أُراني الليلةَ عندَ الكعبة، فرأيت رجلاً آدمَ كأحسن ما أنتَ راءٍ من أُدم الرجال، له لِمةٌ كأحسَنِ ما أنتَ راءٍ من اللمَمِ قد رجَّلَها، فهيَ تَقطر ماءً، متَّكئاً على رجُلَين ــ أو على عَواتق رجلَين، يَطوف بالبيت، فسألت مَن هذا؟ فقيل: المسيح ابن مريمَ، وإذا أنا برجلٍ جَعْدٍ قَطط، أعْوَرِ العين اليمنىٰ كأنها عِنَبة طافية، فسألت من هذا؟ فقيل: المسيح الدجّال».([1]).

وروت أم المؤمنين زينب بنت جحش أن الرسول نهض ذات مرة من نومه فاحمر وجهه وكان لسانه الشريف يردد هذه الكلمـــات " لاإله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترَب، فُتحَ اليومَ من رَدْم يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذه ([2]).

وتَرْكَ المُنْكَرَاتِ، وَحُبَّ المَسَاكِينِ، وأنْ تَغفِرَ لِي وتَرْحَمَنِي، وَإِذَا أَرَدْتَ فِتْنَةً فِي قَوْمٍ فَتَوَفَّنِي غَيْرَ مَفْتُونٍ، وأَسْأَلُكَ حُبَّكَ وَحُبَّ مَنْ يُحِبُّكَ وحُبَّ عَمَلٍ يُقَرِّبُ إِلَى حُبِّكَ. قَالَ رَسُولُ الله إِنَهَـــا حَـــقٌّ فادْرُسُـــوهَا ثُـــمَّ تَعَلَّمُوهَا». قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. سَأَلْتُ مُحَمَّدَ بنَ إسْمَاعِيلَ عَن هَذا الحَديث فَقَالَ هَذَا حديث حسنٌ صحيحٌ وقَالَ هَذَا أَصَحُّ مِنْ حَدِيثِ الْوَلِيدِ بنِ مُسْلِمٍ عَن عَبْدِ الرَّحمٰنِ بنِ يَزِيدَ بنِ جَابِرٍ قَـــالَ حَدَّثَنَا خَالِدُ بنُ اللَّجْلاَجِ حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحمٰنِ بنُ عَايِشٍ الحَضْرَمِيُّ قَالَ سمعت رَسُولَ الله فَـــذَكَرَ الحَـــدِيثَ وَهَذَا غَيْرُ مَحْفُوظٍ. هَكَذَا ذَكَرَ الوَلِيدُ في حَدِيثِهِ عَن عَبْدِ الرَّحمٰنِ بنِ عَائِشٍ قَالَ سَمِعْتُ رَسُولَ الله. وَرَوَى بِشْرُ بنُ بكْرٍ عَن عَبْدِ الرَّحمٰنِ بنِ يَزِيدَ بنِ جَابِرٍ هَذَا الحَدِيثَ بِهَذَا الإِسْنَادِ عَن عَبْدِ الرَّحمٰنِ بن عَائِشٍ عَن النَّبِيِّ. وهَذَا أَصَحُّ. وَعَبْدُ الرحمٰنِ بنُ عَائِشٍ لَمْ يَسْمَعْ مِن النبيِّ. (يوسف عامر).

[1] – صحيح البخاري كتاب التعبير وصحيح مسلم باب الإسراء. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٥٧٦٧) حدثنا عبدُ الله بن يوسفَ أخبرَنا مالكٌ عن نافع عن عبدِ الله بن عمرَ رضيَ الله عنهما أن رسولَ صلى الله عليه وسلم قال: «أُراني الليلةَ عندَ الكعبة، فرأيت رجلاً آدمَ كأحسن ما أنتَ راءٍ من أُدم الرجال، له لِمةٌ كأحسَنِ ما أنتَ راءٍ من اللمَمِ قد رَجَّلَها، فهيَ تَقطر ماءً، متَّكئاً على رجُلَين ــ أو على عَواتق رجلَين، يَطوف بالبيت، فسألت مَن هذا؟ فقيل: المسيح ابن مريمَ، وإذا أنا برجلٍ جَعْدٍ قَطط، أعْوَرِ العين اليمنىٰ كأنها عِنَبة طافية، فسألت من هذا؟ فقيل: المسيح الدجّال». (يوسف عامر).

[2] – صحيح البخاري كتاب الفتن، وصحيح مسلم باب أشراط الساعة. وهذا نـــص الحـــديث كمـــا ورد صحيح البخاري: (٦٩٠٦) حدَّثنا مالكُ بن إسماعيل حدَّثنا ابنُ عُيينةَ أنه سمعَ الزهريَّ عن عُـــروةَ عـــن زينبَ بنتِ أمِّ سلمةَ عن أم حبيبةَ عن زينبَ ابنةِ جحش رضيَ الله عنهنَّ أنها قالت: «استيقظَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم من النوم محمراً وجهه وهو يقول: لا إله إلا الله، ويلٌ للعرب من شرٍّ قد اقترَب، فُتحَ اليومَ من رَدْم يأجوجَ ومأجوج مثلُ هذه ــ وعقدَ سُفيانَ تسعينَ أو مائة ــ قيل: أنهلكُ وفينا الصالحون؟ قـــال: نعم، إذا كثرَ الخَبث». (يوسف عامر).

وكان سيدنا جبريل وغيره من الملائكة يأتون أمامه في هذه الدنيا كما يقول سيدنا سمرة بن جندب إنه قال: رأيتُ الليلةَ رجُلَينِ أتَياني فقالا: الذي يوقِدُ النارَ مالكٌ خازنُ النار، وأنا جبريلُ، وهذا ميكائيل». ([1]).

وبعد أن رأي النبي صلي الله عليه وسلم الجمال الرباني كان أكبر ما شاهده في هذه الدنيا تلك المناظر المخيفة لنار جهنم، والمنظر الجميلة والجذابة للجنة. ويروي سيدنا سمرة أنه كانت عادة الرسول صلى الله عليه وسلم بعد أن يفرغ من صلاة الصبح أن يتّجه نحونا ويجلس ويسأل عن من رأي رؤيا، وكالعادة سأل الرسول صلى الله عليه وسلم: مَن رأى منكمُ الليلةَ رُؤيا؟ قالَ فإن رأى أحدٌ قَصَّها، فيقولُ ما شاءَ اللهُ. فسألَنا يوماً فقال: هل رأى أحدٌ منكم رُؤيا؟ قلنا: لا. قال: لكنِّي رأيتُ الليلةَ رجُلَين أتَياني، فأخَذا بيدي فأخرَجاني إلى الأرضِ المقدَّسةِ، فإذا رجُلٌ جالسٌ ورجلٌ قائمٌ بيدِه كَلُّوبٌ من حَديد ــ قال بعض أصحابنا عن موسى: كَلوبٌ من حَديد يُدخِلُهُ في شِدْقِهِ ــ حتَّى يَبلُغَ قَفاه، ثمَّ يَفعلُ بشِدقِهِ الآخرِ مثلَ ذلك، ويَلْتَئمُ شِدقُه هذا، فيعودُ فيَصنَعُ مثلَهُ. قلت: ما هذا؟ قالا: انطلِقْ. فانطَلَقْنا حتى أتَينا على رجُلٍ مُضطجعٍ على قَفاهُ، ورجُلٌ قائم على رأسِه بفِهْرٍ أو صَخْرةٍ، فيَشْدَخُ بهِ رأسَهُ، فإذا ضربَهُ تَدَهْدَهَ الحجَرُ، فانطلَقَ إليهِ ليأخُذَهُ فلا يَرجِعُ إلى هذا حتَّى يلْتَئمَ رأسهُ وعادَ رأسهُ كما هو، فعادَ إليهِ فضربَهُ، قلت: مَن هذا؟ قالا: انطلِقْ. فانطلَقْنا إلى ثَقْبٍ مثلِ التَّنُّورِ أعلاهُ ضَيِّقٌ وأسفَلُه واسعٌ يَتَوَقَّدُ تحتَهُ ناراً، فإذا اقترَبَ ارتفعوا حتى كادَ أن يَخرُجوا، فإذا خَمَدتْ رَجعوا فيها، وفيها رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ. فقلت: من هذا؟ قالا: انطلِقْ. فانطلَقْنا حتى أتَيْنا على نهرٍ من دَمٍ، فيه رجُلٌ قائمٌ، على وَسَطِ النهرِ قال يزيدُ ووَهبُ بنُ جريرٍ عن جريرِ بن حازمٍ: وعلى شَطِّ النهرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ فأقبلَ الرجُلُ الذي في النهرِ، فإذا أرادَ أن يَخرُجَ رمى الرجلُ بحجَرٍ في فيهِ فردَّهُ حيث كان، فجعلَ كلَّما جاءَ ليخرُجَ رمى في فيه بحجَرٍ فيرجِعُ كما كان. فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلِقْ. فانطلَقْنا حتى انتَهَينا إلى رَوضةٍ خَضراءَ فيها شجرةٌ عظيمةٌ، وفي أصلِها شيخٌ وصِبيانٌ، وإذا رجُلٌ قريبٌ منَ الشجرةِ بينَ يدَيه نارٌ يوقدُها، فصعِدا بي في الشجرةِ وأدْخلاني داراً لم أرَ قط أحسنَ منها، فيها رجالٌ شيوخٌ وشَبابٌ ونساءٌ وصِبيانٌ، ثم أخرَجاني منها فصعِدا بي

---

[1] ــ البخاري بدء الخلق. وهذا نص الحديث: (٣١٦٦) حدثنا موسى حدثنا جريرٌ حدثنا أبو رَجاء عن سَمُرةَ قال: «قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: رأيتُ الليلةَ رجُلَينِ أتَياني فقالا: الذي يوقِدُ النارَ مالكٌ خازنُ النار، وأنا جبريلُ، وهذا ميكائيل». (يوسف عامر).

الشجرةَ فأدخَلاني داراً هي أحسنُ وأفضلُ، فيها شيوخٌ وشبابٌ. قلتُ: طوّفتُماني الليلةَ فأخبراني عما رأيتُ. قالا: نعم. أمَّا الذي رأيتَهُ يُشَقُّ شِدقُه فكذَّابٌ يحدِّثُ بالكذْبةِ فتُحمَلُ عنهُ حتى تبلُغ الآفاقَ، فيُصنَعُ به ما رأيت إلى يوم القيامة. والذي رأيتَهُ يُشدَخُ رأسُهُ فرجُلٌ علَّمهُ اللهُ القُرآنَ، فنامَ عنهُ بالليلِ ولم يَعملْ فيه بالنهارِ، يُفعَلُ بهِ إلى يوم القيامة. والذي رأيتَهُ في الثَّقبِ فهمُ الزُّناةُ. والذي رأيتَه في النهرِ آكلو الرِّبا. والشيخُ في أصلِ الشجرةِ إبراهيمُ عليهِ السلامُ، والصبيانُ حولَهُ أولادُ الناسِ. والذي يوقِدُ النارَ مالكٌ خازنُ النارِ. والدارُ الأولى التي دَخلتَ دارُ عامَّةِ المؤمنينَ. وأمَّا هذه الدارُ فدارُ الشهداءِ. وأنا جبريلُ، وهذا ميكائيلُ. فارْفَعْ رأسَكَ. فرفَعتُ رأسي فإذا فوقي مثلُ السَّحابِ، قالا: ذاكَ مَنزلُك. قلتُ: دعاني أدخُلْ منزِلي. قالا: إنهُ بقيَ لك عُمُرٌ لم تَستكملْهُ، فلو استكملْتَ أتيتَ مَنزِلَكَ».[1]

---

[1] ــ صحيح البخاري كتاب التعبير وكتاب الجنائز باب ما قيل في أولاد المشركين. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (١٣٦٢) حدثَنا موسى بنُ إسماعيلَ حدَّثَنا جَريرُ بنُ حازمٍ حدَّثَنا أبو رجاء عن سَمُرةَ بن جُندَب رضي الله عنه قال «كان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا صلَّى صلاةً أقبلَ علينا بوَجهِهِ فقال: مَن رأى منكمُ الليلةَ رُؤيا؟ قالَ فإن رأى أحدٌ قَصَّها، فيقولُ ما شاءَ اللهُ. فسألَنا يوماً فقال: هل رأى أحدٌ منكم رُؤيا؟ قلنا: لا. قال: لكنِّي رأيتُ الليلةَ رجُلينِ أتَياني، فأخَذا بيدي فأخرَجاني إلى الأرضِ المقدَّسة، فإذا رجُلٌ جالسٌ ورجلٌ قائمٌ بيدهِ كَلُّوبٌ من حَديد ــ قال بعض أصحابنا عن موسى: كَلوبٌ من حَديد يُدخِلُهُ في شِدقِهِ ــ حتَّى يَبلُغَ قَفاه، ثمَّ يَفعلُ بشِدقِهِ الآخرِ مثلَ ذلك، ويَلتَئمُ شِدقُه هذا، فيعودُ فيَصنَعُ مِثلَهُ. قلت: ما هذا؟ قالا: انطلِقْ. فانطلَقْنا حتى أتينا على رجُلٍ مُضطَجعٍ على قَفاهُ، ورجُلٌ قائم على رأسِه بفِهْرٍ أو صَخْرة، فيَشدَخُ بهِ رأسَهُ، فإذا ضرَبَهُ تَدَهْدَهَ الحجَرُ، فانطلَقَ إليهِ ليأخُذَهُ فلا يَرجِعُ إلى هذا حتَّى يَلتَئمَ رأسهُ وعادَ رأسهُ كما هو، فعادَ إليهِ فضرَبَهُ، قلت: مَن هذا؟ قالا: انطلِقْ. فانطلَقْنا إلى ثَقْبٍ مثلِ التَّنُّورِ أعلاهُ ضَيِّقٌ وأسفَلُه واسعٌ يَتوقَّدُ تحتَهُ ناراً، فإذا اقترَبَ ارتفعوا حتى كادَ أن يَخرُجوا، فإذا خَمَدتْ رَجعوا فيها، وفيها رجالٌ ونساءٌ عُراةٌ. فقلت: من هذا؟ قالا: انطلِقْ. فانطلَقْنا حتى أتَينا على نهرٍ من دَمٍ، فيه رجُلٌ قائمٌ، على وَسَطِ النهرِ قال يزيدُ ووَهبُ بنُ جريرٍ عن جريرِ بن حازمٍ: وعلى شَطِّ النهرِ رَجُلٌ بَيْنَ يَدَيْهِ حِجَارَةٌ فأقبلَ الرجُلُ الذي في النهرِ، فإذا أرادَ أن يَخرُجَ رمى الرجلُ بحجَرٍ في فيه فردَّهُ حيث كان، فجعلَ كلَّما جاءَ ليخرُجَ رمى في فيه بحجَرٍ فيرجعُ كما كان. فقلت: ما هذا؟ قالا: انطلِقْ. فانطلَقْنا حتى انتَهَينا إلى رَوضةٍ خَضراءَ فيها شجرةٌ عظيمةٌ، وفي أصلها شيخٌ وصِبيانٌ، وإذا رجُلٌ قريبٌ منَ الشجرةِ بينَ يدَيه نارٌ يوقدُها، فصعِدا بي في الشجرةِ وأدْخلاني داراً لم أرَ قط أحسنَ منها، فيها رجالٌ شيوخٌ وشَبابٌ ونساءٌ وصِبيانٌ، ثم أخرَجاني منها فصعِدا بي الشجرةَ فأدخَلاني داراً هي أحسنُ وأفضلُ، فيها شيوخٌ وشبابٌ. قلتُ: طوَّفتُماني الليلةَ فأخبراني عما رأيتُ. قالا: نعم. أمَّا الذي رأيتَهُ يُشَقُّ شِدقُه فكذَّابٌ يحدِّثُ بالكَذْبةِ فتُحمَلُ عنهُ حتى تبلُغَ الآفاقَ،فيُصنَعُ به ما رأيت إلى يوم القيامة. والذي رأيتَهُ يُشدَخُ

المرئيات والسمعيات

عالم اليقظة

" أفتمارونه علي ما يري " (النجم: ١٢)

إن حواس الأنبياء أكثر شفافية من حواس الإنسان العادي، وربما تكون لديهم حواس أخري نجهلها غير التي لدي الإنسان، تماماً كالأعمى الذي لا يعرف ما يعرفه أهل البصر.

والمشاهدات النبوية ليست أحداثاً مادية عامة يمكن أن يرويها لنا الصحابة بعلمهم أو برؤيتهم وسماعهم لها بل يمكن معرفتها بالقدر الذي بينها الرسول صلي الله عليه وسلم بلسانه المبارك أحياناً ؛ ولهذا لا يمكننا الإحاطة بالمشاهدات النبوية في روايات الحديث الشريف، كما أنه ليس من الضروري معرفتها لعامة الأمة. علي كل حال في حدود الفظ والعبارة وبقدر الإمكان سنحاول الإحاطة بها.

إن أول ما يطالعنا في مشاهدات النبوة هو الروح الأمين " جبريل عليه السلام " والذي جاء للرسول وهو في غار حراء، وبعدها غاب عن الرسول لفترة ما ([1])، وقد سبب هذا قلقاً للرسول صلي الله عليه وسلم، ويروي عن ابن عباس في صحيح مسلم أنه مرت علي الرسول صلى الله عليه وسلم بعض السنوات كان لا يسمع فيها إلا صوتاً ونوراً من الغيب، ولم يظهر له أي شيء آخر ([2])، وهذا في الغالب هو الوقت الذي فتر فيه الوحي، وعندما انتهت هذه الفترة سمع الرسول صلى الله عليه وسلم ذات مرة صوتاً،

رأسُهُ فرجُلٌ علَّمهُ اللهُ القُرآنَ، فنامَ عنهُ بالليلِ ولم يَعملْ فيه بالنهارِ، يُفعَلُ بهِ إلى يوم القِيامة. والذي رأيتَهُ في الثَّقبِ فهمُ الزُّناةُ. والذي رأيتَه في النهرِ آكلو الرِّبا. والشيخُ في أصلِ الشجرةِ إبراهيمُ عليهِ السلامُ، والصبيانُ حولَهُ أولادُ الناسِ. والذي يوقدُ النارَ مالكٌ خازنُ النار. والدارُ الأولى التي دَخلتَ دارُ عامَّةِ المؤمنينَ. وأمَّا هذه الدارُ فدارُ الشهداءِ. وأنا جبريلُ، وهذا ميكائيلُ. فارْفَعْ رأسَكَ. فرفَعتُ رأسي فإذا فوقي مثلُ السَّحابِ، قالا: ذاكَ مَنزِلُك. قلتُ: دعاني أدخُلْ منزِلي. قالا: إنهُ بقيَ لك عُمُرٌ لم تَستكملْهُ، فلو استَكملْتَ أتيتَ مَنزِلَكَ». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري ومسلم باب بدء الوحي.

[2] ــ صحيح مسلم باب كم أمام النبي صلي الله عليه وسلم بمكة.

فرفع نظره إلي السماء، ورأي ملكاً جالساً علي كرسي بين السماء والأرض ([1])، وفي الروايات الصحيحة أن جبريل عليه السلام ظهر للنبي مرتين فرآه الرسول وكان علي بدنه ستمائة جناح، وكان قد أحاط بجناحيه كل الأفق ([2])، وكان هناك ملائكة أخري يأتون للنبي، وقد سبق الحديث عن ذلك بالتفصيل في باب نزول الملائكة سابقاً.

وفي مواجهة الملائكة هناك قوة الشر ويمثلها الشيطان، والذي لا ينجو منه أي إنسان، فقد كان الاختبار الأول له مع سيدنا آدم، وأوضح الله لنا هذه النتيجة بقوله " ولم نجد له عزما " (طه: ١١٥).

وكما جاء في سفر قصة أيوب عليه السلام في القرآن أن سيدنا أيوب تعرض له الشيطان ونجح في هذا الاختبار. وفي الإنجيل أيضاً أن سيدنا عيسي عليه السلام اُختبر عن طريق الشيطان فتفوق في هذا الميدان بنجاح. وفي الحديث الصحيح أن الرسول صلي الله عليه وسلم أخبر بأن في كل إنسان شيطان، فسأل سائل: يا رسول الله فهل هذا معك أيضاً ؟ فأجابه ﷺ بأنه أسلم، وقال الرسول صلى الله عليه وسلم: إن الشيطان عرض لي فشد علي يقطع الصلاة علي فأمكنني الله منه. ([3])

وبالإضافة إلي الجنة والنار هناك أشياء لعالم آخر، ولكن لو رُفع الحجاب عن الأنظار لبدت أمامنا، وذات مرة حدث في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم أن تم كسوف الشمس، فنهض الرسول صلى الله عليه وسلم مع صحابته لأداء الصلاة، وظلوا لفترة طويلة يركعون ويسجدون، وفي تلك الأثناء رأى الصحابة أن الرسول صلى الله عليه وسلم مرة يقدم يده إلي الأمام، ومرة يعود بها إلي الخلف. فسأله الصحابة بعد الانتهاء من الصلاة. فقال: إني رأيتُ الجنَّةَ، فتناولتُ عُنقوداً ولو أصبتُه لأكلتم منهُ ما بقِيَت الدُّنيا. وَأُريتُ النارَ فلم أرَ مَنظَراً كاليومِ قطُّ أفظعَ. ورأيتُ أكثرَ أهلِها النساءَ. قالوا: بمَ يا رسول الله؟ قال: بكفرِهنَّ. قيل: يكفرنَ بالله؟ قال: يكفرنَ العشيرَ، ويكفرنَ الإحسانَ، لو أحسنتَ إلى إحداهنَّ الدهرَ كلَّهُ ثمَّ رأتْ منكَ شيئاً قالت: ما رأيت منكَ خيراً قط». " وَحَتَّىٰ رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ. كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ، فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ:

---

[1] ـ صحيح مسلم بدء الوحي.

[2] ـ صحيح البخاري بدء الخلق، وتفسير والنجم، صحيح مسلم باب الاسر ا٠.

[3] ـ صحيح البخاري بدء الخلق باب سفر إبليس.

إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ. وَحَتَّىٰ رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ، حَتَّىٰ مَاتَتْ جُوعاً "([1]).

وفي حديث آخر قال الرسول صلي الله عليه وسلم:اطلعت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء، واطلعت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء ([2]).

وذهب الرسول صلى الله عليه وسلم إلي مقابر شهداء أُحد في السنة الأخيرة من عمره وعاد وألقي خطبة، وفي أثناءها أخبر بأنه يري الكوثر، وأُعطيت له مفاتيح كنوز الأرض. وأخبر أنه ﷺ لا يخاف على المسلمين أن يشركوا من بعده، ولكنه ﷺ يخاف عليهم من طمع الدنيا وأن يتحاسدوا فيما بينهم. ([3])

---

[1] ــ صحيح البخاري وصحيح مسلم باب صلاة الكسوف، وصحيح البخاري كتاب الصلاة باب رفع البصر وباب التعوذ من الفتن. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: ٢٠٥٢) ــــ حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ. ح وَحَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ نُمَيْرٍ. وَتَقَارَبَا فِي اللَّفْظِ قَالَ: حَدَّثَنَا أَبِي. حَدَّثَنَا عَبْدُ الْمَلِكِ عَنْ عَطَاءٍ عَنْ جَابِرٍ، قَالَ: انْكَسَفَتْ الشَّمْسُ فِي عَهْدِ رَسُولِ اللَّهِ. يَوْمَ مَاتَ إِبْرَاهِيمُ ابْنُ رَسُولِ اللَّهِ. فَقَالَ النَّاسُ: إِنَّمَا انْكَسَفَتْ لِمَوْتِ إِبْرَاهِيمَ. فَقَامَ النَّبِيُّ فَصَلَّىٰ بِالنَّاسِ سِتَّ رَكَعَاتٍ بِأَرْبَعِ سَجَدَاتٍ. بَدَأَ فَكَبَّرَ. ثُمَّ قَرَأَ فَأَطَالَ الْقِرَاءَةَ. ثُمَّ رَكَعَ نَحْواً مِمَّا قَامَ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الأُولَىٰ. ثُمَّ رَكَعَ نَحْواً مِمَّا قَامَ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ فَقَرَأَ قِرَاءَةً دُونَ الْقِرَاءَةِ الثَّانِيَةِ. ثُمَّ رَكَعَ نَحْواً مِمَّا قَامَ. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مِنَ الرُّكُوعِ. ثُمَّ انْحَدَرَ بِالسُّجُودِ فَسَجَدَ سَجْدَتَيْنِ. ثُمَّ قَامَ فَرَكَعَ أَيْضاً ثَلاَثَ رَكَعَاتٍ. لَيْسَ فِيهَا رَكْعَةٌ إِلاَّ الَّتِي قَبْلَهَا أَطْوَلُ مِنَ الَّتِي بَعْدَهَا. وَرُكُوعُهُ نَحْواً مِنْ سُجُودِهِ. ثُمَّ تَأَخَّرَ وَتَأَخَّرَتِ الصُّفُوفُ خَلْفَهُ. حَتَّى انْتَهَيْنَا. (وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: حَتَّى انْتَهَىٰ إِلَى النِّسَاءِ) ثُمَّ تَقَدَّمَ وَتَقَدَّمَ النَّاسُ مَعَهُ. حَتَّىٰ قَامَ فِي مَقَامِهِ. فَانْصَرَفَ حِينَ انْصَرَفَ، وَقَدْ آضَتِ الشَّمْسُ. فَقَالَ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ آيَتَانِ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ. وَإِنَّهُمَا لا يَنْكَسِفَانِ لِمَوْتِ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ (وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: لِمَوتِ بَشَرٍ) فَإِذَا رَأَيْتُمْ شَيْئاً مِنْ ذَلِكَ فَصَلُّوا حَتَّىٰ تَنْجَلِيَ. مَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هٰذِهِ. لَقَدْ جِيءَ بِالنَّارِ. وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَأَخَّرْتُ مَخَافَةَ أَنْ يُصِيبَنِي مِنْ لَفْحِهَا. وَحَتَّىٰ رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَ الْمِحْجَنِ يَجُرُّ قُصْبَهُ فِي النَّارِ. كَانَ يَسْرِقُ الْحَاجَّ بِمِحْجَنِهِ،فَإِنْ فُطِنَ لَهُ قَالَ: إِنَّمَا تَعَلَّقَ بِمِحْجَنِي، وَإِنْ غُفِلَ عَنْهُ ذَهَبَ بِهِ. وَحَتَّىٰ رَأَيْتُ فِيهَا صَاحِبَةَ الْهِرَّةِ الَّتِي رَبَطَتْهَا فَلَمْ تُطْعِمْهَا، وَلَمْ تَدَعْهَا تَأْكُلُ مِنْ خَشَاشِ الأَرْضِ، حَتَّىٰ مَاتَتْ جُوعاً. ثُمَّ جِيءَ بِالْجَنَّةِ، وَذَلِكُمْ حِينَ رَأَيْتُمُونِي تَقَدَّمْتُ حَتَّىٰ قُمْتُ فِي مَقَامِي، وَلَقَدْ مَدَدْتُ يَدِي وَأَنَا أُرِيدُ أَنْ أَتَنَاوَلَ مِنْ ثَمَرِهَا لِتَنْظُرُوا إِلَيْهِ، ثُمَّ بَدَا لِي أَنْ لاَ أَفْعَلَ. فَمَا مِنْ شَيْءٍ تُوعَدُونَهُ إِلاَّ قَدْ رَأَيْتُهُ فِي صَلاَتِي هٰذِهِ». (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح البخاري باب صفة الجنة.

[3] ــ صحيح البخاري كتاب الجنائز (باب بخاري زهرة الدنيا).

وكان المنبر في المسجد النبوي وتتصل به حجرات أزواجه المطهرات، والتي يرقد في إحداها ثراه الطاهر صلى الله عليه وسلم، فقال الرسول صلي الله عليه وسلم: «ما بينَ بَيتي ومِنبري رَوضةٌ مِن رياضِ الجنَّة، ومِنبري على حَوضي». ([1]).

وأراد أهل الحديث أن يظهروا هذه الحقيقة بتأويلات مختلفة، ولكن الصحيح عندنا أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد شاهدها، فكان من عادة الرسول صلى الله عليه وسلم أن يقوم للتهجد، وكان يُوقظ أمهات المؤمنين. وتقول السيدة أم سلمة رضي الله عنها أن الرسول صلي الله عليه وسلم استيقظ من نومه ذات مرة وقال: «سُبحانَ اللهِ ماذا أُنزِلَ الليلةَ مِنَ الفِتَنِ، وماذا فُتِحَ من الخَزَائنِ. أيقِظوا صَواحِباتِ الحُجَرِ، فرُبَّ كاسِيَةٍ في الدُّنْيا عارِيَةٍ في الآخرة» ([2])، (لأنهن في الدنيا كن عاريات من رداء العمل).

وقد روي عن أسامة بن زيد أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان خارجاً من المدينة، فصعد على قمة جبل وقال: «هل تَرَون ما أرى؟ قالوا: لا. قال: فإني لأرى الفتنَ تقعُ خلالَ بيوتكم كوقع القَطر». ([3])، (وغالباً كانت هذه الرؤيا بعد مقتل سيدنا عثمان). وكان الرسول صلي الله عليه وسلم دائم التفكير في أحوال أمته حيث قال: «إِنَّ اللّهَ زَوَىٰ لِي الأَرْضَ. فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا. وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا. وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ. وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ. فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّي إِذَا قَضَيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ. وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ. وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ. يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ. وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا ــ أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَا ــ حَتَّىٰ يَكُونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً». ([4])، وتاريخ المسلمين يعبر عن هذه الرؤية المقدسة.

---

[1] ــ صحيح البخاري كتاب الحوض، وباب ما بين القبر والمنبر. وهذا نص الحديث: (١١٧٧) حدَّثنا مسدَّدٌ عن يحيى عن عُبيدِ اللّهِ قال حدَّثني خُبَيبُ بنُ عبدِ الرحمن عن حَفصِ بنِ عاصمٍ عن أبي هُريرةَ رضيَ اللّهُ عنهُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «ما بينَ بَيتي ومِنبري رَوضةٌ مِن رياضِ الجنَّة، ومِنبري على حَوضي». (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح البخاري كتاب التهجد.

[3] ــ صحيح البخاري ومسلم باب الفتن.

[4] ــ صحيح مسلم باب الفتن. وهذا نص الحديث: (٧٢٠٧) حدثنا أَبُو الرَّبِيعِ الْعَتَكِيُّ وَ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ. كِلاَهُمَا عَنْ حَمَّادِ بْنِ زَيْدٍ (وَاللَّفْظُ لِقُتَيْبَةَ). حَدَّثَنَا حَمَّادٌ عَنْ أَيُّوبَ. عَنْ أَبِي قِلاَبَةَ، عَنْ أَبِي أَسْمَاءَ، عَنْ

كما عُرض علي الرسول صلي الله عليه وسلم بعض مناظر الأنبياء السابقين، هذا بالإضافة إلي المعراج، وعالم الرؤيا، فقد شاهدها في اليقظة أيضاً. وروي عن ابن عباس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في سفـر (غالباً في سفره إلي الحج)، ومر بوادي الأرزاق، فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن هذا الوادي. فقال الصحابة: إن هذا هو وادي الأرزاق. فقال: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَىٰ (فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعَرِهِ شَيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ دَاوُدُ) وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ. لَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ. مَارًّا بِهَٰذَا الْوَادِي» قَالَ: «ثُمَّ سِرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ. فَقَالَ: «أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَٰذِهِ» قَالُوا: هَرْشَىٰ أَوْ لِفْتٌ. فَقَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَىٰ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ. عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ. خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ. مَارًّا بِهَٰذَا الْوَادِي مُلَبِّيًا». ([1]).

وتذكرون واقعة المعراج عندما سأل الكفار رسول الله صلى الله عليه وسلم عن خريطة بيت المقدس فورد عن الرسول صلي الله عليه وسلم أنه يتذكر جيداً أن الله أراه فجأة خريطة بيت المقدس، فكان الكفار يسألون عن كل شيء علي حدة وهو ﷺ يجيب([2]).

ويروي ابن عباس رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم مر ذات يوم علي المقابر وقال: إنَّهما لَيُعذَّبان، وما يُعذَّبانِ في كبير: أمَّا أحَدُهما فكانَ لا يَستَتِرُ مِنَ

ثَوْبَانَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّ اللَّهَ زَوَىٰ لِي الأَرْضَ. فَرَأَيْتُ مَشَارِقَهَا وَمَغَارِبَهَا. وَإِنَّ مُلْكَ أُمَّتِي سَيَبْلُغُ مَا زُوِيَ لِي مِنْهَا. وَأُعْطِيتُ الْكَنْزَيْنِ الأَحْمَرَ وَالأَبْيَضَ. وَإِنِّي سَأَلْتُ رَبِّي لأُمَّتِي أَنْ لاَ يُهْلِكَهَا بِسَنَةٍ عَامَّةٍ. وَأَنْ لاَ يُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوًّا مِنْ سِوَىٰ أَنْفُسِهِمْ. فَيَسْتَبِيحَ بَيْضَتَهُمْ. وَإِنَّ رَبِّي قَالَ: يَا مُحَمَّدُ إِنِّـي إِذَا قَضَـيْتُ قَضَاءً فَإِنَّهُ لاَ يُرَدُّ. وَإِنِّي أَعْطَيْتُكَ لأُمَّتِكَ أَنْ لاَ أُهْلِكَهُمْ بِسَنَةٍ عَامَّةٍ. وَأَنْ لاَ أُسَلِّطَ عَلَيْهِمْ عَدُوّاً مِـنْ سِـوَىٰ أَنْفُسِهِمْ. يَسْتَبِيحُ بَيْضَتَهُمْ. وَلَوِ اجْتَمَعَ عَلَيْهِمْ مَنْ بِأَقْطَارِهَا ــ أَوْ قَالَ مَنْ بَيْنَ أَقْطَارِهَـا ــ حَتَّـىٰ يَكُـونَ بَعْضُهُمْ يُهْلِكُ بَعْضاً، وَيَسْبِي بَعْضُهُمْ بَعْضاً». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح مسلم باب الإسراء. وهذا نص الحديث: (٣٧٥) وحدّثني مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنَا ابْـنُ أَبِـي عَدِيٍّ عَنْ دَاوُدَ عَنْ أَبِي الْعَالِيَةِ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللَّهِ بَيْنَ مَكَّةَ وَالْمَدِينَةِ. فَمَرَرْنَا بِوَادٍ. فَقَالَ: «أَيُّ وَادٍ هَٰذَا؟» فَقَالُوا: وَادِي الأَزْرَقِ. فَقَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى مُوسَىٰ (فَذَكَرَ مِنْ لَوْنِهِ وَشَعَرِهِ شَـيْئًا لَمْ يَحْفَظْهُ دَاوُدُ) وَاضِعًا إِصْبَعَيْهِ فِي أُذُنَيْهِ. لَهُ جُؤَارٌ إِلَى اللهِ بِالتَّلْبِيَةِ. مَارًّا بِهَٰذَا الْوَادِي» قَالَ: «ثُمَّ سِـرْنَا حَتَّى أَتَيْنَا عَلَى ثَنِيَّةٍ. فَقَالَ: «أَيُّ ثَنِيَّةٍ هَٰذِهِ» قَالُوا: هَرْشَىٰ أَوْ لِفْتٌ. فَقَالَ: «كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى يُونُسَ عَلَىٰ نَاقَةٍ حَمْرَاءَ. عَلَيْهِ جُبَّةُ صُوفٍ. خِطَامُ نَاقَتِهِ لِيفٌ خُلْبَةٌ. مَارًّا بِهَٰذَا الْوَادِي مُلَبِّيًا».(يوسف عامر).

[2] ــ صحيح بخاري ومسلم باب الإسراء.

البَولِ، وأمّا الآخَرُ فكانَ يَمشي بالنَّميمةِ» ثمَّ أخذَ جَريدةً رَطبةً فشَقَّها نِصفينِ، فغَرَزَ في كل قبرٍ واحدةً. قالوا: يا رسولَ اللّهِ لمَ فعَلتَ هذا؟ قال: «لَعلَّه يُخَفَّفُ عنهما ما لم ييبسا».([1]).

كما رويَ عن سيدنا أيوب الأنصاري رضي الله عنه أن الرسول صلي الله عليه وسلم خرج وقت الظهيرة من بيته فجاء صوت في أذنه فأخبر بأن اليهود يعذبون في قبورهم. وهذه رواية عن البخاري ([2])، كما جاء في الطبري أن النبي صلي الله عليه وسلم أخبر بأن ما يعذب به اليهود في قبورهم يأتي صداه في أذنه ﷺ ([3]).

وقُتل أحد المسلمين ذات مرة وهو يجاهد، فقال الناس بأنه شهيد. فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه ﷺ رآه في جهنم، لأنه كان قد سرق من أموال الغنائم عباءة، وبعدها أمر الرسول صلى الله عليه وسلم سيدنا عمر رضي الله عنه بأن يعلن بأن أهل الإيمان فقط هم الذين سيدخلون الجنة ([4]).

وكان عمرو بن عامر الخز اعي أول العرب الذين ابتدعوا نذور الحيوانات باسم الأصنام، وقد روي في البخاري عن سيدنا أبي هريرة والسيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيتُ عمرَو بنَ عامرِ بنِ لُحَيٍّ الخزاعيَّ يَجُرُّ قصْبَهُ في النارِ([5]).

وفي صحيح مسلم أن النبي صلي الله عليه وسلم خرج ذات مرة في نخيل بني النجار، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم يمتطي بغلاً، وفجأة انتفض البغل بشدة فسقط

---

[1] ــ صحيح البخاري كتاب الجنائز. وهذا نص الحديث: (٢١٨) حدثَّنا محمدُ بنُ المُثنَّى قال: حدثَّنا محمدُ بن خازِمٍ قال: حدثَّنا الأعمشُ عن مُجاهدٍ عن طاوُسٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ قال: مرَّ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بقَبرَينِ فقال: «إنَّهما لَيُعذَّبان، وما يُعذَّبانِ في كبير: أمّا أحَدُهما فكانَ لا يَستَتِرُ منَ البَولِ، وأمّا الآخَرُ فكانَ يَمشي بالنَّميمةِ» ثمَّ أخذَ جَريدةً رَطبةً فشَقَّها نِصفينِ، فغَرَزَ في كل قبرٍ واحدةً. قالوا: يا رسولَ اللّــهِ لــمَ فعَلتَ هذا؟ قال: «لَعلَّه يُخَفَّفُ عنهما ما لم ييبسا». (يوسف عامر).

[2] ــ كتاب الجنائز.

[3] ــ القسطلاني شرح الحديث المذكور.

[4] ــ جامع الترمذي باب ما جاء في الغلول.

[5] ــ مسند ابن حنبل بسند جابر بن عبد الله. وهذا نص الحديث: (٣٤٤٥) حدثنا أبو اليَمانِ أخبرَنا شُعيبٌ عنِ الزُّهريِّ قال: سمعتُ سَعيدَ بنَ المسيَّبِ قال: «البَحيرةُ التي يُمنعُ دَرُّها للطَّواغيت ولا يَحلُبها أحدٌ من الناسِ. والسائبة التي يُسيِّبونها لآلهتِهم فلا يُحملُ عليها شيء».

قال: وقال أبو هريرةَ قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «رأيتُ عمرَو بنَ عامرِ بنِ لُحَيٍّ الخزاعــيَّ يَجُــرُّ قصْبَهُ في النارِ، وكان أولَ مَن سَيَّبَ السوائب». (يوسف عامر).

الرسول من فوقه، وكان بالقرب من خمس أو ست قبور. فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم عن أصحاب هذه القبور ؟ فقال أحد الصحابة: أنا أعرف يا رسول الله. فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم: عن وقت موت هؤلاء الناس ؟ فقال الرجل: إنهم ماتوا وهم في حالة الشرك. فأخبر الرسول صلى الله عليه وسلم أن هؤلاء الناس في محنة، ولو لا أنه ﷺ يعتقد بأن صحابته سيخافون من دفن أحدهم الآخر لدعا الله بأن يسمعهم عذاب القبر الذي يسمعه ﷺ وقتذاك([1]).

وذات مرة خرج الرسول صلي الله عليه وسلم مع أحد أصحابه في اتجاه ما، وفجأة ظهرت رائحة كريهة فأخبرهم الرسول بأن هذه رائحة هؤلاء الناس الذين يغتابون الناس ([2]). وجاء في كتاب الحاكم أنه ذات مرة كان الرسول صلي الله عليه وسلم خارجاً مع سيدنا بلال في مكان ما، فسأل الرسول صلى الله عليه وسلم بلال، هل يسمع ما يسمعه ﷺ ؟ فقال: لا. فقال الرسول صلى الله عليه وسلم ما معناه ألا تسمع عذاب من في القبر.

وقد ورد في مستدرك الحاكم ([3])، وكتاب الزهد للأمام أحمد والبراز والبيهقى تحت فصل شعب الإيمان أن سيدنا زيد بن أرقم قال: ذات مرة كنا مع أبي بكر الصديق رضي الله عنه، فطلب سيدنا أبو بكر شيئاً ليشربه فجاءه الناس بعسل النحل والماء، وبعد أن رآهما سيدنا أبو بكر بكي، فسأل الصحابة عن سبب بكائه. فقال: كنت ذات مرة في خدمـــة الرسول صلى الله عليه وسلم، فرأيته يبعد أحد الأشياء بيديه، ولم أكن أر أي شيئاً أمامي. فسألته يا رسول الله ماذا تبعد ؟ فأخبر صلي الله عليه وسلم أنه يبعد الدنيا، لأنها ممثلة أمامه ﷺ وقتئذ، فطلب منها أن تغرب عنه ﷺ فقالت: لو نجوت مني فلن ينجو الناس من بعدك مني.

---

[1] ــ مسند ابن حنبل بسند جابر بن عبد الله.

[2] ــ نفس المرجع.

[3] ــ المستدرك ـــ ج٤ ـــ ص٣٠٩ وقد كتب الذهبي أن البخاري وغيره قد عدوها من المتروكـــات عن طريق أحد رواته ويدعي عبد الصمد.

الإسراء والمعراج

"سبحان الذي أسري بعبده "

معني الإسراء هو المشي ليلاً، وبما أن معجزة الإسراء به صلى الله عليه وسلم تمت ليلاً، لهذا أطلق عليها اسم الإسراء، وهذا ما عبر عنه القرآن الكريم بقوله: ـــ

" سبحان الذي أسري بعبده ليلاً " (الإسراء: ١)

أما المعراج فهو من العروج، ويعني الصعود، وبما أن كلمة عرج بي جاءت في الأحاديث بمعنى صعد بي، لهذا أطلق عليه كلمة معراج.

الأنبياء والسير الملكوتي:

يتضح من دراسة الأحداث والأحوال الروحية للأنبياء عليهم السلام أن أولي العزم من الأنبياء هم الذين يحصلون علي هذا المقام الرفيع في وقت ما وساعة محددة في بداية النبوة، وتزاح من أمام أعينهم كل الحجب المادية المشروطة للرؤية، كما تلغي أيضاً قوانين السماع الدنيوية، وتقطع عن أقدامهم كل قيود الزمان والمكان المفروضة، وتأتي أمامهم كل المشاهد الخفية في السماء والأرض، وبعدها يرتدون جبة النور، ويصعدون مع الملائكة ف حضرة الذات العلية. وطبقاً لمراتبهم ومنازلهم يحصل كل منهم علي الفيض الإلهي، لدرجة أن المقربين الخواص منحوا رتبة وصلوا فيها إلي الذات الإلهية حتى كانوا قاب قوسين أو أدني، ومن هناك حُمل أوامر ربه وعاد إلي الأرض.

وعندما أعطي سيدنا إبراهيم عليه السلام مقام النبوة جاء النداء الرباني: ـــ " وكذلك نُري إبراهيم ملكوت السماوات والأرض " الأنعام: ٧٥)، وهذا هو الإسراء والمعراج.

وقد ورد في التـــوراة فيما يتعلق بسيدنا يعقوب عليه السلام: ـــ " خرج يعقوب من "بئر سبع"، وسافر إلي "حاران "، وهناك استراح في مكان ما، لأن الشمس كانت قد غربت، وفي هذا المكان وضع حجراً تحت رأسه ونام، ورأي رؤية مفادها أن هناك سلّماً بين السماء والأرض، وكان الملائكة تنزل وتصعد عليه، وكان الله يقف عليه فخاطبني بقوله: " أنا الرب إله إبراهيم أبيك وإله إسحاق، الأرض التي أنت مضطجع عليها أعطيها لك ولنسلك " (التوراة، التكوين، إصحاح ٢٨، فقرة ١٣).

لقد رأي سيدنا موسى عليه السلام ظل ربه علي جبل الطور، وهناك كان معراجه، وهناك العديد من المشاهدات الربانية لبني إسرائيل تمتلئ بها صفحات التوراة بشيء من التفصيل. وفي أناجيل النصارى توجد بالتفصيل مشاهدات الرسول " يوحنا " والتي رأى فيها مشاهد روحية عديدة، كما عُرض أمام عينيه بعض أحداث القيامة. وكل هذه المكاشفات يمكننا أن نطلق عليها " رحلة الملكوت "، وتنتهي هذه الرحلة في اثنين وعشرين باباً، والتي وُضحت فيها علامات القيامة: الجزاء والعقاب، الجنة والنار، وغيرها من الأمور التي تطابق ما جاء في القرآن الكريم، والتي يُعجب بها جميع المسلمين. كما أن المجوس يقصون حكاية طويلة لمعراج رسولهم " زرادشت "، والتي حاولوا فيها نقل أحداث معراج الرسول صلي الله عليه وسلم، وأتباع بوذا أيضاً يقصون المشاهدات الربانية التي شاهدها بوذا وهو تحت ظل نخلة الحكمة.

علي كل حال فالمقصود من هذا العرض هو أن الرحلات الملكوتية كانت دائماً جزءاً من حياة الأنبياء والمدعين القرب إلي الله، وحصل كل واحد علي هذا الفيض الرباني طبقاً لرتبته ومنصبه، وقد جعل الإسلام هذا الكنز عاماً لدرجة أن جعل إمكانية الوصول إلي أي جانب من هذه الحضرة الإلهية لأهل الإيمان خمس مرات في اليوم علي أن الصلاة هي معراج المؤمنين.

المعراج النبوي:

بما أن الرسول صلي الله عليه وسلم سيد الأنبياء، وسيد ولد آدم علي السلام، وبناءاً علي هذا منح شرف الوصول إلي الحضرة الربانية التي لم تصل إليها قدم ابن آدم قبله، وشاهد بعض الأشياء في الذات الإلهية التي لم يتيسر لأي من المقربين إلي الله رؤيتها قبل ذلك.

تاريخ ووقت حدوث المعراج النبوي وعدد المرات:

هناك اختلاف في متى حدث المعراج ووقت حدوثه ؟ وهناك من يقولون طبقاً للروايات والأسانيد الصحيحة وجمهور العلماء أن المعراج حدث مرة واحدة. وهناك من يقولون بتعدد وقوعه، والأصل في ذلك هو أن هناك اختلافاً حول جزئيات المعراج في الروايات. ولهذا سلموا بتعدد وقوع مرات المعراج لإزالة هذه الاختلافات ([1]) حتى تطابق

---

[1] ـــ الإمام السهيلي رحمه الله أظهر ميوله إلي تعدد وقوع المعراج علي أساس هذا الاستدلال في روض الأنف ـــ في شرح سيرة ابن هشام ـــ ج١ ـــ ص٢٤٤ـــــ مصر.

كل حادثة مختلف فيها معراجاً منفصلاً، ولكن الحقيقة أن هذا مجرد افتراض لا علاقة له بالواقع، والأسانيد والروايات الصحيحة أمامنا، وليست بها أي إشارة لتعدد المعراج. وفيما يتعلق بأهم واقعة طويلة إدراكها فوق طاقة البشر، فإنها وقعت في وقت كان المسلمون فيه قلة، وكانوا متفرقين مشتتين فكراً وأحوالاً. وأما فيما يتعلق بمثل هذه الحادثة فإن أكثر رواتها لم يكونوا قد ولدوا بعد، أو كانوا صغاراً، أوهم أهل المدينة الذين لم يكونوا علي معرفة مباشرة أو شخصية بأحداث ما قبل الهجرة. ولو فرضنا أنه حدث اختلاف في جزئيات في ترتيب أحداث هذه الواقعة أو تأخير وتقديم لبعض أحداثها فليس هناك ضرورة لمتابعة تطبيقها. فما أكثر الأحداث التي تمر أمامنا يومياً، والتي لو سمعنا أحداثها من أكثر من راو لها، أو حتى قصصناها نحن أنفسنا في أوقات مختلفة. فلابد وأن يحدث هناك اختلاف في ترتيب أحداثها الجزئية، في حين أنه لا يوجد شك حول حدوث أهم أجزاء هذه الحادثة. وقد ذكر بعض أرباب السير أن المعراج قد حدث مرتين إحداهما الإسراء، والثانية المعراج. وجاء ذكر الإسراء في القرآن الكريم، بينما جاء ذكر المعراج في الأحاديث ؛ ولهذا اعتُبر ذكره ضرورياً، لأن ذكر الإسراء جاء في الجزء الخامس عشر في القرآن، واحتوي فقط علي رحلة الرسول صلي الله عليه وسلم من مكة إلي بيت المقدس، ومن القرائن يتضح أن الرحلة تمت بالجسد في حالة اليقظة، مع أن المعراج كانت رحلته إلي السماء. وجاء ذكر العديد من الأحداث العجيبة والغريبة، وهناك تصريح في بعض الروايات بأنها كانت رؤية. والخلاصة أن هذا لا يخرج عن حيز الاستنباط والقياس، وألفاظ القرآن الكريم يمكن تأويلها علي أنها رؤية ويقظة في نفس الوقت. وعلي هذا فليس هناك شك في أن المعراج قد تم مرة واحدة.

وقد صرح العلامة الزرقاني بان هذا هو رأي جمهرة الفقهاء وأهل الحديث وعلماء الكلام وتدل عليها تواتر الروايات الصحيحة ولا ينبغي العدول عنها. ([1]) وقد قال حافظ ابن كثير في تفسيره بأن القول بتعدد المعراج لغو ولا سند له ويخالف سياق الأحاديث، وهناك صعوبة في تحديد وقت وزمن المعراج لأنه حدث قبل الهجرة في الوقت الذي لم يكن التاريخ والسنة قد دونا، ولم يكن هناك تقويم لدي العرب قبل الإسلام في حين أن توقيت المعراج قد تم ليلاً، وهذا أمر لا شك ولا شبهة فيه. والقرآن الكريم نفسه يؤيد هذا بقوله " سبحان الذي أسري بعبده ليلاً ". وتتفق جميع الروايات علي هذا إلا أن تحديد

[1] ــ شرح المواهب ــ ج١ ــ ص٥٥.

اليوم والتاريخ أمر فيه صعوبة شديدة، ولا يوجد من بين المحدثين رواية صحيحة عن هذا الأمر. بينما أهل السيرة قد نقلوا عن بعض الصحابة والتابعين وتابع التابعين وقد اختلفت أقوالهم إلا أنهم اتفقوا جميعاً علي هذا الأمر في أنها أي حادثة الإسراء قد تمت بعد البعثة النبوية وبداية نزول الوحي وقبل الهجرة وحدثت في مكة المكرمة.

أما فيما يتعلق بالشهر الذي حدثت فيه حادثة الإسراء فهناك خمسة أقوال لأهل السيرة. بعضهم قال: أنها حدثت في ربيع الأول ([1]). وقال الثاني: بأنه في ربيع الآخر وقد حدد البعض شهر رجب. وقال البعض: بأنه شهر رمضان أو شهر شوال. أما الرواية الأخيرة فقد رواها السدّي ونقلها ابن جرير الطبري والبيهقى. وروايتهم تقول بأن المعراج حدث قبل سبعة عشر شهراً من الهجرة، والهجرة قد تمت في بداية ربيع الأول وعلي هذا فإن سبعة عشر شهراً قبلها فإن هذا معناه أواخر شهر رمضان أو بداية شهر شوال ولكن من لا يعرف بأن السدّي ساقط الاعتبار. وقد روي ابن سعد روايتين عن الواقدي ([2]) أن الحادثة وقعت ليلة السبت في السابع عشر من شهر رمضان، والهجرة حدثت في ربيع الأول في السنة الأولي من الهجرة، وهذا يعني أنها حدثت قبل ثمانية عشر شهراً من الهجرة. والرواية الثانية: أنها أي حادثة المعراج تمت في سبعة عشر من ربيع الأول أي قبل الهجرة بعام، والواقدي في رواياته قد حدد اليوم والتاريخ بشكل جعل أكثر العلماء بمعرفة الرجال لا يعتدون بروايته وهكذا فإن الروايات التي احتوت علي تفاصيل كثيرة لهذه الحادثة في تحديد الوقت والتاريخ فهي غير معتبرة لأن أسانيدها ناقصة. أما النوع الثاني من الروايات للأشهر الأخرى فنجد أن ابن قتيبة الدينوري المتوفى (٢٦٧هـ) والعلامة عبد البر المتوفى (٤٦٣هـ) قد حددا لها شهر رجب. أما من المتأخرين فنجد الإمام الرافعى والإمام النووي في الروضة قد ذكرها بنوع من اليقين، كما اختار لها أيضاً المحدث عبد الغنى المقدسى هذا الشهر بل إنه حدد اليوم أي السابع والعشرين من شهر رجب. وقد كتب العلامة الرزقاني أن الناس وهو المعمول به يعملون بهذا التاريخ، ويري البعض بأنها أقوي الروايات لأن الأصول هي عندما يختلف الأسلاف في أمر ما ولا

---

[1] ـ قد روي شريك عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنهما فيما يتعلق بالمعراج في كتب الحديث وصحيح البخاري أنها حدثت قبل بداية الوحي ومعناه أن مجيء الملائكة فقط وليس المعراج نفسه، سيأتي ذكره فيما بعد.

[2] ـ ابن سعد ـــ ج١ ـــ ص ١٤٣.

يوجد أي دليل يرجح أحد الآراء فيكون الاعتقاد (الظن) السائد هو الصحيح الذي يعمل به وتقبله الناس. ([1]) وهناك حل لهذه القضية أن أقوال المتأخرين تشتمل علي أكثر من عشر أقوال مختلفة مبنية كلها علي القياس والاستنباط بغض النظر عنها، ونركز علي أقوال القدماء، وما هي أكثر الروايات وأرجحها والتصريحات هي كالتالي: ـ

اسم الراوي	الرواية	حالة السند
١ـ ابن سعد عن الواقدي عن سيدنا عمرو بن العاص وأم سلمة وعائشة وابن عباس وأم هانئ رضي الله عنهم	١٧ ربيع الأول من قبل الهجرة.	نقلها ابن سعد عن الصحابة بطرق مسلسلة.
٢ـ موسى بن عقبة عن زهري.	سنة قبل الهجرة.	تعتبر سيرة موسى بن عقبة من أقوي كتب السيرة المعتمدة.
٣ـ والزهري عن سعيد بن صهيب.	سنة قبل الهجرة.	
٤ـ وعروة بن زهير عن السيدة عائشة.	سنة قبل الهجرة	من التابعين.
٥ـ قتادة.	سنة قبل الهجرة.	من التابعين.
٦ـ مقاتل.	سنة قبل الهجرة.	من التابعين.
٧ـ ابن جريج.	سنة قبل الهجرة.	
٨ـ إبراهيم بن إسحاق الحربي.	٢٧ربيع الآخر سنة قبل الهجرة.	من التابعين.
٩ـ مسلم بن قتيبة.	قبل الهجرة بثمانية عشر شهراً.	مؤرخ.
١٠ـ عمرو بن شعيب عن سيدنا عمرو بن العامل	٧ ربيع الأول سنة قبل الهجرة.	مؤرخ.

[1] ـ جميع التفاصيل مذكورة في الزرقاني ـــ ح١ ـــ ص٣٥٥: ٣٥٨.

١١ـ سدّى.	قبل الهجرة بستة عشر أو سبعة عشر شهراً.	من ناحية الاعتبار فهو ساقط.

وقد نقل المتأخر ون قولين آخرين عن الإمام الزهري إنها تمت قبل الهجرة بخمس سنوات، وخمس سنوات من البعثة الثانية. وقد نقل القول الأول العلامة ابن حجر (فتح الباري ــ المجلد ٧ــ ص١٥٥ــ مصر)، ونقل أن القاضي عياض والإمام القرطبي والإمام النووي شارحي صحيح مسلم قد أيدوا هذا، ولكننا نجد في شرح صحيح مسلم للإمام النووي المطبوع بالهند (ص٩١)، وكذلك في سيرة القسطلاني المواهب اللدنيه (المطبوع في مصر مع الزرقاني) قولاً آخر، فقد أظهر الزرقاني حيرته في هذا الاختلاف (في المجلد الأول فصل المعراج). وللأسف هذه النسخة المخطوطة مفقودة، ونعتقد أن هذا الاختلاف نتج عن أخطاء في الكتابة. وهكذا في كتاب " أسد الغابة " لابن الأثير المطبوع في مصر (ص٢٠) جاء إلي السدى ما يفيد بأن المعراج تم قبل الهجرة بستة اشهر، والحقيقة أنها ستة عشر شهراً. فكان من المفروض بدلاً من ستة أشهر أن تكون ستة عشر شهراً، كما نقل عن ذلك الحافظ بن كثير منه تفسير سورة الإسراء، والتي تقترب من رواية السبعة عشر شهراً، والموجودة في الطبري والبيهقي. وفي القرن السادس أقر العلامة ابن الأثير بوقوع المعراج قبل الهجرة بثلاث سنوات بناءاً علي قياس واستنباط تاريخي. ولكن المعروف لدينا أنه لم يؤيده أحد آخر في هذا ــ التاريخ ــ ولا يوجد ذكر لهذا التاريخ في أمهات كتب السيرة، وباستثناء هذا القياس، فإن ابن إسحاق نقل في سيرته أن حادثة المعراج وقعت قبل وفاة السيدة خديجة رضي الله عنها وأبي طالب، وكلا الحادثتين حدثتا قبل الهجرة بثلاث سنوات وهو ما يُفهم منه أن ابن إسحاق أيضاً يعتبر أن حادثة المعراج تمت قبل الهجرة بثلاث سنوات. ([1])

لقد وضعت أمام القراء كل ما يتعلق بهذه الواقعة، والتي يتضح منها أن أكثر القدماء حددوا وقت المعراج بسنة قبل الهجرة، وقد أضاف واحد أو اثنين من العلماء مدة

---

[1] – لقد جمعت كل هذه الروايات من مصادر مختلفة. فالأولي من ابن سعد، والثانية والرابعة والحادية عشر من تفسير ابن كثير (سورة الإسراء) ص٤٠ ــ والسابعة من تفسير ابن جرير ــ ص ١٥: ٧٢. والخامسة والسادسة من تفسير ابن حباب (الإسراء – ص٥). أما بقية الروايات فهي مأخوذة من فتح الباري والزرقاني في شرح شفائي عياض، الاستيعاب، ابن عبد البر أسد الغابة وابن الأثير وروض الأنف (ذكر المعراج).

سبعة أو ثمانية أشهر، كما أنه هناك من بين المتأخرين من أراد تحديد وقت المعراج بخمس أو ثلاث سنوات قبل الهجرة بناءاً علي القياس التاريخي. واتفق الجميع علي أن الصلوات الخمس فُرضت في المعراج، ثم إن هناك رواية للبخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن السيدة خديجة توفيت قبل الهجرة بثلاث سنوات. وذكر بعض الرواة الآخرين أنها توفيت قبل الهجرة بخمس سنوات، وجمعوا كل هذه المقدمات ووصلوا إلي نتيجة مفادها أن المعراج حدث قبل الهجرة بثلاث سنوات كما قال ابن الأثير، أو خمس سنوات كما قال القاضي عياض وغيره. ولكن الظاهر أن الاستدلال يمكن أن يكون صحيحاً في ذلك الوقت عندما يثبت أن فرض الصلوات الخمس ووفاة السيدة خديجة قد حدثا سوياً أو علي الأقل حدثت أحدهما بعد الأخرى بعدة أيام، وليس معلوماً الآن أن هذا حدث قبل شهر أو ستة أشهر أو حتى عدة سنوات، لهذا لم يتم تحديد تاريخ المعراج طبقاً لهذه القياسات.

علي كل حال فإن أكثر الرواة الأوائل ومن بينهم بعض الرواة الثقات يقرون بأن الهجرة قد تمت في ربيع الأول من السنة الأولي للهجرة، أو قبل سنة ونصف منها، والإمام البخاري لم يحدد أي تاريخ في صحيحه، ولكنها في ترتيب الأحداث جاءت كآخر الأحداث التي حدثت قبل الهجرة، فأخذت واقعة المعراج مكاناً لها اتصلت فيه ببيعة العقبة وقبل الهجرة. وهذا هو الترتيب الذي وضعه لها ابن سعد في سيرته. وهنا يظهر منشأ هذه الحادثة عند إمامي السيرة في أن المعراج حدث قبل الهجرة سواء بعام أو عام ونصف، أو لاحقاً بسنتين، ويستنبط من القرآن الكريم أنه لم يحل زمن بين الهجرة والمعراج، بل إن المعراج كان في الأصل إعلاناً عن الهجرة.

أما تحديد الشهر فهو أمر صعب، ومن يقول بأنها حدثت قبل الهجرة في ربيع الأول من السنة الأولي للهجرة فإذا أضفنا ربيع الأول – طبقاً لحساباتهم – فإن المعراج يكون قد وقع في ربيع الآخر، ولو لم نضفه فسيظل ربيع الأول هو شهر وقوع المعراج، ولو اخترنا ما هو معمول به ومشهور ومعروف وهو شهر رجب فإن حادثة المعراج تكون قد وقعت قبل الهجرة بسنة وستة أشهر.

الروايات الصحيحة للمعراج:

بما أن واقعـــة المعراج واقعة مهمة جداً وفوق وجودنا المادي وتتجاوز حدود عقلنا الإنساني واستنباطنا وقياسنا، لهذا كان من الضروري تتبع الروايات الصحيحة في هذا الباب. فلقد دونت العديد من الروايات عن الصحابة حول هذه الحادثة في كتب السيرة والأحاديث، وعدّد الإمام الرزقاني أسماء خمسة وأربعين من الصحابة، وذكر كتب الحديث والتفسير التي ذكرتها، كما أن العلامة ابن كثير جمع الكثير من هذه الروايات في تفسيره لسورة الإسراء، وفيها جميع أنواع الروايات من الصحيح المرفوع، والقوي، والموقوف، والمرسل، والمنكر، وفي الصحاح الستة ذكرت حادثة المعراج مستقلة في صحيح مسلم والبخاري، ووردت ضمناً وبشكل مختصر في النسائي والترمذي، وفي غيرهما في أبواب متفرقة هنا وهناك، وقد نقل البخاري ومسلم رواية حادثة المعراج عن ستة من أكابر الصحابة ؛ عن سيدنا أبي ذر، وعن سيدنا مالك بن صعصعة، وعن سيدنا أنس بن مالك، وعن سيدنا عبد الله بن عباس، وعن سيدنا أبي هريرة، وعن سيدنا جابر بن عبد الله، وعن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنهم جميعاً. وقد بين أربعة من هؤلاء الصحابة بعض المتفرقات الجزئية، وفي الصحيحين ورد الذكر المفصل لحادثة المعراج عن عدد من الصحابة مثل سيدنا أبي ذر، وسيدنا مالك بن صعصعة، وسيدنا أنس بن مالك رضي اله عنهم جميعاً، ورواها سيدنا أنس رضي الله عنه بثلاث طرق، إحداها وردت في صحيح مسلم تحت باب الإسراء، وفي صحيح البخاري في باب كتاب التوحيد، وهو آخر هؤلاء الرواة، إلا أننا لا نجد تصريحاً بأنه قد سمعها عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، أو حتى سمعها أحد الصحابة منه.

والطريقة الثانية: (في صحيح البخاري باب ذكر الملائكة وباب المعراج، وفي صحيح مسلم باب الإسراء) صرح فيها بأنه قد سمعها عن سيدنا مالك بن صعصعة.

والطريقة الثالثة: ــ (في صحيح البخاري كتاب الصلاة والأنبياء) صرح فيها بأنه سمعها من سيدنا أبي ذر رضي الله عنه. ويثبت من هذا أن سيدنا أنس رضي الله عنه قد سمع حادثة المعراج من العديد من أكابر الصحابة ؛ ولهذا فإن تصريحاته هي الأشمل والأوفى. ونقل العديد من التابعين في الصحيحين هذه الرواية عن سيدنا أنس رضي الله عنه مثل ثابت النباني ابن شهاب الزهري، وقتادة، وشريك بن عبد الله بن أبي نمر، فقد ثبت أنها أكثر التصريحات أمناً، ولكن رواية شريك خالفت روايات الثقات في أمور

متعددة، لهذا فإن الإمام مسلم في صحيحه أشار إليها تحت باب الإسراء، وتركها، وكتب أن في روايته تقديم وتأخير وزيادة ونقص.

وقد صرح سيدنا مالك بن صعصعة، وسيدنا أبو ذر رضي الله عنهما أنهما قد سمعا حادثة المعراج لفظاً وحرفاً من لسان سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهؤلاء من الصحابة الأجلاء. ولكن هناك خاصية أخرى عند سيدنا أبي ذر رضي الله عنه وهي أنه من السابقين للإسلام، وجاء إلي مكة قبل حدوث المعراج وأسلم، وسيدنا مالك بن صعصعة من الأنصار، وعلي هذا فإننا نؤمن بأولوية رواية سيدنا أبي ذر بالنسبة لجميع الروايات التي تتعلق بهذه الحادثة.

حادثة المعراج:

عندما قرب انتهاء الخطر الشديد علي وجود الإسلام، وبدأ عصر جديد للإسلام من بعد الهجرة يملؤه الاطمئنان، عندئذ جاءت هذه الليلة المباركة، وقربت الساعة التي حددت فيها الرحلة الملكوتية للنبي صلى الله عليه وسلم، والتي ستصدر فيها الأوامر الربانية، وصدر الحكم لرضوان حارس الجنة بان يزين دار ضيافة عالم الغيب بما يلزمها من زينة، لأن سيد العالم صلى الله عليه وسلم سيحل ضيفاً فيها اليوم، كما بلّغ الروح الأمين بأن يجهز المركبة التي هي أسرع من الضوء وتمشي الهوينا، والتي تختص بمسافري الذات الإلهية، وأن يأتي بها إلي الكعبة، كما صدرت الأوامر للأجزاء والعناصر المادية بأن تتعطل جميع أحكام وقوانين الدنيا لمدة محدودة، كما ترفع كل القيود الطبيعية للتخاطب والحديث والسماع والرؤية والسفر والإقامة.

وقد روي في الصحيحين عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان في مكة، وفتح سقف بيته، ونزل فيه جبريل عليه السلام، ثم شق صدره الشريف، وغسله بماء زمزم، ثم جيء بطبق من الذهب مملوء بالحكمة والإيمان، ووضعه في صدره الشريف وقفله، ثم أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم من يده وصعد به إلي السماء، وعندما وصل إلي السماء قال جبريل عليه السلام لحارس السماء: افتح. فقال من ؟ أجابه: أنا جبريل. فسأله هل معك شخص آخر ؟ فقال: نعم معي محمد. فسأله هل تم استدعائه ؟ فأجابه بنعم.

الخلاصة أنه لما صعد الرسول صلى الله عليه وسلم إلي السماء، فرأي الرسول شخصاً جالساً والظلال عن يمينه ويساره. فكان يبتسم عندما ينظر إلي الجانب الأيمن،

وعندما ينظر يساراً يبكي. وعندما رأي الرسول صلى الله عليه وسلم قال: مرحباً بنبي الله الصالح وابن الصالح ! ثم سأل الرسول صلى الله عليه وسلم جبريل من يكون هذا الرجل ؟ فقال جبريل إنه آدم، والظلال التي عن يمينه ويساره هي أولاده وأرواح أولاده، والذين عن يمينه هم أهل الجنة، والذين عن يساره هم أهل النار ؛ فلهذا يبتسم عندما ينظر يميناً ويبكي عندما ينظر يساراً. ثم صعد الرسول صلى الله عليه وسلم بعد ذلك إلي السماء الثانية فكان مثل هذا النوع من السؤال والجواب، وفي كل سماء كان يلتقي بأحد الأنبياء. فقد التقي في السماء الأولي بسيدنا أدم عليه السلام، وفي السماء السادسة بسيدنا إبراهيم عليه السلام. ويروي سيدنا أنس أن سيدنا أبو ذر رضي الله عنه لم يبين لي منازل الأنبياء، وعلي كل حال فقد أخذه جبريل عليه السلام ومر من عند سيدنا إدريس عليه السلام فعندما شاهد سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: مرحباً بالنبي الصالح، ثم سأل الرسول عن اسمه فأخبره سيدنا جبريل باسمه. وهذه هي الحادثة التي مر بها كل من سيدنا موسى وعيسي وإبراهيم عليهم السلام. وهكذا استقبله سيدنا موسى وسيدنا عيسي عليهما السلام بهذا الترحاب: النبي الصالح والأخ الصالح، ورحب به سيدنا إبراهيم بالنبي الصالح والابن الصالح، ثم صعد به بعد ذلك سيدنا جبريل إلي أعلي، ووصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلي المقام الذي كان يسمع فيه صوت قلم القدرة. وهناك فرض الله عليك وعلي أمتك خمسين صلاة، فامتثل الرسول صلى الله عليه وسلم لحكم ربه، وذهب إلي سيدنا موسى فسأله موسى ماذا فرض الله علي أمتك ؟ فقال له: فُرِضَت عليَّ خمسون صلاة، فقال له: اذهب إلي ربك واسأله التخفيف فلن تتحمل أمتك هذا. فذهب الرسول صلى الله عليه وسلم واستجاب الله لطلبه، ثم عاد إلي موسى فقال له موسى اذهب إلي ربك واسأله التخفيف لأن أمتك لن تتحمل هذا. فذهب الرسول وطلب من ربه التخفيف، فعاد وقال له سيدنا موسى: إن أمتك لن تتحمل هذا فذهب إلي ربك واسأله التخفيف حتى وصلت إلي خمس صلوات في العدد، وخمسين في الأجر حيث " لن تجد لسنة الله تبديلا ". وبعدها طلب منه سيدنا موسى الذهاب إلي الله ليطلب منه المزيد من التخفيف فقال له الرسول صلى الله عليه وسلم قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ».

ثم أخذ بعد ذلك إلي سدرة المنتهي التي كانت مغطاة بألوان مختلفة، والتي لم يكن الرسول صلى الله عليه وسلم قد تعرف عليها. وبعدها صعد به إلي الجنة، وهناك شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم قصور اللؤلؤ وأن ترابها كريح المسك. ([1])

---

[1] ــ البخاري باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء. وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في البخـاري: (٣٦٥) ــ حدثنا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ: حَدَّثَنَا ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «أُتِيتُ بِالْبُرَاقِ (وَهُوَ دَابَّةٌ أَبْيَضُ طَوِيلٌ فَوْقَ الْحِمَارِ وَدُونَ الْبَغْلِ. يَضَعُ حَافِرَهُ عِنْدَ مُنْتَهَىٰ طَرْفِه) قَالَ، فَرَكِبْتُهُ حَتَّى أَتَيْتُ بَيْتَ الْمَقْدِسِ. قَالَ، فَرَبَطْتُهُ بِالْحَلْقَةِ الَّتِي يَرْبِطُ بِهِ الأَنْبِيَاءُ. ثُمَّ دَخَلْتُ الْمَسْجِدَ فَصَلَّيْتُ فِيهِ رَكْعَتَيْنِ. ثُمَّ خَرَجْتُ. فَجَاءَنِي جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ بِإِنَاءٍ مِنْ خَمْرٍ، وَإِنَاءٍ مِنْ لَبَنٍ. فَاخْتَرْتُ اللَّبَنَ. فَقَالَ جِبْرِيلُ: اخْتَرْتَ الْفِطْرَةَ ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِآدَمَ، فَرَحَّبَ بِي وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الثَّانِيَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا. فَإِذَا أَنَا بِابْنَي الْخَالَةِ: عِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ، وَيَحْيَى بْنِ زَكَرِيَّاءَ ــ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمَا ــ، فَرَحَّبَا، وَدَعَوَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِي إِلَى السَّمَاءِ الثَّالِثَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِيُوسُفَ، وَقَدْ أُعْطِيَ شَطْرَ الْحُسْنِ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الرَّابِعَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. قِيلَ: مَنْ هٰذَا قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قَالَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِدْرِيسَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. قَالَ الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَرَفَعْنَاهُ مَكَانًا عَلِيًّا} (مريم آية: ٥٧) ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ الْخَامِسَةِ، فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. قِيلَ: مَنْ هٰذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِهٰرُونَ، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ بِنَا إِلَى السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ. قِيلَ: مَنْ هٰذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا، فَإِذَا أَنَا بِمُوسَى، فَرَحَّبَ وَدَعَا لِي بِخَيْرٍ. ثُمَّ عَرَجَ إِلَى السَّمَاءِ السَّابِعَةِ. فَاسْتَفْتَحَ جِبْرِيلُ. فَقِيلَ: مَنْ هٰذَا؟ قَالَ: جِبْرِيلُ. قِيلَ: وَمَنْ مَعَكَ؟ قَالَ: مُحَمَّدٌ. قِيلَ: وَقَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ؟ قَالَ: قَدْ بُعِثَ إِلَيْهِ. فَفُتِحَ لَنَا فَإِذَا أَنَا بِإِبْرَاهِيمَ مُسْنِدا ظَهْرَهُ إِلَى الْبَيْتِ الْمَعْمُورِ. وَإِذَا هُوَ يَدْخُلُهُ كُلَّ يَوْمٍ سَبْعُونَ أَلْفَ ملك لاَ يَعُودُونَ إِلَيْهِ. ثُمَّ ذَهَبَ بِي إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَىٰ وَإِذَا وَرَقُهَا كَآذَانِ الْفِيَلَةِ. وَإِذَا ثَمَرُهَا كَالْقِلاَلِ. قَالَ، فَلَمَّا غَشِيَهَا مِنْ أَمْرِ الله مَا غَشِيَ تَغَيَّرَتْ. فَمَا أَحَدٌ مِنْ خَلْقِ الله يَسْتَطِيعُ أَنْ يَنْعَتَهَا مِنْ حُسْنِهَا. فَأَوْحَى الله إِلَيَّ مَا أَوْحَىٰ. فَفَرَضَ عَلَيَّ خَمْسِينَ صَلاَةً فِي كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. فَنَزَلْتُ إِلَى مُوسَى. فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَىٰ أُمَّتِكَ؟ قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلاَةً. قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ. فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فَإِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذٰلِكَ. فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ. قَالَ، فَرَجَعْتُ إِلَى رَبِّي فَقُلْتُ: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي. فَحَطَّ عَنِّي خَمْسا. فَرَجَعْتُ إِلَى مُوسَىٰ فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسا. قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لاَ يُطِيقُونَ ذٰلِكَ فَارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. قَالَ، فَلَمْ أَزَلْ

إن هذه هي أقدم الروايات المعتد بها في كتب الحديث فيما يتعلق بحادثة المعراج، وتليها رواية سيدنا مالك بن صعصعة رضي الله عنه، وفيها العديد من الأمور الزائدة عن الرواية الأولي. ولا يوجد تصريح في رواية سيدنا أبي ذر رضي الله عنه من أن الحادثة تمت في اليقظة أو في المنام. بل فيها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بين اليقظة والنوم. وفي الرواية الأولي أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأي أن سقف بيته قد فتح فنزل منه سيدنا جبريل عليه السلام، وفيها أيضاً أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مستلقياً في حجر أو حطيم ([1]) وجاءه جبريل عليـــه السلام، ولا يوجد في رواية سيدنا أبي ذر رضي الله عنه ذكر للبراق. أما في رواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم امتطي البراق، وفي رواية سيدنا أبي ذر فليس هناك ذكر لمنازل الأنبياء، إلا أن في هذه الروايـــة تصريح بأسماء الأنبياء، وفي رواية سيدنا أبي ذر رضي الله عنه أن التخفيف في الصلوات تم ثلاث مرات ([2])، إلا أنه يظهر من هذه الرواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم ذهب إلي الله لهذا الغرض خمسة مرات. والحقيقة أن الفرق في الروايتين أن إحداهما تعتمد علي الإجمال، والثانية علي التفصيل. فرواية سيدنا أبي ذر فيها إجمال، وفي رواية سيدنا مالك بن صعصعة قدر من التفصيل، ورغم هذا فإن الرواية الثانية لا تحيط بكل أحداث المعراج. وفيما يلي نعرض كل أحداث ومشاهد المعراج طبقاً لكل الروايات الصحيحة: ــ

إن الموضع الحقيقي للكعبة الذي بناه سيدنا إبراهيم عليه السلام قد تعرض للسيول أكثر من مرة، وكان يبني في كل مرة، وهكذا في عهد قريش قبل ميلاد الرسول صلى الله عليه وسلم تعرض للسيول، فأرادت قريش أن تبنيها مرة أخرى، وبسبب قلة المال تم تقليل

أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ! إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلَّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ. لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ. فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً. وَمَنْ هَمَّ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةً. فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا. وَمَنْ هَمَّ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ تُكْتَبْ شَيْئًا. فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةً وَاحِدَةً. قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى مُوسَى فَأَخْبَرْتُهُ. فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّـــي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ» (يوسف عامر).

[1] ــ حطيم أو حجر اسمان لمكان واحد، وهو الموضع الذي بني أهل قريش الكعبة عليه خارج الموضع الأصلي للكعبة التي شيدها سيدنا إبراهيم عليه السلام وليس في الداخل.

[2] ــ البخاري باب الأنبياء وباب المعراج.

المساحة المقام عليها، وهكذا بقيت مساحة من الأرض خارج سور الكعبة، وما زال هذا قائماً إلي الآن، وهذه المساحة يطلق عليها حجر أو حطيم، وكان سادة وشباب قريش ينامون في هذا الموضع. كما أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان ينام فيه، وقبل البعثة كانت الملائكة تأتي للرسول في المنام ([1])، والليلة التي تم فيها المعراج كان النبي صلى الله عليه وسلم مستريحاً في هذا الموضع ([2]) وأن الرسول صلى الله عليه وسلم كان بين اليقظة والنوم فقد شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم سقف بيته قد فُتح ونزل منه جبريل عليه السلام، وكان معه بعض من الملائكة فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم أولاً إلي بئر زمزم وشق صدره وغسل قلبه بماء زمزم وعمر قلبه بالحكمة والإيمان، وقد تولي جبريل عليه السلام وضع كأس الحكمة والإيمان في صدره صلى الله عليه وسلم، وأرجع

---

[1] ـ البخاري كتاب التوحيد وباب صفة الرسول صلى الله عليه وسلم.

[2] ـ هناك اختلاف في تحديد هذا الموضع أثناء حدوث المعراج، وفي الصحيحين كما ورد في رواية سيدنا مالك وسيدنا أنس رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في المسجد الحرام (الكعبة)، وكان في الموضع الخارجي للكعبة والذي يعرف بحجر أو حطيم كان الرسول صلى الله عليه وسلم نائماً فيه هذا كل ما جاء في الصحيحين.

وهناك روايات بعدها أقل درجة: عن أم هانئ رضي الله عنها تقول أن المعراج تم في بيتي، ومنزل أم هانئ في شعب أبو طالب، وهذه الرواية موجودة في الكلبي الكذاب المشهور. وفيها العديد من أحاديث اللغو والكذب.

وقد روي في سند أبو يعليّ عن أم هانئ رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم صلي العشاء ونام معنا في بيتنا، وعندما استيقظت في الليل فلم أجد الرسول صلى الله عليه وسلم وبسبب عداوة رؤساء قريش له بدأ الشك يراودني في أشياء عديدة، ولم أنم. وعندما جاء الصباح بيّن الرسول صلى الله عليه وسلم حادثة المعراج، وقال ما معناه: إنني ذاهب لأقص علي رؤساء قريش ما رأيت فأمسكت بثوبه ورجوته أن لا يقص عليهم شيء من هذا، إنهم سيكذبونك وسيقتلوك إلا أنه لم يقتنع فشد ثوبه وذهب.

وفي هذه الروايات صلاة العشاء لغو وخطأ، والدليل علي ذلك أن الصلوات الخمس فرضت في واقعة المعراج. والواضح أن هذه الروايات لا يمكن أن يعتد بها، ولا يوجد شك في أن الرسول صلى الله عليه وسلم في ليلة المعراج كان في الكعبة. في حين أن رواية سيدنا أبو ذر رضي الله عنه كما جاءت كما جاءت في الصحيحين بينت أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في مكة وأن سقف البيت قد فُتح وجاء منه جبريل عليه السلام، والتأويل الصحيح عندنا لهذه الرواية أن الرسول صلى الله عليه وسلم بالفعل كان يستريح في الكعبة ولكن المشاهدات التي رآها كانت كأنه كان في بيته، وأن سقف بيته قد فُتح ونزل منه جبريل عليه السلام.

كل شيء في مكانه كما كان. وبعدها جيء بحيوان أكبر من الحمار وأصغر من البغل أبيض اللون يسمي البراق ([1]) والتي كانت اتساع خطوته بحدود نظره، فركبه الرسول صلى الله عليه وسلم، وأتي إلي بيت المقدس. وقد ربط البراق في القلادة التي كان الأنبياء يربطون بها ركائبهم، فوضع الرسول صلى الله عليه وسلم قدمه في بيت المقدس وصلي ركعتين، وعندما خرج قدّم له سيدنا جبريل كوبين من اللبن والخمر، فرفع الرسول كوب اللبن فقال له جبريل عليه السلام: لقد اخترت الفطرة، فلو أنك أخذت كوب الخمر لكانت أمتك ضلت. ثم بعد ذلك أخذ جبريل الرسول صلى الله عليه وسلم وصعد إلي السماء، وعندما وصل إلي السماء الأولي نادي جبريل علي حارس هذه السماء فقال الحارس من ؟ فقال له: أنا جبريل. فقال له ومن معك ؟ فقال له: محمد صلى الله عليه وسلم. ثم سأله مرة أخرى هل تم استدعائه ؟ قال: نعم. فسمع الملك هذا الكلام وفتح باب السماء ورحب بهما وقال: إن أهل السماء سيكونون سعداء عندما يعلمون بهذا الخبر، والذي أراد الله أن يفعله مع أهل الأرض، وطالما أنه لم يهب أهل السماء هذا العلم فلا يمكن أن يعرفوه. وعندما دخل الرسول صلى الله عليه وسلم في السماء الأولي رأي شخصاً تحوطه الظلال عن يمينه وشماله، فكان عندما ينظر إلي اليمين يبتسم، وعندما كان ينظر إلي اليسار يبكي. وعندما رأي الرسول صلى الله عليه وسلم قال هذا الرجل: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، ثم استفسر الرسول عنه من جبريل عليه السلام: من هذا ؟ فقال له جبريل: هذا أبيك آدم عليه السلام، والظلال التي عن يمينه ويساره ما هي إلا أرواح أولاده، وأصحاب اليمين هم أهل الجنة، وأصحاب اليسار هم أهل النار ؛ ولهذا عندما ينظر إلي اليمين يبتسم وعندما ينظر إلي اليسار يبكي. كما رأي الرسول صلى الله عليه وسلم أمامه في هذه السماء نهرين. فسأل الرسول عنهم جبريل فقال له: أنهما النيل والفرات، وأثناء تجوله رأي نهراً آخر وعليه قصر من اللؤلؤ والزبرجد وترابه من المسك والعنبر، فقال له جبريل: إنه نهر الكوثر الذي وهبه الله لك.

---

[1] ـ بسند أحمد برواية أنس والترمذي وابن جرير الطبري أنه عندما امتطي الرسول صلى الله عليه وسلم البراق تذمر، فقال له جبريل لماذا هذا التذمر فإنه لم يمتطيك أحد حتى اليوم أكثر تقوي عند الله من محمد صلى الله عليه وسلم، فسمع البراق هذا وتصبب عرقاً من الخجل. وقد نسب الحافظ بن كثير هذه الرواية لابن جرير الطبري، وقال إن في بعض ألفاظه نوعاً من الغرابة والإنكار. كما كتب الترمذي فيما يتعلق بهذه الرواية أن هذا شيء غريب لا نعرفه إلا من حديثه.

وهكذا مر الرسول صلى الله عليه وسلم علي كل السماوات، وكان الحوار يدور كما دار في السابق بين حارس السماء وجبريل عليه السلام، وكان في كل سماء من هذه السماوات يلتقي بأحد الأنبياء. فالتقي في السماء الثانية بسيدنا يحيى وسيدنا عيسي عليهما السلام الذين هم في الأصل أبناء خاله. والتقي في السماء الثالثة بسيدنا يوسف عليه السلام الذي وهبه الله الجمال، وفي الرابعة التقي بسيدنا إدريس عليه السلام الذي قال عنه القرآن " ورفعناه مكاناً علياً ". والتقي في السماء الخامسة بسيدنا هارون والكل استقبله بهذه الكلمات: أهلاً بالنبي الصالح، والأخ الصالح. وفي السماء السادسة التقي بسيدنا موسى عليه السلام وقال له: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح، وعندما تقدم الرسول إلي الأمام بكي سيدنا موسى فجاءه صوت يقول ما سبب بكائك يا موسى ؟ فقال موسى: يا رب لقد بعثت هذا الشاب من بعدى فإن أمته سيكون لها نصيب في الجنة أكثر من أمتي. ودخل الرسول صلى الله عليه وسلم السماء السابعة فاستقبله سيدنا إبراهيم بقوله: أهلاً بالنبي الصالح والابن الصالح. فقال جبريل للرسول: هذا أبوك إبراهيم، وكان سيدنا إبراهيم جالساً وظهره مستند علي البيت المعمور الذي يدخله سبعون ألفاً من الملائكة كل يوم، وتجول الرسول صلى الله عليه وسلم في الجنة حيث كانت قبتها من اللؤلؤ وترابها من المسك. ([1]) فوصل الرسول صلى الله عليه وسلم إلي المكان الذي يسمع فيه صوت قلم القدرة حتى وصل إلي سدرة المنتهي وكانت هذه الشجرة تنعكس فيه القدرة الإلهية، وكل من استظل بها تغيرت وتبدلت هيئته، ويطرأ عليه جمال لا يمكن التعبير عنه، وتتجلى عليه الأنوار التي لا يمكن وصفها ذلك المكان التي تهبط فيه الأشياء إلي الأرض وتصعد الأشياء من الأرض إلي أعلي، وهو المكان الذي ظهر فيه جبريل عليه السلام بصورته

---

[1] ـ ومن الكتب التي نقلت العديد من الروايات غير الموثقة لبعض مناظر ومشاهد الجنة والنار، كما أنها مليئة بتفاصيل عجيبة عن أحاديث الأنبياء مع الملائكة مثل: كتاب ابن أبي حاتم في تفسيره، وابن جرير الطبري في تفسير سورة الإسراء. وكذلك البيهقي في دلائل النبوة، وممن نقلوا هذه الروايات نجد أبا هارون العبدى، أبا جعفر الرازي وخالد بن يزيد، فأبو هارون العبدي وخالد بن اليزيد من الكذابين المشهورين، ولكن البعض اعتبر أبا جعفر الرازي من الثقاة، ولكن الغالبية تعده من الرواة ضعاف الثقة، ولم يقبلوا منه أي رواية رواها وحده، وفي رواياته الكثير من اللغو والمنكر التي لم يسلم بها أهل الحديث، علاوة علي ذلك فإن المشاهد التي جاءت في صحيح البخاري وتحت باب الرؤيا فقد شاهدها الرسول صلى الله عليه وسلم في وقت آخر غير المعراج وليست من شاهد حادثة المعراج.

الحقيقية. وهناك انكشف الحجاب الرباني وخلي الحبيب بحبيبه، ومنحت رسائل الإعـزاز والإكرام التي لا يمكن أن تتحمل وصفها الألفاظ " فأوحي إلي عبده ما أوحـي ". ولقـد أعطي الرسول صلى الله عليه وسلم ثلاثة أشياء: آخر آيتين من سورة البقرة والتي جـاء فيها إتمام عقائد الإسلام، والبشري بانتهاء عهد الآلام، كما بُشر بأن من لم يشرك بالله شيئاً من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فسينال المغفرة، وجاء نداء فرض خمسين صلاة، فأخذ الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الهبات الربانية وعاد حتى وصل إلي سيدنا موسى عليه السلام، فسأله موسى ما هي الأوامر التي حملتها من الذات الإلهية ؟ فقال الرسول صـلى الله عليه وسلم: خمسين صلاة. فقال له موسى: لقد جربت بني إسرائيل جيداً ولن تستطيع أمتك حمل هذا العبء ارجع إلي ربك. فذهب الرسول صلى الله عليه وسلم وقال: يَا رَبِّ خَفِّفْ عَلَى أُمَّتِي.. فجاء الحكم الإلهي بتخفيف عشر صلوات، فرجع إلي موسى، فطلـب منه موسى العودة مرة أخرى لطلب التخفيف، فعاد الرسول صلى الله عليه وسلم فخفـف الله عنه عشر صلوات، وهكذا عاد إلي البلاط الرباني بناءاً علي نصيحة سـيدنا موسـى حتى وصل عدد الصلوات في اليوم والليلة إلي خمس صلوات، ثم طلب منه سيدنا موسى أن يسأل ربه التخفيف مرة أخرى. فقال له الرسول: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْـتَحْيَيْتُ مِنْهُ». فجاء نداء الحق يا محمد " لن تجد لسنة الله تبديلا "، فالصلوات ستكون خمساً فـي العدد وخمسين في الأجر، فلقد خففت علي عبادي ونفذت أمري. ثم هبط الرسول صـلى الله عليه وسلم من السماء إلي الأرض ودخل بيت المقدس فرأي هناك جمعاً من الأنبياء، فكان سيدنا موسى وسيدنا إبراهيم عليهما السـلام مشغولين بالصلاة، وقد بين الرسـول صلى الله عليه وسلم ملامح بعض الأنبياء فقال: فَإِذَا مُوسَىٰ قَائِمٌ يُصَلِّي. فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ. وَإِذَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي. أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَها عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ. وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي. أَشْـبَهُ النَّـاسِ بِـهِ صَاحِبُكُمْ يَعْنِي نَفْسَهُ فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ. [1] وعندما فرغ الرسول صـلى الله عليـه

---

[1] ـ بعض الروايات في مسند أحمد وسيرة ابن إسحاق، ولا يوجد ذكر لهذا في صـحيح البخـاري ولا توجد إشارة للوقت في صحيح مسلم، ولكن تفهم من القرينة أن هذه الحادثة تمت بعد الرجوع من السماء، وقد كتب الحافظ ابن كثير تفسير سورة الإسراء عن صحة هذه الرواية، وقد قمنا نحن باتباعـه، وروي عن سيدنا حذيفة في مسند بن حنبل والترمذي في تفسير سورة الإسراء بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يصل في المسجد الأقصى في البداية، ولكن من يسلم بكلامه هذا مقارنة بصحيح مسلم. وهـذا نـص

وسلم من الصلاة جاء النداء: يا محمد لقد حضر حارس النار، فسلم عليه، فالتفت الرسو[1] وراءه فحياه حارس النار. وقد روي عن ابن عباس في البخاري أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأي في ليلة المعراج الدجال (باب بدء الخلق)، وبعد أن قطع الرسول كل هذه المراحل استيقظ صباحاً في المسجد الحرام. (1)

تكذيب الكفار:

كان رؤساء قريش يجتمعون بالقرب من الكعبة، وكان الرسول صلى الله عليه وسلم موجوداً في مقام الحجر، فلما استيقظ الرسول صلى الله عليه وسلم صباحاً أبلغهم بهذه الواقعة فتعجبوا كثيراً، فالجهلاء منهم - نعوذ بالله - كذبوه والبعض الآخر سأله أسئلة مختلفة و، كان أكثر هؤلاء من تجار الشام الذين شاهدوا بيت المقدس أكثر من مرة، وكانوا علي علم بأن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يذهب إلي بيت المقدس، ولهذا في النهاية طلب منه الجميع آخر دليل بأن يصف لهم بيت المقدس الذي ذهب إليه في ليلة واحدة من الكعبة. فأخبر الرسول بأنه لا يوجد في ذهنه ﷺ تصوير لمبني بيت المقدس، واضطرب كثيراً، وفجأة مُثّل أمامه بيت المقدس. فكان الكفار يسألونه وهو يجيب عليهم صلى الله عليه وسلم. لقد جاء ذكر هذه الحادثة في الصحيحين، إلا أن الواقدي، وابن إسحاق، وابن جرير الطبري، وابن أبي حاتم، والبيهقي والحاكم وهم الذين لا نجد مكانتهم في كتب الرواية علي المستوي المطلوب. فقد أضافوا حواشي عجيبة وغريبة علي هذه الحادثة. وقد روي عن أم هانئ رضي الله عنها أن الرسول صلى الله عليه وسلم عندما

الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٣٨٤) وحدثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا حُجَيْنُ بْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْعَزِيزِ وَهُوَ ابْنُ أَبِي سَلَمَةَ، عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الْفَضْلِ عَنْ أَبِي سَلَمَةَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَنِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «لَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي الْحِجْرِ. وَقُرَيْشٌ تَسْأَلُنِي عَنْ مَسْرَايَ، فَسَأَلَتْنِي عَنْ أَشْيَاءَ مِنْ بَيْتِ الْمَقْدِسِ لَمْ أُثْبِتْهَا، فَكُرِبْتُ كُرْبَةً مَا كُرِبْتُ مِثْلَهُ قَطُّ. قَالَ: فَرَفَعَهُ الله لِي أَنْظُرُ إِلَيْهِ. مَا يَسْأَلُونِي عَنْ شَيْءٍ إِلاَّ أَنْبَأْتُهُمْ بِهِ، وَقَدْ رَأَيْتُنِي فِي جَمَاعَةٍ مِنَ الأَنْبِيَاءِ. فَإِذَا مُوسَىٰ قَائِمٌ يُصَلِّي. فَإِذَا رَجُلٌ ضَرْبٌ جَعْدٌ كَأَنَّهُ مِنْ رِجَالِ شَنُوءَةَ. وَإِذَا عِيسَىٰ ابْنُ مَرْيَمَ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي. أَقْرَبُ النَّاسِ بِهِ شَبَهاً عُرْوَةُ بْنُ مَسْعُودٍ الثَّقَفِيُّ. وَإِذَا إِبْرَاهِيمُ عَلَيْهِ السَّلاَمُ قَائِمٌ يُصَلِّي. أَشْبَهُ النَّاسِ بِهِ صَاحِبُكُمْ يَعْنِي نَفْسَهُ فَحَانَتِ الصَّلاَةُ فَأَمَمْتُهُمْ. (يوسف عامر).

[1] ــ جاء ذكر كل هذه الأحداث في صحيح البخاري في كتاب الصلاة والتوحيد والأنبياء والمعراج وباب صفة النبي صلى الله عليه وسلم وباب بدء الخلق. كما ورد في صحيح مسلم في باب المعراج وفي أبواب متفرقة تتعلق بالمعراج وكل ما فعلناه هو أننا قمنا بترتيب هذه الأحداث وترجمتها فقط.

استيقظ وذكر هذه الواقعة لأهل بيته أراد الخروج حتى يبين هذه الحادثة للآخرين فأمسكت به وقلت له: إن الكفار سيكذبونك، وفي رواية أخرى أنه عندما لم يره أعزاؤه علي السرير بالليل خافوا من أن تكون قريش قد فعلت شيئاً بالرسول صلى الله عليه وسلم، وبدأوا يبحثون عنه في الجبال والمغارات. وهناك رواية أخرى أنه عندما عاد من المعراج التقي الرسول بقافلة تجارية لقريش، وكان قد حدثت مع هذه القافلة بعض الأحداث، فلما كذبه الكفار أخبرهم بأن قافلتهم ستأتي بعد غد. فاسألوها، ولما حضرت القافلة صدق رجالها ما قاله الرسول صلى الله عليه وسلم، وهناك جزء من هذه الروايات يقول: إن بعض الكفار هرولوا حتى وصلوا إلي أبي بكر الصديق، وقالوا له: إن محمداً جالس في الكعبة يقول للناس إنه ذهب إلي بيت المقدس ورجع. فقال أبو بكر رضي الله عنه: لو كان قال هذا حقيقة لصدق فيما قال. فقال له الكفار: كيف تؤمن بما لا يصدقه العقل. فقال أبو بكر: لو كان أكثر من هذا لآمنت به، فأنا أؤمن بأن الملائكة تهبط عليه من السماء كل يوم، ومن هذا اليوم لقب أبو بكر رضي الله عنه بالصديق.

والحقيقة أن كل هذه الروايات باطلة، ولم يكتب ابن سعد و ابن إسحاق سند هذه الروايات، إلا أن ابن جرير الطبري، والبيهقي، وابن أبي حاتم، وأبا يعلّي، وابن عامر والحاكم ذكروا سند هذه الروايات. فكان سندهم الراوي أبا جعفر الرازي، أبا هارون العبدي و خالد بن يزيد بن أبي مالك ولانجد من بين هؤلاء إلا أبا جعفر الرازي من الثقات، إلا أنه في ذكر الأحاديث غير مبالٍ، أما الآخرين فهم يشتهرون بالكذب وافتراء القصص، والجزء الأخير من روايتهم الواهية تقول: أنه عندما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم حادثة المعراج ضعف إيمان الكثير من المسلمين وارتدوا عن الدين، وغالباً فإن التوضيح الخاطئ لهذه الآية في القرآن الكريم قد اُستغل في هذه القصة.

" وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس " (الإسراء: ٦٠)

وقد بين ابن سعد والواقدي هذه القصة بدون سند، أما الطبري وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم من الثقات والذين ذكرنا أوصافهم سابقاً فقد أسندوها، فابن جرير الطبري قد أدرج هذه الروايات تحت هذه الآية فقال: إن حادثة الردة قد رواها حسن وقتادة وابن زيد. ولم يذكر عنهم أكثر من هذا، وأكبر دليل علي رفض هذه الرواية عندنا هو أن من شرفوا بالإسلام في ذلك الوقت في مكة كانوا يعدون علي الأصابع وقلة قليلة، ونعرفهم اسماً اسماً، ولم تلحق الردة أي أحد منهم. ويمكن تصوير هذه الحادثة هكذا بأن

بعض الكفار لم يكونوا يخالفون الرسول صلى الله عليه وسلم بهذه الحدة، ورغم عدم إيمانهم بأنه رسول الله إلا أنهم لم يقولوا بأنه كاذب، ولكن بعد حادثة المعراج هذه شكوا في صدق الرسول. والقرآن نفسه يصدق هذا حيث قال: إن هذه الحادثة " فتنة للناس " ولم يقل " فتنة للمؤمنين أو المسلمين " ولو كانت فتنة لهم فأين يظهر من هذه الآية أنهم لم يصلوا إلي مستوي الفتنة.

هل رأي الرسول ربه في المعراج:

لقد شاهد الرسول صلى الله عليه وسلم سحر آيات الله وحلاوة صفاته في المعراج، ولكن هل تشرف الرسول صلى الله عليه وسلم برؤية الذات الإلهية. توجد بعض الروايات التي تؤكد ذلك، ولقد روي شريك بن عبد الله هذا عن سيدنا أنس رضي الله عنه وجاء في آخر روايته قوله: " حتى جاء سدرة المنتهي دنا الجبار رب العزة فتدلي حتى كان قاب قوسين أو أدني " (البخاري كتاب التوحيد). وقد اعترض أهل الحديث اعتراضاً شديداً علي هذا الجزء من رواية شريك، وأول من اتهمه بهذا هو الإمام مسلم حيث ترك في صحيحه تحت باب المعراج رواية شريك وكتب بعدها بأنه (قدّم فيه وأخر وزاد ونقص).

وقد كتب الإمام الخطابي أنه لا يوجد في صحيح البخاري أي حديث تم الاعتراض عليه أكثر من هذا الحديث، وبعدها كتب بعد أن أوّل وشرح الحديث يقول: " فإنه كثير التفرد بمناكير الألفاظ التي لا يتابعه عليها سائر الرواة ".

وقد نقل العديد من الصحابة حادثة المعراج عن سيدنا أنس رضي الله عنه إلا أن هذه الألفاظ التي رواها شريك لم يذكرها أحد غيره. وقد قال الإمام البيهقي أن هذا ما حققه الحافظ ابن كثير ([1])، ورأي قريب من هذا ما قاله ابن حزم ([2])، كما أن بعض علماء الرجال فيما يتعلق بشريك لم يكن رأيهم فيه حسناً، وقد قال النسائي وابن جارود بأن سنده (شريك) ليس قوياً، ويقول يحيي بن سعيد القطان بأن الحديث لا ينقل عنه، في حين شهد ابن سعد وأبو داوؤد بثقته، ولهذا كان قرار أهل الحديث فيما يتعلق به بأنه إذا

---

[1] ــ قول البيهقي وابن كثير تفسير سورة الإسراء.

[2] ــ أقوال الإمام الخطابي وابن حزم نقلها ابن حجر في فتح الباري ــ ج٣ ــــ ص ٤٠٣: ٤٠٤ ــــ مصر.

كن وحيداً في روايته فلا يعتد بها، ويعتبر كلامه شاذاً ومنكراً. وهكذا فيما يتعلق بالروايات حول هذه الفقرة " علمه شديد القوي. ذو مرة فاستوي. وهو بالأفق الأعلى. ثم دني فتدلي. فكان قاب قوسين أو أدني. فأوحي إلي عبده ما أوحي. ما كذب الفؤاد ما رأي. أفتمارونه علي ما يري. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهي. عندها جنة المأوي. إذ يغشي السدرة ما يغشي. ما زاغ البصر وما طغي. لقد رأي من آيات ربه الكبرى " (النجم: ٥ – ١٨)

وهذه الآيات التي اختلف الصحابة في تفسيرها، ورأي البعض أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأي الله بنفسه، وأكثر الصحابة يقولون بأنه كان ملكاً. وقد روي الترمذي في تفسير سورة النجم عن عبد الله بن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأي الله بنفسه عند سدرة المنتهي، وفي الترمذي أيضاً وفي موضع آخر أن عبد الله بن عباس التقي بكعب الأحبار فقال له كعب: إن الله تعالي قسم رؤيته ومشاهدته في كلامه بين موسى عليه السلام ومحمد صلى الله عليه وسلم. وهكذا تشرف موسى بمخاطبة الله مرتين، وتشرف الرسول صلى الله عليه وسلم برؤية الله مرتين. وقد نقل مسروق أحد تلامذة السيدة عائشة رضي الله عنها هذا الكلام عنه فغضبت كثيراً، ونفت هذا الاعتقاد بآيات من القرآن الكريم بقولها: إن الله تعالي بنفسه يقول: " لا تدركه الأبصار ". وكان عكرمة أحد تلامذة ابن عباس، وقد عرض هذه الآية أمام ابن عباس فقال ابن عباس أن هذا صحيح، ولكن عندما ظهر ربنا في نوره الحقيقي فرأي النبي ربه مرتين. ([1])، وهناك رواية عن سيدنا أبي ذر الغفـــاري في صحيح مسلم والترمذي أنه استفسر من الرسول صلى الله عليه وسلم هل رأيت الله نفسه يا رسول الله ؟ فقال الرسول صلى الله عليه وسلم: نُورٌ أَنَّي أَرَاهُ». وفي رواية أخرى أخبر بأنه ﷺ لم ير إلا نوراً. ([2])

وهذا هو رأي أكابر الصحابة مثل سيدنا أبي هريرة وسيدنا عبد الله بن مسعود والسيدة عائشة رضي الله عنهما في أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم ير الله، بل رأي جبريل، وهو الذي أوحي إليه. وهناك رواية في صحيح البخاري ومسلم والترمذي عن سيدنا عبد الله بن مسعود بأن الرسول صلى الله عليه وسلم رأي سيدنا جبريل في هذه

---

[1] ـــ كل هذه الروايات جاءت في الترمذي في تفسير سورة النجم، وقال عنه الترمذي إنه حسن صحيح.

[2] ـــ صحيح مسلم ـــ ج١ ـــ باب الإسراء، والترمذي تفسير سورة النجم.

الحالة التي كان له فيها ستمائة جناح، وهناك رواية مشابهة لهذه الرواية في صحيح مسلم عن سيدنا أبي هريرة، وهو ما تصر عليه السيدة عائشة رضي الله عنها في هذه المسألة. وفي صحيح البخاري وتحت باب كتاب التفسير، بأن سيدنا مسروق سأل السيدة عائشة ذات مرة: يا أُمَّتاهُ، هل رأى محمدٌ صلى الله عليه وسلم ربَّه؟ فقالت: لقد قفَّ شعري مما قلتَ، أينَ أنتَ من ثلاثٍ من حدَّثكهنَّ فقد كَذَب: من حدَّثَكَ أنَّ محمداً صلى الله عليه وسلم رأى ربَّه فقد كذَب، ثم قرأت

" لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار وهو اللطيف الخبير " (الأنعام: ١٠٣)

ثم قال: " وما كان لبشر أن يكلمه الله إلا وحياً أو من وراء حجاب " (الشورى: ٥١)

وقالت السيدة عائشة بعد أن قرأت هذه الآيات: ولكنَّه رأى جبريلَ عليه السلام في صُورتِهِ مرَّتين». وقال الإمام النووي شارح صحيح مسلم ([1]) أن قول السيدة عائشة رضي الله عنها ليس حجة، لأنها استدلت بآيات القرآن الكريم عن طريق العقل فقط، وأنها لم تبين أي رواية مرفوعة عن النبي صلى الله عليه وسلم يقول فيها أنه لم ير الله. ولكن في شرح صحيح مسلم أظهر الإمام النووي رأياً يقول فيه: أن هذا الموضع رواية عن سيدنا مسروق رضي الله عنه بأنه كان جالساً بالقرب من السيدة عائشة رضي الله عنها. فقالت: ثَلاَثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ. قُلْتُ مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّداً رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ. قَالَ وَكُنْتُ مُتَّكِئاً فَجَلَسْتُ. فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلاَ تَعْجَلِينِي. أَلَمْ يَقُلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ} (التكوير الآية: ٢٣) {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ}(النجم الآية: ١٣) فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هٰذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذٰلِكَ رَسُولَ اللّهِ. فَقَالَ: «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ. لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ. ([2])، فهل يوجد أكثر من هذا سند، وعلي العكس من هذا الذي روي عنه قوله أن

---

[1] ــ شرح صحيح مسلم النووي ـــ نو لكشور ــ ص ٩٧.

[2] – صحيح مسلم، ج١ ـــ ص ٨٤ ـــ مصر ــ باب ذكر سدرة المنتهي. وهذا نص الحديث كاملا: (٣٩٣) حدثني زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ دَاوُدَ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ، قَالَ: كُنْتُ مُتَّكِئاً عِنْدَ عَائِشَةَ. فَقَالَتْ: يَا أَبَا عَائِشَةَ! ثَلاَثٌ مَنْ تَكَلَّمَ بِوَاحِدَةٍ مِنْهُنَّ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ. قُلْتُ مَا هُنَّ؟ قَالَتْ: مَنْ زَعَمَ أَنَّ مُحَمَّداً رَأَى رَبَّهُ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ. قَالَ وَكُنْتُ مُتَّكِئاً فَجَلَسْتُ. فَقُلْتُ: يَا أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ أَنْظِرِينِي وَلاَ تَعْجَلِينِي. أَلَمْ يَقُلِ الله عَزَّ وَجَلَّ: {وَلَقَدْ رَآهُ بِالأُفُقِ الْمُبِينِ} (التكوير الآية: ٢٣) {وَلَقَدْ رَآهُ نَزْلَةً أُخْرَىٰ}(النجم الآية: ١٣) فَقَالَتْ: أَنَا أَوَّلُ هٰذِهِ الأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذٰلِكَ رَسُولَ اللّهِ. فَقَالَ: «إِنَّمَا

الرسول صلى الله عليه وسلم رأي الله لم يصرح إطلاقاً في روايته بأنه سمع هذا من رسول الله صلى الله عليه وسلم. وقد كتب الحافظ بن كثير: لا يوجد من الصحابة من خالف تفسير السيدة عائشة وعبد الله بن مسعود (تفسير سورة الإسراء)، بل إن الأصل كما يقول ابن حجر في هذا هو خلط وعدم فهم بعض الرواة في شرح رواية سيدنا ابن عباس، ولم يكن توضيح سيدنا ابن عباس أن الرسول صلى الله عليه وسلم رأي الله بعينيه الظاهرتين، بل كان قصده أنه رأي الله بنور قلبه. (صحيح مسلم ــ حواشي الإسراء)، وهذه هي ألفاظه وفي جامع الترمذي في تفسير سورة النجم " رأي بقلبه بفؤاده ". وقد نقل المردوية ألفاظاً أكثر من هذا: " لم يره الرسول صلى الله عليه وسلم بعينه إنما رآه بقلبه " (فتح الباري ــ ج٨ــ ص ٤٦٨). وبعد هذا الشرح لم يبق أي خلاف في هذا الأمر. ويبقي السؤال: ما هي مشاهدة ورؤية القلب ؟ ويفهم هذا الرمز من في قلبه نور البصيرة وقوة المشاهدة.

هل كان المعراج بالجسد أم بالروح أو في الحلم أو في اليقظة:

لقد أسهب أهل الكلام وشارحو الحديث في هذا الموضوع والصورة الصحيحة لهذا الحكم، بغض النظر عن وسوسة أفكار الجمهور والمستحيلات العقلية والفلسفية واعتراضات المتكلمين، ويجب أن نركز علي أصل الروايات الصحيحة وأول شيء في هذا الأمر ينسب إلي الآية التي وردت في سورة الإسراء " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس " (الإسراء: ٦٠)

وروي عن ابن عباس في البخاري أن كلمة الرؤيا في العربية تعني المشاهدة، ولكن في السياق العام تعني الحلم ولهذا من يقولون بأن المعراج حلم يدللون بهذه الآية،

هُوَ جِبْرِيلُ. لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ. رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطاً مِنَ السَّماءِ. سَاداً عِظَمُ خلقه مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الأَرْضِ» فَقَالَتْ: أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أن الله يَقُولُ: {لاَ تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ} (الأنعام آية: ١٠٣) أَوَ لَمْ تَسْمَعْ أَنَّ الله يَقُولُ: {وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ الله إِلاَّ وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولاً فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلِيٌّ حَكِيمٌ} (الشورى الآية: ٥١) قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ كَتَمَ شَيْئاً مِنْ كِتَابِ الله فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ. وَالله يَقُولُ: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ} (المائدة الآية: ٦٧) قَالَتْ: وَمَنْ زَعَمَ أَنَّهُ يُخْبِرُ بِمَا يَكُونُ فِي غَدٍ فَقَدْ أَعْظَمَ عَلَى الله الْفِرْيَةَ. وَالله يَقُولُ: {قُلْ لاَ يَعْلَمُ مَنْ فِي السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ الْغَيْبَ إِلاَّ الله} (النمل الآية: ٦٥). (يوسف عامر).

ولكن تصريح ابن عباس فيما يتعلق بهذه الرواية في صحيح البخاري أن الرؤيا التي في هذه الآية تعني المشاهدة العينية، والتي يتضح منها أن المعراج لم يكن حلماً بل كان رؤيا بالعين، وألفاظ هذه الرواية كالتالي: " عن ابن عباس في قوله " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس " قال هي رؤيا عين أريها الرسول صلى الله عليه وسلم لما أُسري به إلي بيت المقدس. " (البخاري، باب الإسراء).

وقد دارت مناقشات حول أن كلمة " الرؤيا " لغوياً لا تعني الرؤيا العينية، ولكن لنتدبر هل كان أحد أعلم من ابن عباس باللغة العربية، فطالما أنه قال إنها رؤية عينية فمن يستطيع إنكار هذا. علاوة علي هذا فإن الراعي والمتنبي وبعض شعراء العرب قد عبروا عن العين الظاهرة بكلمة الرؤيا.

فيقول الراعي: فكبر للرؤيا وهش فؤاده.

ويقول المتنبي: ورؤياك أحلي في الصيون من الغمض.

والأحداث التي وردت في صحيح البخاري ومسلم ومسند ابن حنبل وغيره من كتب الحديث المعتمدة فيما يتعلق بحادثة المعراج لو وضعناها أمام أعيننا لوجدنا أنها تؤكد أمراً واحداً، وهو ما عدا الروايتين اللتين وردتا في الصحيحين لا يوجد ذكر مطلقاً لكلمة حلم في باقي الروايتين الأخيرتين. وهكذا فإن رواية سيدنا أبي ذر التي هي أصح الروايات قد وردت في صحيح البخاري ومسلم ومسند ابن حنبل، ورواية سيدنا أنس رضي الله عنه التي جاءت عن طريق ثابت النباني كلها تخلو من كلمة حلم، ولهذا فإنه حسب المصطلح العام يجب أن نفهمها علي أنها اليقظة، ولكن رواية سيدنا أنس رضي الله عنه، والتي جاءت عن طريق شريك، تقول أن هذه الحادثة هي حلم عين ويقظة قلب. وفي البخاري تحت كتاب التوحيد وباب صفة النبي ورد في موضعين: " سمعت أنس ابن مالك يقول: ليلة أسري برسول الله صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة أن جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحي إليه وهو نائم في المسجد الحرام. فقال أولهم: أيهم هو. فقال أوسطهم هو خيرهم اخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك الليلة فلم يرهم حتى أتوه ليلة أخرى فيما يري

٣

قلبه وتنام عينه ولا ينام قلبـــه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم. " (كتاب التوحيد) ([1])

" سمعت أنس بن مالك يحدثنا عن ليلة أسري بالنبي صلى الله عليه وسلم من مسجد الكعبة جاءه ثلاثة نفر قبل أن يوحي إليه وهو نائم في المسجد الحرام فقال أولهم: أيهم هو. فقال أوسطهم هو خيرهم. قال آخرهم خذوا خيرهم فكانت تلك فلم يرهم حتى جاءوا ليلة أخرى فيما يري قلبه والرسول صلى الله عليه وسلم نائمة عينه ولا ينام قلبه وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبهم فتولاه جبريل ثم عرج إلى السماء "

وقد كتب البخاري هذا الحديث بهذه العبارة، إلا أنه في كتاب التوحيد وتحت رواية جميع أحداث المعراج روي هذه الفقرة الثانية من رواية سيدنا أنس رضي الله عنه " فاستيقظ وهو في المسجد الحرام ". أما هذه الرواية فإنها مختصرة جداً في صحيح مسلم. وبعد ذكر السند ذكر فقط أنه كان نائماً في المسجد الحرام، وبعدها كتب أن شريك قدم وأخر وحذف وأضاف في هذه الرواية، وهناك أوهام كثيرة حول هذه الرواية ولهذا فقد كتب أئمة كبار مثل القاضي عياض في الشفاء والإمام النووي في شرح مسلم أن هناك أوهاماً كثيرة في رواية شريك، ولهذا أنكروها. والرواية الثانية في الصحيحين تقول: إن سيدنا مالك بن صعصعة الأنصاري سمع الرسول صلى الله عليه وسلم يكرر أحداث المعراج فيقول: " بينا أنا عند البيت بين النائم واليقظان " ([2])

وفي صحيح البخاري باب المعراج يقول سيدنا مالك بن صعصعة في مسند ابن حنبل أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال: " بينما أنا في الحطيم مضطجعاً ". ولكن هذا بيان كيفية بداية ليلة المعراج في أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان مستريحاً، وهناك رواية في دلائل البيهقي والتي رويت عن سيدنا أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بأنه ﷺ كان نائماً في الكعبة وقت العشاء فجاء قادم (جبريل عليه السلام) وأيقظه ﷺ، وبعدها جاءت تفصيلات حادثة المعراج وفيها تصريح

---

[1] ـــ هناك فرق كبير بين تلك الليلتين حوالي ١٢عام. فالأولي وقعت عند بداية الوحي، والثانيـــة ليلـــة المعراج، والنبوة حدثت وهو في الثانية عشر

[2] ـــ صحيح البخاري باب ذكر الملائكة، وصحيح مسلم باب الإسراء.

بالإيقاظ بعد النوم، إلا أن الراوي الثاني لهذه الحادثة كذاب ولا يعتد بروايته. ([1]). والغرائب والمنكرات التي وردت في روايته كلها لغو وبهتان، وهناك ذكر لرواية مثل هذه عن الحسن البصري. وهناك روايتان للسيدة عائشة رضي الله عنها وسيدنا معاوية عن محمد بن إسحاق في تفسير ابن جرير الطبري وسيرة ابن هشام والتي قالوا فيها: إن المعراج روحاني ورؤيا صادقة.

" عن محمد بن إسحاق قال: حدثني يعقوب بن عتبة بن المغيرة أن معاوية بن أبي سفيان كان إذا سُئل عن مسرى الرسول صلى الله عليه وسلم قال: كانت رؤيا صادقة ". (ابن جرير تفسير سورة الإسراء وسيرة ابن إسحاق وذكر المعراج). إلا أن هذه الرواية منقطعة، حيث أن يعقوب لم يسمعها بنفسه من معاوية لأنه لم يعاصره. والرواية الثانية: " حدثنا ابن حميد قال: حدثنا سلمة عن محمد قال: حدثني بعض آل أبي بكر أن عائشة رضي الله عنها كانت تقول: ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أسري بروحه "

وفيما يتعلق بهذه الرواية فهناك راو مفقود، أي اسم شخص من آل أبي بكر، بين رواية السيدة عائشة ورواية محمد بن إسحاق، لهذا فهذه الرواية تخلو من الصحة، إلا أنه يتضح من هذه الروايات بأن حادثة المعراج كان بعض الناس في القرن الأول يقولون عليها بأنها رؤيا أو روحانية. وفي ابن إسحاق ذكر الإمام حسن البصري بأنها رؤيا ولم ينفِ هذا، ولكن مذهب الجماعة بأن المعراج كان بالجسد وفي حالة اليقظة. وقد كتب القاضي عياض في الشفا، والإمام النووي في شرح مسلم: " اختلفت الناس في الإسراء برسول الله صلى الله عليه وسلم فقيل إنما كان جميع ذلك في المنام والحق الذي عليه أكثر الناس وعامة المتأخرين من الفقهاء وأهل الحديث والمتكلمين أنه أسري بجسده صلى الله عليه وسلم والآثار تدل عليه لمن طالعها وبحث عنها، ولا يعدل عن ظاهرها إلا بدليل، والاستحالة في حملنا عليه فتحتاج إلي تأويل " (شرح مسلم، باب الإسراء)

ومن بين المفسرين: ابن جرير الطبري وحتى الإمام الرازي أقام جميعهم أربعة أدلة عقلية بناءاً علي مسلك الجمهور وهي كالتالي: ـــ

---

[1] ــ قد نقلها الحافظ بن كثير في تفسير سورة الإسراء ـــ ص١٩ ـــ وسلسلة الراوي الثاني وهو أبو هارون العبدي. وقد أعده رجال علم الكلام بالإجماع أنه ساقط الاعتبار، وقالوا بأنه أكذبَ من فرعون.

١_ إن في القرآن الكريم قوله " سبحان الذي أسري بعبده ليلاً "، ويثبت منها أن الله أسري بعبده. وكلمة عبد تطلق علي الجسم والروح، فلا يقال علي الروح وحدها عبد أو علي الجسم وحده عبد.

٢_ ذكر في أحداث المعراج أن سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم امتطي البراق، وشرب كأساً من اللبن، والامتطاء وشرب اللبن من خصائص الجسم ؛ ولهذا فإن المعراج كان بالجسد.

٣_ لو أن حادثة المعراج مجرد رؤيا فلماذا يكذبه الكفار. فالإنسان قد يري أشياء كثيرة في المنام الله أعلم بها. فقد يري الإنسان الأشياء التي يستحيل رؤيتها.

٤_ قيل في القرآن الكريم " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس " (الإسراء ٦٠)، فلو أن هذا المعراج رؤيا عامة فلماذا تكون فتنة للناس والإيمان بها أمر عسير.

الاستدلال الصحيح علي أن المعراج كان في حالة اليقظة:

فالطريقة الصحيحة الواضحة عندي لإثبات أن المعراج كان في حالة اليقظة هو: الأساس الفطري للحديث وطالما أن المتحدث لم يُظهر في حديثه بأن هذا كان رؤيا فيُفهم منه مباشرة أن هذا حدث في اليقظة. وآيات القرآن الكريم تؤكد هذا، فلم يُرد في قوله " سبحان الذي أسري بعبده ليلاً " أن هذا كان في الرؤيا، وهكذا الرواية الصحيحة عن سيدنا أبي ذر لم يُرد فيها أي ذكر عن أنها كانت في عالم الرؤيا ؛ ولهذا نعتبر أن هذا تم في حالة اليقظة وهذا هو إيمان جمهور الأمة بأنها رحلة جسدية. ولا يوجد ذكر في الأحاديث الصحيحة عن الرؤيا، ولهذا فإن الفهم العام لأسلوب اللغة يؤكد أنها حادثة تمت في حالة اليقظة.

هدف من أدعياء الرؤية ليس المقصود منه الرؤيا العامة:

إن من يقول أنها رؤية ليس المقصود منها الرؤيا العامة التي قد يراها أي شخص كل يوم، فيقولون أن الناس لم يدركوا حقيقة رؤيا الأنبياء عليهم السلام، وقد فهموا خطأً أن رؤيا الأنبياء تشبه رؤيا كل إنسان عادي، مع أنه في الحقيقة لا يوجد إلا الاشتراك اللفظي " الرؤيا "، مع أن حقيقتها مختلفة تماماً، ففي رؤيا الأنبياء تكون العيون مغلقة والقلب يقظ، فهل هذه سمات الرؤيا العادية ؟. فهذه حالة تشبه الرؤيا في الظاهر، ولكن الحقيقة أنها يقظة كاملة، بل أنها فوق عالم اليقظة. والتشابه الوحيد بين الرؤيا العامة

ورؤيا الأنبياء هو أن: في الرؤيا العامة تغافل عن الحواس المادية، في حين أنها في الثانية تعطل كل الحواس الظاهرية، وفي الرؤيا العامة ليس هناك دخل لعالم الروح وعالم الملكوت. بينما في الثانية يقظة كاملة، ومشاهدة حقيقية، والسير في السماوات، ولقاء بالأرواح وعالم الحق وكل هذه الأشياء. ولهذا فإن من عبر عنه بكلمة "المنام " أو " الرؤيا " فقد استخدمها في الحقيقة عن طريق المجاز والاستعارة، والهدف الحقيقي من هذا الحالة الروحية والملكوتية، ولهذا السبب، ففي ضوء القوانين الطبيعية للحواس الظاهرة يبدو هذا شيئاً مستحيلاً، في حين أنها في العالم الآخر ليست مستحيلة.

تأويل الرؤيا الصادقة:

علي كل حال فإن من يقول عنها إنها رؤية صادقة فإن الأمر قد التبس عليه من بعض الأحاديث المروية والتي مر ذكرها سابقاً وفيها رواية شريك ذات السند الذي اعترض عليه معظم أهل الحديث ؛ ولهذا أنكروها، في حين أن الإمام الخطابي صاحب السنن ناقش رواية شريك بقوله: " وأما من اعتبر أول الحديث بآخره فإنه يزول عنه الإشكال، فإنه مصرح فيهما بأنه كان رؤيا لقوله في أوله "وهو نائم " وفي آخره "استيقظ "، وبعض الرؤيا مثل يضرب ليتأول علي الوجه الذي يجب أن يصرف إليه معني التعبير في مثله، وبعض الرؤيا لا يحتاج إلي ذلك بل يأتي كالمشاهدة. " (فتح الباري _ ج١٣ _ص ٤٠٢)

الهدف الروحي من الرؤيا:

ولكن العارفين بالأسرار لا يقولون بأنها رؤية عامة يراها كل إنسان تقريباً، بل إن قصور فهم الإنسان أطلق علي هذه الحالة رؤيا، لأن الإنسان مركب من الروح والجسد، وهذه الروح التي ترتبط بالجسد فإن علاقتها به مؤقتة ؛ ولهذا حالت بينه وبين عالم الأنوار. وبالقدر الذي تتخلى فيه عن هذه العلاقة بنفس القدر يرفع الحجاب. وعندما يكون الإنسان في حالة اليقظة فإن مشاغل الحواس الظاهرة تبعد وتمنع الروح من مشاهدة الباطن، وفي حالة النوم عندما تجد فرصة أو حرية من هذه المشاغل الظاهرية يبدو لها العالم المليء بالأشياء المختلفة، وكل هذا التطور والتنزل يتوقف علي مقدرة القوي الروحية والباطنية للإنسان. وسيأتي يوم ويموت فيه الإنسان، بمعني أن تنقطع علاقة الروح بالجسد، ولكن هناك نوع من البشر طائر روحه بفضل الله وكرمه يترك القفص

الجسدي لمدة وجيزة، ويطير إلي عالم الملكوت، ثم يعود مرة أخرى إلي هذا القفص، وهذه هي الحالة التي حددتها لغتنا الناقصة وعبرت عنها مجازاً بالرؤيا الصادقة أو رؤيا النبوة، وعبرت عن هذا العالم بعالم الرؤيا، ومن الممكن أن يكون هذا هو الذي عبر عنه القرآن الكريم بقوله: " وما جعلنا الرؤيا التي أريناك "، وهذه هي الدنيا التي تنام فيها العيون وتستيقظ القلوب. وهذا ما أشارت إليه الأحاديث والرواية المنسوبة للسيدة عائشة رضي الله عنها في ابن هشام " ما فقد جسد رسول الله صلى الله عليه وسلم ولكن أسري بروحه ". وهذا ما وضحه الحافظ بن القيم في " زاد الميعاد ": ـ ([1])

" وقد نقل ابن إسحاق عن عائشة ومعاوية أنهما قالا إنما كان الإسراء بروحه ولم يفقد جسده، ونقل عن الحسن البصري نحو ذلك ولكن ينبغي أن يعلم الفرق بين أن يقال كان الإسراء مناماً وبين أن يقال كان بروحه دون جسده، وبينهما فرق عظيم. وعائشة ومعاوية لم يقولا كان مناماً وإنما قالا أسري بروحه ولم يفقد جسده، وفرق بين الأمرين فإن ما يراه النائم قد يكون أمثالاً مضروبة للمعلوم في الصور المحسوسة فيري كأنه قد عرج به إلي السماء أو ذهب به إلي مكة وأقطار الأرض وروحه لم تصعد ولم تذهب وإنما ملك الرؤيا ضرب له المثال، والذين قالوا عرج برسول الله صلى الله عليه وسلم طائفتان: طائفة قالت عرج بروحه وبدنه، وطائفة قالت عرج بروحه ولم يفقد بدنه. وهؤلاء لم يريدوا أن المعراج كان مناماً وإنما أرادوا أن الروح ذاتها أسري بها وعرج بها حقيقة وباشرت من جنس ما تباشر بعد المفارقة وكان حالها في ذلك كحالها بعد المفارقة في صعودها إلي السماوات سماء حتى ينتهي بها ‘إلي السماء السابعة فتقف بين يدي الله عز وجل فيأمر فيها بما شاء ثم تنزل الأرض. فالذي كان لرسول صلى الله عليه وسلم ليلة الإسراء أكمل مما يحصل للروح عند المغارقة، ومعلوم أن هذا أمر فوق ما يراه النائم لكن لما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في مقام خرق العوائد حتى شق بطنه وهو حي لا يتألم بذلك عرج بذات روحه المقدسة في غير إماتة ومن سواه لا ينال بذات روحه الصعود إلي السماء إلا بعد الموت والمفارقة، فالأنبياء إنما استقرت أرواحهم هناك بعد مفارقة الأبدان، وروح رسول الله صلى الله عليه وسلم صعدت إلي هناك في حال الحياة ثم عادت، وبعد وفاته استقرت في الرفيق الأعلى مع أرواح الأنبياء. ومع هذا

[1]ــ الطبعة الأولي ــ ص ٣٠٤ ــ مصر.

فلها أشراف علي البدن وإشراق وتعلق به بحيث يرد السلام علي من سلم عليه، وبهذا التعلق رأي موسى قائماً يصلي في قبره، ورآه في السماء السادسة ومعلوم أنه لم يعرج بموسى من قبره ثم ردّ إليه وإنما ذلك مقام روحه واستقرارها وقبره مقام بدنه واستقراره إلي يوم معاد الأرواح إلي أجسادها فرأي يصلي في قبره في السماء السادسة كما أنه صلى الله عليه وسلم في أرفع مكان في الرفيق الأعلى مستقراً هناك وبدنه في ضريحه غير مفقود وإذ سلم عليه المسلم ردّ الله عليه روحه حتى يرد عليه السلام ولم يفارق الملأ الأعلى ومن كثف إدراكه وغلظت طباعه عن إدراك هذا فلينظر إلي الشمس في علو محلها وتعلقها وتأثيرها في الأرض وحياة النبات والحيوان بها هذا وشأن الأرواح فوق هذا فلها شأن وللأبدان شأن وهذه النار تكون في محلها وحوارقها تؤثر في الجسم البعيد عنها مع أن الارتباط والتعلق الذي بين الروح والبدن أقوي وأكمل من ذلك وأتم فشأن الروح أعلى من ذلك وألطف. "

فقل للعيون الرمد إياك أن تري سنا الشمس فاستغشى ظلام اللياليا

لقد شرح أهل التصوف حادثة المعراج طبقاً لطبيعتهم ومزاجهم وهناك شخص واحد علي الأقل من علماء الإسلام الصوفية وهو " شاه ولي الله الدهلوي " المحدث والعارف بعلم الكلام يؤمن بالعالم الثالث أي "عالم البرزخ " بين عالم الأرواح وعالم الأبدان مثله في ذلك مثل أهل الباطن، وحيثما تطرأ خواص الروح علي البدن وتظهر الروح طبقاً لخصائصها في شكل جسماني، فهنا يري شاه ولي الله أن المعراج كان في اليقظة وبالجسد، ولكنه كان سيراً في عالم البرزخ حيث طرأ علي جسمه صلى الله عليه وسلم خواص الروح، وجعله يشاهد الأحداث والمعاني في صورها المختلفة. وبما أن شرح ووصف هذا العالم الذي لم نشاهده صعب علي من لم يراه، لهذا سننقل شرح شاه ولي الله عن حقيقة المعراج في كتابه " حجة الله البالغة ": ـــ

" وأسري به إلي المسجد الأقصى ثم إلي السدرة المنتهي وإلي ما شاء الله وكل ذلك بجسده صلى الله عليه وسلم في اليقظة، ولكن ذلك في موطن هو برزخ بين المثال والشهادة جامع لأحكامها فظهر علي الجسد أحكام الروح وتمثل الروح والمعاني الروحية أجساداً ولذلك بأن لكل واقعة من تلك الوقائع تعبير، وقد ظهر لحز قيل وموسى وغيرهما عليهم السلام نحو من تلك الوقائع وكذلك الأولياء الأمة ليكون علو درجاتهم عند الله كحالهم في الرؤيا. " (والله أعلم)

وبعدها فسر شاه ولي الله مشاهدات المعراج كل علي حدة، والأحاديث الصحيحة والروايات المعتمدة التي روت حادثة أن النبي صلى الله عليه وسلم قُدم له إناء من لبن وإناء من خمر فلم يرفع الرسول صلى الله عليه وسلم إلا إناء اللبن فقال له الملك: إنك هُديت إلي الفطرة، فلو أنك أمسكت إناء الخمر فإن جميع أمتك ستكون من الضالين. وكان اللبن في عالم التمثيل هذا يدل علي الفطرة، والخمر علي الضلال. وقد ذكر شاه ولي الله حادثة عالم البرزخ بعد أن بيّن أحداث المعراج كلها ويقول: ـــ

" أما شق الصدر وملؤه إيماناً فحقيقة غلبة أنوار المليكة وانطفأت لهيب الطبيعة وخضوعها لما يفيض عليها من حظيرة القدس، وأما ركوبه علي البراق فحقيقة استواء نفسه النطقية علي نسمته التي هي لكمال الحيواني فاستوي راكباً علي البراق كما غلبت أحكام نفسه النطقية علي البهيمة وتسلطت عليها وأما إسراءه إلي المسجد الأقصى فلأنه محل ظهور شعائر الله ومتعلق همم الملأ الأعلى ومطمح أنظار الأنبياء عليهم السلام فكأنه كرة إلي الملكوت وأما ملاقاته مع الأنبياء صلوات الله عليهم ومفاخرته معهم حقيقتها اجتماعهم من حيث ارتباطهم بحظيرة القدس وظهور وما اختص به من بينهم من وجوه الكمال وأما رقيه إلي السماوات سماء بعد سماء فحقيقة الانسلاخ إلي مستوي الرحمان منزلة بعد منزلة ومعرفة حال الملائكة الموكلة بها من لحق بهم من أفاضل البشر والتدبير الذي أوحاه الله فيها والاختصام الذي يحصل في ملئها. وأما بكاء موسى فليس بجسد ولكنه مثال لفقده عموم الدعوة وبقاء كمال لم يحصله مما هو في وجهه. وأما سدرة المنتهي فشجرة الكون وتربت بعضها علي بعض وانجماعها في تدبير واحد كانجماع الشجرة في الغاذية والنامية ونحوهما ولم يتمثل حيواناً لأن التدبير الجملي الإجمالي الشبيه بسياسة الأشياء به الشجرة دون الحيوان، فإن الحيوان فيه قوي تفصيلية والإرادة فيه أصرح من سنن الطبيعة. وأما الأنهار في أصلها فرحمة فائضة في الملكوت حذو الشهادة وحياة وإنماء فلذلك تعين هناك بعض الأمور النافعة في الشهادة كالنيل والفرات، وأما الأنوار التي عشيتها فتدليات إلهية وتدبيرات رحمانية تلعلعت في الشهادة حيثما استعدت لها. وأما البيت المعمور فحقيقة التجلي الإلهي الذي يتوجه إليه سجدات البشر وتضرعاتها يتمثل بيتاً علي حدو ما عندهم من الكعبة وبيت المقدس ثم أتي بإناء من اللبن وإناء من خمر فاختار اللبن. فقال جبريل هديت إلي الفطرة ولو أخذت الخمر لغوت أمتك. فكان هو صلى الله عليه وسلم جامع أمة ومنشأ ظهورهم وكأن اللبن اختيارهم لفطرة الخمر أخبارهم ذات

الدنيا وأمر بخمس صلوات بلسان التجوز لأنها خمسون باعتبار الثواب. ثم أوضح الله مراده تدريجاً ليعلم أن الحرج مدفوع وأن النعمة كاملة وتمثل هذا المعني مستنداً إلي موسى عليه السلام فإنه اكثر الأنبياء معالجة للأمة ومعرفة بسياستها. " (باب الإسراء)

وقد وضحنا نحن كل هذه الحقائق والمشاهدات طبقاً لما أخبرنا به أهل الحديث وأرباب الأحوال، وإلا فنحن أنفسنا نؤمن في هذا الباب بما قاله السلف الصالح في الرواية التي رويت عن ابن إسحاق كالتالي: ـ " وكان في مسراه وما ذكر منه بلاء وتمحيص وأمر من الله في قدرته وسلطان، فيه عبرة لأولي الألباب وهدي ورحمة وثبات لمن آمن بالله وصدق وكان من أمر الله علي يقين فأسري به كيف شاء وكما شاء ليريه من آيات ربه ما أراد حتى عاين ما عاين من أمره وسلطانه العظيم وقدرته التي يضع بها ما يريد. " (سيرت ابن هشام باب الإسراء)

القرآن الكريم والمعراج

" أسرار المعراج، الإعلان، الأحكام، البشري، الجوائز "

يعتقد بشكل عام أن بيان حادثة المعراج جاء في الإسراء في الثلاث أو الأربع آيات الأولي من سورة الإسراء. " سبحان الذي أسري بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير " (الإسراء: ١) إلا أنني قرأت هذه الســـورة أكثر من مرة، وتيقنت عقب كل قراءة أن هذه السورة مليئة بعبر وتعاليم وأسرار المعراج، وأول ما أريد أن أتحدث عنه هو العناوين البارزة لهذه السورة: ـــ

١ـ أن الرسول نبي القبلتين (يعني رسول كل من بيت المقدس والكعبة).

٢ـ أن اليهود والذين كانوا يعدون حتى ذلك الوقت الوارث الأصلي والحارس لبيت المقدس أن توليهم وحراستهم له قد انتهت طبقاً للوعد الإلهي، وأن نسل إسماعيل هم حراسه وحفظته إلي الأبد.

٣ـ أن زمن النصيحة والموعظة لكفار قريش قد وليّ، وأن ما تطلبونه من عذاب لإثبات الحق قد حدث بهجرة الرسول صلي الله عليه وسلم.

٤ـ وطبقاً لسنن الرسل فقد أذن للرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة، والتي حتماً سيأتي عذاب الله بعدها لمن كفر وعصي.

٥ـ أحكام وشرائع المعراج.

٦ـ فرض الخمس صلوات.

٧ـ إجابة الاعتراضات التي حدثت علي المعجزات والقيامة والقرآن والنبوة.

٨ـ أحوال سيدنا موسى والاستدلال بالأحداث عنها.

الرسول صلي الله عليه وسلم نبي القبلتين:

لقد منح الله نسل سيدنا إبراهيم مفتاح سعادة الدنيا، ووهبهم تولي رعاية الأراضي المقدسة والتي أري الله حدودها لسيدنا إبراهيم في المنام. ولكن ذكر معها في التوراة مرات عديدة أنه إذا لم يُطع نسل سيدنا إبراهيم حدود الله ويصدقوا أنبيائه فإنهم سيحرمون

من شرف هذا المنصب. وقد أعطي الله سيدنا إبراهيم ابنين هما سيدنا إسماعيل وسيدنا إسحاق. وقسم الأراضي المقدسة بينهما، بمعني أن أرض الشام لسيدنا إسحاق، وأرض العرب لسيدنا إسماعيل حيث يقع في أرض الشام بيت المقدس، وتقع الكعبة في أرض العرب، واشتهـر أولاد إسحاق ببني إسرائيل (وهذا لقب سيدنا يعقوب أحد أبناء سيدنا إسحاق) فولاهم بيت المقدس، وتولي بنو إسماعيل الكعبة. وقد ظهر من نسل سيدنا إبراهيم عليه السلام العديد من الرسل، والقدس هي قبلة بني لإسرائيل، والكعبة هي قبلة بني إسماعيل. وقد بُعث قبل الرسول صلى الله عليه وسلم العديد من الأنبياء في أرض الشام. وكان هناك مسئول واحد فقط من كلا القبيلتين أي قبيلة إسحاق. وقد جعل الله رسوله صلى الله عليه وسلم يجمع في صفاته كل أوصاف وخصائص الرسل السابقين، ومنح ذاته الطاهرة بركات نسل سيدنا إسحاق وسيدنا إسماعيل عليهما السلام، والوراثة التي كانت بين أبناء سيدنا إبراهيم منذ قرون تجمعت كلها في مكان واحد بعد بعثة الرسول صلى الله عليه وسلم. وكأن الحقيقة الإبراهيمية التي كانت مقسمة في نسل سيدنا إبراهيم تجمعت كلها في الذات المحمدية. ولذلك فوض الرسول صلى الله عليه وسلم في تولي أمر القبلتين، ومنح منصب نبي القبلتين، وهذا هو السبب الذي من أجله أمر الرسول صلى الله عليه وسلم في أن يتوجه إلي الكعبة وبيت المقدس، ولهذا أسري به من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى، وأُمر بأن يَؤُم الأنبياء في الصلاة في المسجد الأقصى حتى يتم الإعلان في هذا البلاط المقدس بأن رئاسة القبلتين قد وهبها الله لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم واختير نبياً للقبلتين، وبداية سورة الإسراء وبداية المعراج تظهر هذه الحقائق:
" سبحان الذي أسري بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا إنه هو السميع البصير " (الإسراء: ١)

عهد إشراف بني إسرائيل:

لقد منح الله بني إسرائيل شرف تولي بيت المقدس بشروط ومواثيق عديدة وقال إذا لم يلتزم هؤلاء بأحكام الله وأوامره فإنهم سيحرمون من هذا الشرف وستطوق رقابهم قيود الاستعباد، والإشراف والوصاية التي أُعطيت لهم في عهد داود وسيـدنا سليمان عليهما السلام سلبها منهم بخت نصر (بنو خذ نذر) ملك بابل عقاباً لعدم وفائهم بالعهد، ونفوا من الأراضي المقدسة، ودمرت مدينة أورشليم، وتهشمت كل لبنة من لبنات بيت المقدس، وقطعت أوراق التوراة.

ولقد حزن بنو إسرائيل علي هذه الواقعة حزناً شديداً، وتضرعوا إلي الله فغفر الله لهم ومنحهم شرف الإنابة علي بيت المقدس مرة أخرى، إلا أنهم لم يبقوا علي عهدهم، وعبدوا الأصنام وعصوا أوامر وتعليمات التوراة، فسلط الله عليهم اليونانيين والروم الذي حرقوا بيت المقدس ودمروه، وتعرض اليهود للقتل الجماعي، وحطمت الأماكن المقدسة وأواني القرابين المقدسة. وبعدها بُعث الرسول صلى الله عليه وسلم، ومنح اليهود حق الإنابة والإشراف مرة أخرى. ولو تمسكوا بطريق الحق فإن الله سيرحمهم ويغفر لهم، وإلا فإنهم سيحرمون من هذا الشرف للأبد. وجاءت الآيات التالية بعد الآيات السابقة التي تقول: ــ

" وآتينا موسى الكتاب وجعلناه هدي لبني إسرائيل ألا تتخذوا من دوني وكيلا. ذرية من حملنا مع نوح إنه كان عبداً شكوراً. وقضينا إلي بني إسرائيل في الكتاب لتفسدن في الأرض مرتين ولتعلُن علواً كبيراً. فإذا جاء وعد أولهما بعثنا عليكم عباداً لنا أولي بأس شديد فجاسوا خلال الديار وكان وعداً مفعولاً. ثم رددنا لكم الكرة عليهم وأمددناكم بأموال وبنين وجعلناكم أكثر نفيراً. إن أحسنتم أحسنتم لأنفسكم وإن أسأتم فلها فإذا جاء وعد الآخرة ليسوءوا وجوهكم وليدخلوا المسجد كما دخلوه أول مرة وليتبروا ما علوا تتبيرا. عسي ربكم أن يرحمكم وإن عدتم عدنا وجعلنا جهنم للكافرين حصيرا " (الإسراء: ٢– ٨)

لقد نزلت هذه السورة في مكة، ولم تكن هناك أي علاقة ببني إسرائيل، ولهذا لم تخاطب في السورة المكية بنو إسرائيل عموماً، وهذه هي الفرصة الأولي التي تخاطب فيها بنو إسرائيل ؛ لأن عهداً جديداً للإسلام كان سيبدأ، وكان أمر الهجرة إلي المدينة المنورة جاهزاً، حيث بداية العلاقات مع بني إسرائيل، وستتاح لهم فرصة إظهار خجلهم أمام الله، وسيفتح الله لهم أبواب الرحمة. ولو أنهم أنكروا قبول الحق فسيكون جزاءهم نفس الذي تعرضوا له قبل ذلك مرتين، ولكنهم للأسف لم يستفيدوا من هذه الفرصة، ولم يقبلوا الحق، مع أن الله قال لهم: ــ " وأُوفوا بعهدي أُوفِ بعهدكم " (البقرة: ٤٠)، ولهذا لم يفتح الله لهم باب رحمته، ونالوا عقابهم للمرة الثالثة، وأُخرجوا من المدينة وأطرافها، وعُهد للمسلمين بولاية بيت المقدس.

الإنذار الأخير لكفار مكة:

كان طلب كفار مكة بأنه لماذا لم ينزل عليهم العذاب إذا كان الإسلام صحيحاً وعقيدتهم باطلة ؟ ويقولون: لو أن العذاب ينزل علينا. وقد أُخبروا بأن السنة الإلهية لن

تأتي بالعذاب علي قوم طالما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يُبعث، ولابد له أن ييئس منهم. وطالما أن الطبقة المغرورة منهم لم تتقدم لاقتلاع هذا الحق، والآخرين الذين يعتمدون علي هذه القوة يناصرونهم. أما المسلمين الذين هم في الظاهر ضعفاء فيقبلون هذا الحق، ويكون في الناس من يطلب نفع الدنيا العاجل، ويرجح الآخر نفع الآخرة الخالد، وكلّ منهما ينعم بنعم الدنيا، ولكن لابد وأن يأتي يوم عندما ينجلي فيه ظلام الليل عن النهار، ويكون كل إنسان مسئولاً فيه عن نفسه، ويؤدي المصلحون والمبشرون واجبهم ولن يكونا مسئولين عن الإيمان والكفر، فكل شخص في هذه الدنيا يتحمل مسئولية نفسه، وبسبب الإنكار والكفر هذا حرمت قريش من الإشراف علي الكعبة، وبشر المسلمون بفتح مكة: ـــ

" إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجراً كبيراً. وأن الذين لا يؤمنون بالآخرة اعتدنا لهم عذاباً أليما. ويدع الإنسان بالشر دعاءه بالخير وكان الإنسان عجولا. وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرةً لتبتغوا فضلاً من ربكم ولتعلموا عدد السنين والحساب وكل شيء فصلناه تفصيلا. وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتاباً يلقاه منشوراً. اقرأ كتابك كفي بنفسك اليوم عليك حسيبا. من اهتدي فإنما يهتدي لنفسه ومن ضل فإنما يضل عليها ولا تزر وازرة وزر أخرى وما كنا معذبين حتى نبعث رسولا. وإذا أردنا أن نهلك قرية أمرنا مترفيها ففسقوا فيها فحق عليها القول فدمرناها تدميرا. وكم أهلكنا من القرون من بعد نوح وكفي بربك بذنوب عباده خبيراً بصيراً. من كان يريد العاجلة عجلنا له فيها ما نشاء لمن نريد ثم جعلنا له جهنم يصلاها مذموماً مدحوراً. ومن أراد الآخرة وسعي لها سعيها وهو مؤمن فأولئك كان سعيهم مشكوراً. كلا نمد هؤلاء وهؤلاء من عطاء ربك وما كان عطاء ربك محظورا. انظر كيف فضلنا بعضهم علي بعضٍ وللآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً " (الإسراء: ٩ – ٢١)

وصايا وأحكام المعراج:

بعد عزل اليهود وقريش من شرف ولاية بيت المقدس والكعبة المشرفة طلب الله عبده ورسوله، وأبلغه شروط وأحكام تولي هذه الحكومة الروحية، مثلما منح من قبله سيدنا موسى ورسل آخرين هذا الشرف وهي:

" لا تجعل مع الله إلهاً آخر فتقعد مذموماً مخذولاً. وقضي ربك ألا تعبدوا إلا إياه وبالوالدين إحساناً إما يبلغن عندك الكبر أحدهما أو كلاهما فلا تقل لهما أفٍ ولا تنهرهما وقل لهما قولاً كريماً. واخفض لهما جناح الذل من الرحمة وقل ربِ ارحمهما كما ربياني صغيرا. ربكم أعلم بما في نفوسكم إن تكونوا صالحين فإنه كان للأوابين غفورا. وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً. إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا. وإما تعرضن عنهم ابتغاء رحمة من ربك ترجوها فقل لهما قولاً ميسورا. ولا تجعل يدك مغلولة إلي عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسورا. إن ربك يبسط الرزق لمن يشاء ويقدر إنه كان بعباده خبيراً بصيراً. ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاقٍ نحن نرزقهم وإياكم إن قتلهم كان خطأً كبيرا. ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلا. ولا تقتلوا النفس التي حرم الله إلا بالحق ومن قتل مظلوماً فقد جعلنا لوليه سلطاناً فلا يسرف في القتل إنه كان منصوراً. ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتي هي أحسن حتى يبلغ أشده وأوفوا بالعهد إن العهد كان مسئولا. وأوفوا الكيل إذا كلتم وزنوا بالقسطاس المستقيم ذلك خير وأحسن تأويلا. ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا. ولا تمش في الأرض مرحاً إنك لن تخرق الأرض ولن تبلغ الجبال طولا. كل ذلك كان سيئه عند ربك مكروها. ذلك مما أوحي إليك ربك من الحكمة ولا تجعل مع الله إله آخر فتلقي في جهنم ملوماً مدحوراً "

(الإسراء: ٢٢ – ٣٩)

وبعد تفصيل هذه الأحكام يقول الله تعالي في النهاية: ـــ

" ذلك مما أوحي إليك ربك من الحكمة " (الإسراء: ٣٩)

ويقول الله تعالي ضمن شرح الأحوال الروحانية للمعراج: ـــ

" فأوحي إلي عبده ما أوحي " (النجم: ١٠)

وداخل هذا الإبهام والإجمال جزء من الأحكام والشرائع، وربما لهذا السبب فصلت علي هذا النحو. والأحكام المذكورة في هذه الآيات وعددها اثنا عشر حكماً، وهذه الأحكام في الحقيقة هي أساس الشر والخير في الدنيا، ولا يمكن أن يخرج حكم عن هذه الأحكام الإثني عشر. والأحكام بشكل مختصر وبسيط كالتالي: ـــ

١ ـ عدم الشرك بالله. ٢ ـ طاعة الوالدين.

٣ ـ إعطاء الآخرين حقوقهم.

٤_ عدم الإسراف وخير الأمور الوسط.

٥_ عدم قتل الأولاد. ٦_ عدم الاقتراب من الزنا.

٧_ عدم قتل النفس بغير حق. ٨_ معاملة اليتيم بأحسن ما يمكن.

٩_ الإيفاء بالعهد حتى لا تسأل عنه.

١٠_ الحفاظ علي القسط بالميزان والمكيال.

١١_ التحقق من الأخبار وعدم اتباعها قبل التحقق من صحتها.

١٢_ عدم الغرور.

وهذه هي الوصايا العشرة التي أمر الله بها سيدنا موسى عليه السلام في معراجه علي جبل الطور كما جاء في (التوراة، سفر الخروج، إصحاح ٢٠ ؛ وسفر التثنية، إصحاح ٥، ٦): _

١_ لا إله إلا أنت.

٢_ لا تحلف بالله كذباً.

٣_ اذكرني يوم السبت.

٤_ احترام الوالدين.

٥_ عدم سفك الدماء. (لا تقتل أحداً)

٦_ عدم الزنا. ٧_ عدم السرقة.

٨_ (لا توجد في الأصل الأردي).

٩_ لا تطمع في زوجة جارك.

١٠_ لا تطمع في مال جارك.

والأحكام العشرة التي جاءت في آخر السورة سوف نشير إليها فيما بعد.

الهجرة والعذاب:

مثلما جعل الله بعض القوانين والأصول الطبيعية في عالم المادة، أيضاً هناك بعض الأصول والمبادئ في عالم الروح والتي لا يمكن أن تتبدل أو تتغير، وهناك قانون من جملة هذه القوانين يقول بأنه عندما يبعث أي رسول في أي أمة توضع أمامه كل واجبات التبليغ، ويطلب أشرار الأمة المعجزات منه. وفي النهاية يضع أمامهم المعجزات، وعندما لا يؤمنون بها يؤمر الرسول صلى الله عليه وسلم بالهجرة، وبعدها ينزل عذاب الله علي هؤلاء التعساء، وهكذا فإن سير الرسل تشرح هذه المبادئ. وقد أمر الرسول

صلى الله عليه وسلم بأن ينفذ هذه القاعدة، وأعطي الرسول الآية الكبرى وهي المعراج، إلا أنهم كذبوه:

" وإن من قرية إلا نحن مهلكوها قبل يوم القيامة أو معذبوها عذاباً شديداً كان ذلك في الكتاب مسطورا. وما منعنا أن نؤمن بالآيات إلا أن كذب بها الأولون وآتينا ثمود الناقة مبصرة فظلموا بها وما نرسل بالآيات إلا تخويفا. وإذا قلنا لك إن ربك أحاط بالناس وما جعلنا الرؤيا التي أريناك إلا فتنة للناس والشجرة الملعونة في القرآن ونخوفهم فما يزيدهم إلا طغياناً كبيراً " (الإسراء: ٥٨ – ٦٠)

ولهذا يستدل بقصة سيدنا آدم والشيطان علي هذه الواقعة فيقول الله تعالي: ـــ

" وإن كادوا ليفتنونك عن الذي أوحينا إليك لتفتري علينا غيره وإذاً لاتخذوك خليلا. ولولا أن ثبتناك لقد كدت تركن إليهم شيئاً قليلا. إذاً لأذقناك ضعف الحياة وضعف الممات ثم لا تجد لك علينا نصيرا. وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذاً لا يلبثون خلافك إلا قليلا. سنة من قد أرسلنا قبلك من رسلنا ولا تجد لسنتنا تحويلا " (الإسراء: ٧٣ – ٧٧)

ويتضح من هذا أن حادثة المعراج كانت قبل الهجرة بقليل، ويثبت أيضاً أن المعراج آية من آيات الله للرسول صلي الله عليه وسلم ومن لم يؤمن بها فسيصيبه عذاب الله.

فرض الصلوات الخمس:

لقد مر بنا أن الصلوات الخمس فرضت في المعراج حيث يقول الله: ـــ

" أقم الصلاة لدلوك الشمس إلي غسق الليل وقرآن الفجر إن قرآن الفجر كان مشهودا. ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسي أن يبعثك ربك مقاماً محموداً " (الإسراء: ٧٨ – ٧٩)

ولفظ " لدلوك الشمس " يشير إلي الأوقات الثلاثة: الظهر، العصر والمغرب. ويتضح من هذا أن الملة المحمدية تقتفي أثر الملة الإبراهيمية، إذ كانت عبادة الشمس والنجوم شائعة في عهد سيدنا إبراهيم ولا تزال آثارها باقية إلي الآن في العالم. وفي هذه العقيدة كانت عبادة الشمس في الأوقات التي يكون فيه ضوء الشمس واضحاً ؛ ولهذا كانت تعبد من الصباح وحتى منتصف النهار. وأمة سيدنا إبراهيم عينت أوقات العبادة علي العكس من ذلك، وهي أوقات الغروب، يعني من دلوك الشمس وحتى غروبها، وهي

أوقات كلها يخفت فيها ضوء الشمس. وهناك ثلاث مراحل لزوال الشمس أحدهما: ــ عندما تبدأ الشمس في الاتجاه من المنتصف (وهو وقت الظهرة).

الثانية: ــ عندما تكون الشمس مواجهة لنظرنا (أي وقت العصر).

الثالثة: ــ عندما تنزل من الأفق وهذا وقت المغرب.

وقررت الصلاة الرابعة في ظلام الليل، وذلك عندما يزول الشفق الأحمر، وجاءت صلاة الصبح بعد أدبار النجوم. والخلاصة: ــ أن فرض الصلوات الخمس وضحت بشكل جميل في الآيات السابقة. (هذه النقطة قد استفدت فيها من تفسير مولانا حميد الدين " نظام القرآن ").

دعاء الهجرة:

وبعد ذلك جاء دعاء الهجرة ([1])، وبعدها مباشرة بشر الرسول صلى الله عليه وسلم بفتح مكة، ومن الطبيعي أن يكون بعد فرض الصلاة التفكير في القبلة حيث كان يُعبد هناك في ذلك الوقت ٣٦٠ صنماً

" وقل رب أدخلني مدخل صدق وأخرجني مخرج صدق واجعل لي من لدنك سلطاناً نصيرا. وقل جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقا " (الإسراء: ٨٠-٨١)

وهذه الألفاظ الأخيرة جاءت مبشرة بعهد جديد للإسلام وفتح مكة، ولهذا كان فتح مكة بمثابة تطهير لكعبة الخليل من الأوثان. وجاء ذكر الآية السابقة علي لسان رسولنا صلي الله عليه وسلم في ذلك الوقت. ([2])

الاعتراض علي النبوة، والقرآن، و القيامة، و المعراج والمعجزات:

كان اعتراض كفار مكة الشديد علي هذه الأمور في الوقت الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وسلم قريباً من الهجرة، وكان عذاب الله علي وشك النزول.

---

[1] ــ صحيح البخاري وكتاب المستدرك للحاكم (صحيح الترمذي تفسير سورة الإسراء ومسند أحمد عــن ابن عباس)

[2] - صحيح البخاري باب فتح مكة وتفسير الآية المذكورة. وهذا نص الحديث: (٤١٨٧) ـــــ حــدَّثَنا صدَقةُ بن الفضلِ أخبرَنا ابنُ عُيَينة عنِ ابن أبي نَجيح عن مجاهد عن أبي مَعمَر عن عبدِ الله رضـــي الله عنه قال: «دخلَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم مكةَ يومَ الفتح وحولَ البيتِ ستونَ وثلاثمائة نُصُـــب، فجعــلَ يَطعنُها بعود في يدهِ ويقول: جاء الحقُّ وَزَهَقَ الباطلُ، جاء الحقُّ وما يُبدِىء الباطلُ وما يُعيد». (يوســـف عامر).

" وَإِذَا أَنْعَمْنَا عَلَى الإنسَانِ أَعْرَضَ وَنَأَى بِجَانِبِهِ وَإِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ كَانَ يَئُوساً (٨٣) قُلْ كُلٌّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ فَرَبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَنْ هُوَ أَهْدَى سَبِيلاً (٨٤) وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ ([1]) مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ العِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً. " (الإسراء ٨٣ – ٨٥).

" وَلَئِن شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لاَ تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلاً (٨٦) إِلاَّ رَحْمَةً مِّن رَّبِّكَ إِنَّ فَضْلَهُ كَانَ عَلَيْكَ كَبِيراً (٨٧) قُل لَّئِنِ اجْتَمَعَتِ الإنسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَن يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا القُرْآنِ لاَ يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً (٨٨) وَلَقَدْ صَرَّفْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا القُرْآنِ مِن كُلِّ مَثَلٍ فَأَبَى أَكْثَرُ النَّاسِ إِلاَّ كُفُوراً (٨٩) وَقَالُوا لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّى تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الأَرْضِ يَنبُوعاً (٩٠) أَوْ تَكُونَ لَكَ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَعِنَبٍ فَتُفَجِّرَ الأَنْهَارَ خِلالَهَا تَفْجِيراً (٩١) أَوْ تُسْقِطَ السَّمَاءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفاً أَوْ تَأْتِيَ بِاللَّهِ وَالْمَلائِكَةِ قَبِيلاً (٩٢) أَوْ يَكُونَ لَكَ بَيْتٌ مِّن زُخْرُفٍ أَوْ تَرْقَى فِي السَّمَاءِ وَلَن نُّؤْمِنَ لِرُقِيِّكَ حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَاباً نَّقْرَؤُهُ قُلْ سُبْحَانَ رَبِّي هَلْ كُنتُ إِلاَّ بَشَراً رَّسُولاً (٩٣) وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَن يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الهُدَى إِلاَّ أَن قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَراً رَّسُولاً (٩٤) قُل لَّوْ كَانَ فِي الأَرْضِ مَلائِكَةٌ يَمْشُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِم مِّنَ السَّمَاءِ مَلَكاً رَّسُولاً (٩٥) قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيراً بَصِيراً (٩٦) وَمَن يَهْدِ اللَّهُ فَهُوَ المُهْتَدِ وَمَن يُضْلِلْ فَلَن تَجِدَ لَهُمْ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِهِ وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ القِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُماً مَّأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ كُلَّمَا خَبَتْ زِدْنَاهُمْ سَعِيراً (٩٧) ذَلِكَ جَزَاؤُهُم بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِآيَاتِنَا وَقَالُوا أَئِذَا كُنَّا عِظَاماً وَرُفَاتاً أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقاً جَدِيداً " (الإسراء : ٨٦ – ٩٨).

---

[1] – هنا مقصد المؤلف رحمه الله عليه من الروح (سيدنا جبريل)، وإلا فإن معظم التفاسير والروايات يقصد بها الروح الحياتية، والتي سأل اليهود الرسول صلى الله عليه وسلم فيما يتعلق بها. ونزلت هذه الآية للإجابة عليهم. البخاري ــ ص ٦٨٦ ــ ج٢ كتاب التفسير. وهذا هو نص الحديث: (٤٦٠٣) حدثنا عمرُ بن حفصِ بن غياث حدثنا أبي حدثنا الأعمشُ قال: حدثني إبراهيمُ عن علقمةَ عن عبدِ الله رضيَ الله عنه قال: «بينا أنا مَعَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في حَرثٍ ــ وهو متّكِىءٌ على عَسيبٍ ــ إذ مرَّ اليهودُ، فقال بعضُهم لبعض: سَلُوهُ عنِ الرُّوح، فقال: ما رابكم إليه ــ وقال بعضُهم لا يَستقبلكم بشيءٍ تكرهونه ــ فقالوا: سَلوهُ، فسألوهُ عن الرُّوح، فأمسكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فلم يَرُدَّ عليهم شيئاً، فعلمتُ أنه يوحى إليه، فقمتُ مَقامي. فلما نَزَلَ الوحيُ قال: {وَيَسألونَكَ عنِ الرُّوح، قلِ الرُّوحُ مِن أمرِ ربِّي، وما أُوتيتُم منَ العلم إلاَّ قليلاً}» (الإسراء: ٨٥). (يوسف عامر).

لقد بين في هذه الآيات أنهم ـــ أي الكفار ـــ لم يؤمنوا بمعراج الرسول صلي الله عليه وسلم إلي السماء، وقالوا أننا لن نؤمن إلا إذا صعدت إلي السماء أمامنا، وتأتي لنا بالقرآن مكتوب كاملاً ونأخذه بأيدينا.

الاستشهاد بأحداث وواقعات سيدنا موسى:

هناك تشابه إلي حد ما بين الأحداث التي وقعت لسيدنا موسى في حياته وبين ما حدث للرسول صلى الله عليه وسلم، وقد وضح القرآن الكريم هذا: ـــ

" إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلي فرعون رسولاً " (المزمل: ١٥)

ولهذا السبب كررت قصة سيدنا موسى عليه السلام مرات عديدة. ومثلما قضى سيدنا موسى حياته بين أعدائه وهذا هو حال الرسول صلى الله عليه وسلم. وتماماً كما فهم سيدنا موسى عليه السلام فرعون وأهل بلاطه وأتباعه، إلا أنهم كفروا، وفي النهاية هاجر سيدنا موسى مع قومه من مصر إلي إسرائيل، وهكذا لم يؤمن صناديد قريش بما جاء به الرسول، وفي النهاية هاجر الرسول مع أصحابه من مكة إلي المدينة، وبنفس الطريقة تشرف موسى عليه السلام بالحديث مع الذات العلية علي جبل الطور قبل الهجرة، وأمره الله بالوصايا العشر مثلما عُرج بالرسول قبل الهجرة بعام تقريباً، وأُمر بتنفيذ الاثنى عشر حكماً. وهكذا نزل العذاب علي فرعون وقومه بالبحر بعد هجرة موسى عليه السلام، وهذا ما حدث تماماً مع كفار قريش في غزوة بدر بعد هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم، وبعدها استولي بنو إسرائيل علي مملكة الشام، تماماً مثلما استولي الرسول صلى الله عليه وسلم علي مكة المكرمة بعد الهجرة.

وكان يجب أن يعلم كفار قريش في ضوء هذه الأمور أن السنة الإلهية ستأمر بعد المعراج بالهجرة وسينزل العذاب الأليم، وهذا ما توضحه الآيات الأخيرة من سورة الإسراء.

" ولقد آتينا موسى تسع آيات بينات فسئل بني إسرائيل إذ جاءهم فقال له فرعون إني لأظنك يا موسى مسحورا. قال لقد علمت ما أنزل هؤلاء إلا رب السماوات والأرض بصائر وإني لأظنك يا فرعون مثبوراً. فأراد أن يستفزهم من الأرض فأغرقناه ومن معه جميعاً. وقلنا من بعده لبني إسرائيل اسكنوا الأرض فإذا جاء وعد الآخرة جئنا بكم لفيفاً " (الإسراء: ١٠١ – ١٠٤)

والآيات التسع التي أُعطيت في بداية الآيات فسرها بعض المفسرين على أن المقصود بها هو الوصايا التسع التي أمر بها سيدنا موسى، ولكن ذكر في بعض الأحاديث أنه ذات مرة كان الرسول صلى الله عليه وسلم جالساً ومر أمامه اثنان من اليهود، فقال أحدهما للآخر: تعال نسأل هذا الرسول بعض الأسئلة. فقال له الآخر: لا تقل أنه رسول، فسيسعد لو سمع هذا. وبعدها أتوا إلي الرسول صلى الله عليه وسلم وسألوه: ما هي الآيات التسعة التي أمر الله بها سيدنا موسى ؟ فقال الرسول:

١ـ لا تُشْرِكُوا بالله شَيْئاً. ٢ـ ولا تَزْنُوا

٣ـ ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بِالْحَقِّ ٤ـ ولا تَسْرِقُوا

٥ ـ ولا تَسْحَرُوا ٦ـ ولا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى سُلْطَانٍ فَيَقْتُلَهُ

٧ـ ولا تَأْكُلُوا الرِّبَا ٨ ـ ولا تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً

٩ـ ولا تَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ[1]

وقد شك الراوي في الحكم التاسع، وهذا الحكم خاص بكم أيها اليهود ألا تظلموا أحداً يوم السبت ([2])، ولما سمع اليهوديان هذا قبلوا يده الشريفة. جاء هذا الحديث في جامع الترمذي ومسند أحمد والنسائي وابن ماجه وابن جرير. وقد نقل الإمام الترمذي في موضعين: أحدهما في تفسير سورة الإسراء والثانية في باب ما جاء في تقبيل اليد والقدم، وقال عن الاثنين حديث حسن صحيح.

[1] - وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي: (٣٢٥٧) ـــ حدثنا مَحْمُودُ بنُ غَيْلاَنَ، أخبرنا يَزِيدُ بنُ هَارُونَ وَأبو دَاوُدَ وَأبو الْوَلِيدِ ـ وَاللّفْظُ لَفظُ يَزِيدَ وَالمَعْنَى وَاحِدٌ ـ عن شُعْبَةَ عن عَمْرِو بن مُرَّةَ عن عَبْدِ الله بنِ سَلَمَةَ عن صَفْوَانَ بنِ عَسَّالٍ المُرَادِيِّ، «أنَّ يَهُودِيَّيْنِ قَالَ أحَدُهُمَا لِصَاحِبِه: اذْهَبْ بِنَا إلَى هَـذَا النَّبِيِّ نَسْأَلُهُ. فقال: لا تَقُلْ لَهُ نَبِيٌّ، فإِنَّهُ إنْ يَسْمَعْهَا تَقُولُ لَهُ نَبِيٌّ كَانَتْ لَهُ أرْبَعَةُ أعْيُنٍ. فأتَيَا النَّبِيَّ فَسَألاَهُ عَنْ قَوْلِ الله عز وجل: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيات بَيِّنَات»، فقال رسولُ الله: لا تُشْرِكُوا بالله شَيْئاً، ولا تَزْنُوا، ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بِالْحَقِّ، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَسْحَرُوا، ولا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى سُلْطَانٍ فَيَقْتُلَهُ، ولا تَأْكُلُوا الرِّبَا، ولا تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً، ولا تَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ ـ شَكَّ شُعْبَة ـ وَعَلَيْكُمْ يَـا معشـر الْيَهُودَ خاصَّةً، ألاَّ تَعْتَدُوا في السَّبْتِ. فَقَبَّلاَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَقَالاَ: نَشْهَدُ أنَّكَ نَبِيٌّ. قال: فمَا يَمْنَعُكُمَا أنْ تُسْلِمَا ؟ قالا: إنَّ دَاوُدَ دَعا الله أنْ لا يَزَالَ في ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإنَّا نَخَافُ إنْ أسْلَمْنَا أنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ».قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

[2] ـ كان حكم السبت خاصاً باليهود لهذا تركناه مثلما يتضح من الحديث الآتي:

وهناك فرق بين الأحكام العشرة المفصلة في هذا الحديث وبين ما ورد في التوراة المترجمة الحالية، خاصة الوصية التاسعة والتي تتعلق بها ما أقره الراوي نفسه في أنه ليس متأكد منها، والوصية التاسعة تقول في الحقيقة بإطاعة الوالدين، أما بقية الأحكام فهي كما وردت في التوراة، والفرق فقط في أسلوب التعبير عن هذه الأحكام، والتراجم التي هي للتوراة ليست ترجمة لفظية. هذا بالإضافة إلي أن ذاكرة الراوي عبد الله بن سلمة لم تكن جيدة، وقد صرح بذلك ابن كثير في تفسيره لهذه الآية، والتي يؤكد شرحها أن هناك تشابهاً بين الوصايا العشر لسيدنا موسى والأوامر الاثنى عشر التي أُمر بها الرسول ﷺ، ولهذا فإن حال كل من أنكروها كان واحداً.

مكاسب المعراج:

بالإضافة إلي البشرى والصلوات الخمس التي منحها الله سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم هناك هديتان منحهما الله رسوله الكريم وهي البشارة بأنه إذا لم يكن هناك شرك بالله فإنه سيناله مغفرة الله. والثانية: وهي لقد حوت الآيات الأخيرة من سورة البقرة تعليم الإنسان درس المغفرة ومبادئ إتمام الإيمان لأول مرة ([1])، كما يتضح من الآيات أيضاً ورود البشرى الأولي في هذه الآيات: ــ

" آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملائكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحدٍ من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير. لا يكلف الله نفساً إلا وسعها لها ما كسبت وعليها ما اكتسبت ربنا لا تؤاخذنا إن نسينا أو أخطأنا ربنا ولا تحمل علينا إصراً كما حملته علي الذين من قبلنا ربنا ولا تحملنا ما لا

---

[1] ــ وفي صحيح مسلم باب الإسراء رواية تقول بأن الآيات الأخيرة من سورة البقرة، ولا يوجد تفصيلاً عنها كم عدد هذه الآيات، ولكن في كتب الأحاديث الأخرى أتت تحت فضائل خواتم السور. وهذا نص الحديث: (٣٨٥) وحدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ: حَدَّثَنَا أَبُو أُسَامَةَ: حَدَّثَنَا مَالِكُ بْنُ مِغْوَلٍ. ح وَحَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ جَمِيعاً عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنُ نُمَيْرٍ. وَأَلْفَاظِهِمْ مُتَقَارِبَةٌ. قَالَ ابْنُ نُمَيْرٍ: حَدَّثَنَا أَبِي: حَدَّثَنَا مَالِكِ بْنُ مِغْوَلٍ عَنِ الزُّبَيْرِ بْنِ عَدِيَ، عَنْ طَلْحَةَ عَنْ مُرَّةَ عَنْ عَبْدِ الله، قَالَ: لَمَّا أُسْرِيَ بِرَسُولِ اللَّهِ انْتُهِيَ بِهِ إِلَى سِدْرَةِ الْمُنْتَهَى. وَهِيَ فِي السَّمَاءِ السَّادِسَةِ. إِلَيْهَا يَنْتَهِي مَا يُعْرَجُ بِهِ مِنَ الأَرْضِ. فَيُقْبَضُ مِنْهَا. وَإِلَيْهَا يُنْتَهِى مَا يُهْبَطُ بِهِ مِنْ فَوْقِهَا. فَيُقْبَضُ مِنْهَا. قَالَ: {إِذْ يَغْشَى السِّدْرَةَ مَا يَغْشَى} (النجم الآية: ١٦). قَالَ: فَرَاشٌ مِنْ ذَهَبٍ. قَالَ: فَأُعْطِيَ رَسُولُ اللَّه ثَلاَثاً: أُعْطِيَ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسَ. وَأُعْطِيَ خَوَاتِيمَ سُورَةِ الْبَقَرَةِ. وَغُفِرَ لِمَنْ لَمْ يُشْرِكْ بِالله مِنْ أُمَّتِهِ شَيْئاً الْمُقْحِمَاتُ. (يوسف عامر).

طاقة لنا به واعف عنا واغفر لنا وارحمنا أنت مولانا فانصرنا علي القوم الكافرين. " (البقرة: ٢٨٥ – ٢٨٦).

صورة المعراج المليء بالأسرار:

لقد أختم الله وصف المنظر الروحاني للمعراج في بداية سورة الإسراء بقوله: –

" لنريه من آياتنا " (سورة الإسراء: ١)

ما هذه الآيات ؟ هل هناك ألفاظ في لغة الإنسان الفاخر لتفصيلها ؟ نعم ولكن ناقصة. فمبلغ علمنا وقياسنا لن يخرج عن دائرة المحسوسات والمعقولات.وهناك بعض الألفاظ في معاجمنا خاصة بها فقط، وبناء على هذا فإن تلك المعاني التي لا تدخل في إطار المحسوسات الإنسانية العامة، ولا في إطار التعقل والتصور كيف يمكن أن تستوعبها تلك الألفاظ والكلمات، حتى وإن صاغها الله تعالى في شكل حروف وكلمات فكيف يتأتى للذهن الإنساني تحملها وفهمها.

" وما أوتيتم من العلم إلا قليلا " (الإسراء: ٨٥)

لهذا فقد كشفت بعض الأسرار في سورة النجم، وهو تفصيل يكتنفه الإجمال، وتوضيح يحوطه الإبهام، فهو فقرة من لفظين، الضميران فيهما محذوفان، ويوجد فيها ذكر الفاعل وليس هناك ذكر للمفعول، ولو ذكر المفعول فلا يوجد الفاعل، ولا يوجد شرح لمتعلقات الفعل، كما لا يوجد تحديد لمرجع الضمائر. لماذا ؟. لأن الموقف يتطلب هذا.

" والنجم إذا هوي. ما ضل صاحبكم وما غوي. وما ينطق عن الهوى. إن هو إلا وحي يوحي. علمه شديد القوي. ذو مرة فاستوي. وهو بالأفق الأعلى. ثم دني فتدلي. فكان قاب قوسين أو أدني. فأوحي إلي عبده ما أوحي. ما كذب الفؤاد ما رأي. أفتمارونه علي ما يري. ولقد رآه نزلة أخرى. عند سدرة المنتهي. عندها جنة المأوي. إذ يغشي السدرة ما يغشي. ما زاغ البصر وما طغي. لقد رأي من آيات ربه الكبرى"(النجم: ١–١٨)

عندما ذكر الرسول صلى الله عليه وسلم لقريش المناظر الروحية والآيات الكونية للمعراج قالوا إما أنه غوى وضل عن الحق، أو أنه يكذب بفؤاده. لماذا قالوا هذا؟. لأنه لم تكن لديهم البصيرة لرؤية هذه التجليات الروحية، كما لم تكن لآذانهم القدرة علي سماع الصوت الرباني الخالد، كما لم تكن لديهم قلوب لفهم هذه الأسرار الملكوتية، فقال الله " علمه شديد القوي ذو مرة فاستوي وهو بالأفق الأعلى ثم دني فتدلي فكان قاب قوسين أو أدني "

فمن الذي دنا ؟، ومن الذي كان قاب قوسين أو أدنى ؟، هل هو الله ؟، لا ! ها هو نور الله ؟ ربما ! من الذي تكلمَ ؟ لا نعرف. ما الذي دار ؟ لا أحد يعرف. ما هي سدرة المنتهي ؟. كل ما وصل إليه فهم الإنسان أنها الشجرة ([1])، وهل سحر الصفات الإلهية قد أخفتها ؟ ([2])، وهل شجرة حدود إدراك وفهم الإنسان ما هي إلا مظهر لسحر صفات الله ؟، وهل حلت عقدة الوجوب والإمكان والكون والمكان بالوصول إلى هذا الحد؟. هل القلب يرى أيضاً ؟، وماذا رأي الرسول بعيون قلبه ؟ وماذا رأي ببصره ؟. لقد أراه الله من آياته الكبرى في هذه الرحلة. وهل هذا كان رؤيا قلبية أم عينية ؟

---

[1] ــ هذا ما نقله الطبريِ في تفسير هذه الآيات عن الأكابر والتابعين.

[2] ــ جاء في البخاري الشريف " فغشيها من أمر الله ما غشي "

شق الصدر

" ألم نشرح لك صدرك " (الشرح: ١)

من ضمن الخصائص التي مُنحت للرسول هي شق الصدر، وهي من الخصائص التي خص الله بها نبيه وحده. والمراد من شق الصدر هنا هو تطهير صدره الشريف من الملوثات البشرية وإعماره بالنور والحكمة. ويظهر من بعض الروايات أن هذه الحادثة تمت قبل المعراج، وهناك اختلاف في تفاصيل هذه الحادثة وحول تحديد وقتها منها مثلاً:

١ــ أنها حدثت عندما كان الرسول في عمر خمس سنوات تقريباً، وكان وقتها في حضن السيدة حليمة السعدية.

٢ــ أنها حدثت عندما كان في العاشرة من عمره.

٣ــ تمت وهو في العشرين من عمره.

٤ــ حدثت عندما جاءه الوحي (جبريل) لأول مرة.

٥ــ إنها حدثت قبيل المعراج.

يتضح من كل هذه الروايات الصحيحة أن حادثة شق الصدر قد تمت، ولا شك ولا شبهة في هذا رغم أن هناك اختلافات حول تحديد وقتها.

وفيما يتعلق بالرواية الثالثة فقد بينت فيها مروره بهذه الحالة وهو في عمر العشرين، رغم أنها غير مؤكدة عند أرباب الحديث ([1]) والسير ([2]).

أما الروايات الأربعة الباقية فقد سلم بها الحافظ بن حجر وغيره بعد محاولاته التوفيق بينهما وتسليمه بأنها كانت حادثة جديدة. أما الإمام السهيلى في روض الأنف فلم يسلم إلا بروايتين: واحدة أنها وقعت وهو حديث السن. والمرة الأخرى أنها حدثت في المعراج. ويوضح هذا بقوله إن حدوثها في الطفولة كان لإخراج الدنائم والأدران من قلب الرسول صلي الله عليه وسلم، وكونها حدثت في حادثة المعراج فقد كان ذلك لكي يتحمل الرسول الحكم بالصلاة في البلاط الرباني، وحتى يستطيع أن يؤم الملائكة في الصلاة

---

[1]ــ فتح الباري ــ ج ١ ــ ص ٨٩ ــ مصر.

[2] ــ الزرقاني في المواهب ــ ج١ ــ ص١٨٠.

(ص١١٠ ــ مصر)، ولكن هناك البعض الذي يتردد في القبول بأن شق الصدر يمكن أن يحدث أكثر من مرة ؛ ولهذا اعتبرها البعض مثل القاضي عياض حادثة واحدة، وأنها كانت في الصغر عندما كان في حضن السيدة حليمة السعدية رضى الله عنها، وإن حادثة شق الصدر في المعراج ما هي إلا سهو من الرواة ([1])، ولا يخفي علي أحد أن رواية شق الصدر وكل ما جاء معها من روايات تبين أن أصح وأصدق طريقة هي التي حدثت في ليلة المعراج، أما الإقرار بأن هناك خلط من الرواة في حدوثها والتسليم بأنها حدثت في الطفولة أمر بعيد عن أصول الرواية.

الروايات الضعيفة في شق الصدر:

الحقيقة أنه لا يمكن عرض الروايات المختلفة حول تعيين وقت شق الصدر وحدوثه أكثر من مرة، ولا يمكن إثبات هذا من مجرد تقديم روايات مختلفة في هذا الخصوص، مثلما قال بذلك الحافظ بن حجر وقلده في ذلك القسطلانى أو الرزقاني، بل نحتاج أن نبحث وننقد سند هذه الروايات وقوة وضعف الرواة. ورواية شق الصدر في سن العاشرة جاء فيها أن أول شيء حدث للرسول هو ظهور علامات النبوة عليه صلي الله عليه وسلم كما يلي: ــ

سأل سيدنا أبو هريرة الرسول صلى الله عليه وسلم عن أول علامات النبوة. فأخبره الرسول ﷺ بأنه كان ﷺ في العاشرة وكان في خلاء، فوقف رجلان عند رأسه ﷺ، وقال أحدهما إنه هو هذا. فأجابه الثاني بنعم، ثم أضجعاه ﷺ علي ظهره، وشقا بطنه، فكان أحدهما يأتي بالماء في طشت من ذهب، وكان الآخر يغسل جوفه، ثم قال أحدهما شق صدره، وفجأة وجد ﷺ صدره مشقوقاً ولا يشعر ﷺ بأي ألم، ثم قال أحدهما شق قلبه، فشق قلبه ﷺ، فقال للآخر اخرج منه الحسد والبغض، فأخرجوا شيئاً شبيهاً بالدماء المتجلطة، ثم قال ضع الرحمة والعطف مكانهما، ثم وضعا فيه شيئاً كالفضة، ثم أخرجا

---

[1] ــ فتح الباري، كتاب الصلاة ــ باب كيف فرضت الصلاة في الإسراء ــ ج١ ــ ص ٣٨٩. وكتاب التوحيد ــ ج٣ ــ ص٣٠٠ ــ باب ما جاء في قوله عز وجل " وكلم الله موسى تكليما ". وروض الأنف للسهيلي ــ ص١١٠، والزرقاني في المواهب ــ ج ١ ــ ص ١٧٩. وقد كتب القاضي عياض في الشفا ء: وقد خلط فيه غيره لا سيما من رواية شريك بن أبي نمر، فقد ذكر في أوله مجيء الملك لــه وشــق صدره وغسل بماء زمزم. وهذا إنما كان وهو صبي قبل الوحي " (نسيم الرياض شــرح شــفا قاضــي عياض ــ ج٢ ــ ص ١٢٦٥.

بعضاً من الحلقات التي كانت بحوزته وقفل بها صدره ﷺ، ثم شد أصبعه ﷺ قائلاً اذهب، وعندما عاد ﷺ، عاد ﷺ ومعه ما لم يأت به، يعني الشفقة على الصغير واللين مع الكبير.([1])

لقد وردت هذه الرواية في زوائد مسند أحمد، ابن حبان، والحاكم، وابن عساكر وأبي نعيم. ولكن السند الرئيسي لكل هذه الكتب واحد وهو معاذ بن محمد، رواها عن والده محمد بن معاذ، وقد رواها والده عن جده أبي بن كعب. وقد كتب المحدث ابن المديني في كتابه العلل تحت هذه الحديث ما يلي: ــ " حديث مدني ــ إسناده مجهول كله ولا نعرف محمداً ولا أباه ولا جده " (تهذيب التهذيب ــ ج١ ــ ص ١٩٤)

وقد كتب حافظ أبو نعيم بجلاء في هذا، ونقل هذا الحديث في كتاب الدلائل قائلاً:

" وهذا الحديث تفرد به معاذ بن محمد، وتفرد بذكر السن الذي شق فيه عن قلبه " (ص ٧١ ــ حيدر آباد)

---

[1] – كما ورد فى صحيح مسلم، باب بيان الإيمان والإسلام: (٣٦٧) حدثنا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ: حَدَّثَنَا ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِك، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ. فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً. فَقَالَ: هٰذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ. ثُمَّ لأَمَهُ. ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِه. وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدا قَدْ قُتِلَ. فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ. وورد فى مسند الإمام أحمد، مسند أنس بن مالك: (١٢٢٥١) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا حسن، ثنا حماد، أنا ثابت البناني، عن أنس بن مالك «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل وهو يلعب مع الغلمان، فأخذه فصرعه، وشق عن قلبه، فاستخرج القلب، ثم شق القلب فاستخرج منه علقة، فقال: هذه حظ الشيطان منك، قال: فغسله في طست من ذهب من ماء زمزم ثم لأمه ثم أعاده في مكانه، قال: وجاء الغلمان يسعون إلى أمه ــ يعني ظئره ــ فقالوا: إن محمداً قد قتل، قال فاستقبلوه وهو منتقع اللون، قال أنس، وكنت أرى أثر المخيط في صدره». وورد فى صحيح ابن حبان: (٦٢٢٧) ــــــ أخبرنا أحمدُ بنُ عليِّ بن المثنَّى، قال: حدثنا شيبانُ بنُ أبي شيبةَ، قال: حدثنا حمَّادُ بنُ سلمةَ، قال: حدثنا ثابتٌ عَنْ أنسٍ أنَّ رسول الله أتاه جبريلُ عليه السَّلامُ وهو يَلْعَبُ مَعَ الصِّبيانِ، فأخذه فصرعه، فشقَّ قَلْبَه، فاستخرجَ منه عَلَقَةً، فقال: هذا حظُّ الشَّيطان مِنْكَ، ثمَّ غَسَلَهُ في طَسْتٍ مِنْ ذهبٍ بماءِ زمزم، ثمَّ أعاده في مكانه، فجاءَ الغِلْمانُ يَسْعَوْنَ إلى أُمِّه ــــ يعني: ظِئْرَهُ ــــ فقال: إنَّ محمَّداً قد قُتِلَ، فاستقبلوه منتقِعَ اللَّون.

قال أنس: كنتُ أرى أَثَرَ ذلك المِخْيَطِ في صَدْرِه. (٥:٢٣) (يوسف عامر).

كما أن رواية شق صدره في سن العشرين رواها هؤلاء الناس بعينهم مع بعض التغيرات الطفيفة، وهذا الكلام نجده في زوائد أحمد وصحيح ابن حبان، والحاكم، البيقهي ومختارات ضياء.

(كنز العمال ــ ج٦ ــ ص٩٦)، وكما سمعت أن سلسلة هذه الرواية غير معتد بها. وتوجد روايات شق الصدر في بداية الوحي في دلائل أبي نعيم، ودلائل البيهقي، ومسند الطيالسي ومسند الحارث وكلها منسوبة للسيدة عائشة، وحديث السيدة عائشة عن بداية الوحي مذكور في كل الكتب المعتد بها كالبخاري ومسلم وابن حنبل وغيره، وهذه هي الرواية الأكثر صحة وتفصيلاً في كل الروايات، ولكن لا يوجد مطلقاً في هذه الكتب حادثة شق الصدر، ويظهر من هذا عدم الاعتناء بهذه الحادثة. وبالإضافة إلي هذا فإن السند الرئيسي لهذه الروايات عند كل من أبي نعيم، والبيهقي، والطيالسي والحارث هو أبو عمران الجوني بن يزيد بن بابنوس عن عائشة، ويزيد بن بابنوس هذا مجهول، ولم يرويها عنه إلا أبو عمران الجوني فقط. وسند رواية الطيالسي (ص٢١٥ ــ حيدر آباد) هو حماد بن سلمة أبو عمران الجوني، وقد رواها هذا عن شخص آخر رواها بدوره عن عائشة رضي الله عنها. ولا يعرف من هو هذا الشخص، ولماذا لم يذكر اسمــه أبو عمران. أما سلسلة الســند في رواية أبو نعيم (ص ٦٩ ــ حيدر آباد) فوجدنا اسم يزيد بن بابنوس مكتوباً في مكان خالي والذي ورد ذكره سابقاً. علاوة علي هذا يوجد في رواية أبي نعيم وتحت الاسم السابق اسم داؤد بن المجر، والذي قال عنه أكثر أهل الحديث بأن سنده ضعيف، بل أنهم قالوا عنه إنه كذاب، وهناك في هذه الروايات بعض الخرافات التي تعتبر ساقطة لعدم صحتها.

وهناك رواية أخرى عن سيدنا أبي ذر رضي الله عنه بأنه استفسر من رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله يا رسول الله: قلتُ يا رسولَ اللّهِ كيفَ علِمْتَ أنّكَ نبــيٌّ حــينَ استُنبِئتَ فقالَ: «يا أبا ذرٍ أتاني ملَكانِ وأنَا ببعضِ بطحاءِ مكةَ، فوقَعَ أحدُهُما علَى الأرضِ وكانَ الآخَرُ بَيْنَ السماءِ والأرضِ، فقَالَ أحدُهُما لصاحِبِهِ: أهو هو قال: نعم قــال: فزِنْــهُ برجلٍ فوُزِنْتُ بِهِ فوزنتُهُ، ثم قالَ: فَزِنْهُ بِعَشْرَةٍ فوُزِنْتُ بِهِم فرجحتُهُم، ثم قالَ: زِنْهُ بمائــةٍ فَوُزِنْتُ بهم فرجحتُهُم، ثمَّ قَالَ: زِنْهُ بألفٍ فوُزِنْتُ بهم فرجحتُهُم، كأني أنظُرُ إليهم ينتثرونَ عليَّ مِنْ خفةِ الميزانِ، قَالَ فقالَ أحدُهما لصاحبِهِ: لَوْ وَزَنْتَهُ بأمّتِهِ لرجَحَهَا». ثم بعد ذلــك

شقوا بطنه ﷺ (وبعدها جاء ذكر شق الصدر كما ذكرنا سابقاً)، ثم ختم الملائكة بختم على كتفه ﷺ.([1])

ولا يوجد تحديد للوقت في هذه الرواية، إلا أنها ذكرت أن هذه الحادثة وقعت في وادي مكة والتي يظهر منها بأنها واقعة تمت بعد قيامه في بني هوازن عند السيدة حليمة السعدية رضي الله عنها بمدة طويلة. ثم جاء فيها " أنه لما تقرر أن تكون نبياً، وورد ذكر الأمة والسؤال عن الآية الأولي للنبوة، والتي يستنتج منها بأنها كانت في بداية الوحي.وهذه الرواية موجودة في سند الدارمي (ص٦) ودلائل أبي نعيم (ص٧١)، ويشاركه في هذه الرواية بالترتيب: أبو داؤد، وجعفر بن عبد الله بن عثمان القريشي وعثمان بن عروة بن الزبير. وقد انتقد المحدث عقيلي ما هو منسوب إلي جعفر بن عبد الله بأن في روايته وهم، بمعني أن ذاكرة ألفاظه لم تكن صحيحة، ففي روايته اضطراب، بمعني أنه يذكر الواقعة الواحدة والسند الواحد بأكثر من صورة. وقد نقل المحدث هذه الرواية وكتب عنها أنها لا تتبع، بمعني أن أحداً من شيوخه أو معاصريه لم يؤيدها. ([2]) ثم إن ابن شداد نفسه روي هذه الأحداث بعينها، ونقلها أبو يعلّي وابن عساكر عن عتبة بن عبد سلمى، كما ذكرها الدارمي وابن إسحاق في حادثة شق الصدر في الصغر، والتي نري بينهما تعارضاً واضحاً.

يبقي لنا أن نذكر حادثة شق الصدر أثناء قيامه عند السيدة حليمة السعدية، وهذه الرواية نقلها الرواة عن سبع طرق مختلفة، وكذلك عن الصحابة. ولكن الحقيقة أنه

---

[1] – ورد في صحيح البخاري: (٣٤٦٥) ـــ حدَّثنا محمدُ بن عبيد الله حدَّثنا حاتمٌ عن الجُعَيدِ بن عبدِ الرحمنِ قالَ: سمعتُ السائبَ بنَ يزيدَ قال: «ذَهبتْ بي خالتي إلى رسولِ الله صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسولَ اللهِ إنَّ ابنَ أختي وَقِع، فمسحَ رأسي، ودعا لي بالبركة، وتَوَضأ فشربتُ من وضوئه، ثمَّ قمتُ خلفَ ظهرهِ فنظَرتُ إلى خاتمِ النبوَّةِ بينَ كتفيه». قال ابن عُبيدِ الله: الحجلَةُ من حجلِ الفَرَسِ الذي بين عينيه. وقال إبراهيمُ بنَ حمزةَ: «مثلَ زرِّ الحجلَةِ». كما ورد أيضا: (١٩٠) ـــ حدَّثنا عبدُ الرحمٰنِ بنُ يونُسَ قال: حدَّثنا حاتمُ بنُ إسماعيلَ عنِ الجُعْدِ قال: سمعتُ السائبَ بنَ يَزِيدَ يقولُ: ذَهَبَتْ بي خالَتي إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقالت: يا رسولَ اللّهِ إنَّ ابنَ أُختي وَجِعٌ، فمسحَ رأسي ودَعا لي بالبركةِ. ثمَّ تَوَضَّأ فشَرِبتُ مِن وَضوئه، ثمَّ قمتُ خَلفَ ظَهرِه فنَظَرتُ إلى خاتمِ النبوَّةِ بينَ كَتِفَيهِ مِثلَ زرِّ الحَجَلَةِ. (يوسف عامر).

[2] ـ انظر ميزان الاعتدال الذهبي، وتهذيب التهذيب لابن حجر.

باستثناء طريقتين يخلو الباقي من الصحة والقوة، ففيهما بعض هذا الخلط الذي يجعلنا نسقطهما من الاعتداد والثقة فيهما.

١ـ الطريقة الأولي لهذه الرواية:

رويت عن طريق جهم بن أبي جهم عن عبد الله بن جعفر الذي رواها هو الآخر بنفسه عن حليمة السعدية رضي الله عنها، وهذه الرواية توجد عند ابن إسحاق وفي دلائل أبي نعيم، وجهم ابن أبي جهم مجهول النسب. كما أن لقاء عبد الله بن جعفر بالسيدة حليمة غير مؤكد، وابن إسحاق نفسه يشك في جهم بن أبي جهم حيث قال إن عبد الله بن جعفر قال لي بنفسه، أو ربما أحد ما سمعها منه وقال لي، ولا يوجد هذا الشك عند أبي نعيم، بل ذكر صراحة اسم عبد الله بن جعفر، ولكنه ذكر تحته أن الراوي ضعيف.

٢ـ طريقة الواقدي:

وقد ذكر ابن سعد هذه الرواية بنفس هذه السلسلة (المجلد الأول ــ ص٧٠)، إلا أنه ذكر بأنه يعتد بالواقدي، ولا يوجد فيه ذكر مفصل عن السند، ولم يذكر مطلقاً اسم أي راو من الذين تم ذكرهم أعلاه.

٣ـ ولقد بينها أبو نعيم بطريقة أخري:

ورويت عن عبد الصمد بن محمد السعدي الذي رواها بدوره عن والده، وقد رواها والده عن والده الذي نقلها عن شخص آخر كان يرعى أغنام السيدة حليمة رضي الله عنها، وكل هؤلاء مجهولو النسب.

٤ـ نقلها البيهقي وابن عساكر عن سند آخر عن ابن عباس، ولكن هناك راو في هذا السند وهو محمد بن زكريا الفلابى الذي يعد من الكذابين ومخترعي القصص.

٥ـ نقل ابن عساكر عن طريق شداد بن أوس الصحابي قصة طويلة جداً جاء فيها أن شيخاً من بني عامر جاء النبي صلى الله عليه وسلم وسأله عن بداية حياته، فأخبره الرسول صلى الله عليه وسلم بكل شيء، ومن بين ذلك حادثة شق الصدر في الطفولة. ولكن ابن عساكر نفسه قال عن هذه الرواية بأنها غريبة ومختلفة عن بيانات أهل الثقة. وبالإضافة إلي هذا فإن هناك راو مجهول النسب من بين رواة هذه الرواية، كما أن فيها راو آخر قبله معترض عليه، وهو أبو يحيي، الذي سمع هذه القصة عن الصحابي شداد بن أوس. وقد كتب الإمام البخاري في التاريخ الصغير (ص١٣ ــ اله آباد) فيما يتعلق بهذا الشخص يقول: " في حديثه نظر "، كما قال الحاكم: " ليس حديثه بالقائم ".

وقد نقل أبو يعلّي وابن عساكر هذه الحادثة بعينها بطريقة أخرى عن طريق مكحول الشامي عن سيدنا شداد بن أوس رضي الله عنه، حيث لا يوجد فيها أي راو مجهول النسب، إلا أن فيها نقص وهو أن اسم أحد الرواة بين مكحول وشداد سقط، أو تُرك، بمعني أنها رواية منقطعة، لأن مكحولاً لم يعاصر زمن سيدنا شداد رضي الله عنه، وكان مكحول معروف عنه التدليس، بمعني أن من عادته إذا جاء راو ضعيف في روايته يسقطه أو يحذفه من الوسط، وأعتقد أن الذي بين مكحول وسيدنا شداد هو أبو العجفاء، وقد رأي مكحول بأن هذا الراوي ضعيف فأخرجه، ولهذا تعتبر هذه الرواية غير معتد بها.

كان الصحابي عتبة بن عبد سلمي صغير السن، وعن طريقه سلسلة من السند روي الحاكم، والدرامي، وأبو يعلّي، وابن عساكر وابن حنبل هذه الواقعة بأن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر بأنه كان ذات مرة وأخيه ﷺ في الرضاعة يرعيا الغنم، ولم يكن لديهما طعام، فأرسل ﷺ أخاه إلي أمه ﷺ (مرضعته) ليحضر لهما الطعام، فذهب، ثم رأي ﷺ أن طائرين يحلقان في السماء كالنور، فقال أحدهما للآخر هذا هو، فانقض عليه ﷺ الاثنان وامسكاه وأضجعاه علي الأرض، وشقوا بطنه، وأخرجوا منها علقتين من الدماء السوداء الجامدة، وغسلوها بالماء البارد. " وهذا ما ورد فى الحاكم.

أما الدارمي وغيره فقد أضافوا كثيراً بعدها، فقالوا بعد الغسيل قال أحدهما للآخر اعطني السَكينة والاطمئنان، ونثروها في صدره ﷺ، وتركاه ﷺ الاثنان وذهبا، فخاف ﷺ وذهب ﷺ إلي أمه وأخبرها بما حدث فخافت وقالت: ماذا حدث لعقل هذا الطفل. وقالت: سأتركه ﷺ في رحاب الله، ثم وضعته ﷺ علي جمل وأتت به إلي أمه ﷺ. فقالت لها الوالدة: لقدِ أديت الأمانة. فقصت عليها المربية خوفها وما حدث، لكن الوالدة عندما سمعت هذا لم تخف ولم تتعجب وقالت: عندما ولد هذا الطفل شعرت بأن نوراً يخرج مني أضاء قصور الشام. قال الحاكم عن هذا الحديث أنه مطابق لشروط مسلم، ولكن الحقيقة أن الراوي الأول في هذه الرواية وهو بقية بن وليد، والذي قال عنه البعض بأنه من أهل الثقة، إلا أن الجميع يتفق بأنه لا يحتاط كثيراً في رواياته. فقال عنه ابن المبارك بأنه صادق، إلا أنه ينقل الرواية عن أي شخص دون التحري. كما قال ابن عينية عن بقية بن وليد: لا تأخذوا عنه روايات الأحكام، لكن يمكن أن تأخذوا عنه روايات الفضائل. وقال عنه الإمام ابن حنبل والإمام يحيي عنه بأنه لو روي عن الصحابة المعروفين فهذا

خير وبركة وإلا فلا. وقال أبو حاتم أن حديثه يمكن أن يكتب ولكن لا يستدل به. ويقو[1] الإمام النسائي عنه بأنه لو قال أخبرنا وحدثنا فهذا شيء طيب، ولو قال عن عن فلا نأخذ بما يقوله. (يجب أن يذكر بأن هذه الرواية وردت بطريقة العنعنة)، ويقول عنه ابن عدي أن بعض رواياته يعتد بها والبعض الآخر يأتي علي خلاف الرواة الثقة. وقد نقل الإمام أحمد ابن حنبل عن أحد الأشخاص قوله: أعتقد أن بقية بن وليد ينقل الأحاديث من أناس مجهولي النسب، ولكني رأيته ينقل عن الرواة المشهورين أيضاً. وهكذا يذكر مثل هذا النوع من الأحاديث، وأنت تعلم من أين يأتي بالروايات ؟، فأجـــاب المخاطب نعم عن طريق التدليس (بمعني حذف الرواة الضعاف ووصلها بالرواة أهل الثقة). ويقول عبد الله الحاكم أن الأوزعي وغيره ينقلون رواياتهم عن طريق الناس المعروفين والتي تتشابه موضوعاتهم، والتي تكون صورتها بأن يحذف من الوسط ضعاف الرواة. ويقول الخطيب عنه أن أكثر رواياته مرفوضة، رغم أنه بذاته صادق وأمين. ويقول ابن القطان عنه بأن ينقل رواياته عن طريق ضعاف الرواة والتدليس، ويعده جائزاً، ولو أن هذا الاتهام صحيح فلا يعتد به.

رواية حماد بن سلمة ووهمه:

إن أصح الروايات فيما يتعلق بحادثة شق الصدر هي التي رويت عن حماد بن سلمة ثابت بناني وأنس بن مالك، وهذه الرواية جاءت في صحيح مسلم، ومسند أحمد، وابن سعد ودلائل أبي نعيم بسلسلة نسب واحدة. بمعني أنها رويت عن حماد بن سلمة عن ثابت بناني عن سيدنا أنس رضي الله عنه أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان يلعب مع الأولاد فجاءه سيدنا جبريل عليه السلام فأمسك به وأرقده علي الأرض وشق قلبه وأخرج منه الدماء المتجمدة، وقال:هذا حظ الشيطان منك، ثم غسله بعد ذلك بماء زمزم في طشت من ذهب، وأوصله ببعضه، ثم وضعه في مكانه. فجرى الأولاد وذهبوا لمرضعته حليمة السعدية وأخبروها أن محمداً قد قتل، فوصل الناس إليه، ووجدوا أن لون وجهه قد تغير. وقال أنس: فكنت أرى أثر المخيط في صدره [1]. وفي مسند ابن حنبل يوجد هذا الحديث

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١٣٧٧٦) ـــ حدثنا عبد الله حدثني أبي ثنا عفان ثنا حماد قال: أنا ثابت عن أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه جبريل عليه السلام وهو يلعب مع الغلمان فأخذه فصرعه فشق عن قلبه فاستخرج منه علقة فقال: هذا حظ الشيطان منكِ ثم غسله في طست من ذهب بماء زمزم ثم لأمه وأعاده في مكانه وجاء الغلمان يسعون إلى أمه يعني ظئره فقالوا: إن

المروي عن سيدنا أنس بنفس السلسلة من السند، إلا أنه في آخر الحديث بدل أن يأتي لفظ الواحد المتكلم جاءت صيغة جمع المتكلم. فبدل أن يقول: رأيت هذا الجرح قال: رأينا. وليس هناك شك في صحة هذا الحديث، ولكن الحقيقة أن هناك روايات عديدة مروية عن سيدنا أنس في الصحاح عن حادثة المعراج وشق الصدر.

ومن بين الرواة التابعين تلامذة سيدنا أنس نجد هؤلاء الأربعة: قتادة، والزهري، وشريك وثابت بنـــاني. وقد نقل رجلان (وهما سليمان بن خيرة وحماد بن سلمة) تلك الواقعات عن ثابت البناني، وبالإضافة إلي حماد فإن الطرق التي ذكرناها سابقاً جميعها يوجد فيها حادثة شق الصدر في بداية ذكر أحداث المعراج. لكن حماد ترك حادثة شق الصدر أثناء بيانه لأحداث المعراج وأفرد لها مكاناً مستقلاً، مع أنه لم يؤيده في هذا أي من تلامذة سيدنا أنس رضي الله عنه بل إن رفقاءه أيضاً لم يؤيدوه، والأغلب الأعم أن هذا هو السبب الذي جعل الإمام البخاري لا يروي حادثة المعراج عن حماد. وفيما يتعلق بحماد في كتب أسماء الرجال كُتب أن ذاكرته كانت ضعيفة في آخر أيامه ؛ ولهذا السبب لم يأخذ الإمام البخاري الروايات عنه، وطبقاً لفهم الإمام البخاري حاول أن يأخذ عنه الروايات التي نقلها قبل أن تضعف ذاكرته، فاختارها ووضعها في كتابه. وأنا أرجح وأعتقد أن هذه الرواية كانت في زمن ضعف ذاكرته، لأنه رفض الحادثة المشتركة للمعراج وشق الصدر مخالفاً بذلك كل الرواة الثقة.

وأعتقد أن الإمام مسلم يريد أن يقول شيئاً عن ذلك من أن إقرار حماد بأن حادثة شق الصدر والمعراج حدثتا في أوقات مختلفة أنه أمر خاطئ. وهكذا يذكر الإمام مسلم فيما يتعلق بأحداث المعراج بأن حماد أولاً هو تلميذ ثابت، وقد نقل عن سيدنا أنس رضي الله عنه الرواية التي لا يوجد فيها ذكر لحادثة شق الصدر، ثم إن رواية رفيق حماد وتلميذ ثابت وهو سليمان بن مغيرة جاء فيها ذكر شق الصدر مع المعراج. ثم تأتي بعدها رواية حماد التي فيها ذكر منفصل لحادثة شق الصدر في الطفولة، وبعد ذلك روايات التلامذة الآخرين لسيدنا أنس رضي الله عنه، والتي يذكر فيها حادثة شق الصدر جنباً إلي جنب مع حادثة المعراج. وهناك بعض الأسباب المعنوية في هذه الرواية والتي لم تؤيد بأي وسيلة أخرى مثلاً: إن حالة شق الصدر في أي عمر من الأعمار لابد وأنها تتعلق بعالم

محمداً قد قتل فاستقبلوه وهو منتقع اللون قال لي أنس: فكنت أرى أثر المخيط في صدره وربما قال حماد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أتاه آت. (يوسف عامر).

الروحانيات. وفي جميع الروايات الصحيحة والضعيفة التي مرت علينا سابقاً ورد فيها ذكر ما أخرج من القلب من حسد وبغض وغيره من الأمور، وما وُضع في القلب من سَكينة ورحمة وإيمان وغير ذلك من الأمور، وليس فيها أي شيء يتعلق بالجسمانيات. وبالرغم من هذا فقد روي حماد عن سيدنا أنس رضي الله عنه قوله " فكنت أرى أثر المخيط في صدره مثلما ذكرها (مسلم)، أو كما جاءت بصيغة الجمع في (مسند بن أحمد)، ولو أن هذه الحادثة تمت بالجسد فعلاً لكان الرواة الآخرون بالإضافة إلي حماد قد نقلوا الروايات الأخرى عن سيدنا أنس، ولكن هذا ليس مذكوراً. هذا إلي جانب أن الصحابة قد بينوا ملامح وحالة جسم الرسول صلى الله عليه وسلم، ولكن لم يذكر أحد منهم أي أثر على صدره الشريف، فكيف في هذه الحالة يمكن أن نسلم بهذا الشكل لهذه الحادثة.

شق الصدر مرتين وتأويله:

بعد هذا الشرح لو أصر أحد علي قبول رواية حماد فيمكن أن يقال أنه عندما بدأ الإدراك في الطفولة شق صدر الرسول صلى الله عليه وسلم، وأخرج منه الجزء الشيطاني الذي يكون في كل إنسان، وهذا هو ما ورد في رواية صحيح مسلم، ولم يوضع أي شيء في ذلك الوقت من العلم والحكمة، ولكن عندما كان قد اكتمل العقل في ليلة المعراج عمر قلبه بعد تطهيره بالعلم والحكمة كما جاء في جميع الروايات.

الكيفية الصحيحة لشق الصدر:

الحالة الصحيحة لشق الصدر أثناء المعراج وردت بعدة روايات وطرق مختلفة في صحيح البخاري وصحيح مسلم والنسائي وغيره بأن الرسول كان نائماً في الكعبة المشرفة، وكانت عيناه نائمتان ولكن قلبه كان مستيقظاً، وفجأة جاء جبريل ومعه بعض الملائكة فأيقظوا الرسول وأخذوه إلي بئر زمزم، وهناك شق صدره وغسل بماء زمزم، ثم أتي بطشت من الذهب مملوء بالإيمان والحكمة ثم وضعت هذه الثروة في صدره صلى الله عليه وسلم وتم غلقه، وبعدها صعد المـــلائكة به إلي السماء. ([1])

---

[1] ــ صحيح البخاري، وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في حديث الإسراء، باب المعراج: (٣٨٠٠) حدَّثنا هُدْبةُ بن خالدٍ حدَّثنا هَمامُ بن يحيىٰ حدَّثنا قَتادةُ عن أنسِ بن مالكٍ عن مالكِ بن صَعصعةَ رضيَ اللّهُ عنه: «أنَّ نبيَّ اللّهِ صلى الله عليه وسلم حدَّثه عن ليلةِ أُسري به قال: بينما أن في الحَطيم ــ وربما قالَ في الحِجر ــ مضطجعاً، إذ أتاني آتٍ فقدَّ ــ قال: وسمعته يقول: فشقَّ ــ ما بين هذه إلى هذه، فقلتُ للجارودِ وهوَ إلى جَنبي: ما يَعني به؟ قال: من ثُغرةِ نحرهِ إلى شعرَته ــ وسمعتهُ يقول من قَصِّهِ إلى

شعرته ــ فاستخرج قلبي، ثمَّ أُتيتُ بطَسْتٍ من ذهبٍ مملوءةٍ إيماناً، فغُسل قلبي، ثم حُشي، ثمَّ أُعيدَ، ثمَّ أُتيتُ بدابَّة دُونَ البَغلِ وفوقَ الحمار أبيضَ. ــ فقال له الجارودُ: هوَ البُراقُ يا أبا حمزةَ؟ قال أنسٌ: نعم ــ يَضَعُ خَطوَةً عندَ أقصى طرْفِه، فحُملتُ عليه، فانطلَقَ بي جبريلُ حتى أتى السماءَ الدُّنيا فاستفتَح، فقيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيلَ: ومَن معك؟ قال: محمد. قيلَ: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مَرحباً به، فنِعمَ المجيءُ جاء. ففتَح. فلما خَلَصتُ فإذا فيها آدمُ، فقال: هذا أبوك آدمُ، فسلمْ عليه. فسلمتُ عليه، فرَدَّ السلامَ ثم قال: مَرحَباً بالابنِ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صَعَدَ بي حتى أتى السماء الثانيةَ فاستفتحَ. قيل: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعمَ المجيء جاء. ففتَح. فلما خَلَصْتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة. قال: مَن هذا؟ قال: جبريلُ، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أُرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعمَ المجيء جاء. ففتَح. فلما خَلَصْتُ إذا يحيى وعيسى وهما ابنا خالة. قال: هذا يحيى وعيسى فسلمْ عليهما، فلسمتُ، فردّا، ثم قالا: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. ثمَّ صعد بي إلى السماءِ الثالثة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل، قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرَحباً به فنعمَ المجيء جاء. ففُتح، فلما خَلصتُ إذا يوسُف، قال: هذا يوسُف فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثمَّ قال: مَرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صعِدَ بي حتى أتى السماء الرابعة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومَن معك؟ قال: محمد. قيل: أوَقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعمَ المجيء جاء. ففتح. فلما خلصتُ فإذا إدريس، قال: هذا إدريسُ فسلم عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثم قال: مَرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صعِدَ بي حتى أتى السماء الخامسة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد صلى الله عليه وسلم. قيل: وقد أُرسلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به فنعمَ المجيء جاء. فلما خلصتُ فإذا هارونُ. قال: هذا هارونُ فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثم قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم صعِدَ بي حتى أتى السماء السادسة فاستَفتح، قيل: من هذا؟ قال: جبريل. قيل: من معك؟ قال: محمد. قيل: وقد أرسِلَ إليه؟ قال: نعم. قيل: مرحباً به، فنعم المجيء جاء. فلما خلصتُ فإذا موسى، قال: هذا موسى فسلمْ عليه، فسلمتُ عليه، فردَّ ثمَّ قال: مرحباً بالأخ الصالح والنبيِّ الصالح. فلما تجاوَزتُ بكى. قيلَ له: ما يُبكيك؟ قال: أبكي لأنَّ غلاماً بُعثَ بعدي يدخُلُ الجنةَ من أمَّته أكثرُ ممن يدخُلها من أمَّتي. ثم صَعِدَ بي إلى السماء السابعة، فاستَفتحَ جبريل، قيل: مَن هذا؟ قال: جبريل. قيل: ومن معك؟ قال: محمد. قيل: وقد بُعثَ إليه؟ قال: نعم. قال: مرحباً به، ونعمَ المجيء جاء. فلما خلصتُ فإذا إبراهيم، قال: هذا أبوك فسلمْ عليه. قال فسلمتُ عليه، فردَّ السلام، ثمَّ قال: مرحباً بالابنِ الصالح والنبيِّ الصالح. ثم رُفعَت لي سِدرةُ المنتهى، فإذا نَبقُها مثلُ قِلالِ هَجَر، وإذا وَرَقُها مثلُ آذانِ الفيَلَة. قال: هذه سِدرة المنتهى، وإذا أربعةُ أنهارٍ: نهران باطنان ونهرانِ ظاهران. فقلتُ: ما هذانِ يا جبريل؟ قال: أما الباطنان فنهرانِ في الجنة، وأما الظاهرانِ فالنيلُ والفُرات. ثم رُفعَ لي البيتُ المعمور. ثمَّ أُتيتُ بإناءٍ من خَمرٍ وإناءٍ من لَبَنٍ وإناءٍ من عسلٍ، فأخذتُ اللبَن، فقال: هيَ الفطرةُ التي أنت عليها وأمَّتُك. ثمَّ فُرضت عليَّ الصلاةُ خمسينَ صلاةً كلَّ يوم، فرجَعْتُ فمرَرْتُ على موسى، فقال: بما أُمرتَ؟ قال: أُمِرتُ بخمسينَ صلاةً كل يوم، قال: إن أمتكَ لا تَستطيعُ

حقيقة شق الصدر:

إن المعني البسيط والعام لظاهر هذه الألفاظ في هذه الواقعة فهمه العلماء علي أن شق الصدر حدث حقيقة، وإن قلب الرسول غُسل بماء زمزم ومُلئ بالإيمان والحكمة، وهذا أمر يفهمه كل مسلم، إلا أن الصوفية والعارفين يفهمونه بمعني آخر فيقولون " أما شق الصدر وملؤه إيماناً فحقيقته غلبة أنوار الملكية وانطفأ لهب الطبيعة وخضوعها لما يفيض عليها من حظيرة القدس. " ([1]) فالمعراج عنده هو هذا العالم ؛ لهذا فإن شق الصدر هو حادثة هذا العالم.

وعندنا فإن الاصطلاح الصحيح لشرح الصدر مثلما جاء في رواية سيدنا مالك بن صعصعة في صحيح مسلم باب الإسراء فشرح صدري إلي كذا وكذا، وفي السورة التي وردت في القرآن الكريم مثلما جاء في الترمذي إشارة إلي هذه الحادثة:

" ألم نشرح لك صدرك. ووضعنا عنك وزرك. الذي أنقض ظهرك. "(الشرح: ١ – ٣)

ومعني الشرح في اللغة العربية هو الشق، ومنه خرج اصطلاح الطب " علم التشريح " وبما أن شق أي شيء هو ظهور ما بداخله، لهذا فإن شرح الأمر أو شرح الكلام أو شرح الأسلوب أو شرح الكتاب وما إلي ذلك يظهر منه المعني المجازي، ومنه خرج هذا الاصطلاح وهو شرح الصدر والذي يعني شق الصدر، وهو ما يقصد به في كلام العرب وتوضيح حقيقته، وقد استعمل هذا الاصطلاح بكثرة في الأحاديث والقرآن الكريم. وعندما أُمر سيدنا موسى بالذهاب إلي فرعون دعا ربه قائلاً " ربِ اشرح لي صدري. ويسر لي أمري. واحلل عقدة من لساني. يفقهه قولي " (طه: ٢٥ – ٢٨)

خمسينَ صلاةً كل يوم، وإني والله قد جربتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجعْ إلى ربِّك فاسألْهُ التخفيفَ لأمتك، فرجَعت، فوضعَ عني عَشراً، فرجَعتُ إلى موسى فقال مثله. فرجعتُ فوَضع عني عَشراً، فرجعتُ إلى موسى فقال مثله. فرجعت فوَضَعَ عني عشراً، فرجعت إلى موسى فقال مثله. فرجعتُ فأمِرتُ بعَشرِ صلوات كلَّ يوم، فرجعتُ فقال مثله. فرجعتُ فأمِرتُ بخمس صلواتٍ كل يوم، فرجعتُ إلى موسى فقال: بما أمِرتَ؟ قلت: أمِرتُ بخمسِ صلوات كل يوم. قال: إن أمتكَ لا تستطيعُ خمسَ صلواتٍ كل يوم، وإني قد جَربتُ الناسَ قبلك، وعالجتُ بني إسرائيلَ أشد المعالجة، فارجعْ إلى ربِّكَ فاسألهُ التخفيف لأمتك. قال: سألتُ ربِي حتى استحيَيتُ، ولكن أرضى وأسلم. قال: فلما جاوَزت نادَى مُنادٍ: أمضيَتُ فريضتي، وخفَّفت عن عبادي». (يوسف عامر) ومسلم والنسائي ــ باب المعراج وفرض الصلاة ومسند أحمد روايات أنس وغيره

[1] ــ حجة الله البالغة ــ ج٢ ــ ص ٢٠٦.

إن علم الأنبياء وفهمهم يبدأ من التعليم الإنساني والعقل والحكمة المادية، ولا يدين لاستقراء المنطق والتجارب السابقة في إثبات دعوتهم وأخذ نتائجهم. بل إن ما يعرفونه وما يفهمونه مصدره هو التعليم الإلهي أو ما يعرف بالعلم اللدني، ومعني " لدن " في العربية القريب. وبما أن هذا العلم موهبة من الله وليس عن طريق الكسب والتحصيل، لهذا أطلق عليه في العرف العام العلم اللدني. وقد ورد في القرآن الكريم فيما يتعلق بسيدنا خضر " وعلمناه من لدنا علما " (الكهف: ٦٥)

وفيما يتعلق بالرسول صلى الله عليه وسلم قوله:

" كذلك نقص عليك من أنباء ما قد سبق وقد أتيناك من لدنا ذكراً " (طه: ٩٩)

وقد خاطب الله رسوله محمد صلى الله عليه وسلم في بداية قصة سيدنا يوسف عليه السلام:

" نحن نقص عليك أحسن القصص بما أوحينا إليك هذا القرآن وإن كنت من قبله لمن الغافلين " (يوسف: ٣)

وفي سورة الشورى:

" وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا ما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا " (الشورى: ٥٢)

وهذا قوله فيما يتعلق بالأنبياء الآخرين، فيخاطب سيدنا إبراهيم والده:

" يا أبت إني قد جاءني من العلم ما لم يأتك " (مريم: ٤٣)

وفيما يتعلق بسيدنا داود وسليمان قوله: " ولقد آتينا داود وسليمان علما " (النمل: ١٥)

وقوله لسيدنا يوسف عليه السلام:" وآتيناه حكماً وعلما " (يوسف: ٢٢)

ويقول سيدنا يوسف عليه السلام:

" ذالكما مما علمني ربي " (يوسف: ٣٧)

وفيما يتعلق بلوط عليه السلام:

" ولوطاً آتيناه حكماً وعلما " (الأنبياء: ٧٤)

" وقوله بعد ذكر سيدنا سليمان وبعض الأنبياء الآخرين:

فهمناها سليمان وكلاً آتيناه حكماً وعلما " (الأنبياء: ٧٩)

والخلاصة: ـــ إن علم الأنبياء عليهم السلام ما هو إلا نتيجة للتعليم الإلهي، وبدون تمعن وفكر وتحصيل واكتساب وجمع معلومات تظهر أمامهم أمور علمهم. ويجب أن نفهم

لمجرد التمثيل فقط في أن أمراً ما قد يخطر في ذهن الشعراء والمؤلفين والمبدء والعقلاء الآخرين بدون تأمل وتعمق أحياناً وكان يبدو بأن باب العقل والصدر قد فُتح فجأة ودخل فيه شيء ما، ولكن شرح الصدر مثال بسيط جداً، وهناك مئات الدرجات التي تعطي للأنبياء والأولياء والمؤمنين كل علي حسب منزلته للحصول علي هذا المنصب الخاص، بمعني أنه بلا حجة وبرهان تظهر صداقة الإسلام أمامه. وقد ورد في البخاري الشريف أن سيدنا عمر رضي الله عنه نصح أبا بكر رضي الله عنه عندما كان خليفة للمسلمين بأن يجمع المصحف الشريف، ولكن سيدنا أبا بكر خالفه وقال إن الأمر الذي لم يفعله الرسول في حياته كيف نفعله نحن، وظل سيدنا عمر يلح علي سيدنا أبي بكر، وظل أبو بكر رضي الله عنه علي رفضه، ولكن بعد عدة أيام أدرك سيدنا أبو بكر الموقف فجأة وقال في هذا الشأن:

" حتى شرح الله صدري لذلك " (البخاري تأليف القرآن)[١]

وقد روي المفسر ابن جرير الطبري عن كثير من الصحابة: أن الصحابة رضوان الله عليهم سألوا الرسول: يا رسول الله كيف يكون شرح الصدر ؟ فأخبر بأنه يدخل نور في القلب والذي به ينفتح الصدر. ثم سألوه مرة أخرى ما هي علامته ؟ فقال (ما معناه):

---

[١] ــ وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب فضائل القرآن، باب جمع القرآن: (٤٨٦٦) حدّثنا موسىٰ بن إسماعيل عن إبراهيمَ بن سعدٍ حدَّثنا ابنُ شهاب عن عُبيد بن السَّبَّاق «أن زيد بن ثابت رضي الله عنه قال: أرسل إليَّ أبو بكر الصديق مَقتلَ أهلِ اليَمامة، فإذا عُمرُ بن الخطابِ عندهُ، قال أبو بكر رضي الله عنه: إنَّ عمر أتاني فقال: إنَّ القتال قد يستَحَرّ يومَ اليمامة بقُرَّاءِ القرآن، وإني أخشى إن استَحَرَّ القَتلُ بالقرَّاءِ بالمَواطن فيَذهب كثيرٌ من القرآن، وإنِّي أرى أن تأمُرَ بجمع القرآن. قلت لِعُمرَ: كيف نفعَلُ شيئاً لم يفعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؟ قال عُمر: هذا واللهِ خيرٌ. فلم يَزلْ عُمرُ يُراجِعُني حتى شرحَ الله صدري لذلك ورأيت في ذلك الذي رأى عُمر. قال زيد: قال أبو بكر: إنك رجلٌ شابٌّ عاقِل لا نَتهِمُك، وقد كنتَ تكتُبُ الوحيَ لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم، فتَتَبَّع القرآن فاجمعْه. فواللّهِ لو كلفوني نقل جَبَل من الجبال ما كان أثقلَ عليَّ ممَّا أمرني به مِن جمع القرآن. قلت: كيف تَفعَلونَ شيئاً لم يَفعله رسولُ الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: هو واللّهِ خيرٌ. فلم يَزَلْ أبو بكر يُراجعني حتى شَرَحَ الله صَدري للذي شرح له صدرَ أبي بكر وعُمر رضي الله عنهما. فتَتَبَّعت القرآنَ أجمعُه منَ العُسُبِ واللِّخاف وصُدور الرِّجال، حتى وجدْت آخِرَ سُورة التَّوبة مع أبي خُزَيمة الأنصاريِّ لم أجِدْها معَ أحَدٍ غيره {لقد جاءَكم رسولٌ مِن أنفُسِكم عَزيزٌ عليه ما عَنِتُّم} (التوبة: ١٢٨)، حتَّى خاتمة بَراءةَ، فكانت الصُحفُ عند أبي بكر حتى توفاه الله، ثم عند عُمَر حياتَه، ثم عند حَفْصَةَ بِنْتِ عُمر رضيَ الله عنه». (يوسف عامر).

الشوق إلي الحياة الآخرة والاستعداد ليوم الرحيل من هذا العالم الكاذب. ([1]) وهذه هي حقيقة شق الصدر وملؤه بالنور الإلهي.

المقامات المناسبة لشق الصدر والمصلحة فيها:

إن الآيات التي ذكر فيها هبة العلم التي أعطيت للأنبياء عليهم السلام ورد في أكثرها لفظ " الحكم " مع لفظ " العلم " والذي يتضح منها أنه بالإضافة إلى المقتضيات الشرعية الخالصة، فإنه من الضروري لتقرير النظم والحكم والفصل في الأمور من العلم البديهي الصحيح الذي يأتي بغير تفكير أو تدبر، ولأن المعراج كان عنواناً للهجرة ومستقبل الإسلام سوف يمنح النبي صلى الله عليه وسلم بعده سلطة الحكم، لهذا كانت هذه مناسبة صحيحة لشرح صدره صلى الله عليه وسلم، وبالإضافة إلى ذلك فإن حقائق ومشاهد المعراج التي هي قمة إدراك الأنبياء لا بد للإحاطة بها من شرح الصدر.

---

[1] ــ تفسير ابن جرير الطبري ــ ج ٨ ــ ص ١٩ ــ ط مصر (والحاكم في المستدرك ــ ج٤ ــ ص٣١١ ــ بسند عدي بن الفضل)

هذه حقيقة بأن معجزات الأنبياء السابقين قد حظيت بشيء من التكرار والتفصيل في القرآن الكريم، ولم تحظ معجزات الرسول صلى الله عليه وسلم بهذا القدر من التفصيل والتكرار، فأراد الكفار أن يستنتجوا منها أن الرسول صلى الله عليه وسلم قد حرم من هذه الهبة الربانية، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى انخدعت الفرقة الإسلامية التي تؤمن بالعقل وقالت: إن الإسلام أنكر خوارق العادات، لأنه في نظرهم طالما أن حياة الرسول صلى الله عليه وسلم كانت خالية من هذه الأمور فإن المعجزات التي تظهر في حياة الأنبياء السابقين ما هي إلا قصور من وهم عند العقلاء أيضاً.

لماذا لم يأت تفصيل في القرآن الكريم لكل معجزات النبي صلى الله عليه وسلم:

الحقيقة أن الاختلاف الظاهر بين دلائل ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم وبين الأنبياء الآخرين له أسباب متعددة لم يستطع قصيرو النظر الوصول إليها، لهذا وقعوا في الشكوك والشبهات: ـــ

١ـــ السبب الأول لهذا الاختلاف: إن كل من قرأ القرآن الكريم بعناية وعمق، أو من اتضحت له حقيقة المعجزة من وجهة النظر القرآنية في الصفحات السابقة أدرك وآمن بأن الإسلام لم يعط هذه الأهمية الكبيرة للمعجزات المادية والظاهرية لتصديق النبوة كالتي اختص الله بها المسيحية والتي تظهر في كتابها المقدس، بل إن الإســـلام دعا الإنسان في الغالب للتفكر والتدبر والفهم والإدراك، وأقر الدلائل الروحية والخصائص الداخلية للنبوة كأساس للإيمان والتصديق، وبناءاً علي هذا فإن الإسلام اعتبر أن انتشار المعجزات والخوارق وتكرارها أمر مخالف لمبادئه في إثبات صدق ما يقدمه ؛ ونتيجة لهذا تنزه الإسلام عن هذه الضلالات، تلك الضلالات التي اختفي علي أثرها نور الديانة المسيحية.

٢ـــ السبب الثاني: إن الآيات بالنسبة للأنبياء السابقين عليهم السلام كانت محدودة ومعدودة، ولهذا فإن القرآن عندما يشير إلي مثل هذه الآيات كان يضطر إلي تكرار بعض هذه الأحداث المثيرة عنهم، وبتكرارها هذا تبدو جلية أمام قصيرى النظر، وعلي العكس من ذلك فإن آيات الرسول صلى الله عليه وسلم كانت متنوعة وغير محدودة لدرجة أن

تكرار أي من هذه المعجزات لم يكن له ضرورة، ولهذا فإن الآيات المحمدية منتشرة في كل صفحات القرآن الكريم بطريقة يصعب علي ناقص العقل أن يعرفها.

٣ــ السبب الثالث: ــ وكما مر بنا من تفصيلات في المباحث السابقة أن تعليم الإسلام يقول بأن المعجزات وخوارق العادات ليست من اختيار وقوة الرسل، بل أنها تكون بإرادة ومشيئة الله، ولهذا فإن آيات ومعجزات الرسول صلى الله عليه وسلم لا تنسب إلي ذات المصطــفي، بل أنهـــا تنسب إلي قدرة الله، ولهذا لا يرغب الكثيرون في نسبتها إلي النبي صلى الله عليه وسلم.

٤ــ السبب الرابع: هناك صحيفة ومستند عند كل المذاهب الأخرى والتي حوت كل شيء من أوامر الله وأقوال رسله وحياتهم وأحوالهم ومعجزاتهم، إلا أن الإسلام يعتمد علي شيئين. الأول: وهو الصحيفة الإلهية، والتي حوت أوامر الله فقط. والثاني: الحديث والسنة، والتي حوت أحوال الرسول صلى الله عليه وسلم وأقواله ومعجزاته وغيره من الأمور الأخرى بشكل مستقل ومنفصل، وهي في ذاتها من ناحية السند أقوى وأعلى من صحف المذاهب الأخرى، ولهذا لم يجد ربنا سبحانه وتعالي ضرورة لذكرها بالتفصيل في كتابه العزيز لعدم أهمية هذه التفصيلات، بل أنه اعتبر ذخيرة الأحاديث ذات السند كافية لهذا.

دليل كون الرسول صاحب معجزة في القرآن الكريم:

والخلاصة: إن هذه هي الأسباب التي علي أساسها تجرأ غير العقلاء في أن يدعوا بأن القرآن الكريم في آياته يظهر الرسول صلى الله عليه وسلم خال من الآيات والمعجزات، ولكن الأمر الذي يستحق التأمل والنظر في هذا الأمر هو ما نقله القرآن الكريم بغرض نفي أقوال الكفار للنبي صلى الله عليه وسلم، وقد اتهموه في مواقع متعددة بأنه ساحر وكاهن – نعوذ بالله من هذا –، ليس هذا فحسب، بل إن القرآن الكريم نفسه لم ينجو من هذه التهمة؛ وعمل المنجمين عند العرب هو التنبؤ والإخبار عن الغيب، والسحر كما هو معروف للعامة ما هو إلا فعل العجائب وغرائب الأشياء، وبما أن الرسول لم يخبر بأمور الغيب قبل وقتها، ولم تصدر عنه خوارق ولا معجزات، فكيف يتهمونه بالسحر والكهانة، والقرآن يدافع عن الرسول في هذه الآيات التالية: ــ

" فما أنت بنعمت ربك بكاهن " (الطور: ٢٩)

" ولا بقول كاهن " (الحاقة: ٤٢)

ويخبر الله رسوله بأحوال كفار قريش مخاطباً إياه: ـــ

(وَإِذَا رَأَوْا آيَةً يَسْتَسْخِرُونَ. وَقَالُوا إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُبِينٌ) (الصافات:١٤، ١٥)

ويثبت من هذه الآية إن ما كان يبدو للكفار من المعجزات كانوا يسخرون منها، ويقلون بأنها سحر، ويظهر منها أيضاً أنهم كانوا يشاهدون معجزات صلى الله عليه وسلم، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى كانوا ينسبون إليه السحر.

" ولما جاءهم الحق قالوا هذا سحر وإنا به كافرون، وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم " (الزخرف: ٣١)

" قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين " (الأحقاف: ٧)

" هل هذا إلا بشر مثلكم أفتأتون السحر وأنتم تبصرون " (الأنبياء: ٣)

" قال الكافرون إن هذا لسحر مبين " (يونس: ٢)

ولما بشر سيدنا عيسى عليه السلام بقدومه صلى الله عليه وسلم قالوا بعدها: ـــ

" فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين " (الصف: ٦)

ويثبت من أقوال الكفار هذه أنه قد ظهر منه بعض المعجزات، والتي عبروا عنها بالكهانة والسحر والتي منها يثبت منها بالقطع أنه صاحب معجزة.

ذكر معجزاته وآياته صلى الله عليه وسلم في القرآن الكريم:

بعد هذا الدليل الإجمالي يجب علينا أن ندرج الآيات والأدلة الموجودة في القرآن الكريم حتى تتضح أمام أعيننا، ويمكن تقسيم هذه الآيات والدلائل إلي ثلاثة أقسام:

١ـــ المعجزات التي أتت لدعوة وهداية الكفار وتقوية إيمان المسلمين.

٢ـــ التأييد الغيبي للرسول في ساعات الشدة والمحنة.

٣ـــ التنبوءات التي جاءت مطابقة تماماً لكل ما صدر عن الرسول، وسنفصل هذا الإجمال في الأوراق التالية.

معجزة القرآن

"قل لئن اجتمعت الإنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله"(الإسراء:٨٨)

وعندما طلب الكفار من الرسول معجزة قال الله تعالي:

" وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم " (العنكبوت: ٥٠ – ٥١)

وقد أقر الرسول صلى الله عليه وسلم بأن معجزته هي أكبر وحي سماوي مقارنة بمعجزات الأنبياء الآخرين. وقد فسر الرسول صلى الله عليه وسلم هذه الآية بقوله: ـــ

«ما مِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلاّ أُعطِيَ منَ الآيات ما مثلهُ أُومِن ــ أو آمن ــ عليهِ البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُهُ وَحْياً أَوحاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجو أني أكثَرُهم تابعاً يومَ القيامة». (صحيح البخاري باب الاعتصام)[1]

ويمكن تفسير العديد من النقاط بهذا الحديث: ـــ

١ــ في أن كل رسول لابد وأن يكون صاحب معجزة.

٢ــ أن معجزات الأنبياء الآخرين عليهم السلام مؤقتة، بمعني أنها تحدث وتنتهي إلا أن معجزة الرسول صلى الله عليه وسلم قائمة وباقية إلي يوم القيامة.

٣ــ وبما أن المعجزات موقوتة (مؤقتة) لهذا فإن الأثر الذي ينشأ فيها لابد وأن يكون عارضاً، علي العكس من ذلك معجزة القرآن الكريم، وبما أنها قائمة إلي الأبد، ولهذا فإن أثرها قائم ودائم وسيظل يجذب أناس آخرون إليه إلي يوم القيامة.

والآيات التي أعطاها الله لرسوله فيها معجزة واحدة فقط التي تحدي بها الله تعالي بأن يأتي بمثله: ـــ

" قل لئن اجتمعت الأنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً " (الإسراء: ٨٨)

---

[1] ــ وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري، كتاب الاعتصام: (٧١١٢) حدَّثَنا عبدُ العزيز بنُ عبدِ الله حدَّثَنا الليثُ عن سعيد عَن أبيه عن أبي هريرةَ عنِ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما مِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلاّ أُعطِيَ منَ الآيات ما مثلهُ أُومِن ــ أو آمن ــ عليهِ البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُهُ وَحْياً أَوحاهُ اللَّهُ إليَّ، فأرجو أني أكثَرُهم تابعاً يومَ القيامة». (يوسف عامر).

وفي سورة هود لم يطلب القرآن كله إلا بعشر سور مثله: ــ

" أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعو من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين " (هود: ١٣)

وبعدها طلب التحدي بأية واحدة بدلاً من عشر سور: ــ

" وإن كنتم في ريب مما نزلنا علي عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعو شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين " (البقرة: ٢٣)

" فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين " (البقرة: ٢٤)

وآية أخري في نفس المعني في سورة يونس: ــ

" أم يقولون افتراها قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين" (يونس: ٣٨)

ويقول الله تعالي في سورة الطور فليأتوا بحديث مثله: ــ

" ألم يقولون تقوله بل لا يؤمنون. فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين "

(الطور: ٣٣ - ٣٤)

ويتفق جميع المسلمين علي أن القرآن معجزة، ويختلفون في نوعية إعجازه وسببها:

١ــ بعض المعتزلة يعدون أسلوب القرآن الكريم هو المعجزة بمعني أن كلام العرب وأسلوبه الذي كانوا عليه جاء القرآن بأسلوب بديع وجميل مغاير لهذا الأسلوب الشائع بين العرب، وكان كلامهم أكثره شعري في حين اختار القرآن الكريم الأسلوب النثري، وكان كلام الكهان العرب في النثر أيضاً إلا أنه كان فيه تكلف وتصنع، والقرآن الكريم اختار أسلوب وسطاً بين النثر والشعر لم يكن بلغاء العرب يتخيلونه، كقراءة القرآن والحفاظ علي المقاطع والفواصل، وبداية عرض أي شيء ونهايته، ونظام الآيات كل هذا يدخل في دائرة الإعجاز.

٢ــ ومن المعتزلة تري الجاحظ والأشاعرة يقرون بأن معجزة القرآن الكريم تقوم علي الفصاحة والبلاغة.

٣ــ ويعتقد نظام المعتزلي وابن حزم الظاهري ([1]) إن معجزة القرآن الكريم في أن الله تعالي بقدرته التامة أعجز ألسنة بلغاء العرب والعجم، ولم يستطيعوا أن يأتوا بمثله، وهو ما يراه الإمام الرازي أقرب إلي الصلوات ([2])

٤ــ وعند بعض المتكلمين يري أن معجزة القرآن هي الإخبار عن الغيب والتنبؤات التي خارجة عن دائرة الإنسان.

٥ــ يقول بعض العلماء أن إعجاز القرآن هو أنه أفشي الأسرار المكنونة في قلوب الناس، والتي لا يمكن أن يصل إليها أي بشر.

٦ــ ويقول أحد العلماء أن معجزة القرآن الكريم تكمن في أنه من أوله إلي آخره كلام يمشي علي نمط واحد من الصحة والرفعة والكمال، علي عكس كلام البشر الذي فيه انخفاض ورفعة، وصحة وخطأ و ونقص وكمال. الخلاصة: أنه يمشي علي أنماط مختلفة.

٧ــ هناك رأي لشخصين يقول بأن كلام بليغ يخرج من لسان أمي هي المعجزة.([3])

٨ــ وهناك سبب آخر لمعجزة القرآن هي أثره الخارق للعادة وسيطرته علي قلوب البشر.

٩ــ وقد أثبت البعض في أن أصل معجزة القرآن هي تعاليم وأحكام القرآن ([4])

والحقيقة أن هذه الاختلافات لا تتعارض فيما بينها، كما أنه لا يمكن حصر الإعجاز في شيء واحد، فوجوه الإعجاز في القرآن الكريم كثيرة، ولا يمكن إحاطتها، فكل شخص أخذ ما يتماشى مع وجهة نظره وجعله وجهاً لإعجاز. وعندما يعرض أي شيء جميل علي نفاذ الفن، فلابد وأن يكون لكل واحد منهم جانب يمتدحه، فنري بعضهم يمتدح لونهِ، والبعض يمتدح اعتدال قامته، والبعض يمتدح ملامحه ومقاطعه والبعض يمتدح شكله وهيئته. والحقيقة إن الشيء نفسه ما هو إلا مجموعة لهذه الصفات، وكل ناقد يراه بعينه وطريقته، ومن منا لا يعجبه كلام حافظ وسعدي، ولكن لو سألت الناس عن

---

[1] ــ الفصل في الملل والنحل لابن حزم المجلد الثالث باب إعجاز القرآن.

[2] ــ التفسير الكبير ــ المجلد الأول ــــ ص ٣٣٥ ــ تفسير آية " وإن كنتم في ريب ".

[3] ــ ذكرت مذاهب المتكلمين هذه في شرح مواقف إعجاز القرآن للباقلاني والإتقان للسيوطي، وفصل في الملل والنحل لابن حزم.

[4] ــ هذا ما أقره شاه ولي الله في كتابه الفوز الكبير، ومولانا شبلي في مقالة إعجاز القرآن.

محاسن كلامهم، فلا يمكن أن يجتمعوا علي أمر واحد، فالبعض يري أن جمال كلامهم ينحصر في اختيارهم للبحور الموسيقية الطربية لغزلياتهم، والبعض يمتدح حلاوة أسلوبهم وطريقة أدائهم، والبعض الآخر يمتدح حلاوة كلامهم واختيارهم للتراكيب النادرة، والبعض الآخر يركز علي قوة فصاحتهم وتشبيهاتهم، والبعض يصل بكلامهم إلي درجة الكمال لما فيه من إبداع في المعاني وعمق في الفلسفة والموعظة والحكمة.

عباراتنا شتي وحسنك واحد وكل إلي ذاك الجمال يشير

ولو استقصينا آيات القرآن الكريم التي تشير إلي وجوه الإعجاز تبدو لنا نحن مختلفة، وهذا دليل علي أن وجوه الإعجاز فيها متعددة وكثيرة، ولا يمكن حصرها في شيء واحد، فأحياناً تمتدح تعاليم الله فيها، وأحياناً تشير إلي تأثيرها وقوة جذبها، وأحياناً إلي وحدانية الله، وأحياناً تشير إلي عربيتها وجمال كلامها، وأحياناً تخبرنا عن معجزة رسالة النبي الأمي، وفي موضع آخر يصف الله آياته بأوصاف خاصة، فنراه يقول عن نفسه أنه نور، وهدي، وحكمة وبينة، وهناك أوصاف أخري، وهكذا نورد الآيات التالية بالترتيب: ـــ

الفصاحة والبلاغة:

" لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين " (النحل: ١٠٣)

" بلسان عربي مبين " (الشعراء: ٨٤)

" قرءاناً عربياً غير ذي عوج " (الزمر: ٢٨)

" قرآن مبين " (يس: ٦٩ ؛ والحجر: ١)

الوحدة وعدم الاختلاف:

" أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً " (النساء: ٨٢)

قوة التأثير:

" ولقد جاءهم من الأنباء ما فيه مزدجر حكمة بالغة فما تغن النذر "(القمر: ٤– ٥)

كان الكفار يقولون عن القرآن بأنه سحر لماذا ؟. نظراً لقوة تأثيره وتمكنه في قلوب الناس:

" وإذا تتلي عليهم آياتنا بينات قال الذين كفروا للحق لما جاءهم هذا سحر مبين " (الأحقاف: ٧)

كان الكفار يقولون للناس عندما يقرأ محمد صلى الله عليه وسلم القرآن: ألغو فيه حتى لا يستطيع أحد سماعه ويتأثروا به:

" وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغو فيه لعلكم تغلبون "

التعليم والهداية:

" ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين " (البقرة: ٢)

" إن هذا القرآن يهدي للتي هي أقوم " (الإسراء: ٩)

" قل فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه " (القصص: ٤٩)

" قد جاءكم من الله نور وكتاب مبين " (المائدة: ١٥)

" ولقد أنزلنا إليك آيات بينات " (البقرة: ٩٩)

" وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون. أن تقولوا إنما أنزل الكتاب علي طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدي منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدي ورحمة " (الأنعام: ١٥٥ – ١٥٧)

" وننزل من القرآن ما هو شفاء ورحمة للعالمين " (الإسراء: ٨٢)

" وإنه لكتاب عزيز. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد. ما يقال لك إلا ما قد قيل للرسل من قبلك إن ربك لذو مغفرة وذو عقاب أليم. ولو جعلناه قرآناً أعجمياً لقالوا لولا فصلت آياته أعجمي وعربي قل هو للذين آمنوا هدي وشفاء " (فصلت: ٤١ – ٤٤)

" يا أيها الناس قد جاءتكم موعظة من ربكم وشفاء لما في الصدور وهدي ورحمة للمؤمنين " (النساء: ١٧٤)

والقرآن الحكيم

والقرآن ذي الذكر صلى الله عليه وسلم

عدم الإتيان بمثل القرآن:

" لا يأتون بمثله " (الإسراء: ٨٨)

" ولن تفعلوا " (البقرة: ٢٤)

القرآن جاء علي لسان نبي أمي:

" وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون. بل هو آيات بينات في صدور الذين أوتوا العلم وما يجحد بآياتنا إلا الظالمون. وقالوا لولا أنزل

عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله وإنما أنا نذير مبين. أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم إن في ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون " (العنكبوت: ٤٨ – ٥١)

الوعد بحفظه والإبقاء عليه:

" وإنا له لحافظون " (الحجر: ٩)

" إنا علينا جمعه وقرآنه " (القيامة: ١٧)

" لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه " (فصلت: ٤٢)

قوة الدليل:

" فقد جاءكم بينة من ربكم " (الأنعام: ١٥٧)

" قل فلله الحجة البالغة " (الأنعام: ١٤٩)

" هذا بصائر من ربكم وهدي ورحمة لقوم يؤمنون " (الأعراف: ٢٠٣)

لقد كتبت هذه الآيات القرآنية لعدة أمور وضعت أمام أعيننا، ولو أراد أحد الاستقصاء فيمكن أن تظهر أمور أخرى.

الخلاصة هي أن القرآن الكريم لم يكن معجزاً لفصاحته وبلاغته فقط، بل أنه معجزة كاملة بكل الوجوه، والدليل المختصر علي كمال معجزته هو أنه منذ ألف وثلاثمائة وخمسين عاماً ونصف وقف النبي علي قمة جبل الصفا وتحدي به الدنيا أن تأتي بمثله، أليس هذا دليلاً قوياً علي أنه بمرور ثلاثة عشر قرناً لم يرتفع أي صوت لقبول هذا التحدي، ولو سلّمنا بأن معجزة القرآن هي الفصاحة والبلاغة أليس هذا دليلاً في حينه علي أن أمياً لم يكن في مقدوره أن يقرأ حتى ولو شعراً واحداً موزوناً، فكيف له أن يأتي بمثل هذا الكلام الفصيح ([1]). لقد كان هذا في الوقت الذي كان يوجد فيه في كل قبيلة من قبائل العرب العديد من الشعراء والخطباء وأهل البلاغة، إلا أن ألسنتهم خرست، أمام هذا الكلام الأبدي، كما أن كفار العرب قد افتروا علي الإسلام ورسول الإسلام، فقد حاولوا كثيراً النيل منه، كما أنهم ضحوا في سبيل ذلك بكل غالٍ وثمين، فدمروا الدين، وضحوا بأبنائهم وأعزاءهم، كما أنهم وضعوا أرواحهم علي أكفهم، وبثوا جنودهم في ميدان الحرب، وفتح أثرياءهم خزائنهم من أجل هذا، كما أن شعراءهم وخطبائهم جعلوا صحراء العرب تلتهب ببياناتهم، فعلوا كل هذا ولم يستطيعوا أن يأتوا بسورة من مثله

[1] ـ صحيح البخاري.

يبطلوا من خلالها صدق دعوة الإسلام. أليس هذا دليلاً كافياً علي عجزهم رغم أنهم أهل بلاغة وفصاحة.

لقد كان من شعراء العرب الفطاحل في ذلك الوقت حسان بن ثابت رضي الله عنه، وعامر بن أكوع، وطفيل بن عمر، وزيد الجليل، والزرقاني، والشماس، والأسود بن سريع وكعب بن زهير وعبد الله بن رواحة وغيرهم كثيرون، إلا أنهم جميعاً سلموا لعظمة القرآن.

فانظر إلي لبيد الشاعر العربي المشهور، وأحد أصحاب المعلقات السبع عندما أسلم وطلب منه سيدنا عمر رضي الله عنه أن يقول بعض الأشعار فقال: بعد أن علمني ربي سورة البقرة وآل عمران فلا أري قرضي للشعر مناسباً ([١]).

لقد كان أنيس شاعر قبيلة غفار، فعندما سمع دعوى الرسول صلى الله عليه وسلم تخفي وجاء إلي مكة وسمع بعض الآيات القرآنية من لسان الرسول صلى الله عليه وسلم ورجع، فسأله أخوه كيف وجدته ؟ فأجاب إن قريشاً تقول عنه بأنه ساحر وشاعر وكاهن، ولكني سمعت كلام الكهان فليس هذا كلام كهان، وأنا أعرف كل أوزان الشعر فهو ليس شاعراً، وأقسم أن محمداً صادق وقريشاً كاذبة. ([٢])

سمع ضماد الأزدي الذي كان يقوم بأعمال السحر، أن محمداً - نعوذ بالله - قد أصابه الجنون، وحضر لعلاجه صلى الله عليه وسلم، فقرأ الرسول أمامه الحمد والشهادة، فتحير عندما سمع ذلك، وطلب من الرسول قراءتها ثلاث مرات، ثم قال أقسم بالله أنني سمعت كلام الكهان وتعاويذ السحرة وقصائد الشعراء، إلا أن كلامك شيء آخر، وإن أثره سيعبر البحار.([٣])

ويروي عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أنه قد اجتمع أبو جهل مع أكابر قريش ليتشاوروا في أمر رسالة محمد صلى الله عليه وسلم التي تنتشر بقوة كل يوم، فقالوا لابد لنا من البحث عن شخص له معرفة بالشعر والكهانة والسحر حتى يعرفنا ما هذا الشيء، فقال أحد سادة قريش وهو عتبة بن ربيعة أنا أعرف كل شيء، فلو أمرتم سأذهب لأري هذا، وبالفعل ذهب إلي بيت الرسول، وقدم بعضاً من شروط الصلح، فأجابه

---

[١] ـــ استيعاب بن عبد البر ترجمه لبيد.

[٢] ـــ صحيح مسلم إسلام أبي ذر.

[٣] ـــ صحيح مسلم باب تخفيف الصلاة والخطبة.

الرسول بقراءة سورة فصلت، وما أن قرأ الرسول صلى الله عليه وسلم بعضاً من آيات هذه السورة حتى وضع يده علي فم الرسول، وقال له: بحق القرابة كفي، ثم رجع إلي بيته وظل فيه لعدة أيام لم يخرج منه، فذهب إليه أبو جهل فقال له: ماذا حدث يا عتبة، هل ذهبت إلي بيت محمد فأطعمك، ووقعت في شراكه ؟ فقال عتبة: أنت تعلم جيداً أنني من الأثرياء، فلا يمكن أن أطمع في المال، إلا أن محمداً أجابني بقراءة بعض من كلامه، ليس شعراً أو كهانة أو سحراً، ولم أسمع هذا الكلام قط من قبل، والكلام الذي قرأه فيه تهديد بالعذاب الأليم، ورجوته أن يتوقف عن القراءة، وخفت أن ينزل عليّ العذاب، فقال الناس: إن محمداً سحر عتبة بكلامه ([1])

كان وليد بن المغيرة صاحب سطوة ومال في قريش، فحضر ذات مرة إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم وطلب من الرسول قراءة بعض الآيات، فقرأ عليه الرسول بعضاً منها، وطلب تكرارها، وفي النهاية قال هو نفسه: أقسم بالله أن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن هذا ليس بكلام البشر. ([2])

لقد قرأ الرسول بعضاً من آيات القرآن أمام مفروق أمير بني ذهل بن شيبان، ورغم أنه لم يسلم إلا أنه تأثر بكلام الله عز وجل. ([3])

وعندما تلا سيدنا جعفر سورة مريم في بلاط النجاشي رق قلبه وسالت الدموع من عينيه وقال: أقسم بالله أن هذا الكلام والإنجيل كلاهما من ضوء مصباح واحد ([4])

وقد نقل ابن إسحاق بعضاً من هذه الواقعات في سيرته، وقد قرأنا في المجلدات الأولي كيف كان الناس يتأثرون بسماع آيات القرآن الكريم، ورأينا كيف أن سيدنا عمر رضي الله عنه قد لان قلبه بسماع ([5]) سوره وبعضاً من سوره ([6]) وكيف أن سيدنا جبير

---

[1] ـ كتاب التفسير لابن مردويه ـ مسند أبو يعلي وسيرة ابن إسحاق، والفقرة الأخيرة هي التي من سيرة ابن إسحاق.

[2] ـ مستدرك الحاكم عبد الرازق ـ المجلد ٢ ـ ص ٥، ٦.

[3] ـ الروض الأنف شرح سيرة ابن هشام المجلد الأول ـ ص ٣٩٤ طبعة مصر.

[4] ـ مسند ابن حنبل المجلد الأول ـ ص٢٠٢، ومستدرك الحاكم ج٢ ـ ص٣١٠.

[5] ـ ابن سعد ـ ج٣ ـ ص١٩١ القسم الأول، وأبو يعلي والحاكم والبيهقي.

[6] ـ مسند ابن حنبل ـ ج١ ـ ص ١٧.

بن مطعم رضي الله عنه كان قد جاء لتحرير أسرى بدر فسمع آيتين اثنين من سورة الطور من الرسول صلى الله عليه وسلم فأسلم.([1])

وعند وصول بعض من آيات الذكر الحكيم إلى أذن سيدنا طفيل بن عمرو الدوسي بالصدفة أسلم فور سماعهما ([2]). وعندما سمع خالد العدواني رضي الله عنه من الرسول وهو يقرأ سورة الطارق في سفر الطائف ولم يكن قد أعلن إسلامه بعد، ولكن عندما نزلت السورة في قلبه بمعني أنه حفظها أسلم ([3])

وجاء عشرون رجلاً في جماعة من الحبشة إلي الرسول صلى الله عليه وسلم فأسمعهم الرسول بعضاً من آيات القرآن الكريم فسالت الدموع من أعينهم ([4])، كما أن ثلاثة من الصحابة رضوان الله عليهم أسلموا بعد ما تأثروا بجاذبية القرآن الكريم وهم سيدنا أبو عبيدة، سيدنا أبو سلمة وسيدنا الأرقم بم بن الأرقم رضوان الله عنهم جميعاً.([5])

إذن فكيف كان حال الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مستقبل الوحي وحامل كلام ربه، فيذكرنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قرأ ذات مرة بعضاً من آيات الله فسالت الدموع من عينيه المباركة ([6])، كما أن هناك العديد من المرات التي كان الرسول

---

[1] ــ صحيح البخاري تفسير سورة الطور.وهذا هو نص الحديث: (٤٧٣٥) ـــ حدَّثَنا الحُمَيْدي حـدَّثَنا سفيانُ قال: حدثوني عن الزُّهريِّ عن محمَّد بن جُبَير بن مُطْعِم عن أبيهِ رضيَ اللَّهُ عنه قـال: سـمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقرأ في المَغْربِ بالطُّورِ، فلما بَلَغَ هذه الآيةَ: {أَمْ خُلِقوا مِن غير شيءٍ أمْ هُـمُ الخالِقون؟ أمْ خَلَقوا السَّماواتِ والأرضَ؟ بَلْ لا يوقنون. أمْ عِندَهم خَزائنُ ربِّـك، أمْ هـم المُسَـيْطِرون} (الطور: ٣٥ ــ ٣٧) كادَ قلْبي أنْ يَطيرَ. قال سفيانُ فأمّا أنا فإنما سمعت الزُهْريَّ يحدِّثُ عن محمَّد بـن جبَير بن مُطعم عن أبيه سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يَقْرَأ في المغْرِب بالطُّور، لم أسْمَعْه زاد الذي قالوا لي». (يوسف عامر).

[2] ــ مسند ابن حنبل ــ ج١ ــ ص ٣١٨، واستيعاب تذكرة طفيل بن عمرو الدوسي رضي الله عنه.

[3] ــ مسند ابن حنبل ــ ج٤ ــ ص٣٣٥.

[4] ــ سيرة ابن هشام.

[5] ــ أسد الغابة تذكرة أبو سلمة بن عبد الأسد رضوان الله عليه.

[6] ــ صحيح البخاري تفسير " فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد " وهذا نص الحـديث: (٤٤٦٤) ـــــ حدَّثنا صدقةُ أخبرنا يحيى عن سفيان عن سليمان عن إبراهيم عن عَبيدةَ عن عبد الله قال يحيـىٰ بعـضُ الحديث «عن عمرو بن مُرَّةَ قال: قال لي النبي صلى الله عليه وسلم اقرأ عليَّ. قلتُ: آقرأُ عليك وعليك أُنزِلَ؟ قال: فإني أُحب أنْ أسمعهُ من غيري. فقرأتُ عليه سورة النساء حتى بلغتُ {فكيف إذا جِئنا من كلِّ أمَّة بشهيدٍ وجئنا بك على هؤلاءِ شهيداً} (النساء: ٤١) قال: امسِك، فإذا عَيناه تَذرِفان». (يوسف عامر).

صلى الله عليه وسلم يقرأ فيها القرآن وكانت عيناه تفيض بالدمع بعدها. إن حلاوة القرآن الكريم قد آمن بها الصديق والعدو، المؤيد والمعارض، والغني والفقير والعالم والجاهل، فإن لم يكن هذا إعجازاً فماذا يكون ؟!

والخلاصة أن كل البشر من علماء وفلاسفة وحكماء وأدباء ومفسرين وأهل الحديث والفقهاء والصوفية والشعراء والمتكلمين، مَن من كل هؤلاء لم يضح بحياته في سبيل وعشق رسالة النبي الأمي لدرجة أن قناع الدنيا أصبح لا شيء أمام لذة تحقيق وشرح وتفسير هذا الكلام، أليس هذا إعجازاً ؟!

فلنتمعن في أن هذا الأمي تربى في أحضان أسرة أمية إلي أن صار شاباً، فلم يكن حوله إلا الظلام والجهل، هذا إلي جانب أنه نشأ في وطن وأسرة عارية من التمدن والثقافة، ولم يكن هناك وجود لأرباب العلم والفكر، حتى أسرته لم تكن تعرف القراءة ولا الكتابة، ولا حتى وقع في آذانهم حرف من صحف الأنبياء السابقين، ولم يصاحب عالماً أو حكيماً، ولا حتى توفر له قواعد القوانين أو مبادئ الأخلاق ولا محاسن العام، ولم يمر حتى بظل حائط مدرسة العلم والحكمة. وبهذه الطريقة مضت أربعون سنة من عمره، وفجأة جاء النور من أحد جوانب غار حراء، وفاضت عين العلم والثقافة، وفك سحر القراءة والكتابة، وجرت علي لسانه أقوال الأنبياء، ومن صحبته خرج من الجاهل والأمي علماء وحكماء، وارتفعت مبادئ الأخلاق وقواعد القانون وفضائل العلم، وانكشف حجاب الحكمة والعلم، ألا يمكن أن يكون هذا دليلاً علي معجزة القرآن الكريم ؟!!

إن التوراة شريعة وقانون، وليست أخلاقاً وموعظة، بينما الإنجيل أخلاق وموعظة، وليس شريعة وقانوناً، والزبور مجموعة من الأدعية والنداءات القلبية، إلا أنه يخلو من الصفات الأخرى، وفي صحيفة المسيح خطب رنانة، إلا أنها تخلو من الفكر والاستدلال، وصحف بني إسرائيل مملوءة بالتنبؤات، إلا أنها تخلو من دقائق الحكمة وأسرار الإيمان، ففي الدنيا كتاب إلهي واحد هو القانون والشريعة في نفس الوقت والأخلاق والموعظة والنداءات القلبية وخزائن الدعوات، ويحمل مجموع صفات الكتب الإلهية كالخطابة والاستدلال والفكر والتنبؤ بالغيب، ومعمور بأسرار الإيمان ودقائق الحكمة. هذا إلي جانب أن الكتب السماوية قد أصابها التحريف والتغيير، وفقدت لغتها الأصلية التي كتبت بها، إلا أن القرآن منذ أكثر من ثلاثة عشر قرناً لم يصبه التحريف في أي حرف من حروفه. ولا يحتاج القرآن من أجل بقائه إلي حروف وأوراق لحفظه، إنما

هو محفوظ في الصدور، فبنفس الحروف والألفاظ واللغة ظل القرآن إلي الآن نوراً صاغته القدرة الإلهية بيدها، وأنزله جبريل الأمين وعهد به محمد صلى الله عليه وسلم إلي أمته، أليس هذا إعجازاً ؟

ومن هنا تتضح نقطة هامة هي أن القرآن بكلماته ومعانيه وإرشاداته معجزة، ولا ينافسه في بلاغته وفصاحته أي كتاب سماوي آخر، لأن الكتب السماوية معجزتها لا تنحصر في ألفاظها بل في معانيها، وهكذا لم يدعي أصحاب الكتب الأخرى أي نوع من هذه المعجزات، ولهذا حرمت الدنيا من أصل الألفاظ وقالب اللغة التي صيغت فيها وحي موسى وإنجيل عيسي لمدة، فأصل لغة التوراة هي اللغة العبرية التي خرجت من لسان سيدنا موسى، لأن هذه اللغة قد اندثرت علي يد بخت نصر واختار لها اللغة الآرامية والسريانية، وبعد قرن من القرون نقلها سيدنا عزير إلى اللغة العبرية، أما فيما يتعلق بالإنجيل فلم يقرر بعد ما هي أصل اللغة التي كتب بها، وأي اللغات كانت تكتب قبله، واليونانية هي أقدم اللغات بالنسبة للإنجيل، ولكن يبدو أنها لم تكن هي اللغة التي كان يتحدث بها سيدنا عيسي عليه السلام في فلسطين، وفي هذه الحالة لا يمكن أن يدعي أحد عن إعجاز وبلاغة وفصاحة هذه الكتب أو أنها بألفاظها أتت من عند الله، علي عكس من الوحي المحمدي الذي هو آخر الكتب والذي ادعي إعجازه من هذه المكانة، لأن القرآن نزل بحرفه ولفظه ومعناه علي الرسول صلى الله عليه وسلم ونزهه من أي تحريف وتغيير، ولهذا ظلت عباراته وكلماته وألفاظه معجزة، ولا يمكن أن ينافسه في هذه الدعوة أي كتاب سماوي آخر (1)

---

[1] ـ ليس المقصود بالبحث هنا قضية الإعجاز بل هذه الأشياء سنتعرض لها في مجلدات قادمة وهنا المقصود فقط من معجزات مجرد عرض لها.

يعني أن النبي صلى الله عليه وسلم منزه عن القراءة والكتابة

" الرسول النبي الأمي " (الأعراف: ١٥٧)

ولا تحتاج هذه الواقعة إلي توضيح، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن قد تعلم القراءة والكتابة، والقرآن المجيد قد ذكر هذه الآيات في أكثر من موقع كما جاء في سورة الأعراف:

" الذين يتبعون الرسول النبي الأمي "

ثم تلتها هذه الآية في نفس السورة:

" فآمنوا بالله ورسوله النبي الأمي " (الأعراف: ١٥٨)

ليس هذا فحسب، بل إن الآيات وضحت أن الرسول بعث في قوم أميين أيضاً:

" هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم " (الجمعة: ٢)

وورد في سورة العنكبوت قوله:

" وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون " (العنكبوت: ٤٨)

يتضح من هذا أن النبي صلى الله عليه وسلم منزه عن التعليم البشرى، وكان هذا حسب إرادة الله، ولهذا جاءت الآيات التالية بعدها:

" وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل إنما الآيات عند الله إنما أنا نذير مبين. أولم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم " (العنكبوت: ٤٩ – ٥٠)

لقد وضحت سور مختلفة من القرآن الكريم أن يا محمد صلى الله عليه وسلم، أنه بلغتك ستوضح أحداث الرسل السابقة والأمم السابقة وأحداث الماضي، وهناك ثلاث وسائل للإنسان لمعرفـــة الأحداث والوقائع. إما أن يكون شاهداً لهذه الحادثة، أو يقرأ هذه الوقائع في الكتب أو يسمعها من الآخرين، والرسول صلى الله عليه وسلم لم يعرف أي نوع من هذه الوسائل، فالوسيلة الأولي بالطبع مفقودة، والقرآن الكريم ذكر الأحداث من أيام سيدنا آدم عليه السلام إلي مولده صلى الله عليه وسلم، ولذلك لم تكن هناك وسيلة

ظاهرية لمعرفة هذه الأمور، ولهذا جاء في القرآن الكريم أحداث مثل قصة السيدة مريم وسيدنا زكريا عليهما السلام.

" ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون " (آل عمران: ٤٤)

وقد جاء في قصة موسى عليه السلام:

" وما كنت بجانب الغربي إذ قضينا إلي موسى الأمر وما كنت من الشاهدين. ولكنا أنشأنا قروناً فتطاول عليهم العمر وما كنت ثاوياً في أهل مدين تتلوا عليهم آياتنا ولكنا كنا مرسلين. وما كنت بجانب الطور إذ نادينا ولكن رحمة من ربك "

(القصص: ٤٤ – ٤٦)

وجاء في قصة يوسف عليه السلام:

" ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم " (يوسف: ١٠٢)

والوسيلة الثانية لتحصيل العلم هي الاطلاع علي الكتب، وقد نفي القرآن الكريم هذا عن الرسول صلى الله عليه وسلم:

" وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك " (العنكبوت: ٤٨)

" وما كنت تدري ما الكتاب ولا الإيمان " (الشورى: ٥٢)

أما الوسيلة الثالثة فهي السماع من الآخرين، وكلنا نعلم أن معظم حياة النبي صلي الله عليه وسلم كانت في مكة قبل النبوة باستثناء بعض الشهور الذي قضاها صلي الله عليه وسلم في البصرة وغيرها من أجل التجارة، ولم يكن في مكة المكرمة أي أحد يعرف هذه الأحداث، ولم تكن قريش نفسها علي علم بها، ولهذا لم تؤكد هذه الوسيلة، وهكذا صرح القرآن الكريم:

"تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا " (هود: ٤٩)

إن حياة الرسول صلي الله عليه وسلم التي كان معظمها في مكة، والتي قضاها في قوافل الشام مع قريش من أجل التجارة كانت قريش علي معرفة تامة بكل تفاصيلها، وحتى عندما كان صلي الله عليه وسلم في مكة يعيش بين أهلها، ليس هذا فحسب، بل إن ذهابه خارج مكة كان في زمرة قريش، ولهذا لم تكن هناك لحظة واحدة من حياة الرسول تخفي علي قريش، ولو كان صلي الله عليه وسلم قد تلقي تعليماً لكانت قريش قد اتهمته

بهذا مثلما اتهمته بالسحر والجنـــون، إلا أنهم لم يفعلوا هذا، وكانوا علي يقين أن محمداً صلي الله عليه وسلم لم يكن قد تلقي تعليماً، وهكذا جاء في القرآن الكريم:

" قل لو يشاء الله ما تلوته عليكم ولا أدراكم به فقد لبثت فيكم عمراً من قبل أفلا تعقلون " (يونس: ١٦)

فقد رد القرآن الكريم هذه الشكوك والاتهامات حيث كانت قريش تشك بأنه محمداً صلي الله عليه وسلم قد سمع هذا الكلام أي القرآن من أناس آخرين وتلاه علي قريش، وقد نقل القرآن الكريم هذه الاتهامات وأجاب عليها:

" ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذين يلحدون إليه أعجمي وهذا لسان عربي مبين" (النحل: ١٠٣)

وجاء في سورة الفرقان افتراء بعض الناس عليه:

" وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلماً وزورا" (الفرقان: ٤)

لقد حدثت هذه الشبهات، إلا أن الكفار لم يصرحوا إطلاقاً بأن النبي صلي الله عليه وسلم كان يتعلم سراً أو حتى اطلع علي الكتب السابقة واخترع القرآن، ويتضح لنا مدي يقينهم بأمية الرسول صلي الله عليه وسلم، لقد جاء الرسول إلي المدينة وتعامل مع اليهود، وهناك العديد من الروايات التي تقول بأن اليهود كانوا يأتون إليه ويسألونه عما جاء في كتبهم، وكانوا يقولون أن الإجابة لا يستطيعها إلا رسول من عند الله، وكان الرسول يجيبهم بشكل صحيح، وكانوا يتحيرون لإجاباته صلي الله عليه وسلم. ويثبت من هذا الأمر أن اليهود أيضاً كانوا علي يقين بأن الرسول محمد صلي الله عليه وسلم [illegible] لم يقرأ كتبهم أو حتى يستطيع قراءتها، ولو يفترض أنهم كانوا يعلمون [illegible] حتى يستطيع قراءتها لما سألوه.

إما فيما يتعلق بالشخص الذي كانت قريش تشك فيه أنه هو الذي علم الرسول فقد نقل الإمام الطبري في التفسير الكثير من الروايات في هذا الشأن، والتي لا يمكن من خلالها الجزم بصحة اسمه أو فيما يتعلق بشخصيته، إلا أنه يتضح بشكل عام أن كان هناك عبداً نصرانياً كان قد قرأ الكتب المقدسة في لغته، وكان الرسول أحياناً يجلس عنده وهو في طريقه إلي مكان ذلك الشخص الذي قال عنه الكفار بأنه علّم محمد آيات القرآن، فرد الله عليهم بأن الكتب التي كان هذا الغلام قد قرأها لم تكن لغتها العربية، ولم يكن هو

عربياً، فكيف يمكن أن يفهم الرسول لغة غيره، وكيف يأتي ذا الأعجمي بمثل هذا القرآن الفصيح البليغ.

وهناك واقعة من بين واقعات طفولة الرسول صلي الله عليه وسلم تقول: أنه كان قد ذهب مع عمه أبي طالب في رحلة إلى الشام، وفي الطريق رآه راهب يدعي بحيرا تعرف عليه، وقال إن هذا هو نبي آخر الزمان، وهكذا أشار هذا الرجل علي أبي طالب في أن يعود به إلي مكة، فلو رآه اليهود لقتلوه. وبما أننا ذكرنا هذه الواقعة في المجلد الأول في رحلة الشام بالتفصيل، وقلنا أنها رواية ليست صحيحة، في حين أن إخواننا المسيحيين يقيمون علي هذه الرواية الضعيفة مبني من الشك وعدم اليقين، ويقولون بأن نبي الإسلام قد استفاد من هذا الراهب كثيراً، فلو فرضا أن هذا صحيح فإنه سيكون بمثابة دليل قوي علي معجزة محمد صلي الله عليه وسلم بأن طفلاً في الثانية عشرة من عمره قد تعلم في عدة ساعات كل الحقائق وأسرار الدين ومبادئ العقيدة والأخلاق، فهل يسلم إخواننا المسيحيون بهذه المعجزة ؟!!

والأمر المهم جداً أن بعثة الرسول استمرت لمدة ثلاثة وعشرين عاماً، فلو أن الرسول تعلم من أي شخص لكان من الضروري أن يكون هذا الشخص ملازماً له في السر والعلن إلي حد كبير حتى يتمكن الرسول - نعوذ بالله - من أن يأخذ منه أحكام القرآن ومواعظه وأسراره، وأن هذا الشخص علي وجه اليقين لم يكن مسلماً، وإلا فكيف يؤمن بشخص يعلم أنه يدعي النبوة، وكيف يتحمل أن يكون هذا الشخص الذي يدعي النبوة قد حصل علي الشهرة والمجد ومع ذلك يظل مختفياً وراء الستار أو حتى من أعين الصحابة الذين آمنوا بالرسول، والشخص الأعجمي الذي تشك فيه قريش، ولكان من السهل علي قريش عندئذ، والتي تحيك المؤامرات لتكذيبه وتذليله أن تبعد هذا الغلام الأعجمي، ويستطيعوا بذلك كشف سر محمد صلي الله عليه وسلم، هذا إلي جانب أن الرسول كان في مكة، ثم ظل نهر النبوة ينبع في المدينة لمدة ثلاث عشر عاماً، والجزء الأكبر من القرآن الكريم نزل بالمدينة، والقليل منه نزل بمكة.

وعندما عم نور الإسلام المدينة حاول اليهود والنصارى أن يسيئوا للإسلام، فقبلوا الإسلام لعدة أيام، ثم ارتدوا عنه حتى تسوء سمعة محمد، ويعتقد الناس أن هذا الدين لو كان صحيحاً لما ارتد عنه الناس.

" وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل علي الذين آمنوا وجه النهار وكفروا آخره لعلهم يرجعون " (آل عمران: ٧٢)

وطبقاً لهذه المؤامرة أسلم أحد النصارى وقرأ سورة آل عمران وسورة البقرة، وعهد إليه الرسول صلي الله عليه وسلم بكتابة ما ينزل به الوحي، وارتد بعد عدة أيام، وشرع يقول بأن ما كتبته لمحمد صلي الله عليه وسلم لا يعرف شيئاً سواه، فأنزل الله آياته، وقضي الموت علي افتراءاته للأبد في أسرع ما يمكن ([1])، ورأت الدنيا أن فيض النبوة ما زال ينبع.

وهناك حادثة في صلح الحديبية أثناء كتابة المعاهدة بين قريش والمسلمين، وكان سيدنا علي رضي الله عنه يكتب المعاهدة، وكانت هناك عبارة في المعاهدة تقول " بأن هذه هي الشرائط التي قبلها الله ورسوله، فقالت قريش: لو أننا نؤمن بك رسولاً لله لما حدث اختلاف بيننا، فاحذف هذا اللفظ، واكتب اسمك واسم أبيك، فقال الرسول صلي الله عليه وسلم للإمام علي رضي الله عنه: امحُ رسولَ الله، فقال علي رضي الله عنه: لا يمكن لي أن أفعل هذا، فسأل الرسول سيدنا علياً رضي الله عنه عن هذه الألفاظ، فأشار إليها سيدنا علي فحذفها الرسول صلي الله عليه وسلم بيده الشريفة وكتب محمد بن عبد الله.

وقد ورد ذكر هذه الحادثة في كل من النسائي والبخاري ومسلم ومسند ابن حنبل وجميع كتب السيرة، وقد صرح البخاري في هذه الرواية بقوله ([2]) " وليس يُحسِنُ يكتب

---

[1] ـ صحيح البخاري علامات النبوة في الإسلام.وهذا نص الحديث: (٣٥٣٩) ـــ حدثنا أبــو معمــرٍ حدَّثنا عبدُ الوارثِ حدثنا عبدُ العزيز عن أنسٍ رضيَ الله عنه قال: «كان رجلٌ نَصرانياً فأسلم وقرأ البقرة وآلَ عمران، فكان يَكتبُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، فعاد نصرانياً، فكانَ يقول: ما يدري محمدٌ إلا مــا كتبتُ له، فأماتهُ الله فدفنوه، فأصبحَ وقد لفَظَتْهُ الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمدٍ وأصحابهِ لما هربَ مــنهم نَبَشوا عن صاحبنا فألقوهُ. فحفَروا لهُ فأعمقوا، فأصبحَ وقد لفظته الأرض، فقــالوا: هــذا فعــلُ محمــدٍ وأصحابهِ نبشوا عن صاحبنا لما هربَ منهم فألقوه خارج القبر، فحفروا له وأعمقوا له فــي الأرض مــا استطاعوا، فأصبحَ قد لَفظَتْهُ الأرض، فعلموا أنه ليسَ من الناس فألقوه». (يوسف عامر).

[2] ـ صحيح البخاري باب عمرة القضاء. وهذا نص الحديث: (٤١٥٢) ـــ حدّثنا عبيدُ الله بن موســى عن إسرائيلَ عن ابي إسحاقَ عن البراءِ رضيَ اللّهُ عنه قال: «لما اعتمرَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم في ذي القَعدةِ فأبى أهلُ مكةَ أن يَدَعوه يدخلُ مكةَ حتى قاضاهم على أن يُقيمَ بها ثلاثة أيامٍ فلما كتبوا الكتابَ كتبوا: هذا ماقاضى عليهِ محمدٌ رسولُ الله، قالوا: لانقرُّ لك بهذا، لو نعلمُ أنكَ رسولُ الله مامَنَعناك شــيَئاً،

"، في حين أنه في رواية مسند ابن حنبل برواية إسرائيل وردت هذه العبارة كالتالي " وليس يحسن أن يكتب "، وعلي الرغم من هذا فقد وردت في كتب الحديث والسيرة أن النبي صلي الله عليه وسلم كتب ألفاظ محمد بن عبد الله وقد شك البعض في ظاهر معني هذه العبارة أن النبي صلي الله عليه وسلم كتب بيده الشريفة هذه الألفاظ علي أن النبي قد تعلم الكتابة في آخر عمره، وقد روي ابن شيبة نقلاً عن مجاهد أن الرسول لم ينتقل إلى الرفيق الأعلى إلا وقد تعلم القراءة والكتابة، وهناك رواية أخرى نقلها ابن ميسرة عن أبي كيشة السلول عن سهل بن الحنظلية أن النبي صلي الله عليه وسلم أملي علي سيدنا معاوية حكمه وأعطاه للأقرع والعينية، فجاء هؤلاء إلي الرسول وقالوا له لا نعرف ماذا كتب فيها، فنظر الرسول إليها وأخبر بأنه ﷺ كتب ما أمرته به.

فلو فرضنا أن هذه الروايات صحيحة فستكون بمثابة معجزة أخرى للرسول صلي الله عليه وسلم أنه بغير تعليم بشرى وهبه الله هذه الموهبة، إلا أن كل هذه الروايات كلها موضوعة وضعيفة، ولهذا فإن كل الروايات المتواترة عن أمية الرسول لا يمكن أن ننسخها، ومن الممكن أن يكون كل أمي هناك مشغول طيلة الوقت بالقراءة والكتابة، فلابد وأن يكون عارفاً بقدر كبير بالحروف وخاصة اسمه أو توقيعه، وهذا أمر طبيعي، ولكن الحقيقة أن من يقوم بإملاء الأوامر الحقيقية أو المجازية يطلق عليه في المفهوم كاتب، فأنت مثلاً تقول أن السلطان " عالمكير " قد كتب هذه الأوامر، وبني السلطان " شاهجهان " هذا المسجد، أو بنى السلطان الفلاني قلعة، في حين أن الكاتب والباني هم الكتاب والبنائون الحقيقيون، ولهذا في الخطاب العام ينسب العمل إلي السلاطين أو الملوك، وطبقاً

ولكنْ أنتَ محمدُ بن عبدِ الله. فقال: أنا رسولُ الله، وأنا محمدُ بن عبدِ الله. ثمَّ قال لعليّ: امحُ رسولَ الله. قال عليّ: لا واللّهِ لاأمحوك أبداً. فأخذ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم الكتابَ ــ وليس يُحسِنُ يكتب ــ فكتبَ: هذا ماقاضى محمدُ بن عبد الله، لايُدخِلُ مكةَ السلاحَ إلاّ السيفَ في القِراب، وأن لايَخرُجَ من أهلها بأحدٍ إن أراد أن يَتبعَه، وأن لايمنعَ من أصحابه أحداً إن أراد أن يقيمَ بها. فلما دخلها ومضى الأجلُ أتَوا علياً فقالوا: قُل لصاحبكَ اخرُجْ عنّا فقد مضى الأجل. فخرج النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فتَبعَتْه ابنةُ حمزةَ تُنادي: ياعمّ ياعمّ. فتَناولَها عليٌّ فأخذَ بيدها وقال لفاطمة عليها السلامُ: دُونكِ ابنةَ عمِّك احمليهَا. فاختصم فيها عليٌّ وزيدٌ وجعفرٌ: قال عليّ: أنا أخذتها وهي بنتُ عمي وقال جعفرٌ: ابنةُ عمّي وخالتُها تحتي. وقال زيدٌ: ابنة أخي. فقضى بها النبيُّ صلى الله عليه وسلم لخالتِها وقال: الخالةُ بمنزلة الأم. وقال لعليّ: أنتَ مني وأنا منك. وقال لجعفر: أشبهت خَلقي وخُلقي. وقال لزيد: أنتَ أخونا ومَولانا. وقال عليّ: ألا تتزوَّجُ بنتَ حمزة؟ قال: إنها ابنةُ أخي منَ الرَّضاعة». (يوسف عامر).

لهذا المفهوم فإن الرسول عندما راسل الملوك يدعوهم إلي الإسلام كتب هذه الصحف وكتب إلي قيصر وكتب إلي كسري، والجميع يعلم أن الرسول لم يكتب هذه الرسائل بخط يده الشريفة، ولأنه أمر بكتابتها لهذا نسبت إليه.

وطبقاً لهذه الأمور اليومية نجد ميلاً في الهند أن الطبقات الجاهلة التي لا تعرف شيئاً عن القراءة والكتابة يراسلون أصدقائهم وأحباءهم، وحتى من يقرأ الرسالة يقول إنه قال في خطابه أنني قادم بالرغم من أنه لم يكن هو الكاتب الحقيقي، بل استكتبه من الآخرين، ولهذا ينسب إليه فعل الكتابة.

والقرآن وصف النبي صلي الله عليه وسلم بالأمي أكثر من مرة، ولا يوجد دليل أكثر من هذا علي ذلك، وبالرغم من أن النبي أمي، وتربي في قوم هم أميون أيضاً، إلا أنه كان علي علم بكل شيء، وهذه هي معجزة الرسول صلي الله عليه وسلم، وقد خاطب القرآن الكفار بأنه أليس هذا دليل علي معجزة محمد أنه أمي، إلا أنه يعلم كل شيء: ـ

" وإنه لفي زبر الأولين. أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل "

(الشعراء: ١٩٦ – ١٩٧)

عصمة النبي صلي الله عليه وسلم

" والله يعصمك من الناس " (المائدة: ٦٧)

عندما يأتي الأنبياء إلي الدنيا يشرعون في الجهاد ضد الظلم والفساد والجهل والظلام، وتكون النتيجة كثرة أعدائهم الذين يتربصون بهم، وهذا هو ما يواجهه كل عالم ومصلح، فكان سيدنا إبراهيم مذنباً في بلاط النمرود، كما كان سيدنا موسى كذلك في بلاط فرعون، وكذلك سيدنا عيسي عند الروميين واليهود، وبما أن الله وعد رسوله ببقاء رسالته، لهذا نجده هو الحافظ والحارس لحياة هؤلاء مما جعلهم يؤدون رسالتهم دون خوف أو خطر يتهددهم، وهكذا طمأن الله رسوله منذ البداية بقوله:

" واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا " (الطور: ٤٨)

كلنا نعلم أنه عندما بدأ الرسول دعوته صارت مكة كلها ضده، وحاولوا إيذاءه بكافة الطرق والوسائل، كما وضعت الخطط والمؤامرات لقتله، لدرجة أنهم أرادوا قتله وهو نائم، كما حاولوا النيل منه في الحروب، وهاجموا من كمائنهم، وفكروا في إسقاط حجر كبير علي رأسه الشريفة، وضعوا السم في الطعام، إلا أنه في كل مرة كانت تثبت قدرة الله.

لو كان العدو قوياً فالحارس أقوى

وقد أعلن القرآن الكريم قوله: ـــ

" إن ربك أحاط بالناس " (الإسراء: ٦٠)

وهذه في حد ذاتها معجزة أيضاً في أن الرسول صلي الله عليه وسلم قد أدي مهمته بكل أمن وسلام وسط هذا العالم المليء بالمؤمرات والفتن خاصة في المجتمع العربي الذي كان ينعدم فيه الأمن والأمان، وكانت مجالس قريش في الغالب تنعقد في الكعبة، بل أن قيامهم وجلوسهم كان غالباً هناك، إلا أن الرسول صلي الله عليه لم يكن يأتي للطواف والصلاة حول البيت دون خوف، كما كان يذكر مساوئ أصنامهم وآلهتهم، وذات مرة أرادت قريش أن نقضي علي النبي، فوصل الخبر إلي الرسول صلي الله عليه وسلم.

ولم يضعف الرسول أو يتردد، وذات مرة قررت قريش أن يفتكوا به صلي الله عليه وسلم، وبالصدفة سمعت السيدة فاطمة هذا من الكفار، فذهبت إلي والدها وهي تبكي، فطمأنها الرسول وتوضأ، واتجه ناحية الحرم فوقفت أنظار الكفار عليه، هذه الأنظار التي كانت قد عزمت علي قتله إلا أنهم عندما رأوه نكسوا رءوسهم ([1])، كما ورد في الحاكم أن النبي بعدها أخذ بعض الحصوات وقذف بها تجاههم، فمن أصابته منهم قتل في غزوة بدر.

ذات مرة تمنى أبو جهل أنه لو رأي النبي ساجداً، فإنه سيحطم جبهته، وعندما ذهب لتنفيذ مهمته تردد ورجع، فسأله الناس عن السبب، فقال أنني رأيت بيني وبين محمداً خندقاً من نار والعديد من الحراس يقفون لحمايته، فأخبر الرسول صلي الله عليه وسلم بأنه لو كان قد اقترب منه ﷺ فإن الملائكة كانت ستقطعه أرباباً ([2])

"وجعلنا من بين أيديهم سداً ومن خلفهم سداً فأغشيناهم فهم لا يبصرون" (يس: ٩)

أغشي الله عيون المتربصين بالرسول صلي الله عليه وسلم فخرج الرسول من بين أيديهم، وعندما حل الصباح تعقب الكفار الرسول حتى وصلوا إلي الغار حيث كان الرسول وصحبه أبو بكر يختفيان فيه، فقال أبو بكر رضي الله عنه: لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا، إلا أن الله جعل على قلوبهم وعقولهم غشاوة، ولم يفكروا في النظر تحت أقدامهم.

أعلن الكفار أن من يقبض علي محمد صلي الله عليه وسلم ويأتينا برأسه فسيأخذ مائة ناقة، فسمع هذا سراقة، فركب فرسه وتعقب الرسول حتى وصل بالقرب من قافلة الرسول، فاضطرب سيدنا أبو بكر، إلا أن الرسول طمأنه ودعا الرسول ربه، وغاصت أرجل فرس سراقة، فحاول أن يضرب بسهامه، إلا أن النتيجة لم تكن إيجابية، فأيقن أخيراً أن هناك سراً ما، وأن القبض علي محمد صلي الله عليه وسلم أمر لا يستطيع فعله، فرجع عن عزمه وعاد بعد أن أخذ الأمان من الرسول ([3])

---

[1] ـــ المستدرك الحاكم ـــ المجلد الأول ـــ ص١٦٣ حيدر آباد، ومسند ابن حنبل ـــ المجلد الأول ـــ ص ٣٦٨.

[2] ـــ صحيح مسلم باب قوله " وما كان الله ليعذبهم ".

[3] ـــ صحيح البخاري باب هجرة النبي صلي الله عليه وسلم. هذا حديث هجرته ﷺ كما أورده الإمام البخاري في صحيح الجامع: (٣٨١٩) ـــ قال ابنُ شهاب: وأخبرَني عبدُ الرحمنِ بن مالك المُدْلجيّ ـــ وهو ابنُ أخي سُراقةَ بنِ مالكِ بن جُعْشُم ـــ أنَّ أباه أخبرَهُ أنه سمعَ سُراقةَ بن جُعْشُمٍ يقول: «جاءنا رُسُل

كفّار قريشٍ يجعلونَ في رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وأبي بكرٍ ديةَ كلٍّ واحدٍ منهما لمن قتلَهُ أو أسَره. فبينما أنا جالسٌ في مجلسٍ من مَجالسِ قومي بني مُدلجٍ إذ أقبلَ رجلٌ منهم حتى قام علينا ونحن جُلُوس فقال: يا سُراقة، إني قد رأيتُ آنفاً أسودةً بالساحلِ أراها محمداً وأصحابَه. قال سُراقة: فعرفتُ أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنّكَ رأيتَ فلاناً وفلاناً انطلقوا بأعيُننا. ثمَّ لبثتُ في المجلسِ ساعةً، ثمَّ قمتُ فدخلتُ فأمَرتُ جاريتي أن تخرُجَ بفرسي ـ وهي مِنْ وراءِ أكَمة ـ فتَحبِسَها عليَّ، وأخذتُ رُمحي فخرجتُ بهِ من ظَهرِ البيت فخطَطْت بِزُجِّهِ الأرضَ، وخَفَضْت عاليه، حتى أتيت فرسي فركبتُها، فرفعتُها تقرّب بي، حتى دَنَوْتُ منهم، فعثَرَت بي فرسي، فخرَرتُ عنها، فقُمتُ فأهوَيتُ يدي إلى كِنانتي فاستخرجتُ منها الأزلامَ، فاستَقسَمت بها: أضرُهم أم لا؟ فخرجَ الذي أكرَهُ، فركبتُ فرسي ـ وعصيتُ الأزلامَ ـ تقرّب بي، حتى إذا سمعتُ قِراءَة رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وهو لا يَلْتفِتُ، وأبو بكرٍ يُكثِرُ الالتِفاتَ، ساخَتْ يَدا فرَسي في الأرض حتى بَلَغتا الرُكبتَين. فخرَرتُ عنها، ثمَّ زجَرتها، فنَهضَتْ فلم تكَدْ تُخرِجُ يدَيها،فلما استوتْ قائمةً إذا لأثرِ يدَيها عُثانٌ ساطِعٌ في السماءِ مثلُ الدُخان، فاستقسمتُ بالأزلام فخرجَ الذي أكرَهُ. فنادَيتهم بالأمان، فوقَفوا، فركبتُ فرسي حتى جئتهم. ووقعَ في نفسي حين لَقيتُ ما لقيتُ منَ الحبسِ عنهم أن سيَظهَرُ أمرُ رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم، فقلتُ له: إنَّ قومَكَ قد جَعلوا فيكَ الدِّيةَ. وأخبَرتهم أخبار ما يُريدُ الناسُ بهم، وعَرضتُ عليهم الزادَ والمَتاعَ، فلم يَرزَآني، ولم يَسألاني إلا أن قال: أخفِ عنّا. فسألتهُ أن يكتُبَ لي كتابَ أمنٍ، فأمرَ عامرَ بن فُهَيرةَ فكتبَ في رُقعةٍ من أديم، ثمَّ مضى رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم».

قال ابنُ شهاب: فأخبرَني عُروةُ بن الزُبيرِ «أنَّ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم لَقيَ الزُبَيرَ في ركبٍ منَ المسلمين كانوا تِجاراً قافِلينَ من الشامِ، فكسا الزُبيرُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وأبا بكرٍ ثيابَ بَياض. وسمعَ المسلمون بالمدينةِ بمَخرَجِ رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم من مكةَ، فكانوا يَغدونَ كلَّ غداةٍ إلى الحرَّةِ فيَنتظِرونه، حتى يَردَّهم حرُّ الظهيرَةِ، فانقلَبوا يوماً بعدَما أطالوا انتِظارَهم، فلما أوَوْا إلى بيوتهم أوفى رجلٌ من يهودَ على أطُمٍ من آطامِهم لأمرٍ يَنظرُ إليه، فبصُرَ برسول اللّهِ وأصحابهِ مُبيَّضين يَزولُ بهم السَّرابُ، فلم يملكِ اليهوديُّ أن قال بأعلى صَوته: يا معاشرَ العرب، هذا جَدُّكم الذي تنتَظرون. فثارَ المسلمون إلى السلاحِ، فتلَقّوا رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم بظهرِ الحَرَّة، فعدَلَ بهم ذاتَ اليَمينِ حتى نزلَ بهم في بني عمرِو بن عوف، وذلكَ يومَ الاثنين من شهرِ ربيعٍ الأول، فقام أبو بكرٍ للناس، وجلَس رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم صامتاً، فطَفِقَ من جاء منَ الأنصارِ ـ ممن لم يَرَ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ـ يُحيي أبا بكر، حتى أصابتِ الشمسُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم، فأقبَلَ أبو بكرٍ حتى ظلَّلَ عليه بردائهِ، فعرَفَ الناسُ رسولَ اللّهِ صلى الله عليه وسلم عندَ ذلك؛ فلَبِثَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم في بني عمرو بنِ عَوف بضعَ عشرةَ ليلة، وأُسِّسَ المسجدُ الذي أسِّسَ على التقوى، وصلّى فيه رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم. ثمَّ ركبَ راحلَتهُ، فسارَ يمشي معه الناسُ، حتى برَكَتْ عندَ مسجدِ الرسولِ صلى الله عليه وسلم بالمدينة، وهو يُصلّي فيه يومئذٍ رجالٌ منَ المسلمين، وكان مِرْبَداًللتمرِ لسهيلٍ وسهل غلامَين يَتيمين في حَجْرِ سَعدِ بن زُرارةَ، فقال رسولُ اللّهُ صلى الله عليه وسلم

وعندما وصل الرسول صلي الله عليه وسلم إلي المدينة كان الصحابة يحيطون به من كل جانب، وذات يوم كان الصحابة يحرسون خيمة النبي صلي الله عليه وسلم فنزلت هذه الآية: ـــ

" والله يعصمك من الناس " (المائدة: ٦٧)

فخرج الرسول في هذه الليلة وخطب في الناس: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا، فَقَدْ عَصَمَنِي الله» ([1])، وهذا الوعد بالرغم من التعرض لآلاف المخاطر والمشاكل، إلا أنه ظل باقياً طول الوقت، وعند هزيمة المسلمين في غزوة أحد هجم الأعداء علي الرسول صلي الله عليه وسلم، إلا أن الملائكة كانوا يحفظونه بأمر الله ([2]).

وذات مرة قبض الناس علي بعض الأشخاص وقالوا كان هذا الرجل يتربص بالرسول صلي الله عليه وسلم، فأمرهم الرسول ﷺ أن يتركوه، فإنه لو أراد هذا قتله ﷺ

حين بَركت به راحلته: هذا إن شاء اللّه المنزل. ثمّ دعا رسولُ اللّه صـــلى الله عليـــه وســـلم الغُلامـــين فساوَمَهما بالمِربَد ليتَّخِذَهُ مسجداً، فقالا: لا، بل نهَبُهُ لك يا رسولَ اللّه، فأبى رسولُ اللّهِ صلى الله عليـــه وسلم أن يَقبلهُ منهما هِبةً حتى ابتاعَهُ منهما، ثمَّ بناهُ مسجداً، وطَفِقَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ينقلُ معَهُم اللبِنَ في بُنيانِه ويقول ـــ وهوَ ينقلُ اللبن: ـــ

هذا الحِمالُ لا حِمالَ خَيبرْ هذا أبرُّ ربنا وأطهر

ويقول:

اللهم إنّ الأجرَ أجرُ الآخرَهْ فارحَم الأنصارَ والمهاجرهْ

فتمثل بِشعر رجل من المسلمين لم يسمَّ لي

قال ابن شهاب: ولم يبلُغنا ـــ في الأحاديث ـــ أن رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم تمثلَ ببيتِ شعرٍ تـــام غير هذه الأبيات. (يوسف عامر).

[1] ـــ جامع الترمذي تفسير سورة المائدة. وهذا نص الحديث: (٣١٤٣) ــــ حدثنا عَبْدُ بنُ حُمَيْدٍ، أخبرنا مُسْلِمُ بنُ إبْرَاهِيمَ، أخبرنا الْحَارِثُ بنُ عُبَيْدٍ عن سَعِيدٍ الْجُرَيْرِيِّ عن عَبْدِ الله بنِ شَقِيقٍ، عن عَائِشَةَ، قَالَتْ: «كَانَ النَّبِيُّ يُحْرَسُ حَتَّى نَزَلَتْ هَذِهِ الآيَةُ: {والله يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ} فَأَخْرَجَ رَسولُ الله رَأْسَهُ مِنَ القُبَّـةِ، فَقَالَ لَهُمْ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ انْصَرِفُوا، فَقَدْ عَصَمَنِي الله». حدثنا نصر بن علي حدثنا مسلم بن إبراهيم بهـذا الإسناد نحوه.

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ غريبٌ. (يوسف عامر).

[2] ـــ صحيح البخاري غزوة أحد، وهذا نص الحديث الذي يدل على مشاركة الملائكــة فــي الحــرب: (٣٩٠٨) ــــ حدثني إبراهيمُ بن موسىٰ أخبرَنا عبدُ الوهاب حدَّثَنا خالدٌ عن عكرمةَ عــن ابــن عبــاس رضي الله عنهما «أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال يوم بدر: هذا جبريلُ آخِذٌ برأسِ فرَسِــهِ عليــهِ أداةُ الحرب». (يوسف عامر). وصحيح مسلم كتاب الفضائل.

فلن يستطيع، وهكذا حدث في خيبر عندما قدمت له يهودية السم في اللحم، فعندما رفع الرسول صلي الله عليه وسلم أول لقمة قيل له لا تأكل من هذا اللحم لأن فيه سماً، فأتوا باليهودية وحققوا معها، وأقرت بذنبها، فقال الرسول صلي الله عليه وسلم: «مَا كَانَ اللّهُ لِيُسَلّطَكِ عَلَىٰ ذَاكِ» ([1])

[1] ـ صحيح مسلم. وهذا نص الحديث: (٥٦٥٩) ـــ حدثنا يَحْيَى بْنُ حَبِيبٍ الْحَارِثِيُّ. حَدَّثَنَا خَالِدُ بْنُ الْحَارِثِ. حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ هِشَامِ بْنِ زَيْدٍ عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ امْرَأَةً يَهُودِيَّةً أَتَتْ رَسُولَ اللّهِ بِشَاةٍ مَسْمُومَةٍ. فَأَكَلَ مِنْهَا. فَجِيءَ بِهَا إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ. فَسَأَلَهَا عَنْ ذٰلِكَ؟ فَقَالَتْ: أَرَدْتُ لأَقْتُلَكَ. قَالَ: «مَا كَانَ اللّهُ لِيُسَلّطَكِ عَلَىٰ ذَاكِ» قَالَ أَوْ قَالَ «عَلَيَّ» قَالَ قَالُوا: أَلاَ نَقْتُلُها؟ قَالَ «لاَ» قَالَ: فَمَا زِلْتُ أَعْرِفُهَا فِي لَهَوَاتِ رَسُولِ اللّهِ. (يوسف عامر).

ليلة الجن

إسلام الجن وبحثهم عن الانقلاب السماوي

" قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن "(الجن: ١)

" وما يعلم جنود ربك إلا هو " (المدثر: ٣١)

هناك نوع من المخلوقات يقال له الجن، ويقول أهل اللغة أن لفظ جن مشتق من جنّ بمعني المخفي، وبما أن هؤلاء مستورون عن أعين الإنسان لذلك أطلق عليهم اسم الجن، والأمر العجيب في هذا أن معني هذا اللفظ في اللغات الأخرى متشابه، فمثلاً في اللغة الفرنسيةGenee ، وفي الإنجليزية Genei تؤديان هذا المفهوم الذي هو في العربية (الملك ــ العفريت ــ الشيطان)، وفي اللاتينية Geniusأو Genii تعطي مفهوم الشيطان الذي يخلق مع الإنسان، وهذا اللفظ مستعمل في الأساطير الرومانية وفي الفارسية تعني كلمة " جان: الروح ".

علي أية حال فإن هذا الاعتقاد موجود في سائر الدنيا بأن مع الإنسان مخلوقات أخرى غير مرئية، وفي عصر الإلحاد الأوربي الآن تحير كثير من الفلاسفة الكبار والماديون من أعمال السحر وتسخير الأرواح، إلا أن جرأتهم علي الإنكار والشك في وجــود هذه المخلوقات باتت تقل يوماً بعد يوم، وبالإضافة إلي الإسلام ورد ذكر هذه المخلوقات في الكتب السماوية الأخرى، ومعجزات سيدنا عيسي المذكورة في الإنجيل الحالي تدل علي أنه أنقذ العديد من البشر والحيوانات من قبضتهم. وقد أخبر القرآن الكريم أنهم خلقوا قبل البشر وخلقوا من النار: ــ

" ولقد خلقنا الإنسان من صلصال من حمأ مسنون والجان خلقناه من قبل من نار السموم " (الحجر: ٢٦ – ٢٧)

" وخلق الجان من مارج من نار " (الرحمن: ١٥)

لقد كانت سيطرة الجن كبيرة في العرب قبل الإسلام، ولهذا كانوا يعبدونه ([1])، وكان سدنة وكهنة المعابد علي صلة بهم، ويلجئون إليهم لمعرفة أخبار الغيب، وكانت

[1] ــ صحيح مسلم ـــ باب التفسير.

تحلق رءوس الأطفال حتى لا يمسه الجان، كما كان يعتقد بأن لكل شاعر جن يُملي عليه الشعر، وأن هؤلاء الجن يبدلون أشكالهم ويعيشون بين الناس لإيذائهم، وكانوا يقتلون الإنسان في الغابات ويخطفون الناس من الطرق ويصيبون الناس بالأمراض ويستولون علي عقولهم وحواسهم. والخلاصة: أنهم كانوا شركاء لله في ألوهيته عند العرب.

" وجعلوا لله شركاء الجن " (الأنعام: ١٠٠)

" وجعلوا بينه وبين الجنة نسباً " (الصافات: ١٥٨)

" بل كانوا يعبدون الجن اكثرهم بهم مؤمنون " (سبأ: ٤١)

وعندما جاء الإسلام حطم هذا الاعتقاد الباطل، وأرشد الناس إلي أنه في الدنيا لا توجد إلا قوة واحدة وهي قوة الله، وقال إن الجن عاجز أمام قدرة الله كالبشر لأنه من مخلوقات الله، ومنهم المؤمن والكافر والسعيد والشقي تماماً كما في البشر، وأنهم مكلفون برسالة التوحيد والأوامر الإلهية شأنهم في ذلك شأن الإنسان: ــ

" وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون " (الذاريات: ٥٦)

وسيسألون يوم القيامة مثلهم في ذلك مثل البشر: ــ

" يقصون عليكم آياتي وينذرونكم لقاء يومكم هذا " (الأنعام: ١٣٠)

وقد عجز كل من الإنس والجن علي أن يأتي بمثل هذا القرآن:

" قل لئن اجتمعت الإنس والجن علي أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله " (الإسراء: ٨٨)

والجميع عاجز أمام قدرة وقوة الله:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ فَانْفُذُوا لا تَنْفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَانٍ) (الرحمن:٣٣)

أما يعرفه الكهنة من بعض أمور الغيب فإن معرفته إنما تكون بهذه الصورة، وهي أن الله عندما يقرر أمراً ما يذكر هذا في الملأ الأعلى، والملأ الأعلى هؤلاء يذكرون ذلك أمام الملأ الأدنى وبهذه الطريقة تعرف كل ملائكة السماء بهذا الأمر، لدرجة أن الأمر يصل إلي آخر أسفل السماوات حيث تبدأ حدود الدنيا، ويسترق الجان والشياطين السمع من هنا وهناك، وبهذه الطريقة تصل بعض المعلومات إلي الكهنة وبدورهم

يشهرونها بين الناس ([1])، لهذا جعل الله في السماء بروجاً لا حصر لها بعضها للزينة والبعض الآخر لتردع الجن والشياطين عندما يزيدون عن حدودهم في استراق السمع:

" ولقد جعلنا في السماء بروجاً وزيناها للناظرين وحفظناها من كل شيطان رجيم إلا من استرق السمع فاتبعه شهاب مبين " (الحجر: ١٦)

" إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب. وحفظاً من كل شيطان مارد. لا يسمعون إلي الملأ الأعلى ويقذفون من كل جانب. دحوراً ولهم عذاب واصب. إلا من خطف الخطفة فأتبعه شهاب ثاقب " (الصافات: ٦ – ١٠)

" ولقد زينا السماء الدنيا بمصابيح وحفظاً ذلك تقدير العزيز العليم " (فصلت: ١٢)

لقد كان ظهور الوحي والنبوة بمثابة انقلاب عظيم في الدنيا، فلقد نسخ ملل وعقائد آلاف الأنبياء من علي وجه الأرض، وبدّل أحكام وأوامر الكتب السماوية الأخرى، وهز عرش قيصر وكسري، وبهذه الطريقة كان من الضروري أن يحدث انقلاب في عالم الأفلاك والمخلوقات السماوية، ولكن ليس في مقدور كل شخص أن يري هذا، فمثلاً في الإنجيل كان ميلاد السيد المسيح بمثابة إشراق نور سماوي جديد، فكل من رآه ذهب إلي بيت لحم للبحث عنه، وتشرفوا برؤيته إلا بنو إسرائيل ظلوا محرومين من هذه البصيرة.

---

[1] ــ صحيح البخارى تفسير سورة الحجر. وهذا نص الحديث: ٤٥٨٣) ـــ حدَّثنا عليُّ بن عبدِ الله حدَّثنا سفيانُ عن عمرٍو عن عِكرمةَ عن أبي هريرةَ يَبْلُغُ به النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «إذا قضى اللهُ الأمرَ في السماء ضَرَبَتِ الملائكةُ بأجنحتِها خُضعاناً لقوله كالسِّلسلة على صفوان، قال عليٌّ. وقال غيرُهُ: صفوانٍ يَنْفُذُهم ذلك. فإذا فزِّعَ عن قلوبهم قالوا: ماذا قال ربُّكم؟ قالوا للذي قال: الحقَّ، وهو العليُّ الكبير. فيسمعُها مُسترقو السمع، ومسترقو السمع، هكذا واحدٌ فوقَ آخر. ووَصَفَ سفيانُ بيدِهِ وفرَّجَ بين أصابع يدِهِ اليمنى، نَصَبَها بعضَها فوق بعض، فرُبما أدركَ الشهابُ المستمعَ قبل أن يَرميَ بها إلى صاحبِه، فيُحرقَه. وربما لم يُدركهُ حتَّى يرميَ بها إلى الذي يَليه، إلى الذي هو أسفلَ منه، حتى يُلقوها إلى الأرض ــ وربما قال سفيانُ: حتى تنتهي إلى الأرض ــ فتُلقى على فم الساحر، فَيَكذبُ معها مائةَ كَذبة، فيصدقُ، فيقولون: ألم يُخبرنا يومَ كذا وكذا يكون كذا وكذا فوجدناه حقاً؟ للكلمةِ التي سُمعت من السماء». حدَّثنا عليُّ بن عبدِ الله حدَّثنا سفيانُ حدَّثنا عمرٌو عن عِكرمةَ عن أبي هريرةَ «إذا قَضى اللَّهُ الأمرَ» وزاد «والكاهن». وحدثنا سفيانُ فقال قال عمرٌو: سمعتُ عِكرمة حدَّثنا أبو هريرةَ قال: «إذا قَضى اللَّهُ الأمرَ» وقال «على فم الساحر». قلتُ لسفيانَ: أأنتَ سمعتَ عمراً قال: سمعتُ عِكرمة قال: سمعت أبا هريرة قال: نعم. قلتُ لسفيانَ: إنَّ إنساناً روى عنك عن عمرٍو عن عِكرمةَ عن أبي هريرةَ ويرفعهُ أنه قرأ «فُرِّغ» قال سفيانُ: هكذا قرأ عمرٌو، فلا أدري سَمِعَهُ هكذا أم لا. قال سفيان: وهي قِراءتنا. (يوسف عامر). وسورة النساء وبدء الخلق وغيره.

وفي الصحيحين عند تشرف الرسول بالنبوة ظهر انقلاب في السماء، ومنعت الجن والشياطين من الصعود إلي الملا الأعلى، وملئت السماء بالشهب الثاقبة حتى لا يتسرب منهم خبر تعطيني والكهنة وأغلقت الأبواب الباطلة للأبد، ولقد حير هذا الانقلاب السماوي عند الجن والشياطين. وقال الجميـــع أن هناك حادثة مهمة ستكون علي وجه الأرض، وبحثوا في كل جوانب الأرض، ومرت السنين، وكان الرسول يقوم بتبليغ الإسلام بين الكفار. وذات مرة كان الرسول صلي الله عليه وسلم ذاهباً إلي سوق عكاظ، وفي الطريق في مكان يقال له النخلة قضي الرسول ليلته، وكان يتلوا هذه الآيات جهراً في صلاة الصبح، وبالصدفة مر نفر من الجن كانوا في طريقهم إلي منطقة تهامة، وعندما سمعوا هذه الآيات صاحوا جميعاً في صوت واحد أن هذا هو النور الحق الذي كان يبدو لنا في عالم الأفلاك، ورجعوا إلي قومهم وبشروهم بقدوم خاتم الأنبياء.([1])

" قل أوحي إليّ أنه استمع نفر من الجن فقالوا إنا سمعنا قرءاناً عجبا. يهدي إلي الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحداً. وأنه تعالي جد ربنا ما اتخذ صاحبة ولا ولدا. وأنه كان يقول سفيهنا علي الله شططا. وأنا ظننا أن لن تقول الإنس والجن علي الله كذبا. وأنه كان رجال من الإنس يعوذون برجال من الجن فزادوهم رهقا. وأنهم ظنوا كما ظننتم أن لن يبعث الله أحدا. وأنا لمسنا السماء فوجدناها مُلئت حرساً شديداً وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً. وأنا لا ندري أشر أريد بمن في

---

[1] ــ هذا الكلام بالتفصيل موجود في صحيح مسلم في كتاب الصلاة باب الجهر في الصبح. وهذا نـــص الحديث: (٩٥٧) ـــــ حدّثنا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخ: حَدَّثَنَا أَبُو عَوَانَةَ عَنْ أَبِي بِشْرٍ عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، قَالَ: مَا قَرَأَ رَسُولُ اللّهِ عَلَى الْجِنِّ وَمَا رَآهُمْ. انْطَلَقَ رَسُولُ اللّهِ فِي طَائِفَةٍ مِنْ أَصْحَابِهِ عَامِـــدِينَ إِلَى سُوقِ عُكَاظٍ، وَقَدْ حِيلَ بَيْنَ الشَّيَاطِينِ وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْهِمُ الشُّهُبُ، فَرَجَعَتِ الشَّـــيَاطِينُ إِلَى قَوْمِهِمْ، فَقَالُوا: مَا لَكُمْ؟ قَالُوا: حِيلَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، وَأُرْسِلَتْ عَلَيْنَا الشُّهُبُ. قَالُوا: مَـــا ذَاكَ إِلاَّ مِنْ شَيْءٍ حَدَثَ، فَاضْرِبُوا مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا، فَانْظُرُوا مَا هٰذَا الَّذِي حَالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ؟ فَانْطَلَقُوا يَضْرِبُونَ مَشَارِقَ الأَرْضِ وَمَغَارِبَهَا. فَمَرَّ النَّفَرُ الَّذِينَ أَخَذُوا نَحْوَ تِهَامَةَ (وَهُوَ بِنَخْلٍ عَامِدِينَ إِلَـــى سُوقِ عُكَاظٍ، وَهُوَ يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ صَلاَةَ الْفَجْرِ) فَلَمَّا سَمِعُوا الْقُرْآنَ اسْتَمَعُوا لَهُ. وَقَالُوا: هٰذَا الَّذِي حَـــالَ بَيْنَنَا وَبَيْنَ خَبَرِ السَّمَاءِ، فَرَجَعُوا إِلَى قَوْمِهِمْ فَقَالُوا: يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآناً عَجَباً. يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّـــا بِهِ. وَلَنْ نُشْرِكَ بِرَبِّنَا أَحَداً. فَأَنْزَلَ الله عَزَّ وَجَلَّ عَلَى نَبِيِّهِ مُحَمَّدٍ: {قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ اسْتَمَعَ نَفَرٌ مِنَ الْجِنِّ} (الجن الآية: ١).(يوسف عامر). وقد أدرج الإمام البخاري هذه الواقعة في كتب مختلفة مثـــل تفســـير سورة الجن وباب الجهر بقراءة صلاة الفجر ومسند ابن حنبل عن رواية ابن عباس جـــ، ص٢٥٢، وصحيح الترمذي تفسير سورة الجن.

الأرض أم أراد بهم ربهم رشدا. وأنا منا الصالحون ومنا دون ذلك كنا طرائق قددا. وأنا ظننا أن لن نعجز الله في الأرض ولن نعجزه هربا. وأنا لما سمعنا الهدي آمنا به فمن يؤمن بربه فلا يخاف بخساً ولا رهقاً. وأنا منا المسلمون ومنا القاسطون فمن أسلم فأولئك تحروا رشدا. وأما القاسطون فكانوا لجهنم حطباً " (الجن: ١ – ١٥)

ثم قال الله في سورة الأحقاف: ــ

" وإذ صرفنا إليك نفراً من الجن يستمعون القرآن فلما حضروه قالوا أنصتوا فلما قضي ولوا إلي قومهم منذرين. قالوا يا قومنا إنا سمعنا كتاباً أنزل من بعد موسى مصدقاً لما بين يديه يهدي إلي الحق وإلي طريق مستقيم. يا قومنا أجيبوا داعي الله وآمنوا به يغفر لكم من ذنوبكم ويجركم من عذاب أليم " (الأحقاف: ٢٩ – ٣١)

وقد ورد في صحيح مسلم أن الجن استمعوا للرسول مرتين وهو يقرأ القرآن الكريم، ولهذا جاءت السورتان لتشير إلي واقعتين مختلفتين، ولم يكن سيدنا عبد الله بن مسعود شريكاً في الواقعة الأولي ([1]) ولم ير الرسول صلي الله عليه وسلم أو أي أحد من أصحابه الجن بأعينهم ([2])، وقد عرف الرسول خبرهم عن طريق شجرة([3])، وعرف بتفاصيل هذه الواقعة عن طريق الوحي السماوي، وهي ما تعرف بواقعة ليلة الجن، وكلا الواقعتين حدثت في مكة المكرمة، وقد ورد في صحيح مسلم ([4]) والترمذي([5]) ومسند

---

[1] ــ صحيح مسلم باب الجهر بقراءة الصبح.وهذا هو نص الحديث: (٩٥٨) ــــ حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى: حَدَّثَنَا عَبْدُ الأَعْلَىٰ عَنْ دَاوُدَ عَنْ عَامِرٍ قَالَ: سَأَلْتُ عَلْقَمَةَ: هَلْ كَانَ ابْنُ مَسْعُودٍ شَهِدَ مَعَ رَسُولِ اللّهِ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: فَقَالَ عَلْقَمَةُ: أَنَا سَأَلْتُ ابْنَ مَسْعُودٍ فَقُلْتُ: هَلْ شَهِدَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مَعَ رَسُولِ اللّهِ لَيْلَةَ الْجِنِّ؟ قَالَ: لاَ، ولكِنَّا كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّهِ ذَاتَ لَيْلَةٍ، فَفَقَدْنَاهُ، فَالْتَمَسْنَاهُ فِي الأَوْدِيَةِ وَالشِّعَابِ، فَقُلْنَا: اسْتُطِيرَ أَوِ اغْتِيلَ قَالَ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ، فَلَمَّا أَصْبَحْنَا إِذَا هُوَ جَاءٍ مِنْ قِبَلِ حِرَاءَ. قَالَ فَقُلْنَا: يَا رَسُولَ اللّه! فَقَدْنَاكَ فَطَلَبْنَاكَ فَلَمْ نَجِدْكَ، فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ. فَقَالَ: «أَتَانِي دَاعِي الْجِنِّ، فَذَهَبْتُ مَعَهُ، فَقَرَأْتُ عَلَيْهِمُ الْقُرْآنَ» قَالَ فَانْطَلَقَ بِنَا فَأَرَانَا آثَارَهُمْ وَآثَارَ نِيرَانِهِمْ، وَسَأَلُوهُ الزَّادَ، فَقَالَ: «لَكُمْ كُلُّ عَظْمٍ ذُكِرَ اسْمُ الله عَلَيْهِ يَقَعُ فِي أَيْدِيكُمْ، أَوْفَرَ مَا يَكُونُ لَحْماً، وكُلُّ بَعَرَةٍ عَلَفٌ لِدَوَابِّكُمْ». فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فَإِنَّهُمَا طَعَامُ إِخْوَانِكُمْ». (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح بخاري ومعلم الأبواب المذكورة ومسند ابن أحمد المجلد الأول ــ ص٢٥٢.

[3] ــ صحيح مسلم الباب المذكور.

[4] ــ صحيح مسلم الباب المذكور.

[5] ــ الترمذي تفسير سورة الأحقاف.وهذا نص الحديث: (٣٣٨١) ــــ حدثنا عَلِيُّ بنُ حُجْرٍ، أخبرنا إِسْمَاعِيلُ بنُ إِبْرَاهِيمَ عَن دَاوِدَ عَن الشَّعْبِيِّ عَن عَلْقَمَةَ، قَالَ: «قُلْتُ لابنِ مَسْعُودٍ رضي الله عنه: هَلْ

الطيالسي أن تلميذ عبد الله بن مسعود رضي الله عنه علقمة سأل سيدنا عبد الله بن مسعود هل كان حاضراً في واقعة ليلة الجن مع الرسول صلي الله عليه وسلم فأجاب بلا. ولكن كان هناك واقعة أخرى يقول فيها ذات مرة ذهبنا فيها إلي الرسول ولم نجده، وبحثنا عنه في كل مكان في الوادي ولم نجده وبحثنا عنه في كل مكان في الوادي ولم نجده، وجاء في خيالنا في ذلك الوقت أمور كثيرة منها ربما يكون الرسول قد قتل، ومرت الليلة في هذا القلق والتواتر علي الرسول حتى حان الصباح، فرأينا الرسول صلي الله عليه وسلم قادم من غار حراء، فقلنا له يا رسول الله لقد بحثنا عنك في كل مكان ولم نجدك، فقلقنا عليك، فقال الرسول صلي الله عليه وسلم «أَتَانِي دَاعِيَ الْجِنِّ فَأَتَيْتُهُمْ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِم وبعدها أخذنا الرسول إلي هذا المكان وأراني علامات إشعال النار، وقال أنهم طلبوا مني أن أكون رفيقهم فدعوت الله لهم بأن يمر علي أي عظام أو سباخ يكون طعاماً له ([1]). وفي حواشي مسند ابن حنبل هناك ذكر لقدوم الجن علي لسان ابن مسعود رضي الله عنه فيقول: أننا

صَحِبَ النبيَّ لَيْلَةَ الجِنِّ مِنْكُمْ أَحَدٌ؟ قالَ: مَا صَحِبَهُ مِنَّا أَحَدٌ ولَكِنْ قد افْتَقَدْنَاهُ ذَاتَ لَيْلَةٍ وَهُوَ بمكَّةَ فَقُلْنَا اغْتِيلَ أَو اسْتُطِيرَ ما فُعِلَ بِهِ؟ فَبِتْنَا بِشَرِّ لَيْلَةٍ بَاتَ بِهَا قَوْمٌ حَتَّى إِذَا أَصْبَحْنَا أَوْ كَانَ فِي وَجْهِ الصُّبْحِ إِذَا نَحْنُ بِـهِ يَجِيءُ مِنْ قِبَلِ حِراءٍ قالَ: فَذَكَرُوا لَهُ الَّذِي كَانُوا فِيهِ قالَ: فقال: «أَتَانِي دَاعِيَ الْجِنِّ فَأَتَيْتُهُمْ فَقَرَأْتُ عَلَيْهِم، قالَ: فانْطَلَقَ فأَرَانا آثَارَهُمْ وآثار نِيرَانِهِمْ. قالَ الشَّعْبِيُّ: وسَأَلُوهُ الزَّادَ وكانُوا مِنْ جِنِّ الْجَزِيرَةِ فقالَ: كُـلُّ عَظْمٍ لَمْ يُذْكَرْ اسْمُ الله عَلَيْهِ يَقَعُ في أَيْدِيكُمْ أَوْفَرَ مَا كانَ لَحْماً، وكُلُّ بَعْرَةٍ أَوْ رَوْثَةٍ عَلَفٌ لِـدَوَابِّكُمْ. فقـالَ رَسُولُ الله: فَلاَ تَسْتَنْجُوا بِهِمَا فإِنَّهُمَا زَادُ إِخْوَانِكُمْ (مِنَ) الْجِنِّ».

قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري ومسلم والترمذي ــ باب الاستنجاء. وهذا نص الحديث كما ورد فـي البخـاري: (٧٦٤) ـــ حدّثنا مسدَّدٌ قال: حدَّثنا أبو عَوانةَ عن أبي بِشْرٍ عن سعيدِ بن جُبَيرٍ عنِ ابنِ عبّاسٍ رضيَ اللهُ عنهما قال: «انطَلَقَ النبيّ صلى الله عليه وسلم في طائفة من أصحابه عامدِينَ إلى سوقِ عُكاظ، وقد حِيلَ بينَ الشياطينِ وبينَ خَبرِ السماءِ، وأُرسِلَتْ عليهمُ الشُّهبُ، فرجعَتِ الشياطينُ إلى قومهم فقالوا: مـا لكـم؟ فقالوا: حِيلَ بيننا وبينَ خبرِ السماءِ، وأُرسِلَتْ علينا الشُّهبُ. قالوا: ما حالَ بينَكم وبينَ خَبَـرِ السـماءِ إلاّ شيءٌ حدثَ، فاضربوا مَشارِقَ الأرضِ ومَغارِبَها فانظُروا ما هذا الذي حالَ بينَكم وبينَ خَبَـرِ السـماءِ. فانصرَفَ أولئكَ الذينَ تَوجَّهوا نحوَ تِهامةَ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وهوَ بنخلةَ عامدِينَ إلى سُـوقِ عُكاظَ وهو يُصلي بأصحابهِ صلاةَ الفجرِ، فلمَّا سَمِعوا القرآنَ استَمَعوا له فقالوا: هذا واللهِ الذي حالَ بينكم وبينَ خبرِ السماءِ. فهنالكَ حينَ رجعوا إلى قومِهم وقالوا: {يا قومَنا إنّا سمِعْنا قُرآناً عَجَباً يَهدِي إلى الرُّشْدِ فآمَنّا به ولن نُشرِكَ بربِّنا أحداً} (الجن: ٢،٣) فأنزلَ اللهُ عَلَى نبيِّهِ صلى الله عليه وسلم: {قُلْ أُوحِيَ إليَّ} وإنما أُوحِيَ إليهِ قولُ الجنِّ». (يوسف عامر).

كنا نجلس مع رسول الله صلي الله عليه وسلم في مكة ذات ليلة، وفجـأة سأل الرسول عمّن يذهب معه ﷺ، وأخبر بأنه لن يذهب من في قلبه ذرة من سوء، فقال ابن مسعود فأخذت جرة الماء وذهبت مع الرسول ووصلنا في أطراف مكة وهناك بدا لي ظل حتى مكان ما، فخط الرسول لي خطا، وأمرني بألا أعبر هذا الخط حتى يعود إلي، وذهب الرسول صلي الله عليه وسلم فرأيت أن الظل يتقدم ناحية الرسول وبقي الرسول يتحدث إليه لمدة طويلة، وعندما انفلق الصباح عاد الرسول إليّ وطلب الماء للوضوء، فرأيت أن في الحجرة نبيذاً من تمر بدلاً من الماء، فأخبر الرسول ﷺ بأنه لا حرج نبيذ التمر طاهر والماء طاهر أيضاً، فتوضأ الرسول منه ووقف إلي الصلاة، فقال الرجلين اللذان كانا يقفان بجواره يا رسول الله نريد أن نصلي خلفك، وهكذا وقفوا معي وراء الرسول، فسألت الرسول بعد أن انتهيت من الصلاة يا رسول الله، من هؤلاء الناس، فأخبر ﷺ بانهما من الجان كان لهما بعض القضايا للبت فيها، فطلب مني الرسول فأساً فأعطيته إياها، فقلت يا رسول الله، هل كان معك فأس من بين أمتعتك ؟ فأخبر بأنه ﷺ أعطاهم فأس العظام والسباخ، وفي هذه الليلة منع الرسول الاستنجاء بالعظام والسباخ ([1]).

هل في حواشي المسند وصحيح مسلم تفصيلات لواقعة واحدة ؟ إلا أن هناك فرقاً كبيراً بين جزيئات هاتين الروايتين لدرجة أنك لا يمكن أن تقبلها كرواية واحدة، إلا أن رواية حواشي المسند لغو وباطل، وسند هذه الرواية كالتالي: عن أبي فزارة عن أبي زيد مولي عمرو بن الحريث المخزومي عن عبد الله بن مسعود، وشخصية أبو زيد مولى عمرو بن حريث شخصية مجهولة لا يعرفه أحد من أهل الحديث، وقول حافظ الذهبي في ميزان الاعتدال " أبو زيد مولي عمرو بن حريث لا يعرف عن أبي مسعود وعنه أبو فرازة لا يصح حديثه، ذكره البخاري في الضعفاء ومتن حديثه أن نبي الله توضأ بالنبيذ، وقال أبو محمد الحاكم رجل مجهول، قلت ماله سوي حديث واحد (ميزان الاعتدال)، في حين أن رواية قدوم الجـــان التي هي عن ابن مسعود في جامع الترمذي رواية صحيحة.

---

[1] ــ مسند ابن حنبل ــ المجلد الأول ــ ص٤٥٨.

شق القمر

" اقتربت الساعة وانشق القمر " (القمر: ١)

لقد شهدت جميع الكائنات بصدق النبي صلي الله عليه وسلم، كما أن السماء والأرض والقمر والشمس وكل شيء يعطي دليلاً علي صدقه، وفي إنجيل (متي ٢ــ٢) أنه وقت ميلاد السيد المسيح بزغ نجم جديد، وعندما توفاه الله عم الظلام في جميع الدنيا لمدة ثلاث ساعات (متي ٢٧ــ٤٥)، ومن علامات قيام الساعة أن ينشق القمر، وقد حدثت هذه المعجزة علي يد رسولنا الكريم، وقد عبر القرآن عن هذا: ــ

" اقتربت الساعة وانشق القمر. وإن يروا آية يعرضوا ويقولوا سحر مستمر " (القمر: ١ – ٢)

ولقد فسر بعض عقلاء المسلمين هذه الآية علي أن هذه الآية ليست دليلاً علي شق القمر في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم، بل أنه ذكر لواقعة ستكون يوم القيامة، وفي هذه الحالة يجب أن يفهم أن معني كلمة " انشق " دليل علي حدوثها في المستقبل وليس في الماضي كما يشير الفعل، والأمر الثاني لو أن هذه الواقعة ستكون يوم القيامة فكيف سيعرض الكفار بوجوههم عن هذا الإعجاز ويقولون أن هذا سحر مستمر، فما معني إنكارهم هذا، وكيف يكون هذا صحيحاً ؟ هذا إلي جانب أنه كيف يمكن عدم قبول الروايات الصحيحة والمستندة.

أن حادثة شق القمر مذكورة في كل من البخاري وصحيح مسلم وجامع الترمذي، ومسند الطيالسي والمستدرك والحاكم ودلائل البيهقي ودلائل أبي نعيم برواية كل من سيدنا عبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن عمر وأنس بن مالك وجبير بن مطعم، وعلي بن أبي طالب والحذيفة بن اليمان وغيرهم رضوان الله عليهم أجمعين، فكان هؤلاء جميعاً موجودين أثناء حدوث هذه الواقعة ورأوها بأعينهم وهذه هي ألفاظهم: ــ

" انشق القمر ونحن مع النبي صلي الله عليه وسلم بمنى فقالﷺ: اشهدوا وذهبت فلقة نحو الجبل "

وهناك رواية أخرى في الصحيحين تقول:

« انشق القمر على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم شقتين حتى نظروا إليه، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: اشهدوا ».

ورواية سيدنا أنس بن ماالك موجودة في كل من صحيح مسلم والبخاري:

" أن أهل مكة سألوا رسول الله صلي الله عليه وسلم يريهم آية فأراهم القمر شقين حتى رأوا حراء بينهما "

أما في صحيح مسلم: ــ

" أن أهل مكة سألوا النبي صلي الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فلقتين "

أما رواية جامع الترمذي فألفاظها كالتالي: ــ

" سأل أهل مكة النبي صلي الله عليه وسلم آية فانشق القمر بمكة فلقتين فنزلت " اقتربت الساعة وانشق القمر "

وفي رواية جبير بن مطعم رضي الله عنه في مسند ابن حنبل وجامع الترمذي يقول أن الكفار عندما رأوا هذه المعجزة قالوا أن محمداً سحر لنا، فقال آخرون لو كان محمد قد سحرنا فلا يمكن أن يسحر الناس جميعاً.

وفي مسند أبي داود والطيالسي([1]) والبيهقي أنهم قالوا أن محمداً لا يمكن أن يسحر الدنيا كلها فانتظروا واسألوا المسافرين والقادمين من أماكن أخرى ماذا يقولون؟ وهكذا عندما ورد بعض المسافرين سألوهم فأخبروهم بنفس ما رأوا.

علي أية حال لقد تمت هذه المعجزة في مكة ليلاً وبمنطقة مني.

لقد ظلت هذه المعجزة من الناحية العقلية محل نقاش وجدل منذ زمن قديم، فقد علماء الكلام أصول الفلسفة القديمة، فمثلاً كان الفلاسفة القدماء يعتقدون أن خرق والتئام الأجرام الفلكية أمر مستحيل، في حين أن علماء الطبيعة والفلك في العصر الحديث غيروا كل معلوماتنا عن هذه الأمور، واثبتوا أن كل هذه الأبحاث لا فائدة منها، وأن تحطيم النجوم وتصادمها أمر يحدث كل يوم، وأن بداية الأرض والشمس والنجوم، وبداية قصة الخلق تبدأ من هذا الباب، كما أقر بذلك علماء الفلك والجولوجيا.

هناك اعتراض آخر في الكتب القديمة يقول أن المسيحيين روجوا لهذا الأمر الذي يقول لو أن هذه المعجزة قد حدثت حقيقة فكيف لم يشاهدها إلا أهل مكة، وكان من المفروض أن تشاهدها كل الدنيا وتأتي أخبارها من المشرق والمغرب. وأن هذه الواقعة لم

---

[1] ــ مسند عبد الله بن مسعود ــ ص٣٨ ــ حيدر آباد الدكن.

يعرفها إلا مكة وبعض البلاد الأخرى وتسكت كل كتب التاريخ وأهل الفلك عن رواية هذه الواقعة. لقد رد أهل العلم علي هؤلاء وقالوا لهم أولاً نحن لا نسلم بأن أهل البلاد الأخرى لم يشاهدوا هذه الواقعة، وأنتم يقولون لو أن أهل البلاد الأخرى رأوا هذه الواقعة لكتبوا عنها، والسؤال هنا هل إعراض كتب التاريخ عن ذكر هذه الواقعة يعد دليلاً علي إنكارها، ولـــو أن الأمر كذلك يمكن لنا أن ننكر ملحمة الهنادكة المعروفة (المهابهارت)، هل يمكن أن تنكروا معجزات السيد المسيح عليه السلام، وأن المؤرخين اليونانيين في كل من مصر والشام لم يكتبوا حرفاً واحداً عن كل هذه الأحداث، وعلي العكس من ذلك فأي الروايات التي تم توضيحها تؤكد أن كل المسافرين والقادمين من الجزيرة العربية والشام قد رأوا أن القمر قد انشق فرقتين.

أما الاعتراض الفلكي الذي قدمه أهل العلم عن هذه الواقعة فالإجابة عليه كالتالي أن المعجزة قد وقعت ليلاً، وكانت الدنيا في ذلك الوقت تغط في نومها، ومن كان حتى يقظاً في وقتها كان مشغولاً في أعماله، ومن رآها منهم لم يكن قادراً علي تسجيلها، لأن الناس في ذلك الوقت لم تكن لديهم المقدرة علي الكتابة، ومن كان منهم من أهل العلم وأصحاب التاريخ فليس من الضروري عليه أن يسجل هذا الأمر كغيرها من الأحداث، وربما تكون قد سقطت من ذهنه.

وكم من التغيرات التي لحقت بعالم الفلك منذ بداية الخليقة، فهل دون كل هذا ؟!! وليس عدم تدوينها دليل علي عدم حدوثها ؟ ويوجد في جميع الكتب السماوية ذكر لمثل هذه الأحداث الفلكية، ويعجز علم الفلك عن تفسيرها، وهل عجزه عن تفسيرها دليل علي عدم حدوثها؟!، وفي الإنجيل نفسه هناك مقولة بأن نجم النبوة قد بزغ مع ميلاد سيدنا عيسي عليه السلام، وقد شاهده أهل أوروبا كما ذكر أيضاً في الإنجيل أنه عندما صلب سيدنا عيسي عم الدنيا ظلام دامس، فهل يوجد في كتب الفلك والنجوم ذكر هذه الأحداث؟.

إن أهم شيء في وقوع الأحداث الفلكية والسماوية هو أن مشاهدتها تتوقف علي مطالعها ومغاربها أي من مكان طلوعها وغروبها، وطلوع وغروب مكان ما يختلف عن طلوع ومغارب مكان آخر، وخاصة في مناطق طلوع القمر، ففي مكان يغرب فيه القمر يكون المكان الآخر قد طلع فيه القمر، وفي مكان ما ظلام، وفي المكان الآخر خسوف، وفي مكان لا يراه الناس فيها، ولهذا إذا لم يستطع العالم أن يشاهد هذه المعجزة فليس هذا دليلاً علي نفي وقوع شق القمر.

وهكذا لقد ذكر كل أقوام الدنيا علي اختلافهم حوادث فلكية مختلفة في كتبهم، وحتى لو دون أحدهم بعض هذه الأحداث بالتفصيل فإن كتب المعاصرين لهم من الأقوام الأخرى تخلو من تدوين أو ذكر هذه الأحداث. هل يعد صمت كتب هؤلاء القوم عن تدوين هذه الواقعة دليلاً علي حدوثها ؟!

هذا إلي جانب أنه لم يكن في المقدور معرفة كل شيء في كل الدنيا، لأنه ربما يكون قد شوهد في مكان ولم يشاهد في مكان آخر.

وقد كتب بعض علماء الكلام أمثال الإمام الغزالي وشاه ولي الله الدهلوي أن شق القمر لم يحدث، بل بدا للناس هكذا مع العلم أن رواية سيدنا أنس يقول:

" إن أهل مكة سألوا النبي صلي الله عليه وسلم أن يريهم آية فأراهم انشقاق القمر فلقتين " (صحيح مسلم)

هناك أمر بسيط يجب أن نشير إليه بعد كل ما مر بنا أن انشقاق القمر كان آية لأهل مكة بمعني أنه أتي طبقاً لرغبتهم ودليلاً علي معجزة الرسول صلي الله عليه وسلم، وانشقاق القمر فرقتين كما في الأحاديث والذي يعد خلافاً [illegible] في عين الإنسان، كما أنه أمر غير عادي بالنسبة للقمر، ولكن ربما أن الله أظهر هذه المعجزة لأهل مكة، فلم يكن من الضروري أن تشاهده الدنيا كلها، وبناءً عليه لم يشاهد شق القمر من قبل الآخرين في المناطق الأخرى من العالم، وكانت المصلحة الإلهية تقتضي ذلك، فلو شاهد الآخرون في الدنيا مثل هذا الحدث لعرف أن هناك انقلاباً قد حدث في السماء كغيره من الأحداث السابقة التي ورد ذكرها في كتب الفلك وعلم الجولوجيا، ولكن قد شاهده أهل مكة وكل من كان في سفر خارج المدينة، وهذا دليل قاطع أن هذا قد حدث دليلاً علي معجزة الرسول صلي الله عليه وسلم (ولله الحمد)

التنبؤ بانتصار الروم

" ألم. غلبت الروم. في أدني الأرض " (الروم: ١ – ٣)

إن من الأحداث التي تنبأ بها الرسول صلي الله عليه وسلم معركة انتصار الروم علي الفرس، كان علي جانب العرب حكومتان قويتان هما حكومة فارس وحكومة الروم، وكان حاكم فارس في ذلك الوقت هو خسرو وكان حاكم الروم هو هرقل، وكانت المعارك قائمة بين هؤلاء لمدة طويلة، وفي السنة الخامسة من البعثة النبوية الشريفة أي في عام ٦١١م بدأت الحرب بين الدولتين التي لم تكن أي منهما تدين بالإسلام، وكانت الروم تدين بالمسيحية أي أنهم أهل كتاب، بينما كانت عقائد فارس تطابق عقائد مشركي مكة، لهذا كان من الضروري أن يتعاطـــف المسلمون مع الروم المسيحيين، في حين كان مشركو مكة يتعاطفون مع أهل فارس، لهذا كانت نتيجة هذه الحرب ينتظرها كل من المسلمين والكفار.

كانت حدود هاتين الدولتين تلتقي في شاطئ دجلة والفرات، وكانت حدود دولة الروم تنتشر في الشرق من آسيا الصغرى وحتى حدود العراق والشام وفلسطين ومصر، ولقد كان هجوم الإيرانيين من جانبين. أحدهما كان من شاطئ دجلة والفرات متقدماً إلي الإمام نحو الشام، ومن الناحية الأخرى التي تبدأ من آسيا الصغرى، أي من آذربيجان مروراً بأرمينيا إلي أن دخلوا الأناضول، وتقدموا من الجانبين حتى أن طوقوا الروميين في البحر، وأخذوا يستولون علي المدن المقدسة واحدة تلو الأخرى من الروم، وفي عام ٦١٤م خضعت فلسطين والمدينة المقدسة اورشليم لسيطرة الفرس فدمروها، وعبثوا بالمشاعر المقدسة، وانضم حوالي ٢٦ ألف يهودي إلي الجيش الإيراني وقتلوا ما يقرب من ٦٠ ألف مسيحياً بريئاً، وقد زين قصر سلطان إيران برؤوس هؤلاء الأبرياء، وظل التقدم الإيراني حتى وصل مصر عام ٦١٦م، وبالتحديد علي شاطئ الإسكندرية، وعلي الجانب الآخر استولوا علي كل مدن آسيا الصغرى حتى وصلوا إلي ساحل الباسفور بالقرب من القسطنطينية، ونصب الفاتح الإيراني معسكره أمام عاصمة الروم، وقامت حكومة الفرس في كل من العراق والشام وفلسطين ومصر وآسيا الصغرى، وبنيت معابد النار في كل مكان، وبدلاً من اتباع المسيحية فرضت عبادة النار.

وبعد أن رأي سلطان الروم هذا الدمار دعا إلي الثورة في مواجهة هذا التوسع، وبدأت الثورة والتمرد في أفريقيا، وتفرقت كل أواصر الربط بين المتمردين في كل مدن أوروبا المختلفة، وهنا يئس المسلمـــون من نتيجة هذه المعركة، وبالطبع فرح الكفار بنتائجها لدرجة أنهم سخروا من المسلمين، ووعدهم الله بأن النصر سيكون حليفهم مثلما حدث للروم مع الفرس، وهكذا تفرقت كل دولة الروم، وخلت خزائنها، وتفكك جيشها، لأن حاكم الروم هرقل كان ماجناً وغير مبال وكسول لا يعبأ بكل ما يدور حوله، لهذا وصل حاكم إيران ووضع شروطه علي أبواب دولة الروم وهي:

أن يدفع الروم الخـــراج وألف أوقية من الذهب وألف بالة من الحرير وألف فرس وألف جارية، ولم يكن أمام الروم إلا قبول هذه الشروط لدرجة أن رسول هرقل عندما وصل إلي بلاط الملك الإيراني طلب منه خسرو أن يحضر هرقل مقيداً بالسلاسل في بلاطه حتى يقبل الصلح مع الروم ليس هذا فحسب بل عليه أن يترك عبادة الصليب ويسجد للنار. في خلال هذه المعركة كان من الضروري وطبقاً لإرادة الله أن يظهر في هذه الفترة رسول السلام في هذه الأرض القاحلة الجرداء لكي يبشر بانتصار الروم علي الفرس خلافاً لكل التوقعات.

" **ألم. غلبت الروم.** في أدني الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون. في بضع سنين لله **الأمر** من قبل ومن بعد يومئذٍ يفرح المؤمنون. بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز **الرحيم.** وعد الله لا يخلف الله وعده " (الروم: ١ – ٦)

كانت هذه النبوءة في ذلك الوقت مستبعدة تماماً لدرجة أن كفار قريش وعدوا المسلمون بالعديد من الجمال في حالة صدق هذه النبوءة كشرط لو تحققت، لهذا كان انتظار هذه المعركة الحاسمة شديداً من قبل المسلمين والكفار معاً، وفي النهاية بعد بضع سنين حدثت المعجزة، وأنقذ الرومان ذلك الملك الذي قضي كل حياته في الترف والبذخ والأوهام، وفجأة وفي عام ٦٢١م علي حد قول المؤرخ كبن صارت القصور ميداناً استعداداً للحرب([1])، وفي الوقت الذي خرج منه هرقل مع جيشه من القسطنطينية تأكد الناس وقتها أنه هذا هو آخر مشهد لجيش روما الكبرى أمام الدنيا([2])، ولكن نبوءة النبي العربي صلي الله عليه وسلم قد تحققت كلها، وفي الوقت الذي هزم فيه المسلمون الكفار

---

[1] ــ تاريخ زوال الروم لمؤلفه كبن ــ جــ٣ ـــ ص٣٠٤ــــ المطبوع ١٨٩٠م.

[2] ــ المرجع السابق.

في موقعة بدر انتصرت الروم فيه علي الفرس، واستعادوا كل مدن الشرق مرة أخرى، وأبعدوا الفرس عن وادي النيل ومنطقة الباسفور إلي أن حاصر وهم علي شواطئ دجلة والفرات.

لقد حيرت هذه النبوءة العالم وتحول علي أثرها الكثير من أهل قريش إلي الإسلام([1])، كما أن مؤلف تاريخ زوال الروم السيد كبن قد أخبر هو نفسه بعد مرور هذه الواقعة بألف ومائتا عام: فيقول: " إن دراسة هاتين المملكتين العظميتين في الشرق لأمر يدعو إلي السرور، ولكن في الوقت الذي كان فيه الإيرانيون يحققون انتصاراتهم المتواصلة قدم النبي صلي الله عليه وسلم هذه النبوءة الجريئة التي تقول بأن الروم ستغلب الفرس بعد عدة سنوات، وحكومة هرقل نفسه التي استمرت اثني عشر عاماً أي من ٦١٠ إلي ٦٢٢م قد أعلنت بأن سلطنتها أو مملكتها ستنتهي بسرعة " ([2])

إن هذا التغيير المحير للأحداث جعل مؤلفي تاريخ الروم يختلقون أموراً عجيبة لتوضيح أسباب هذه التغييرات، ولم يكونوا يعلمون أن هناك يد نبي قد ارتفعت لمساعدة الروم في هذه المعركة الدموية، وهذا هو السبب الحقيقي والروحي وراء هذا التغيير.

وفي المستدرك (علي شرط الصحيحين)([3]) وجامع الترمذي([4]) أنه عندما بدأت معركة الروم وفارس فإن المشركين كانوا يناصرون الفرس لأنهم كانوا عبدة أصنام مثلهم، بينما كان المسلمون يناصرون الروم لأنهم أهل كتاب، في هذا الوقت الذي كان الإيرانيون فيه ينتصرون علي الروم نزلت هذه النبوءة لدرجة أن سيدنا أبا بكر حكى هذه النبوءة لكل المشركين فقالوا له حدد لنا عاماً تتحقق فيه هذه النبوءة، فقال لهم سيدنا أبو بكر في غضون خمسة أعوام فعرف الرسول صلي الله عليه وسلم بهذا وقال أن كلمة بضع تعني من ثلاثة إلي تسعة، لهذا كان يجب أن تحدد مدة أقل من عشرة سنوات، وهكذا وطبقاً لهذا التفسير ففي السنة التاسعة تحققت هذه النبوءة أثناء غزوة بدر وانتصرت الروم علي الفرس.

---

[1] ـ الترمذي تفسير سورة الروم.

[2] ـ تاريخ زوال الروم، جـــ ٣، ص٣٠٢، ٣٠٣، الطبعة المذكورة.

[3] ـ المجلد ٢، تفسير سورة الروم.

[4] ـ تفسير سورة الروم.

لقد وقعت غزوة بدر في السنة الأولي من الهجرة، وفي السنة الرابعة عشر من البعثة النبوية الشريفة، لهذا فإن زمن النبوءة يكــون في العام الرابع عشر من البعثة النبوية أو السنة الهجرية الأولي، في حين يذكر البعض أن النبوءة تحققت في عام صلح الحديبية، يعني في السنة السادسة للهجرة، إلا أن هذا ليس صحيحاً. فربما يكون هؤلاء قد خدعوا بالرواية التي جاءت في صحيح البخاري وغيره والتي تقول بأن سفير رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي قيصر عندما وصل إلي قيصر يدعوه إلي الإسلام، ومن المعلوم أن هذا السفير قد ذهب إلي قيصر في عام صلح الحديبية، لهذا اعتقد هؤلاء أن النصر قد تحقق للروم في هذا التاريخ، إلا أن هذا يعد خطأ، وواضح جداً أن هذا ليس تاريخ فتح مكة، ولكنه تاريخ الاحتفال بفتح مكة، ويثبت من التاريخ الميلادي أن بعثة الرسول قد تمت في عام ٦١٠م وأعلنت الحرب عام ٦١٣م، وبدأ في هزيمة الروم من عام ٦١٤م وانتصروا في عام ٦٢٥م، فلو نظرنا إليها بهذا التسلسل التاريخي من نهاية الهزيمة إلى بداية الفتح تكون تسعة أعوام.

وبعد هذا النصر عاد هرقل مرة أخرى إلي ترفه وفسقه ومجونه الأول، وأن القدرة الإلهية قد ساعدته لعدة سنوات من أجل تحقيق هذه النبوة.

معجزة الطير الأبابيل:

لقد ولد النبي صلي الله عليه وسلم في عام الفيل، هذا العام الذي أراد فيه إبرهه الأشرم مهاجمة بيت الله بأفياله إلا أن الله أهلكه بالطير الأبابيل التي تحمل في يديها حجارة من سجيل، وكانت هذه آية عظمي مسلّم بها المسلمون والمسيحيون علي السواء بأن ما حدث لا يمكن أن يكون تأييداً لمشركي العرب لأن إبرهه الأشرم كان ملكاً نصرانياً، وعلي الأقل كانت عقيدته أفضل من عقيدة مشركي العرب، ولهذا فإن ما حدث كان علامة علي ظهور سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم لأن حماية الكعبة كانت جزءاً من رسالته ولهذا السبب توجه الله تعالي بالخطاب إليه في قوله: ــ

" ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب الفيل. ألم يجعل كيدهم في تضليل. وأرسل عليهم طيراً أبابيل. ترميهم بحجارة من سجيل. فجعلهم كعصف مأكول " (الفيل: ١ – ٥)

لقد نزلت هذه السورة بعد خمس وأربعين عاماً تقريباً من حدوثها، وكان العديد من شاهدي العيان لها ما زالوا علي قيد الحياة، كما أن هناك آلاف الناس سمعوا عن هذه الحادثة ممن شاهدوها، والكفار الذين يكذبون النبي صلي الله عليه وسلم علي الدوام لم ينفوا حدوث هذه الواقعة فهم لم يشكوا أبداً في أمانته وصدقه.

كثرة الشهب الثاقبة:

عندما بعث النبي صلي الله عليه وسلم حدث انقلاباً في السماء فالجن الذي كان باستطاعته الوصول إلي السماء العلا أغلقت كل الطرق أمامهم، وملئت السماء حرساً شديداً وشهباً، وهذا ما ذكره الله في القرآن الكريم علي لسان الجن: ــ

" وأنا لمسنا السماء فوجدناها ملئت حرساً شديداً وشهبا. وأنا كنا نقعد منها مقاعد للسمع فمن يستمع الآن يجد له شهاباً رصداً " (الجن: ٨ – ٩)

شرح الصدر:

لقد شق صدر النبي صلي الله عليه وسلم لكي يغمر بالنور الإلهي وهذه كانت الثروة الربانية لنبية محمد صلي الله عليه وسلم: " ألم نشرح لك صدرك " (الشرح)

وبما أن ذكر حادثة شق الصدر قد تم ذكرها بالتفصيل في كتب الأحاديث إلا أنها أيضاً وردت في القرآن الكريم وسواء كانت ظاهرية أم معنوية إلا أنها فوق فهم وإدراك البشر.

السفر من مكة إلي بيت المقدس في ليلة واحدة:

لقد قطع رسول الله صلي الله عليه وسلم المسافة من مكة إلي بيت المقدس في ليلة واحدة صدقه القرآن الكريم بقوله:

" سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلي المسجد الأقصى " (الإسراء: ١)

في حين أن هذه الرحلة تستغرق شهور لإنجازها.

عذاب القحط الذي نزل علي قريش:

وقد بينا قبل ذلك وقبل ذكر رواية عبد الله بن مسعود أن قريشاً خالفت الرسول صلي الله عليه وسلم، ودعا عليهم الرسول: اللهمَّ أعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبع يوسفَ؛ وهكذا أصابهم القحط الشديد فاضطر الناس وقتها أن يأكلوا الميتة والجيفة لدرجة أنهم من الجوع كانوا يرون السماء كدخان مبين، ولما رأي أبو سفيان هذه الحالة جاء إلي الرسول صلى الله عليه وسلم وقال له يا محمد انك تدعو الناس إلي طاعة الله و صلة الرحم وقومك يموتون فادعوا الله لهم فدعا الرسول لهم فنزلت الأمطار وزال القحط عنهم، وبعدها وحسب العادة خالفت قريش الرسول صلى الله عليه وسلم فوعد الله رسوله أثناء قيامه في مكة بأنه سينتقم منهم في المستقبل، وكان هذا بالفعل في معركة بدر وهو ما جاء في آيات سورة الدخان:

" فارتقب يوم تأتي السماء بدخان مبين. يغشي الناس هذا عذاب أليم. ربنا اكشف عنا العذاب أنا مؤمنون. أني لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين. ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون. إنا كاشفوا العذاب قليلاً إنكم عائدون. يوم نبطش البطشة الكبرى إنا منتقمون " (الدخان: ١٠ – ١٦)[1]

---

[1] ــ وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح البخاري: (٤٦٥٦) ـــ حدَّثنا محمدُ بن كثيرٍ حدَّثنا سفيانُ حدَّثنا منصورٌ و الأعمش عن أبي الضحى عن مَسروق قال: «بينما رجلٌ يُحدِّث في كِندَةَ فقال: يجــيء دُخانٌ يومَ القيامة فيأخُذُ بأسماع المنافقين وأبصارِهم يأخذُ المؤمنَ كهيئةِ الزُكام، ففَزِعنا. فأتيتُ ابنَ مسعودٍ وكان متَّكئاً، فغضِبَ فجلسَ فقال: مَن علم فليَقُل، ومن لم يعلم فليَقُل: اللَّهُ أعلم؛ فإنِ منَ العلمِ أن يقول لما لا يَعلم: لا أعلم، فإنَّ اللَّهَ قال لنبيِّه: {قل ما أسألُكم عليهِ من أجرٍ وما أنا منَ المتكلِّفين} (ص: ٨٦). وإنَّ

معجزات ودلائل الهجرة المترقبة:

اجتمع الكفار في دار الندوة للتآمر علي الرسول وقتله خلسة إلا أن الله تعالي كان يخبر نبيه صلي الله عليه وسلم بكل شيء، لقد حددوا الوقت والتاريخ لقتله وفي الليلة التي هاجر فيها الرسول صلي الله عليه وسلم كان العداء يحيطون منزله من كل جانب، إلا أن الله جعل بينه وبينهم سداً وخرج أمام أعينهم فلم يروه إلي أن ذهب إلي غار ثور مع صحبه أبو بكر رضي الله عنه، وكان العرب بطبيعتهم مهرة في تتبع آثار الأقدام، وبالفعل وصلوا إلي هذا الغار لدرجة أن أبا بكر رضي الله عنه قال للنبي صلي الله عليه وسلم لو نظر أحدهم تحت قدمه لرآنا فطمأنه الرسول بقوله: لا تحزن إن الله معنا، وقد ذكرت كل كتب السيرة هذه الرواية الضعيفة أن العنكبوت قد نسج خيوطه حول الغار فاعتقد الكفار أن لو أحداً دخل الغار لكانت هذه الخيوط قد تقطعت، فرجعوا من حيث أتوا، وخرج الرسول صلي الله عليه وسلم من الغار إلي المدينة المنورة، فتعقبه فرسان قريش حتى وصل سراقة بالقرب من الرسول صلي الله عليه وسلم فغرست أقدام حصانه في الرمال فأصابه الرعب والخوف وعاد لقومه يخبرهم عن ما شاهده، لقد ذكرت كتب الأحاديث هذه الواقعة بالتفصيل وأجملها القرآن الكريم بقوله: ـ

" وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين " (الأنفال: ٣٠)

" إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثاني اثنين إذ هما في الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلي وكلمة الله هي العليا والله عزيز حكيم " (التوبة: ٤٠)

قُرَيشاً أبطؤوا عنِ الإسلام، فدعا عليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: اللهمَّ أعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبعِ يوسفَ؛ فأخذَتهم سَنَةٌ حتى هلَكوا فيها وأكلوا الميتةَ والعظامَ، ويرَى الرجلُ ما بينَ السماءِ والأرض كهيئةِ الدُّخان، فجاءهُ أبو سفيانَ فقال: يا محمدُ، جئتَ تأمرُنا بصِلةِ الرَّحم، وإنَّ قومكَ قد هلكوا، فادعُ اللَّهَ. فقرأ {فارتقب يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مبين ــ إلى قوله ــ عائدون} (الدخان: ١٠ ــ ١٥) أفيُكشَفُ عنهم عذابُ الآخرةِ إذا جاء، ثم عادوا إلى كفرهم.فذلك قولَهُ تعالى: {يومَ نبطِشُ البطشةَ الكبرى} (الدخان: ١٦) يومَ بدرٍ. و{لِزاماً} (الفرقان: ٧٧) يوم بدر. {آلم غُلِبت الرومُ ــ إلى ــ سيغلِبون} (الروم: ١ ــ ٣) والرُّوم قد مضى. (يوسف عامر).

رؤيا عدد الكفار القليل في المنام:

لقد كانت غزوة بدر المعركة الكبرى بعد الهجرة والذي كان فيها المسلمون عددهم ٣١٣ مقاتل بدون عتاد أو سلاح يواجهون طرفاً آخر عددهم ألف رجل من قريش مدججين بالسلاح والعتاد، وكان منن المنطق أن يهزم الأعداء فيها المسلمون، إلا أن الله نصر المسلمون ومدهم بآلاف من الملائكة لينصر الحق علي الباطل وكان الرسول صلي الله عليه وسلم قد رأي هذه المعركة في المنام أن عدد الكفار كان قليلاً وكان هذا إشارة إلي هزيمتهم، وعندما سمع المسلمون بهذه الرؤيا اشتد ساعدهم وقوى حماسهم لأنهم كانوا علي يقين من أن الله سينصرهم، وقد أشار القرآن الكريم إلي ذلك: ــ " إذ يريكهم الله في منامك قليلاً ولو أراكهم كثيراً لفشلتم ولتنازعتم في الأمر ولكن الله سلّم إنه عليم بذات الصدور " (الأنفال: ٤٣)

لقد عرفت في هذه المعركة أن عدد الكفار بالنسبة للمسلمسن كانوا أضعاف عدد المسلمين، وكان من المتوقع أن يخاف المسلمين في هذه الحالة من عدد الكفار، إلا أن الله أظهر قدرته وجعل في قلوب المؤمنين القوة والعزة في أن يروا الكفار أقلة، كما أنه بث في قلوب الكفار الخوف والرهبة من المسلمين لدرجة أنهم لم يجدوا فرصة لإنقاذ أرواحهم في ميدان القتال، وكان تأثير كل هذا واضحاً في ميدان القتال علي الكفار الذين كانوا علي يقين من أنهم سيهزمون المسلمين فلم يعدوا أنفسهم جيداً لهذا مما كان له أثر إيجابي لصالح المسلمين، وقد أشار القرآن لهذا:

" وإذ يريكهم إذا التقيتم في أعينكم قليلاً ويقللكم في أعينهم ليقضي الله أمراً كان مفعولاً " (الأنفال: ٤٤)

زيادة تعداد المسلمين في نظر الكفار:

لقد جعل الله عدد المسلمين في أعين الكفار في البداية أقلة حتى يغتر الكفار بعددهم ولا يهتموا بالقتال، ولكن عندما بدأت المعركة ووقف الفريقان أمام بعضهما بدأ المسلمون أكثرية في نظر الكفار مما كان له أثر سلبي علي الكفار في القتال، وهذا ما أشار إليه القرآن الكريم: ــ

" قد كان لكم آية في فئتين التقتا فئة تقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة يرونهم مثليهم رأي العين والله يؤيد بنصره من يشاء إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار " (آل عمران: ١٣)

قدوم الملائكة:

كيف كثر عدد المسلمين ؟ هل نزلت الملائكة من السماء ؟ يقول الله عن هذا: ــ

" إذ تستغيثون ربكم فاستجاب لكم أني ممدكم بألف من الملائكة مردفين. وما جعله الله إلا بشرى ولتطمئن به قلوبكم وما النصر إلا من عند الله إن الله عزيز حكيم " (الأنفال: ٩ – ١٠)

" إذ يوحي ربك إلي الملائكة أني معكم فثبتوا الذين آمنوا سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب " (الأنفال: ١٢)

نزول الماء من السماء في ميدان القتال:

كان الموقع الذي نظم فيه المسلمون صفوفهم مرتفعاً في حين كان موقع قريش في القتال منخفضاً، وقد أوجد الله سبباً ظاهرياً من أجل هزيمة الكفار وهو إنزال المطر الشديد في ميدان القتال حتى تثبت أقدام المسلمين وتتعثر أقدام الكفار في وحل هذه الأمطار، وقد أشار القرآن إلي هذا: ــ

" وينزل عليكم من السماء ماء ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط علي قلوبكم ويثبت به الأقدام " (الأنفال: ١١)

غلبة النعاس في المعركة:

يطير النوم من عيون الشجعان في ميدان المعركة إلا أن الإعجاز الذي صاحب الرسول ورجاله صلي الله عليه وسلم في معركة بدر وأحد أن النعاس كان يغشاهم أمنة حتى يتمكنوا من أداء واجبهم، وهكذا قال الله تعالي: ــ

" وإذ يغشيكم النعاس أمنة منه " (الأنفال: ١١)

" ثم أنزل عليكم من بعد الغم أمنة نعاساً يغشي طائفة منكم وطائفة قد أهمتهم أنفسهم " (آل عمران: ١٥٤)

رمية صلي الله عليه وسلم للحصى:

كان الرسول مشغول الدعاء في الصلاة وقت المعركة، ولكن عندما رفع جبهته الشريفة من السجود ورأي هذا المنظر المحير رفع قبضة من تراب وحصى وقذف بها تجاه الأعداء، وفجأة تبدد الباطل. وقد شهد القرآن بهذا: ــ

" فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمي وليبلي المؤمنين منه بلاء حسناً إن الله سميع عليم " (الأنفال: ١٧)

ويجب أن لا يفهم من معني الرمي هنا أن النبي قذف برمح أو سيف فهو حتى في وقت الخطر لم يدنس يده الشريفة بخنجر أو رمح إطلاقاً

وعد الله للمؤمنين في غزوة بدر:

لقد كانت هناك قافلة تجارية كقريش محملة بالمال قادمة من الشام إلي مكة، وعلي الجانب الآخر كان جيش قريش مسلح بالعتاد والسلاح خرج لمواجهة المسلمين، فأخبر الله المسلمين قبل خروجهم من المدينة بهذه الأخبار قبل غزوة بدر ووعدهم بأنهم سيفوزوا بإحدى هاتين الطائفتين إما أن تهزموا جيشهم أو تحصلوا علي أموالهم كغنائم وقد أوفي الله وعده: ــ

" وإذ يعدكم الله إحدى الطائفتين أنها لكم " (الأنفال: ٧)

الإخبار بغزوات الأحزاب:

إن جحافل القبائل العربية قد أتت إلي المدينة فجأة في غزوة الأحزاب، وكان الرسول صلي الله عليه وسلم قد رأي في منامه هذه الأحداث، ونبه أو حذر صلي الله عليه وسلم جميع المسلمين قبل وقوع هذه الأحداث، ولكن عندما تحققت هذه الرؤيا ازداد إيمانهم بالله ورسوله: ــ

" ولما رأي المؤمنون الأحزاب قالوا هذا ما وعدنا الله ورسوله وصدق الله ورسوله وما زادهم إلا إيماناً وتسليماً " (الأحزاب: ٢١ – ٢٢)

العاصفة في غزوة الأحزاب:

عندما اتحدت قبائل العرب كلها لمهاجمة المسلمين وحاصروا المدينة من كل جوانبها، وقرروا أن يدمروا المسلمين بعد أن يضيقوا الخناق عليهم في المدينة، وبالفعل حاصروا المدينة لمدة عشرين يوماً، واليهود الذين كانوا قد تعهدوا بمناصرة المسلمين من قبل انضموا إلي هؤلاء في مهاجمة المسلمين، وكان الهجوم قد وصل لذروته لدرجة أن المسلمين لم يجدوا فرصة لأداء الفريضة في وقتها وعم القحط المدينة وترك ضعاف الإيمان والمنافقين إخوانهم من المسلمين إلي أن جاء الفرج من عند الله وهبت عاصفة شديدة اقتلعت خيام الأعداء وتحطم عتادهم وفروا هاربين، وذكرّ الله المسلمين بهذا بقوله:

" يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحا وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً " (الأحزاب: ٩)

النصر في غزوة حنين:

وقعت غزوة حنين بعد فتح مكة وكان المسلمون كثرة في هذه المعركة وكان فيهم شباب ليس لديهم خبرة في القتال هذا إلي جانب البعض منهم حديثي العهد بالإسلام فواجه المسلمون في هذه المعركة قبيلة هوازن الذين لديهم خبرة قوية في القتال، ولهذا عندما تقدم جيش المسلمين أمطرتهم قبيلة هوازن بالرماح فاهتز المسلمون في البداية وصدرت الأوامر من الرسول صلي الله عليه وسلم لسيدنا عباس رضي الله عنه ونادي في الأنصار والمهاجرين فعادوا، ونزل الرسول من علي مطيته وأمسك بحفنة من تراب وقذف بها وجوه الأعداء، وفجأة تغير اتجاهه المعركة لصالح المسلمين وهزمت قبيلة هوازن وفروا هاربين، وهذه الحادثة موجودة في صحيح مسلم والكتب المعتبرة الأخرى وصدقها القرآن الكريم: ـــ

" لقد نصركم الله في مواطن كثيرة ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين. ثم أنزل الله سكينته علي رسوله وعلي المؤمنين وأنزل جنوداً لم تروها وعذب الذين كفروا " (التوبة: ٢٥ – ٢٦)

الإخبار بالغيب:

لا يعلم الغيب إلا الله ولكن يحيط به من يشاء من عباده، ولهذا اختص الرسول صلي الله عليه وسلم ببعض هذه الأمور الغيبية، ولهذا كان المنافقون يخشون أن يكشف الله لنبيه ما تضمره قلوبهم:

" يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم "(التوبة: ٦٤)

الإخبار بمؤامرة بني النضير:

ذات مرة ذهب الرسول صلي الله عليه وسلم لأمر ما مع بعض من رفقاءه إلي قلعة بني النضير واعتبر يهود بني النضير أن هذه فرصة كبيرة لقتل الرسول صلي الله عليه وسلم ورفقاءه سراً، وهكذا صعد أحد أبنائهم فوق حائط كان الرسول صلي الله عليه وسلم يقف تحته وكان ينوي أن يقذف بحجر كبير علي رأس الرسول صلي الله عليه وسلم، وبما إن الله قد كفل حماية رسوله الكريم، لهذا أخبره في الوقت المناسب بأن يترك هذا المكان فوراً ونزلت هذه الآية: ـــ

" يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمت الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم أيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلي الله فليتوكل المؤمنون " (المائدة: ١١)

بشرى المهاجرين الحبش:

نتيجة لظلم وطغيان قريش هاجر العديد من المسلمين إلي الحبشة، وكان المسلمون يترددون في الذهاب إلي الحبشة، وذلك لأسباب منها أن ملك الحبشة المسيحي كيف سيستقبل هؤلاء خاصة وأن العلاقات التجارية بين قريش وأمراء الحبشة قديمة وكان أمراء العرب قبل ذلك قد أرسلوا هداياهم ورسلهم إلي ملك الحبشة حتى لا يسمح لهؤلاء المسلمين بالاستقرار في بلاده كل هذا بلا شك كان يقلق المهاجرين المسلمين حول مستقبلهم في هذه البلاد، وظل الأمر هكذا حتى نزلت هذه الآية لتطمئنهم وتهدأ من روعتهم:

" والذين هاجروا في الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم في الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر " (النحل: ٤١)

يستدل من لفظ الهجرة أن هذه السورة كانت في عهد قيامهم من مكة، وإن هؤلاء الناس الذين هاجروا في ذلك الوقت هم المهاجرين الحبش. لقد صدق الله عباده فرد النجاشي سفراء قريش وهداياهم وأعز المسلمين في بلاده ليس هذا فحسب بل أبدي رغبته في اعتناق الإسلام، وظل بعض المسلمين هناك أكثر من أربعة عشر عاماً تناول فيها السلطةَ أكثر من نجاشي، ولكنه لم يتعرض لأحد من المسلمين فكانت هذه الآية بشرى لمهاجرى الحبشة.

لم تجد قريش فرصة بعد الهجرة:

لقد تحدثنا قبل ذلك عن هجرة الرسول صلي الله عليه وسلم بالتفصيل، ولم يكن يتوقع أحد هناك بأن هذه القافلة ستخرج يوماً ما في المدينة المنورة بهذه القوة وتقضي علي هؤلاء الذين لم يتركوا فرصة في إبادة المسلمين من بداية النبوة وحتى الهجرة، ولكن القرآن قبل الهجرة بعام واحد كان قد قدم هذه النبوءة، ونزلت هذه الآية: ـــ

" وإن كادوا ليستفزونك من الأرض ليخرجوك منها وإذا لا يلبثون خلافك إلا قليلاً " (الإسراء: ٧٦)

وقد تحققت هذه النبوءة حرفاً حرفاً، وبعد عام واحد فقط أبادت غزوة بدر سادة قريش وقطعت جذور المعارضة ضد العرب.

مواجهة المصائب والمصاعب الكبيرة في المدينة:

لم يكن من العجب أن يشعر المسلمون بنوع من الراحة والاطمئنان عند وصولهم المدينة كما أنه ليس من العجب أن يعتقدوا بأن جميع مشكلاتهم قد انتهت، ولم تكن هناك أي قرينة يتضح منها أن قريش ستخرج سيوفها مرة أخرى لتنتقم من المسلمين وأن جميع العرب سيشاركونهم في هذه المهمة، وأن المعارك ستبقي لمدة ثمانين أعوام متواصلة اضطر المسلمون أن يواجهوا فيها كل أنواع وإشعال الخوف والجوع والقتل، ولكن الرسول صلي الله عليه وسلم كان علي علم بهذا من قبل: ــ

" ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات "
(البقرة: ١٥٥)

الوعد بسلطان الدين والدنيا:

لقد وعد الله المسلمين بأن يستخلفنهم في الأرض وبشرهم سلطان الدين والدنيا رغم أن الأحداث في ذلك الوقت كانت تقول غير ذلك إلا أنه بعد عدة أعوام يحقق وعد الله: ــ

" وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضي وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا "
(النور: ٥٥)

فكم كانت هذه البشرى غريبة وعجيبة في ذلك الوقت حيث كان المسلمون ضعفاء لا حول لهم ولا قوة إذ هم الكفار كثيراً وتحملوا العديد من المصائب إلي أن ذهبوا إلي المدينة ولم يكن الحظ حليفهم فيها في البداية فواجهوا بجانب كفار قريش المنافقين واليهود في المدينة لهذا كان الصحابة رضوان الله عليهم يخافون من هجوم الكفار دائماً عليهم لدرجة أنهم كانوا ينامون بسلاحهم وعتادهم ولم يذوقوا طعم الراحة فضاقت الدنيا أمامهم، ولم يكن في تصورهم أن يأتي ذلك الوقت الذي سيذيقون فيه طعم الراحة، فنزلت عليهم البشارة من عند الله بأن المسلمين سيحكمون العالم وتنهار أمامهم جميع الامبراطوريات المتمدنة، وبالفعل صدقت النبوءة وحكم المسلمون العالم وانهارت أمامهم كل هذه الامبراطوريات المتمدنة.

هزيمة قبائل العرب:

إن الغزوات التي تمت في عهد الرسول صلي الله عليه وسلم وانتصر فيها الإسلام وانهزم الكفار، كل هذا قد تنبأ به القرآن الكريم في حين كانت كل الدلائل تشير إلي أن المسلمين بإمكانياتهم المتواضعة لا يمكنهم التغلب علي الكفار، ولكن الله أعلن أن الجميع سيهزم ويولون الدبر كما جاء في قوله تعالي: ــ

" أم يقولون نحن جميع منتصر. سيهزم الجمع ويولون الدبر " (القمر: ٤٤ – ٤٥)

" ولو قاتلكم الذين كفروا لولوا الأدبار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيرا " (الفتح: ٢٢)

" قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين ويذهب غيظ قلوبهم " (التوبة: ١٤)

هذا وقد تحققت هذه النبوءات جميعها في عهد النبي صلي الله عليه وسلم، وأنهي الإسلام كل القوي المعارضة له في القبائل العربية.

الوعيد بهزيمة وسحق قريش:

لقد وعد الله الرسول صلي الله عليه وسلم المسلمين في مواقع عدة بأنهم سينتصرون علي قريش وأن نهايتهم ستكون علي أيديهم فصدق الرسول وعده وتحقق بعض هذا في حياته والبعض الآخر بعد وفاته صلي الله عليه وسلم: ــ

" فإما نذهبن بك فإنا منهم منتقمون. أو نرينك الذي وعدناهم فإنا عليهم مقتدرون " (الزخرف: ٤١ – ٤٢)

"فاصبر إن وعد الله حق فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإلينا يرجعون" (غافر: ٧٧)

" وإن ما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب. أولم يروا أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها والله يحكم لا معقب لحكمه "

(الرعد: ٤٠ – ٤١)

التنبؤ بالنصر:

كان المؤمنون يتوقون لفتح مكة فهي المدينة التي خرجوا منها أذلة ولم يعد لهم موطئ قدم فيها بعد أن رحلوا إلي المدينة المنورة، لهذا كانت مكة دائماً في مخيلتهم، فجاءتهم البشرى من الله لكي تطمئن قلوبهم بأنهم سيعودون إليها رافعي رؤسهم منتصرين بإذن الله.

" إن الذي فرض عليك القرآن لرادك إلي معاد " (القصص: ٨٥)

والمقصود هنا في الآية مكة([1])، وقد بشر الله عباده المؤمنين بالجنة في الآخرة كما و_د في سورة الصف واتبعها بهذا النصر في الدنيا بقوله: ــ

" وأخرى تحبونها نصر من الله وفتح قريب وبشر المؤمنين " (الصف: ١٣)

وقبل معاهدة صلح الحديبية رأي الرسول في منامه أنه دخل الكعبة المشرفة.

" لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رؤسكم ومقصرين لا تخافون " (الفتح: ٢٧)

ووقتها استدعي الرسول صلي الله عليه وسلم سيدنا عمر بن الخطاب وبشره بهذه البشرى وبعدها بعامين فتح المسلمين مكة.

التنبؤ بالنصر في غزوة خيبر وغزوة حنين:

لقد كان صلح الحديبية في عام ٦هــ وأعقبه فتح مكة في عام ٨هــ، ولكن الطاعة والاستجابة التي قدمها المسلمون للرسول في صلح الحديبية كانت مثالاً يحتذي به، لهذا كان جزاء الله لهم كبير في الفتوحات التالية محققوا الكثير من الانتصارات وجاءت لهم غنائم كثيرة فيها: ــ

" فعلم ما لم تعلمون فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً. هو الذي أرسل رسوله بالهدي ودين الحق ليظهره علي الدين كله وكفي بالله شهيداً " (الفتح: ٢٧ – ٢٨)

كان هذا إشارة إلي فتح خيبر الذي جاء بعد صلح الحديبية بعام واحد وقبل فتح مكة بعام، وقد أباد فيه المسلمون قوة وطغيان اليهود ومح الإسلام كل عقائد العرب.

" لقد رضي الله عن المؤمنين إذ يبايعونك تحت الشجرة فعلم ما في قلوبهم فأنزل السكينة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً. ومغانم كثيرة يأخذونها " (الفتح: ١٨ – ١٩)

" وعدكم الله مغانم كثيرة تأخذونها فجعل لكم هذه وكف أيدي الناس عنكم ولتكون آية للمؤمنين " (الفتح: ٢٠)

---

[1] ــ صحيح البخاري تفسير الآية المذكورة. وهذا نص الحديث: (٤٦٥٥) ـــ حدَّثنا محمدُ بن مقاتل أخبرَنا يَعلى حدَّثنا سفيان العُصفُريُّ عن عِكرمَةَ عن ابنِ عباسٍ {لرادُّكَ إلى معاد} قال: إلى مكة. (يوسف عامر).

وهكذا استولي المسلمون في فتح خيبر علي أراضيها الخضراء وواحاتها اليانعة، وبعد عام واحد حصلوا في فتح حنين علي غنيمة طائلة من بينها ستة آلاف من أسرى الحرب، وأربع وعشرون ألفاً من الجمال، وأربعون ألف شاة، وأربع أوقيات من الفضة.

إعلان اليهود:

ورغم أن اليهود العرب لم يكونوا يترددون في بذل المال والأنفس في سبيل مخالفة النبي صلى الله عليه وسلم، إلا أن أكبر معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم تمثلت في أن القرآن المجيد قدم بعض النبوءات فيما يتعلق باليهود بحيث كان في الإمكان إبطال ما يدعون بقليل من الهمة، علي سبيل المثال كان اليهود يدعون أنهم أحباب الله، وأن الجنة قد خصصت لهم، ولكن لأن الجنة لا يمكن دخولها إلا بعد الموت، ولأن من هم علي يقين من أنهم في الجنة لا يترددون في بذل الروح في سبيلها، لهذا قال القرآن المجيد فيما يتعلق باليهود: ـــ

" قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولن يتمنوه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين " (البقرة: ٩٤ – ٩٥)

" قل يا أيها الذين هادوا إن زعمتم إنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين. ولا يتمنونه أبداً بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين " (الجمعة: ٦ – ٧)

ورغم أنهم كانوا يبذلون قصارى جهدهم في تكذيب النبي صلى الله عليه وسلم، وكان من الممكن أن يتمنوا الموت، لكن نبوءة القرآن المجيد تحققت، ولم يبذل يهودي حتى اليوم روحه متمنيا البقاء الإلهي.

الفشل الدائم لليهود:

كانت هناك مواجهة مستمرة مع اليهود، وظلت هذه المواجهة قائمة لسبع سنوات كاملة، وكان اليهود العرب أقوياء حيث كانت التجارة كلها في قبضتهم، وكان لديهم من المال الكثير، وكانوا يتفوقـــون علي باقي العرب بشكل واضح في الثقافة والتمدن والعلوم والفنون، ولديهم كل آلات الحرب، ويعرفون فنون الحرب جيداً، وقلاعهم التجارية ممتدة من المدينة وحتى حدود الشام، وعلي الجانب الآخر لم يكن لدي المسلمين شيء من كل هذا، ومع ذلك فإن القرآن الكريم قد أعلن علي لسان النبي صلى الله عليه وسلم قائلاً: ـــ

" ولو آمن أهل الكتاب لكان خيراً لهم منهم المؤمنون وأكثرهم الفاسقون. لن يضروكم إلا أذى وإن يقاتلوكم يولوكم الأدبار ثم لا ينصرون. ضربتْ عليهمَ الذلة أين ما

ثقفوا إلا بحبل من الله وحبل من الناس وباءوا بغضب من الله وضربت عليهم المسكنة ' (آل عمران: ١١٠ – ١١٢)

ومنذ ذلك الوقت وحتى يومنا هذا تؤكد متروكاتهم في أفريقيا وأوربا علي صحة هذه النبوءة الصادقة.

ستنهار قوة الروم:

وبعد عام ٦هـ اشتدت المواجهة بين المسلمين وبين عدد أقوى وأقسى من مشركي العرب واليهود منهم وهم المسيحيون الروم، فإذا ما تمعنت في أحوال المسلمين حينئذٍ واضعاً في اعتبارك اتساع الإمبراطورية الرومانية وقوتها ونظامها وجيشها وأسلحتها وممتلكاتها، علمت أن المواجهة بينهما بمثابة المواجهة مع جبل، ومع ذلك فقد سمعت الدنيا وقتها كلمات اليقين والطمأنينة علي لسان نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم:–

" هو الذي أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ليظهره علي الدين كله " (الصف: ٩)

ولم تنتظر الدنيا سوي عام واحد حتى تتحقق هذه النبوءة وتصدق.

والمعارك في عهد الخلفاء الراشدين :

ولم تقتصر نبوءات القرآن الكريم علي تلك الغزوات التي وقعت في العهد النبوي فقط، وإنما امتدت هذه النبـوءات لتتحدث عن تلك المعارك الضخمة التي وقعت فيما بعد في عهد الخلفاء الراشدين، وتحققت بالفعل. لقد كانت الحروب التي خاضها المسلمون مع الفرس والروم أحداثاً تاريخية بارزة، وقد أعلن القرآن الكريم نتائج هذه الحروب قبل وقوعها : ـــ

"قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلي قوم أولي بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون" (الفتح : ١٦)

وعندما وقعت هذه الحروب كانت نتائجها كما حددها القرآن الكريم من قبل، بمعني إما القتل أو الإسلام.

نبوءة وفاة النبي صلى الله عليه وسلم :

لقد اكتمل هدف حياة النبي صلى الله عليه وسلم بعد فتح مكة، وبنـاء علـي أن الأنبياء لا يبقون في الدنيا بعد تحقق هدف حياتهم فيها، فقد جاء الوقت الذي يـذهب فيـه النبي صلى الله عليه وسلم إلي الملأ الأعلى، وقد أظهر الله تعالي هذا السر في شكل نبوءة

مستقلة فقال: " إذا جاء نصر الله و الفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجا. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا "(النصر: ١ - ٣)

ورغم أن نبوءة وصال النبي صلى الله عليه وسلم بالرفيق الأعلى قد جاءت في هذه السورة بألفاظ غاية في الإبهام، لكن يظهر من الإشارات أن هذه البشرى ليست بشرى بفتح جديد، وإنما بشرى بوصاله صلى الله عليه وسلم، حيث لا مناسبة للتسبيح والاستغفار مع بشرى الفتح، وإنما المناسب هو الشكر، أما الوقت الأصلي للتسبيح والاستغفار فهو عندما يرحل الإنسان في الدنيا. ولذا فهم أهل الفقه من الصحابة هذا السرّ [1]

[1] ـ صحيح البخاري ـ تفسير السورة المذكورة. وهذا نص الحديث: (٤٨٤٨) ـ حدثنا الحسنُ بن الربيع حدَّثنا أبو الأحْوَص عن الأعمش عن أبي الضُحى عن مسروقٍ «عن عائشةَ رضي الله عنها قالت: ما صلى النبيُّ صلى الله عليه وسلم صلاةً بعدَ أن نزلت عليه {إذا جاءَ نصرُ الله والفتحُ} إلا يقول فيهـا: سبحانك ربَّنا وبحمدِك، اللَّهم اغفرْ لي». (يوسف عامر).

الآيات والدلائل النبوية في الروايات الصحيحة

قدمنا في الصفحات السابقة الآيات والدلائل التي ذكرت صراحة في القرآن الكريم، أو علي أقل تقدير وردت الإشارة إليها في القرآن، وفيما يلي نودّ استقصاء الآيات والدلائل التي ورد ذكرها في كتب الحديث في الروايات الصحيحة المعتبرة، ورغم أن جزءاً كبيراً من هذه الآيات والدلائل ثابت بخبر الآحاد كل آية ودليل علي حدة، إلا أن درجتها من حيث المجموع تصل إلي درجة الخبر المشهور، علي سبيل المثال زيادة المقدار القليل بعض الشيء، ونبع الماء وفورانه من اليد، والشفاء من الأمراض بطريقة غير عادية، وقبول الدعاء بطرق غير عادية، فقد وردت أجزاء من هذه المعجزات علي لسان رواة قلائل، لكن هناك شهادات كثيرة تؤكد كل معجزة منها بما يجعلها تفوق تأكيداً الخبر المتواتر إلي الخبر المشهور.

لكن الأمور العجيبة التي صدرت عن النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة أو الأحداث غير العادية التي وقعت له، لم يثبت صحتها طبقاً لقواعد رواية الأحاديث إلا قليلاً، إلا أن السبب في ذلك ليس قلة وقوع مثل هذه الأحداث أو أنها لم تحدث، وإنما لأن رواة الأحداث والوقائع في تلك الفترة كانوا بشكل عام هم الوالدان وكبار السن في القبائل والعائلات، وعندما جاءت البعثة النبوية، واستقرت الحياة الآمنة في المدينة المنورة، وبدأت الطريقة الصحيحة للرواية لم يكن هناك أحد علي قيد الحياة من كبار السن في عائلة النبي صلى الله عليه وسلم والذين شاهدوا فترة شبابه صلى الله عليه وسلم، فقد توفي والده في صِغره، كما توفي جده أيضاً، ومن بين أعمامه صلى الله عليه وسلم كان أبو لهب عدوه، وتوفي عمه أبو طالب في بداية ظهور الإسلام، بينما استشهد عمه حمزة عام ٣هـ وكان محسناً، أما سيدنا العباس فكان أكبر منه صلى الله عليه وسلم بعامين فقط، ولهذا فإن الأحداث غير العادية التي وقعت في تلك الفترة لا تتوفر فيها شروط الرواية إلا قليلاً، ولهذا فإنها تعد غير معتبرة.

علي أية حال نجد باستقصاء كل المعجزات الصحيحة أن بعضاً منها يتعلق بفترة ما قبل البعثة النبوية والبعض الآخر بالفترة المكية، بينما نجد أكثرها يتعلق بالفترة المدنية، وهي التي استحكمت فيها قواعد الرواية الإسلامية بكثرة الرواة. وتختلف المعجزات التي

ظهرت بعد البعثة النبوية من الناحية النوعية، فهناك بعض منها يتعلق بالتأثير والتصرف في أجسام الكائنات، والبعض الآخر يتعلق بتكثير الأشياء، بينما يتعلق البعض الآخر باستجابة الدعاء والشفاء من الأمراض وغير ذلك، ولهذا فإننا ندرج فيما يلي كل نوع من المعجزات علي حدة.

علامات وإرهاصات النبوة قبل البعثة

لا يختلف اثنان علي أن سيرة حياة المتميزين من الناس بها من الآثار التي تنبئ بمستقبلهم الباهر منذ البداية، فإذا كان هذا هو حال الممتازين من بني الإنسان العاديين الذين يعدّون زعماء وقادة ظاهريين فقط لقبائلهم وشعوبهم وبلادهم، فأي شك إذاً فيما يتعلق بتلك الشخصيات العظيمة، والذين هم في الحقيقة الزعماء الروحانيين لشعوبهم وأقوامهم، وللإنسانية عموماً، ولهذا نجد في الفترة الأولي من حياة النبي صلى الله عليه وسلم مثل هذه الآثار والأحداث بكثرة، وقد تناول كُتّاب السير والدلائل كل هذه الأحداث منذ ولادته صلى الله عليه وسلم وحتى البعثة النبوية بالشرح والتفصيل، ولكن كما سبق أن ذكرنا فإن قواعد رواية الحديث الصارمة قد ضيقت دائرة هذه الأحداث أمامنا، وبالتالي فإننا نورد فيما يلي تلك الأحداث التي تعد علامات وإرهاصات للنبوة في تلك الفترة والتي وردت بروايات صحيحة: ــ

حلم السَيدة آمنة:

روي عن كثير من الصحابة رضي الله عنهم أن الصحابة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم ذات مرة قائلين: يا رسول الله، حدثنا عن نفسك. فأخبر صلى الله عليه وسلم بأنه ﷺ دعوة أبيه إبراهيم وبشارة عيسي وحلم أمه، فذكر أن أمه ﷺ قد رأت حلماً وكان في بطنها أن نوراً خرج من بدنها أضاءت به قصور الشام، وهذه هي رواية خالد بن معدان التابعي، والتي وإن جاءت في ابن سعد مرسلة (1)، إلا أنه ورد في المستدرك أنه سمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهناك زيادة في الألفاظ في رواية سيدنا عرباض بن سارية، فقد قال: أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخبر بأنه ﷺ عبد الله وخاتم الأنبياء وأنه ﷺ منذ كان أبيه (آدم) طيناً، وأخبرنا بتفصيل هذا، وهو ﷺ أنه دعوة إبراهيم وبشارة عيسي عليه السلام، وحلم أمه آمنة، وهكذا كانت أمهات الأنبياء يرين الأحلام، وقد رأت والدة النبي صلى الله عليه وسلم عند ولادته حلماً فحواه أن نوراً

(1) ــ ابن سعد ــ الجزء الأول ــ ص٩٦، المستدرك للحاكم ــ جزء ٢ ــ ص ٠٠.

خرج منها أضاء قصور الشام ([1]) ثم قرأ هذه الآية ([2]): " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلي الله بإذنه وسراجاً منيرا " (الأحزاب: ٤٥)

نبوءات مولد النبي صلى الله عليه وسلم بين اليهود والنصارى:

وردت روايات كثيرة في كتب الحديث والسير والدلائل تثبت أن اليهود والنصارى بصفة خاصة كانوا يتوقعون ظهور النبي صلى الله عليه وسلم في تلك الفترة التي ظهر فيها صلى الله عليه وسلم، وكانوا يقدمون نبوءات مختلفة عن سرعة ظهوره وبعثته صلى الله عليه وسلم، ورغم أن كل رواية من هذه الروايات تعد ضعيفة في ذاتها، لكنها مجتمعة تقدم قاسماً مشتركاً وهو أن الناس في تلك الفترة كانوا بالفعل ينتظرون قدوم نبي، وكان الحديث بشكل مكثف عن ظهور هذا النبي بين أهل المدينة والباحثين عن الحق من أهل مكة.

هواتف غيبية من معابد الأصنام:

وكذلك وردت روايات كثيرة في تلك الكتب تبين أن الناس بعد ولادته صلى الله عليه وسلم سمعوا أصواتاً من الغيب من داخل معابد الأوثان تقول أنه: " جاء زمن خراب المعابد، ولقد ولد النبي الصادق "، وأكثر هذه الروايات ضعيف للغاية ولا يوثق فيه، إلا أنها مجتمعة تقدم نتيجة فحواها أن مثل هذا الحادث لابد وأن يكون وقع في تلك الفترة، ولهذا جاءت رواية في صحيح البخاري قريبة من هذه الروايات.

شق الصدر:

طبقاً لما يقوله كتاب السير جميعاً وبعض المحدثين فإنه عندما كان النبي صلى الله عليه وسلم عند السيدة حليمة رضي الله عنها حدثت له واقعة شق الصدر، فجاء في رواية أن بعض الصحابة سألوا النبي صلى الله عليه وسلم، ما هي أول واقعة غيبية وقعت لك ؟ فأجابهم النبي صلى الله عليه وسلم بأن قصّ عليهم حادثة مجيء ملكين وشقهما لصدره الشريف ([3])

---

[1] ـ مسند ابن حنبل ـــ جزء ٤ ـــ ص١٢٧ـــ البيهقي ـــالمستدرك (علي شرط الصـــحيح) ـــــ الجزء ٢ ـــ ص ٦٠٠، وابن سعد ـــ الجزء الأول ص ٩٦.

[2] ـ مستدرك الحاكم (صحيح) ـــ الجزء الثاني ـــ ص ٤١٨.

[3] ـ مستدرك الحاكم ـــ الجزء الثاني ـــ باب المعجزات ـــ ابن سعد ـــ الجزء الأول ـــــ ص ٩٦، مسند الدرامي، باب كيف كان أول شأن النبي (ص)، ومسند أبي يعلي وأبو نعـــيم وابـــن عســـاكر

وأكثر رواية موثوق بها في هذا الخصوص هي تلك التي جاءت في صحيح مسلم ومسند أحمد وابن سعد وغيرهم بواسطة حماد بن سلمة، وثابت النباتي، والتي تقول أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يلعب ذات يوم مع الأطفال إذ جاء من أمسك به صلى الله عليه وسلم وشق صدره، ثم أخرج من قلبه الشريف قطعة من الدماء المتجلطة، ورمي بها وقال: هذا حظ الشيطان منك، ثم غسل قلبه في طشت من ذهب بماء زمزم، وأعاده مكانه، وهرول الأطفال إلي السيدة حليمة وأخبروها أن أحداً قد قتل محمداً، وجاءت السيدة حليمة فرأت وجهه صلى الله عليه وسلم متغيراً، يقول سيدنا أنس رضي الله عنه أننا كنا نري أثر هذا الجرح في صدره صلى الله عليه وسلم، وقد ذكرت رواية أخرى في نفس المعني في المستدرك عن طريق عتبة بن عبد السلمي عن خالد بن معدان (باب دلائل النبوة ــ الجزء الثاني ــ ص ٢١٦)

وطبقاً لرواية أرباب السير وبعض المحدثين فقد ذكرت هذه الرواية هنا، لكن بحثي أنا في هذا الخصوص ذكرته سابقاً في " شرح الصدر "

القدم المباركة:

وذكرت أحداث كثيرة في الروايات عن قدمه المباركة صلى الله عليه وسلم، لكن ليس من بينها ما هو مروي بطريق صحيح، وليس هناك سوي رواية واحدة ذكرت بالطريق الصحيح وهي أن أحد الصحابة يروي عن أبيه أنه ذهب إلي الحج في أيام الجاهلية قبل الإسلام، فرأي شخصاً منهمكاً في الطواف، وهذا الدعاء في شكل الشعر يجري علي لسانه:

رُدّ إلي راكبي محمداً يا رب رد واصطنع عندي يدا

يقول: فسألت من يكون هذا، فقال الناس إن هذا عبد المطلب، وقد ضاع منه جمل، فأرسل حفيده يبحث عنه، ولم يعد الحفيد حتى الآن، وحفيده هذا ينجح في كل عمل يكلف به،

وأحمد عن يمة ابن عبدان. وورد فى صحيح البخاري: (٣٦٧) حدثنا شَيْبَانُ بْنُ فَرُّوخَ: حَدَّثَنَا حَمَّادُ بْنُ سَلَمَةَ: حَدَّثَنَا ثَابِتٌ الْبُنَانِيُّ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ أَتَاهُ جِبْرِيلُ وَهُوَ يَلْعَبُ مَعَ الْغِلْمَانِ. فَأَخَذَهُ فَصَرَعَهُ فَشَقَّ عَنْ قَلْبِهِ، فَاسْتَخْرَجَ الْقَلْبَ، فَاسْتَخْرَجَ مِنْهُ عَلَقَةً. فَقَالَ: هَذَا حَظُّ الشَّيْطَانِ مِنْكَ، ثُمَّ غَسَلَهُ فِي طَسْتٍ مِنْ ذَهَبٍ بِمَاءِ زَمْزَمَ. ثُمَّ لأَمَهُ. ثُمَّ أَعَادَهُ فِي مَكَانِهِ. وَجَاءَ الْغِلْمَانُ يَسْعَوْنَ إِلَى أُمِّهِ يَعْنِي ظِئْرَهُ فَقَالُوا: إِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ قُتِلَ. فَاسْتَقْبَلُوهُ وَهُوَ مُنْتَقِعُ اللَّوْنِ. قَالَ أَنَسٌ: وَقَدْ كُنْتُ أَرَى أَثَرَ ذَلِكَ الْمِخْيَطِ فِي صَدْرِهِ.(يوسف عامر).

وبعد فترة وجيزة عاد الحفيد (النبي صلى الله عليه وسلم) بالجمل فضمه عبد المطلب إلي صدره ([1])

سقوطه صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه وليس عليه إزار:

كان صلى الله عليه وسلم طفلاً عندما اجتمع شرفاء مكة جميعاً يعملون في بناء الكعبة المشرفة عندما احتاجت إلي البناء، وكان الأطفال يعملون بنقل الأحجار، ومن بين هؤلاء الأطفال كان صلى الله عليه وسلم وعمه سيدنا عباس، فقال سيدنا عباس للرسول صلى الله عليه وسلم بأن يحمل إزاره ويلفه علي رقبته حتى لا تؤذيها الأحجار، وفعل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفجأة سقط صلى الله عليه وسلم مغشياً عليه، وكانت عيناه مصوبتين إلي السماء، فلما أفاق صلى الله عليه وسلم كان يردد: إزاري إزاري، فشدَّ عليهِ إزاره»، وهذه هي رواية الصحيحين ([2])، وجاء عند الحاكم وأبي نعيم أن أبا طالب سأله صلى الله عليه وسلم فيما بعد عن هذه الواقعة، فأخبره صلى الله عليه وسلم بأنه رأي رجلاً في ثياب أبيض قال له: استر عورتك، وجاء عند البيهقي وابن سعد وفي رواية أخرى للحاكم أن صوتاً ناداه صلى الله عليه وسلم أن يا محمد، استر عورتك. وتقول هذه الروايات أن هذا هو أول صوت من الغيب يسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم.

غلبة النوم عليه صلى الله عليه وسلم:

يروي سيدنا علي رضي الله عنه ما سمعه من رسول الله صلى الله عليه وسلم فيقول أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأنه قد ورد علي قلبه قبل البعثة النبوية أمران سيئان فقط، وقد نجاه الله منهما، ذات ليلة كان مع شباب الرعاة خارج مكة، فمر بخاطره أن يدخل المدينة ليستمتع بما فيها، ودخل المدينة، وفي الطريق رأي حفل زواج، فوقف

---

[1] ــ مستدرك الحاكم ـــ الجزء الثاني ـــ ص٦٠٣، وقد اعترف الذهبي برواية الحاكم هذه علي شرط مسلم، وبالإضافة إلي ذلك فقد ذكرت هذه الواقعة في تاريخ البخاري وابن سعد وأبو يعلي والطبراني والبيهقي وأبو نعيم وابن منده.

[2] ــ صحيح البخاري، الجزء الأول، كتاب المناقب، باب بنيان الكعبة. وهذا هو نص الحديث: (٣٧٤٢) ـــ حدَّثنا محمودٌ حدَّثنا عبدُ الرزّاق قال: أخبرني ابنُ جُريج قال: أخبرني عمرُو بن دينارٍ سمعَ جابرَ بن عبدِ الله رضي اللهُ عنهما قال: «لما بُنِيتِ الكعبة ذهبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وعبّاسٌ يَنقلانِ الحِجارةَ، فقال عبّاسٌ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم: اجعلْ إزاركَ على رقَبتكَ يَقِكَ من الحجارة، فخرَّ إلى الأرض، وطَمَحتْ عَيناهُ إلى السماءِ، ثمَّ أفاقَ فقال: إزاري إزاري، فشدَّ عليهِ إزاره». (يوسف عامر). صحيح مسلم.

يشاهده، فسلط الله عليه النوم فلم يستيقظ إلا بعد أن لفحت أشعة الشمس كتفه ﷺ، وفي المرة الثانية عندما فكر في مثل هذا الأمر حدث معه نفس الأمر، ومنذ ذلك الحين لم يفكر ﷺ في أمر من أمور الجاهلية حتى شرفه ﷺ الله بالنبوة [1]

صوت الغيب:

وحدثت هذه الواقعة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان سيدنا عمر رضي الله عنه يجلس ذات مرة إذ مر من أمامه رجل جميل، فناداه سيدنا عمر، وسأله عن حاله، فقال: لقد كنت كاهناً في الجاهلية، فسأله: ما أعجب واقعة رأيتها في ذلك الوقت ؟! قال: كنت في السوق إذا جاءني الجن الموكل بي مضطرباً وقرأ هذا الشعر:

ألم تر الجن وأبلاسها ويأسها من بعد انعكاسها

ولحوقها بالقلاص وأحلابها

فقال سيدنا عمر رضي الله عنه لقد صدقت، ولقد حدثت مثل هذه الواقعة معي، إذ نمت ذات مرة عند الأصنام وكنت في جاهليتي، فجاء رجل بعجل وذبحه قرباناً، وفجأة جاء صوت من داخله يصرخ بشدة ما لم أسمع صراخاً مثله من قبل، وكان الصوت يقول: يا جليح، أمر جنيح، رجل فصيح يقول لا إله إلا الله.

يقول سيدنا عمر رضي الله عنه لقد هرب الناس جميعاً عند سماع هذا الصوت، ولم أتحرك أنا من مكاني، وقلت في نفسي لن أتحرك من مكاني إلا بعد أن أعرف الحقيقة، وفجأة خرج هذا الصوت للمرة الثانية ثم الثالثة، ولم تكد تمضي علي هذه الواقعة عدة أيام حتي عرفنا أن النبي صلى الله عليه وسلم ادعي النبوة [2]

---

[1] ـ مسند ابن راهوية ابن إسحاق، البراز، البيهقي، أبو نعيم، ابن عساكر. قال ابن حجر إسناده حسن متصل ورجاله ثقاة (الخصائص الكبرى للسيوطي ـــ الجزء الأول ـــ ص٨٨ ـــ حيدر آباد ومستدرك الحاكم ـــ الجزء الرابع ـــ ص ٢٤٥ علي شرط مسلم.

[2] ـ صحيح البخاري ـــ باب إسلام عمر. وهذا هو نص الحديث: (٣٧٧٩) ـــ حدَّثنا يحيى بنُ سليمانَ قال: حدَّثني ابنُ وَهب قال: حدَّثني عمرُ أنَّ سالماً حدَّثهُ عن عبدِ الله بن عمرَ قال: «ما سمعتُ عمرَ لشيء قطُّ يقول إني لأظنُّهُ كذا إلا كان كما يَظنّ. بينما عمرُ جالسٌ إذ مرَّ به رجلٌ جميلٌ فقال عمرُ: لقد أخطأ ظني، أو إنَّ هذا على دِينه في الجاهلية، أو لقد كان كاهِنَهم، عليَّ الرَّجلَ. فدُعي لهُ، فقال لهُ ذلك. فقال: ما رأيتُ كاليوم استُقبِلَ بهِ رجلٌ مسلم. قال: فإني أعزِمُ عليكَ إلاّ ما أخبرتَني. قال: كنتُ كاهِنَهم في الجاهليةِ. قال: فما أعجبُ ما جاءتكَ به جِنيَّتُك؟ قال: بَينما أنا يوماً في السوقِ، جاءَتني أعرفُ فيها الفَزَع فقالت: ألم ترَ الجنَّ وإبلاسَها، ويأسَها من بعدِ إنكاسِها، ولحوقَها بالقلاصِ وأحلاسِها. قال

صوت السلام من الأحجار:

كان رسول الله صلى الله عليه وسلم بعد النبوة يقول: «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ. إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ».[1] وهذه رواية صحيح مسلم ومسند أحمد والدارمي ([2])، وفي روايات أخرى ([3]): «إِنَّ بِمَكَّةَ حَجَراً كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ لَيَالِيَ بُعِثْتُ إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ».

رؤية الملائكة في النوم:

وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يري الملائكة في منامه قبل النبوة، وجاء في صحيح البخاري أن ثلاثة من الملائكة جاءوا إلي النبي صلى الله عليه وسلم في منامه قبل البعثة قبل بداية الوحي، وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يستريح مع الناس في الكعبة إذ سأل ملك قائلاً: من هو بين هؤلاء، فردّ عليه أوسطهم: هو أحسنهم، فقال آخرهم فخذ أحسنهم، وبعد ذلك رحل هؤلاء ([4])

عمر: صدق، بينما أنا نائمٌ عندَ آلهتِهم، إذ جاء رجلٌ بعجلٍ فذبحَهُ، فصرَخَ به صارخٌ لم أسمَعْ صارخاً قطُّ أشدَّ صوتاً منه يقول: يا جليحْ، أمرٌ نَجيح، رجُل فَصيح، يقول: لا إلهَ إلاّ أنت. فوثبَ القومُ. قلتُ: لا أبرَحُ حتى أعلمَ ما وراءَ هذا. ثم نادَى: يا جَليحْ، أمرٌ نَجيح، رجُل فصيح، يقول: لا إلهَ إلاّ الله. فقمتُ، فما نَشِبْنا أن قيلَ: هذا نبيٌّ». (يوسف عامر).

[1] ــ وهذا هو نص الحديث: (٥٨٩٢) ــــ وحدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ أَبِي بُكَيْرٍ عَنْ إِبْرَاهِيمَ بْنِ طَهْمَانَ. حَدَّثَنِي سِمَاكُ بْنُ حَرْبٍ عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «إِنِّي لأَعْرِفُ حَجَراً بِمَكَّةَ كَانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ قَبْلَ أَنْ أُبْعَثَ. إِنِّي لأَعْرِفُهُ الآنَ». (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح مسلم ــــ كتاب الفضائل، ومسند أحمد ــــ الجزء الخامس ــــ ص٩، ومسند الدرامي صفحة باب ما أكرم الله به نبيه من إيمان الشجر برواية جابر بن سمرة.

[3] ــ جامع الترمذي ــ ذكر المعجزات، وأبو نعيم ص ١٤١. وهذا هو نص الحديث: (٣٧٧٦) ــــ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ ومحمُودُ بنُ غَيْلاَنَ قالاَ: أنبأنا أَبُو دَاوُدَ الطَّيَالِسيُّ، أخبرنا سُلَيْمَانُ بنُ مُعَاذ الضَّبِّيُّ، عَن سِمَاكِ بنِ حَرْبٍ، عَن جَابِرِ بنِ سَمُرَةَ قالَ: قالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إنَّ بمَكَّةَ حَجَراً كانَ يُسَلِّمُ عَلَيَّ لَيَالِيَ بُعِثْتُ إنِّي لأعْرِفُهُ الآنَ». قال أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. (يوسف عامر).

[4] ــ صحيح البخاري ــــ كتاب التوحيد، وباب صفة النبي (ﷺ)، وهذا هو نص الحديث: (٣٤٩٤) ــــ حدثنا إسماعيلُ قال: حدَّثني أخي عن سُليمانَ عن شَريك بنِ عبدِ اللهِ بنِ أبي نَمِرٍ: سمعتُ أنسَ بنَ مالك يُحدِّثنا عن ليلة أُسريَ بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم من مسجدِ الكعبة: «جاءه ثلاثةُ نَفَرٍ قبلَ أن يُوحَى إليه ــ وهو نائمٌ في المسجدِ الحرام ــ فقال أوَّلهم: أيُّهم هو ؟ فقال أوسَطُهم: هوَ خَيرُهم. وقال آخِرُهم: خذوا خَيرَهم فكانتْ تلك. فلم يَرَهم حتىٰ جاؤوا ليلةً أُخرىٰ فيما يَرَى قلبهُ، والنبيُّ صلى الله عليه وسلم نائمةٌ

الأثر في الأشياء

المقصود بالأثر في الأشياء هو أنه يحدث في بعض الأحيان تغيير كبير في الإنسان والحيوان والنبات والجماد بتأثير قوة بركته صلى الله عليه وسلم وبأمر الله تعالي، وبناء علي هذا تصدر من هذه الأشياء أفعال وحركات وآثار فوق فطرتها، وخلافاً للعادة، وهذا النوع من المعجزات يظهر بوضوح في سيرة سيدنا موسى عليه السلام، علي سبيل المثال تحول الماء إلي دم، والعصا إلي ثعبان، وأن تلمع اليد وييبس النهر بضربة عصا، وتفجر الماء من الصخور، وقد أعطي النبي صلى الله عليه وسلم أيضاً مثل هذه الأمور، وأكثرها وثوقاً هو معجزة شق القمر، والتي مرّ بنا تفصيلها في ثنايا الحديث عن الدلائل القرآنية، ثم يأتي بعدها واقعة حنين سارية المسجد النبوي، يعني جذع النخلة وبكائه.

بكاء السارية:

لم يكن في المسجد النبوي منبر، وكان فيه سارية هي جذع نخلة، وكان صلى الله عليه وسلم يستند إليه عندما كان يخطب، فلما تم تجهيز منبر صعده صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة، وبدأ يلقي الخطبة، فإذا بصوت بكاء يصدر فجأة من ذلك الجذع، وجاء في بعض الروايات أنه كان صوتاً يشبه صوت النوق[1]، وهذه التشبيهات تختلف باختلاف أذواق الذين كانوا حضروا في المسجد، والقاسم المشترك بين كل رواة الواقعة أنهم سمعوا صوت أنين وتألم الجذع لفراق النبي صلى الله عليه وسلم له، ولما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم هذا الصوت نزل من علي المنبر. ثم مرّ بيده علي السارية (الجذع) لطمأنته، ثم ضمه إلي صدره الشريف فصمت الصوت، فقال صلي الله عليه وسلم: كانت

عَيناه ولا يَنام قلبهُ، وكذلك الأنبياء تنام أعينهم ولا تنام قلوبُهم. فتَولاّهُ جبريل، ثمَّ عَرَجَ به إلى السماء». (يوسف عامر). كتاب الأنبياء.

[1] ــ وهذا نص الحديث: (٣٥٠٩) ـــ حدثنا إسماعيل قال: حدثني أخي عن سُليمانَ بنِ بلالٍ عن يحيى بنِ سعيدٍ قال: أخبرني حفصُ بن عُبَيدِ اللهِ بن أنسِ بنِ مالكٍ أنه سمعَ جابرَ بنَ عبدِ الله رضيَ الله عنهما يقول: «كان المسجدُ مَسقوفاً على جذوعٍ من نخلٍ. فكان النبيُّ صلى الله عليه وسلم إذا خطبَ يقوم إلى جذعٍ منها، فلما صُنِعَ لهُ المنبرُ فكان عليهِ فسمعنا لذلكَ الجذع صَوتاً كصوتِ العِشارِ، حتى جاء النبيُّ صلى الله عليه وسلم فوضع يدَهُ عليها، فسكنتْ». (يوسف عامر).

تبكي على ما كانت تسمع من الذكر عندها ([1])، وقد وردت هذه الواقعة في كتب الأحاديث والسير برواية أحد عشر صحابياً ([2])

اهتزاز المنبر:

ذات مرة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يخطب علي المنبر، وكان الموضوع حول الجلال والكبرياء الإلهي، وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم متأثراً غاية التأثر، يقول سيدنا ابن عمر رأيت الرسول صلي الله عليه وسلم يتمايل يمنة ويسرة، والمنبر يتمايل من تحته بشدة بحيث خفت أن يسقط برسول الله صلي الله عليه وسلم ([3])

تحطم الصخرة:

كان الصحابة جميعاً في غزوة الخندق يحفرون خندقاً حول المدينة من الجوانب الأربعة للنجاة من الأعداء، وتصادف أن قابلتهم صخرة صلدة أثناء الحفر، وحاول الناس تحطيمها بكل الطرق، لكنها لم تتكسر، والمعاول تنهال عليها من كل جانب، وفي نهاية الأمر عرض الناس هذا الأمر علي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فقام الرسول صلي

---

[1] ــ صحيح البخاري ــ باب علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٥٠٨) ــــ حدثنا أبو نُعيم حدَّثنا عبدُ الواحد بنُ أيمنَ قال: سمعتُ أبي عن جابر بنِ عبدِ الله رضيَ اللهُ عنهما: «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يقومُ يومَ الجمعةِ إلى شجرةٍ أو نخلةٍ، فقالت امرأةٌ من الأنصار ــ أو رجلٌ ــ: يا رسولَ اللهِ ألا نجعل لك مِنبَراً ؟ قال: إن شئتم. فجعلو لهُ منبراً. فلما كان يوم الجمعة دُفع إلى المنبر، فصاحت النخلةُ صِياحَ الصبي، ثمَّ نزل النبيُّ صلى الله عليه وسلم فضمهُ إليه، يَئِنُّ أنين الصبيِّ الذي يُسكَّنُ. قال: كانت تبكي على ما كانت تسمعُ من الذِّكر عندها». (يوسف عامر). ومسند أحمد والترمذي وأبو يعلي وابن ماجة والدرامي (المعجزات) والنسائي ــ باب خطبة الجمعة.

[2] ــ ١ــ جابر بن عبد الله (البخاري والنسائي والإمام أحمد والبراز وأبو نعيم). ٢ــ سهيل بن سعد (ابن أبي شيبة وابن سعد علي شرط الصحيحين). ٣ــ عبد الله بن عمر (البخاري والإمام أحمد والترمذي). ٤ــ أنس بن مالك (الترمذي والإمام أحمد وأبو يعلي وابن ماجة والبراز وأبو نعيم). ٥ــ أبي بن كعب (الإمام أحمد والإمام الشافعي وابن ماجة والدرامي وأبو يعلي وابن سعد). ٦ــ عبد الله بن عباس (الإمام أحمد وابن ماجة علي شرط مسلم وابن سعد والبيهقي والدرامي). ٧ــ أبو سعيد الخدري (ابن شيبة وأبو يعلي والدرامي وعبد الله بن حميد وأبو نعيم علي شرط مسلم) ٨ــ بريدة (الدرامي) ٩ــ مطلب بن رواية (زبير بن بكارف أخبار المدينة). ١٠ــ أم سلمة (الطبراني والبيهقي). ١١ــ عائشة رضي الله عنها (البيهقي وأبو نعيم).

[3] ــ صحيح مسلم ــ باب ابتداء الخلق وفي صحة شرط الصحيحين، ومسند أحمد عبد ابن عمر وغيره.

الله عليه وسلم بنفسه، وأمسك بمعول وضرب الصخرة ضربة تحطمت علي أثرها تماماً([1])

صوت السلام من الأشجار والجبال:

يقول سيدنا علي رضي الله عنه خرجت مع النبي صلى الله عليه وسلم ذات مرة في مكة فرأيت الأشجار والجبال التي نمرّ عليها تصدر صوتاً يقول السلام يا رسول الله، وكنت أنا أسمعه ([2])

اهتزاز الجبل:

جاء في صحيح البخاري أنه ذات يوم كان النبي صلي الله عليه وسلم ومعه سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسيدنا عمر وسيدنا عثمان رضي الله عنهما ([3])، وفي صحيح مسلم أن سيدنا علي وسيدنا طلحة وسيدنا الزبير رضي الله عنهم ([4]) كانوا معهم أيضاً، وصعدوا جميعاً علي جبل، فاهتز الجبل فضربه رسول الله صلي الله عليه وسلم

---

[1] ــ صحيح البخاري (غزوة الخندق). وهذا نص الحديث كاملا كما ورد في صحيح البخاري: (٤٠١٢) ــــ حدَّثنا خَلاَّدُ بن يحيى حدَّثنا عبدُ الواحدِ بنُ أيمنَ عن أبيهِ قال: أتيتُ جابراً رضيَ اللَّه عنه فقال: «إنّا يومَ الخَندقِ نحفِرُ فعرضَتْ كُدْيَةٌ شديدة، فجاؤوا النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقالوا: هذه كديةٌ عرضَت في الخندق فقال: أنا نازل. ثم قام وبطنهُ مَعصوب بحجرَ، ولبثنا ثلاثةَ أيامٍ لا نذوقُ ذَواقاً، فأخذَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم المِعْوَل فضرب في الكدية، فعاد كثيباً أهْيَل أو أهْيَم. فقلت: يا رسولَ اللَّه ائذن لي إلى البيت. فقلتُ لامرأتي: رأيتُ بالنبي صلى الله عليه وسلم شيئاً ما كان في ذلك صبر، فعندكِ شيء؟ فقالت: عندي شعير وعَناق. فذبحتُ العَناقَ، وطحنَتِ الشعيرَ حتى جَعلنا اللحمَ في البُرمةِ. ثمَّ جئتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم والعجينُ قد انكسرَ، والبرمة بينَ الأثافيِّ قد كادَت أن تَنضَجَ، فقلتُ: طُعَيِّم لي، فقم أنتَ يا رسولَ اللَّه ورجلٌ أو رجلان. قال: كم هو؟ فذكرت له، فقال: كثيرٌ طيِّب. قال: قل لها لا تَنزعِ البرمةَ ولا الخُبزَ من التَّنور حتى آتي. فقال: قوموا. فقام المهاجرونَ والأنصارُ. فلما دخلَ على امرأتهِ قال: «ويحك، جاءَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بالمهاجرينَ والأنصارِ ومَن معهم. قالت: هل سألك؟ قلتُ: نعم. فقال: ادخلوا ولا تَضاغَطوا. فجعلَ يكسرُ الخبزَ ويجعلُ عليه اللحمَ، ويُخمِّرُ البرمةَ والتَّنورَ إذا أخذ منه، ويُقرِّبُ إلى أصحابهِ ثم يَنزع، فلم يَزلْ يكسرُ الخبز ويغرف حتى شَبعوا، وبقيَ بقيةٌ، قال: كلي هذا وأهدِي، فإنَّ الناسَ أصابتْهم مَجاعة». (يوسف عامر). والنسائي (كتاب الجهاد) والبيهقي وأبو نعيم وابن سعد وابن إسحاق وابن جرير.

[2] ــ جامع الترمذي ــــ ذكر المعجزات ــــ رواية حسن.

[3] ــ صحيح البخاري ــ مناقب أبي بكر.

[4] ــ صحيح مسلم ــــ فضائل طلحة والزبير.

بقدمه الشريفة قائلاً: اثبت أحد، فإنما عليك نبي وصديق وشهيدان ([1]). وقد شك الراوي في صحيح البخاري إن كان الجبل هو أحد أو حراء، لكن صحيح مسلم ومسند أحمد ذكرا جبل حراء فقط، بينما ذكر أبو يعلي والبيهقي جبل أحد فقط، علي أية حال لو كان الجبل هو أحد فإن هذا يعني أن الواقعة حدثت في المدينة، وإن كان حراء فقد وقعت في مكة.

سقوط الأصنام بإشارة منه صلي الله عليه وسلم:

كان في الكعبة الشريفة قبل الفتح معبد به ثلاثمائة وستون صنماً، وحين فتحت مكة دخل الرسول صلي الله عليه وسلم الكعبة الشريفة وكانت في يده عصا صغيرة ويردد الآية الكريمة: " جاء الحق وزهق الباطل إن الباطل كان زهوقاً " (الإسراء: ٨١)

وكان الصنم الذي يشير إليه رسول الله صلي الله عليه وسلم بعصاه يسقط من فوره، وهذه الواقعة تتعلق بالثلاثمائة وستين صنماً حول الكعبة، وكان الرسول صلي الله عليه وسلم يشير إلي الأصنام بعصاه تباعاً وهو يتلو الآية المذكورة، والواقعة مذكورة في صحيح البخاري ومسلم، باب فتح مكة، ولكن جملة أن الأصنام كانت تسقط دون أن يلمسها وبالإشارة فقط غير مذكورة في الصحيحين، إلا أنها وردت في (الفاكهي) برواية عمر، وفي الطبراني وابن إسحاق وأبي نعيم برواية ابن عباس، وقد صحّحها ابن حبان في رواية الفاكهي، أما الرواية الموجودة في صحيح البخاري، وكتاب المغازي، باب غزوة الفتح يُفهم منها عكس ذلك، وهو أن الرسول صلي الله عليه وسلم أمر الناس اقتلاع الأصنام والرمي بها بعيداً، وهذا لفظ الحديث: ــ

" عن ابن عباس، لما قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم أبي أن يدخل البيت وفيه الآلهة فأمر بها فأخرجت "

فإن كانت رواية الفاكهي والطبراني وابن إسحاق وأبي نعيم المذكورة سابقاً صحيحة فيمكن التوفيق بينها وبين رواية البخاري هذه بأن الأصنام التي ذكرت أولاً كانت حول الكعبة وكان الرسول صلي الله عليه وسلم يشير إليها بعصاه ويتلو الآية المذكورة

---

[1] ــ الصحيحان، وقد وردت هذه الواقعة أيضاً في مسند ابن حنبل برواية بريدة وفي الترمذي والنسائي والدارقطني برواية سيدنا عثمان وأبو يعلي والبيهقي برواية سهل بن سعد المذكور. وهذا نص رواية البخاري: (٣٥٩٣) ــ حدثني محمد بن بشار حدثنا يحيى عن سعيد عن قتادة أن أنس بن مالك رضي الله عنه حدثهم: أن النبي صلى الله عليه وسلم صعد أحداً وأبو بكر وعمر وعثمان، فرجف بهم، فقال: اثبت أُحُدُ، فإن عليك نبيٌ وصديقٌ وشهيدان [illegible]

وهي تتساقط تباعاً، أما الأصنام التي كانت داخل الكعبة فقد أمر الرسول صلي الله عليه وسلم بإخراجها قبل أن يدخلها، وهكذا فإن الرواية التي وردت في صحيح البخاري ومسلم والتي تذكر سقوط الأصنام بالعصا فهي الأصنام التي كانت حول البيت، أما الرواية التي تذكر الأمر بإخراج الأصنام فالمقصود الأصنام التي كانت داخل الكعبة.

صوت التسبيح من الطعام:

يقول سيدنا جابر رضي الله عنه أنكم أيها الناس تعتبرون المعجزات شيئاً مخيفاً، ونحن نعتبرها شيئاً مباركاً، إننا كنا نسمع صوت تسبيح الأطعمة عندما كنا نتناولها. ([1])

رفض الأرض قبول أحد المرتدين:

أسلم أحد المسيحيين وقرأ سورة البقرة وسورة آل عمران، وقد جعله رسول الله صلي الله عليه وسلم من كتاب الوحي، وبعد عدة أيام ارتد هذا المسيحي، وعاد مسيحياً ثانية، وأشاع بين الناس أن محمداً لا يعرف غير ما كتبت له، وأظهر الله في هذا الرجل قدرته، أي أماته، ودفنه أصدقاؤه، وفي الصباح كانت جثته خارج القبر، فلما علم أصدقاؤه بذلك قالوا ما فعل هذا غير محمد وأصحابه، ولأنه ترك دينهم نبشوا قبره وألقوا به خارجه، وثبتت هذه الفكرة في أذهانهم قائلين: إن هذا فعل المسلمين، ثم أعادوا حفر القبر إلي أكبر عمق استطاعوه، ودفنوا الرجل فيه ثانية، وفي الصباح تكرر ما حدث من قبل، فتيقنوا حينئذٍ أن هذا ليس من فعل البشر، ولهذا تركوا جثة الرجل كما هي خارج القبر. ([2])

---

[1] ــ صحيح البخاري ـــ باب علامات النبوة. وهذا هو نص الحديث: (٣٥٠٣) ـــ حدّثني محمدُ بن المثنى حدَّثنا أبو أحمدَ الزُّبيريُّ حدَّثنا إسرائيل عن منصور عن إبراهيم عن علقمةَ عن عبدِ الله قال: «كنّا نعدُّ الآيات بركةً، وأنتم تعُدُّونها تخويفاً، كنّا معَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقلَّ الماء، فقال: اطلُبوا فضلةً من ماءٍ، فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل، فأدخلَ يدَهُ في الإناءِ ثم قال: حيَّ على الطَّهورِ المبارك، والبركة منَ الله، فلقد رأيتُ الماءَ يَنْبعُ من بينِ أصابع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، ولقد كنّا نسمعُ تَسبيحَ الطعامِ وهوَ يُؤكل». (يوسف عامر).

[2] ــ البخاري ـــ باب علامات النبوة في الإسلام. وهذا نص الحديث: (٣٥٣٩) ـــ حدثنا أبو معمرٍ حدَّثنا عبدُ الوارثِ حدثنا عبدُ العزيز عن أنسٍ رضيَ الله عنه قال: «كان رجلٌ نَصرانياً فأسلم وقرأ البقرة وآلَ عمران، فكان يَكتبُ للنبيِّ صلى الله عليه وسلم، فعاد نصرانياً، فكانَ يقول: ما يدري محمدٌ إلا ما كتبتُ له، فأماتهُ الله فدفنوه، فأصبحَ وقد لفَظَتْهُ الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمدٍ وأصحابِه لما هربَ منهم نَبشوا عن صاحبنا فألقوهُ. فحفَروا لهُ فأعمقوا، فأصبحَ وقد لفظته الأرض، فقالوا: هذا فعلُ محمدٍ

مشي الأشجار:

ذات مرة خرج رسول الله صلي الله عليه وسلم لقضاء الحاجة في أحد أسفاره، وكان سيدنا جابر رضي الله عنه يرافقه صلي الله عليه وسلم حاملاً الماء، نظر رسول الله صلي الله عليه وسلم في الميدان فلم يجد فيه شيئاً يتواري خلفه، ولم يكن هناك سوي شجرتان علي أحد جوانب الميدان، فتوجه رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي شجرة منهما، وأمسك بغصن منها وقال انقادي علي بإذن الله، فرافقته الشجرة كجمل مطيع، ثم توجه إلي الشجرة الثانية، ورافقته هي الأخرى مثلما فعلت الأولي، ثم جمعهما صلي الله عليه وسلم في مكان واحد وقال: التئما علي بأذن الله، فالتصقا، وحين فرغ صلي الله عليه وسلم من قضاء الحاجة خلفهما عادت كل شجرة منهما إلي مكانها. ([1])

وأصحابِه نبشوا عن صاحبنا لما هربَ منهم فألقوه خارج القبر، فحفروا له وأعمقوا له في الأرض ما استطاعوا، فأصبحَ قد لَفظَتْهُ الأرض، فعلموا أنه ليسَ من الناس فألقوه». (يوسف عامر).

[1] ـ مسلم، حديث جابر الطويل (أحمد والدرامي والبيهقي) باختلاف يسير. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٧٤٦١) ـــ حدثنا هَـارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ وَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ (وَتَقَارَبَا فِي لَفْظِ الْحَدِيثِ) وَ السِّيَاقُ لِهَـارُونَ. قَالاَ: حَدَّثَنَا حَاتِمُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ عَنْ يَعْقُوبَ بْنِ مُجَاهِدٍ، أَبِي حَزْرَةَ، عَنْ عُبَادَةَ بْنِ الْوَلِيدِ بْنِ عُبَادَةَ بْنِ الصَّامِتِ، قَالَ: خَرَجْتُ أَنَا وَأَبِي نَطْلُبُ الْعِلْمَ فِي هَـذَا الْحَيِّ مِنَ الأَنْصَارِ، قَبْلَ أَنْ يَهْلِكُـوا. فَكَانَ أَوَّلُ مَنْ لَقِينَا أَبَا الْيَسَرِ، صَاحِبَ رَسُولِ اللّهِ. وَمَعَهُ غُلاَمٌ لَهُ. مَعَهُ ضِمَامَةٌ مِنْ صُحُفٍ. وَعَلَىٰ أَبِي الْيَسَرِ بُرْدَةٌ وَمَعَافِرِيٌّ. وَعَلَىٰ غُلاَمِهِ بردة ومعافريُّ. فَقَالَ لَهُ أَبِي: يَا عَمِّ إِنِّي أَرَىٰ فِي وَجْهِكَ سُفْعَةً مِنْ غَضَبٍ. قَالَ: أَجَلْ. كَانَ لِي عَلَىٰ فُلاَنِ بْنِ فُلاَنٍ الْحَرَامِيِّ مَالٌ. فَأَتَيْتُ أَهْلَهُ فَسَلَّمْتُ. فَقُلْتُ: ثَمَّ هُوَ؟ قَالُوا: لاَ. فَخَرَجَ عَلَيَّ ابْنٌ لَهُ جَفْرٌ. فَقُلْتُ لَهُ: أَيْنَ أَبُوكَ؟ قَالَ: سَمِعَ صَوْتَكَ فَدَخَلَ أَرِيكَةَ أُمِّي. فَقُلْتُ: اخْرُجْ إِلَيَّ. فَقَدْ عَلِمْتُ أَيْنَ أَنْتَ. فَخَرَجَ. فَقُلْتُ: مَا حَمَلَكَ عَلَىٰ أَنِ اخْتَبَأْتَ مِنِّي؟ قَالَ: أَنَا، وَاللّهِ، أُحَدِّثُكَ. ثُمَّ لاَ أَكْذِبُكَ. خَشِيتُ، وَاللّهِ أَنْ أُحَدِّثَكَ فَأَكْذِبَكَ. وَأَنْ أَعِدَكَ فَأُخْلِفَكَ. وَكُنْتَ صَاحِبَ رَسُولِ اللّهِ. وَكُنْتُ، وَاللّهِ مُعْسِـراً. قَالَ: قُلْتُ: آللّهِ قَالَ: اللّهِ قُلْتُ: آللّهِ قَالَ: اللّهِ. قُلْتُ: آللّهِ قَالَ: اللّهِ قَالَ: فَأَتَىٰ بِصَحِيفَتِهِ فَمَحَاهَا بِيَدِهِ. فَقَالَ: إِنْ وَجَدْتَ قَضَاءً فَاقْضِنِي. وَإِلاَّ، أَنْتَ فِي حِلٍّ. فَأَشْهَدُ بَصَرُ عَيْنَيَّ هَاتَيْنِ وَوَضَعَ إِصْبَعَيْهِ عَلَـىٰ عَيْنَيْـهِ وَسَمْعُ أُذُنَيَّ هَاتَيْنِ، وَوَعَاهُ قَلْبِي هٰذَا وَأَشَارَ إِلَىٰ مَنَاطِ قَلْبِهِ رَسُولَ اللّهِ وَهُوَ يَقُولُ: «مَنْ أَنْظَرَ مُعْسِـراً، أَوْ وَضَعَ عَنْهُ، أَظَلَّهُ اللّهُ فِي ظِلِّهِ». فَقُلْتُ لَهُ أَنَا: يَا عَمِّ لَوْ أَنَّكَ أَخَذْتَ بُرْدَةَ غُلاَمِـكَ وَأَعْطَيْتَـهُ مَعَافِرِيَّـكَ، وَأَخَذْتَ مَعَافِرِيَّهُ وَأَعْطَيْتَهُ بُرْدَتَكَ،فَكَانَتْ عَلَيْكَ حُلَّةٌ وَعَلَيْهِ حُلَّةٌ. فَمَسَحَ رَأْسِي وَقَالَ: اللَّهُمَّ بَارِكْ فِيهِ. يَا ابْنَ أَخِي بَصَرُ عَيْنَيَّ هَاتَيْنِ، وَسَمْعُ أُذُنَيَّ هَاتَيْنِ، وَوَعَاهُ قَلْبِي هَـذَا وَأَشَارَ إِلَىٰ مَنَاطِ قَلْبِهِ رَسُولَ اللّـهِ وَهُـوَ يَقُولُ: «أَطْعِمُوهُمْ مِمَّا تَأْكُلُونَ. وَأَلْبِسُوهُمْ مِمَّا تَلْبَسُونَ». وَكَانَ أَنْ أَعْطَيْتُهُ مِنْ مَتَاعِ الدُّنْيَا أَهْوَنَ عَلَيَّ مِنْ أَنْ يَأْخُذَ مِنْ حَسَنَاتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. ثُمَّ مَضَيْنَا حَتَّىٰ أَتَيْنَا جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللّهِ فِي مَسْجِدِهِ، وَهُوَ يُصَلِّي فِي ثَوْبٍ

وَاحِدٍ، مُشْتَمِلاً بِهِ. فَتَخَطَّيْتُ الْقَوْمَ حَتَّىٰ جَلَسْتُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْقِبْلَةِ. فَقُلْتُ: يَرْحَمُكَ اللّهُ أَتُصَلِّي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ وَرِدَاؤُكَ إِلَىٰ جَنْبِكَ؟ قَالَ: فَقَالَ بِيَدِهِ فِي صَدْرِي هَـكَذَا. وَفَرَّقَ بَيْنَ أَصَابِعِهِ وَقَوَّسَهَا: أَرَدْتُ أَنْ يَدْخُلَ عَلَيَّ الأَحْمَقُ مِثْلُكَ، فَيَرَانِي كَيْفَ أَصْنَعُ، فَيَصْنَعُ مِثْلَهُ. أَتَانَا رَسُولُ اللّهِ فِي مَسْجِدِنَا هٰذَا. وَفِي يَدِهِ عُرْجُونُ ابْنِ طَابٍ. فَرَأَىٰ فِي قِبْلَةِ الْمَسْجِدِ نُخَامَةً فَحَكَّهَا بِالْعُرْجُونِ. ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا فَقَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْـرِضَ اللّـهُ عَنْهُ؟» قَالَ: فَخَشَعْنَا. ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُمْ يُحِبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللّهُ عَنْهُ؟»قَالَ: فَخَشَعْنَا. ثُمَّ قَالَ: «أَيُّكُـمْ يُحِـبُّ أَنْ يُعْرِضَ اللّهُ عَنْهُ؟» قُلْنَا: لاَ أَيُّنَا، يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «فَإِنَّ أَحَدَكُمْ إِذَا قَامَ يُصَلِّي، فَإِنَّ اللّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَىٰ قِبَلَ وَجْهِهِ. فَلاَ يَبْصُقَنَّ قِبَلَ وَجْهِهِ. وَلاَ عَنْ يَمِينِهِ. وَلْيَبْصُقْ عَنْ يَسَارِهِ، تَحْتَ رِجْلِهِ الْيُسْرَىٰ. فَإِنْ عَجِلَتْ بِـهِ بَادِرَةٌ فَلْيَقُلْ بِثَوْبِهِ هٰكَذَا» ثُمَّ طَوَىٰ ثَوْبَهُ بَعْضَهُ عَلَىٰ بَعْضٍ فَقَالَ: «أَرُونِي عَبِيراً» فَقَامَ فَتًى مِنَ الْحَيِّ يَشْتَدُّ إِلَىٰ أَهْلِهِ. فَجَاءَ بِخَلُوقٍ فِي رَاحَتِهِ. فَأَخَذَهُ رَسُولُ اللّهِ فَجَعَلَهُ عَلَىٰ رَأْسِ الْعُرْجُونِ. ثُمَّ لَطَخَ بِهِ عَلَـىٰ أَثَـرِ النُّخَامَةِ. فَقَالَ جَابِرٌ: فَمِنْ هُنَاكَ جَعَلْتُمُ الْخَلُوقَ فِي مَسَاجِدِكُمْ. سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ فِي غَزْوَةِ بَطْنِ بُـوَاطٍ. وَهُوَ يَطْلُبُ الْمَجْدِيَّ بْنَ عَمْرٍو الْجُهَنِيَّ. وَكَانَ النَّاضِحُ يَعْتَقِبُهُ مِنَّا الْخَمْسَةُ وَالسِّتَّةُ وَالسَّبْعَةُ. فَدَارَتْ عُقْبَـةُ رَجُلٍ مِنَ الأَنْصَارِ عَلَىٰ نَاضِـحٍ لَهُ. فَأَنَاخَهُ فَرَكِبَهُ. ثُمَّ بَعَثَهُ فَتَلَدَّنَ عَلَيْهِ بَعْضَ التَّلَدُّنِ. فَقَالَ لَهُ: شَأْ لَعَنَـكَ اللّهُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «مَنْ هٰذَا اللاَّعِنُ بَعِيرَهُ؟» قَالَ: أَنَا. يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «انْزِلْ عَنْهُ. فَلاَ تَصْـحَبْنَا بِمَلْعُونٍ. لاَ تَدْعُوا عَلَىٰ أَنْفُسِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَىٰ أَوْلاَدِكُمْ، وَلاَ تَدْعُوا عَلَىٰ أَمْوَالِكُمْ، لاَ تُوَافِقُوا مِـنَ اللّـهِ سَاعَةً يُسْأَلُ فِيهَا عَطَاءٌ، فَيَسْتَجِيبُ لَكُمْ». سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ. حَتَّىٰ إِذَا كَانَتْ عُشَيْشِيَةٌ وَدَنَوْنَا مَاءً مِنْ مِيَاهِ الْعَرَبِ، قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «مَنْ رَجُلٌ يَتَقَدَّمُنَا فَيَمْدُرُ الْحَوْضَ فَيَشْرَبُ وَيَسْقِينَا؟» قَالَ جَابِرٌ: فَقُمْتُ فَقُلْتُ: هٰذَا رَجُلٌ، يَا رَسُولَ اللّهِ فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «أَيُّ رَجُلٍ مَعَ جَابِرٍ؟» فَقَامَ جَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ. فَانْطَلَقْنَا إِلَىٰ الْبِئْـرِ. فَنَزَعْنَا فِي الْحَوْضِ سَجْلاً أَوْ سَجْلَيْنِ. ثُمَّ مَدَرْنَاهُ. ثُمَّ نَزَعْنَا فِيهِ حَتَّىٰ أَفْهَقْنَاهُ. فَكَانَ أَوَّلَ طَالِعٍ عَلَيْنَا رَسُولُ اللّهِ. فَقَالَ: «أَتَأْذَنَانِ؟» قُلْنَا: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللّهِ فَأَشْرَعَ نَاقَتَهُ فَشَرِبَتْ. شَنَقَ لَهَا فَشَجَتْ فَبَالَتْ. ثُمَّ عَدَلَ بِهَا فَأَنَاخَهَا. ثُمَّ جَاءَ رَسُولُ اللّهِ إِلَىٰ الْحَوْضِ فَتَوَضَّأَ مِنْهُ. ثُمَّ قُمْتُ فَتَوَضَّأْتُ مِنْ مُتَوَضَّأِ رَسُولِ اللّهِ. فَـذَهَبَ جَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ يَقْضِي حَاجَتَهُ. فَقَامَ رَسُولُ اللّهِ لِيُصَلِّيَ. وَكَانَتْ عَلَيَّ بُرْدَةٌ ذَهَبْتُ أَنْ أُخَالِفَ بَيْنَ طَرَفَيْهَـا فَلَمْ تَبْلُغْ لِي. وَكَانَتْ لَهَا ذَبَاذِبُ فَنَكَّسْتُهَا ثُمَّ خَالَفْتُ بَيْنَ طَرَفَيْهَا. ثُمَّ تَوَاقَصْتُ عَلَيْهَا ثُمَّ جِئْتُ حَتَّىٰ قُمْتُ عَنْ يَسَارِ رَسُولِ اللّهِ. فَأَخَذَ بِيَدِي فَأَدَارَنِي حَتَّىٰ أَقَامَنِي عَنْ يَمِينِهِ. ثُمَّ جَاءَ جَبَّارُ بْنُ صَخْرٍ فَتَوَضَّأَ. ثُمَّ جَاءَ فَقَامَ عَنْ يَسَارِ رَسُولِ اللّهِ. فَأَخَذَ رَسُولُ اللّهِ بِيَدَيْنَا جَمِيعاً. فَدَفَعَنَا حَتَّىٰ أَقَامَنَا خَلْفَهُ. فَجَعَلَ رَسُولُ اللّهِ يَرْمُقُنِـي وَأَنَا لاَ أَشْعُرُ. ثُمَّ فَطِنْتُ بِهِ. فَقَالَ: هٰكَذَا بِيَدِهِ. يَعْنِي شُدَّ وَسَطَكَ. فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللّهِ قَالَ: «يَـا جَـابِرُ» قُلْتُ: لَبَّيْكَ. يَا رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «إِذَا كَانَ وَاسِعاً فَخَالِفْ بَيْنَ طَرَفَيْهِ. وَإِذَا كَانَ ضَيِّقاً فَاشْدُدْهُ عَلَىٰ حَقْوِكَ». سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ. وَكَانَ قُوتُ كُلِّ رَجُلٍ مِنَّا، فِي كُلِّ يَوْمٍ، تَمْرَةً. فَكَانَ يَمَصُّهَا ثُمَّ يَصُرُّهَا فِـي ثَوْبِـهِ. وَكُنَّا نَخْتَبِطُ بِقِسِيِّنَا وَنَأْكُلُ. حَتَّىٰ قَرِحَتْ أَشْدَاقُنَا. فَأُقْسِمُ أُخْطِئَهَا رَجُلٌ مِنَّا يَوْماً. فَانْطَلَقْنَا بِهِ نَنْعَشُهُ. فَشَـهِدْنَا أَنَّهُ لَمْ يُعْطَهَا. فَأُعْطِيَهَا فَقَامَ فَأَخَذَهَا. سِرْنَا مَعَ رَسُولِ اللّهِ حَتَّىٰ نَزَلْنَا وَادِياً أَفْيَحَ. فَذَهَبَ رَسُولُ اللّهِ يَقْضِي حَاجَتَهُ. فَاتَّبَعْتُهُ بِإِدَاوَةٍ مِنْ مَاءٍ. فَنَظَرَ رَسُولُ اللّهِ فَلَمْ يَرَ شَيْئاً يَسْتَتِرُ بِهِ. فَإِذَا شَجَرَتَانِ بِشَاطِىءِ الْـوَادِي. فَانْطَلَقَ رَسُولُ اللّهِ إِلَىٰ إِحْدَاهُمَا فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا. فَقَالَ: «انْقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللّهِ» فَانْقَادَتْ مَعَـهُ

وقد وقعت حادثة أخرى مثل هذه في أسفار أخرى، وقصها الصحابة رضوان الله عليهم كما شاهدوها بأعينهم، فقص سيدنا أسامة بن زيد ما رآه في حجة الوداع، ([1]) كما قص سيدنا يعلي بن مرّة ما رآه في أحد أسفاره ([2])

وواقعة أخرى فحواها أن الرسول صلي الله عليه وسلم كان جالساً ذات يوم وقد أصابه الحزن لإيذاء أهل مكة له، فجاءه سيدنا جبريل وهو علي هذه الحالة وسأله، وطلب ﷺ أن يريه الله آية تبعد هذا الحزن عنه، فجاء الحكم أن هناك شجرة علي جانب الميدان، فناداها الرسول صلي الله عليه وسلم فجاءت ووقفت أمامه، ثم أمرها أن تعود فعادت إلي مكانها، فأعلن النبي صلي الله عليه وسلم بأنه لا حزن عنده الآن ([3])

مشي سباطة البلح:

جاء بدوي إلي النبي صلي الله عليه وسلم وقال: كيف أتيقن أنك نبي، فسأله النبي صلي الله عليه وسلم أنه إذا نادي علي تلك السباطة، فهل يشهد بنبوته ؟ قال: نعم، فناداها

كَالْبَعِيرِ الْمَخْشُوشِ، الَّذِي يُصَانِعُ قَائِدَهُ. حَتَّىٰ أَتَىٰ الشَّجَرَةَ الأُخْرَىٰ. فَأَخَذَ بِغُصْنٍ مِنْ أَغْصَانِهَا. فَقَالَ: «انقَادِي عَلَيَّ بِإِذْنِ اللّهِ» فَانقَادَتْ مَعَهُ كَذَلِكَ. حَتَّىٰ إِذَا كَانَ بِالْمَنْصَفِ مِمَّا بَيْنَهُمَا، لأَمَ بَيْنَهُمَا يَعْنِي جَمَعَهُمَا فَقَالَ: «الْتَئِمَا عَلَيَّ بِإِذْنِ اللّهِ» فَالْتَأَمَتَا. قَالَ جَابِرٌ: فَخَرَجْتُ أُحْضِرُ مَخَافَةَ أَنْ يُحِسَّ رَسُولُ اللّهِ بِقُرْبِي فَيَبْتَعِدَ وَقَالَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبَّادٍ: فَيَتَبَعَّدَ فَجَلَسْتُ أُحَدِّثُ نَفْسِي. فَحَانَتْ مِنِّي لَفْتَةٌ، فَإِذَا أَنَا بِرَسُولِ اللّهِ مُقْبِلاً، وَإِذَا الشَّجَرَتَانِ قَدِ افْتَرَقَتَا. فَقَامَتْ كُلُّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا عَلَىٰ سَاقٍ. فَرَأَيْتُ رَسُولَ اللّهِ وَقَفَ وَقْفَةً. فَقَالَ بِرَأْسِهِ هٰكَذَا (وَأَشَارَ أَبُو إِسْمَاعِيلَ بِرَأْسِهِ يَمِيناً وَشِمَالاً) ثُمَّ أَقْبَلَ. فَلَمَّا انْتَهَىٰ إِلَيَّ قَالَ: «يَا جَابِرُ! هَلْ رَأَيْتَ مَقَامِي؟» قُلْتُ: نَعَمْ. يَا رَسُولَ اللّهِ! قَالَ: «فَانْطَلِقْ إِلَىٰ الشَّجَرَتَيْنِ فَاقْطَعْ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا غُصْناً. فَأَقْبِلْ بِهِمَا. حَتَّىٰ إِذَا قُمْتَ مَقَامِي فَأَرْسِلْ غُصْناً عَنْ يَمِينِكَ وَغُصْناً عَنْ يَسَارِكَ». قَالَ جَابِرٌ: فَقُمْتُ فَأَخَذْتُ حَجَراً فَكَسَرْتُهُ وَحَسَرْتُهُ. فَانْذَلَقَ لِي. فَأَتَيْتُ الشَّجَرَتَيْنِ فَقَطَعْتُ مِنْ كُلِّ وَاحِدَةٍ مِنْهُمَا غُصْناً. ثُمَّ أَقْبَلْتُ أَجُرُّهُمَا حَتَّىٰ قُمْتُ مَقَامَ رَسُولِ اللّهِ. أَرْسَلْتُ غُصْناً عَنْ يَمِينِي وَغُصْناً عَنْ يَسَارِي. ثُمَّ لَحِقْتُهُ فَقُلْتُ: قَدْ فَعَلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ! فَعَمَّ ذَاكَ؟ قَالَ: «إِنِّي مَرَرْتُ بِقَبْرَيْنِ يُعَذَّبَانِ. فَأَحْبَبْتُ، بِشَفَاعَتِي، أَنْ يُرَفَّهَ عَنْهُمَا، مَا دَامَ الْغُصْنَانِ رَطْبَيْنِ». (يوسف عامر).

[1] ــ بسند أبي يعلي والبيهقي وأبي نعيم، وقد حسن الحافظ ابن حجر هذه الرواية في المطالب العالية.

[2] ــ الإمام أحمد برواية يعلي بن مرة ولبن شيبة برجال ثقاة وحكم برواية صحيح.

[3] ــ مسند ابن ماجة ــ باب الصبر علي البلاء، ومسند احمد عن أنس بن مالك وابن سعد والبزاز والبيهقي عن عمر بن الخطاب.

صلي الله عليه وسلم فنزلت من النخلة وجاءت إليه صلي الله عليه وسلم، ثم عادت إلي مكانها ثانية بأمره صلي الله عليه وسلم، ولما رأي البدوي هذه المعجزة أسلم من فوره ([1])

مشي الشجرة وصدور صوت منها:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم في سفر، فأتاه بدوي، فلما اقترب منه صلي الله عليه وسلم سأله النبي صلي الله عليه وسلم: إلي أين ؟ فأجاب: إلي البيت، فقال صلي الله عليه وسلم أنت في حاجـــة إلي عمل طيب، فقال البدوي أي عمل طيب ؟، فعلّمه النبي صلي الله عليه وسلم الشهادتين، فقال البدوي: من يشهد بهذا ؟ فأخبره النبي صلي الله عليه وسلم بأن الشجرة التي أمامهما هي التي تشهد بذلك، وهكذا نادي الرسول صلي الله عليه وسلم علي الشجرة من طرف الوادي، فجاءت مهرولة، ووقفت أمامه صلي الله عليه وسلم، فاستقرأها الرسول صلي الله عليه وسلم الشهادتين ثلاث مرات، ثم عادت إلي مكانها، فأسلم الرجل وقال وهو متوجه إلي بيته: لو قبل أهلي وأولادي الإسلام أتيت بهم هنا، وإلا فسأقيم وحدي معك ([2])

الشاة التي لا لبن فيها تدرّ لبناً

روي عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال كنت صبياً صغيراً، وكنت أرعى غنم لعقبة بن معيط أحد وجهاء مكة وكان كافراً، ومرّ رسول الله صلي الله عليه وسلم وسيدنا أبو بكر الصديق من هناك ([3])، فسألني رسول الله صلي الله عليه وسلم قائلاً

---

[1] ــ الترمذي في (المعجزات النبوية) صححه، ونقل الإمام البخاري هذه الواقعة في التاريخ ورواها أبو يعلي عن ابن عباس.

[2] ــ مسند الدرامي ـــــ ص٧ بسند صحيح والبراز وأبو نعيم باختلاف يسير ـــــ وابن سعد ـــــ الجزء الأول ـــــ ص١٢١.

[3] ــ هذه الرواية عند أبي داود الطيالسي، وفي مسند ابن حنبل وابن سعد ودلائل أبي نعيم، وفي روايـــة الطيالسي وأبي نعيم أن الرسول صلى الله عليه وسلم وأبا بكر الصديق عندما هربا من المشركين حدثت هذه الواقعة، يعني عند الهجرة، وسلسلة السند لرواية الطيالسي هذه محفوظة من كل جانب، ورواها أبو داود عن حماد بن سلمة، عن عاصم بن مهدلة عن زر بن حبيش عن عبد الله بن مسعود، وهؤلاء السادة جميعاً ثقاة معتبرون، ومع ذلك هناك عدة عيوب في تأكيد أن هذه الواقعة حدثت وقت الهجـــرة، ويثبـــت منها أن أحد الرواة قد نسي، إذ يبدو من هذه الرواية أن سيدنا عبد الله بن مسعود كان صبياً صغيراً وقت الهجرة. ولم يكن يعرف القرآن الكريم، بل ولم يكن قد أسلم بعد، في حين أنه أسلم قبل الهجرة بكثيـــر، وكان سادس مسلم، وكان في الحبشة وقت الهجرة، وعاد من هناك عندما كان رسول الله صلى الله عليه

عمّ إذا كان عندي لبن أم لا؟ وهل أسقيهما ؟ قلت إني مستأمن ولا أستطيع أن أسقيك، فسألني رسول الله صلي الله عليه وسلم هل لديك شاة صغيرة ؟ قلت نعم، قال ائتني به([1])،

وسلم قد وصل إلي المدينة، وهذا ما تؤكده رواية السلام في الصلاة، والتي تثبت من كل كتب الأحاديث، وبالتالي لم يكن موجوداً من الأصل في مكة. وقد ذكرت شكوكي عن ألفاظ هذه الرواية سابقاً، فقد قلبت كل كتب السيرة فيما يتعلق بسيدنا عبد الله بن مسعود، وقد نقل الجميع هذه الرواية فيما يتعلق به، لكن أحداً لم يلتفت إلي هذه الشبهات، وفي تلك الأثناء اطلعت علي الجزء الخاص بالهجرة من كتاب فتح الباري فعرفت أن هذه الاعتراضات بعينها قد مرّت بذهن الحافظ ابن حجر، لكنه طبقاً لما كان معمولاً به في تطبيق الروايات تحدث عنها ثم تجاوزها، بمعني أنه قال أنه من الممكن أن تكون هذه الواقعة قد حدثت في وقت آخر غير وقت الهجرة، لكن المشكلة هي أنه لا يوجد وقت آخر هرب فيه الرسول صلى الله عليه وسلم مع أبي بكر الصديق من المشركين، والحمد لله أنني عثرت علي هذه الرواية بمثل هذا السند أثناء البحث في مسند أحمد بن حنبل ـــ الجزء الأول ـــ ص٣٧٩، وبها ألفاظ مطلقة تختلف عن تلك التي هي مثار الاعتراض، فجاء بها أنه كان يرعى الغنم عندما مرّ به الرسول صلى الله عليه وسلم ومعه أبو بكر الصديق رضي الله عنه، ولم يرد بها ذكر للهرب أو الهجرة مطلقاً، ويثبت من هذا أن هذه الواقعة حدثت قبل الهجرة بكثير، وفي الرواية الأولي يروي عن عاصم تلميذه حماد بن سلمة، بينما في الرواية الثانية ذات الألفاظ المختلفة يروي عنه تلميذه أبو بكر عياش، ورغم أن الاثنين متساويان في ضعف الذاكرة وكثرة الأغلاط، إلا أن النقد يؤيد أبا بكر بن عياش، ففي الرواية الأولي جاء لفظ (فرّ)، وفي الرواية الثانية جاء لفظ (مرّ) ويبدو أن الرواة اشتبه عليهم لفظ (فرّ) مع لفظ (مرّ)، ثم بعد ذلك أضيف لفظ (من المشركين) مناسبة مع (فرّ)، وقد روي ابن سعد هذه الرواية بهذه الألفاظ في الجزء الأول ـــ ص١٢٢ بسند حسن، وهي التي وضحت الأمور كلها. يقول سيدنا ابن مسعود لا أعرف بوجود مسلم قبلي ـــ ولقد كنت أرعى الغنم إذا أتاني رسول الله صلى الله عليه وسلم وسألني هل في شاة من شياهك لبن ؟ فقلت لا، فوضع رسول الله صلى الله عليه وسلم يده علي ضرع شاة فدرت اللبن علي الفور، فلست أصدق بوجود مسلم قبلي.

[1] ـ وورد في مسند الإمام أحمد هذا الحديث: (٣) ـــ حدثنا عبد الله قال حدثني أبي قال حدثنا عمرو بن محمد أبو سعيد ـ يعني العنقري ـ قال حدثنا إسرائيل عن أبي إسحاق عن البراء بن عازب قال: « اشترى أبو بكر من عازب سرجاً بثلاثة عشر درهماً قال: فقال أبو بكر لعازب: مُرْ البراء فليحمله إلى منزلي، فقال: لا حتى تحدثنا كيف صنعت حين خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنت معه قال: فقال أبو بكر خرجنا فأدلجنا فأحثثنا يومنا وليلتنا حتى أظهرنا، وقام قائم الظهيرة فضربت ببصري هل أرى ظلاً نأوي إليه، فإذا أنا بصخرة فأهويت إليها فإذا بقية ظلها فسوّيته لرسول الله صلى الله عليه وسلم وفرشت له فروة، وقلت: اضطجع يا رسول الله، فاضطجع، ثم خرجت أنظر هل أرى أحداً من الطلب فإذا أنا براعي غنم فقلت: لمن أنت يا غلام فقال: لرجل من قريش فسماه، فعرفته، فقلت: هل في غنمك من لبن قال: نعم، قال: قلت هل أنت حالب ؟ لي قال: نعم، قال: فأمرته فاعتقل شاة منها ثم أمرته فنفض

وأمسك به رسول الله صلي الله عليه وسلم، ووضع رسول الله صلي الله عليه وسلم يده علي الضرع ودعا الله، وجاء الصديق رضي الله عنه بحجر علي هيئة طبق وحُلب فيه اللبن، فشرب رسول الله صلي الله عليه وسلم أولاً، ثم شرب أبو بكر رضي الله عنه، وبعد ذلك يقول ابن مسعود رضي الله عنه: ثم سقاني، وبعد أن شرب رسول الله صلي الله عليه وسلم اللبن أمر الضرع بأن يعوُد كما كان، فعاد الضرع كما كان وجفّ لبنه، وبعد ذلك توجهت إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقلت: علمني شيئاً من هذا الكلام الرائع، أي القرآن المجيد، فتعلمت من رسول الله صلي الله عليه وسلم سبعين سورة لا يعادلني أحد فيها، وجاء عند ابن سعد أن سيدنا عبد الله بن مسعود كان يقول لهذه المعجزة دخل في إسلامي. ([1])

ضرعها من الغبار ثم أمرته فنفض كفيه من الغبار ومعي إداوة على فمها خرقة فحلب لي كُثْبَة من اللبن فصببت يعني الماء على القدح حتى برد أسفله ثم أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فوافيته وقد استيقظ فقلت: اشرب يا رسول الله فشرب حتى رضيت، ثم قلت: هل أنى الرحيل ؟ قال: فارتحلنا والقوم يطلبونا فلم يدركنا أحد منهم إلا سراقة بن مالك بن جعشم على فرس له فقلت يا رسول الله: هذا الطلب قد لحقنا فقال: { لا تحزن إن الله معنا } حتى إذا دنا منا فكان بيننا وبينه قَدْر رمح أو رمحين أو ثلاثة قال: قلت يا رسول الله هذا الطلب قد لحقنا وبكَيْت قال: لمَ تبكي ؟ قال: قلت أما والله ما على نفسي أبكي ولكن أبكي عليك قال: فدعا عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: اللهمَّ اكفناه بما شئت » فساخت قوائم فرسه إلى بطنها في أرض صَلْد ووثب عنها وقال: يا محمد قد علمتُ أن هذا عملك فادع الله أن ينجيني مما أنا فيه فوالله لأعمِّيَن على مَن ورائي من الطلب وهذه كنانتي فخذ منها سهماً فإنك ستمر بإبلي وغنمي في موضع كذا وكذا فخذ منها حاجتك قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لا حاجة لي فيها » قال: ودعا له رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم فأطلق فرجع إلى أصحابه ومضى رسول الله صلى الله عليه وسلم وسلم وأنا معه حتى قدمنا المدينة فتلقاه الناس فخرجوا في الطريق وعلى الأجاجير فاشتد الخدم والصبيان في الطريق يقولون: الله أكبر جاء رسول الله صلى الله عليه وسلم، جاء محمد قال: وتنازع القوم، أيُّهم ينزل عليه قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنزل الليلة على بني النجار أخوال عبد المطلب لأكرمهم بذلك، فلما أصبح غداً حيث أُمر قال البراء بن عازب: أول من كان قدم علينا من المهاجرين مصعب بن عمير أخو بني عبد الدار ثم قدم علينا ابن أم مكتوم الأعمى أخو بني فهر ثم قدم علينا عمر بن الخطاب في عشرين راكباً فقلنا ما فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: هو على إثْري ثم قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر معه قال البراء: ولم يقدم رسول الله صلى الله عليه وسلمحتى قرأت سوراً من المفصَّل » (يوسف عامر).

[1] ــ ابن سعد ــــ الجزء الأول ـــ ص٢٢٢.

زيادة سرعة الحصان البطيء:

كان حصان أبي طلحة رضي الله عنه بطيئاً للغاية في سيره، وذات مرة حدث أمراً في المدينة فركب رسول الله صلي الله عليه وسلم علي هذا الحصان واتجه به إلي المدينة، وقد أصبح هذا الحصان بفضل بركة ركوبه صلي الله عليه وسلم عليه لدرجة أنه عندما عاد رسول الله صلي الله عليه وسلم قال عنه إنه نهر، ومنذ ذلك الوقت لم يكن حصان آخر يستطيع مجاراة هذا الحصان. ([1])

الضياء في الظلام:

يقول سيدنا أنس رضي الله عنه أن صحابيين حضرا عند رسول الله صلي الله عليه وسلم بالليل وتأخرا عنده، وعندما عادا كان الظلام دامساً، ولكن قدرت الله هيأت شيئاً مضيئاً يسيرا أمامهما كمصباحين حتى وصل كل منهما إلي بيته، وهذه رواية صحيح البخاري ([2])، وليس فيها تصريح باسم هذين الصحابيين، لكن سيدنا أنس يصرح في الحاكم وابن سعد والبيهقي وأبي نعيم بأنهما كانا عباد بن بشير رضي الله عنه، وأسيد بن حضير رضي الله عنه، وفي هذه الرواية إضافة وهي أن هذا الضياء كان في طرفي عصاتهما، وفي رواية أخرى عن سيدنا أنس رضي الله عنه في أبي نعيم أيضاً أنهما كانا أبا بكر وسيدنا عمر رضي الله عنهما بدلاً من عباد بن بشير وأسيد بن حضير رضي الله عنهما، وفي حالة صحة الرواية يمكن أن تكون هي الرواية الثانية، وهناك واقعة أخرى مشابهة عند الحاكم والبيهقي وأبي نعيم أن أبا عبس بن جبر الصحابي رضي الله عنه والذي كان يصلي العشاء مع رسول الله صلي الله عليه وسلم دائماً حدث له مثل هذا أيضاً، كما ذكر في تاريخ البخاري والبيهقي أن أصابع حمزة الأسلمى رضي الله عنه أضاءت في ليلة مظلمة في أحد الأسفار.

سجود الحيوان:

وجاءت رواية في أكثر كتب الحديث مع تغيير قليل في الألفاظ فحواها أن جمل أحد الأنصار أصابه سعار ذات مرة، أو ثار وهاج، فأخبر الناس رسول الله صلي الله عليه وسلم بالأمر، وأراد رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يذهب إليه، لكن الجميع منعوه

---

[1] ـــ صحيح البخاري ـــ كتاب الجهاد، وباب الركوب علي الدابة الصعبة ـــ الجــزء الأول ـــ ص٤٠٠.

[2] ـــ صحيح البخاري ـــ باب علامات النبوة.

صلي الله عليه وسلم قائلين: يا رسول الله، إنه يعض الناس مثل الكلب، فأخبر صلي الله عليه وسلم بأنه ﷺ لا يخافه، وتقدم إلي الجمل، فجاء الجمل أمام رسول الله صلي الله عليه وسلم وأحني رقبته أمامه، فمرّ رسول الله صلي الله عليه وسلم بيده الشريفة عليه، وأمسك به وسلمه إلي صاحبه، ثم أخبر بأن هذا المخلوق يعلم أنه ﷺ رسول الله، لكن الإنسان مذنب والجن عاص([1])، فلما رأي الصحابة هذا المنظر قالوا: يا رسول الله إذا كان الحيوان يسجد لك، فينبغي علي الإنسان أن يكون أول من يفعل ذلك، فأخبر صلي الله عليه وسلم أنه لو كان من الجائز أن يسجد أحد لآخر لأمر ﷺ المرأة أن تسجد لزوجها. ([2])

معرفة الحيوان لمقام الرسول صلي الله عليه وسلم:

ذات مرة دخـــل رسول الله صلي الله عليه وسلم حديقة أحد الأنصار، وكان هناك جمل يقف رافعاً عقيرته، فلما رأي الجمل رسول الله صلي الله عليه وسلم أخذ يبكي، وسالت الدمـــوع من عينيه، فاقترب منه رسول الله صلي الله عليه وسلم ومرّ بيده الشريفة علي رأسه وفكيّ فمه فصمت الجمل، وسأل النبي صلي الله عليه وسلم عن صاحب الجمل، فأخبره الناس عن الأنصاري صاحبه، واستدعاه النبي صلي الله عليه وسلم وقال له: أفلا تتقى الله في هذه البهيمة التي ملكك الله إياها، فإنه شكى لي أنك تجيعه وتدئبه. ([3])

قوة الذاكرة:

إن أكثر من روي الحديث بين الصحابة جميعاً هو سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه، مع أنه بقي في خدمة النبي صلي الله عليه وسلم سنوات قليلة فقط، ولا يزال الناس حتى اليوم يتعجبون من ذلك، وكانوا كذلك في عصره أيضاً، لكن أبا هريرة رضي الله عنه يقول: أن إخواننا المهاجرين كانوا مشغولين بالتجارة وإخواننا الأنصار في الزراعة،

---

[1] ــ الدرامي.

[2] ــ نقل الإمام أحمد هذه الرواية في مسنده بسند العديد من الصحابة، وهكذا ذكرت في الكتاب المذكور بسند سيدنا جابر وسيدنا ابن عباس وسيدنا أنس والسيدة عائشة رضي الله عنهم كما جعلت سنن النسائي وابن أبي شيبة والطبراني والبيهقي وأهل الدلائل من هذه الواقعة وقائع متعددة بسبب اخـــتلاف الألفـــاظ (البداية والنهاية ـــ جزء ٦ ــ ص ١٣٩)

[3] ــ أبو داود ــ كتاب الجهاد ــ باب الشفقة علي البهائم ــ ص ٢٥٤، ومسند أحمد بسند عبـــد الله بـــن جعفر ومسلم بسند مهدي بن ميمون، والبداية ــ ص٢٧، وعند أبي نعيم وغيره اشتملت هذه الواقعة علي أمور غير معتبرة.

ولم يكن لي عمل سوي المثول عند رسول الله صلي الله عليه وسلم، وذات يوم كنت حاضراً عنده صلي الله عليه وسلم إذ جاء علي لسانه صلي الله عليه وسلم أن من يمد حجـره الآن ويستوعب كلامي في صدره لن ينساه بعد ذلك أبداً، فمددت حجري، وحين انتهي كلامه المبارك استوعبته في صدري، ولم أنس شيئاً أبداً منذ ذلك الوقت. ([1]) وقد وردت هذه الواقعة في صحيح البخاري بطريقة أخرى، وسيأتي ذكرها فيما بعد.

[1] ـ صحيح البخاري وصحيح مسلم ـــ مناقب أبي هريرة. وهذا نص الحديث: ١٤٤٥ حَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: إِنَّكُمْ تَزْعُمُونَ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ يُكْثِرُ الْحَدِيثَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَاللَّهُ الْمَوْعِدُ كُنْتُ رَجُلًا مِسْكِينًا أَخْدُمُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى مِلْءِ بَطْنِي وَكَانَ الْمُهَاجِرُونَ يَشْغَلُهُمُ الصَّفْقُ بِالْأَسْوَاقِ وَكَانَتِ الْأَنْصَارُ يَشْغَلُهُمُ الْقِيَامُ عَلَى أَمْوَالِهِمْ فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَنْ يَبْسُطْ ثَوْبَهُ فَلَنْ يَنْسَى شَيْئًا سَمِعَهُ مِنِّي فَبَسَطْتُ ثَوْبِي حَتَّى قَضَى حَدِيثَهُ ثُمَّ ضَمَمْتُهُ إِلَيَّ فَمَا نَسِيتُ شَيْئًا سَمِعْتُهُ مِنْهُ * (يوسف عامر).

شفاء الأمراض

" وإذا مرضت فهو يشفين " (الشعراء: ٨٠)

إن الأنبياء في الحقيقة يأتون إلي هذه الدنيا كأطباء روحانيين، ولكنهم أحياناً يضطرون إلي علاج الأمراض والوعكات الجسمانية من أجل علاج الأرواح والقلوب، وحياة سيدنا عيسي عليه السلام هي الأكثر تميزاً في هذا المجال بين الأنبياء جميعاً، كما أُعطي النبي صلي الله عليه وسلم من قبيل هذه المعجزات قسطاً وافراً.

شفاء عيني سيدنا علي رضي الله عنه:

روي عن ثلاثة شهود عيان للواقعة وهم سيدنا سعد بن أبي وقاص، سيدنا سلمة بن الأكوع وسيدنا سهيل بن سعد أنه عندما طلب رسول الله صلي الله عليه وسلم سيدنا علياً رضي الله عنه في غزوة خيبر يسلمه اللواء علم أن عينيه مريضتان بمرض شديد ــ كما جاء في مسند ابن حنبل ــ حتى أن رجلاً (سلمة بن الأكوع رضي الله عنه) اصطحبه من يده إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فوضع رسول الله صلي الله عليه وسلم بعضاً من لعاب فمه الشريف في عيني سيدنا علي رضي الله عنه ونفث عليهما، فشُفيا علي الفور حتى أنه بدا وكأن عينيه لم يصيبهما ألم أبداً ([1])

---

[1] ــ صحيح البخاري ــــ باب غزوة خيبر ومناقب علي، وكتاب الجهاد، وصحيح مسلم بـــاب فضـــائل علي، ومسند ابن حنبل ــ الجزء الثالث ــ ص٥٢، ورواية سهيل بن سعد وسلمة بن الأكوع موجودة في كل من البخارِي ومسلم، ورواية سيدنا سعد موجودة في مسلم فقط. وهذا نص الحــديث كمــا ورد فــي صحيح البخاري: ١٣٨٥ حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَبَــاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا قَالَ فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالُوا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ قَالَ فَأَرْسِلُوا إِلَيْــهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْــزِلَ بِسَــاحَتِهِمْ ثُــمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ * (يوسف عامر).

جبر الساق المكسورة:

عندما دخل سيدنا عبد الله بن عتيك رضي الله عنه القلعة وقتل أبا رافع اليهودي وعاد سقط علي السلم والتوت ساقه بشدة، ولم يكتشف أحد في بداية الأمر أنها قد أصابها التواء، ولكن وصل به الحال فيما بعد إلي أن مرافقه كان يحمله، وجاء إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقص عليه ما حدث، فمسح رسول الله صلي الله عليه وسلم بيده المباركة علي ساقه فشفيت من فورها، وبدت وكأنها لم يصيبها التواء أبداً ([1])

---

[1] ـ البخاري ـ وقد جاء في هذه الواقعة في باب قتل أبي رافع أيضاً، ويمكن الجمع بين الروايتين. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، كتاب المغازي، باب قتل أبي رافع عبد الله بن أبي الحقيق. (٣٩٥١) ـــ حدَّثنا يوسفُ بنُ موسىٰ حدَّثَنا عُبيدِ اللهِ بن موسىٰ عن إسرائيلَ عن أبي إسحاقَ عن البَراءِ بن عازب قال: «بَعثَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم إلى أبي رافعٍ اليهوديِّ رجالاً منَ الأنصار، فأمَّرَ عليهم عبدَ اللهِ بن عَتيك، وكان أبو رافعٍ يُؤْذي رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم ويُعينُ عليه، وكان في حصن له بأرض الْحجاز، فلما دَنَوا منه ـ وقد غَرَبَت الشمسُ وراحَ الناس بسَرحِهم ـ فقال عبدُ اللهِ لأصحابه: اجلِسوا مَكانَكم، فإني مُنطلِقٌ ومُتلطِّفٌ للبواب لَعلّي أن أدخلَ. فأقبل حتى دَنا منَ الباب، ثمَّ تَقنَّعَ بثوبِه كأنه يَقضي حاجةً، وقد دَخلَ الناسُ، فهتفَ بهِ البَوابُ: يا عبدَ اللهِ إن كنتَ تُريدُ أن تَدخلَ فادخُل، فإني أريدُ أن أُغلِقَ الباب. فدخلتُ فكمنْتُ، فلما دخلَ الناسُ أغلَقَ الباب ثم علقَ الأغاليقَ على وَتَدٍ. قال فقمتُ إلى الأقاليدِ فأخذتها ففتحتُ البابَ، وكان أبو رافعٍ يُسمَرُ عندَه، وكان في عَلالي لهُ، فلما ذهبَ عنه أهلُ سمَرِه صعِدتُ إليهِ فجعلتُ كلما فتحت باباً أغلقت عليَّ من داخل. قلتُ: إنِ القومُ نَذِروا بي لم يَخلُصوا إليَّ حتىٰ أقتُلَه. فانتهيْتُ إليه، فإذا هو في بيتٍ مُظلمٍ وسطَ عيالِه، لاأدري أينَ هوَ منَ البيت، فقلتُ: أبا رافع. قال: مَن هذا؟ فأهوَيتُ نحوَ الصَّوت فأضربه ضربةً بالسيفِ وأنا دَهِشٌ فما أغنيتُ شيئاً. وصاحَ، فخرَجتُ منَ البيتَ فأمكثُ غيرَ بعيد، ثمَّ دخلتُ إليه: فقلتُ: ما هذا الصوت يا أبا رافع؟ فقال: لأمِّكَ الوَيلُ، إنَّ رجلاً في البيتِ ضربَني قبلُ بالسيفِ. قال فأضربهُ ضربةً أثخنَتْه ولم أقتُله، ثمَّ وضعت ظبةَ السيف في بطنهِ حتى أخذَ في ظهره، فعرَفتُ أني قَتلته، فجعلت أفتح الأبوابَ باباً باباً حتى انتهيت إلى درجةٍ له، فوضعتُ رِجلي وأنا أرَى أني قد انتهيتُ إلى الأرض فوقعت في ليلة مُقْمِرةٍ، فانكسرَتْ ساقي، فعَصَبْتُها بعمامة ثم انطلَقتُ حتى جلَستُ على الباب فقلتُ لا أخرجُ الليلةَ حتى أعلم أقتلْته، فلما صاحَ الدِّيك قام الناعي علَى السُّور فقال: أنعي أبا رافع تاجرَ أهلِ الحجاز، فانطلَقتُ إلى أصحابي فقلتُ النَّجاءَ، فقد قَتلَ اللهُ أبا رافع، فانتهيت إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فحدَّثته، فقال لي: ابسُطْ رِجلَك، فبَسطْتُ رِجلي فمسحها، فكأنها لم أشتَكِها قطُّ».(يوسف عامر).

اندمال جرح السيف:

أصاب سيف ساق سيدنا سلمة بن الأكوع([1]) رضي الله عنه بجرح في غزوة خيبر، فجاء إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، ونفث عليها رسول الله صلي الله عليه وسلم ثلاث مرات، فلم يشكو منها بعدها أبداً، إلا أنه بقي للجرح أثر. ([2])

وجرحت قدم سيدنا خالد بن الوليد في غزوة حنين، ولما انتهت المعركة علم رسول الله صلي الله عليه وسلم بالأمر، فسأل عن مكانه حتى جاءه، فرآه يجلس متكئاً علي هودج، فنظر رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي جرحه، ووضع فوقه من لعاب فمه الشريف، فشُفي الجرح. ([3])

شفاء الأعمى:

جاء أعمي إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وأخبره بما يعاني منه، فسأله صلي الله عليه وسلم إن شاء دعا الله تعالى له، وإن شاء صبر وهو خير له، فقال الرجل ادع لي الله، فأمره صلي الله عليه وسلم أن يتوضأ جيداً ثم يدعو الله بأن يقضي حاجته بوسيلة نبي الرحمة ﷺ، وهذا هو ما جاء عند الترمذي ([4]) والحاكم، ولكن في الرواية التالية لابن حنبل ([5]) والحاكم ([6]) جاء أنه فعل ذلك فشُفي من فوره. ([7]) وهناك رواية للحاكم علي شرط البخاري وردت فيها هذه الواقعة كما يلي، يقول سيدنا عثمان بن حنيف الصحابي أنه جاء إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم صحابي ضرير وسأله قائلاً يا رسول الله،

---

[1] ـ كتبه المترجم فى أماكن عديدة " سلمة بن أكوع" والصحيح حسبما ورد فى كتب السيرة أن اسمه" سلمة بن الأكوع"(يوسف عامر).

[2] ـ صحيح البخاري ـــ باب غزوة خيبر، ومسند ابن حنبل ـ الجزء الرابع ـ حديث سلمة بن الأكوع. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة خيبر: (٤١١٣) ـــ حدَّثنا المكيُّ بن إبراهيمَ حدَّثنا يزيدُ بن أبي عُبَيد قال: «رأيتُ أثرَ ضربةٍ في ساق سَلَمةَ فقلت: ياأبا مُسلمٍ، ماهذهِ الضربة؟ فقال: هذه ضربةٌ أصابَتني يومَ خيبرَ، فقال الناسُ: أُصيبَ سَلَمةُ. فأتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فَنفثَ فيه ثلاث نَفَثات، فما اشتكيتُها حتى الساعة». (يوسف عامر).

[3] ـ مسند ابن حنبل ـ ج٤ ـ ص ٨٨، وعبد الرازق وعبد بن حميد وابن عساكر.

[4] ـ الترمذي ـ كتاب الدعوات.

[5] ـ المسند ـ ج٤ ـ ص ١٣٨.

[6] ـ المستدرك ـ ج١ ـ ص٥٢٦.

[7] ـ المرجع السابق.

ليس عندي من يخدمني، وأنا في عناء شديد، فأمره رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يذهب ويتوضأ، ثم يصلي ركعتين، ثم يدعو الله بعدهما. يقول عثمان بن حنيف لم نكن قد فارقنا المجلس بعد، ولم نكن قد تحدثنا أكثر من هذا حتى عاد الضرير، فعلمنا وكأنه لم يكن في يوم ضريراً.

وهناك واقعة أخرى عن شفاء الصحابي الأعمى حبيب بن فديك رضي الله عنه ذكرت عند ابن أبي شيبة والطبراني والبيهقي وأبي نعيم([1])، ولكن لأن سلسلة سندها مجهولة الأسماء لذا لم نذكرها.

إزاحة البلاء:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم في سفر، وفي الطريق جاءت إليه امرأة تحمل طفلاً وقالت: يا رسول الله، إنه يصيبه في اليوم بلاء عدة مرات، فحمل رسول الله صلي الله عليه وسلم الطفل ووضعه أمام الهودج وردد ثلاث مرات قائلاً: " اخرج عدو الله، أنا رسول الله "، ثم سلمها الطفل، فلما عاد من السفر جاءته تلك المرأة ومعها شاتان، وقالت: يا رسول الله، اقبل هديتي، والله لم يصب الطفل ذلك البلاء بعدها، فقبل رسول الله شاة واحدة وأعاد إليها الثانية ([2])

[1]ــ دلائل أبي نعيم ــ ص١٦١، والإصابة، ترجمة حبيب بن فديك.

[2]ــ وردت هذه الواقعة في مسند ابن حنبل ــــ الجزء الرابع ــــ ص١٧٠، ١٧١ عن سيدنا يعلي بن مرة بروايتين صحيحتين، وبالإضافة إلي ذلك وردت عند ابن شيبة والحاكم، أما الرواية التي جاءت عن هذه الواقعة عند الدرامي ص٧ فهي ليست معتبرة بسندها، وجاءت كذلك مثل هذه الواقعة عند الدرامي وأبي نعيم (يعني تسلط جن علي طفل، وخروجه من الطفل علي هيئة كلب خوفاً من النبي صلى الله عليه وسلم مروية عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه، وهي رواية ليست صحيحة أيضاً. وهذا نص الحديث كما ورد في مسند أحمد بن حنبل: (١٧٢١٨) ــــ حدّثنا عبدالله حدَّثني أبي حدثنا وكيع حدثنا الأعمش عن المنهال بن عمرو عن يعلى بن مرة عن أبيه: ــ قال وكيع مرة: يعني الثقفي، ولم يقل مرة: عن أبيه ــ «أن امرأة جاءت إلى النبيّ صلى الله عليه وسلم معها صبي لها، به لمم، فقال النبيّ صلى الله عليه وسلم: اخرج عدو الله، أنا رسول الله، قال: فبرأ، فأهدت إليه كبشين وشيئاً من أقط وشيئاً من سمن، قال: فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر». (يوسف عامر).

نطق الأبكم:

جاءت امرأة إلي النبي صلي الله عليه وسلم في حجة الوداع تحمل طفلها وقالت إنه أبكم، فطلب رسول الله صلي الله عليه وسلم ماءً وغسل يده، وتمضمض ثم أمرها أن تسقه بعض هذا الماء، وتنثر فوقه بعض، وفي العام التالي جاءت المرأة، وقالت: لقد تحسن الولد تماماً ([1]) وبدأ يتحدث.

شفاء مرض النسيان:

ذات مرة جاء سيدنا علي رضي الله عنه إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم يشكو قائلاً: يا رسول الله، إني أحفظ القرآن ثم أنساه، فأمره رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يصلي ويدعُ الله، يقول سيدنا علي رضي الله عنه فعلت كما قال صلي الله عليه وسلم لي، وتحسنت حالتي، ثم ذهبت إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقلت: لقد كنت قبلاً أحفظ أربع آيات بأربع آيات، والآن أحفظ أربعين بأربعين، وكنت قبلاً أنسي الكلام، والآن أذكره حرفاً حرفاً. ([2])

وعين رسول الله صلي الله عليه وسلم سيدنا عثمان بن العاص رضي الله عنه عاملاً علي الطائف، وذات مرة جاء إلي رسول الله قائلاً: يا رسول الله، لقد أصابني مرض نتيجته أنني في الصلاة لا أعلم ماذا أقرأ ؟ فقربه رسول الله صلي الله عليه وسلم إليه وضرب بيده الشريفـة علي صدره، ونفث في فمه، وزالت عنه هذه الحالة بعدها تماماً. ([3])

واشتكي سيدنا أبو هريرة كذلك من نفس الأمر ذات مرة فقال له رسول الله صلي الله عليه وسلم: فابسط ثوبك، ففعـل، فوضع رسول الله صلي الله عليه وسلم يده فيه ثم قال:: ضم إليك، يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه ففعلت، ولم أنس شيئاً بعدها أبداً ([4])

---

[1] ـ سنن ابن ماجة ـــ باب النشرة، وأبو نعيم ـــ ص١٦٧، وابن أبي شيبة.

[2] ـ جامع الترمذي ـ أبواب الدعوات ـ مستدرك الحاكم ج١ـ ص٣١٦، وعلق الـذهبي علـي هـذه الرواية بالرغم من جودة سندها.

[3] ـ سنن ابن ماجة ـ باب الفزع والأرق.

[4] ـ صحيح البخاري ـــ باب علامات النبوة. وهذا نص الحديث كما ورد في مسند أحمد بـن حنبـل: (٨٣٥٨) حدثنا عبد الله، حدثني أبي، ثنا أبو النضر، ثنا المبارك، عن الحسن، عن أبـي هريـرة قـال:

شفاء المريض:

وقعت هذه الحادثة لسيدنا عثمان بن أبي العاص إذ مرض ذات مرة مرضاً شديداً، وذهب رسول الله صلي الله عليه وسلم لعيادته، فقال صلي الله عليه وسلم له: امسَحْ بِيَمِينِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ وقُلْ: أَعُوذُ بِعِزَّةِ الله وقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ، ومرّ بيده الشريفة علي بدنه. يقول سيدنا عثمان رضي الله عنه ففعلت فشفاني الله من مرضي، والآن أنصح أعزائي وأصدقائي أن يدعوا بهذا الدعاء ([1])

وذات مرة مرض سيدنا علي مرضاً شديداً حتى كان يطلب الموت، فمرّ رسول الله صلي الله عليه وسلم من عنده فلفت نظره، ودعا له، ثم لم يصبه هذا المرض بعدها ثانية ([2])

شفاء طفل من حروقه:

هناك صحابي يدعي محمد بن حاطب، وعندما كان هذا الصحابي طفلاً سقط من حجر أمه في النار وأصابته حروق، فذهبت به أمه إلي النبي صلي الله عليه وسلم، فوضع النبي صلي الله عليه وسلم بعض لعاب فمه عليه ودعا الله ثم نفث عليه، وهذا هو ما ذكر عند الطيالسي وابن حنبل، لكن الإمام البخاري في التاريخ يروي بسنده أن أم محمد بن

سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا من رجل يأخذ بما فرض الله ورسوله كلمة أو كلمتين أو ثلاثاً أو أربعاً أو خمساً، فيجعلهن في طرف ردائه فيتعلمهن ويعلمهن؟ قال أبو هريرة: فقلت: أنا يا رسول الله قال: فابسط ثوبك، قال: فبسطت ثوبي، فحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم قال: ضم إليك، فضممت ثوبي إلى صدري، فإني لأرجو أن لا أكون نسيت حديثاً سمعته منه بعد». (يوسف عامر).

[1] ـ جامع الترمذي ـــ كتاب الطب. وهذا نص الحديث: (٢١٠١) ـــ حَدَّثنا إِسْحَاقُ بنُ مُوسَى الأَنْصَارِيُّ، حدثنا مَعْنٌ، حدثنا مَالِكٌ عن يَزِيدَ بنِ خُصَيْفَةَ عن عَمْرِو بنِ عَبْدِ الله بنِ كَعْبٍ السُّلَمِيُّ: أَنَّ نافعَ بنَ جُبَيْرِ بنِ مُطْعِمٍ أَخْبَرَهُ عن عثمان بنِ أبي العَاصِ أَنَّهُ قال،: «أَتاني رَسُولُ الله وَبي وَجَعٌ قَدْ كَادَ يُهْلِكُنِي، فقالَ رَسُولُ الله: امْسَحْ بِيَمِينِكَ سَبْعَ مَرَّاتٍ وقُلْ: أَعُوذُ بعِزَّةِ الله وقُدْرَتِهِ وَسُلْطَانِهِ، مِنْ شَرِّ مَا أَجِدُ. قالَ: فَفَعَلْتُ فَأَذْهَبَ الله مَا كَانَ بِي، فَلَمْ أَزَلْ آمُرُ به أَهْلِي وَغَيْرَهُمْ». قال أبو عِيسَى: هَذا حَدِيثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

[2] ـ جامع الترمذي ـــ أبواب الدعوات برواية حسنة، وصحيحة في المستدرك للحاكم.

حاطب كانت تقول: أنني لم أكن قد عدت بالطفل من عند رسول الله صلي الله عليه وسلم بعد حتى التأمت جروح الطفل. ([1])

شفاء الجنون:

جاء شخص إلي رســـول الله صلي الله عليه وسلم قائلاً: إِنَّ لِي أخاً وَجِعاً. قَالَ: «مَا وَجَعُ أَخِيكَ؟» قَالَ: بِهِ لَمَمٌ. قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهِ»، فأتي به، فقرأ عليه رسول الله صلي الله عليه وسلم عدة سور من القرآن الكريم، فقام الرجل وكأن الجنون لم يصيبه أبداً. ([2])

---

[1] ــ مسند أبو داود، والطيالسي ص١٦٥، ومسند ابن حنبل ج٤ ــ ص٢٥٩، وقد نقل ابن عبـــد البـــر (رواية البخاري في التاريخ بسند الاستيعاب (ترجمة محمد بن حاطب) ونقلها السيوطي في الخصـــائص الكبرى ــ ج٢ ــ ص٦٩.

[2] ــ سنن ابن ماجة ــ باب الفزع والأرق، وفي سند هذه الرواية أبو حباب، وهو متهم بالتدليس، لكـــن هذه الرواية تخلو من التدليس والله أعلم. وهذا نص الحديث: (٣٦٣١) ـــ حدثنا هَارُونُ بْنُ حَيَّانَ. حَدَّثَنَا إِبْرَاهِيمُ بْنُ مُوسَى. أَنْبَأَنَا عَبْدَةُ بْنُ سُلَيْمَانَ. حَدَّثَنَا أَبُو جَنَابٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ أَبِي لَيْلَى عَنْ أَبِيهِ أَبِـــي لَيْلَى ، قَالَ: كُنْتُ جَالِساً عِنْدَ النَّبِيِّ إِذْ جَاءَهُ أَعْرَابِيٌّ، فَقَالَ: إِنَّ لِي أَخاً وَجِعاً. قَالَ: «مَا وَجَعُ أَخِيكَ؟» قَالَ: بِهِ لَمَمٌ. قَالَ: «اذْهَبْ فَأْتِنِي بِهِ» قَالَ: فَذَهَبَ فَجَاءَ بِهِ، فَأَجْلَسَهُ بَيْنَ يَدَيْهِ. فَسَمِعْتُهُ عَوَّذَهُ بِفَاتِحَـــةِ الْكِتَـــابِ، وَأَرْبَعِ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الْبَقَرَةِ، وَآيَتَيْنِ مِنْ وَسَطِهَا: {وَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ} وَآيَةِ الْكُرْسِيِّ، وَثَـــلاَثِ آيَـــاتٍ مِـــنْ خَاتِمَتِهَا، وَآيَةٍ مِنْ آلِ عِمْرَانَ أَحْسِبُهُ قَالَ: {شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ} وَآيَةٍ مِنَ الأَعْرَافِ: {إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ} الآيَةَ، وَآيَةٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ: {وَمَنْ يَدْعُ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ لاَ بُرْهَانَ لَهُ بِهِ} وَآيَةٍ مِنَ الْجِنِّ: {وَأَنَّهُ تَعَالَى جَدُّ رَبِّنَا مَا اتَّخَذَ صَاحِبَةً وَلاَ وَلَداً}، وَعَشْرِ آيَاتٍ مِنْ أَوَّلِ الصَّافَّاتِ، وَثَلاَثِ آيَاتٍ مِنْ آخِرِ الْحَشْرِ: و {قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ} وَالْمُعَوِّذَتَيْنِ. فَقَامَ الأَعْرَابِيُّ قَدْ بَرَأَ، لَيْسَ بِهِ بَأْسٌ. (يوسف عامر).

استجابة الدعاء

ومن بين العلامات الأخرى علامة كبرى هي قبول الدعاء في حضرة الله تعالي، والتي يعرف بها عباد الله الصالحون المقبولون، وهل هناك من هو أكثر صلاحاً وقبولاً من أنبياء الله تعالي، ولهذا فإن الله يمنح دعاءهم شرف الاستجابة والقبول، ويسمع نداءهم الذي هو خارج من قلوبهم، فلقد نادي سيدنا آدم عليه السلام ربه بندم فعفي عنه، وطلب سيدنا نوح عليه السلام من الله أن ينزل عذاب الطوفان فاستجاب له، ودعا سيدنا إبراهيم عليه السلام بأن تكون النبوة والبركة في أولاده فقبل الله دعاءه، ونادي يونس ربه من أعماق البحر فسمع له، وطلب سيدنا زكريا وارثاً لعائلة النبوة لديه فأعطي ما طلب.

وقد دعا رسول الله صلي الله عليه وسلم أيضاً ربه، ومدّ يده إليه عند الحاجة، وطلب صحبته في وحدته، وطلب نصره في ضعفه، وطلب عونه مدده في أيام العوز والحاجة، وطلب عونه في نشر الحق، وجعل من نفسه شفيعاً في حق عباد الله الصالحين أمام الله تعالي، وبحث عن عون مدده الغيبي في دفع شر الأشرار، وفتحت أبواب القبول والإجابة لكل ما دعا وطلب.

وروي في مسند أحمد عن سيدنا حذيفة رضي الله عنه أنه ما دعا رسول الله لأحد إلا استجيب له في حق هذا الرجل، بل وفي حق أولاده أيضاً ([1])، وجاء في صحيح مسلم أنه حينما كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول عن أحد رحمه الله، كان الصحابة يعرفون أنه ستكتب له الشهادة ([2])، وكان هذا يحدث دائماً، حتى أن أولئك الذين كانوا ينكرون دعوته صلي الله عليه وسلم للحق كانوا علي يقين في قلوبهم من أن هناك أثراً عجيباً في دعائه صلي الله عليه وسلم، وعندما حل قحط بمكة جاء إلي أعتابه أبو سفيان، وكان لا يزال علي كفره وطلب منه أن يدعو بالرحمة ([3])، وعندما دعا رسول الله صلي

---

[1] ـ مسند أحمد برواية أبي حذيفة.

[2] ـ صحيح مسلم ـــ باب غزوة خيبر.

[3] ـ صحيح البخاري ومسلم تفسير سورة الدخان وغيرها. وهذا نص رواية البخـاري: (٤٦٥٦) ـــــ حدَّثنا محمدُ بن كثيرٍ حدَّثنا سفيانُ حدَّثنا منصورٌ و الأعمش عن أبي الضحى عن مَسروق قال: «بينمـا رجلٌ يُحدِّث في كِندَةَ فقال: يجيء دُخانٌ يومَ القيامة فيأخُذُ بأسماع المنافقين وأبصارِهِم يأخذُ المؤمنَ كهيئةِ

الله عليه وسلم علي أبي جهل وغيره ممن كانوا يفسدون علي النبي صلي الله عليه السلام صلاته ارتعدوا خوفاً ([1])، وقد ذكرت هذه الأحداث من قبل تفصيلاً، ولهذا سنكتفي باختصارها هنا بما يتناسب مع موضوع الحديث.

نزول العذاب علي قريش ورفعه:

عندما خالفت قريش الإسلام بشدة أرسل الله عليهم عذاب القحط، وابتلي أهل مكة بمصيبة عظيمة، وفي النهاية لم يكن أمامهم سوي الرجوع إلي أعتاب رحمة العالم صلي الله عليه وسلم، فذهب بعض سادة قريش إليه صلي الله عليه وسلم وقالوا: يا محمد، لقد

الزُكام، فَفَزِعنا. فأتيتُ ابنَ مسعودٍ وكان متُكئاً، فغضبَ فجلسَ فقال: مَن علم فليَقُل، ومن لم يعلم فليَقُل: اللّهُ أعلم؛ فإن منَ العلم أن يقول لما لا يَعلم: لا أعلم، فإنَّ اللّهَ قال لنبيِّه: {قل ما أسألُكم عليهِ من أجرٍ وما أنا منَ المتكلِّفين} (ص: ٨٦). وإنَّ قُريشاً أبطؤوا عنِ الإسلام، فدعا عليهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم فقال: اللهمَّ أعِنِّي عليهم بسبْعٍ كسبع يوسفَ؛ فأخذَتْهم سَنَةٌ حتى هلَكوا فيها وأكلوا الميتةَ والعظامَ، ويرى الرجلُ ما بينَ السماءِ والأرض كهيئةِ الدُخان، فجاءهُ أبو سفيانَ فقال: يا محمدُ، جئتَ تأمرُنا بِصِلةِ الرَّحم، وإنَّ قومكَ قد هلكوا، فادعُ اللّهَ. فقرأ {فارتقب يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مبين ــ إلى قوله ــ عائدون} (الدخان: ١٠ ــ ١٥) أفيُكشَف عنهم عذابُ الآخرةِ إذا جاء، ثم عادوا إلى كفرهم.فذلك قولَهُ تعالى: {يومَ نبطِشُ البطشةَ الكبرى} (الدخان: ١٦) يومَ بدرٍ. و{لِزاماً} (الفرقان: ٧٧) يوم بدر. {آلم غُلِبت الرومُ ــ إلى ــ سيغلِبون} (الروم: ١ ــ ٣) والرُّوم قد مضى. (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري ــ آخر كتاب الوضوء، وهذا نص الحديث: (٢٤١) ــ حدَّثنا عبدانُ قال: أخبرَني أبي عن شُعبة عن أبي إسحاقَ عن عَمرِو بنِ مَيمونٍ عن عبدِاللّهِ قال: بَيْنا رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم سَاجِدٌ ح. قال وحدَّثني أحمدُ بنُ عثمانَ قال: حدَّثَنا شُرَيحُ بنُ مَسلَمَةَ قال: حدَّثَنا إبراهيمُ بنُ يوسُفَ عن أبيهِ عن أبي إسحاقَ قال: حدَّثني عَمرُو بنُ مَيمونٍ أنَّ عبدَاللّهِ بنَ مَسعودٍ حدَّثَهُ أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم كان يُصلّي عندَ البيتِ وأبو جَهلٍ وأصحابُ لهُ جُلوسٌ إذْ قال بعضُهُمْ لِبَعضٍ: أيُّكمْ يَجيءُ بسلَى جَزورِ بنَي فلانٍ فيَضَعُه علَى ظَهرِ مُحمدٍ إذا سَجَدَ. فانبَعَثَ أشقَى القومِ فجاءَ بهِ، فنظَرَ حتى إذا سَجدَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وضعَهُ علَى ظَهرِه بَينَ كَتِفَيْه وأنا أنظُرُ لا أُغَيِّرُ شيئاً، لو كان لي مَنَعَةٌ. قال: فَجَعَلوا يَضحَكونَ ويُحيلُ بَعضُهم علَى بَعضٍ، ورسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم ساجِدٌ لا يَرفَعُ رأسَه، حتى جاءَتهُ فاطمةُ فطَرحَتْ عن ظهرِهِ، فرفَعَ رأسَه ثمَّ قال: «اللهمَّ عليكَ بقُرَيش» ثلاثَ مرَّاتٍ. فشَقَّ عليهم إذ دَعا عليهم. قال: وكانوا يَرونَ أنَّ الدَّعوةَ في ذلكَ البَلَدِ مُستجابة. ثم سَمَّى: «اللهمَّ عليكَ بأبي جَهل، وعليكَ بعُتبةَ بن رَبيعةَ، وشَيبةَ بنِ ربيعةَ، والوَليدِ بن عُتبةَ، وأُمَيَّةَ بنِ خَلَفٍ، وعُقبةَ بنِ أبي مُعَيطٍ» وعدَّ السَابعَ فلم نحفَظْهُ. قال: فوالذي نفسي بِيدِهِ، لقد رأيتُ الذينَ عَدَّ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم صَرعى في القَليبِ، قَليبِ بَدْرٍ.

(يوسف عامر). ومسلم ــ باب ما لقي النبي صلى الله عليه وسلم من أذى المشركين.

تحطم قومك، ادع الله أن ينجيهم من هذه المصيبة، فرفع رحمة العالم صلي الله عليه وسلم يده بالدعاء، واستجاب الله له، وأمطرت السماء كثيراً، ونجا الله أهل مكة من عذاب القحط([1])

دعاؤه صلي الله عليه وسلم علي سادة قريش:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يصلي ذات مرة في صحن الحرم، إذ جاء بعض سادة قريش وهو في صلاته، ووضعوا النجاسة علي رقبته صلي الله عليه وسلم، فجاءت السيدة فاطمة رضي الله عنها وأزاحت النجاسة بعيداً، فرفع رسول الله صلي الله عليه وسلم رأسه من السجود ودعا علي هؤلاء كل باسمه قائلاً: **اللَّهُمَّ عَلَيْكَ، وهكذا قُتلوا جميعاً في معركة** بدر. ([2])

إسلام سيدنا عمر رضي الله عنه:

كان كبراء قريش منهمكون في عداوتهم للإسلام ولداعي الإسلام من جانب، ومن جانب آخر كان داعي الإسلام صلي الله عليه وسلم ممتلئاً حباً لهدايتهم وإرشادهم، وكان

---

[1] ــ صحيح البخاري ــ تفسير سورة الدخان وصلاة الاستسقاء. وهذا نص الحديث الذي ورد في تفسير سورة الدخان: (٤٧٠٣) ــــ حدَّثنا يحيى حدَّثنا أبو مُعاويةَ عن الأعمش عن مسلم عن مَسروقٍ قال: «قال عبدُ الله: إنما كان هذا لأنَّ قُريشاً لما استعصَوا على النبيِّ صلى الله عليه وسلم دَعا عليهم بسِنين كسِني يوسفَ، فأصابهم قَحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظامَ، فجعلَ الرجلُ يَنظُرُ إلى السماءِ فيَرى ما بَينَهُ وبينها كهيئةِ الدُّخانِ منَ الجهد. فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ {فارتَقِبْ يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبينٍ، يَغشى الناسَ، هذَا عَذابٌ أليم} قال: فأُتيَ رسولُ الله فقيل له: يا رسولَ الله استَسْقِ اللَّهَ لمضَرَ فإنها قد هلَكت. قال لمضَرَ؟ إنكَ لجريء، فاستسقى، فسُقوا، فنزلت {إنكم عائدون} (الدخان: ١٥) فلما أصابتهمُ الرَّفاهية عادُوا إلى حالِهم حين أصابتهمُ الرفاهية، فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ {يوم نَبطِشُ البَطشَةَ الكبرَى إنا مُنتَقِمون} (الدخان: ١٧) قال: يعني يوم بدر». (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح البخاري ــــ غزوة بدر. وهذا نص الحديث: (٣١١٦) ــــ حدَّثنا عبدان بنُ عثمان قال: أخبرني أبي، عَنْ شعبة، عن أبي إسحاق، عن عمرو بنِ ميمونٍ، عن عبدِ اللهِ رضي الله عنهُ قال: بَيْنَا رسُولُ الله صلى الله عليه وسلم ساجدٌ، وَحولَهُ ناسٌ مِن قريشٍ من المشركين، إذْ جاءَ عقْبَةُ بنُ أبي مُعيطٍ بسَلَى جَزُورٍ، فقذفهُ على ظهر النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فلم يرفعْ رأسَهُ حتَّى جاءتْ فاطمةُ عليها السلام، فأخذتْ من ظهره، ودَعَتْ عَلَى من صنع ذَلِكَ، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم «اللَّهُمَّ عليكَ الملأَ مِنْ قُرَيشٍ، اللَّهُمَّ عَلَيْكَ أَبَا جَهْلِ بنَ هِشَامٍ، وعتبة بن ربيعة، وشَيبَة بن ربيعة، وعُقْبةَ بنَ أبي مُعَيطٍ، وأُمَيَّةَ بنَ خلَف، أوْ: أُبيَّ بنَ خلَف» فلقد رأيْتهم قُتِلُوا يومَ بَدْرٍ، فأُلْقوا في بِئْرٍ، غيرَ أُميَّةَ أوْ أُبَيٍّ، فإنَّهُ كانَ رَجُلاً ضخماً، فلمَّا جرُّوهُ تَقطعتْ أوْصالهُ قبْلَ أنْ يُلقَى في البِئْرِ (يوسف عامر).

أبو جهل وعمر بن الخطاب أكثر الناس قسوة في عداوتهم للنبي صلي الله عليه وسلم، بينما كان قلب رسول الله صلي الله عليه وسلم ممتلئاً شوقاً لهدايتهم، فلما لم تنجح معهم وسائل التبليغ والدعوة استخدم رسول الله صلي الله عليه وسلم معهم أقوى وسيلة، وهي التي لا يمكن ردّها حيث دعا الله قائلاً: «اللَّهُمَّ أعِزَّ الإسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ »[1]، وروي في ابن ماجه والحاكم عن السيدة عائشة رضي الله عنها أن رسول الله صلي الله عليه وسلم ذكر اسم سيدنا عمر رضي الله عنه، ولم تكد تمضي عدة أيام علي هذا الدعاء حتى اسلم سيدنا عمر رضي الله عنه، فكيف هيـأت قدرة الله القبول والتأثير في هذا الدعاء ؟ هناك بعض الاختلاف في تفضيل ذلك، فقد أورد أستاذي المرحوم في الجزء الأول من السيرة واقعة إسلام سيدنا عمر رضي الله عنه، وهي نفسها التي وردت في كتاب " الفاروق " حرفاً حرفاً، وذكر فيها أن السورة التي أخذها من أخته وقرأها وتأثر بها حتى أسلم كانت سورة الحديد، وصحيح أن هذه الرواية قد جاءت عند البزاز والطبراني والبيهقي وأبي نعيم، ولكنها ضعيفة للغاية، وبالإضافة إلي ذلك فإن إسلام عمر رضي الله عنه وقع بمكة، وسورة الحديد مدنية، فكيف يقرأها سيدنا عمر رضي الله عنه، وقد نقل الأستاذ المرحوم هذه الواقعة من كتب الرجال والتاريخ، ولكنها ذكرت في كتب السير والحديث في الروايات الصحيحة بصورتين:

أولها: هي الصورة المشهورة التي تقول أن عمر رضي الله عنه حمل سيفه وخرج قاصداً قتل رسول الله صلي الله عليه وسلم إذ التقي في الطريق بأحد المسلمين الذي سمع من عمر ما يريد، فقال له: عليك أن تسأل أولاً عن أهل بيتك، فلقد دخلت أختك

---

[1] ــ جامع الترمذي ــ مناقب عمر، برواية ابن عمر حديث حسن غريب، وعند الترمـذي فـي نفـس الموضوع رواية أخرى عن ابن عباس وفيها إضافة أن سيدنا عمر رضي الله عنه أسلم في اليوم التـالي مباشرة، لكن هناك راو معترض عليه في هذه الرواية، وقد ذكرت هذه الرواية عند ابن سعد بثلاث طرق مختلفة بالإضافة إلي الترمذي (المجلد ٣ ــ الجزء ١ ــ ص١٦١) وكتب الحافظ بن حجر في الإصـابة (ترجمة عمر) أن هذه الرواية موجودة بسند أبي يعلي وعبد بن حميد وغيرهمـا أيضـاً، وجـاء فـي خصائص السيوطي أن هذه الرواية موجودة عند الحاكم والطبراني وابن ماجة وصحيح ابن حبان أيضاً. وهذا نص رواية الترمذي: (٣٨٣٦) ـــ حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بنُ بَشَّارٍ ومُحمّدُ بنُ رَافِعٍ قالاَ حدثنا أَبُـو عَـامِرٍ العَقَدِيُّ حدثنا خَارِجَةُ بنُ عبْدِ اللّهِ الأنْصَارِيُّ عَن نَافِعٍ عَن ابنِ عُمَرَ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَـالَ: «اللّهُـمَّ أَعِـزَّ الإسْلاَمَ بِأَحَبِّ هَذَيْنِ الرَّجُلَيْنِ إِلَيْكَ بِأَبِي جَهْلٍ أَوْ بِعُمَرَ بنِ الْخَطَّابِ. قالَ وَكانَ أَحَبُّهُمَا إِلَيْهِ عُمَرُ». قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ غَرِيبٌ مِنْ حَدِيثِ ابنِ عُمَرَ. (يوسف عامر).

وزوجها في هذا الدين، وذهب سيدنا عمر رضي الله عنه غاضباً إلي بيت أخته ونطمهـــا، وفي النهـــاية تناول منها سورة وقرأها وكانت سورة " طه "، وحين وصل إلي هذه الآية:

" إنني أنا الله لا إله إلا أنا فاعبدني وأقم الصلاة لذكري " (طه: ١٤)

تأثر إلي درجة أنه صرخ بالشهادتين، واتجه بعدها إلي حيث رسول الله صلي الله عليه وسلم واستأذن في الدخول، وهذه الرواية ([1]) رويت بسند ابن سعد وأبي يعلي عند الدار قطني والحاكم والبيهقي عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه، لكنها ضعيفة للغاية، ورويت بطريقتين، وفي كل منهما رواة غير مقبولين، وصرح بذلك المحدثون.

أما الرواية الثانية: فقد جاءت في مسند ابن حنبل عن سيدنا عمر نفسه ([2])، يقول خرجت ذات ليلة قاصداً مضايقة النبي صلي الله عليه وسلم ودخلت إلي المسجد الحرام، وبدأت الصلاة، في ذلك الوقت قرأ رسول الله صلي الله عليه وسلم سورة الحاقة، ووقفت أسمع وأنا مندهش من أسلوب القرآن وبيانه، فقلت في نفسي والله هذا شاعر كما تقول قريش، وبينما كنت لا أزال أفكر هكذا إذ قرأ رسول الله صلي الله عليه وسلم هذه الآية:

" إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلاً ما تؤمنون "(الحاقة: ٤٠ – ٤١)

فقلت إنه كاهن، وكأنه عرف ما يدور بقلبي، وقرأ بعدها هذه الآية:

" ولا بقول كاهن قليلاً ما تذكرون تنزيل من رب العالمين " (الحاقة: ٤٢)

---

[1] ـــ كتب الدار قطني هذه الرواية مختصرة وقال أن أحد رواتها هو قاسم بن عثمان البصري، وهو ليس قوياً (باب الطهارة للقرآن)، وكتب الذهبي الاستدراك علي مستـــدرك الحـــاكم (ج٤ ـــص٥٩) أن هـــذه الرواية واهية منقطعة، وكتب في ميزان الاعتدال فيما يتعلق بقاسم بن عثمان البصري راوي الرواية أنه حكي قصة إسلام عمر رضي الله عنه كاملة، وهي منكرة جداً، كما بين ضعفها في فضائل عمـــر بـــن الخطاب في كنز العمال أيضاً، والراوي المشترك بين هذه الروايات هو إسحاق بن يوسف، وقاســـم بـــن عثمان، وإسحاق بن إبراهيم الحسني وأسامة بن زيد بن أسلم، وجميعهم ساقط الاعتبار، ولكن بالرغم من أن هذه الرواية غاية في الضعف باعتبار سندها إلا أن الأحداث التي جاءت فيهـــا تؤيـــد بعضـــاً منهـــا الروايات الصحيحة، مثلاً إيذاء سيدنا عمر لأخته وزوج أخته علي إسلامهما (البخاري ـــ إسلام سعيد بن زيد) ودعاء النبي صلى الله عليه وسلم سلام عمر (الترمذي والحاكم) وذكر حادثة واحـــدة مـــن طـــرق متعددة يدل علي وجود أصل لها رغم ضعفها، ولذا فنحن نعترف بها.

[2] ـــ الجزء الأول ـــ ص١٧، وكل رواة هذه الرواية ثقاة، لكن لقاء الراوي الأول بسيدنا عمر رضي الله عنه غير ثابت، ولهذا فإن بها انقطاع، لكننا مع ذلك أكثر الروايات الآمنة عن إسلام سيدنا عمر.

وقرأ رسول الله صلي الله عليه وسلم هذه السورة حتى آخرها، وتمكن الإسلام من قلبي وأنا أسمعها. وقد كتب ابن إسحاق هاتين الروايتين في سيرته مع بعض الزيادة والحذف وبغير سند، ولهذا فإنه غير معتبر في هذا الخصوص، ونقل الحافظ ابن حجر في الإصابة هاتين الروايتين وتركهما دون أن يقرر أيهما مرجحة علي الأخرى، ولو كانت الاثنتان مقبولتين فما هو ترتيبهما ؟ وأنا أظن أنه إذا كانت هاتان الروايتان صحيحتين فإن ترتيبهما سيكون هكذا أن عمر رضي الله عنه سمع رسول الله صلي الله عليه وسلم يقرأ سورة الحاقة في الصلاة أولاً، وخلق ذلك لديه ميولاً للإسلام مثلما يظهر من قوله: " فوقع الإسلام من قلبي كل موقع "، ولكن لأنه مستقل الطبع قوى لهذا لم يعلن إسلامه، بل ربما أخذ يوقف هذا الأثر علي نفسه، ولكن عندما حدثت واقعة أخته بعد ذلك، ووقع نظره علي سورة "طه" لم يستطع عندئذٍ أن يسيطر علي قلبه، وفارت عين حماس الحق من قلبه ولسانه بغير إرادة منـــه، وذهب علي الفور يستأذن في المثول بين يدي رسول الله صلي الله عليه وسلم، وفي رواية أنس هذه أنه حينما أبدي سيدنا عمر رضي الله عنه رغبته هذه خرج سيدنا خباب رضي الله عنه فوراً من حيث كان يختبئ، وهو الذي كان يعلم هذه السورة لأخت عمر وزوجها، واختبأ في البيت عندما سمـــع صوت عمر رضي الله عنه ([1])، وبشر سيدنا عمر قائلاً يا عمر، أبشر، فإن الدعاء الذي دعاه لك رسول الله ليلة الخميس ربما حان وقت تحققه، فلقد دعا رسول الله صلي الله عليه وسلم قائلاً: اللهم أعزّ الإسلام بأحد العمرين، عمر بن الخطاب أو عمر بن هشام (أبي جهل). [2]

وعليك أن تتمعن كيف تحقق هذا الدعاء النبوي حرفاً حرفاً، فلم يدخل عمر بن الخطاب الإسلام فقط، وإنما ازداد به الإسلام منعة تعترف بها الدنيا حتى بعد مرور ما ينوف علي ألف وثلاثمائة وخمسين عاماً، ويشهد بذلك عبد الله بن مسعود قائلاً: " ما زلنا أعزّة منذ أسلم عمر " ([3])، فإذا ما بحثت عن هذه المنعة للإسلام في حياة الفاروق فسوف ترتسم أمام عينيك صورة مدهشة للقبول والإجابة.

---

[1] ــ صحيح البخاري ـــ الجزء الأول ـــ باب إسلام عمر.

[2] ــ وردت هذه الرواية في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (٥٦٨٠) ـــ حدثنا عبد الله، حدثني أبي، حدثنا أبو عامر، حدثنا خارجة بن عبد الله الأنصاري، عن نافع، عن ابن عمر، أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «اللَّهُمَّ أعِزَّ الإسلامَ بأحبِّ هذين الرجلين إليك، بأبي جهل أو بعمر بن الخطاب، فكان أحبَّهُما إلى الله عمرُ بن الخطاب». (يوسف عامر).

[3] ــ المرجع السابق.

غوص قدم حصان سراقة في الرمال:

حين توجه رسول الله صلي الله عليه وسلم من مكة إلي المدينة بغرض الهجرة تتبعه سراقة كجاسوس من جواسيس الكفار، واقترب منه لدرجة أقلقت سيدنا أبا بكر رضي الله عنه فقال: لقد أمسكوا بنا، فطمأنه النبي صلي الله عليه وسلم، ودعا الله، فكان من أثر هذا الدعاء أن غاصت قدما حصان سراقة في الرمال، فلما رأي سراقة هذا قال لهما لقد دعوتما عليّ أنتما الاثنان، فادع لي الآن أردّ الناس جميعاً عن تعقبكما وأعود بهم، فدعا له رسول الله صلي الله عليه وسلم فنجاه الله من مصيبته، وعاد من جاء ومعه كل من خرج في تعقبه صلي الله عليه وسلم ([1])

الدعاء لطقس المدينة:

لم يكن طقس المدينة جيداً، وكان هناك أثر لوباء حلّ بها، مما أصاب أكثر المهاجرين بالمرض عندما جاءوا إليها، وفي هذه الظروف بدأ الناس يتذكرون وطنهم

---

[1] ـ البخاري ــــ باب علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٨١٩) ــــ قال ابنُ شهاب: وأخبرَني عبدُ الرحمنِ بن مالك المُدلجيّ ـ وهو ابنُ أخي سُراقةَ بنِ مالكِ بن جُعْشُم ـ أنّ أباه أخبرَهُ أنه سمعَ سُـراقةَ بن جُعْشُمٍ يقول: «جاءنا رُسُل كفّارِ قريشٍ يجعلونَ في رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وأبي بكرٍ ديةَ كلِّ واحدٍ منهما لمن قَتَلَهُ أو أسَرَه. فبينما أنا جالسٌ في مجلسٍ من مَجالسِ قومي بني مُدلجٍ إذ أقبلَ رجلٌ منهم حتى قام علينا ونحن جُلوس فقال: يا سُراقة، إني قد رأيتُ آنفاً أسودةً بالساحلِ أراها محمداً وأصـحابَه. قال سُراقة: فعرفتُ أنهم هم، فقلت له: إنهم ليسوا بهم، ولكنّكَ رأيتَ فلاناً وفلاناً انطلَقوا بأعيُننا. ثمَّ لبثتُ في المجلسِ ساعةً، ثمَّ قمتُ فدخلتُ فأمَرتُ جاريتي أن تخرُجَ بفرسي ـ وهي مِنْ وراءِ أكَمة ـ فتَحبِسَها عليَّ، وأخذتُ رُمحي فخرجتُ بهِ من ظَهرِ البيت فخطَطتُ بزُجِّهِ الأرضَ، وخفَضتُ عاليه، حتى أتيـتُ فرسي فركبتُها، فرفعتُها تقرّب بي، حتى دَنوتُ منهم، فعثَرَت بي فرسي، فخرَرتُ عنها، فقُمتُ فأهوَيـتُ يدي إلى كِنانتي فاستخرجتُ منها الأزلامَ، فاستقسَمت بها: أضرُهم أم لا؟ فخرجَ الـذي أكـرَهُ، فركبـتُ فرسي ـ وعصيتُ الأزلامَ ـ تقرّب بي، حتى إذا سمعتُ قِراءَةَ رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم وهو لا يلتَفِتُ، وأبو بكرٍ يُكثرُ الالتفاتَ، ساخَتْ يَدا فرَسي في الأرض حتى بلَغتا الرُكبتَين. فخرَرتُ عنهـا، ثـمَّ زجَرتها، فنَهضَتْ فلم تكَدْ تُخرجُ يدَيها،فلما استوتْ قائمةً إذا لأثرِ يدَيها عُثانٌ ساطِعٌ فـي السـماءِ مثـلُ الدُخان، فاستقسمتُ بالأزلام فخرجَ الذي أكرَهُ. فناديتهم بالأمان، فوقَفوا، فركِبتُ فرسي حتى جئتهم. ووقعَ في نفسي حين لَقيتُ ما لقيتُ منَ الحبسِ عنهم أن سيَظهَرُ أمرُ رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم، فقلتُ له: إنَّ قومَكَ قد جَعَلوا فيكَ الدِّيةَ. وأخبَرتهم أخبار ما يُريدُ الناسُ بهم، وعَرَضتُ عليهم الزادَ والمتاعَ، فلـم يَرزَآني، ولم يَسألاني إلا أن قال: أخفِ عنّا. فسألتهُ أن يَكتُبَ لي كتابَ أمنٍ، فأمرَ عامرَ بن فُهَيرةَ فكتبَ في رُقعةٍ من أديم، ثمَّ مضى رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم». (يوسف عامر).

المدينة ([1])، فلما رأي رسول الله صلي الله عليه وسلم هذا دعا الله قائلاً:«اللّهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحُبِّنا مكةَ أو أشدَّ. اللّهمَّ باركْ بنا في صاعِنا وفي مُدِّنا، وصَحِّحْها لنا، وانقُلْ حُمّاها إلى الجُحْفةِ ([2])، واستجاب الله الدعاء كاملاً، وحبّب الله إلي المهاجرين المدينة بما يظهر من أحداث حياتهم، فقد أصبح أبو بكر رضي الله عنه وبلال رضي الله عنه معرمين بالمدينة إلي درجة أنهما لم يعودا يذكران مكة بعد أن أصابهم القلق بعد أيام قليلة من وصولهم إلي المدينة بعد الهجرة، وكان القضاء علي الوباء قد عرض علي الرسول صلي الله عليه وسلم في منامه ([3]).

القضاء علي القحط ونزول المطر:

لما أصاب القحط مكة قبل الهجرة طلب الكفار، وليس المسلمون، الدعاء من الرسول صلي الله عليه وسلم، فدعا رسول الله صلي الله عليه وسلم فنزل المطر ([4])،

---

[1] ــ صحيح البخاري ـــ باب الهجرة، وصحيح مسلم باب الترغيب في سكني المدينة، وبـاب صـيانة المدينة.

[2] ــ المرجع السابق. وهذا نص الحديث: (١٨٦٨) ـــ حدثنا عُبيدُ بنُ إسماعيلَ حدثنا أبو أُسـامةَ عـن هشامٍ عن أبيهِ عن عائشةَ رضيَ اللهُ عنها قالت: لما قَدِمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم المدينةَ وُعِكَ أبو بكرٍ وبلالٌ، فكان أبو بكرٍ إذا أخذَتْهُ الحُمّى يقول:

كُلُّ امرىءٍ مُصبَّحٌ في أهلهِ والموتُ أدنىٰ من شِراكِ نَعْلِهِ

وكان بلالٌ إذا أُقلِعَ عنه الحمّى يَرفَعُ عَقيرتَهُ يقول:

ألا ليتَ شِعري هل أبيتَنَّ ليلةً بوادٍ وحَولي إذخِرٌ وجَليلُ

وهَل أرِدَنْ يوماً مياهَ مجنَّةٍ وهل يَبْدُوَنْ لي شامة وطَفيلُ

وقال: اللّهمَّ العَنْ شَيبةَ بنَ رَبيعةَ وعُتبةَ بنَ رَبيعةَ وأُميَّةَ بنَ خَلَف، كما أخرَجونا من أرضِنا إلـى أرضِ الوَباءِ. ثمَّ قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «اللّهمَّ حَبِّبْ إلينا المدينةَ كحُبِّنا مكةَ أو أشدَّ. اللّهمَّ باركْ بنا في صاعِنا وفي مُدِّنا، وصَحِّحْها لنا، وانقُلْ حُمّاها إلى الجُحْفةِ. قالت: وقَدِمنا المدينةَ وهيَ أوبأُ أرضِ الله، قالت: فكان بُطحانُ يَجري نَجْلاً. تَعني ماءً آجِنا». (يوسف عامر).

[3] ــ صحيح البخاري ـــ كتاب الرؤيا والتعبير. وهذا هو نص الحديث: (٦٨٨٨) ـــ حدّثنا إبراهيمُ بن المنذر حدَّثني أبو بكر بنُ أبي أُوَيس حدثني سليمان عن موسى بن عقبة عن سالمٍ عن أبيهِ أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «رأيت امرأةً سوداءَ ثائرةَ الرأس خرجَت من المدينة حتى قامت بمَهْيَعة، فأولـت أن وباءَ المدينةِ نقلَ إلى مهيعةَ، وهي الجُحفة». (يوسف عامر).

[4] ــ صحيح البخاري ـــ باب الاستقساء. وهذا نص الحديث: (٤٧٠٣) ـــ حدّثنا يحيى حـدَّثنا أبـو مُعاويةَ عن الأعمش عن مسلم عن مَسروقٍ قال: «قال عبدُ الله: إنما كان هذا لأنَّ قُريشاً لما استعصَـوا

وربما رأي سيدنا أبو طالب عمّ رسول الله صلي الله عليه وسلم هذا المنظر فأنشد هذا البيت في مدحه صلي الله عليه وسلم:

* وأبيض يستسقي الغمام بوجهه ثمال اليتامى عصمة للأرامل.

يقول سيدنا ابن عمر رضي الله عنه عندما كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يدعو الله بنزول المطر كنت أرقب وجهه المبارك وأتذكر هذا الشعر لأبي طالب، ولم يكن الرسول صلي الله عليه وسلم انتهي من دعائه بعد، ونزل من علي المنبر، إلا وقد سالت المياه في كل جدول وقناة في المدينة ([1])، ويعلم من هذا أن أحداثاً عديدة كهذه وقعت أمام سيدنا عبد الله بن عمر رضي الله عنه، وعندما حلّ القحط في زمن سيدنا عمر رضي الله عنه دعا سيدنا عمر قائلاً: يا الله، لقد كنا نتوسل إليك بنبينا صلي الله عليه وسلم في حياته فكيف تسقينا ([2]).

على النبيِّ صلى الله عليه وسلم دَعا عليهم بِسِنين كسِنِي يوسفَ، فأصابهم قَحطٌ وجهدٌ حتى أكلوا العظامَ، فجعلَ الرجلُ يَنظُرُ إلى السماءِ فيَرى ما بَينَهُ وبينها كهيئةِ الدُّخانِ منَ الجهد. فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ {فارتَقِبْ يومَ تأتي السماءُ بدُخانٍ مُبين، يَغشى الناسَ، هذَا عَذابٌ أليم} قال: فأُتيَ رسولُ الله فقيل له: يا رســولَ الله استَسْقِ اللَّهَ لمضَرَ فإنها قد هلَكت. قال لمضَرَ؟ إنكَ لجريء، فاستسقى، فسُقوا، فنزلت {إنكــم عائــدون} (الدخان: ١٥) فلما أصابتهمُ الرَّفاهية عادُوا إلى حالِهم حين أصابتهمُ الرفاهية، فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلَّ {يوم نَبطِشُ البَطشَةَ الكبرَى إنا مُنتَقِمون} (الدخان: ١٧) قال: يعني يوم بدر». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري وابن ماجة ــ أبواب الاستسقاء. وهذا نص الحديث: (٩٩٦) ـــ حدثنا عمــرُ بــنُ عليٍّ قال: حدثَنا أبو قُتيبةَ قال: حدثَنا عبدُ الرحمنِ بنُ عبدِ اللهِ بنِ دينار عن أبيه قال: سمعت ابنَ عمــرَ يتمثَّلُ بشعرِ أبي طالب:

وَأبيضَ يُستسقىٰ الغَمامُ بوجهِهِ ثِمالُ اليَتامىٰ عِصمةٌ للأَرامِلِ

وقال عمرُ بنُ حَمْزةَ: حدثَنا سالمٌ عن أبيه: ربَّما ذكرتُ قولَ الشاعرِ، وأنا أنظُر إلى وَجْهِ النبيِّ صــلى الله عليه وسلم يَستَسقي، فما يَنزِلُ حتَّى يجيشَ كلُّ مِيزَاب:

وأبيض يُستَسقَى بوجهه ثِمالُ اليَتامَى عصمةٌ للأَرامِلِ

وهو قول أبي طالب. (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح البخاري ـــ أبواب الاستسقاء. وهذا نص الحديث: (٩٩٧) ـــ حدثنا الحسنُ بنُ محمدٍ قال حدثَنا محمدُ بنُ عبدِ اللهِ الأنصاريُّ قال: حدثني أبي عبدُ اللهِ بنَ المثنّى عن ثُمامةَ بنِ عبدِ اللهِ بنِ أنسٍ عن أنس «أنَّ عمرَ بنَ الخَطّابِ رضيَ اللهُ عنه كان إذا قَحَطوا استسقىٰ بالعبّاسِ بنِ عبدِ المطَّلِبِ فقال: اللّهــمَّ إنا كنّا نَتوسَّلُ إليكَ بنبيِّنا صلى الله عليه وسلم فتَسقِينا، وإنا نتوسَّلُ إليكَ بعَمِّ نبيِّنا فاسقِنا. قال: فيُسـقونَ». (يوسف عامر).

وذات مرة حل بالمدينة عام جفاف فأخذ رسول الله صلي الله عليه وسلم المسلمين خارجها ورفع يديه إلي الحضرة الإلهية بالدعاء، ثم اتجه إلي القبلة، وقلب رداءه، وصلي ركعتين، فمرّ السحاب، ونزل المطر وارتوي الناس ([1])

أما أكثر الوقائع التي دعا فيها رسول الله صلي الله عليه وسلم بنزول المطر دهشة وثقة أيضاً فهي التي وردت بعدة طرق في كتب الحديث، وتقول بأنه حل القحط ذات مرة بالمدينة، وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يخطب الجمعة، فجاءه شخص وهو علي هذا الحال وقال: يا رسول الله، لقد نفقت حيواناتنا، ومات الناس جوعاً، فادع الله أن يسقينا، فرفع رسول الله صلي الله عليه وسلم يديه بادعاء، وكان من أثر دعائه أن هبت الريح بعد أن كانت السماء صافية كالمرأة، وعمّ السحاب، وبدأ سقوط المطر، فلما خرج الناس من المسجد لم يصلوا إلي بيوتهم إلا مبتلين بماء المطر الذي ظل يهطل أسبوعاً كاملاً بشكل متواصل حتى خاف الناس، وفي الجمعة الثانية جاء الرجل نفسه وقال: يا رسول الله، تهدمت البيوت فادع الله أن يوقف المطر، فابتسم رسول الله صلي الله عليه وسلم ودعا الله، فانقشعت السحب وسطعت المدينة كأنها تاج ([2]).

وقد ذكر ابن ماجة واقعتين متماثلتين في باب الاستسقاء، فإن كانتا غير هذه الواقعة فإن هذا يعني إضافة واقعتين أخريين.

---

[1] ـ للبخاري ومسلم والترمذي وغيرهم ـــ أبواب الاستسقاء. وهذا نص الحديث: (٩٩٩) ـــ حـدّثنا عليُّ بنُ عبدِ اللهِ قال: حدَّثَنا سُفيانُ قال عبدُ اللهِ بنُ أبي بكرٍ إنه سمعَ عبّادَ بنَ تَميمٍ يُحدِّثُ أباهُ عن عمّـهِ عبدِ اللهِ بن زيدٍ «أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم خرج إلى المصلّى فاستَسقى، فاستقبَلَ القِبلةَ، وقَلَبَ رِداءَهُ، وصلى ركعتَين». قال أبو عبدِ اللهِ: كان ابنُ عُيينةَ يقول: هوَ صاحب الأذانِ، ولكنَّه وَهِمَ لأن هذا عبدُ اللهِ بنِ زيد بن عاصمٍ المَازِنيُّ، مازِنُ الأنصارِ. (يوسف عامر).

[2] ـ صحيح البخاري ـــ باب علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٥٠٦) ـــ حدّثنا مسـدَّدٌ حـدَّثنا حمادٌ عن عبدِ العزيز عن أنسٍ. وعن يونُس عن ثابتٍ عن أنس رضي اللهُ عنه قال: «أصابَ أهلَ المدينةِ قحطٌ على عهدِ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فبينا هوَ يخطُبُ يومَ جمعةٍ إذ قام رجلٌ فقال: يارسـولَ الله، هلَكَتِ الكُراعُ، هلَكَتِ الشاءُ، فادعُ الله يَسقِنا. فمدَّ يدهُ ودَعا. قال: أنسٌ: وإنَّ السماء كمثلِ الزجاجـة. فهاجَت ريحٌ أنشأَتْ سحاباً، ثمَّ اجتمعَ، ثم أرسلتِ السماء عَزالَيها، فخرجنا نخـوض المـاء حتـى أتينـا منازلنا، فلم نزل نمطر إلى الجمعة الأخرى، فقام إليه ذلكَ الرجلُ ـ أو غيرهُ ـ فقال: يـا رسـول الله، تَهدمتِ البيوتُ، فادعُ الله يَحبِسهُ. فتبسَّم ثمَّ قال: حَوالينا ولا علينا. فنظَرْتُ إلى السحاب يتصـدع حـولَ المدينة كأنهُ إكليل». (يوسف عامر). وأبواب الأمر وصحيح مسلم باب صلاة الاستسقاء بطرق متعددة.

الدعاء بالبركة في حق سيدنا أنس:

عندما قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم المدينة جاءت أم سيدنا أنس رضي الله عنه به إليه وقد لفته في رداء، وقدمته خادماً له صلي الله عليه وسلم، وطلبت منه صلي الله عليه وسلم أن يدعو له فدعا رسول الله صلي الله عليه وسلم له بالمال والأولاد. يقول سيدنا أنس رضي الله عنه: لقد أصبح عندي اليوم ببركة هذا الدعاء المال الوفير، واقترب عدد أولادي وأحفادي من المائة ([1])، وكان من أثر هذا الدعاء أنه كان لسيدنا أنس بن مالك حديقة تثمر مرتين في العام، وكان بها شجرة ورد تفوح منها رائحة المسك ([2])

الدعاء بالعلم في حق سيدنا ابن عباس رضي الله عنه:

ذات مرة خرج رسول الله صلي الله عليه وسلم لقضاء الحاجة، وكان سيدنا عبد الله بن عباس قد أعد ماءً للوضوء قبلها، فدعا رسول الله صلي الله عليه وسلم له بالنفقة في الدين ([3])، وهكذا صار من التفقه في الدين بحيث لقب " حبر الأمة ".

---

[1] ــ مسلم ـــ فضائل أنس بن مالك رضي الله عنه. وهذا نص الحديث: (٦٣٢٩) ـــ حدثني أَبُو مَعْنٍ الرَّقَاشِيُّ. حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ. حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ. حَدَّثَنَا إِسْحَـٰقُ. حَدَّثَنَا أَنَسٌ، قَالَ: جَاءَتْ بِي أُمِّي، أُمُّ أَنَسٍ إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ. وَقَدْ أَزَّرَتْنِي بِنِصْفِ خِمَارِهَا وَرَدَّتْنِي بِنِصْفِهِ. فَقَالَتْ: يَا رَسُولَ اللّهِ هٰذَا أُنَيْسٌ، ابْنِي. أَتَيْتُكَ بِهِ يَخْدُمُكَ. فَادْعُ اللّهَ لَهُ. فَقَالَ: «اللّهُمَّ أَكْثِرْ مَالَهُ وَوَلَدَهُ». قَالَ أَنَسٌ: فَوَاللّهِ إِنَّ مَالِي لَكَثِيرٌ. وَإِنَّ وَلَدِي وَوَلَدَ وَلَدِي لَيَتَعَادُّونَ عَلَىٰ نَحْوَ الْمِائَةِ، الْيَوْمَ. (يوسف عامر).

[2] ــ الترمذي ـــ مناقب أنس. وهذا نص الحديث: (٣٩٩٧) ـــ حَدَّثَنَا مَحمُودُ بنُ غَيْلاَنَ حدثنا أَبُو دَاوُدَ، عَن أَبي خَلْدَةَ قالَ: «قُلْتُ لأبي العَالِيَةِ سَمِعَ أَنسٌ مِنَ النَّبيِّ ؟ قَالَ خَدَمَهُ عَشْرَ سِنِينَ وَدَعَا لَهُ النبيُّ وكَانَ لَهُ بُستَانٌ يَحْمِلُ في السَّنَةِ الفَاكِهَةَ مَرَّتَيْنِ وكَانَ فِيهَا رَيْحَانٌ كان يجدُ منها رِيحَ المِسْكِ».

قال أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَن. وأَبُو خلدَةَ اسْمُهُ خَالِدُ بنُ دِينَارٍ وَهُوَ ثِقَةٌ عِنْدَ أهْلِ الْحَدِيثِ وَقَدْ أَدْرَكَ أَنَسَ بنَ مَالِكٍ وَرَوَى عَنْهُ. (يوسف عامر).

[3] ــ مسلم ـــ فضائل عبد الله بن عباس. وهذا نص الحديث: (٦٣٢١) ـــ حدثنا زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ وَأَبُو بَكْرِ بْنُ النَّضْرِ. قَالاَ: حَدَّثَنَا هَاشِمُ بْنُ الْقَاسِمِ. حَدَّثَنَا وَرْقَاءُ بْنُ عُمَرَ الْيَشْكُرِيُّ. قَالَ: سَمِعْتُ عُبَيْدَ اللّهِ بْنَ أَبِي يَزِيدَ يُحَدِّثُ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ النَّبِيَّ أَتَىٰ الْخَلاَءَ. فَوَضَعْتُ لَهُ وَضُوءاً. فَلَمَّا خَرَجَ قَالَ: «مَنْ وَضَعَ هٰذَا؟» ـــ فِي رِوَايَةِ زُهَيْرٍ قَالُوا وَفِي رِوَايَةِ أَبِي بَكْرٍ ــ قُلْتُ: ابْنُ عَبَّاسٍ. قَالَ: «اللّهُمَّ فَقِّهْهُ». (يوسف عامر).

الدعاء بالشهادة في حق السيدة أم حرام:

ذات مرة ذهب رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي بيت أم حرام، فقدمت له الطعام، ثم أخذت تنطق رأسه صلي الله عليه وسلم من القمل، فغلب النعاس عليه صلي الله عليه وسلم وهو في هذه الحالة، ثم استيقظ ضاحكاً، فسألته أم حرام عن سبب ضحكة فقال: قال ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله يَركبونَ ثَبَجَ هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة ــ أو مِثلَ الملوك على الأسرة قالت: يارسولَ الله ادعُ الله أن يَجعلني منهم، فدَعا لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم.، وشارك في حرب بحرية في عهد الأمر معاوية رضي الله عنه، فلما خرجت من البحر إلي البر سقطت من فوق مطيتها واستشهدت ([1])

الدعاء بالهداية لأحد الشباب:

يقول سيدنا أبو إمامة الباهلى الصحابي رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يجلس ذات يوم بين أصحابه إذ جاء إليه شاب وقال: يا رسول الله، ائذن لب بالزنا. فلما سمع الناس ما يقول أخذوا يلومونه، فمنعهم النبي صلي الله عليه وسلم، ثم أجلس هذا الشاب بالقرب منه، وسأله بمحبة هل يرضي هذا الفعل لأمه ؟ فقال كلا فديتك يا رسول الله، فقال صلي الله عليه وسلم والناس كذلك لا يرضونه لأمهاتهم، فهل ترضاه لابنتك ؟ قال لا يا رسول الله، فقال صلي الله عليه وسلم والناس كذلك لا يرضونه لبناتهم، فهل ترضاه لأختك ؟ قال لا يا رسول الله، فقال صلي الله عليه وسلم والناس كذلك لا يرضونه لأخواتهم، وهكذا سأله رسول الله صلي الله عليه وسلم هل يرضاه لخالته وعمته؟

---

[1] ــ البخاري ـــ كتاب الجهاد. وقد وردت هذه الرواية في كتاب التعبير، باب الرؤيا بالنهار: (٦٨٤٩) ـــ حدثنا عبدُ الله بن يوسفَ أخبرَنا مالكٌ عن إسحقَ بن عبد الله بن أبي طلحة أنه سمعَ أنسَ بن مالك يقول: «كان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم يَدخُل على أمِّ حرامٍ بنت مِلحانَ ــ وكانت تحتَ عُبادةَ بن الصامت، فدخلَ عليها يوماً، فأطعَمَته وجعلَت تَفْلِي رأسَه فنام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظَ وهو يضحك..» قالت: فقلت ما يضحككَ يارسولَ الله؟ قال ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله يَركبونَ ثَبَجَ هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة ــ أو مِثلَ الملوك على الأسرة ــ شكَّ إسحق ــ قالت: فقلت يارسولَ الله ادعُ الله أن يَجعلني منهم، فدَعا لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. ثمَّ وَضعَ رَأسه ثمَّ استيقظَ وهو يَضحك. فقلت ما يَضحككَ يارسولَ الله؟ قال: أناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غزاةً في سبيل الله ــ كما قال في الأولى ــ قالت: فقلتُ يارسولَ الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: أنتِ من الأوَلين. فركبتِ البحرَ في زمان معاوية بن أبي سفيان، فصُرِعَت عن دابتها حينَ خرَجَت من البحر فهلكت». (يوسف عامر).

والشاب يجيبه بنفس الجواب، والرسول صلي الله عليه وسلم يقول مثلما قال سابقاً؛ وبعد ذلك وضع رسول الله صلي الله عليه وسلم يده الشريفة علي رأس الشاب ودعا له بأن يغفر الله ذنوبه، ويطهر قلبه ويعصمه يقول أبو إمامة: صار حال الشاب بعدها أنه لم يكن يلتفت حتى لمجرد أن ينظر إلي أحد ([1]).

الدعاء بالشفاء لسيدنا ابن وقاص:

يقول سيدنا سعد بن وقاص رضي الله عنه ذهبت مع رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي مكة، فمرضت هناك مرضاً شديداً حتى شارفت علي الموت، وأعددت لكتابة وصيتي، وعادني رسول الله صلي الله عليه وسلم، فقلت يا رسول الله هل أموت في هذه الأرض التي هاجرت منها ؟ فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم كلا إنشاء الله ([2])، ثم دعا الله ثلاث مرات أن اللهم اشف سعداً، اللهم اشف سعداً، اللهم اشف سعداً ([3]) وهكذا شفا الله سعداً، وظل علي قيد الحياة بعد رسول الله صلي الله عليه وسلم لمدة خمسة عشر عاماً تقريباً، وتولي إمارة جيش العراق.

---

[1] ــ مسند أحمد ــــ ج٥ ــــ ص٣٥٦ بسند صحيح ــ وشعب الإيمان للبيهقي.

[2] ــ النسائي، كتاب الوصية. وهذا نص الحديث: (٣٦٣٤) أَخْبَرَنَا الْعَبَّاسُ بْنُ عَبْدِ الْعَظِيمِ الْعَنْبَرِيُّ قَالَ: حَدَّثَنَا عَبْدُ الْكَبِيرِ بْنُ عَبْدِ الْمَجِيدِ قَالَ: حَدَّثَنَا بُكَيْرُ بْنُ مِسْمَارٍ قَالَ: سَمِعْتُ عَامِرَ بْنَ سَعْدٍ عَنْ أَبِيهِ، أَنَّهُ اشْتَكَى بِمَكَّةَ فَجَاءَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم فَلَمَّا رَآهُ سَعْدٌ بَكَى وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَمُوتُ بِالأَرْضِ الَّتِي هَاجَرْتَ مِنْهَا؟ قَالَ: «لاَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ» وَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ؟ قَالَ: «لاَ» قَالَ: يَعْنِي بِثُلُثَيْهِ؟ قَالَ: «لاَ» قَالَ: فَنِصْفَهُ؟ قَالَ: «لاَ» قَالَ: فَثُلُثَهُ؟ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ إِنَّكَ أَنْ تَتْرُكَ بَنِيكَ أَغْنِيَاءَ خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَتْرُكَهُمْ عَالَةً يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ». (يوسف عامر).

[3] ــ صحيح مسلم ــــ كتاب الوصية. وهذا هو نص الحديث: (٤١٦٩) ــــ حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عُمَرَ الْمَكِّيُّ: حَدَّثَنَا الثَّقَفِيُّ عَنْ أَيُّوبَ السَّخْتِيَانِيِّ عَنْ عَمْرِو بْنِ سَعِيدٍ عَنْ حُمَيْدِ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ الْحِمْيَرِيِّ عَنْ ثَلاَثَةٍ مِنْ وَلَدِ سَعْدٍ، كُلُّهُمْ يُحَدِّثُهُ عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ النَّبِيَّ دَخَلَ عَلَىٰ سَعْدٍ يَعُودُهُ بِمَكَّةَ، فَبَكَىٰ، قَالَ: «مَا يُبْكِيكَ؟» فَقَالَ: قَدْ خَشِيتُ أَنْ أَمُوتَ بِالأَرْضِ الَّتِي هَاجَرْتُ مِنْهَا، كَمَا مَاتَ سَعْدُ بْنُ خَوْلَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ: «اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْداً، اللَّهُمَّ اشْفِ سَعْداً» ثَلاَثَ مِرَارٍ، قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّ لِي مَالاً كَثِيراً، وَإِنَّمَا يَرِثُنِي ابْنَتِي، أَفَأُوصِي بِمَالِي كُلِّهِ؟ قَالَ: «لاَ» قَالَ: فَبِالثُّلُثَيْنِ؟ قَالَ: «لاَ» قَالَ: فَالنِّصْفُ؟ قَالَ: «لاَ» قَالَ: فَالثُّلُثُ؟ قَالَ: «الثُّلُثُ وَالثُّلُثُ كَثِيرٌ، إِنَّ صَدَقَتَكَ مِنْ مَالِكَ صَدَقَةٌ، وَإِنَّ نَفَقَتَكَ عَلَىٰ عِيَالِكَ صَدَقَةٌ وَإِنَّ مَا تَأْكُلُ امْرَأَتُكَ مِنْ مَالِكَ صَدَقَةٌ، وَإِنَّكَ أَنْ تَدَعَ أَهْلَكَ بِخَيْرٍ (أَوْ قَالَ بِعَيْشٍ)، خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَدَعَهُمْ يَتَكَفَّفُونَ النَّاسَ» وَقَالَ بِيَدِهِ. (يوسف عامر).

الدعاء لسيدنا سعد بن أبي وقاص بأن يكون مستجاب الدعوة:

ودعا رسول الله صلي الله عليه وسلم لسعد بن أبي وقاص هذا أن اللَّهُمَّ استَجِبْ لِسَعْدٍ إِذَا دَعَاكَ ([1])، وكان من أثر هذا الدعاء أن أي دعاء كان يدعو به يستجيبه الله تعالي، وجاء بعض الأشرار في العهد الفاروقي وشكوه بغير حق أيام إمارته علي الكوفة، فأرسل سيدنا عمر رضي الله عنه رجلاً يحقق في الأمر، فذهب هذا الرجل إلي المساجد وأخذ يسأل الناس عن سعد بن أبي وقاص، وفي مسجد أحد الأحياء شهد شخص ضده زوراً بأنه لا يؤم الصلاة بشكل جيد، فلما سمع سعد بن أبي وقاص هذا بكي وقال: اللهم إن كان كاذباً فابتليه، وصار حال هذا الرجل أن تقدم في العمر حتى صارت رموشه تتساقط، لكنه مع ذلك كان يمشي في الأسواق يعاكس الفتيات ويقول: لقد أصابني دعاء سعد، وهناك واقعات أخرى مذكورة في كتب الأحاديث والسير عن استجابة دعائه رضي الله عنه.

الدعاء بالبركة في حق سيدنا عروة:

ذات مرة أعطي رسول الله صلي الله عليه وسلم سيدنا عروة رضي الله عنه ديناراً ليشتري به شاه، فاشتري به شاتين، باع واحدة منهما بدينار، وقدم الأخرى مع الدينار إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فدعا رسول الله صلي الله عليه وسلم له بالبركة في أمور البيع والشراء، وكان من أثر هذا الدعاء أن المكسب كان يحل في كل ما يشتري ولو كان في حجم قبضة اليد ([2])

الدعاء بالسلامة في حق أبي إمامة الباهلي:

يقول سيدنا أبو إمامة رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يجهز جيشاً (سرية) أنا فيها فقلت يا رسول، ادع الله لي بالشهادة، فدعا الرسول ﷺ الله تعالى له بأن يعود سالماً غانماً، وهكذا عدنا سالمين غانمين، ثم جهزّ جيشاً آخر أنا فيه، فطلبت منه صلي الله عليه وسلم نفس الدعاء الأول، فدعا رسول الله بدعائه الأول، ولما

---

[1] ـــ الترمذي ـــ مناقب سعد بن أبي وقاص. وهذا نص الحديث: (٣٩٠٧) ـــ حَدَّثَنَا رَجَاءُ بنُ مُحمّدٍ العدوي بصري حدثنا جَعْفَرُ بنُ عَوْنٍ، عَن إسمَاعِيلَ بنِ أبي خَالِدٍ عَن قَيْسٍ عَن سَعْدٍ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قالَ: «اللّهُمّ استَجِبْ لِسَعْدٍ إذَا دَعَاكَ».

قال أبو عيسى: وَقَدْ رُوِيَ هَذَا الْحَدِيثُ عَن إسمَاعِيلَ عَن قَيْس أَنَّ النبيَّ قالَ: «اللّهُمَّ اسْتَجِبْ لِسَعْدٍ إذَا دَعَاكَ». وَهَذَا أَصَحُّ. (يوسف عامر).

[2] ـــ البخاري ـــ باب علامات النبوة.

واتتني الفرصة في المرة الثالثة قلت يا رسول الله، طلبت منك مرتين أن تدعو الله لي بالشهادة، ولم تقبل مني، وهذه هي المرة الثالثة، فدعا رسول الله صلي الله عليه وسلم بدعائه الأول، وجاءت نفس النتيجة ([1])

الدعاء بالبركة في الأولاد في حق سيدنا طلحة:

كانت زوج سيدنا طلحة رضي الله عنه عاقلة، ومحبة للإسلام ولرسول الإسلام من كل قلبها، وذات مرة مرض طفلها، وكان أبو طلحة خارج البيت في هذا الوقت، واشتد المرض بالطفل حتى فارق الحياة، فحملته أم طلحة إلي أحد جوانب البيت، ولما عاد أبو طلحة إلي البيت سأل زوجته عن الطفل، فقالت الزوجة الطيبة لقد استراح، ففهم أبو طلحة أنه بحال جيدة، ثم ذهبا إلي مضجعهما، وفي الصباح اغتسل أبو طلحة وهمّ بالذهاب إلي المسجد النبوي لأداء صلاة الصبح، عندئذٍ أخبرته زوجته بالحقيقة، وفي الليل قص أبو طلحة ما حدث علي الرسول صلي الله عليه وسلم فقال صلي الله عليه وسلم لعلَّ اللَّهَ أن يُبارِكَ لكما في لَيلَتِكما، وبعدها اكتملت مدة الحمل منذ تلك الليلة المباركة([2]). يقول أحد الأنصار: كان أثر هذه البركة أني رأيت لأبي طلحة تسعة أولاد، وكلهم قارئ للقرآن ([1])

---

[1] ـ مسند أحمد ـــ ج٥ ـ ص٢٤٨، وأبو يعلي والبيهقي.

[2] ـ صحيح مسلم ـــ فضائل أبي طلحة. وهذا نص الحديث: (٦٢٧٥) ـــ حدّثني مُحَمَّدُ بْنُ حَاتِمِ بْـنِ مَيْمُونٍ. حَدَّثَنَا بَهْزٌ. حَدَّثَنَا سُلَيمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: مَاتَ ابْنٌ لأَبِي طَلْحَةَ مِنْ أُمِّ سُلَيْمٍ. فَقَالَتْ لأَهْلِهَا: لاَ تُحَدِّثُوا أَبَا طَلْحَةَ بِابْنِهِ حَتَّىٰ أَكُونَ أَنَا أُحَدِّثُهُ. قَالَ: فَجَاءَ فَقَرَّبَتْ إِلَيْهِ عَشَاءً. فَأَكَلَ وَشَرِبَ. فَقَالَ: ثُمَّ تَصَنَّعَتْ لَهُ أَحْسَنَ مَا كَانَ تَصَنَّعُ قَبْلَ ذٰلِكَ. فَوَقَعَ بِهَا. فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهُ قَدْ شَبِـعَ وَأَصَـابَ مِنْهَـا، قَالَتْ: يَا أَبَا طَلْحَةَ أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ قَوْماً أَعَارُوا عَارِيَتَهُمْ أَهْلَ بَيْتٍ، فَطَلَبُوا عَارِيَتَهُمْ، أَلَهُمْ أَنْ يَمْنَعُوهُمْ؟ قَالَ: لاَ. قَالَتْ: فَاحْتَسِبِ ابْنَكَ. قَالَ: فَغَضِبَ وَقَالَ: تَرَكْتِنِي حَتَّىٰ تَلَطَّخْتُ ثُمَّ أَخْبَرْتِنِي بِابْنِي فَانْطَلَقَ حَتَّىٰ أَتَـىٰ رَسُولَ اللّهِ. فَأَخْبَرَهُ بِمَا كَانَ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «بَارَكَ اللّهُ لَكُمَا فِي غَابِرِ لَيْلَتِكُمَا» قَالَ: فَحَمَلَتْ. قَالَ: فَكَانَ رَسُولُ اللّهِ فِي سَفَرٍ وَهِيَ مَعَهُ. وَكَانَ رَسُولُ اللّهِ إِذَا أَتَىٰ الْمَدِينَةَ مِنْ سَفَرٍ، لاَ يَطْرُقُهَا طُرُوقاً. فَدَنَوْا مِـنَ الْمَدِينَةِ. فَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ. فَاحْتُبِسَ عَلَيْهَا أَبُو طَلْحَةَ. وَانْطَلَقَ رَسُولُ اللّهِ. قَالَ: يَقُولُ أَبُو طَلْحَـةَ: إِنَّـكَ لَتَعْلَمُ، يَا رَبِّ إِنَّهُ يُعْجِبُنِي أَنْ أَخْرُجَ مَعَ نَبِيِّكَ إِذَا خَرَجَ، وَأَدْخُلَ مَعَهُ إِذَا دَخَلَ. وَقَدِ احْتُبِسْتُ بِمَا تَرَىٰ. قَالَ: تَقُولُ أُمُّ سُلَيْمٍ: يَا أَبَا طَلْحَةَ مَا أَجِدُ الَّذِي كُنْتُ أَجِدُ. انْطَلِقْ. فَانْطَلَقْنَا. قَالَ: وَضَرَبَهَا الْمَخَاضُ حِينَ قَـدِمَا. فَوَلَدَتْ غُلاَماً. فَقَالَتْ لِي أُمِّي: يَا أَنَسُ لاَ يُرْضِعُهُ أَحَدٌ حَتَّىٰ تَغْدُوَ بِهِ عَلَىٰ رَسُولِ اللّهِ. فَلَمَّا أَصْبَحَ احْتَمَلْتُهُ. فَانْطَلَقْتُ بِهِ إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ. قَالَ: فَصَادَفْتُهُ وَمَعَهُ مِيسَمٌ. فَلَمَّا رَآنِي قَالَ: «لَعَلَّ أُمَّ سُلَيْمٍ وَلَدَتْ؟» قُلْتُ: نَعَمْ. فَوَضَعَ الْمِيسَمَ. قَالَ: وَجِئْتُ بِهِ فَوَضَعْتُهُ فِي حَجْرِهِ. وَدَعَا رَسُولُ اللّهِ بِعَجْوَةٍ مِنْ عَجْوَةِ الْمَدِينَةِ. فَلاَكَهَا فِي

الدعاء بالهداية في حق والدة سيدنا أبي هريرة:

كانت والدة سيد أبي هريرة رضي الله عنها كافرة، وكان أبو هريرة يدعوها إلي الإسلام، لكنها لم تلب الدعوة، وذات يوم كان أبو هريرة يدعو والدته إلي الإسلام كما اعتاد أن يفعل فشتمت رسول الله صلي الله عليه وسلم فتألم أبو هريرة رضي الله عنه كثيراً لهذا، وذهب إلي رسول الله صلي اله عليه وسلم وهو يبكي، وذكر له ما حدث وطلب منه صلي الله عليه وسلم أن يدعو بالهداية لوالدته، فدعا رسول الله صلي الله عليه وسلم قائلاً: «اللَّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ». وكان أبو هريرة علي يقين من استجابة الله لهذا الدعاء، ولذا عاد إلي بيته فرحاً، فرأي أن الباب مغلق، وسمعت الأم من الداخل صوت أقدام أبي هريرة فقالت له: انتظر علي الباب، وسمع أبو هريرة صوت استخدام المياه بالداخل، فلما اغتسلت الأم وبدلت ملابسها فتحت الباب ونطقت الشهادتين، فعاد أبو هريرة من فوره فرحاً إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وبشره بما حدث ([2])، وشكر الله ودعا لهما.

فيهِ حَتَّىٰ ذَابَتْ. ثُمَّ قَذَفَهَا فِي فِي الصَّبِيِّ. فَجَعَلَ الصَّبِيُّ يَتَلَمَّظُهَا. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «انْظُرُوا إِلَى حُبِّ الأَنْصَارِ التَّمْرَ» قَالَ: فَمَسَحَ وَجْهَهُ وَسَمَّاهُ عَبْدَ اللّهِ. (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري ـــ كتاب الجنائز ـــ باباً من لم يظهر الحزن عند المصيبة. وهذا نص الحديث: (١٢٧٨) ـــ حدَّثنا بِشرُ بنُ الحكمِ حدَّثنا سفيانُ بنُ عُيينةَ أخبرَنا إسحاقُ بنُ عبدِ اللّهِ بنِ أبي طلحةَ أنــه سمعَ أنسَ بنَ مالكٍ رضيَ اللّهُ عنه يقولُ: «اشتكى ابنٌ لأبي طلحةَ، قال فماتَ وأبو طلحةَ خــارجٌ. فلمــا رأتِ امرأتهُ أنهُ قد مات هيَّأتْ شيئاً ونحَّتْهُ في جانبِ البيتِ. فلما جاءَ أبو طلحةَ قال: كيفَ الغُلام؟ قالت: قد هَدأَتْ نفسُه، وأرجو أن يكونَ قدِ استراحَ. وظنَّ أبو طلحةَ أنَّها صادقةٌ. قال فباتَ. فلمَّا أصبحَ اغتَسلَ، فلما أرادَ أن يَخرُجَ أعلمَتْهُ أنه قد مات، فصلَّى مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم، ثمَّ أخبرَ النبي صــلى الله عليه وسلم بما كان منهما، فقال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: لعلَّ اللّهَ أن يُبارِكَ لكما في لَيلَتِكمــا». قال سفيانُ: فقال رجلٌ منَ الأنصارِ: فرأيتُ لهما تسعةَ أولادٍ كلُّهم قد قرأ القرآنَ. (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح مسلم ـــ فضائل أبي هريرة. وهذا نص الحديث: (٦٣٤٩) ـــ حدثنا عَمْرٌو النَّاقِدُ. حَدَّثَنَا عُمَرُ بْنُ يُونُسَ الْيَمَامِيُّ. حَدَّثَنَا عِكْرِمَةُ بْنُ عَمَّارٍ عَنْ أَبِي كَثِيرٍ، يَزِيدَ بْنِ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ. حَدَّثَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ، قَالَ: كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَىٰ الإِسْلاَمِ وَهِيَ مُشْرِكَةٌ. فَدَعَوْتُهَا يَوْماً فَأَسْمَعَتْنِي فِي رَسُولِ اللّهِ مَا أَكْرَهُ. فَأَتَيْــتُ رَسُولَ اللّهِ وَأَنَا أَبْكِي. قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنِّي كُنْتُ أَدْعُو أُمِّي إِلَىٰ الإِسْلاَمِ فَتَأْبَىٰ عَلَيَّ. فَــدَعَوْتُهَا الْيَــوْمَ فَأَسْمَعَتْنِي فِيكَ مَا أَكْرَهُ. فَادْعُ اللّهَ أَنْ يَهْدِيَ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «اللّهُمَّ اهْدِ أُمَّ أَبِي هُرَيْــرَةَ» فَخَرَجْتُ مُسْتَبْشِراً بِدَعْوَةِ نَبِيِّ اللّهِ. فَلَمَّا جِئْتُ فَصِرْتُ إِلَىٰ الْبَابِ. فَإِذَا هُوَ مُجَافٌ. فَسَمِعَتْ أُمِّــي خَشْــفَ قَدَمَيَّ. فَقَالَتْ: مَكَانَكَ يَا أَبَا هُرَيْرَةَ وَسَمِعْتُ خَضْخَضَةَ الْمَاءِ. قَالَ: فَاغْتَسَلَتْ وَلَبِسَتْ دِرْعَهَا وَعَجِلَتْ عَــنْ

زيادة سرعة الجمل:

في غزوة من الغزوات أرهق جمل سيدنا جابر رضي الله عنه، أو ربما مرض، حتى أنه كان لا يقوى على السير،، ورآه الرسول صلى الله عليه وسلم فدعا، وازدادت سرعة الجمل حتى أنه كان يسبق الجمال الأخرى، وجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم واستفسر عن حال الجمل من أبي هريرة رضي الله عنه فقال له أبو هريرة: لقد استجيب دعاؤك يا رسول الله. ([1])

شفاء المريض:

ذهب الرسول صلى الله عليه وسلم لزيارة أحد الصحابة أصابه ضعف شديد، فقال له صلى الله عليه وسلم: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟» قَالَ: نَعَمْ. كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ لاَ تُطِيقُهُ ــــ أَوْ لاَ تَسْتَطِيعُهُ ــــ أَفَلاَ قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»، قَالَ: فَدَعَا اللَّهَ لَهُ. فَشَفَاهُ. ([2]).

زيادة قوة المطية:

كان هناك صحابي يدعى جرير، وكان من الضعف بحيث أنه لم يكن يستطيع الثبات فوق ظهر الفرس، وذات مرة أراد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يرسله لهدم

خِمَارِهَا. فَفَتَحَتِ الْبَابَ. ثُمَّ قَالَتْ: يَا أَبَا هُرَيْرَةَ أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّداً عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ. قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللَّهِ، فَأَتَيْتُهُ وَأَنَا أَبْكِي مِنَ الْفَرَحِ. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ أَبْشِرْ قَدِ اسْتَجَابَ اللَّهُ دَعْوَتَكَ وَهَدَىٰ أُمَّ أَبِي هُرَيْرَةَ. فَحَمِدَ اللَّهَ وَأَثْنَىٰ عَلَيْهِ وَقَالَ خَيْراً. قَالَ: قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ أَنْ يُحَبِّبَنِي أَنَا وَأُمِّي إِلَىٰ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ، وَيُحَبِّبَهُمْ إِلَيْنَا. قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «اللَّهُمَّ حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هٰذَا ــــ يَعْنِي أَبَا هُرَيْرَةَ ــــ وَأُمَّهُ إِلَىٰ عِبَادِكَ الْمُؤْمِنِينَ. وَحَبِّبْ إِلَيْهِمُ الْمُؤْمِنِينَ» فَمَا خُلِقَ مُؤْمِنٌ يَسْمَعُ بِي، وَلاَ يَرَانِي، إِلاَّ أَحَبَّنِي. (يوسف عامر).

[1] ــ البخاري – كتاب الجهاد.

[2] – صحيح مسلم – كتاب الدعوات – باب كراهة الدعاء بتعجيل العقوبة في الدنيا. وهذا نص الحديث: (٦٧٨٦) ــــ حدثناأَبُو الْخَطَّابِ، زِيَادُ بْنُ يَحْيَى الْحَسَّانِيُّ. حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ أَبِي عَدِيَ عَنْ حُمَيْدٍ، عَنْ ثَابِتٍ، عَنْ أَنَسٍ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ عَادَ رَجُلاً مِنَ الْمُسْلِمِينَ قَدْ خَفَتَ فَصَارَ مِثْلَ الْفَرْخِ. فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ: «هَلْ كُنْتَ تَدْعُو بِشَيْءٍ أَوْ تَسْأَلُهُ إِيَّاهُ؟» قَالَ: نَعَمْ. كُنْتُ أَقُولُ: اللَّهُمَّ مَا كُنْتَ مُعَاقِبِي بِهِ فِي الآخِرَةِ، فَعَجِّلْهُ لِي فِي الدُّنْيَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «سُبْحَانَ اللَّهِ لاَ تُطِيقُهُ ــــ أَوْ لاَ تَسْتَطِيعُهُ ــــ أَفَلاَ قُلْتَ: اللَّهُمَّ آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ»، قَالَ: فَدَعَا اللَّهَ لَهُ. فَشَفَاهُ. (يوسف عامر).

معبد "ذو الحنيفة"، فشكا للرسول صلى الله عليه وسلم عدم استطاعته الجلوس فوق الفرس، فضرب الرسول صلى الله عليه وسلم بيده الشريفة على صدره وقال: «اللَّهُمَّ ثَبِّتْهُ. وَاجْعَلْهُ هَادِياً مَهْدِيًّا»، فذهب الصحابي، وأشعل النار في المعبد ([1]).

شل يد المغرور:

كان هنـــاك شخص يأكل الطعام بيده اليسرى أمام الرسول صلى الله عليه وسلم، فقال النبي له: كل بيمينك، فقال المغرور: لا أستطيع أن آكل بها، ولأنه قال هذا بدافع الغرور، دعا الرسول صلى الله عليه وسلـــم قائلاً: لا استطعت، وبعدها لم يكن هذا المغرور يستطيع أن يرفع يده بالطعام إلى فمه ([2]).

إسلام قبيلة دوس:

ذات مرة جاء سيدنا طفيل الدوسي مع رفاقه إلى النبي صلى الله عليه وسلم وقال أن قبيلة دوس رفضت قبول دعوة الإسلام، فادع عليهم يا رسول الله، لكن رحمة العالم صلى الله عليه وسلم دعا لهم قائلاً: اللهم اهد دوساً وآت بهم "، فاستجاب الله لدعائه، وأسلمت القبيلة، وجاءوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ([3]).

الدعاء برفع السفور:

جاءت امرأة حبشية إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم قَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ. وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ. فَادْعُ اللّهَ لِي. قَالَ «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ. وَإِنْ شِـــئْتِ دَعَـــوْتُ اللّـــهَ أَنْ يُعَافِيَكِ». قَالَتْ: أَصْبِرُ. قَالَتْ: فَإِنِّي أَتَكَشَّفُ. فَادْعُ اللّهَ أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا. ([4]).

---

[1] – صحيح مسلم – فضائل جرير بن عبد الله. وهذا نص الحديث: (٦٣١٧) ـــ وحدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا وَكِيعٌ وَ أَبُو أُسَامَةَ عَنْ إِسْمَاعِيلَ. ح وَحَدَّثَنَا ابْنُ نُمَيْرٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ اللّهِ بْـــنُ إِدْرِيـــسَ. حَـــدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ عَنْ قَيْسٍ عَنْ جَرِيرٍ، قَالَ: مَا حَجَبَنِي رَسُولُ اللّهِ مُنْذُ أَسْلَمْتُ. وَلاَ رَآنِي إِلاَّ تَبَسَّمَ فِي وَجْهِي. زَادَ ابْنُ نُمَيْرٍ فِي حَدِيثِهِ عَنِ ابْنِ إِدْرِيسَ: وَلَقَدْ شَكَوْتُ إِلَيْهِ أَنِّي لاَ أَثْبُتُ عَلَىٰ الْخَيْلِ. فَضَرَبَ بِيَدِهِ فِي صَـــدْرِي وَقَالَ: «اللّهُمَّ ثَبِّتْهُ. وَاجْعَلْهُ هَادِياً مَهْدِيًّا». (يوسف عامر).

[2] – صحيح مسلم – باب آداب الطعام والشراب وأحكامها.

[3] – صحيح البخاري – قصة دوس – (كتاب الجهاد) – ومسلم – فضائل غفار وإسلام دوس وغيرها.

[4] ــ صحيح مسلم ـــ باب ثواب المسلم فيما يصيبه من المرض (كتاب البر والصـــلة). وهـــذا نـــص الحديث: (٦٥٢٣) ـــ حدثنا عُبَيْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ. حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَ بِشْرُ بْنُ الْمُفَضَّـــلِ. قَالاَ: حَدَّثَنَا عِمْرَانُ أَبُو بَكْرٍ. حَدَّثَنِي عَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ. قَالَ: قَالَ لِي ابْنُ عَبَّاسٍ،: أَلاَ أُرِيكَ امْرَأَةً مِـــنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ؟ قُلْتُ: بَلَىٰ. قَالَ: هٰذِهِ الْمَرْأَةُ السَّوْدَاءُ. أَتَتِ النَّبِيَّ قَالَتْ: إِنِّي أُصْرَعُ. وَإِنِّي أَتَكَشَّفُ. فَادْعُ اللّـــهَ

تخريب سلطنة كسري:

لقد قرأت أنه حين أرسل رسول الله صلي الله عليه وسلم رسالة إلي كسري يدعوه إلي الإسلام مزّق كسري الرسالة وألقي بها، فلما علم رسوله الله صلي الله عليه وسلم بما حدث دعا عليه قائلاً مزّق الله ملكه([1])، وهكذا مزّق الله ملكه إرباً في عهد سيدنا عمر رضي الله عنه.

أثر الدعاء بالبركة:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يسيّر الجيش دائماً في الصباح الباكر، ويدعو الله للأمة جميعاً بأن يبارك الله تعالى لأمة محمد ﷺ في تبكيرها، وسار أحد الصحابة الذي كان يعمل بالتجارة علي هذا النهج، وكان يرسل بضاعته للتجارة في الصباح الباكر عموماً، وهكذا أظهرت بركة دعائه صلي الله عليه وسلم بأن أصبح الرجل غنياً إلي درجة لم يجد معها مكاناً يستوعب ثروته([2])

الدعاء بطول العمر:

كانت أم قيس صحابية مات ولدها فحزنت عليه كثيراً حتى قالت لمن يُغسله لا تغسل ابني بالماء البارد وإلا فإنه سيموت، وعلم رسول الله صلي الله عليه وسلم بالأمر فابتسم ودعا لها بطول العمر، وهكذا عاشت أكثر من النسوة غيرها.

الدعاء بالهداية لطفل:

دخل رافع بن سنان في الإسلام، لكن زوجته فضت هذه السعادة الأبدية، وفي حجرها طفلة منه. فحدث نزاع بينهما بسبب اختلاف الدين، فرفع الأمر إلي الحضرة النبوية، فأجلس رسول الله صلي الله عليه وسلم كليهما بعيداً عن الآخر، وقال: أُدْعُواهَا، فنادي الاثنان عليهما معاً فتقدمت الابنة من الأم، فلما رأي رسول الله صلي الله عليه وسلم

لي. قَالَ «إِنْ شِئْتِ صَبَرْتِ وَلَكِ الْجَنَّةُ. وَإِنْ شِئْتِ دَعَوْتُ اللّهَ أَنْ يُعَافِيَكِ». قَالَتْ: أَصْبِرُ. قَالَتْ: فَإِنِّي أَتَكَشَّفُ. فَادْعُ اللّهَ أَنْ لاَ أَتَكَشَّفَ، فَدَعَا لَهَا. (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري ـــ كتاب الجهاد.

[2] ــ أبو داود والترمذي وابن ماجة ــ ص١٦٣ ـــ باب ما يرجي من البركة في السحور، ومسند أحمد ج٣ ــ ص٤٣٠ عن صخر الغافدي.

هذا دعا الله قائلاً: اللَّهُمَّ اهدِهَا، وكان من أثر هذا الدعاء أن اتجه وجه الابنة مباشرة إلي الأب، وهذه رواية أبي داود ([1]).

وقد كتب ابن سعد واقعة كهذه منسوبة إلي الصحابي أبي سلمة أنه كان طفلاً، وكان أحد جديه لأبيه وأمه كافراً وكان الآخر مسلماً، وادعي كل منهما أحقيته في تربية الطفل وحضانته، وقد جعل رسول الله صلي الله عليه وسلم قرار هذا الأمر علي الطفل نفسه، وفي البداية اتجه الطفل إلي جده الكافر، فقال صلي الله عليه وسلم: اللهم اهده فاتجه الطفل فوراً إلي جده المسلم، وجاء الحكم في حقه ([2])

---

[1] ـ أبو داود ـــ ص٢٢٢ ـــ كتاب الطلاق ـــ باب إذا أسلم الأبوان مع من يكون الولد. وهذا نص الحديث: (٢٢٤٥) ـــ حدثنا إبراهيمُ بنُ مُوسَى الرَّازِيُّ أنبأنا عِيسَى حدثنا عَبْدُالْحَمِيدِ بنُ جَعْفَرٍ أخبرني أبِي عن جَدّي رَافِعِ بنِ سِنانٍ، أنّهُ أَسْلَمَ وَأَبَتْ امْرَأَتُهُ أنْ تُسْلِمَ، فَأَتَت النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم فَقَالَتْ: «ابْنَتِي وَهِيَ فَطِيمٌ أوْ شَبَهُهُ»، وَقَال رَافِعٌ ابْنَتِي، فقال لَهُ النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: أُقْعُدْ نَاحِيَةً، وَقَال لَهَا أُقْعُدِي نَاحِيَةً، وَأَقْعَدَ الصَّبِيَّةَ بَيْنَهُمَا، ثُمَّ قال: أُدْعُوَاهَا فَمَالَتْ الصَّبِيَّةُ إلى أُمِّهَا، فقال النَّبيُّ صلى الله عليه وسلم: اللَّهُمَّ اهْدِهَا، فَمَالَت الصَّبِيَّةُ إلى أبِيهَا، فأَخَذَهَا». (يوسف عامر).

[2] ـ ابن ماجة ـــ باب تخيير الصبي بين أبويه. وهذا نص الحديث: (٢٤١٩) ـــ حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ عُلَيَّةَ، عَنْ عُثْمَانَ الْبَتِّيِّ، عَنْ عَبْدِ الْحَمِيدِ بْنِ سَلَمَةَ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ جَدِّهِ، أَنَّ أَبَوَيْهِ اخْتَصَمَا إِلَى النَّبِيِّ. أَحَدُهُمَا كَافِرٌ وَالآخَرُ مُسْلِمٌ. فَخَيَّرَهُ فَتَوَجَّهَ إِلَى الْكَافِرِ. فَقَالَ: «اللَّهُمَّ اهْدِهِ» فَتَوَجَّهَ إِلَى الْمُسْلِمِ. فَقَضَى لَهُ بِهِ. (يوسف عامر).

الزيادة في الأشياء

لقد قرأت في أجزاء الكتاب المختلفة عن حالة الفقر التي عاشها المسلمون في بداية حياتهم، فقد كانت تمضي عليهم أيام عدة لا يأكلون فيها شيئاً، تري ماذا يكون حالهم لو لم تستضعفهم البركة الإلهية في هذا الوضع؟! جاء في الإنجيل أن سيدنا عيسي عليه السلام أشبع عدة مئات من الناس بخبز وسمك قليل، وكانت هذه تعد معجزة كبرى له، في حين أن مثل الواقعة من البركة حدثت من يد النبي صلي الله عليه وسلم المباركة ومن فيضه الروحاني عدة مرات وليس مرة واحدة.

إشباع سبعين رجلاً بطعام قليل:

ذات يوم شعر سيدنا أبو طلحة رضي الله عنه من صوت النبي صلي الله عليه وسلم الضعيف بسبب شدة الجوع، فذهب إلي بيته وقال للسيدة أم سليم: لقد علمت من صوت النبي صلي الله عليه وسلم الضعيف أنه جوعان، فهل لديك شيئاً يؤكل ؟ فوضعت السيدة أم سليم عدة أرغفة من الشعير في ظرحتها وأرسلتها مع سيدنا أنس رضي الله عنه إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فلما جاء سيدنا أنس إلي النبي صلي الله عليه وسلم وجده يجلس في المسجد، فوقف سيدنا أنس أمامه صلي الله عليه وسلم، فسأله النبي: آرسلَك أبو طلحة؟ فقال أنس نعم، فنهض النبي صلي الله عليه وسلم مع الصحابة جميعاً وذهب إلي بيت طلحة رضي الله عنه، فأبلغه سيدنا أنس بالأمر فقال أبو طلحة لزوجته أن النبي صلي الله عليه وسلم حضر إلي بيتنا مع جماعة من أصحابه، وليس لدينا ما نقدمه لهم من الطعام، فدخل النبي صلي الله عليه وسلم مع أبي طلحة وقال للسيدة أم سليم: هَلُمي يا أُمَّ سُلَيمٍ ما عندَكِ، فقدمت له تلك الأرغفة التي كانت قد أرسلتها مع سيدنا أنس فأمرها النبي صلي الله عليه وسلم أن تكسر هذه الأرغفة وتضعها في إناء للسمن كانت تطبخ فيه، وطرح الله في هذه الأرغفة من البركة ما كان الرسول صلي الله عليه وسلم يدعو

الصحابة عشرة بعد عشرة ليدخلون ويأكلون حتى يشبعون ويعودون حتى اكتمل عدد من أكلوا سبعين رجلاً ([1])

الزيادة في كومة التمر:

توفي والد سيدنا جابر رضي الله عنه وعليه قرض لليهود، فلما حضر الدائنون للمطالبة بالدين ذهب سيدنا جابر رضي الله عنه إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقال: يا رسول الله، لقد مات والدي وترك لي ديناً، وليس عندي ما أسدد به هذا القرض سوي البلح، ولا يمكن أداء هذا القرض من محصول البلح فقط لعدة سنوات، فأرجو أن تذهب معي إلي حيث النخيل حتى لا يقسو عليّ الدائنون خجلاً من أدبك، فذهب معه رسول الله صلي الله عليه وسلم، وهناك طاف حول كومة البلح التي كانت هناك ودعا الله ثم جلس عليها وقال: انزعوه، فطرح الله البركة في هذا البلح بتأثير دعائه صلي الله عليه وسلم حتى تم سداد القرض كله وبقي من البلح مثل ما أعطي للدائنين([2]).

---

[1] ــ صحيح البخاري ــــ علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٥٠٢) ــــ حدّثنا عبدُ الله بنُ يوسفَ أخبرنا مالكٌ عن إسحقَ بنِ عبدِ الله بن أبي طلحةَ أنهُ سمع أنسَ بن مالكٍ يقول: «قال أبو طلحة لأمّ سُليم: لقد سمعتُ صوتَ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرِف فيه الجوعَ، فهل عندكِ من شيء ؟ قالت: نعم. فأخرجتْ أقراصاً من شعيرٍ، ثمّ أخرجت خِماراً لها فلفّتِ الخُبزَ ببعضه، ثم دسّتْهُ تحت يدي ولاثتْني ببعضهِ ثم أرسلَتْني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فذهبتُ به فوجدتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم في المسجد ومعهُ الناسُ، فقمتُ عليهم، فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: آرسلَك أبو طلحة ؟ فقلتُ:نعم. قال: بطعام ؟ قلتُ: نعم. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لمن معهُ: قوموا. فانطلق وانطلقتُ بين أيديهم حتىٰ جئتُ أبا طلحةَ فأخبرتهُ، فقال أبو طلحةَ: يا أُمّ سُلَيمٍ قد جاءَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالناسِ، وليسَ عندَنا ما نُطعمهُم. فقالت: اللهُ ورسولهُ أعلم. فانطلقَ أبو طلحةَ حتى لقيَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فأقبلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأبو طلحةَ معَهُ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: هَلُمي يا أُمّ سُلَيمٍ ما عندكِ، فأتَتْ بذلكَ الخبزِ،فأمرَ بهِ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ففُتَّ، وعَصَرَتْ أمُّ سُلَيمٍ عُكّةً فأدَمَتْهُ، ثم قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيه ما شاءَ الله أن يقولَ. ثم قال: ائذَنْ لعَشَرةٍ، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثمّ قال: ائذَنْ لعشَرةٍ، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذَنْ لعشَرةٍ، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: ائذَنْ لعشرةٍ، فأكل القومُ كلُّهم حتى شبعوا، والقومُ سبعونَ أو ثمانونَ رجُلاً». (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح البخاري ــــ علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٥٠٤) ــــ حدثنا أبو نُعَيمٍ حدّثنا زكريّاءُ قال: حدثّني عامرٌ قال: حدثّني جابرٌ رضيَ اللهُ عنه: «أنّ أباهُ تُوفّي وعليهِ دَينٌ، فأتيتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فقلتُ: إنّ أبي تَركَ عليه ديناً، وليس عندي إلاّ ما يُخرجُ نَخلهُ ولا يَبْلُغ ما يخرج

بركة محيّرة في الطعام:

ولأن أصحاب الصفة كانوا في غاية الاحتياج، ولم يكونوا يملكون شيئاً يتعيشون منه، ولهذا أمر رسول الله صلي الله عليه وسلم ذات مرة أصحابه بأن من كان عنده طعام لشخصين فليعط لأصحاب الصفة منها طعام شخص، ومن كان لديه طعام أربعة فليعط طعام اثنين منها لأهل الصفة، وبناء علي هذا فقد جاء في حصة النبي صلي الله عليه وسلم طعام عشرة، وفي حصة سيدنا أبي بكر ثلاثة، وقد جاء هؤلاء الناس إلي بيت سيدنا أبي بكر رضي الله عنه، لكن سيدنا أبا بكر تناول الطعام عند النبي صلي الله عليه وسلم، وصلي معه صلاة العشاء، وكان قد مضي من الليل وقت، فعاد إلي البيت متأخراً، فقال له زوجته أم رومان أين ذهبت وتركت الضيوف ؟ فقال ألم تطعميهم ؟ قالت: رفض هؤلاء الطعام بدونك، فغضب سيدنا أبو بكر رضي الله عنه بشدة، وأخذ يقدم الطعام إلي أولئك الناس وكانت كل لقمة يتناولونها يزاد مكانها حتى شبع الناس، وبقي من الطعام أكثر مما كان قبل أن يأكل الناس.

فلما رأي سيدنا أبو بكر هذه البركة نظر إلي أم رومان بفرح وسرور، ورغم أنه كان قد أقسم في غضبه أن لا يأكل الطعام، ولكنه خلافاً للقسم أكل لقمة، وأرسل الطعام كله إلي بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم، وبقي هذا الطعام في بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم حتى الصباح، وفي اليوم التالي جاء اثنا عشر رجلاً إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، ومع كل واحد منهم عدً من الرجال يعلم الله كم كانوا، فأرسل رسول الله صلي الله عليه وسلم ذلك الطعام إليهم، فأكلوا حتى شبعوا ([1])

سنينَ ما عليه، فانطلقْ معي لكَيْ لا يَفحِشَ عليَّ الغُرماء. فمشى حولَ بيدرٍ من بَيادِرِ التمرِ فدَعا،ثمَّ آخَرَ، ثمَّ جلسَ عليه فقال: انزِعوهُ، فأوفاهم الذي لهم، وبَقيَ مثلُ ما أعطاهم». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري ـــ علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٥٠٥) ـــ حدثنا مُوسى بنُ إسماعيلَ حدَّثنا مُعتمِرٌ عن أبيهِ حدَّثنا أبو عثمانَ أنهُ حدَّثهُ عبدُ الرحمنِ بن أبي بكرٍ رضيَ اللهُ عنهما: «أنَّ أصحابَ الصُّفَّةِ كانوا أُناساً فُقَراءَ، وأنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال مرَّةً: «مَن كان عندهُ طعامُ اثنين فليَذهبْ بثالث، ومن كان عندهُ طعامُ أربعةٍ فلْيَذهب بخامسٍ أو سادس». أو كما قال. وإن أبا بكرٍ جاء بثلاثة، وانطلَقَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بعشرة، وأبو بكرٍ ثلاثة، قال: فهو أنا وأبي وأمي، ولا أدري هل قال امرأتي وخادمي بينَ بيتنا وبين بيت أبي بكر، وأنَّ أبا بكرٍ تعشَّى عند النبيِّ صلى الله عليه وسلم ثمَّ لبثَ حتى صلَّى العشاءَ ثمَّ رَجعَ فلبثَ حتى تعشَّى رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم فجاءَ بعدَ ما مضى منَ الليلِ ما شاء الله. قالت له امرأتُهُ ما حبَسكَ عن أضيافِك ـــ أو ضيفِك ـــ ؟ قال: أوَ عشيتِهم ؟ قالت: أبوا حتى

البركة في كمية السمن:

اعتادت أم مالك رضي الله عنها أن ترسل إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم إناء به سمن هدية له صلي الله عليه وسلم، وحين كان أولادها يطلبون الطعام ولا يكون في البيت شيء، كانت تأتي بذلك الإناء الذي ترسل فيه السمن إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وتخرج ما فيه من بقايا السمن، وذات يوم أخرجت ما بقي في الإناء من السمن تماماً، ثم ذهبت إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فقال صلي الله عليه وسلم: «لَوْ تَرَكْتِيهَا مَا زَالَ قَائِماً». ([1]).

البركة في كمية الشعير:

ذات مرة طلب رجل بعض الحبوب من رسول الله صلي الله عليه وسلم فأعطاه رسول الله بعضاً من الشعير، وطرح الله فيه البركة حتى أن الرجل كان يأخذ منه يومياً لنفسه ولزوجه ولضيوفه، ولا ينقص منه شيئاً، وذات يوم وزن الرجل الحبوب، ثم ذهب إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فقال صلي الله عليه وسله: «لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ، وَلَقَامَ لَكُمْ». ([2])

تجيءَ، قد عرَضوا عليهم فغلبوهم. قال: فذهبت فاختبأت. فقال: ياغُنْثَر ـــ فجَدَّعَ وسبَّ ـــ وقال: كلوا. قال: لا أطعمُهُ أبداً. قال: وايمُ اللهِ ما كنّا نأخذ منَ اللُّقمةِ إلاّ رَبا مِن أسفلها أكثرُ منها، حتى شَبِعوا وصَارتْ أكثرَ مما كانت قبلُ. فنظر أبو بَكرٍ فإذا شيءٌ أو أكثرُ، فقال لامرأته: ياأُختَ بني فراس، قالت: لا وقُرَّةِ عيني، لهيَ الآن أكثر مما قبلُ بثلاث مرارٍ. فأكلَ منها أبو بكر وقال: إنما كان الشيطانُ ـــ يعني يمينه ـــ ثم أكل منها لقمةً، ثم حملها إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فأصبحت عنده. وكان بينَنا وبينَ قومٍ عهدٌ، فمضى الأجلُ ففرّقنا اثنا عشرَ رجُلاً معَ كل رجل منهم أناسٌ الله أعلم كم معَ كلِّ رجلٍ، غيرَ أنه بَعثَ معهم، قال: أكلوا منها أجمعون، أو كما قال.

وغيرُهُ يقول: «فعرفنا» مِنَ العرافة. (يوسف عامر).

[1] ـــ صحيح مسلم ـــ باب معجزات النبي، وهذا نص الحديث: (٥٨٩٨) ـــ وحدثني سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ. حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَعْيَنَ. حَدَّثَنَا مَعْقِلٌ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ أُمَّ مَالِكٍ كَانَتْ تُهْدِي لِلنَّبِيِّ فِي عُكَّةٍ لَهَا سَمْناً. فَيَأْتِيهَا بَنُوهَا فَيَسْأَلُونَ الأُدْمَ. وَلَيْسَ عِنْدَهُمْ شَيْءٌ. فَتَعْمِدُ إِلَىٰ الَّذِي كَانَتْ تُهْدِي فِيهِ لِلنَّبِيِّ. فَتَجِدُ فِيهِ سَمْناً. فَمَا زَالَ يُقِيمُ لَهَا أُدْمَ بَيْتِهَا حَتَّىٰ عَصَرَتْهُ. فَأَتَتِ النَّبِيَّ فَقَالَ: «عَصَرْتِيهَا؟» قَالَتْ: نَعَمْ. قَالَ: «لَوْ تَرَكْتِيهَا مَا زَالَ قَائِماً». (يوسف عامر).ومسند أحمد عن جابر رضي الله عنه.

[2] ـــ المرجع السابق. وهذا نص الحديث: (٥٨٩٩) ـــ وحدثني سَلَمَةُ بْنُ شَبِيبٍ حَدَّثَنَا الْحَسَنُ بْنُ أَعْيَنَ. حَدَّثَنَا مَعْقِلٌ عَنْ أَبِي الزُّبَيْرِ عَنْ جَابِرٍ، أَنَّ رَجُلاً أَتَىٰ النَّبِيَّ يَسْتَطْعِمُهُ. فَأَطْعَمَهُ شَطْرَ وَسْقِ شَعِيرٍ. فَمَا زَالَ

زيادة محيرة في الطعام:

كان المهاجرون والأنصار جميعاً يحفرون الخندق في غزوة الأحزاب، فرأي سيدنا جابر رضي الله عنه رسول الله صلي الله عليه وسلم في غاية الجوع، فذهب إلي زوجته وسألها ألديك طعام ؟ فأخرجت صاعاً من الشعير، وكانت في البيت شاة، فذبحها سيدنا جابر، وعجنت زوجته الدقيق، ووضعت إناء اللحم علي النار، وذهب سيدنا جابر لإحضار رسول الله صلي الله عليه وسلم، فقالت زوجته انظر، لا تحضر آخرين مع رسول الله صلي الله عليه وسلم فتفضحني. وجاء سيدنا جابر إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وهمس في أذنه أننا جهزنا الطعام، تفضل عندنا مع بعض أصحابك، لكن النبي صلي الله عليه وسلم نادي علي كل أهل الخندق: "يا أهلَ الخندقِ، إن جابراً قد صَنَع سُوراً، فحيَّ هلا بكم"، وقال لسيدنا جابر: "لا تُنزِلُنَّ برمتكم، ولا تخبزُنَّ عجينكم حتى أجيءَ." وأخذ رسول الله صلي الله عليه وسلم الناس جميعاً، وذهب إلي بيت جابر، فلما حضر جابر إلي البيت أخذت زوجته تؤنبه، فقال: ماذا أفعل، لقد فعلت كما قلت لي، وعندما وصل رسول الله صلي الله عليه وسلم قدمت الزوجة أمامه العجين، فوضع فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم لعاب فمه، ودعا بالبركة فيه، ووضع لعاب فمه في الإناء أيضاً ودعا بالبركة، ثم أمر بخبز الخبز وإنزال إناء اللحم، فأكل من هذا الطعام ما لا يقل عن ألف شخص كانوا موجودين عندئذٍ ثم عادوا، ولم ينقص اللحم أو الخبز شيئاً ([1])

الرَجُلَ يَأْكُلُ مِنْهُ وَامرأَتُهُ وَضَيْفُهُمَا. حَتَّىٰ كَالَهُ. فَأَتَىٰ النَّبِيَّ فَقَالَ: «لَوْ لَمْ تَكِلْهُ لأَكَلْتُمْ مِنْهُ، وَلَقَامَ لَكُمْ». (يوسف عاشر).

[1] ــ البخاري، ج٢، ص٥٨٩، ذكر غزوة الخندق. وهذا نص الحديث: (٤٠١٣) حدَّثني عمرَو بن عليٍّ حدَّثنا أبو عاصم أخبرَنا حنظلةُ بن أبي سفيانَ أخبرنا سعيدُ بن ميناء قال: سمعتُ جابرَ بن عبدِاللّه رضي الله عنهما قال: لما حُفِرَ الخندقُ رأيت بالنبيِّ صلى الله عليه وسلم خَمَصاً شديداً، فانكفَأْتُ إلى امرأتي فقلتُ: هل عندكِ شيء؟ فإني رأيت برسول اللّهِ صلى الله عليه وسلم خَمصاً شديداً. فأخرجَتْ إليَّ جِراباً فيه صاعٌ من شَعير، ولنا بُهيمةٌ داجن فذبحتُها، وطحنَتِ الشعيرَ، ففرَغَتْ إلى فَراغي، وقطعتُها في بُرمَتِها. ثم وليتُ إلى رسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم. فقالت: لا تفضحني برسولِ اللّه صلى الله عليه وسلم وبمن معهُ. فجئتُهُ فسارَرْتُهُ فقلت: يا رسولَ اللّهِ ذبحنا بُهيْمة لنا وطَحنّا صاعاً من شَعير كان عندَنا، فتعالَ أنت ونفر معك، فصاحَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: يا أهلَ الخندقِ، إن جابراً قد صَنَع سُوراً، فحيَّ هلا بكم فقال رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم: لا تُنزِلُنَّ برمتكم، ولا تخبزُنَّ عجينكم حتى أجيءَ. فجئتُ وجاء رسولُ اللّه صلى الله عليه وسلم يَقدُمُ الناسَ، حتى جئتُ امرأتي فقالت: بكَ وبك. فقلت: قد فعلتُ

بركة غير عادية في قليل من زاد الطريق:

كان الصحابة الكرام رضي الله عنهم يعانون من الجوع الشديد في غزوة تبوك إلي درجة أن النبي صلي الله عليه وسلم أذن لهم بذبح مضايا هم، فلما علم عمر رضي الله عنه بذلك جاء إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقال لو فعلنا هذا لنقصت مطايانا، فطلب رسول الله صلي الله عليه وسلم ما تبقي من زاد الطريق لدي الجميع، ودعا الله بالبركة فيه لعلّ الله يجعل فيه خيرهم، وفرش رسول الله صلي الله عليه وسلم أمامه رداءاً وجمع عليه ما تبقي من زاد الطريق لدي الجيش ودعا الله بالبركة فيه، ثم أمر للناس جميعاً أن يملئوا آنيتهم منه، فملأ الناس آنيتهم منه، وأكلوا حتى شبعوا، وبقي بعد ذلك من الطعام ([1])

بركة عظيمة في قليل من زاد الطريق:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم في سفر، وأصاب الصحابة جوع شديد حتى أنهم أرادوا ذبح نياقهم، لكن رسول الله صلي الله عليه وسلم أمر بجمع ما معهم من زاد الطريق، وفرش رداءاً وضع فوقه زاد الطريق، فشغل هذا كله من الأرض حيزاً بمقدار

الذي قلتِ. فأخرجت له عجيناً، فبصقَ فيه وبارك، ثم عمدَ إلى بُرمَتنا فبصق وبارك. ثم قال: ادعُ خابزةً فلتخبزْ معي. واقدَحي من برمتكم ولا تنزلوها، وهم ألف، فأقسم باللّهِ لقد أكلوا حتى تركــوهُ وانحرفــوا، وإن برمَتَنا لتغطُّ كما هي، وإن عَجينَنا ليُخبَزُ كما هو». (يوسف عامر).

[1] ـ صحيح مسلم، ج١، ص ٣٢، مصر، كتاب الإيمان. وهذا نص الحديث كما ورد في باب من لقــي الله تعالى بالإيمان غير شاك فيه دخل الجنة: (١٠٣) حدثنا سَهلُ بْنُ عُثْمَانَ وَ أَبُو كُرَيْبٍ مُحمَّدُ بْنُ الْعَلاء جَمِيعا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ. قَالَ أَبُو كُرَيْبٍ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ شَكَّ الأَعْمَشُ قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ، أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّــهِ! لَــوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا، فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «افعَلُوا» قَالَ فَجَاءَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ. وَلَكِنِ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ. ثُمَّ ادْعُ الله لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ. لَعَلَّ الله أَنْ يَجْعَلَ فِــي ذَلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «نَعَمْ» قَالَ فَدَعَا بِنِطَعٍ فَبَسَطَهُ. ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ. قَالَ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِــيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ. قَالَ وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ. قَالَ وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكِسْرَةٍ. حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطَعِ مِــنْ ذَلِــكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ. قَالَ فَدَعَا رَسُولُ اللّهِ عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ. ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ» قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَــتِهِمْ. حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلاَّ مَلأُوهُ، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَفَضَلَتْ فَضْلَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللّــهِ: «أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ الله، وَأَنِّي رَسُولُ اللّهِ، لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ، غَيْرَ شَاكٍ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ».(يوسف عامر).

ما تجلس شاة، وكان عدد المرافقين لرسول الله صلي الله عليه وسلم ألفاً وأربعمائة شخص، ومع ذلك فقد أكل هؤلاء حتى شبعوا، وملئوا ما معهم من آنية السفر، وبعد الطعام طلب رسول الله ماءً، فجاء شخص بقليل من الماء في إناء، فصبّه النبي صلي الله عليه وسلم في كوب، وتوضأ منه ألف وأربعمائة شخص ([1]).

البركة في شاة ونصف كيلو من الدقيق:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم في سفر، وكانت معه جماعة من مائة وثلاثين شخصاً، فسألهم رسول الله صلي الله عليه وسلم عمّ لديهم مما يأكلونه. فجاء رجل منهم بصاع من الدقيق وعجنه، ثم جاء رجل كافر يرعي الغنم فاشتري منه رسول الله صلي الله عليه وسلم شاة، وأمر بِشَيِّ من كبدها بعد ذبحها، وقسّمه علي الجميع، ولما نضج اللحم ملأ به إناءين وأكل الجميع حتى شبعوا وبقي منه. ([2])

بركة غير عادية في قليل من الطعام:

أعدّت السيدة أم سليم رضي الله عنها والدة سيدنا أنس رضي الله عنه طعاماً ذات مرة، وأرسلت سيدنا أنس ليدعو الرسول صلى الله عليه وسلم على الطعام، فسأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عمّ إذا كانوا دعوا صحابته ﷺ أم لا ؟ فعاد سيدنا أنس إلي البيت واستفسر ثم عاد وقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إنه طعام قليل أعدّته أم سليم، فجاء

---

[1] ـ مسلم، ج٢، ص٦١ ـ مصر،باب خلط الزواد إذا نلت.وهذا نص الحديث: (١٠٣) ـــ حدّثنا سَهلُ بْنُ عُثْمَانَ وَ أَبُو كُرَيْبٍ مُحمَّدُ بْنُ الْعَلاءِ جَمِيعا عَنْ أَبِي مُعَاوِيَةَ. قَالَ أَبُو كُرَيْبٍ: حَدَّثَنَا أَبُو مُعَاوِيَةَ عَنِ الأَعْمَشِ عَنْ أَبِي صَالِحٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَوْ عَنْ أَبِي سَعِيدٍ شَكَّ الأَعْمَشُ قَالَ: لَمَّا كَانَ غَزْوَةُ تَبُوكَ، أَصَابَ النَّاسَ مَجَاعَةٌ. قَالُوا: يَا رَسُولَ اللّهِ! لَوْ أَذِنْتَ لَنَا فَنَحَرْنَا نَوَاضِحَنَا، فَأَكَلْنَا وَادَّهَنَّا. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «افْعَلُوا» قَالَ فَجَاءَ عُمَرُ، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللّهِ إِنْ فَعَلْتَ قَلَّ الظَّهْرُ. وَلٰكِنِ ادْعُهُمْ بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ. ثُمَّ ادْعُ الله لَهُمْ عَلَيْهَا بِالْبَرَكَةِ. لَعَلَّ الله أَنْ يَجْعَلَ فِي ذٰلِكَ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «نَعَمْ» قَالَ فَدَعَا بِنِطَعٍ فَبَسَطَهُ. ثُمَّ دَعَا بِفَضْلِ أَزْوَادِهِمْ. قَالَ فَجَعَلَ الرَّجُلُ يَجِيءُ بِكَفِّ ذُرَةٍ. قَالَ وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكَفِّ تَمْرٍ. قَالَ وَيَجِيءُ الآخَرُ بِكِسْرَةٍ. حَتَّى اجْتَمَعَ عَلَى النِّطَعِ مِنْ ذٰلِكَ شَيْءٌ يَسِيرٌ. قَالَ فَدَعَا رَسُولُ اللّهِ عَلَيْهِ بِالْبَرَكَةِ. ثُمَّ قَالَ: «خُذُوا فِي أَوْعِيَتِكُمْ» قَالَ: فَأَخَذُوا فِي أَوْعِيَتِهِمْ. حَتَّى مَا تَرَكُوا فِي الْعَسْكَرِ وِعَاءً إِلاَّ مَلأُوهُ، قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا، وَفَضِلَتْ فَضْلَةٌ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «أَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلٰهَ إِلاَّ الله، وَأَنِّي رَسُولُ اللّهِ، لاَ يَلْقَى الله بِهِمَا عَبْدٌ، غَيْرَ شَاكٍّ، فَيُحْجَبَ عَنِ الْجَنَّةِ». (يوسف عامر).

[2] ـ البخاري ج٢، ص٢١١، كتاب الأطعمة.

رسولَ الله صلى الله عليه وسلم وقدّم له الطعام فقال ﷺ: "ائذَنْ لعشَرةٍ ". وهكذا حتى أكل أربعون رجل حتى شبعوا ولم ينقص من الطعام شيء. ([1])

بركة كثيرة في مقدار قليل:

عندما تزوج النبي صلى الله عليه وسلم من السيدة زينب رضي الله عنها أعدت السيدة أم سليم والدة سيدنا أنس رضي الله عنهما بعضاً من طعام (حيس)، ووضعته في طشت، ثم أرسلته مع سيدنا أنس إلي رسول الله، ولما ذهب سيدنا أنس بالطعام دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم كثيرين من أصحابه، فاجتمع عنده ما يقرب من ثلاثمائة رجل، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يجلسوا عشرة في شكل حلقات ويأكلون من أمامه فأكل الناس جميعاً حتى شبعوا، وطرح الله فيه البركة حتى يقول سيدنا أنس رضي الله عنه لم أعرف أكان الطعام أكثر عندما أتيت به، أم عندما وضع أمام الناس ليأكلوه.([2])

---

[1] ــ البخاري ــ جــ ٢ ــ ص ٨١٩ــ كتاب الأطعمة. وهذا نص الحديث: حدّثنا عبدُ الله بــنُ يوســفَ أخبرنا مالكٌ عن إسحقَ بنِ عبدِ الله بن أبي طلحةَ أنهُ سمع أنسَ بن مالكٍ يقول: «قال أبو طلحة لأمِّ سُليم: لقد سمعتُ صوتَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً أعرِف فيه الجوعَ، فهل عندكِ مــن شــيء ؟ قالت: نعم. فأخرجتْ أقراصاً مِن شعيرٍ، ثمّ أخرجت خِماراً لها فلفّتِ الخُبزَ ببعضه، ثم دسّتْهُ تحت يــدي ولاثتني ببعضهِ ثم أرسلَتْني إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فذهبتُ به فوجدتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم في المسجد ومعهُ الناسُ، فقمتُ عليهم، فقال لي رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: آرســلَكَ أبو طلحة ؟ فقلتُ:نعم. قال: بطعام ؟ قلتُ: نعم. فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم لمن معهُ: قومــوا. فانطلق وانطلقتُ بين أيديهم حتىٰ جئتُ أبا طلحةَ فأخبرتهُ، فقال أبو طلحةَ: يا أمَّ سُلَيمٍ قد جاءَ رســولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم بالناسِ، وليسَ عندَنا ما نُطعمهُم. فقالت: اللهُ ورسولهُ أعلم. فانطلقَ أبو طلحةَ حتــى لقيَ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم، فأقبلَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم وأبو طلحةَ معَهُ، فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: هلُمي يا أمُّ سُلَيمٍ ما عندكِ، فأتَتْ بذلكَ الخبزِ،فأمرَ بهِ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم ففُتَّ، وعَصَرَتْ أمُّ سُلَيمٍ عُكّةً فأدَمَتْهُ، ثم قال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم فيه مــا شــاءَ الله أن يقولَ. ثم قال: ائذَنْ لعَشَرةٍ، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثمَّ قال: ائذَنْ لعشَرةٍ، فــأذِنَ لهــم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا، ثم قال: ائذَنْ لعشَرةٍ، فأذِنَ لهم، فأكلوا حتى شبعوا ثم خرجوا. ثم قال: ائذَنْ لعشرةٍ، فأكل القومُ كلهم حتى شبعوا، والقومُ سبعونَ أو ثمانونَ رجُلاً». (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح مسلم ــ جــ ١ ــ ص ٥٥٠ ــ مصر ــ كتاب النكاح. وهذا نص الحديث: (٣٤٦١) حدّثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ: حَدَّثَنَا جَعْفَرٌ (يَعْنِي ابْنَ سُلَيْمَانَ)، عَنِ الْجَعْدِ أَبِي عُثْمَانَ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. قَــالَ: تَــزَوَّجَ رَسُولُ اللَّهِ فَدَخَلَ بِأَهْلِهِ. قَالَ: فَصَنَعَتْ أُمِّي أُمُّ سُلَيْمٍ حَيْسًا فَجَعَلَتْهُ فِي تَوْرٍ. فَقَالَتْ: يَا أَنَسُ اذْهَبْ بِهَــذَا إِلَى رَسُولِ اللَّهِ. فَقُلْ بَعَثَتْ بِهَــذَا إِلَيْكَ أُمِّي، وَهِيَ تُقْرِئُكَ السَّلاَمَ. وَتَقُولُ: إِنَّ هَــذَا لَكَ مِنَّا قَلِيلٌ، يَا رَسُولَ

بركة محيّرة في إناء صغير:

يقول سمرة بن جندب رضي الله عنه كنا نأكل عند رسول الله صلى الله عليه وسلم عشرة من الصباح إلي المساء من إناء صغير، فسأل الناس كيف يزيد الطعام إلي هذا الطعام إلي هذا الحدّ ؟ فأشار إلي السماء قائلاً: من " هناك ".

البركة في إناء اللبن:

ذات يوم تعب سيدنا أبو هريرة من شدة الجوع حتى جلس في الطريق، فمر به سيدنا أبو بكر رضي الله عنه فسأله أبو هريرة عن آية في القرآن، وكان يقصد أن يلفت نظره إلي حالته، لكنه مضى ولم يهتم، ثم مرّ سيدنا عمر رضي الله عنه فسأله عن آية القرآن لنفس الغرض لكنه لم يهتم، وبعد ذلك مرّ رسول الله صلى الله عليه وسلم ورأى وجهه فعرف حاله وناداه، فجاء أبو هريرة إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ورافقه في الطريق، فدخل رسول الله صلى الله عليه وسلم البيت ورأى إناء صغيراً به لبن ولمّا استفسر عنه عرف أنه هدية، فأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم سيدنا أبا هريرة أن يأتي بأصحاب الصفّة، فاستثقل أبو هريرة ذلك باعتبار أنه أول من يستحق هذا اللبن، لكن لم يكن أمامه مفرّ من تنفيذ حكم رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا فقد أتي بأصحاب الصفّة، وجلس كل منهم في مكانه وأخذ سيدنا أبو هريرة يسقي الجميع من اللبن بأمر

اللّه قَالَ: فَذَهَبْتُ بِهَا إِلَى رَسُولِ اللّهِ. فَقُلْتُ: إِنَّ أُمِّي تُقْرِئُكَ السَّلاَمَ وَتَقُولُ: إِنَّ هَـذَا لَكَ مِنَّـا قَلِيـلٌ، يَـا رَسُولَ اللّهِ! فَقَالَ: «ضَعْهُ» ثُمَّ قَالَ: «اذْهَبْ فَادْعُ لِي فُلاَناً وَفُلاَناً وَفُلاَناً. وَمَنْ لَقِيتَ» وَسَمَّى رِجَالاً. قَالَ: فَدَعَوْتُ مَنْ سَمَّى وَمَنْ لَقِيتُ. قَالَ: قُلْتُ لأَنَسٍ: عَدَدَ كَمْ كَانُوا؟ قَالَ: زُهَاءَ ثَلاَثَمِائَةٍ. وَقَالَ لِي رَسُولُ اللّهِ: «يَا أَنَسُ هَاتِ التَّوْرَ» قَالَ: فَدَخَلُوا حَتَّى امْتَلأَتِ الصُّفَّةُ وَالْحُجْرَةُ. فَقَالَ رَسُولُ اللّهِ: «لِيَتَحَلَّقْ عَشَرَةٌ عَشَرَةٌ وَلْيَأْكُلْ كُلُّ إِنْسَانٍ مِمَّا يَلِيهِ» قَالَ: فَأَكَلُوا حَتَّى شَبِعُوا. قَالَ: فَخَرَجَتْ طَائِفَةٌ وَدَخَلَتْ طَائِفَةٌ حَتَّى أَكَلُوا كُلُّهُمْ. فَقَالَ لِي: «يَا أَنَسُ! ارْفَعْ» قَالَ: فَرَفَعْتُ، فَمَا أَدْرِي حِينَ وَضَعْتُ كَانَ أَكْثَرَ أَمْ حِينَ رَفَعْتُ. قَالَ: وَجَلَسَ طَوَائِفُ مِنْهُمْ يَتَحَدَّثُونَ فِي بَيْتِ رَسُولِ اللّهِ، وَرَسُولُ اللّهِ جَالِسٌ، وَزَوْجَتُهُ مُوَلِّيَةٌ وَجْهَهَا إِلَى الْحَائِطِ، فَثَقُلُوا عَلَى رَسُولِ اللّهِ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ فَسَلَّمَ عَلَى نِسَائِهِ، ثُمَّ رَجَعَ. فَلَمَّا رَأَوْا رَسُولَ اللّهِ قَدْ رَجَعَ ظَنُّوا أَنَّهُـمْ قَدْ ثَقُلُوا عَلَيْهِ. قَالَ: فَابْتَدَرُوا الْبَابَ فَخَرَجُوا كُلُّهُمْ. وَجَاءَ رَسُولُ اللّهِ حَتَّى أَرْخَى السِّتْرَ وَدَخَلَ. وَأَنَا جَالِسٌ فِي الْحُجْرَةِ. فَلَمْ يَلْبَثْ إِلاَّ يَسِيراً حَتَّى خَرَجَ عَلَيَّ، وَأُنْزِلَتْ هَذِهِ الآيَةُ. فَخَرَجَ رَسُولُ اللّهِ وَقَـرَأَهُنَّ عَلَـى النَّاسِ: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لاَ تَدْخُلُوا بُيُوتَ النَّبِيِّ إِلاَّ أَنْ يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَى طَعَامٍ غَيْرَ نَاظِرِينَ إِنَاهُ وَلَكِـنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَادْخُلُوا فَإِذَا طَعِمْتُمْ فَانْتَشِرُوا وَلاَ مُسْتَأْنِسِينَ لِحَدِيثٍ إِنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤْذِي النَّبِيَّ} إِلَى آخِرِ الآيَةِ. قَـالَ الْجَعْدُ: قَالَ أَنَسُ بْنُ مَالِكٍ: أَنَا أَحْدَثُ النَّاسِ عَهْداً بِهَـذِهِ الآيَاتِ، وَحُجِبْنَ نِسَاءُ النَّبِيِّ. (يوسف عامر).

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وحين شبع الجميع أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء على يده ونظر إلي أبي هريرة مبتسماً وقال: " بقيت أنا وأنت. .. أقعد فاشرب"، وظل رسول الله صلى الله عليه وسلم يسقيه حتى قال أبو هريرة لم يعد في بطني مكان، وبعد ذلك أخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم الإناء وسمّى الله وشرب ما بقي به ([1])

البركة في أرجل الشاة:

طبخ صحابي لرسول الله صلي الله عليه وسلم لحماً، ولأن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يحب لحم أرجل الشاة، لذا فقد قدمها له الرجل، وحين تناولها رسول الله صلي الله عليه وسلم طلب مزيداً منها، فقال الرجل يا رسول الله، كم رجلاً للشاة ؟ فأخبره

---

[1] ـ البخاري ـ جـ ٢ ـ ص٩٥٦ ـ كتاب الرفاق. وهذا نص الحديث: (٦٣٠٥) ـــ حدّثني أبو نعيم بنحوٍ من نصف هذا الحديث حدثنا عمرُ بن ذَرٍّ حدثنا مجاهدٌ أنَّ أبا هريرةَ كان يقول: «الله الذي لاإلهَ إلا هو، إنْ كنتُ لأعتمدُ بكبِدي على الأرض منَ الجوع، وإن كنت لأشد الحجرَ على بطني منَ الجوع. ولقد قعدتُ يوماً على طريقهم الذي يَخرجونَ منه، فمرَّ أبو بكر فسألته عن آية من كتاب الله، ماسألته إلاّ ليُشبعَني، فمرَّ ولم يفعل، ثم مرَّ بي عمرُ فسألته عن آية من كتاب الله، ماسألته إلا ليشبعني، فمرَّ فلم يفعل، ثمَّ مرَّ بي أبو القاسم صلى الله عليه وسلم فتبسمَ حينَ رآني وعرَف ما في نفسي ومافي وَجهي، ثم قال: يا أبا هِرٍّ، قلتُ: لبَّيكَ رسول الله، قال: الحَقْ، ومَضى. فتَبعتُه، فدخل فاستأذَنَ فأذن لي، فدخَلَ فوجد لبَناً في قَدَح فقال: من أين هذا اللبن؟ قالوا: أهداهُ لكَ فلان ـ أو فلانة ـ قال: أبا هِرٍّ، قلت لبَّيكَ يا رسول الله، قال: الحَقْ إلى أهلِ الصُفّة فادعُهم لي. قال: وأهلُ الصفة أضيافُ الإسلام، لايأوُون على أهلٍ ولا مال ولاعلى أحدٍ، إذا أتَتْهُ صدقة بعثَ بها إليهم ولم يَتناولْ منها شيئاً، وإذا أتَتْه هديةٌ أرسلَ إليهم وأصابَ منها وأشركهم فيها، فساءني ذلك، فقلت وماهذا اللبن في أهلِ الصفة؟ كنتُ أحقُّ أن أصيب من هذا اللبن شَربةً أتقوّى بها، فإذا جاؤوا أمرني فكنتُ أنا أعطيهم، وما عسى أن يَبلُغَني من هذا اللبن، ولم يكنْ من طاعة اللهِ وطاعة رسوله صلى الله عليه وسلم بُد، فأتيتُهم فدَعَوتهم، فأقبَلوا فاستأذنوا فأذِنَ لهم، وأخذوا مجالسَهم من البيت. قال: يا أبا هرّ، قلت: لبيك يا رسولَ الله، قال: خذ فأعطهم، فأخَذتُ القدح فجعلتُ أعطيه الرجلَ فيَشرَبُ حتى يَروىَ، ثم يَرد عليَّ القدَح فأعطيهِ الرجلَ فيشرَبُ حتى يَروَى، ثم يَردُ عليَّ القدَح، فيشرَبُ حتى يَروَى، ثم يرُد عليَّ القدح، حتى انتهيتُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم وقد رَوِي القومُ كلهم، فأخذَ القدَحَ فوَضعهُ على يدِه، فنظرَ إليَّ فتبسمَ فقال: أبا هرٍّ، قلت: لبيك يا رسول الله. قال: بَقيتُ أنا وأنت. قلتُ: صدقتَ يا رسول الله، قال: اقعد فاشرَب، فقعدتُ فشربت، فقال: اشرَبْ، فشربت، فما زال يقول: اشرب، حتى قلتُ: لاوالذي بَعثك بالحق، ماأجدُ له مَسلكاً. قال: فأرني، فأعطيتُه القدح، فحمدَ الله وسمَّى وشربَ الفَضلَة». (يوسف عامر).

رسول الله صلي الله عليه وسلم والله بأنه لو ظل صامتاً لكان أعطاه ﷺ كل ما طلب من أرجل الشاة (١).

البركة في ضرع الشاة:

روي عن سيدنا المقداد رضي الله عنه قال جئت أنا ورفيقاي في أيام عسرة شديدة إلي الصحابة وقدمنا أنفسنا لهم، لكن أحداً منهم لم يقبل أن يكلفنا، وفي النهاية ذهبنا إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، فاصطحبنا جميعاً إلي بيته، وكانت هناك ثلاث شياة مربوطة في البيت، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: «احتَلِبُوا هَـٰذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا».، وهكذا كنا نشرب نصيباً من اللبن، ونُبقي نصيب رسول الله صلي الله عليه وسلم، وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم يأتي بالليل فيلقي السلام أولاً بصوت رقيق هادئ، ثم يدخل إلي المسجد فيصلي، وبعدها يشرب نصيبه من اللبن، وذات يوم كنت قد شربت نصيبي في اللبن، ثم خدعني الشيطان بأن جعلني أعتقد أن رسول الله صلي الله عليه وسلم يأتي من عند الأنصار، وهم يقدمون له صلي الله عليه وسلم الهدايا، وهو صلي الله عليه وسلم يتناولها، وليس في حاجة إلي هذا اللبن، فوقعت في شراك الشيطان وشربت اللبن كله، ولمّا لم يبق في بطني مكان تركني الشيطان وهو يقول أيها التعس، شربت لبن رسول الله صلي الله عليه وسلم، وعندما يأتي رسول الله صلي الله عليه وسلم ولا يجد نصيبه في اللبن سيدعو عليك، وسوف تخسر دينك ودنياك جميعاً.

وهكذا لم أذق طعم النوم خوفاً من هذا الأمر، وعاد رسول الله صلي الله عليه وسلم، وألقي السلام حسب العادة، وصلي، ثم بعد ذلك كشف إناء اللبن، ولم يكن فيه نصيبه، فرفع رسول الله صلي الله عليه وسلم رأسه إلي السماء، واعتقدت عندئذ أنه سيدعو عليّ، وسوف أهلك، لكن رسول الله صلي الله عليه وسلم دعا قائلاً: «اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي. وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي»، فنهضت وأنا ملتحفاً برداء، وتناولت سكيناً لأذبح أكثر الشياة لحماً، لكنني رأيت ضرع كل منها ممتلئاً لبناً، فمددت يدي إلي إناء لم يتخيل أهل بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يكون هناك لبن إلي هذا الحد فيحلب فيه، وحلبت فيه فامتلأ وأخذ يفيض، فقدمت اللبن إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم فقال: «أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟»، فقلت: اشرب أنت يا رسول الله، فشرب رسول الله صلي الله عليه وسلم، وأعطاني منه، فلما عرفت أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قد شبع، وأن

---

١ ــ شمائل الترمذي ــــ باب صفة إدام رسول الله صلي الله عليه وسلم.

بركة دعائه قد حلّت باللبن جعلت أضحك حتى سقطت علي الأرض، وقصصت علي رسول الله صلي الله عليه وسلم ما حدث من أوله إلي آخره، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم ([1]): " «مَا هَـذِهِ إِلاَّ رَحْمَةٌ مِنَ اللّهِ. أَفَلاَ كُنْتَ آذَنْتَنِي، فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا» قَالَ فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ، مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ.

---

[1] ـ صحيح مسلم، جـ٢، ص٩٨، مصر، باب إكرام الضيف. وهذا نص الحديث: (٥٣١٨)، حدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا شَبَابَةُ بْنُ سَوَّارٍ. حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ الْمُغِيرَةِ عَنْ ثَابِتٍ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ بْنِ أَبِي لَيْلَىٰ عَنِ الْمِقْدَادِ، قَالَ: أَقْبَلْتُ أَنَا وَصَاحِبَانِ لِي. وَقَدْ ذَهَبَتْ أَسْمَاعُنَا وَأَبْصَارُنَا مِنَ الْجَهْدِ. فَجَعَلْنَا نَعْرِضُ أَنْفُسَنَا عَلَىٰ أَصْحَابِ رَسُولِ اللّهِ. فَلَيْسَ أَحَدٌ مِنْهُمْ يَقْبَلُنَا. فَأَتَيْنَا النَّبِيَّ فَانْطَلَقَ بِنَا إِلَىٰ أَهْلِهِ. فَإِذَا ثَلاَثَةُ أَعْنُزٍ. فَقَالَ النَّبِيُّ «احْتَلِبُوا هَـذَا اللَّبَنَ بَيْنَنَا». قَالَ: فَكُنَّا نَحْتَلِبُ فَيَشْرَبُ كُلُّ إِنْسَانٍ مِنَّا نَصِيبَهُ. وَنَرْفَعُ لِلنَّبِيِّ نَصِيبَهُ. قَالَ: فَيَجِيءُ مِنَ اللَّيْلِ فَيُسَلِّمُ تَسْلِيماً لاَ يُوقِظُ نَائِماً. وَيُسْمِعُ الْيَقْظَانَ. قَالَ ثُمَّ يَأْتِي الْمَسْجِدَ فَيُصَلِّي. ثُمَّ يَأْتِي شَرَابَهُ فَيَشْرَبُ. فَأَتَانِي الشَّيْطَانُ ذَاتَ لَيْلَةٍ، وَقَدْ شَرِبْتُ نَصِيبِي. فَقَالَ: مُحَمَّدٌ يَأْتِي الأَنْصَارَ فَيُتْحِفُونَهُ، وَيُصِيبُ عِنْدَهُمْ. مَا بِهِ حَاجَةٌ إِلَىٰ هَـذِهِ الْجُرْعَةِ. فَأَتَيْتُهَا فَشَرِبْتُهَا. فَلَمَّا أَنْ وَغَلَتْ فِي بَطْنِي، وَعَلِمْتُ أَنَّهُ لَيْسَ إِلَيْهَا سَبِيلٌ. قَالَ نَدَّمَنِي الشَّيْطَانُ. فَقَالَ: وَيْحَكَ مَا صَنَعْتَ؟ أَشَرِبْتَ شَرَابَ مُحَمَّدٍ؟ فَيَجِيءُ فَلاَ يَجِدُهُ فَيَدْعُو عَلَيْكَ فَتَهْلِكُ. فَتَذْهَبُ دُنْيَاكَ وَآخِرَتُكَ. وَعَلَيَّ شَمْلَةٌ. إِذَا وَضَعْتُهَا عَلَىٰ قَدَمَيَّ خَرَجَ رَأْسِي، وَإِذَا وَضَعْتُهَا عَلَىٰ رَأْسِي خَرَجَ قَدَمَايَ. وَجَعَلَ لاَ يَجِيئُنِي النَّوْمُ. وَأَمَّا صَاحِبَايَ فَنَامَا وَلَمْ يَصْنَعَا مَا صَنَعْتُ. قَالَ فَجَاءَ النَّبِيُّ فَسَلَّمَ كَمَا كَانَ يُسَلِّمُ. ثُمَّ أَتَى الْمَسْجِدَ فَصَلَّىٰ. ثُمَّ أَتَىٰ شَرَابَهُ فَكَشَفَ عَنْهُ فَلَمْ يَجِدْ فِيهِ شَيْئاً. فَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّمَاءِ. فَقُلْتُ: الآنَ يَدْعُو عَلَيَّ فَأَهْلِكُ. فَقَالَ: «اللَّهُمَّ أَطْعِمْ مَنْ أَطْعَمَنِي. وَأَسْقِ مَنْ أَسْقَانِي» قَالَ فَعَمَدْتُ إِلَى الشَّمْلَةِ فَشَدَدْتُهَا عَلَيَّ. وَأَخَذْتُ الشَّفْرَةَ فَانْطَلَقْتُ إِلَى الأَعْنُزِ أَيُّهَا أَسْمَنُ فَأَذْبَحُهَا لِرَسُولِ اللّهِ. فَإِذَا هِيَ حَافِلَةٌ. وَإِذَا هُنَّ حُفَّلٌ كُلُّهُنَّ. فَعَمَدْتُ إِلَىٰ إِنَاءٍ لآلِ مُحَمَّدٍ مَا كَانُوا يَطْمَعُونَ أَنْ يَحْتَلِبُوا فِيهِ. قَالَ فَحَلَبْتُ فِيهِ حَتَّىٰ عَلَتْهُ رَغْوَةٌ. فَجِئْتُ إِلَىٰ رَسُولِ اللّهِ فَقَالَ «أَشَرِبْتُمْ شَرَابَكُمُ اللَّيْلَةَ؟» قَالَ قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِي. فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ اشْرَبْ. فَشَرِبَ ثُمَّ نَاوَلَنِي. فَلَمَّا عَرَفْتُ أَنَّ النَّبِيَّ قَدْ رَوِيَ، وَأَصَبْتُ دَعْوَتَهُ، ضَحِكْتُ حَتَّىٰ أُلْقِيتُ إِلَى الأَرْضِ. قَالَ: فَقَالَ النَّبِيُّ «إِحْدَىٰ سَوْآتِكَ يَا مِقْدَادُ» فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللّهِ كَانَ مِنْ أَمْرِي كَذَا وَكَذَا. وَفَعَلْتُ كَذَا. فَقَالَ النَّبِيُّ «مَا هَـذِهِ إِلاَّ رَحْمَةٌ مِنَ اللّهِ. أَفَلاَ كُنْتَ آذَنْتَنِي، فَنُوقِظَ صَاحِبَيْنَا فَيُصِيبَانِ مِنْهَا» قَالَ فَقُلْتُ: وَالَّذِي بَعَثَكَ بِالْحَقِّ مَا أُبَالِي إِذَا أَصَبْتَهَا وَأَصَبْتُهَا مَعَكَ، مَنْ أَصَابَهَا مِنَ النَّاسِ. (يوسف عامر).

البركة في وسق من الشعير:

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها عندما مات رسول الله صلي الله عليه وسلم لم يكن في البيت غير وسق (مكيال) من الشعير، فبدأت آكل منه، ولكنه لم ينته، ثم وزناه فانتهي، بمعني أن البركة فيه أخذت تنتهي ([1]).

امتلاء إناء طعام السفر:

يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه حلّت بي في الإسلام ثلاث مصائب الأولي وفاة رسول الله صلي الله عليه وسلم، والثانية استشهاد سيدنا عثمان رضي الله عنه، والثالثة ضياع إناء طعامي في السفر، فسأله الناس، كيف كان هذا الإناء ؟ قال: كان رسول الله صلي الله عليه وسلم في إحدى غزواتـــه وانتهي الـــزاد منا، فسألني رسول الله صلي الله عليه وسلم عمّ إذا كان معي شيء ؟ قلت بعض التمر. فأمرني بإحضاره، فأحضرته، فوضعه رسول الله صلي الله عليه وسلم متفرقاً علي صمات، وكانت إحدى وعشرين تمرة، فأخذ رسول الله صلي الله عليه وسلم التمر واحدة واحدة، وقرأ اسم الله علي كل منها، ووضعها ثانية ثم جمعها، وأمر بأن يدخل الناس لتناول التمر عشرة عشرة، وهكذا أخذ الناس يأكلون حتى طعم الجيش كله وشبع، وبقي من التمر، فقلت يا رسول الله، ادع الله لي بالبركة فيها، فدعا رسول الله صلي الله عليه وسلم فوضعتها في إناء طعام السفر، وكان من بركة هذا التمر أنني كنت حين أمدّ يدي في الإناء أجد تمراً، وتصدقت منه بخمسين وسقاً في سبيل الله، وظلت آكل منه حتى أيام أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، ثم ضاع إناء طعام السفر هذا أيام شهادة عثمان رضي الله عنه مع غيره من الأشياء التي ضاعت ([2]).

البركة في قليل من التمر:

يقول سيدنا وكين عن نعمان بن مقرن الصحابي جئنا إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم أربعمائة رجل دفعة واحدة، وطلبنا جميعاً الطعام، فأمر رسول الله صلي الله عليه وسلم سيدنا عمر رضي الله عنه أن أطعمهم الطعام، فقال يا رسول الله ليس لدّي إلا ما يكفي أهلي وأولادي، فأمرني صلي الله عليه وسلم بأن أذهب فأطعمهم الطعام، فقال

---

[1] ـــ صحيح البخاري ومسلم.

[2] ـــ مسند أحمد وجامع الترمذي وابن سعد وابن حبان والبيهقي.

عمر رضي الله عنه: لا عذر في تنفيذ ما تقول يا رسول الله، ثم اصطحبنا وأجلسنا في مكان ما، وأحضر التمر الذي كان موجوداً، وحلّت فيه البركة بحيث شبعنا جميعاً ولم ينقص التمر. ([1])

---

[1] ـــ مسند أحمد عن وكين وأبو داود وابن حبان وابن سعد عن نعمان بن مقرن.

كان أندر الأشياء في صحراء بلاد العرب الجافة هو عيون المياه، وربما كان من بين الأسباب التي حفظت بلاد العرب من حملات الفاتحين والغزاة سبب قوي هو ندرة المياه، وهذا هو الذي أعجز اليونانيين والروميين والإيرانيين عن غزو القبائل التي تسكن تلك الصحراء القاحلة، وتمعن: هل كان من الممكن للجيش الإسلامي الأول التغلب علي هذه المشكلة لو لم تكن عيون البركات الإلهية للنبوة ترافقه ؟! لقد كان سيدنا موسى عليه السلام هو النبي الوحيد بين الأنبياء جميعاً الذي تفجـرت له عروق الصخور عيوناً، بينما كانت القربة المصنوعة من الجلد، والأصابع من لحم ودم، وفوهات عيون المياه التي جفت، وآبار المياه التي يبست، وبراعم فم الرسول صلي الله عليه وسلم الشريف كلها بمثابة ثروات المياه مرات عديدة.

فوران المياه من القربة:

ذات مرة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم في سفر، ولما استيقظ صلي الله عليه وسلم في الصباح وأخذ يؤم الجماعة، خرج أحد الصحابة من الجماعة، فسأله رسول الله صلي الله عليه وسلم عن سبب عدم مشاركته في الجماعة، فاعتذر الرجل بالجنابة، ولأنه لم يكن هناك ماء أمره رسول الله صلي الله عليه وسلم بالتيمم، ثم بعد ذلك أرسل النبي صلي الله عليه وسلم بعض الصحابة يبحثون عن الماء، وفي الطريق لقيتهم امرأة تحمل علي جملها قربتي ماء ممتلئتين، فسألها الرجال عن مصدر المياه، فقالت: ليس في هذا المكان مياه، فسألها الرجال كم بين قبيلتك وعين الماء ؟ فقالت: مسافة يوم وليلة، فاصطحبها الرجال إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم، ولمس رسول الله صلي الله عليه وسلم قربة الماء بيديه الشريفتين، فحلت بركة يده الشريفة بالماء وازداد إلي درجة أن شرب منه أربعون رجلاً حتى امتلئوا، وملئوا قربهم وأوانيهم، وبعد ذلك جمع رسول الله صلي الله عليه وسلم بقايا التمر وكسرات الخبز وأعطاها للمرأة، وعادت هي إلي بيتها وكلها حيرة ودهشة، فقالت لقبيلتها لقد قابلت اليوم أكبر ساحر، وهو في نظر المعتقدين به نبي، وفي نهاية الأمر أسلمت القبيلة كلها مع هذه المرأة بتأثير منها. ([1])

---

[1] ــ صحيح البخاري ـــ باب علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٤٩٥) ـــ حدثنا أبو الوليدِ حدَّثنا سَلْمُ بن زَرِيرٍ سمعت أبا رجاءٍ قال: «حدَّثنا عِمرانُ بن حُصَينٍ أنَّهم كانوا مع النبيِّ صلى الله عليه وسلم

نبع الماء من بين أصابعه الشريفة:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم ذات يوم في مكان يسمي (ذورا)، وجاء وقت العصر فبحث الصحابة عن الماء، لكنهم لم يجدوا ماءً إلا لرسول الله صلي الله عليه وسلم، فلما قدموا إناء الماء لرسول الله صلي الله عليه وسلم وضع يده الشريفة عليه، وتفجرت ينابيع الماء من بين أصابعه الشريفة صلي الله عليه وسلم حتى توضأ منه ما يقرب من ثلاثمائة رجل ([1]).

زيادة الماء:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم في سفر مع صحابته، وجاء وقت الصلاة فبحث الصحابة عن الماء فلم يجدوه، فأحضر صحابي قليلاً من الماء في إناء صغير، فتوضأ منه رسول الله صلي الله عليه وسلم أولاً، ثم وضع أصابعه الشريفة علي الإناء

في مَسِيرٍ فأدْلَجوا ليلتَهم حتىٰ إذا كان وجهُ الصُّبح عَرَّسوا، فغلَبَتهم أعينُهم حتى ارتفعَتِ الشمسُ، فكانَ أولَ منِ استيقظَ من منامهِ أبو بكرٍ، وكان لا يوقَظُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم من مَنامهِ حتىٰ يستَيقِظَ، فاستيقَظَ عمرُ، فقَعدَ أبو بكرٍ عندَ رأسهِ فجعلَ يكبِّرُ ويرفعُ صوتَه حتىٰ استيقظَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم فنزَلَ وصلَّى بنا الغَداةَ، فاعتزلَ رجلٌ من القوم لم يصلِّ معنا، فلمّا انصرفَ قال: «يا فلانُ ما يمنَعكَ أن تصلِّي معنا ؟» قال: أصابتني جنابة، فأمرَهُ أن يَتيمَّم بالصَّعيدِ ثمَّ صلَّى، وجعلَني رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم في رَكوبٍ بين يَدَيه، وقد عَطِشنا عطَشاً شديداً، فبينما نحنُ نَسيرُ، إذا نحن بامرأةٍ سادِلةٍ رجلَيها بينَ مَزادتَين، فقلنا لها: أين الماءُ ؟ فقالت: إنه لا ماءَ. فقلنا: كم بينَ أهلِكِ وبينَ الماءِ ؟ قالت: يومٌ وليلة. فقلنا: انطلِقي إلى رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم. قالت: وما رسول اللهِ ؟ فلم نُملِّكْها حتىٰ استقبلنا بها النبيَّ صلى الله عليه وسلم، فحدَّثَتْهُ بمثلِ الذي حدَّثَتنا، غيرَ أنها حدثته أنها مُؤْتِمة، فأمر بمزادتَيها فمَسح في العَزلاوَين، فشَربنا عِطاشاً أربعونَ رجلاً حتىٰ رَوِينا، فملأنا كلَّ قِربةٍ معَنا وإداوةٍ غيرَ أنهُ لم نَسْقِ بَعيراً، وهي تكادُ تَنِضُّ منَ المِلْءِ. ثم قال: هاتوا ما عِندكم، فجمَعَ لها منَ الكِسَرِ والتَّمرِ حتىٰ أتَت أهلَها قالت: لَقيتُ أسْحرَ الناسِ، أو هو نَبيٌّ كما زَعموا. فهدَى الله ذاك الصِّرْمَ بتلكَ المرأة، فأسلَمتْ وأسلَموا». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري وصحيح مسلم ــ جامع الترمذي باب المعجزات. وهذا نص رواية البخاري: ٣٤٩٦) ــ حدثنا محمدُ بن بَشّار حدَّثنا ابنُ أبي عَديّ عن سعيدٍ عن قتادةَ عن أنسٍ رضيَ اللهُ عنه قال: «أُتِيَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم بإناءٍ وهوَ بالزَّوْراءِ، فوَضعَ يدهُ في الإناء فجعلَ الماءُ يَنبعُ من بينِ أصابعهِ، فتوضَّأ القومُ. قال قَتادةُ: قلتُ لأنسٍ: كم كنتم؟ قال: ثلاثَمائةٍ، أو زُهاءَ ثلاثمائةٍ». (يوسف عامر).

الصغير، فحلت البركة في هذا القدر القليل من الماء حتى توضأ منه ما يقرب من سبعين رجلاً ([1]).

فوران عين ماء من بين أصابعه صلي الله عليه وسلم:

أصاب الصحابة يوم صلح الحديبية عطش شديد، ولم يكن هناك ماء سوي الموجود في قربة من الجلد أمام رسول الله صلي الله عليه وسلم، فتوضأ منه صلي الله عليه وسلم وتقدم إليه الصحابة مسرعين، فسألهم رسول الله عن هذه العجلة، فقالوا ليس لدينا مياه لسد احتياجاتنا سوي هذا، فوضع رسول الله صلي الله عليه وسلم يده في الماء، وتفجرت عين ماء من بين أصابعه الشريفة صلي الله عليه وسلم حتى توضأ وشرب منها ما يقرب من ألف وخمسمائة رجل حتى امتلئوا ([2]).

زيادة الماء من المضمضة:

وفي رواية أخرى أن الصحابة توقفوا في ذلك اليوم عند بئر يسمي الحديبية واستخرجوا ما فيه من ماء حتى لم يبق فيه قطرة واحدة، وعلم رسول الله صلي الله عليه وسلم بذلك، فجلس علي حافة البئر ووضع قليلاً من الماء في فمه، ثم تمضمض في البئر، وبعد وقت قليل فار الماء وزاد حتى شربت جمال الصحابة جميعاً ([3]).

---

[1] ــ صحيح البخاري ومسلم ـــ باب المعجزات، ومسند أحمد عن أنس بن مالك. وهذا نص رواية البخاري: (٣٤٩٨) ـــ حدّثنا عبدُ الرحمن بنُ مُبارَكٍ حدَّثنا حَزْمٌ قال: سمعتُ الحسنَ قال: حدَّثنا أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه قال: «خرَجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم في بعض مَخارجِهِ ومعهُ ناسٌ من أصحابهِ، فانطلقوا يَسيرون، فحضرتِ الصلاةُ فلم يَجِدوا ماءً يتوضؤون. فانطلَقَ رجلٌ منَ القوم فجاءَ بقَدحٍ من ماءٍ يسير، فأخذَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فتوضأ، ثمَّ مدَّ أصابعه الأربعَ على القَدحَ، ثم قال: قوموا فتَوَضؤوا، فتوضأ القومُ حتىٰ بلَغوا فيما يُريدونَ من الوَضوء، وكانوا سَبعين أو نحوَه». (يوسف عامر).

[2] ــ المرجع السابق. وهذا نص الحديث: (٣٥٠٠) ـــ حدّثنا موسىٰ بنُ إسماعيلَ حدثنا عبدُ العزيز بنُ مسلمٍ حدَّثنا حصينٌ عن سالمِ بنِ أبي الجعْدِ عن جابرِ بنِ عبد الله رضيَ اللهُ عنهما قال: «عَطِشَ النـاسُ يومَ الحُديبيةِ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ يديه رِكْوةٌ، فتوضأ فجَهِشَ الناسُ نحوهُ فقال: ما لكم ؟ قالوا: ليس عندنا ماءٌ نتَوضَّأ ولا نشرَبُ إلا ما بين يديك ؟. فوضعَ يدهُ في الرَّكْوةِ، فجعل المـاء يَثـورُ بـين أصابعه كأمثالِ العُيون. فشَرِبنا وتوَضأنا. قلت: كم كنتم: لو كنّا مائةَ ألفٍ لَكفانا كناّ خمسَ عشرةَ مائة». (يوسف عامر).

[3] ــ المرجع السابق. وهذا نص الحديث: (٣٥٠١) ـــ حدثّنا مالكُ بنُ إسماعيل حدَّثنا إسرائيلُ عن أبي إسحاقَ عن البَراءِ رضيَ اللهُ عنه قال: «كنا يومَ الحُديبيه أربعَ عشرة مائةً، والحُديبيةُ بئرٌ، فنزَحْناها حتىٰ

بركة غسل الوجه واليدين:

في سفر غزوة تبوك كان الصحابة يصلون كل صلاتين معاً، وذات يوم صلوا صلاة المغرب وصلاة العشاء معاً، فأخبرهم رسول الله صلي الله عليه وسلم بأنهم سيصلون إلي تبوك ظهر غد، ولكن لا يضع أحد منهم يده في ماء تبوك حتى يصل هو ﷺ، ووصل الناس إلي تبوك فوجدوا النهر ضيقاً للغاية، فأمرهم رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يستخرجوا ماء النهر ففعلوا وجمعوه في حفرة، فغسل رسول الله صلي الله عليه وسلم في هذا الماء وجهه ويديه، ثم أعيد الماء إلي النهر فامتلأ ماءاً ([1]).

بركة الأصابع:

في أحد أسفاره طلب رسول الله صلي الله عليه وسلم من سيدنا جابر ماءً للوضوء، فبحث في القافلة عن ماء فلم يجد، وكان من بين الأنصار رجل يحتفظ بالماء بارداً لرسول الله صلي الله عليه وسلم بصفة خاصة، فلما أبلغ سيدنا جابر رسول الله صلي الله عليه وسلم بعدم وجود الماء أرسله صلي الله عليه وسلم إلي ذلك الأنصاري، لكن الماء الذي كان عنده كان قليلاً لدرجة أنه لو صب في الإناء الجاف لجذبه بداخله، فأبلغ سيدنا جابر رسول الله صلي الله عليه وسلم بالأمر، فطلب رسول الله صلي الله عليه وسلم الإناء، وأخذه في يده ثم قرأ شيئاً، ثم وضعه في طشت، وأمر سيدنا جابر رضي الله عنه أن يسمّ الله ويصب الماء. يقول سيدنا جابر بدأت أصب الماء، ففاضت الماء من بين أصابع النبي صلي الله عليه وسلم أولاً حتى امتلأ الطشت، وظل مليئاً كما هو. ([2])

لم نترُكْ فيهَا قطرةً، فجلس النبيُّ صلى الله عليه وسلم على شَفِيرِ البئرِ، فدعا فمضمَضَ ومجَّ في البئرِ، فمكثْنا غير بعيدٍ، ثم استقَينا حتىٰ روينا ورَوَتْ ــ أو صدرَتْ ــ ركائبنُا». (يوسف عامر).

[1] ــ المرجع السابق.

[2] ــ مسلم ــــ باب حديث جابر الطويل. وقد ورد هذا الحديث في صحيح البخاري: (٣٥٠٠) ــــ حدثنا موسىٰ بنُ إسماعيلَ حدثنا عبدُ العزيز بنُ مسلمٍ حدَّثنا حصينٌ عن سالم بنِ أبي الجعْدِ عن جابر بنِ عبد الله رضيَ اللهُ عنهما قال: «عَطِش الناسُ يومَ الحُديبيةِ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ يديه رِكْوةٌ، فتوضأ فجَهِش الناسُ نحوهُ فقال: ما لكم ؟ قالوا: ليس عندنا ماءٌ نتَوضأُ ولا نشربُ إلا ما بين يديك ؟. فوضعَ يدهُ في الرِّكوةِ، فجعل الماء يَثورُ بين أصابعه كأمثالِ العُيون. فشَرِبنا وتوضَّأنا. قلت: كم كنتم: لو كنّا مائةَ ألفٍ لَكفانا كناّ خمسَ عشرةَ مائة». (يوسف عامر).

فوران الماء من بين أصابعه الشريفة:

ويروي عن سيدنا جابر رضي الله عنه أنه في ذات يوم عند العصر لم يبق من الماء إلا قليلاً، فوضع فيه رسول الله صلي الله عليه وسلم يده ففاضت الماء حتى توضأ منه ألف وأربعمائة رجل وشربوا حتى ارتووا ([1])

بركة كثيرة في ماء قليل:

ذات مرة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم في سفر، وفي الصباح نام صلي الله عليه وسلم بعيداً عن القافلة، وأمر بعض الأشخاص الذين كانوا معه صلي الله عليه وسلم بأن يهتموا بالصلاة، لكنهم ناموا جميعاً، ثم استيقظ رسول الله صلي الله عليه وسلم قبلهم جميعاً، وكان النهار قد طلع، واستيقظ الباقون مضطرين، فأمر الرسول صلي الله عليه وسلم بمواصلة السير، ولما طلع النهار تماماً نزل رسول الله صلي الله عليه وسلم من علي مطيته وتوضأ، ثم أمر ﷺ أبا قتادة رضي الله عنه أن يحتفظ بالماء القليل الذي تبقي من الوضوء، إذ سوف تظهر منه آية عظيمة، وعندما غطت الشمس الأفق انضم الرسول صلي الله عليه وسلم إلي القافلة، فقال الناس يا رسول الله، أهلكنا العطش، فأخبرهم صلي الله عليه وسلم بأنه لا يمكن أن يهلكوا، ثم طلب الماء من أبي قتادة، وأخذ يسقي الناس حتى ارتووا جميعاً. ([2])

فوران الماء من بين أصابعه الشريفة:

يقول حبان بن بح الصحابي كان قومي لا يزالون علي كفرهم، وعلمت أن رسول الله صلي الله عليه وسلم يعد جيشاً لقتالهم، ثم أسلم قومي وعرف بذلك رسول الله صلي

---

[1] ــ البخاري ــ جـ٢ ــ ص٣٤٢ ــ كتاب الأشربة. وهذا نص الحديث: (٥٥١٢) ــ حدثنا قُتيبةُ بن سعيد حدثنا جريرٌ عن الأعمش قال: حدثني سالم بن أبي الجَعْد عن جابر بن عبدِ الله رضيَ الله عنهما هذا الحديث قال: «قد رأيتُني مع النبي صلى الله عليه وسلم وقد حَضرَتِ العصرُ وليس معَنا ماءٌ غير فَضلة. فجعلَ في إناء. فأتى النبي صلى الله عليه وسلم به فأدخل يَدَهُ فيه وفرَّجَ أصابعهُ ثم قال: حي على أهل الوضوءِ البركة من الله. فلقد رأيتُ الماءَ يتفجر من بين أصابعه. فتوضأ الناسُ وشربوا. فجعلتُ لا آلوا ما جعلتُ في بطني منه فعلِمتُ أنه بركة. قلت لجابر: كم كنتم يومئذ؟ قال: ألفٌ وأربعمائة». تابعة عمرو بن دينار عن جابر.

وقال حُصينٌ وعمرو بن مُرة عن سالم عن جابر: «خمس عشرة مائة». وتابعه سعيدُ بن المسيب عن جابر.(يوسف عامر).

[2] ــ مسلم ــ كتاب الصلاة ــ باب قضاء الصلاة الفائتة.

الله عليه وسلم، وأمضيت الليل كل مع رسول الله صلي الله عليه وسلم في السفر، وفي الصباح أذّنت، فأعطاني رسول الله صلي الله عليه وسلم إناء الماء، فتوضأت منه، ثم وضع رسول الله صلي الله عليه وسلم أصابعه في الإناء ففارت من بين أصابعه الشريفة ينابيع الماء، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: "قوموا فتوضئوا".([1])

واقعة أخرى:

يروي عن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنه قال: «كنّا نعدُّ الآيات بركةً، وأنتم تعُدُّونها تخويفاً، كنّا معَ رسولِ الله صلى الله عليه وسلم في سفر فقلَّ الماء، فقال: اطلُبوا فضلةً من ماءٍ، فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل، فأدخلَ يدَهُ في الإناءِ ثم قال: حيَّ على الطَّهورِ المبارَك، والبركة منَ الله، فلقد رأيتُ الماءَ يَنْبعُ من بينِ أصابع رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم.[2].

---

[1] ـ مسند أحمد بن حنبل ـــ جـ٢ ـــ ص١٦٩. (٣٤٩٨) ـــ حدثنا عبدُ الرحمن بنُ مُباركٍ حـدَّثنا حَزْمٌ قال: سمعتُ الحسنَ قال: حدَّثنا أنسُ بنُ مالكٍ رضيَ اللهُ عنه قال: «خَرَجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم في بعض مَخارجهِ ومعهُ ناسٌ من أصحابه، فانطلقوا يَسيرون، فحضــرتِ الصــلاةُ فلــم يَجِـدوا مــاءً يتوضؤون. فانطلَقَ رجلٌ منَ القوم فجاءَ بقَدحٍ من ماءٍ يسير، فأخذَه النبيُّ صلى الله عليه وسلم فتوضأ، ثمَّ مدَّ أصابعه الأربعَ على القَدحَ، ثم قال: قوموا فتَوَضؤوا، فتوضأَ القومُ حتىٰ بلَغــوا فيمــا يُريــدونَ مــن الوَضوء، وكانوا سَبعين أو نحوَه».(يوسف عامر). وورد عنه ﷺ: (٣٥٠٠) ــــ حـدَّثنا موســىٰ بــنُ إسماعيلَ حدثنا عبدُ العزيز بنُ مسلمٍ حدَّثنا حصينٌ عن سالمِ بنِ أبي الجعْدِ عن جابر بنِ عبد الله رضــيَ اللهُ عنهما قال: «عَطِشَ الناسُ يومَ الحُديبيةِ والنبيُّ صلى الله عليه وسلم بينَ يديه ركْوةٌ، فتوضأ فجَهِـشَ الناسُ نحوَهُ فقال: ما لكم ؟ قالوا: ليس عندنا ماءٌ نتَوضأُ ولا نشرَبُ إلا ما بين يديك ؟. فوضعَ يـدهُ فــي الرَّكوةِ، فجعل الماء يَثورُ بين أصابعه كأمثالِ العُيون. فشَرِبنا وتوَضأنا. قلت: كم كنتم: لو كنّا مائةَ ألــفٍ لَكفانا كنّا خمسَ عشرةَ مائة».(يوسف عامر).

[2] ـ صحيح البخاري ـــ باب علامات النبوة في الإسلام. وهذا نص الحديث كــاملا: (٣٥٠٣) ــــــ حدّثني محمدُ بن المثنى حدَّثنا أبو أحمدَ الزُّبيريُّ حدَّثنا إسرائيل عن منصور عن إبراهيم عن علقمةَ عــن عبدِ الله قال: «كنّا نعدُّ الآيات بركةً، وأنتم تعُدُّونها تخويفاً، كنّا معَ رسولِ الله صلى الله عليه وســلم فــي سفر فقلَّ الماء، فقال: اطلُبوا فضلةً من ماءٍ، فجاؤوا بإناءٍ فيه ماءٌ قليل، فأدخلَ يدَهُ في الإناءِ ثم قال: حيَّ على الطَّهورِ المبارَك، والبركة منَ الله، فلقد رأيتُ الماءَ يَنْبعُ من بينِ أصابع رسولِ اللهِ صلى الله عليــه وسلم، ولقد كنّا نسمعُ تَسبيحَ الطعامِ وهوَ يُؤكل». (يوسف عامر).

هذه الواقعات التي ذكرناها تحت عناوين مختلفة من الممكن أن يكون بعضها حكايات متعددة لواقعة واحدة، ولكن لأنني شعرت بأن هناك فرقاً خاصاً بين كل منها فإنني ذكرتها في شكل واقعات مستقلة.

الاطلاع علي الغيب

" فلا يظهر علي غيبه أحداً إلا من ارتضي من رسول " (الجن: ٢٦)

لقد كشف القرآن الكريم مرات عديدة عن حقيقة أنه لا يعلم الغيب أحد سوي الله، وهكذا جاءت آيات كثيرة في القرآن الكريم بهذا المعني، وكلها تؤكد أنه لا يمكن أن يتصف أحد بعلم الغيب غير الله " فقل إنما الغيب لله " (يونس: ٢٠)

" قل لا يعلم من في السماوات والأرض الغيب إلا الله " (النمل: ٦٥)

يعني لا يعرف مخلوق الغيب غير الله، ولم يخبر الله تعالي مخلوقاً بعلم الغيب في السماء والأرض، ولهذا سيعترف الأنبياء جميعاً يوم القيامة: ــ

" يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب " (المائدة: ١٠٩)

ويأتي الأمر لرسول الله صلي الله عليه وسلم الذي هو أعلم الأنبياء بالإقرار بأن:

" قل لا أقول لكم عندي خزائن الله ولا أعلم الغيب " (الأنعام: ٥٠)

" قل لا أملك لنفسي نفعاً ولا ضراً إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسني السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون " (الأعراف: ١٨٨)

أوضحت الآيات السابقة أن الرسول صلي الله عليه وسلم لم يكن يعلم الغيب، ولم يخبر بعلم الغيب، إلا أن الله تعالي أطلعه من حين لآخر بما أراد من علمه، ولهذا يقول الله تعالي: ــ

" ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء " (البقرة: ٢٥٥)

وقال في سورة الجن: ــ

" فلا يظهر علي غيبه أحداً إلا من ارتضي من رسول " (الجن: ٢٦)

وفي سورة آل عمران يقول: ــ

" وما كان الله ليطلعكم علي الغيب، ولكن الله يجتبي من رسله من يشاء " (آل عمران: ١٧٩)

وجاء بشكل صريح فيما يتعلق بالقيامة وهي من أمور الغيب أن علمها لم يعط لأحد: ـــ

" يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربي لا يجليها لوقتها إلا هو ثقلت في السماوات والأرض لا تأتيكم إلا بغتة يسألونك كأنك حفيّ عنها قل إنما علمها عند الله، ولكن أكثر الناس لا يعلمون " (الأعراف: ١٨٧)

والرواية التي جاءت في الصحاح عن نزول سيدنا جبريل عليه السلام في صورة مسافر، والتي سأل فيها رسول الله صلي الله عليه وسلم عن الإسلام والإحسان، وأجابه رسول الله صلي الله عليه وسلم، يسأل في آخرها متي تكون القيامة فيجيبه رسول الله صلي الله عليه وسلم قائلاً:

«مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا " (كتاب الإيمان ـــ مسلم والبخاري)[1]، وروي في صحيح البخاري عن السيدة عائشة رضي الله عنها أنها كانت تقول من قال لكم أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يعلم الغيب فهو كاذب، لقد قال القرآن في وضوح: ـــ

" وما تدري نفس ماذا تكسب غداً "(لقمان: ٣٤)

وذات مرة كانت بعض الفتيات يجلسن أمام رسول الله صلي الله عليه وسلم ويغنين، فقالت إحداهن وهي تغني: " وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا فِي الغَدِ " فمنعها رسول الله صلي

---

[1] ـــ وهذا هو نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٦٣) وحدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ زُهَيْرُ بْنُ حَرْبٍ جَمِيعا عَنِ ابْنِ عُلَيَّةَ قَال زُهَيْرٌ حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنْ أَبِي حَيَّانَ عَنْ أَبِي زُرْعَةَ بْنِ عَمْرِو بْنِ جَرِيرٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ يَوْما بَارِزا لِلنَّاسِ.فَأَتَاهُ رَجُلٌ. فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَا الإِيمَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تُؤْمِنَ بِاللهِ وَمَلاَئِكَتِهِ وَكِتَابِهِ وَلِقَائِهِ وَرُسُلِهِ وَتُؤْمِنَ بِالْبَعْثِ الآخِرِ» قَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الإِسْلاَمُ؟ قَالَ: «الإِسْلاَمُ أَنْ تَعْبُدَ الله لاَ تُشْرِكَ بِهِ شَيْئا، وَتُقِيمَ الصَّلاَةَ الْمَكْتُوبَةَ، وَتُؤَدِّيَ الزَّكَاةَ الْمَفْرُوضَةَ، وَتَصُومَ رَمَضَانَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَا الإِحْسَانُ؟ قَالَ: «أَنْ تَعْبُدَ الله كَأَنَّكَ تَرَاهُ. فَإِنَّكَ إِنْ لاَ تَرَاهُ فَإِنَّهُ يَرَاكَ». قَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! مَتَى السَّاعَةُ؟ قَالَ: «مَا الْمَسْؤُولُ عَنْهَا بِأَعْلَمَ مِنَ السَّائِلِ. وَلَكِنْ سَأُحَدِّثُكَ عَنْ أَشْرَاطِهَا: إِذَا وَلَدَتِ الأَمَةُ رَبَّهَا فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا. وَإِذَا كَانَتِ الْعُرَاةُ الْحُفَاةُ رُؤُوسَ النَّاسِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا. وَإِذَا تَطَاوَلَ رِعَاءُ الْبَهْمِ فِي الْبُنْيَانِ فَذَاكَ مِنْ أَشْرَاطِهَا، فِي خَمْسٍ لاَ يَعْلَمُهُنَّ إِلاَّ الله» ثُمَّ تَلاَ: {إِنَّ الله عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ. إِنَّ الله عَلِيمٌ خَبِيرٌ}(لقمان آية: ٣٤). قَالَ ثُمَّ أَدْبَرَ الرَّجُلُ. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «رُدُّوا عَلَيَّ الرَّجُلَ» فَأَخَذُوا لِيَرُدُّوهُ فَلَمْ يَرَوْا شَيْئا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «هَذَا جِبْرِيلُ. جَاءَ لِيُعَلِّمَ النَّاسَ دِينَهُمْ».(يوسف عامر).

ـَ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ([1]). وروي عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال "مفاتِيحُ الغيبِ خمسٌ"، وقرأ بعدها رسول الله صلي الله عليه وسلم هذه الآيةَ: ([2])

"إن الله عنده علم الساعة وينزل الغيث ويعلم ما في الأرحام وما تدري نفس ماذا تكسب غداً وما تدري نفس بأي أرض تموت " (لقمان: ٣٤)

وقد جاءت هذه الرواية في الباب الثاني من البخاري هكذا بأن مفاتيح الغيب خمسة لا يعلمها إلا الله، فلا يعلم إلا الله إن كان في رحم المرأة الحامل ولد أم بنت، ولا يعلم أحد إلا الله ماذا يحدث غداً، ولا يعلم أحد إلا الله متي ينزل المطر، ولا يعلم أحد إلا الله أين سيموت الإنسان ([3])

علي أية حال فإنه بالإضافة إلي تلك الأمور الخاصة فإن الله تعالي كان يطلع سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم من وقت لآخر ببعض أمور الغيب التي يريد إخباره بها، يقول الله تعالي في سورة هود بعد أن تحدث عن بعض الأنبياء: ـــ

" تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك " (هود: ٤٩)

وقال عن سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم

" وما هو علي الغيب بضنين " (التكوير: ٢٤)

وذات مرة أصاب الكسوف الشمس علي عهد رسول الله صلي الله عليه وسلم، فصلي رسول الله صلي الله عليه وسلم صلاة الكسوف مع صحابته، وبعد الصلاة خطب رسول الله صلي الله عليه وسلم خطبة بليغة هذه فقرة منها: ـــ

---

[1] ـ صحيحِ البخاري، تفسير النجم. وهذا نص الحديث: (٤٩١٨) حدثنا مُسَدَّدٌ أخبرنا بِشْرٌ عن خَالِدِ بـــن ذَكْوَانَ عنِ الرُّبَيِّعِ بنْتِ مُعَوِّذِ بنِ عَفْرَاءَ، قالَتْ: « جَاءَ رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلمَ فَدَخَلَ عَلَيَّ صُبْيَحَةَ بُنِيَ فَجَلَسَ عَلَى فِرَاشِي كَمَجْلِسِكَ مِنِّي فَجَعَلَتْ جُوَيْرِيَاتٌ يَضْرِبْنَ بِدُفٍّ لَهُنَّ وَيَنْدُبْنَ مَنْ قُتِلَ مِنْ آبَائِي يَوْمَ بَدْرٍ إِلَى أَنْ قالَتْ إِحْدَاهُنَّ: وَفِينَا نَبِيٌّ يَعْلَمُ مَا في الغَد، فقَالَ دَعِي هٰذَا وَقُولِي الَّذِي كُنْتِ تَقُولِينَ».(يوســف عامر).

[2] ـ صحيح البخاري، تفسير لقمان. وهذا نص الحديث: (٤٦٦٠) حدثَنا يحيى بنُ سليمانَ قال: حــدَّثني ابنُ وَهبٍ قال: حدَّثني عمرُ بن محمدِ بن زيدِ بن عبد الله بن عمرَ أنَّ أباه حدَّثَه أنَّ عبدَ الله بـــن عمــر رضيَ الله عنهما قال: «قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: مفاتيحُ الغيبِ خمسٌ، ثمَّ قرأ {إن اللَّهَ عندَهُ علــم الساعة..}. (يوسف عامر).

[3] ـ صحيح البخاري ـــ كتاب الرؤيا علي الغيب ـــ باب عالم الغيب.

" يا أمة محمد، والله لو تعلمون ما علمت لضحكتم قليلاً ولبكيتم كثيراً " (صحيح البخاري ــ باب الصدقة في الكسوف، وتفسير سورة المائدة).

وذات مرة صعد رسول الله صلي الله عليه وسلم علي المنبر ووقف يقول: ــ

" هل ترون قبلتي ههنا، فوالله ما يخفي عليّ خشوعكم ولا ركوعكم، إني لأراكم من وراء ظهري " (البخاري)

وفي رواية أخرى قال صلي الله عليه وسلم: ــ

" إني لأراكم من ورائي كما أراكم " (البخاري ــ باب العظمة أمام الناس)

وروي في الأحاديث عن عديد من الصحابة أن رسول الله صلي الله عليه وسلم كان يخطب ذات مرة، فسأله بعض الناس بعض الأسئلة التي لم يحبها رسول الله صلي الله عليه وسلم، فغضب رسول الله صلي الله عليه وسلم وقال: سلوني عما شئتم، فقام شخص وقال: يا رسول الله، من أبي، فقال ﷺ: أبوك حذافة، فقام آخر وقال: وما اسم أبي، قال ﷺ: أبوك سالم مولى شيبة، وهكذا كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: سلوني سلونى، عندئذ تقدم سيدنا عمر رضي الله عنه وقال: يا رسول الله، إننا نتوب إلى الله عز وجل، ومحمداً رسولنا والإسلام ديننا. ([1])

يقول الصحابة خطب رسول الله صلي الله عليه وسلم ذات يوم بعد صلاة الصبح حتى صلاة الظهر، وبعد صلاة الظهر خطب حتى صلاة العصر، ثم صلي العصر، وبعدها خطب حتى غروب الشمس، وفي هذه الخطبة الطويلة شرح النبي صلي الله عليه وسلم للناس ما كان وما سيكون، أي من بداية الخلق وحتى يوم القيامة، وخلق العالم،

---

[1] ــ صحيح البخاري، كتاب العلم، باب الغضب في الموعظة والتعليم. وهذا نص الحديث كما ورد في باب من برك على ركبتيه عند الإمام أو المحدث: (٩٣) حدثنا أبو اليمان قال أخبرنا شُعَيبٌ عن الزهري قال: أخبرَني أنسُ بنُ مالكٍ: أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم خَرجَ، فقام عبد اللهِ بن حُذافةَ فقال: مَنْ أبي؟ فقال: أبوكَ حُذافةُ. ثم أكثَرَ أنْ يقولَ: «سَلُوني». فَبَرَكَ عُمرُ على ركبَتَيْهِ فقال: رَضينا باللهِ ربًّا، وبالإسلامِ ديناً، وبمحمدٍ صلى الله عليه وسلم نبيّاً. فَسكتَ. وهذا نصه كما ورد في باب الغضب في الموعظة والتعليم: (٩٢) حدَّثنا محمدُ بنُ العلاءِ قال: حدثنا أبو أُسامةَ عن بُرَيدٍ عن أبي بُرْدَةَ عن أبي موسى قال: «سُئلَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم عن أشياءَ كرِهَها، فلمَّا أُكثِرَ عليهِ غَضِبَ ثمَّ قال للناسِ: سَلُوني عمّا شِئتُم، قال رَجُلٌ: مَن أبي؟ قال: أبوكَ حُذافَةُ. فقام آخرُ فقال: مَن أبي يا رسول الله؟ فقال: أبوكَ سالمٌ مولى شَيْبَةَ. فلمّا رأى عُمرُ ما في وَجهِهِ قال: يا رسول اللهِ إنّا نَتُوبُ إلى اللهِ عَزَّوَجلَّ. (يوسف عامر).

وعلامات الساعة، والفتن والحشر والبعث، وكان الصحابة يقولون لقد نسي كثير من الناس كثيراً من هذا الكلام، والبعض لا يزال يذكره، وكلما وقعت واقعة مما بين رسول الله صلي الله عليه وسلم شعرنا وكأن صورة شخص ما تزول من الذهن ثم نتذكرها عندما نراه ([1])

وفي اليوم الذي مات فيه النجاشي ملك الحبشة ــ والذي لجأ إليه المسلمون في عهد حكومته، والذي اعترف بصدق الإسلام ــ أعلم رسول الله صلي الله عليه وسلم صحابته بالأمر، ونعاه فى اليوم الذي مات فيه خرج إلى المصلى فصف بهم وكبر أربعا.([2])

وفي عام ٨هــ وقعت غزوة مؤتة، فسلم رسول الله صلي الله عليه وسلم لواء الجيش إلي زيد بن حارثة رضي الله عنه، و«أمَّرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في غزوةِ مؤتةَ زيدَ بن حارثة فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: إن قُتلَ زيدٌ فجعفرٌ، وإن قتلَ جعفرٌ فعبدُ الله بن رَواحةَ "([3]) وأمر ﷺ بأنه إذا أستشهد عبد الله بن رواحة فليجعل المسلمون من يشاءون عليهم بعد تشاورهم. وهذا الكلام فيما يتعلق بالقيادة بيان لما سيحدث، وقد استشهد زيد أولاً في ميدان الحرب، فخلفه جعفر، فاستشهد فداءاً لعلم النبوة هو الآخر، ثم تقدم عبد الله بن رواحة، فاستشهد هو الآخر، وعندئذٍ وليّ المسلمون أمرهم لخالد بن الوليد، ولأنهم كان عليهم مواجهة سلطنة الروم القوية في هذه الحرب، لهذا فقد شعروا بالخوف والاضطراب كثيراً، وفي الوقت نفسه حيث كانت هذه الأحداث الدامية

---

[1] ــ صحيح مسلم، باب أخبار النبي ﷺ فيما يكون إلي قيام الساعة.

[2] ــ صحيح البخاري، كتاب الجنائز، وصحيح مسلم. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري: (١٢٢٥) ـــ حدَّثنا إسماعيلُ قال حدَّثني مالكٌ عنِ ابنِ شِهابٍ عن سعيدِ بنِ المسيَّبِ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنهُ «أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم نَعى النجاشيَّ في اليومِ الذي ماتَ فيه، خَرَجَ إلى المُصلَّى فصَفَّ بهم وكبَّرَ أربعاً». (يوسف عامر).

[3] ــ وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح البخاري، باب غزوة مؤته من أرض الشام: (٤١٦٢) ـــ أخبرَنا أحمدُ بن أبي بكرٍ حدثَنا مُغيرةُ بن عبد الرحمنِ عن عبدالله بن سعيدٍ عن نافع عن عبدالله بن عمرَ رضيَ الله عنهما قال: «أمَّرَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم في غزوةِ مؤتةَ زيدَ بن حارثة فقال رسولُ الله صلى الله عليه وسلم: إن قُتلَ زيدٌ فجعفرٌ، وإن قتلَ جعفرٌ فعبدُ الله بن رَواحةَ. قال عبدُ الله: كنتُ فيهم في تلك الغزوةِ، فالتمسْنا جعفرَ بن أبي طالب، فوجَدناهُ في القتلى، ووجدنا مافي جسدهِ بضعاً وتسعينَ من طعنةٍ ورَميةٍ». (يوسف عامر).

تحدث بعيداً عن المدينة علي حدود الشام صعد رسول الله صلي الله عليه وسلم المنبر، ونزلت الدموع من عينيه الشريفتين وقال: «أخذَ الرّايةَ زيدٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخذَها جعفَرٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخذَها عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ فأصيبَ ــ وإنَّ عَيْنَيْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَتَذْرِفانِ ــ ثمَّ أخذَها خالدُ بنُ الوَليدِ مِن غيرِ إمْرَةٍ ففُتِحَ له»[1]

وفي إحدى الغزوات كان أحد الأشخاص يهاجم بشجاعة كبيرة، ورآه الصحابة فأثنوا عليه، لكن رسول الله صلي الله عليه وسلم أخبر عندما رآه بأنه في جهنم، فتعجب الصحابة من ذلك كثيراً، وتبعه أحد الصحابة، وفي مكان ما جرح هذا الشخص، ولم يتحمل ألم الجراح فانتحر، فجاء ذلك الصحابي إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم مسرعاً وقال: أشهد أنك رسول الله. فسأل صلي الله عليه وسلم عن الأمر، فقال: لقد تبعت ذلك الشخص الذي قلت عنه أنه من أهل النار، والذي تعجب الناس مما قلت، فرأيته انتحر من صدمة الجرح الذي أصابه [2]

وفي غزوة من الغزوات قتل شخص كان مشاركاً فيها، فأخبر رجل رسول الله صلي الله عليه وسلم قائلاً: يا رسول الله، لقد استشهد فلان، فأجاب صلي الله عليه وسلم بأن هذا غير ممكن، فالشهادة ليست له، إذ رآه ﷺ في النار، لأنه سرق عباءة من مال الغنيمة. [3]

وحاصر المسلمون الطائف عام ٨هـ، وعلم رسول الله صلي الله عليه وسلم أن فتح الطائف لن يكون بهذا الحصار، لهذا قال رسول الله صلي الله عليه وسلم ذات يوم: إنا قافلونَ إن شاء الله، فشق علي الناس أن يعودوا بغير تحقيق النصر بعد كل هذا الجهد والمقاومة، وقالوا لن نعود حتى نحقق النصر. فقال صلي الله عليه وسلم: اغدوا على القتال، فغَدوا، وهكذا حارب المسلون في اليوم التالي، فأصابتهم خسارة كبيرة، وفي المساء قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: إنا قافلونَ غداً إن شاءَ الله، فتعجب منه

---

[1] ــ صحيح البخاري ـــ كتاب الجنائز، وباب علامات النبوة في الإسلام وغزوة مؤتة. وهذا نص الحديث: (١٢٢٦) ـــ حدثَّنا أبو مَعْمرٍ حدثَّنا عبدُ الوارثِ حدثَّنا أيوبُ عن حُميدِ بن هلالٍ عن أنسِ بن مالكٍ رضيَ اللهُ عنهُ قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم «أخذَ الرّايةَ زيدٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخذَها جعفَرٌ فأُصيبَ، ثمَّ أخذَها عبدُ اللهِ بنُ رواحةَ فأصيبَ ــ وإنَّ عَيْنَيْ رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم لَتَذْرِفانِ ــ ثمَّ أخذَها خالدُ بنُ الوَليدِ مِن غيرِ إمْرَةٍ ففُتِحَ له» (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح البخاري ـــ كتاب الجهاد ـــ ص٤٠٦ ـــ باب العمل بالخواتيم ـــ ص١٧٧.

[3] ــ جامع الترمذي ـــ باب ما جاء في الغلول.

المسلمون، وابتسم رسول الله صلي الله عليه وسلم ([1]) وكأنه يقول إنكم لا تعلمون حقيقة الحال مثلي.

كان عمير بن وهب من ألد أعداء الإسلام، وكان يجلس هو وصفوان بن أمية في الكعبة ينعون قتلي بدر، وفي النهاية تآمر الاثنان علي أن يدخل عمير المدينة خفية، ويقتل رسول الله صلي الله عليه وسلم، فإذا ما قتل عمير فإن صفوان يتكفل بسداد جميع ديونه ومصاريف تربية أولاده، وعاد عمير إلي بيته فتناول سيفه وغمسه في السم، واتجه إلي المدينة، وعندما وصل إلي المدينة رآه عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأمسك به وذهب به إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم فسأله الرسول صلي الله عليه وسلم: فما جاء بك يا عمير ؟ قال: جئت أخلص ولدي، فقال صلي الله عليه وسلم: "بل قعدت أنت وصفوان بن أمية فى الحجر، فذكرتما أصحاب القليب من قريش، ثم قلت: لولا دين عليّ وعيال عندي لخرجت حتى أقتل محمدًا، فتحمل لك صفوان بدينك وعيالك على أن تقتلني له والله حائل بينك وبين ذلك؟"([2]) وأسقط في يد عمير عندما سمع هذا الكلام الذي كان في طي الكتمان، وتعجب كثيراً، ثم قال: يا محمد، إنك لرسول الله صلى الله عليه وسلم، ووالله لم يكن أحد يعرف بهذا الأمر غيري أنا وصفوان ([3])

ويقول سيدنا وابصة الأسدى الصحابي جئت إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم ذات مرة أسأله عن حقيقة العمل الصالح والذنب، ولكن قبل أن أقول شيئاً إذ برسول الله صلي الله عليه وسلم يقول: يا وابصة أخبرك أو تسألني؟. قلت نعم يا رسول الله، قال: جئت تسألني عن البر والإثم، قلت: قسماً بالذي أرسلك بالحق لقد صدقت. قال: البر ما

---

[1] ـ صحيح البخاري ومعلم ـ غزوة الطائف. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري: (٤٢٢٢) ـ حدثَنا عليُّ بن عبد الله حدثَنا سفيانُ عن عمرو عن أبي العبّاس الشاعر الأعمى عن عبد اللهِ بن عمر قال: «لما حاصرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الطائف فلم يَنَلْ منهم شيئاً قال: إنا قافلونَ إن شاء الله، فثَقُلَ عليهم وقالوا: نذهَبُ ولا نَفتَحُه؟ وقال مرةً نقفلُ، فقال: اغدوا على القِتال، فَغَدَوا، فأصابهم جِراحٌ، فقال: إنا قافلونَ غداً إن شاءَ الله، فأعجَبَهم، فضحكَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم. وقال سفيانُ مرةً فتبسَّم» قال: قال الحُميديُّ: حدثَنا سفيانُ الخبرَ كلَّه. (يوسف عامر).

[2] ـ وهذا كما ورد فى كتاب السيرة النبوية لابن هشام ج٢ ص ٢٠٩(يوسف عامر).

[3] ـ تاريخ الطبري، برواية عروة بن الزبير، ص٣٠٤، ط أوربا.

اطمأنت إليه النفس والإثم ما حاك في النفس وتـردد فـي الصـدر وإن أفتـاك النـاس وأفتوك».([1])

وذات يوم دعت إحدى الصحابيات رسول الله صلي الله عليه وسلم علي الطعام، فذبحت شاة، وقدمتها له صلي الله عليه وسلم ولأصحابه، وما أن تناول منها رسول الله صلي الله عليه وسلم لقمة حتى أخبر بأن هذه الشاة قد ذُبحت بغير إذن مالكها، فقالت الصحابية: يا رسول الله ليس بين أسرتنا وآل معاذ حاجة للاستئذان، فهم يأخذون أشياءنا بغير تكلف ونحن كذلك ([2])، وفي رواية أخرى أنها أجابت رسول اله صلي الله عليه وسلم قائلة يا رسول الله، لقد طلبت هذه الشاة من جارتي، وقد أعطتني إياها بغير إذن زوجها.

وفي غزوة خيبر دعت يهودية رسول الله صلي الله عليه وسلم علي طعام، وكان من بينــه شاة، وهمّ رسول الله صلي الله عليه وسلم هو وأصحابه بالأكل منها، وما أن رفع لقمته الأولي حتى أمر أصحابه بأن يتوقفوا عن الطعام، إذ أن هذا اللحم مسموم، وبعد ذلك أمر رسول الله صلي الله عليه وسلم أن يجمع يهود خيبر جميعاً، اجْمَعوا لي مَن كان هاهنا من يَهودَ، فجُمعوا له، فقال: إني سائلُكم عن شيء، فهل أنتم صادِقيَّ عنه؟ فقالوا: نعم. قال لهمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: مَن أبوكم؟ قالوا: فلانٌ. فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان. قالوا: صدَقتَ. قال: فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ إن سألتُ عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبْنا عرَفت كذبَنا كما عرَفتَهُ في أبينا. فقال لهم: مَن أهلُ النار؟ قالوا: نكون

---

[1] ــ مسند ابن حنبل، حديث وابصة الأسدي وأبي يعلي والبيهقي في حلية الأولياء، ذكر وابصة بن معبد الجهني والبزار. وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد بن حنبل: (١٧٦٦٨) حدثنا عبــدالله حدثني أبي حدثنا عفان حدثنا حماد بن سلمة أنبانا الزبير أبو عبدالسلام عن أيوب بن عبدالله بن مكرز ــ ولم يسمعه منه قال: حدثني جلساؤه وقد رأيته عن وابصة الأسدي ــ قال عفان: حدثني غير مرة ولم يقل حدثني جلساؤه ــ قال: «أتيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أريد أن لا أدع شيئاً من البر والإثم إلاّ سألته عنه وحوله عصابة من المسلمين يستفتونه، فجعلت أتخطاهم، قالوا: إليك يا وابصة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم، قلت: دعوني فأدنو منه فإنه أحبّ الناس إليّ أن أدنو منه، قال: دعوا وابصة، أدن يا وابصة ــ مرتين أو ثلاثاً ــ قال: فدنوت منه حتى قعدت بين يديه، فقال: يا وابصة أخبرك أو تسألني؟ قلت: لا، بل أخبرني؟ فقال: جئت تسألني عن البر والإثم؟ فقال: نعم، فجمع أنامله فجعل ينكت بهن فــي صدري ويقول: يا وابصة استفت قلبك واستفت نفسك ــ ثلاث مرات ــ البر ما اطمأنــت إليــه الــنفس والإثم ما حاك في النفس وتردد في الصدر وإن أفتاك الناس وأفتوك».(يوسف عامر).

[2] ــ سنن النسائي والحاكم في المستدرك عن جابر.

فيها يَسيراً، ثمَّ تخلفُونا فيها. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اخسئوا فيها، واللهِ لا نَخلُفكم فيها أبداً. ثمَّ قال: هل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ إن سألتُكم عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذهِ الشاةِ سُماً؟ قالوا: نعم. قال: ما حملَكم على ذلك؟ قالوا: إن كنتَ كاذباً نَستَريحُ، وإن كنتَ نَبيّاً لم يَضرَّك» ([1]).

وأراد سيدنا صهيب بن سنان رضي الله عنه المعروف بصهيب الرومي الهجرة في نفس الليلة التي هاجر فيها رسول الله صلي الله عليه وسلم، لكن الكفـــار منعوه، فظل واقفاً طيلة الليل ولم يجلس، فلما رأي الكفار حالته قالوا هيا لقد أجبره علي هذا مرض في بطنه، ثم تركوه ورحلوا، فلما رأي صهيب نفسه حراً طليقاً اتجه إلي المدينة، فأمسك به الكفار، وفي النهاية تركوه بعد أن أعطاهم بعض المال والذهب، ولما رآه رسول الله صلي الله عليه وسلم قال من فوره "ربح البيع أبا يحيى، ربح البيع أبا يحيى، فقال سيدنا صهيب يا رسول الله، لم يسبقني أحد إلي هنا ليخبرك بهذا السّر، إن الوحي هو الذي أخبرك ([2])

وذات يوم عاتبت السيدة والدة سيدنا حذيفة ابنها لأنه لم يذهب إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم لأيام عديدة، فاعتذر لها وقال اليوم أذهب وأطلب منه الدعاء لي ولك بالمغفرة وهكذا ذهب حذيفة بعد صلاة المغرب، ولما عاد رسول الله صلي الله عليه وسلم بعد صلاة العشاء تبعه حذيفة، فعرف رسول الله صلي الله عليه وسلم صوته، فقال: من

---

[1] ــ سنن أبي داود وكتاب الهبات، والدرامي كلام الموتى، والبيهقي.وهذا نص الحديث: (٣١٠٠) حدّثنا عبدُ اللهِ بنُ يوسفَ حدَّثَنا الليثُ قال: حدَّثني سعيدٌ عن أبي هريرةَ رضيَ اللهُ عنه قال: «لما فُتِحَت خَيبَــرُ أهدِيَت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم شاةٌ فيها سُمٌّ، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اجْمَعوا لي مَــن كــان هاهنا من يَهودَ، فجُمِعوا له، فقال: إني سائلُكم عن شيء، فهل أنتم صادقيَّ عنه؟ فقالوا: نعم. قــال لهــمُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: مَن أبوكم؟ قالوا: فلانٌ. فقال: كذبتم، بل أبوكم فلان. قالوا: صدقتَ. قال: فهل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ إن سألتُ عنه؟ فقالوا: نعم يا أبا القاسم، وإن كذَبنا عرَفت كذبَنا كما عرَفتَــهُ فــي أبينا. فقالَ لهم: مَن أهلُ النار؟ قالوا: نكون فيها يَسيراً، ثمَّ تخلفُونا فيها. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: اخسَؤوا فيها، واللهِ لا نَخلُفكم فيها أبداً. ثمَّ قال: هل أنتم صادقيَّ عن شيءٍ إن سألتُكم عنه؟ فقالوا: نعم يــا أبا القاسم. قال: هل جعلتم في هذهِ الشاةِ سُماً؟ قالوا: نعم. قال: ما حملَكم على ذلك؟ قالوا: إن كنتَ كاذباً نَستَريحُ، وإن كنتَ نَبيّاً لم يَضرَّك». (يوسف عامر).

[2] ــ مستدرك الحاكم،الجزء الثالث، ص٤٠٠، صحيح الذهبي وقد صرح بها في ذكر هجرة صهيب.

هذا ؟ حذيفة ! مَا حَاجَتُكَ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلأُمِّكَ؟ ([1])، وكأن التماس سيدنا حذيفة وصل إلي سمع النبي صلي الله عليه وسلم قبل أن ينطق به حذيفة.

وكان الصحابة علي يقين من قوة معرفة النبي صلي الله عليه وسلم حتى أنهم طالما كان رسول الله صلي الله عليه وسلم حياً كانوا عند كل عمل يقومون به يخافون أن يخبر الله به رسوله صلي الله عليه وسلم، حتى يقول ابن عمر رضي الله عنهما أننا في حياة النبي صلي الله عليه وسلم كنا نخاف في لقائنا مع زوجاتنا أن ينزل في القرآن شيء عنا ونفتضح.([2]) وبالإضافة إلي ذلك كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يعرف جميع أحوال المنافقين من الداخل، بل وأسماءهم أيضاً. ([3])

---

[1] ـ سنن الترمذي، مناقب الحسنين. وهذا نص الحديث: (٣٩٤٣) حَدَّثَنَا عبدُ اللَّهِ بن عَبْـدِ الـرَّحْمَنِ وَإسْحَاقُ بنُ مَنصورٍ قالاَ أخبرنا مُحمّدُ بنُ يُوسُفَ عَن إسْرَائِيلَ عَن مَيْسَرَةَ بن حَبِيبٍ عَن المِنْهَالِ بنِ عَمْرٍو عَن زِرِّ بنِ حُبَيْشٍ عَن حُذَيْفَةَ قالَ: «سَألَتْنِي أُمِّي مَتَى عَهْدُكَ؟ تَعنِي بالنبيِّ فَقُلْتُ مَالِي بِهِ عَهْدٌ مُنْـذُ كَـذَا وكَذَا، فَنَالَتْ مِنِّي فَقُلْتُ لَهَا دَعِينِي آتِي النبيَّ فَأُصلِّي مَعَهُ المَغرِبَ وَأسْألُهُ أنْ يَستَغفِرَ لِي ولَكِ فأتَيْتُ النبيَّ فَصلَّيْتُ مَعَهُ المَغْرِبَ فَصلَّى حَتَّى صلَّى العِشَاءَ ثُمَّ انفَتَلَ فَتَبِعتُهُ فَسَمِعَ صَوتِي فقالَ: مَنْ هَذَا حُذَيْفَةُ ؟ قُلْتُ نَعَمْ. قالَ: مَا حَاجَتُكَ غَفَرَ اللَّهُ لَكَ وَلأُمِّكَ؟ قال: إنَّ هَذَا مَلَكٌ لَمْ يَنْزِلْ الأرْضَ قَطُّ قَبْلَ هَذِهِ اللَّيْلَةِ، اسْـتَأْذَنَ رَبَّهُ أنْ يُسَلِّمَ عَلَيَّ وَيُبَشِّرَنِي بِأَنَّ فاطِمَةَ سَيِّدَةُ نِساءِ أهْلِ الْجَنَّةِ، وَأَنَّ الْحَسَنَ والْحُسَيْنَ سَيِّدَا شَـبَابِ أهْـلِ الْجَنَّةِ».

قال أبو عيسَى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ مِنْ هَذَا الوَجْهِ لا نَعْرِفهُ إلاَّ مِنْ حَدِيثِ إسْرَائِيلَ. (يوسف عامر).

[2] ـ صحيح البخاري، مسند أحمد، جـ٢، ص٦٢.

[3] ـ صحيح البخاري.

إجابة أسئلة أهل الكتاب

يعلم الجميع من عدو أو صديق، ومن مؤيد أو مخـالف أن النبي صلي الله عليه وسلم كان أمياً، ولم يكن لديه معرفة تعليمية بالكتب الدينية لليهود والنصارى، ولم يقرأ رسول الله صلي الله عليه وسلم صفحة واحدة من التوراة والإنجيل أو مما كتبه علماء اليهود والنصارى من شروح لهما، أو من مؤلفات دينية أخرى، وكانت هذه هي آخر الأشياء التي أصبحت جزءاً من إيمان وعقائد اليهود والنصارى في ذلك الوقت، وكما اشتهرت هذه الكتب وراجت بين عامة الناس، ومع ذلك فإن إجابته صلي الله عليه وسلم علي أسئلتهم يعد شهادة واضحة علي تعليمه صلي الله عليه وسلم الروحاني، فحين أعلن النبي صلي الله عليه وسلم نبوته في مكة لم يصدق كفار العرب بصفة عامة دعواه هذه، ولهذا طلبوا منه الإتيان بالمعجزات، وحين جاءتهم المعجزات قالوا إنه ساحر، ثم واتتهم فكرة بأن يلتقوا بيهود يثرب وخيبر والشام، ويسألونهم عن بعض الأسئلة التي يمكن أن يطلبوا إجاباتها من رسول الله صلي الله عليه وسلم، ولأنهم لم يكونوا متعلمين، ولم يكن في مكة أيضاً متعلمون يمكنهم الإجابة عن هذه الأسئلة، لهذا فإنه صلي الله عليه وسلم لن يستطيع الإجابة عنها، وبالتالي يمكن القضاء علي مدّعي النبوة هذا، ويتضح كذبه للجميع، وهكذا التقوا باليهود علي هذا الأساس، وأخبروهم عن أحواله صلي الله عليه وسلم، وطلبوا منه بعض الأسئلة يوجهونها إلي النبي صلي الله عليه وسلم، فأعطوهم بعض الأسئلة يوجهونها إليه صلي الله عليه وسلم فإن لم يكن نبياً حقاً فلن يستطيع الإجابة عنها.

كانت هذه الأسئلة عبارة عن ثلاثة أسئلة تاريخية، عن حال أصحاب الكهف، وعن واقعة لقاء موسى عليه السلام بالخضر، وعن قصة ذي القرنين، وقد عرف النبي صلي الله عليه وسلـم بهذه القصص الثلاث عن طريق الوحي، وقرأها النبي صلي الله عليه وسلم عليهم، وهكذا جاءت هذه القصص الثلاث في سورة الكهف، وجاء في القصة الأخيرة أنها إجابة علي سؤال الكفار: " ويسألونك عن ذي القرنين قل سأتلوا عليكم منه ذكرا " (الكهف: ٨٣).

وحين هاجر النبي صلي الله عليه وسلم من مكة إلي المدينة والتي كانت مدينة لليهود، أرادوا أن يختبروا مدّعي النبوة هذا في ادعائه للنبوة بأسئلة من الكتب، لأنهم كانوا

علي يقين بأنه لا يعرف شيئاً عن كتبهم، وبالتالي لن يستطيع الإجابة علي الأسئلة، وإن قال بأن هذه الأسئلة أو الكتب التي أخذت منها ليست معتبرة، فإن هذه الكتب لها مكانة كبيرة في نفوس اليهود بحيث أن تكذيبها سيكشف جهل محمد وكذب دعواه (نعوذ بالله)، ولكن لم يكن كل الحضور ذوي نية سيئة، وإنما كان منهم أصحاب النوايا الحسنة أيضاً، وكانوا يعتقدون بحسن نية أن الأسرار الكامنة في كتبهم لا يعرفها إلا نبي.

روي في صحيح البخاري عن سيدنا أنس رضي الله عنه أنه عندما جاء رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي المدينة المنورة حضر إليه أحد يهود المدينة وهو اليهودي المعروف عبد الله بن سلام، وقال سأسألك ثلاثة أسئلة لا يستطيع الإجابة عنها إلاّ نبي، أخبرني ما هي أول علامة من علامات القيامة ؟ وما هو أول غذاء لأهل الجنة ؟ ولماذا يشابه الولد أمه أحياناً، ويشابه أباه أحياناً أخرى ؟ فقال صلي الله عليه وسلم: أما أوّل أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أوّل ما يأكل منه أهل الجنة زيادة كبد حوت، وأما شبه الولد أباه وأمه فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها."، فلما سمع عبد الله بن سلام هذه الإجابة قال أشهد أنك نبي.([1])

وجاء في صحيح مسلم أن سيدنا ثوبان قال: أنه ذات مرة جاء يهودي إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وقال يا محمد، سأسألك بعض الأسئلة، فأجبني عليها، فسأله صلي

---

[1] ــ وهذا نص الحديث كما ورد فى مسند الإمام أحمد بن حنبل: (١١٨٠١) ـــ حدّثنا عبد الله، حدّثني أبي، حدثنا ابن أبي عدي، عن حميد، عن أنس «أن عبد الله بن سلام أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم مقدمه المدينة، فقال: يا رسول الله صلى الله عليه وسلم إني سائلك عن ثلاث خصال لا يعلمهن إلا نبي؟ قال: سل، قال: ما أوّل أشرط الساعة؟ وما أوّل ما يأكل منه أهل الجنة؟ ومن أين يشبه الولد أباه وأمه ؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أخبرني بهنّ جبريل عليه السلام آنفاً قال: ذلك عدوّ اليهود من الملائكة. قال: أما أوّل أشراط الساعة فنار تخرج من المشرق فتحشر الناس إلى المغرب، وأما أوّل ما يأكل منه أهل الجنة زيادة كبد حوت، وأما شبه الولد أباه وأمه فإذا سبق ماء الرجل ماء المرأة نزع إليه الولد وإذا سبق ماء المرأة ماء الرجل نزع إليها. قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله، وقال: يا رسول الله إن اليهود قوم بهت، وإنهم إن يعلموا بإسلامي يبهتوني عندك، فأرسل إليهم فأسالهم عني، أي رجل ابن سلام فيكم؟ قال: فأرسل إليهم فقال: أي عبد الله بن سلام فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا، وعالمنا وابن عالمنا، وأفقهنا وابن أفقهنا، قال: أرأيتم إن أسلم تسلمون؟ قالوا: أعاذه الله من ذلك، قال: فخرج ابن سلام قال: أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، قالوا: شرنا وابن شرنا، وجاهلنا وابن جاهلنا، فقال ابن سلام: هذا الذي كنت أتخوّف منه». (يوسف عامر).

الله عليه وسلم عمّ إذا كانت ستنفعه إجابته ﷺ أم لا؟ قال أسمع، قل لي أين سيكون الناس حين تتبدل الأرض والسماء يوم القيامة ؟ فقال صلي الله عليه وسلم(ما معناه) في الظلام خلف اللحظة، فسأله السؤال الثاني من سوف يُسمح له بدخول الجنة أولاً ؟ فأجابه أولئك الفقراء الذين سيفقدون بيوتهم في سبيل الحق، فقال الآن أسألك عن أمر لا يستطيع الإجابة عنه علي وجه الأرض سوي نبي وأشخاص قلائل، لماذا يكون المولود مذكراً أحياناً ومؤنثاً أحياناً أخرى ؟ فأخبره صلي الله عليه وسلم أن نطفة الرجل بيضاء ونطفة المرأة صفراء، وإذا غلبت نطفة الرجل حين يلتقيان علي نطفة المرأة يكون المولود ذكراً بإذن الله، أما إذا غلبت نطفة المرأة يكون أنثي، فلما سمع اليهودي هذا الجواب قال: إنك نبيّ، ثم رحل، فأخبر النبي صلي الله عليه وسلم بأن الله قد ألقي إليه بهذه الإجابات، ولم يكن يعرفها قبلاً.

وجاء في مسند أبي داؤد الطيالسي أن بعض اليهود جاءوا إلي النبي صلي الله عليه وسلم ذات مرة، وقالوا نريد أن نسألك عن أمور لا يستطيع الإجابة عنها سوي نبيّ، فأذن لهم النبي صلي الله عليه وسلم بأن يسئلوا عمّ يريدون، ولكن بشرط أن يسلموا إن أجابهم الإجابات الصحيحـــة، فوافقوا علي شرطه، وسمح لهم النبي ﷺ بأن يسئلوا ما يريدونه، قالوا أجبنا عن أربعة أسئلة، الأول ما هي قصة الطعام الذي حرمه يعقوب علي نفسه قبل نزول التوراة، والثاني: كيف تكون النطفة الواحدة مذكرة مرة ومؤنثة مرة أخرى ؟ والثالث: ما هي علامة النبي الأمي في التوراة، والرابع: من هو حارسك من بين الملائكة. فقال صلي الله عليه وسلم مجيباً إياهم(بما معناه): استحلفكم بالله الذي أنزل التوراة علي موسى أنكم تعرفون أن سيدنا يعقوب مرض ذات مرة، فنذر إن تحسنت صحته أنه سيتخلى عن أفضل طعام يحبه، وكان أفضل طعام يحبه هو لحم الإبل، وأفضل شراب هو لبنها، وهكذا تخلى عن لحم الإبل ولبنها بعد أن تماثل للشفاء، فقال اليهود اللهم إن هذا صدق، فقال صلي الله عليه وسلم اللهم فاشهد، ثم قال: استحلفكم بالله الذي أنزل التوراة علي موسى، أنتم تعرفون أن نطفة الرجل تكون ذات قوام سميك ولونها أبيض، بينما نطفة المرأة ذات قوام أقل سمكاً ولونها أصفر، وما يغلب منهما علي الآخر ينتج عنه الولد بأمر الله ويكون مشابهاً لصاحبها، فقالوا اللهم إن هذا صدق، فقال صلي الله عليه وسلم اللهم فاشهد، ثم قال: استحلفكم بالله الذي أنزل لتوراة علي موسى، أنتم تعلمون أن عيني هذا النبي ستنامان، ولن ينام قلبه، فقالوا اللهم نعم، فقال صلي الله عليه وسلم اللهم

فاشهد، فقال اليهود أخبرنا من هو رفيقك من الملائكة ؟ وإما أن نكون معك بعد الجواب أو نفترق عنك، فقال صلي الله عليه وسلم رفيقي هو جبريل، ولم يأت في الدنيا نبي لم يكن هو رفيقه، فقال اليهود فنحن اليهود إذاً لا يمكن أن نكون معك، لأنه عدونا.

وجاء في صحيح البخاري باب تفسير (بني إسرائيل) أن سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال ذات يوم كنت مع رسول الله صلي الله عليه وسلم في حقل، فقابلنا بعض اليهود، فقال أحدهم لأصحابه يجب أن نسأل محمداً شيئاً، وقال بعضهم لا ضرورة لذلك، فربما أجابكم بما لا تحبون، وفي النهاية قرروا أنهم يجب أن يسألوه علي أية حال، فسألوه: يا محمد، أخبرنا ما الروح ؟ فصمت رسول الله صلي الله عليه وسلم. يقول سيدنا ابن مسعود رضي الله عنه فعرفت أن الوحي ينزل علي رسول الله صلي الله عليه وسلم، وبعد أن نزل الوحي قرأ رسول الله صلي الله عليه وسلم هذه الآية: " ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً " (الإسراء: ٨٥)[1]

وجاء في جامع الترمذي (تفسير بني إسرائيل)، ومستدرك الحاكم جـ١ ـ ص٩، وفي مسند أحمد أن سيدنا صفوان بن عسال مرادي يروي أن يهوديين كانا يسيران في الطريق، فقال أحدهما للآخر تعال نسأل هذا النبي شيئاً، فقال الآخر لا تقل عنه نبي، سوف يسمعك وأنت تقول عنه نبي وسوف يغرّه ذلك، ثم ذهبا بعد ذلك إلي رسول الله صلي الله عليه وسلم وسألاه ما هي الأحكام التسعة التي نزلت علي موسى، فقال رسول الله صلي الله عليه وسلم: " لا تُشْرِكُوا بالله شَيْئاً، ولا تَزْنُوا، ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بِالْحَقِّ، ولا تَسْرِقُوا، ولا تَسْحَرُوا، ولا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى سُلْطَانٍ فَيَقْتُلَهُ، ولا تَأْكُلُوا الرِّبَا، ولا تَقْذِفُوا مُحْصَنَةً، ولا تَفِرُّوا مِنَ الزَّحْفِ ــ شَكَّ شُعْبَةَ ــ وَعَلَيْكُمْ يا معشر الْيَهُودَ خاصَةً، ألاَّ تَعْتَدُوا في السَّبْتِ. فَقَبَّلاَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وَقَالاَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ نِبيٌّ. قال: فمَا يَمْنَعُكُمَا

---

[1] ــ وقد ورد فى سنن الترمذي، كتاب التفسير، باب تفسير سورة الإسراء: (٣٢٥٤) ـــ حدثنا عَلِيُّ بنُ خَشْرَمٍ، أخبرنا عِيسَى بنُ يُونُسَ، عن الأعمَشِ عن إبراهِيمَ، عن عَلْقَمَةَ عن عَبْدِ الله، قال: «كُنْتُ أَمْشي مَعَ النَّبيِّ في حَرْثٍ بالمَدِينَةِ وَهُوَ يَتَوَكَّأُ عَلَى عَسِيبٍ، فَمَرَّ بِنَفَرٍ مِنَ الْيَهُودِ، فقال بَعْضُهُمْ: لَوْ سَأَلْتُمُوهُ، فقال بَعْضُهُمْ: لا تَسْأَلُوهُ فَإِنَّهُ يُسْمِعُكُمْ ما تَكْرَهُونَ، فقالُوا له: يَا أَبَا الْقَاسِمِ حَدِّثْنَا عَنِ الرُّوحِ، فَقَامَ النَّبيُّ سَاعَةً وَرَفَعَ رَأْسَهُ إِلَى السَّماءِ، فَعَرَفْتُ أَنَّهُ يُوحَى إِلَيْهِ حَتَّى صَعَدَ الْوَحْيُ، ثُمَّ قال: {الروحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً} ».

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

أَنْ تُسلِمَا ؟ قالا: إنَّ دَاوُدَ دَعا الله أَنْ لا يَزَالَ في ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخَافُ إِنْ أَسْلَمْنَا أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ».([1])

[1] ــ وهذا نص الحديث كما ورد في سنن الترمذي كتاب التفسير، باب تفسير سورة الإسـراء: (٣٢٥٧) حدثنا مَحْمُودُ بنُ غَيْلاَنَ، أخبرنا يَزِيدُ بنُ هَارُونَ وَأَبو دَاوُدَ وَأَبو الْوَلِيدِ ــ وَاللَّفْظُ لَفْظُ يَزِيدَ وَالمَعْنَى وَاحِدٌ ــ عن شُعْبَةَ عن عَمْرو بن مُرَّةَ عن عَبْدِ الله بنِ سَلَمَةَ عن صَفْوَانَ بن عَسَّالٍ المُرَادِيِّ، «أَنَّ يَهُودِيَّيْنِ قَالَ أَحَدُهُمَا لِصَاحِبِهِ: اذْهَبْ بِنَا إِلَى هَذَا النَّبيِّ نَسأَلُهُ. فقال: لا تَقُلْ لَهُ نَبِيٌّ، فإِنَّهُ إنْ يَسْمَعْهَا تَقُولُ لَهُ نَبِيٌّ كَانَتْ لَهُ أَرْبَعَةُ أَعْيُنٍ. فأَتَيَا النَّبيَّ فَسَأَلاَهُ عَنْ قَوْلِ الله عز وجل: «وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى تِسْعَ آيات بَيِّنَـاتٍ»، فقـال رسولُ الله: لا تُشْرِكُوا بالله شَيْئاً، ولا تَزْنُوا، ولا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ الله إلاَّ بِالْحَقِّ، ولا تَسْـرِقُوا، ولا تَسْحَرُوا، ولا تَمْشُوا بِبَرِيءٍ إِلَى سُلْطَانٍ فَيَقْتُلَهُ، ولا تأْكُلُوا الرِّبَا، ولا تَقْذِفُوا مُحْصَـنَةً، ولا تَفِـرُّوا مِـنَ الزَّحْفِ ــ شَكَّ شُعْبَة ــ وَعَلَيْكُمْ يا معشر الْيَهُودَ خاصَّةً، أَلاَّ تَعْتَدُوا في السَّبْتِ. فَقَبَّلاَ يَدَيْهِ وَرِجْلَيْهِ وقَالاَ: نَشْهَدُ أَنَّكَ نبيٌّ. قال: فمَا يَمْنَعُكُمَا أَنْ تُسلِمَا ؟ قالا: إنَّ دَاوُدَ دَعا الله أَنْ لا يَزَالَ في ذُرِّيَّتِهِ نَبِيٌّ، وَإِنَّا نَخَافُ إِنْ أَسْلَمْنَا أَنْ تَقْتُلَنَا الْيَهُودُ».

قال أبو عيسَى: هذا حديثٌ حسنٌ صحيحٌ. (يوسف عامر).

الإخبار بالغيب، أو التنبؤ

إن أكثر مشهد مؤلم يعبر عن عجز الفطرة البشرية وقلة حيلتها هو جهلها بالمستقبل وعدم الوقوف عليه، إذ تضرب الفطرة المضطربة للإنسان بأيديها وأقدامها كيفما كان في بحر ظلمات المستقبل، ثم تعترف بجهلها وحمقها بعد أن يصيبها التعب والإرهاق، ولهذا فهي مضطرة إلي أن تجعل من معرفة هذا البحر الذي لا شاطئ له معياراً لاختيار من يدعي شيئاً فوق فطرة الإنسانية، وبالتالي فإن هذا الإخبار بالغيب أو التنبؤ يعد في نظر عامة الناس دليلاً قاطعاً وحجة خاتمة علي النبوة والرسالة، بل وعلي الولاية والصلاح بشكل عام، وهذا الأمر لازم لدي اليهود لدرجة أن لفظ نبي في لغتهم يعني المتنبئ، إذ أن لفظ " نبي " أو " نابي " باللغة العربية واللغة العبرية واللغات السامية الأخرى يعني باعتبار اللغة المتنبئ أو المخبر، ومعني النبوة: التنبؤ أو الإخبار، لهذا فإن حقيقة النبي لدي بني إسرائيل هي أنه رسول الغيب والمخبر بالعالم الخفي.

ولقد كان حال العرب قبل البعثة النبوية أنهم جميعاً كانوا متورطين في شباك الكهان، وكانت معابد الشرك عند العرب هي مملكة الكهان، يجلسون فيها، ويحكمون منها عقول العرب، وكان الناس يأتون إلي مشاهد الكهان من كل صوب وحدب، ويسألونهم عن أمور المستقبل والغيب، وكانوا هم يخبرونهم بالغيب بألفاظ وعبارات مقفاة مسجعة، وحين أرسل رسول الله صلي الله عليه وسلم نبياً بين العرب كان الإخبار بالغيب والتنبؤ هو أكبر دليل علي نبوته، وقد قدم رسول الله صلي الله عليه وسلم عشرات النبوءات، وعرض بعض أمور وأحداث المستقبل كأنه يراها رأي العين، وقد تحققت كل نبوءاته جميعاً.

هذا وقد صدرت هذه النبوءات عن النبي صلي الله عليه وسلم في أحوال مختلفة، وأطلع عليها النبي صلي الله عليه وسلم بصور مختلفة، علي سبيل المثال في شكل الوحي بالقرآن الكريم، وأحياناً في شكل الرؤيا، وأحياناً في شكل ألفاظ وآيات صادقة، وقد مرّ فيما سبق الحديث عن عالم الرؤيا، وفيما يلي بباقي النبوءات: ـــ

الإخبار بالفتوحات العظيمة:

لم يكن أحد يتصور في ضوء البداية المتواضعة للإسلام أن هؤلاء المسلمين القلائل العزل الفقراء ستتولد في سواعدهم قوة تقلب عروش كسري وقيصر، لكن الرسول

الصادق بشرهم في ذلك الوقت أن المسلمين سوف يفتحون القسطنطينية قريباً، وسوف يستولون علي المدائن، ويتحكمون في خزائن كسري وقيصر، وستدخل مصر في حكمهم، وسوف يحاربون الترك ذوي العيون الضيقة والوجوه العريضة (التركستانيين والمغول والأتراك) ([1])، وتستطيع الدنيا أن تكذب أياً منها.

هذا وقد كانت هذه النبوءات منفصلة أيضاً، إلا أنها بشكل عام قدمت في الوقت الذي كان فيه المسلمون محصورين في المدينة، والعرب يتوافدون عليها لمزيد من الحصار، وكل مسلم يتوقع أن يلقي حتفه في كل لحظة، وفي غزوة الخندق حينما كانوا يقومون بحفر الخندق حالت أمامهم صخرة كبيرة صماء، وعجز الصحابة عن تفتيتها، فحطمها النبي صلي الله عليه وسلم بضربة معجزة، ثم ضربها ثلاث مرات بعد ذلك، وفي كل مرة كان الشرر يتطاير منها، وفي كل مرة كان الرسول صلي الله عليه وسلم يهتف بقوله تعالي: " وتمت كلمة ربك صدقاً وعدلاً، لا مبدل لكلماته، وهو السميع العليم " (الأنعام: ١١٥)

وسأل بعض الصحابة عن حقيقة الأمر فأخبر النبي صلي الله عليه وسلم بأنه عندما ضرب الضربة الأولي تمثلت أمامه مدينة كسري والمدن المحيطة بها، حتى رآها بعينه، فقال الحضور، ادع الله أن يفتحها لنا يا رسول الله. فدعا رسول الله صلي الله عليه وسلم بذلك، ثم أخبر أنه في الضربة الثانية رأي مدينة قيصر والأماكن المحيطة بها، فقال الحضور ادع الله أن يفتحها لنا يا رسول الله، فدعا رسول الله صلي الله عليه وسلم بذلك، ثم أخبر أنه فى الضربة الثالثة تراءت أمام عينه ﷺ مدينة الحبشة وقــراها، ثم أمر بأنه إذا لــم يتعرض لهم أهل الحبشة فلا يتعرضوا لهم، وأن يتركوا الأتراك طالما تركوهم.([2])

---

[1] ــ صحيح البخاري وفي باب علامات النبوة في الإسلام جاءت هذه الأحاديث.

[2] ــ سنن النسائي، باب كتاب الجهاد. وهذا نص الحديث كاملا: (١٨٣٤٣) حدثنا عبدالله حــدثني أبــي حدثنا محمد بن جعفر حدثنا عوف عن ميمون أبي عبدالله عن البراء بن عازب قال: «أمرنا رســول الله صلى الله عليه وسلم بحفر الخندق، قال: وعرض لنا صخرة في مكان من الخندق لا تأخذ فيها المعاول، قال: فشكوها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم ــ قال عــوف: وأحسبه قال: وضع ثوبه ــ ثم هبط إلى الصخرة فأخذ المعول فقال: بسم الله فضرب ضربة فكسر ثلــث الحجر، وقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح الشام والله أني لأبصر قصورها الحمر من مكاني هذا، ثم قــال: بسم الله وضرب أخرى فكسر ثلث الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح فارس والله أني لأبصر المدائن

لقد كانت النبوة في صورة تمثيلية، وقد بشر رسول الله صلي الله عليه وسلم أيضاً بألفاظ صريحة واضحة، فقال: «تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ، فَيَفْتَحُهَا اللّهُ. ثُمَّ فَارِسَ، فَيَفْتَحُهَا اللّهُ. ثُمَّ تَغزُونَ الرُّومَ، فَيَفْتَحُهَا اللّهُ.([1])

خبر القضاء علي كسري وقيصر:

في الوقت الذي كانت فيه سلطنتا كسري وقيصر تحكمان في أوج عروجهما، ولم يكن هناك ما يدل علي قرب سقوطهما تنبأ منادي الحق من مكة أن «إذا هَلَك كِسْرَى فلا كِسْرَى بعدَه، وإذا هلك قَيْصَرُ فلا قيصَرَ بعدَه " ([2]) وليس التاريخ فقط هو الذي يشهد بصدق ذلك الصوت، وإنما تشهد به أيضاً أحداث العالم في أيامنا هذه، هل تولي أي سلطان إيراني مجوسي العرش بعد سقوط حكومة الإيرانين المجوس، وهل ظل هناك وجود للشعب الروماني بعد سقوط سلطنة الرومان ؟

بشري الأمتعة:

يقول سيدنا جابر رضي الله عنه جاء رسول الله صلي الله عليه وسلم ذات مرة إلي بيتي وسأل «هل لكم من أنماط ؟ قلت: وأنَّى يكون لنا الأنماط ؟» قال: «أما وإنها ستكون لكم الأنماط». يقول سيدنا جابر: وجاء اليوم الذي جلسنا فيه علي السجاد حتى

وأبصر قصرها الأبيض من مكاني هذا، ثم قال: بسم الله وضرب ضربة أخرى فقلع بقية الحجر، فقال: الله أكبر أعطيت مفاتيح اليمن والله أني لأبصر أبواب صنعاء من مكاني هذا». (يوسف عامر).

[1] ـ صحيح مسلم، كتاب الفتن. وهذا نص الحديث كاملا: (٧٢٣٣) حدثنا قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ حَدَّثَنَا جَرِيرٌ عَنْ عَبْدِ الْمَلِكِ بْنِ عُمَيْرٍ. عَنْ جَابِرِ بْنِ سَمُرَةَ عَنْ نَافِعِ بْنِ عُتْبَةَ، قَالَ: كُنَّا مَعَ رَسُولِ اللّهِ فِي غَزْوَةٍ. قَالَ: فَأَتَى النَّبِيَّ قَوْمٌ مِنْ قِبَلِ الْمَغْرِبِ. عَلَيْهِمْ ثِيَابُ الصُّوفِ. فَوَافَقُوهُ عِنْدَ أَكَمَةٍ. فَإِنَّهُمْ لَقِيَامٌ وَرَسُولُ اللّهِ قَاعِدٌ، قَالَ: فَقَالَتْ لِي نَفْسِي: ائْتِهِمْ فَقُمْ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ. لاَ يَغْتَالُونَهُ. قَالَ: ثُمَّ قُلْتُ: لَعَلَّهُ نَجِيٌّ مَعَهُمْ. فَأَتَيْتُهُمْ فَقُمْتُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَهُ. قَالَ: فَحَفِظْتُ مِنْهُ أَرْبَعَ كَلِمَاتٍ. أَعُدُّهُنَّ فِي يَدِي. قَالَ: «تَغْزُونَ جَزِيرَةَ الْعَرَبِ، فَيَفْتَحُهَا اللّهُ. ثُمَّ فَارِسَ، فَيَفْتَحُهَا اللّهُ. ثُمَّ تَغْزُونَ الرُّومَ، فَيَفْتَحُهَا اللّهُ. وتَغْزُونَ الدَّجَّالَ، فَيَفْتَحُهُ اللّهُ». قَالَ: فَقَالَ نَافِعٌ: يَا جَابِرُ لاَ نَرَىٰ الدَّجَّالَ يَخْرُجُ حَتَّىٰ تُفْتَحَ الرُّومُ. (يوسف عامر).

[2] ـ صحيح البخاري، علامات النبوة، وصحيح مسلم وغيرهما. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٧١٦٤) حدثنا عبد الله حدثني أبي حدثنا عبد الأعلى عن مَعْمَر عن الزهري عن سعيد بن المسيَّب عن أبي هريرة، أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إذا هَلَك كِسْرَى فلا كِسْرَى بعدَه، وإذا هلك قَيْصَرُ فلا قيصَرَ بعدَه، والذي نفسُ محمدٍ بيده، لَتُنفقُنَّ كنوزهما في سبيل الله.» (يوسف عامر).

أنني أقول لزوجتي ارفعي هذا السجاد، فتقول إنه نبوءة رسول الله صلي الله عليه وسلم.([1])

بشري الأمن والأمان:

يقول عديّ بن حاتم كنت عند رسول الله صلي الله عليه وسلم إذ جاء رجلان، اشتكي أحدهما من الجوع، واشتكي الآخر من قطع الطريق، فالتفت النبي صلي الله عليه وسلم إلي عديّ وقال مخاطباً إياه: "يا عَديُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ ؟ قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قال: فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ تَرتحِلُ منَ الحِيرةِ حتى تَطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ، ولئنْ طالَتْ بكَ حياةٌ لتُفتَحنَّ كُنوزُ كِسرَى، ولئنْ طالت بكَ حياةٌ لَتَرَيَنَّ الرجلَ يُخرجُ مِلْءَ كفِّهِ من ذهبٍ أو فضةٍ يَطلُبُ مَن يَقبلهُ منهُ فلا يَجِدُ أحداً يَقبلهُ منه". فخطر ببال عديّ أن ماذا سيفعل لصوص قبيلة طي الذين أشعلوا النيران في البلد كله، لكن عديّاً نفسه يقول رأيت امرأة تأتي من الحيرة وحيدة وتطوف بالكعبة وتعود لا تخشى إلا الله، ويقول: كنت من بين الذين فتحوا خزائن كسري، ولم تتحقق النبوءة الثالثة فقط في وجودي إلي الآن، ومن يعيش من الناس سوف يراها تتحقق([2]). ويقول الرواة أن هذه النبوءة الثالثة تحققت كاملة في زمن حكومة بني أمية.

---

[1] ــ صحيح البخاري، باب علامات النبوة. وهذا نص الحديث: (٣٥٥١) ــــ حدّثنا عمرُو بــن عبّــاسٍ حدَّثنا ابنُ مَهدي حدَّثنا سفيانُ عن محمدِ بن المنكدرِ عن جابرٍ رضيَ اللهُ عنه قال: قال النبيُّ صـــلى الله عليه وسلم: «هل لكم من أنماط ؟ قلت: وأنَّى يكون لنا الأنماط ؟» قال: «أما وإنها ستكون لكم الأنماط». فأنا أقول لها ــ يعني امرأتهُ ــ أخرِّي عنا أنماطَكِ، فتقول: ألم يَقُلِ النبيُّ صلى الله عليه وســلم: «إنهــا ستكون لكمُ الأنماط، فأدَعُها». (يوسف عامر).

[2] ــ المرجع السابق. وهذا نص الحديث: (٣٥١٧) حدّثني محمدُ بن الحَكَم أخبرَنا النَّضرُ أخبرَنا إسرائيلُ أخبرَنا سعدٌ الطائيُّ أخبرَنا مُحِلُ بن خَليفةَ عن عَدِيِّ بن حاتمٍ قال: «بَينا أنا عندَ النبيِّ صـــلى الله عليــه وسلم إذا أتاهُ رجُلٌ فشَكا إليهِ الفاقةَ، ثمَّ أتاهُ آخَرُ فشكا إليه قَطعَ السبيل، فقال: يا عَدِيُّ، هل رأيتَ الحِيرةَ ؟ قلت: لم أرَها، وقد أُنبِئتُ عنها. قال: فإن طالتْ بكَ حَياةٌ لتَرَيَنَّ الظَّعينةَ تَرتحِلُ منَ الحِيرةِ حتى تَطــوفَ بالكعبةِ لا تخافُ أحداً إلا اللهَ ــ قلتُ فيما بيني وبينَ نفسي فأين دُعّارُ طَيِّىء الذينَ قد سَعَّروا البلادَ ؟ ــ ولئنْ طالَتْ بكَ حياةٌ لتُفتَحنَّ كُنوزُ كِسرَى، قلتُ: كِسرَى بن هُرمُزَ ؟ قال: كِسرَى بنِ هُرمُزَ. ولئنْ طالت بكَ حياةٌ لَتَرَيَنَّ الرجلَ يُخرجُ مِلْءَ كفِّهِ من ذهبٍ أو فضةٍ يَطلُبُ مَن يَقبلهُ منهُ فلا يَجِدُ أحداً يَقبلــهُ منـــه. ولَيَلقَيَنَّ اللهَ أحدُكم يومَ يَلقاهُ وليسَ بينَهُ وبينهُ ترجمانٌ يُترجمُ لهُ، فيقولَنَّ: ألم أبعَثْ إليكَ رسولاً فيُبلِّغــك ؟ فيقول: بلى. فيقول: ألم أُعطِكَ مالاً وأُفضِلْ عليك ؟ فيقول: بلى. فيَنظرُ عن يَمينه فلا يَــرى إلا جهــنَّم، وينظرُ عن يَسارهِ فلا يَرى إلا جهنَم. قال عَدِيٌّ: سمعتُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: اتَّقُوا النارَ ولو

الإخبار بمقتل أبي صفوان:

عندما وجد المسلمون الأمان في المدينة المنورة بعد الهجرة، وبدأ الإسلام ينتشر ويقوي يوماً بعد يوم، بدأ سادة قريش يفكرون في مهاجمة المدينة، وفي تلك الأثناء ذهب أحد سادة الأنصار وهو سعد رضي الله عنه إلي مكة لأداء العمرة، ونزل ضيفاً علي أبي صفوان (أمية)، فتحين أبو صفوان الفرصة وذهب به إلي الطواف، وبينما كان يطوف بالكعبة إذ خرج عليه أبو جهل وقال أتأتي إلي مكة وتطوف بغير خوف أو شعور بخطر، في حين أنكم آويتم الملحدين (المسلمين)، وتعتقدون أنكم تنصرون الله ورسوله، والله لو لم يكن أبو صفوان معك لما عدت إلي بيتك سالماً، فأجابه سيدنا سعد في غضب، لو لم تسمح لنا بالطواف لما سمحنا لقوافلكم التجارية بالمرور من طريق المدينة. فقال صفوان يا سعد لا تتحدث معه بهذه اللهجة القاسية فإنه سيد هذا الوادي.

قال سيدنا سعد يا صفوان، دعك من هذا الانحياز، فقد سمعت رسول الله صلي الله عليه وسلم يقول إنك قريباً ستقتل علي يد المسلمين. فقال أبو صفوان هل سيأتون هنا لقتلي ؟ فأجاب: لا أعلم هذا، فاعترت بدن أبي صفوان رعشة، ورغم أنه كان كافراً إلا أنه كان يعلم أنه حتى اليوم لم يخرج من فم صاحب الرسالة كلام خاطئ، وهكذا حين جاءت معركة بدر منعته زوجته من الخروج وذكرته بنبوءة سعد، ورفض أبو صفوان المشاركة مع الجيش خوفاً، لكن أبا جهل أقنعه في نهاية الأمر بالمشاركة، وتحققت النبوءة في المعركة.([1])

بشِقِّ تمرةٍ، فمن لم يَجِدْ شِقَّ تمرةٍ فبكلمةٍ طيِّبة. قال عديٌّ: فرأيتُ الظعينة ترتحلُ منَ الحيرةِ حتى تطوفَ بالكعبةِ لا تخافُ إلا الله، وكنتُ فيمن افتتحَ كنوزَ كسرَى بنِ هُرمُزَ، ولئنْ طالت بكم حياةٌ لَتَرَوُنَّ ما قال النبيُّ أبو القاسم صلى الله عليه وسلم: يُخرجُ مِلءَ كفه».

حدّثني عبدُ اللهِ حدَّثنا أبو عاصمٍ أخبرنا سَعدانُ بن بشرٍ حدَّثنا أبو مجاهدٍ حدَّثنامُحِلُّ بن خَليفة. (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري، بداية كتاب المغازي. وهذا نص الحديث: (٣٨٦٤) ــــ حدّثني أحمدُ بن عثمانَ حدَّثنا شُرَيحُ بن مَسلمةَ حدَّثنا إبراهيمُ بن يوسفَ عن أبيهِ عن أبي إسحاقَ قال: حدَّثني عمْرو بن مَيمونٍ أنهُ سمعَ عبدَ اللهِ بن مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه حدَّثَ «عن سعدِ بن مُعاذ أنه قال: كان صَديقاً لأميةَ بنِ خَلَف، وكان أميةُ إذا مرَّ بالمدينة نزلَ على سعدٍ، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكةَ نزلَ على أُميةَ. فلما قدمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم المدينةَ انطلَقَ سعدٌ مُعتمِراً، فنزلَ على أُميةَ بمكةَ، فقال لأميةَ: انظُرْ لي ساعةَ خَلوةٍ لعلّي أن أطوفَ بالبيت. فخرَجَ بهِ قريباً من نصفِ النهارِ، فلَقِيَهما أبو جَهلٍ، فقال: يا أبا صَفوانَ،

الإخبار بقتلي بدر فرداً فرداً:

حين أوشكت غزوة بدر علي النشوب اصطحب رسول الله صلي الله عليه وسلم سيدنا أبا بكر الصديق رضي الله عنه إلي ميدان المعركة وأخبره أن هذا مقتل فلان الكافر، وهذا مقتل أبي جهل، وهنا مقتل ذلك السيد العظيم من قريش، وكانت هذه نبوءة عجيبة، إن قائد ثلاثمائة أو ثلاثمائة وخمسين جندي بأسلحة بسيطة، وبغير عتاد يعلن هزيمة جيش يزيد علي ألف جندي مسلحين بأقوى الأسلحة، ومقتل قادته. يقول الصحابة لقد حدّد رسول الله صلي الله عليه وسلم مقتل قادة قريش، وقد عُثر عليهم بعد المعركة قتلي مخضبين في دمائهم في نفس الأماكن التي حددها رسول الله صلي الله عليه وسلم.([1])

تحديد فاتح خيبر:

كان لليهود في خيبر قلاع قوية محكمة، وكان كل قادة المسلمين واحداً واحداً يحملون اللواء ومعهم الجيش قاصدين هذه القلاع، إلا أنهم كانوا رغم محاولاتهم القوية يعودون غير موفقين في المساء، وذات يوم قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِبُّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وقضي كل مقاتل شجاع في صفوف المسلمين ليلة علي أحرّ من الجمر في انتظار الغد، وحين طلع

مَن هذا معك؟ فقال: هذا سعدٌ. فقال له أبو جهل: ألا أراكَ تطوفُ بمكة آمناً وقد آوَيتمُ الصُّبَاةَ وزعمتم أنكم تَنصُرونَهم وتُعينونَهم. أما واللهِ لولا أنكَ مع أبي صَفوانَ ما رَجعتَ إلى أهلكَ سالماً. فقال له سعد ــ ورَفعَ صوتَهُ عليه ــ: أما واللهِ لئن مَنَعتَني هذا لأمنعنَّكَ ماهو أشدُّ عليكَ منه: طريقَكَ على المدينة، فقال له أُمية، لا تَرفَعْ صوتكَ يا سعدُ على أبي الحكم سيدِ أهل الوادي. فقال سعدٌ: دَعْنا عنكَ يا أمية، فواللهِ لقد سمعتُ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم يقول: «إنهم قاتِلوك». قال: بمكةَ؟ قال: لا أدري. ففَزِع لذلكَ أُميةُ فزَعاً شديداً. فلما رجعَ أُميةُ إلى أهله قال: يا أُمَّ صفوانَ، ألم تَرَي ما قال لي سعدٌ؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعمَ أنَّ محمداً أخبرهم أنهم قاتليَّ. فقلت له: بمكةَ؟ قال: لا أدري. فقال أُميةُ: واللهِ لا أخرجُ من مكةَ. فلما كان يومُ بدرٍ استَنفَرَ أبو جهلٍ الناسَ قال: أدرِكوا عِيرَكم. فكَرِهَ أُميةُ أن يَخرُجَ، فأتاهُ أبو جهل فقال: يا أبا صفوان إنكَ متى ما يَراكَ الناسُ قد تخلَّفتَ وأنتَ سيدُ أهلِ الوادي تخلَّفوا معك. فلم يَزلْ به أبو جهلٍ حتى قال: أمّا إذ غَلبْتَني فواللهِ لأشترينَّ أجودَ بعير بمكة. ثمَّ قال أميةُ: يا أُمَّ صفوانَ جَهِّزيني. فقالت له: يا أبا صفوانَ وقد نَسيتَ ما قال لكَ أخوكَ اليَثْربيُّ؟ قال: لا، ما أُريدُ أن أجوزَ معَهم إلا قَريباً. فلما خَرجَ أُميةُ أخذ لا ينزلُ منزلاً إلا عقَلَ بعيرَه، فلم يزلْ بذلكَ حتى قتلَه الله عزَّ وجلَّ ببَدر». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح مسلم، غزوة بدر.

الصباح حضر سيدنا عليّ رضي الله عنه يشق غبار الطريق، وكان قد أصيب في عينيه فلم يستطع أن يأتي معه، وسلم رسول الله صلي الله عليه وسلم الراية لعلي رضي الله عنه. وانتصر المسلمون في خيبر في ذلك اليوم علي يديه.([1])

الإخبار بوفاة السيدة فاطمة الزهراء:

ذات مرة استدعي رسول الله صلي الله عليه وسلم السيدة فاطمة رضي الله عنها وهو في مرض الموت وهمس في أذنها بشيء فبكت، وبعد قليل همس صلي الله عليه وسلم في أذنها بشيء فضحكت. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها لما رأيت هذا تعجبت كثيراً وسألتها عن السبب فقلت: لا أستطيع أن أفشي سرّ رسول الله صلي الله عليه وسلم، وحين توفي رسول الله صلي الله عليه وسلم سألتها السيدة عائشة رضي الله عنها عن الأمر ثانيــة، فقلت السيدة فاطمة رضي الله عنها الآن أخبرك، لقد قال لي رسول الله صلي الله عليه وسلم في المرة الأولي: "أن جبريلَ كان يُعارضني القرآنَ كلَّ سنةٍ مرةً، وإنه عارَضني العام مرَّتين ولا أراهُ إلا حضرَ أجلي"، وفي المرة الثانية قال: "وإنك أولُ أهلِ بيتي لحاقاً بي" ([2])، وقد تحقق الأمران فمات رسول الله صلي الله عليه وسلم في هذا

[1] ــ صحيح البخاري، فتح خيبر. وهذا نص الحديث: ١٣٨٥ حَدِيثُ سَهْلِ بْنِ سَعْدٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْـهُ: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ يَوْمَ خَيْبَرَ لَأُعْطِيَنَّ هَذِهِ الرَّايَةَ رَجُلًا يَفْتَحُ اللَّهُ عَلَى يَدَيْهِ يُحِـبُّ اللَّـهَ وَرَسُولَهُ وَيُحِبُّهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ قَالَ فَبَاتَ النَّاسُ يَدُوكُونَ لَيْلَتَهُمْ أَيُّهُمْ يُعْطَاهَا قَالَ فَلَمَّا أَصْبَحَ النَّاسُ غَدَوْا عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كُلُّهُمْ يَرْجُونَ أَنْ يُعْطَاهَا فَقَالَ أَيْنَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ فَقَالُوا هُوَ يَا رَسُولَ اللَّهِ يَشْتَكِي عَيْنَيْهِ قَالَ فَأَرْسِلُوا إِلَيْهِ فَأُتِيَ بِهِ فَبَصَقَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي عَيْنَيْهِ وَدَعَا لَـهُ فَبَرَأَ حَتَّى كَأَنْ لَمْ يَكُنْ بِهِ وَجَعٌ فَأَعْطَاهُ الرَّايَةَ فَقَالَ عَلِيٌّ يَا رَسُولَ اللَّهِ أُقَاتِلُهُمْ حَتَّى يَكُونُوا مِثْلَنَا فَقَالَ انْفُـذْ عَلَى رِسْلِكَ حَتَّى تَنْزِلَ بِسَاحَتِهِمْ ثُمَّ ادْعُهُمْ إِلَى الْإِسْلَامِ وَأَخْبِرْهُمْ بِمَا يَجِبُ عَلَيْهِمْ مِنْ حَقِّ اللَّهِ فِيهِ فَوَاللَّهِ لَأَنْ يَهْدِيَ اللَّهُ بِكَ رَجُلًا وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ * (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح مسلم، باب الفضائل، وصحيح البخاري باب علامات النبوة في الإسلام. وهذا نص الحديث: (٣٥٤٥) حدثنا أبو نُعَيم حدَّثنا زكريا عن فراسٍ عن عامرٍ الشعبيِّ عن مَسروقٍ عن عائشة رضـي الله عنها قالت: «أقبلت فاطمةُ تمشي كأنَّ مشيتها مشيُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: مَرحباً يا ابنتي، ثمَّ أجلسها عن يمينه ــ أو عن شماله ــ ثمَّ أسرَّ إليها حَديثاً فبكت، فقلتُ لها: لـم تبكين ؟ ثمُ أسرَّ إليها حديثاً فضحكتْ، فقلتُ: ما رأيتُ كاليوم فرحاً أقرب من حزن، فسألتها عمـا قـال. فقالت: ما كنتُ لأفشيَ سرَّ رسولِ اللهصلى الله عليه وسلم، حتى قبض النبــيُّ صـــلى الله عليــه وسـلم فسألتها». «فقالت: أسرَّ إليَّ أن جبريلَ كان يُعارضني القرآنَ كلَّ سنةٍ مرةً، وإنه عارَضني العام مـرَّتين

المرض، وبعد وفاته صلي الله عليه وسلم بحوالي ستة أشهر لحقت به السيدة فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

الإخبار بوفاته هو صلي الله عليه وسلم:

لقد أعلن النبي صلي الله عليه وسلم عن انتقاله إلي الرفيق الأعلى في العام الذي توفي فيه، فقد أرسل سيدنا معاذ رضي الله عنه قبل حجة الوداع رسولاً من قبله إلي اليمن، وأخبره ﷺ عند توديعه بأنه لن يلقاه ﷺ بعد اليوم، وعند عودته سيمرّ من عند مسجده ﷺ وقبره، فلما سمع سيدنا معاذ هذا بكي.([1]) وقال صلي الله عليه وسلم علي ملأ من آلاف المسلمين في حجة الوداع " فإني لا أدري لعلي لا ألقاكم بعد عامي هذا "، وقال قبل مرض موته بعدة أيام: "إن الله خير عبدا بين الدنيا وبين ما عنده، فاختار ذلك العبد ما عند الله". ([2])

الإخبار بفتح اليمن:

لقد فتحت مكة عام ٨هـ، إلا أن الرسول صلي الله عليه وسلم أخبر بفتحها وهجرة المسلمين هناك إلي بلاد بعيدة قبل ذلك بكثير، إذ قال صلي الله عليه وسلم: «يُفْتَحُ الْيَمَنُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبِسُّونَ. فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ.([3]) وفي النهاية فتحت اليمن في حياة النبي صلي الله عليه وسلم، ومن هناك خرج

ولا أراهُ إلا حضرَ أجلي، وإنك أولُ أهلِ بيتي لحاقاً بي، فبكيت. فقال: أما ترضَين أن تكوني سيدة نساء أهل الجنَّة! أو نساءِ المؤمنين ــ فضحكت لذلك». (يوسف عامر).

[1] ــ مسند ابن حنبل، جـ٥، ص٣٣٥.

[2] ــ الصحيحان، مناقب أبي بكر. وهذا نص الحديث: (٣٥٧٤) حدَّثنا عبدُ اللهِ بن محمدٍ حدَّثنا أبو عامر حدَّثنا فُلَيحٌ قال: حدَّثني سالم أبو النَّضْر عن بُسْرِ بن سعيد عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: «خَطَبَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الناسَ وقال: إنَّ الله خَيَّر عبداً بين الدُّنيا وبينَ ماعندَه، فاختار ذلك العبدُ ماعندَ الله. قال فبكى أبو بكر، فعَجِبْنا لبُكائهِ أنْ يُخبرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن عبدٍ خُيِّر، فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر، وكان أبو بكرٍ أعلَمنا. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إنَّ أمنَّ الناس عليَّ في صحبته ومالهِ أبو بكر، ولو كنتُ مُتَّخِذاً خَليلاً غير ربي لاتخذتُ أبا بكر، ولكنْ أُخوَّةُ الإسلام ومودَّته، لا يَبقَينَّ في المسجدِ بابٌ إلا سُدَّ، إلا بابَ أبي بكر». (يوسف عامر).

[3] ــ صحيح مسلم، كتاب الحج، وموطأ الإمام وعبد الرازق وابن خزيمة وابن حبان. وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح مسلم باب الترغيب فى المقام بالمدينة عند فتح الأمصار: (٣٣١٩) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ. أَخْبَرَنِي هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ

الناس باتجاه المشرق إلي خراسان وتركستان، وإلي المغرب باتجاه أفريقيا، وهلاك القبائل اليمنية والحجازية في تلك البلاد كلها بسبب الحرب الأهلية أمر معروف ومشهور في التاريخ.

الإخبار بفتح الشام:

ثم قال صلي الله عليه وسلم: ثُمَّ يُفْتَحُ الشَّامُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبُسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ".([1])، ويروي الإمام أحمد في مسنده أن النبي صلي الله عليه وسلم أخبر المسلمين بأنهم سيهاجرون إلي الشام قريباً، وسوف تفتح عليهم ([2]) ومن المعروف أن الشام أصبحت مقراً للعرب بعد فتحها، ولا تزال نسبتهم هي الغالبة في تلك المنطقة حتى اليوم.

الإخبار بفتح العراق:

ثم قال صلي الله عليه وسلم: "ثُمَّ يُفْتَحُ الْعِرَاقُ فَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ. يَبِسُّونَ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ." ([3])، وهناك روايات أخرى في فتح العراق.([4])

سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ «يُفْتَحُ الْيَمَنُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبِسُّونَ. فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. ثُمَّ يُفْتَحُ الشَّامُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبُسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. ثُمَّ يُفْتَحُ الْعِرَاقُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ. فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». (يوسف عامر).

[1] ـــ المرجع السابق. وورد فى صحيح مسلم كذلك: (٣٣١٨) حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا وَكِيعٌ عَنْ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «تُفْتَحُ الشَّامُ. وَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ. يُبِسُّونَ وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. ثُمَّ تُفْتَحُ الْيَمَنُ. فَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ. يَبِسُّونَ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. ثُمَّ يُفْتَحُ الْعِرَاقُ فَيَخْرُجُ مِنَ الْمَدِينَةِ قَوْمٌ بِأَهْلِيهِمْ. يَبِسُّونَ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». (يوسف عامر).

[2] ـــ مسند ابن حنبل ـــ روايات معاذ.

[3] ـــ صحيح مسلم ـــ كتاب الحجج وموطأ الإمام مالك.

[4] ـــ كما ورد فى صحيح مسلم: (٣٣١٩) ـــ حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. أَخْبَرَنَا ابْنُ جُرَيْجٍ. أَخْبَرَنِي هِشَامُ بْنُ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ سُفْيَانَ بْنِ أَبِي زُهَيْرٍ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ «يُفْتَحُ الْيَمَنُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبِسُّونَ. فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ. ثُمَّ يُفْتَحُ الشَّامُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يَبُسُّونَ فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا

فتح خوزستان وكرمان، ومحاربة الأتراك:

يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلي الله عليه وسلم قال: بينَ يدَيِ الساعةِ تُقاتلونَ قَوماً نِعالهم الشَّعرَ.([1]). وفي رواية أخرى أنه صلي الله عليه وسلم قال «لا تقوم الساعةُ حتى تقاتلوا خُوزاً وكرمانَ منَ الأعاجم، حُمرَ الوجوهِ فُطسْ الأنوفِ صِغارَ الأعين كأنَّ وجوهَهُمُ المجانُّ المطرَقة، نعالهمُ الشَّعر» ([2])، وجاء في روايات أخرى: «لا تقومُ الساعةُ حتى تُقاتلوا قوماً نِعالُهم الشَّعر، وحتى تُقاتلوا التركَ صِغارَ الأعين حُمرَ الوُجوهِ ذُلْفَ الأنوفِ كأن وُجوهَهُمُ المجانُّ المطرقة».([3]) وقد تحققت كل هذه النبوءات حتى نهاية القرن الأول الهجري.

التبشير بفتح مصر، وذكر واقعة أخرى:

يقول سيدنا أبو ذر قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضاً يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ. فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْراً. فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً (زوجة سيدنا إبراهيم وأم سيدنا إسماعيل

يَعْلَمُونَ. ثُمَّ يُفْتَحُ الْعِرَاقُ فَيَأْتِي قَوْمٌ يُبِسُّونَ. فَيَتَحَمَّلُونَ بِأَهْلِيهِمْ وَمَنْ أَطَاعَهُمْ. وَالْمَدِينَةُ خَيْرٌ لَهُمْ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ». (يوسف عامر).

[1] ـ صحيح البخاري، باب علامات النبوة في الإسلام. وهذا نص الحديث: (٣٥١٣) حدثنا عليُّ بنُ عبد الله حدَّثنا سفيانُ قال: قال إسماعيلُ أخبرني قيسٌ قال: «أتينا أبا هريرةَ رضيَ الله عنه فقال: صحبتُ رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثَ سنينَ لم أكنْ في سِنيَّ أحرَصَ على أن أعيَ الحديث مني فيهنَّ، سمعتهُ يقولُ ـ وقال هكذا بيده ـ: بينَ يدَيِ الساعةِ تُقاتلونَ قَوماً نِعالهم الشَّعرَ، وهو هذا البارز. وقال سفيانُ مَرَّةً: هم أهلُ البازر». (يوسف عامر).

[2] ـ المرجع السابق. وهذا نص الحديث: (٣٥١٢) حدثنا يحيى حدثنا عبدُ الرزاقِ عن معمرٍ عن هَمامٍ عن أبي هريرةَ رضيَ الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقوم الساعةُ حتى تقاتلوا خُوزاً وكرمانَ منَ الأعاجم، حُمرَ الوجوهِ فُطسْ الأنوفِ صِغارَ الأعين كأنَّ وجوهَهُمُ المجانُّ المطرَقة، نعالهمُ الشَّعر». تابعهُ غيرُهُ عن عبد الرزاق. (يوسف عامر).

[3] ـ المرجع السابق. (٣٥١١) حدثنا أبو اليمانِ أخبرنا شُعيبٌ حدَّثنا أبو الزنادِ عنِ الأعرج عن أبي هريرة رضيَ الله عنه عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «لا تقومُ الساعةُ حتى تُقاتلوا قوماً نِعالُهم الشَّعر، وحتى تُقاتلوا التركَ صِغارَ الأعين حُمرَ الوُجوهِ ذُلْفَ الأنوفِ كأن وُجوهَهُمُ المجانُّ المطرقة». (يوسف عامر).

السيدة هاجر كانت مصرية) فَإِذَا رَأَيْتُمْ رَجُلَيْنِ يَقْتَتِلاَنِ فِي مَوْضِعِ لَبِنَةٍ فَاخْرُجْ مِنْهَا». وقد رأي سيدنا أبو ذر هذا بنفسه، وخرج من هناك وعاد([1]).

الإخبار بغزو الهند:

قد يسعد سبعون مليون مسلم في الهند عندما يسمعون أن النبي صلي الله عليه وسلم بشرّ بلسانه الطاهر بدخول الإسلام في الهند وغلبته هناك، فقد أخبر صلي الله عليه وسلم بأن فرقتين من أمته ﷺ سينجيهما الله تعالي من نار جهنم، واحدة هي تلك التي ستشترك في فتح الهند، وفي رواية أخرى عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه كان يقول أن رسول الله صلي الله عليه وسلم وعدنا (نحن المسلمين) بفتح الهند، ولو عشت حتى ذلك الوقت سأضحي في سبيل ذلك بالمال والنفس، فإن استشهدت فسأكون أفضل شهيد، وإن عدت حياً فسأنجو من نار جهنم([2])، وهذه النبوءات موجودة في سنن النسائي المتوفى عام ٣٠٢هـ، وقد كتبه قبل فتح محمود الغزنوي للهند ٣٩٢هـ بمائة عام تقريباً.

معارك بحر الروم:

يفصل بحر الروم، والذي يسمي البحر الأخضر والبحر الأبيض المتوسط أيضاً، بين أوروبا وآسيا، والآن وكأنه يفصل بين الإسلام والمسيحية، وكان في ذلك الوقت ميداناً للقوة البحرية الرومية تصول فيه وتجول، وذات مرة استيقظ رسول الله صلي الله عليه وسلم من نومه وقد رأي رؤية فقال: "ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله يَركبونَ ثَبَجَ هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة ـ أو مِثلَ الملوك على الأسرة." ([3]). وقد

---

[1] ـ صحيح مسلم، باب الوصية بأهل مصر، كتاب فضائل الصحابة بسند أحمد، جـ٥، ص١٤٣(عن أبي ذر. وسند أبي عوانة وأبي حيان). وهذا نص الحديث: (٦٤٤٥) حدثني أبو الطَّاهِرِ. أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي حَرْمَلَةُ. ح وَحَدَّثَنِي هَـرُونُ بْنُ سَعِيدٍ الأَيْلِيُّ. حَدَّثَنَا ابْنُ وَهْبٍ. حَدَّثَنِي حَرْمَلَةُ وَهُوَ ابْـنُ عِمْرَانَ التُّجِيبِيُّ عَنْ عَبْدِ الرَّحْمَـنِ بْنِ شُمَاسَةَ الْمَهْرِيِّ. قَالَ: سَمِعْتُ أَبَا ذَرّ، يَقُولُ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «إِنَّكُمْ سَتَفْتَحُونَ أَرْضاً يُذْكَرُ فِيهَا الْقِيرَاطُ. فَاسْتَوْصُوا بِأَهْلِهَا خَيْراً. فَإِنَّ لَهُمْ ذِمَّةً وَرَحِماً. فَـإِذَا رَأَيْـتُمْ رَجُلَـيْنِ يَقْتَتِلاَنِ فِي مَوْضِعِ لَبِنَةٍ فَاخْرُجْ مِنْهَا». (يوسف عامر).

[2] ـ هتان الروايتان موجودتان في كتاب الجهاد بسنن النسائي.

[3] ـ صحيح البخاري ـــ باب كتاب الرؤيا في النهار ـ مسلم، باب غزوة البحر ـــ كتاب الإمارة وأبو داود ـــ كتاب الجهاد. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري: (٦٨٤٩) ـــ حدّثنا عبدُ الله بن يوسفَ أخبرَنا مالكٌ عن إسحٰقَ بن عبدِ الله بن أبي طلحة أنه سمعَ أنسَ بن مالكٍ يقول: «كان رسـولُ الله صلى الله عليه وسلم يَدْخُل على أمِّ حرامِ بنت مِلحانَ ـ وكانت تحتَ عُبادةَ بن الصامت، فـدخلَ عليها

تحققت هذه البشارة أول الأمر في عهد الأمير معاوية رضي الله عنه، ونصّب العرش الملكي علي أرض الإسلام لأول مرة في دمشق، وأرسي أمير دمشق يزيد في عهده أسطولاً بحرياً لجيش المسلمين في البحر الأخضر، وعبر البحر، وأخذ يدق أبواب القسطنطينية.

فتح بيت المقدس:

بيت المقدس هو القبلة الثانية للإسلام، وتوليه حق للأمة المحمدية، وكان رسول الله صلي الله عليه وسلم قد بشر صحابته الكرام بتوليه وأخبر ﷺ بأن هذا الأمر سيحدث بعد موته ﷺ، وروي عن عوف بن مالك الأشجعي أن رسول الله صلي الله عليه وسلم أخبر بأن ننتظر عدة أحداث قبل يوم القيامة، الأول موته ﷺ، ثم فتح بيت المقدس ([1])، ثم ذكر رسول الله صلي الله عليه وسلم بعد ذلك عدة أمور، وقد تحققت هذه البشري عام ١٦هـ في عهد سيدنا عمر بن الخطاب.

التبشير بفتح القسطنطينية:

وهناك عدة بشارات في فتح القسطنطينية، وذات مرة أخبر رسول الله صلي الله عليه وسلم بأن المسلمين سوف يكونون هم المتصرفين في خزائن قيصر ([2])، وقال: "ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله يَركبونَ ثَبَجَ هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة". (بحر الروم والذي تقع علي ساحله القسطنطينية) ([3]). وقد خرجت أول جماعة من المسلمين لفتح القسطنطينية هذه عن طريق البحر، وأخبر صلي الله عليه وسلم فيما يتعلق

يوماً، فأطعَمَته وجعلَت تَفْلِي رأسَه فنام رسولُ الله صلى الله عليه وسلم، ثم استيقظَ وهو يضحك...».
«قالت: فقلتُ ما يضحككَ يارسولَ الله؟ قال ناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غُزاةً في سبيل الله يَركبونَ ثَبَجَ هذا البحر ملوكاً على الأسرَّة ــ أو مثلَ الملوك على الأسرة ــ شكَّ إسحٰق ــ قالت: فقلت يارسولَ الله ادعُ الله أن يَجعلني منهم، فدَعا لها رسولُ الله صلى الله عليه وسلم. ثمَّ وَضعَ رَأسه ثمَّ استيقظَ وهو يَضحك. فقلت ما يَضحككَ يارسولَ الله؟ قال: أناسٌ من أمتي عُرِضوا عليَّ غزاةً في سبيل الله ــ كما قال في الأولى ــ قالت: فقلتُ يارسولَ الله ادعُ الله أن يجعلني منهم، قال: أنتِ من الأوَّلين. فركبتِ البحرَ في زمان معاوية بن أبي سفيان، فصُرِعَت عن دابتها حينَ خرجَت من البحر فهلكتْ». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح البخاري ــ باب الجزية.

[2] ــ صحيح البخاري، وصحيح مسلم.

[3] ــ صحيح البخاري ــ ركوب البحر وعلامات النبوة وباب الرّؤيا في النهار.

بعلامات الساعة أنه سيكون هناك كذا و كذا، ثم تُفتح القسطنطينية ([1]). وفي رواية أخرى أنه صلي الله عليه وسلم أخبر بأن المسلمين سيفتحون القسطنطينية، وسيكون حاكمها (المسلم) ممتازاً، وسيكون الجيش الذي يفتحها ممتازاً ([2])، وقد حاول كل ذي همة من السلاطين والخلفاء المسلمين أن يحقق هذا الأمر، لكنه لم يكن من نصيب أحد سوي السلطان محمد الفاتح.

الإشارة إلي فتح الروم:

كانت روما عاصمة إيطاليا الحالية ومدينة المسيحيين المقدسة عاصمة لسلطنة الروم الغربية مثلما كانت القسطنطينية عاصمة لسلطنة الروم الشرقية، ورغم أنه ليس هناك قول صريح عن النبي صلي الله عليه وسلم في فتحها، إلا أن هناك إشـــارة إلي أنه صلي الله عليه وسلم بشر المسلمين بفتحها، وهكذا فإن التاريخ يثبت أن مسلمي أسبانيا والمغرب رفعوا علم الإسلام ذات مرة علي منائرها. وقد سأل رجل سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص هل ستفتح القسطنطينية أولاً أم روما ؟ فبحث في ذاكرته وقال كنا حضور ذات مرة عند رسول الله صلي الله عليه وسلم فسأله واحد منا يا رسول الله هل ستفتح القسطنطينية أولاً أم روما ؟ فأخبر النبي صلي الله عليه وسلم بأن مدينة هرقل

---

[1] ـــ صحيح مسلم والترمذي ـــ كتاب الفتن. وهذا نص الحديث: (٧٢٢٧) حدثني زُهَيْرُ بْـنُ حَـرْبٍ. حَدَّثَنَا مُعَلَّى بْنُ مَنْصُورٍ. حَدَّثَنَا سُلَيْمَانُ بْنُ بِلاَلٍ. حَدَّثَنَا سُهَيْلٌ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللّـهِ قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ يَنْزِلَ الرُّومُ بِالأَعْمَاقِ، أَوْ بِدَابِقَ. فَيَخْرُجُ إِلَيْهِمْ جَيْشٌ مِنَ الْمَدِينَةِ. مِـنْ خِيَـارِ أَهْلِ الأَرْضِ يَوْمَئِذٍ. فَإِذَا تَصَافُّوا قَالَتِ الرُّومُ: خَلُّوا بَيْنَنَا وَبَيْنَ الَّذِينَ سَبَوْا مِنَّا نُقَاتِلْهُمْ. فَيَقُولُ الْمُسْـلِمُونَ: لاَ. وَاللّهِ لاَ نُخَلِّي بَيْنَكُمْ وَبَيْنَ إِخْوَانِنَا، فَيُقَاتِلُونَهُمْ، فَيَنْهَزِمُ ثُلُثٌ لاَ يَتُوبُ اللّهِ عَلَيْهِمْ أَبَداً. وَيُقْتَلُ ثُلُثُهُمْ، أَفْضَلُ الشُّهَدَاءِ عِنْدَ اللّهِ. وَيَفْتَتِحُ الثُّلُثُ. لاَ يُفْتَنُونَ أَبَداً. فَيَفْتَتِحُونَ قُسْطُنْطِينِيَّةَ. فَبَيْنَمَا هُمْ يَقْتَسِمُونَ الْغَنَائِمَ، قَدْ عَلَّقُوا سُيُوفَهُمْ بِالزَّيْتُونِ، إِذْ صَاحَ فِيهِمُ الشَّيْطَانُ: إِنَّ الْمَسِيحَ قَدْ خَلَفَكُمْ فِي أَهْلِيكُمْ. فَيَخْرُجُونَ. وَذَلِكَ بَاطِلٌ. فَـإِذَا جَاؤُوا الشَّأْمَ خَرَجَ. فَبَيْنَمَا هُمْ يَعِدُّونَ لِلْقِتَالِ، يُسَوُّونَ الصُّفُوفَ، إِذْ أُقِيمَتِ الصَّلاَةُ فَيَنْزِلُ عِيسَىٰ ابْنُ مَـرْيَمَ. فَأَمَّهُمْ. فَإِذَا رَآهُ عَدُوُّ اللّهِ، ذَابَ كَمَا يَذُوبُ الْمِلْحُ فِي الْمَاءِ. فَلَوْ تَرَكَهُ لاَنْذَابَ حَتَّىٰ يَهْلِكَ. وَلَكِنْ يَقْتُلُهُ اللّـهُ بِيَدِهِ. فَيُرِيهِمْ دَمَهُ فِي حَرْبَتِهِ». (يوسف عامر).

[2] ـــ مسند أحمد عن أبي عبد الله بن أبي يسر الختني، والحاكم وابن أبي شيبة.

ستفتح أولاً ([1])، ولم يوضح النبي صلي الله عليه وسلم الأمر أكثر من هذا فيما يتعلق بروما لأنه ــ علي أغلب الظن ــ لم يكن مقسوماً للمسلمين البقاء فيها بعد فتحها.

الإشارة إلي فتح العجم:

ذهب سيدنا سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه في حجة الوداع في رفقة رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي مكة المعظمة، وهناك أصابه مرض شديد حتى لم يعد يأمل في البقاء حياً، وحضر رسول الله صلي الله عليه وسلم لعيادته، فلما رأي اضطرابه طمأنه ودعا له وأخبره بأنه إن شاء الله لن يموت الآن، وإن أخلص فسينال الدرجة العظيمة، وسوف يستفيد كثير من الناس منه، ويخسر كثير من الناس منه أيضاً، وكانت هذه بشري فتوحات سيدنا سعد في أرض العجم، إذ كان سيدنا سعد هو قائد المسلمين فيها ونال درجة عظيمة، وأسقط عرش كسري في سنوات قليلة، وهكذا نال المسلمين منه فائدة عظيمة، والمجوس خسارة كبيرة.

الإخبار بالمرتدين:

ظهر كثيرون من مدعي النبوة الكذابين في مختلف أنحاء بلاد العرب أيام خلافة سيدنا أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وارتد كثير من المسلمين وانضموا إلي هؤلاء الكذابين، وقد أخبر النبي صلي الله عليه وسلم بهذا الأمر منذ البداية، حيث قال لأصحابه ﷺ «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ. عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ. فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ. فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ: مَا تَدْرِي مَا أَحْدَثَتْ بَعْدَكَ». ([2]).

---

[1] ــ المرجع السابق، وعن أبي قتيل التابعي عن عبد الله بن عمرو بن العاص ــ جـ٤ ــ ابن أبي شيبة.

[2] ــ الصحيحان، حديث الكوثر. وهذا نص الحديث: (٨٤٥) ــ حدثنا عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ السَّعْدِيُّ. حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ. أَخْبَرَنَا الْمُخْتَارُ بْنُ فُلْفُلٍ عَنْ أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ. ح وَحَدَّثَنَا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ (وَاللَّفْظُ لَهُ) حَدَّثَنَا عَلِيُّ بْنُ مُسْهِرٍ عَنِ الْمُخْتَارِ عَنْ أَنَسٍ، قَالَ: بَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ ذَاتَ يَوْمٍ بَيْنَ أَظْهُرِنَا، إِذْ أَغْفَى إِغْفَاءَةً. ثُمَّ رَفَعَ رَأْسَهُ مُتَبَسِّماً. فَقُلْنَا: مَا أَضْحَكَكَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «أُنْزِلَتْ عَلَيَّ آنِفاً سُورَةٌ». فَقَرَأَ: ﴿بِسْمِ اللهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ. إِنَّا أَعْطَيْنَاكَ الْكَوْثَرَ. فَصَلِّ لِرَبِّكَ وَانْحَرْ. إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ الأَبْتَرُ﴾ ثُمَّ قَالَ: «أَتَدْرُونَ مَا الْكَوْثَرُ؟» فَقُلْنَا: الله وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ. قَالَ: «فَإِنَّهُ نَهْرٌ وَعَدَنِيهِ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ. عَلَيْهِ خَيْرٌ كَثِيرٌ. هُوَ حَوْضٌ تَرِدُ عَلَيْهِ أُمَّتِي يَوْمَ الْقِيَامَةِ. آنِيَتُهُ عَدَدُ النُّجُومِ. فَيُخْتَلَجُ الْعَبْدُ مِنْهُمْ. فَأَقُولُ: رَبِّ، إِنَّهُ مِنْ أُمَّتِي. فَيَقُولُ: مَا

الإخبار بوفاة السيدة زينب رضي الله عنها:

لقد أخبر النبي صلي الله عليه وسلم زوجاته المطهرات: «أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقاً بِي، أَطْوَلُكُنَّ يَداً».([1]) ونتيجة لحب زوجاته المطهرات الشديد له صلي الله عليه وسلم أخذن يقسن أذرعهن. تقول السيدة عائشة رضي الله عنها توفيت السيدة زينب قبلنا جميعاً ففهمنا معني قوله صلي الله عليه وسلم أطولكن يداً، (وطول اليد في اللغة العربية كناية عن بسط اليد والجود والكرم)، فقد كانت السيدة زينب أكثرنا في بسط اليد ([2])

تبشير أم ورقة بالشهادة:

كانت أم ورقة صحابية جليلة، وقد طلبت من رسول الله صلي الله عليه والسلام يوم بدر أن يشركها في الحرب لعل الله يرزقها الشهادة، فأمرها صلي الله عليه وسلم بأن تبقي في بيتها، وسترزق الشهادة، ولهذا كانت تسمي بالشهيدة حال حياتها، وكان عندها عبد وجارية، وقام هذان الاثنان بخنقها وقتلها أيام خلافة سيدنا عمر رضي الله عنه، وهكذا نالت الشهادة وهي في بيتها طبقاً لما أخبر به النبي صلي الله عليه وسلم ([3])

التبشير بالخلفاء:

يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم قال: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي. وَسَتَكُونُ خُلَفَاءُ فَتَكْثُرُ» ([4]).

تَدْرِي مَا أَحْدَثْتَ بَعْدَكَ». زَادَ ابْنُ حُجْرٍ فِي حَدِيثِهِ: بَيْنَ أَظْهُرِنَا فِي الْمَسْجِدِ. وَقَالَ: «مَا أَحْدَثَ بَعْـدَكَ». (يوسف عامر).

[1] ــ وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح مسلم، باب فضائل زينب أم المؤمنين: (٦٢٦٩) ـــ حدّثنا مَحْمُودُ بْنُ غَيْلاَنَ أَبُو أَحْمَدَ. حَدَّثَنَا الْفَضْلُ بْنُ مُوسَى السِّينَانِيُّ. أَخْبَرَنَا طَلْحَةُ بْنُ يَحْيَىٰ بْنِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ بِنْتِ طَلْحَةَ عَنْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «أَسْرَعُكُنَّ لَحَاقاً بِي، أَطْوَلُكُنَّ يَداً». قَالَتْ: فَكُنَّ يَتَطَاوَلْنَ أَيَّتُهُنَّ أَطْوَلُ يَداً. قَالَتْ: فَكَانَتْ أَطْوَلَنَا يَداً زَيْنَبُ. لأَنَّهَا كَانَتْ تَعْمَلُ بِيَدِهَا وَتَصَدَّقُ. (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح مسلم ـــ فضائل السيدة زينب.

[3] ــ سنن أبي داود ـــ باب الإمامة، وابن راهوية.

[4] ــ صحيح مسلم ـــ كتاب الإمارة. وهذا نص الحديث: (٤٧٢٩) حدثنا مُحَمَّدُ بْنُ بَشَّارٍ. حَدَّثَنَا مُحَمَّـدُ بْنُ جَعْفَرٍ. حَدَّثَنَا شُعْبَةُ عَنْ فُرَاتٍ الْقَزَّازِ عَنْ أَبِي حَازِمٍ، قَالَ: قَاعَدْتُ أَبَا هُرَيْرَةَ خَمْسَ سِـنِينَ. فَسَـمِعْتُهُ يُحَدِّثُ عَنِ النَّبِيِّ. قَالَ: «كَانَتْ بَنُو إِسْرَائِيلَ تَسُوسُهُمُ الأَنْبِيَاءُ، كُلَّمَا هَلَكَ نَبِيٌّ خَلَفَهُ نَبِيٌّ، وَإِنَّهُ لاَ نَبِيَّ بَعْدِي.

الخلفاء الإثنا عشر:

وقد وردت البشارات بالخلفاء الاثنى عشر في كتب الأحاديث المختلفة وبألفاظ مختلفة فورد فى صحيح مسلم ([1]) أن هذه الحكومة الإسلامية ستظل جيدة طالما حكمها اثنا عشر رجلاً، ولن تنتهي هذه الحكومة إلا بعد أن ينصب عليها اثنا عشر خليفة، وسيبقي الإسلام آمناً معززاً حتى اثني عشر خليفة، وسيكون من قريش بعدي اثنا عشر خليفة، ثم يأتي أناس صغار، وفي كتاب المهدي أبي داود: سيبقي هذا الدين حتى يأتي اثنا عشر خليفة ستجتمع أمتي كلها عليهم، ويفسر القاضي عياض من علماء أهل السنة هذا الحديث أن المقصود بالخلفاء الاثني عشر من بين الخلفاء جميعاً أولئك الذين خدموا الإسلام، وكانوا متقين. ويعدّ الحافظ ابن حجر بناءً علي ما ورد عند أبي داود الخلفاء الاثني عشر من الخلفاء الراشدين وبني أمية، وهم الذين أجمعت الأمة علي خلافتهم أي: سيدنا أبو بكر الصديق ــ سيدنا عمر بن الخطاب ــ سيدنا عثمان بن عفان ــ سيدنا علي بن أبي طالب ــ سيدنا معاوية بن أبي سفيان ــ يزيد ــ عبد الملك ــ الوليد ــ سليمان ــ عمر بن عبد العزيز ــ يزيد الثاني([2]) - هشام، وسيقدم أهل فرقة الشيعة أئمتهم الاثني عشر في شرح هذا الحديث.

مدة الخلافة الراشدة:

قال صلي الله عليه وسلم ستكون الخلافة (الراشدة) من بعدي ثلاثين عاماً، ثم تكون ملكية ([3])، وهذه الثلاثون عاماً تنتهي بخلافة سيدنا علي رضي الله عنه.

اسم الخليفة مدة الخلافة

سيدنا أبو بكر من عام ١١هـ حتى عام ١٣هـ

سيدنا عمر من عام ١٣هـ حتى عام ٢٣هـ

سيدنا عثمان من عام ٢٣هـ حتى عام ٣٥هـ

سيدنا علي من عام ٣٥هـ حتى عام ٤٠هـ

وَستَكُونُ خُلَفَاءُ فَتَكثُرُ» قَالُوا: فَمَا تَأمُرُنَا؟ قَالَ: «فُوا بِبَيْعَةِ الأوَّلِ فَالأوَّلِ. وَأَعطُوهُمْ حَقَّهُمْ. فَإِنَّ اللّهَ سَائِلُهُمْ عَمَّا استَرْعَاهُمْ». (يوسف عامر).

[1] ــ صحيح مسلم ـــ كتاب الإمارة.

[2] ــ مقدمة تاريخ الخلفاء للسيوطي.

[3] ــ جامع الترمذي، كتاب الفتن وسند أبي داود والحاكم والنسائي والبيهقي.

نبوءة خلافة الشيخين:

ورغم أن النبي صلي الله عليه وسلم لم يعين اسم خليفته صراحة، إلا أنه كان قد مُنح هذا العلم من قبل الله أن الأمور ستكون بهذا الشكل، وذات مرة قال رسول الله صلي الله عليه وسلم «بينما أنا على بئرٍ أنزعُ منها جاءني أبو بكرٍ وعمرُ، فأخذَ أبو بكرٍ الدَّلوَ فنزَعَ ذَنوباً أو ذَنوبَين، وفي نَزْعهِ ضَعف، واللَّهُ يَغفرُ له. ثمَّ أخذَها ابنُ الخطاب من يَد أبي بكرٍ فاستحالتْ في يدِهِ غَرْباً، فلم أرَ عَبْقَرياً من الناسِ يَفري فَريَّه، فنَزَعَ حتى ضَرَبَ الناسُ بعَطَن».([1])، وهذا كناية عن الخلافة الصديقية والفاروقية، وقد تحققت هذه النبوءة فيما بعد بحذافيرها.

إخبار المسلمين بوفرة أموالهم وظهور الفتن :

لقد أعطي رسول الله صلي الله عليه وسلم العلم بكل الفتن والحروب الداخلية التي ظهرت بعد وفاته صلي الله عليه وسلم، ولهذا فقد نبه الرسول صلي الله عليه وسلم المسلمين إلي هذه الأمور مرات عديدة، ذات مرة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم مع صحابته خارج المدينة، فسأل رسول الله صلي الله عليه وسلم : «هل تَرَون ما أرى؟ قالوا: لا. قال: فإني لأرى الفتنَ تقعُ خلالَ بيوتكم كوقع القَطر».([2]). وفي المرة الثانية أخبر النبي صلي الله عليه وسلم والله بأنه ﷺ لا يخاف على المسلمين الفقر والفاقة، وإنما يخاف عليهم المال والذي سيفتح به عليهم كما فتح به علي من كان قبلهم، وسوف يتحاسدون عليه فيما

---

[1] ــ صحيح البخاري، كتاب المناقب، وكتاب الرؤيا وهو ترجمة بالمعني للفقرة الأخيرة (حتى ضرب الناس) من كتاب المناقب صحيح مسلم، وليس ترجمة لفظية، انظر فتح الباري ــ ج١٢ ــ ص ٣٦٤.
وهذا نص الحديث: (٣٥٩٤) حدثني أحمدُ بن سعيدٍ أبو عبد الله حدَّثنا وَهبُ بن جَريرٍ حدَّثنا صخرٌ عن نافعٍ أن عبدَ اللَّهِ بن عمرَ رضيَ اللَّهُ عنهما قال: قال رسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم: «بينما أنا على بئرٍ أنزعُ منها جاءني أبو بكرٍ وعمرُ، فأخذَ أبو بكرٍ الدَّلوَ فنزَعَ ذَنوباً أو ذَنوبَين، وفي نَزْعهِ ضَعف، واللَّهُ يَغفرُ له. ثمَّ أخذَها ابنُ الخطاب من يَد أبي بكرٍ فاستحالتْ في يدِهِ غَرْباً، فلم أرَ عَبْقَرياً من الناسِ يَفري فَريَّه، فنَزَعَ حتى ضَرَبَ الناسُ بعَطَن».
قال وَهب: العَطَنُ مَبْرَكُ الإبل، يقول: حتى رويَتِ الإبلُ فأناخَت. (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح البخاري ــ كتاب الفتن ــ حجة الوداع. وهذا نص الحديث: (٦٩٠٧) حدثنا أبو نُعيم حدثنا ابنُ عُيينةَ عن الزهريِّ ح. وحدَّثني محمودٌ أخبرَنا عبد الرزاق أخبرَنا عنِ الزهريِّ عن عُروةَ عن أُسامةَ بن زيد رضيَ الله عنهما قال: أشرفَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم على أُطم من آطام المدينة فقال: «هل تَرَون ما أرى؟ قالوا: لا. قال: فإني لأرى الفتنَ تقعُ خلالَ بيوتكم كوقع القَطر». (يوسف عامر).

بينهم، وسوف يصيبهم بالغفلة كما أصاب من كان قبلهم بالغفلة ([1])، وقال رسول الله صلي الله عليه وسلم في مكان آخر «لا ترجِعوا بعدي كفّاراً يَضربُ بعضُكم رِقابَ بعض».([2])، وأخبر ﷺ في مكان آخر بأنه سيأتي زمان يأتي فيه إناء الطعام إلـي المسـلمين بالنهـار ويأتي بالليل، وستكون ملابسهم مثل ستائر الكعبة (أي ممتازة وقيمة)، فقال الحضور: يـا رسول الله هل نحن في هذه الحالة أفضل أم في تلك الحالة. فأجابهم صلي الله عليه وسلم بلا، وأخبر ﷺ بأنهم في هذه الحالة أفضل حيث يتحابون فيما بينهم، بينما في تلك الحالـة هم أعداء بعضهم البعض، وسيقتلون بعضهم بعضاً ([3]) يقول سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه كان رسـول الله صلي الله عليه وسلم ذات مرة مشرفاً المجلس بحضوره فـأخبر ﷺ بأنه ستكون هناك فتن واختلافات من بعده ﷺ، فقال الناس يا رسول الله، فبمـاذا تأمرنـا لذلك الوقت، أمرهم بالوقوف في صف الأمراء ورفقائهم([4]) وفي مكان آخر قال رسـول الله صلي الله عليه وسلم: ستكونُ فِتنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيـه خيـرٌ مـنَ الماشي، والماشي فيها خيرٌ من الساعي... ». ([5])

---

[1] ــ صحيح البخاري ومسلم ــــ كتاب الفتن.

[2] ــ وهذا نص الحديث: (٦٩٢٣) ــــ حدَّثَنا حجاجُ بن مِنهالٍ حدَّثَنا شعبةُ أخبرَني واقِدٌ عن أبيهِ عن ابن عُمرَ أنه سمعَ النبيَّ صلى الله عليه وسلم يقول: «لا ترجِعوا بعدي كفّاراً يَضربُ بعضُكم رِقابَ بعض». يوسف عامر).

[3] ــ مسند أحمد ــ حديث طلحة (النظري) ومستدرك الحاكم.

[4] ــ مستدرك الحاكم ــ جــ٣ ــــ ص٩٩، وصححه الذهبي. وورد فى صحيح البخاري، كتاب الفـتن، باب "سترون بعدي أمورا تنكرونها": (٦٩٠٠) ــــ حدثنا مسدَّدٌ عنِ عبد الوارث عنِ الجَعد عـن أبـي رجاءٍ عنِ ابن عباسٍ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «من كرهَ من أميره شيئاً فلْيصبر، فإنــه مـن خرَجَ من السلطانِ شبراً ماتَ مِيتةً جاهليةً». كما ورد أيضا فى الباب نفسه: (٦٩٠١) ــــ حـدثنا أبـو النُعمان حدَّثنا حمادُ بن زيدٍ عن الجَعدِ أبي عثمانَ حدَّثني أبو رجاءٍ العُطارديُّ قال: سمعت ابـنَ عبـاسٍ رضي اللَّهُ عنهما عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى من أميرِه شيئاً يكرَهه فلْيصبرْ عليـه، فإنه من فارقَ الجماعةَ شبراً فمات إلا مات مِيتةً جاهليةً».(يوسف عامر).

[5] ــ صحيح البخاري ــــ كتاب الفتن. وهذا نص الحديث: (٦٩٢٧) ــــ حدَّثَنا محمدُ بن عُبَيدِ اللَّه حدَّثَنا إبراهيمُ بن سعدٍ عن أبيه عن أبي سَلمةَ بن عبدِالرحمن عن أبي هريرةَ، قال إبراهيم: وحدَّثَني صالح بن كيسانَ عنِ ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرةَ قال: قال رسـولُ اللَّـه صـلى الله عليـه وسلم:«ستكونُ فِتنٌ القاعدُ فيها خيرٌ من القائم، والقائم فيه خيرٌ منَ الماشي، والماشي فيهـا خيـرٌ مـن الساعي، مَن تَشَرَّفَ لها تَستشرِفْه، فَمن وَجَدَ منها ملجأً أو معاذاً فلْيَعُذْ به». (يوسف عامر).

ستكون فتن بعد وفاة سيدنا عمر رضي الله عنه:

وقد أخبر الله تعالي رسوله صلي الله عليه وسلم بالفتن التي حدثت في عهد الخلفاء الراشدين، وأخبر رسول الله صلي الله عليه وسلم بعض الصحابة عنها. ذات مرة سأل سيدنا عمر رضي الله عنه الصحابة من أكثركم تذكراً للفتن التي ذكرها رسول الله صلي الله عليه وسلم ؟ فقال سيدنا حذيفة أنا أتذكرها، إن الفتن التي تقع للإنسان في الأهل والعيال والمال والثروة تزول بالصلاة والصدقة والكلمة الطيبة والنهي عن الأمور السيئة، فقال سيدنا عمر أنا لا أسأل عن هذه الفتن، إنما أسأل عن تلك الفتنة التي ستطل برأسها كموج البحر. فقال سيدنا حذيفة: يا أمير المؤمنين لن يصيبك ضرر من تلك الفتن، وبينك وبينها باب مغلق، فسأله سيدنا عمر هل سيفتح هذا الباب أم سوف يُحطم ؟ فقال سيدنا حذيفة سوف يُحطم، فقال سيدنا عمر ألن يمكن إغلاق هذا الباب أبداً ؟ فقال سيدنا حذيفة نعم هكذا. يقول الراوي سألت سيدنا حذيفة هل كان عمر يعرف ما هو ذلك الباب ؟ فقال حذيفة نعم كان يعلم ذلك مثلما يعرف أن الغد سيأتي بعد اليوم. يقول الراوي لم أستطع تأدباً أن أسأل ما ذلك الباب، ولهذا قلت لمسروق(التابعي) أن يسأل سيدنا حذيفة، فسأله مسروق فقال كان ذلك الباب هو وجود سيدنا عمر بذاته ([1]) ومن الذي لا يعرف أنه منذ أن انكسر ذلك الباب اندفعت سيول الفتن علي الإسلام.

ستقوم الفتن من المشرق:

وقد جاء في روايات كثيرة وبطريقـة صريحـة أن بداية الفتن في الإسلام ستكون من المشرق ([2])، وأشار النبي صلي الله عليه وسلم بإصبعه الشريف مرات عديدة

---

[1] ـ صحيح البخاري ـــ كتاب الفتن. وهذا نص الحديث: (٦٩٤٢) ـــ حدَّثنا عمرُ بن حفـص بـن غياث حدثنا أبي حدَّثنا الأعمشُ حدَّثنا شقيقٌ سمعتُ حُذَيفةَ يقول: «بَينا نحنُ جُلوس عندَ عمرَ إذ قال: أيكم يَحفَظُ قولَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم في الفتنة؟ قال: فتنة الرجلِ في أهله ومالِهِ وَوَلَدِهِ وجـارِه يكفِّرُهـا الصلاة والصدَقة والأمرُ بالمعروفِ والنهي عنِ المنكر. قال: ليس عن هذا أسألكَ، ولكـنِ التـي تمـوج كموج البحر؟ فقال: ليس عليكَ منها بأس يا أميرَ المؤمنين، إنَّ بينك وبينها باباً مُغلقاً. قال عمرُ: أيُكسَـرُ الباب أم يُفتح؟ قال: لا بل يُكسَر. قال عمرُ: إذاً لا يغلقُ أبداً. قلتُ: أجل. قلنا لحذيفة: أكان عمـرُ يَعلـم البابَ قال: نعم، كما يعلم أنَّ دُونَ غدٍ ليلةً، وذلكَ أني حدَّثته حديثاً ليس بالأغاليط فهِبْنـا أن نسـألَه مـن الباب، فأمرنا مسروقاً فسأله، فقال: مَنِ الباب؟ قال: عمرُ». (يوسف عامر).

[2] ـ صحيح البخاري ومسلم ـــ كتاب الفتن وغيره. وهذا نص الحديث كما ورد في مسلم، باب الفتنـة نحو المشرق: (٧٢٤٥) ـــ وحدثنا ابْنُ نُمَيْرٍ. حَدَّثَنَا إِسْحَـٰقُ يَعْنِي ابْنَ سُلَيْمَانَ. أَخْبَرَنَا حَنْظَلَـةُ قَـالَ:

قائلاً: «الْفِتْنَةُ هَـٰهُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّيْطَانِ»([1])، أي أشعة الشمس، وكانت هذه الإشارة إلي المشرق من العرب أي من ناحية العراق، ولقد كان قاتل سيدنا عمر رضي الله عنه أعجمياً، وفي عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه ثارت الفتنة أولاً من العراق وامتدت حتى مصر، ومعركة الجمل حدثت علي هذه الأرض، واستشهد عليها سيدنا عليّ رضي الله عنه، وعليها حدثت معركة صفين بين الأمير معاوية وسيدنا علي رضي الله عنه، ومنها خرجت أول فرقة خوارج في الإسلام، ومنها ظهرت الجبرية والقدرية وغيرها من الفرق البِدعيّة التي مزّقت بساطة الإسلام، وعلي شاطئ الفرات فيها نهبت قافلة آل بيت النبوة، وفيها اختلق " مختار " فتنة الادعاء الكاذب، والشيعة التي قسمت الإسلام إلي جزأين من نتاج هذه الأرض، ومظالم الحجاج حدثت هنا، وهنا ظهرت نتائج غارات الترك والتتار الذين مزّقوا ما بقي من قوة الإسلام والخلافة العربية، حتى أن نتائج خيانة القوة الإسلامية الوحيدة في الحرب العالمية الأولي أيضاً ظهرت هنا، وامتدت آثارها فيما بعد إلي أطراف أخري.

إخبار سيدنا عثمان رضي الله عنه بالفتنة:

كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يجلس متكئاً في حديقة في المدينة إذ حضر سيدنا أبو بكر الصديق رضي الله عنه فبشره رسول الله صلي الله عليه وسلم بالجنة، ثم جاء عمر رضي الله عنه فبشره رسول الله صلي الله عليه وسلم بالجنة، ثم جاء عثمان رضي الله عنه فبشره رسول الله صلي الله عليه وسلم بالجنة، وأخبره بمواجهته لفتنة

سَمِعْتُ سَالِماً يَقُولُ: سَمِعْتُ ابْنَ عُمَرَ، يَقُولُ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللّهِ، يُشِيرُ بِيَدِهِ نَحْوَ الْمَشْرِقِ وَيَقُولُ: «هَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَـٰهُنَا. هَا إِنَّ الْفِتْنَةَ هَهُنَا» ثَلاَثاً «حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنَا الشَّيْطَانِ». (يوسف عامر).

[1] ـ وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب الفتنة نحو المشرق: (٧٢٤٢) ــــ وحدّثني عُبَيْدُ اللّهِ بْنُ عُمَرَ الْقَوَارِيرِيُّ وَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّىٰ. ح وَحَدَّثَنَا عُبَيْدُ اللّهِ بْنُ سَعِيدٍ. كُلُّهُمْ عَنْ يَحْيَـىٰ الْقَطَّانِ. قَالَ الْقَوَارِيرِيُّ: حَدَّثَنِي يَحْيَىٰ بْنُ سَعِيدٍ عَنْ عُبَيْدِ اللّهِ ابْنِ عُمَرَ. حَدَّثَنِي نَافِعٌ عَنِ ابْنِ عُمَـرَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَامَ عِنْدَ بَابِ حَفْصَةَ، فَقَالَ بِيَدِهِ، نَحْوَ الْمَشْرِقِ: «الْفِتْنَةُ هَـٰهُنَا مِنْ حَيْثُ يَطْلُعُ قَرْنُ الشَّـيْطَانِ» قَالَهَا مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثاً. وَقَالَ عُبَيْدُ اللّهِ بْنُ سَعِيدٍ فِي رِوَايَتِهِ: قَامَ رَسُولُ اللّهِ عِنْدَ بَـابِ عَائِشَـةَ. (يوسـف عامر).

واختبار، وقد حدثت هذه الفتنة ووقع هذا الاختبار في زمن خلافته رضي الله عنه، واستشهد فيها، وهناك روايات أخري من هذا القبيل في كتب الحديث.([1])

سوف يستشهد سيدنا عمر وسيدنا عثمان رضي الله عنهما:

ذات مرة كان رسول الله صلي الله عليه وسلم يجلس علي جبل ثير أو جبل أُحد، وكان معه صلي الله عليه وسلم من صحابته سيدنا أبو بكر وسيدنا عمر وسيدنا عثمان رضي الله عنهم، وفجأة اهتز الجبل، فقال صلي الله عليه وسلم "اثبُتْ أُحُدُ، فإن عليكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشَهيدان».، وكان الجميع يعرف النبي والصديق، ولكن عرف الناس من هما الشهيدان بعد استشهاد سيدنا عمر وسيدنا عثمان رضي الله عنهما. ([2])

---

[1] ــ ومن بين هذه الروايات ما ورد فى صحيح البخاري، كتاب الفتن، باب الفتنة التي تموج كموج البحر: (٦٩٤٣) ـــ حدَّثَنا سعيدُ بن أبي مريمَ أخبرَنا محمدُ بن جَعفر عن شَريك بن عبد اللّه عن سعيد بن المسيَّب عن أبي موسى الأشعريِّ قال: «خرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم إلى حائطٍ من حَوائط المدينةِ لحاجتِه وخرجتُ في إثره، فلما دَخَلَ الحائطَ جَلَستُ على بابِه وقلتُ: لأكوننَّ اليومَ بَوّابَ النبيِّ صلى الله عليه وسلم ولم يأمرْني. فذهبَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وقَضىَ حاجته، وجلسَ على قُفِّ البئر فكشفَ عن ساقيه ودلاّهما في البئر، فجاءَ أبو بكر يستأذِنُ عليه ليدخُلَ فقلتُ كما أنتَ حتى أستأذِنَ لك، فوقفَ، فجئتُ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فقلتُ: يا نبيَّ، أبو بكر يستأذِنُ عليك. قال: ائذَن له وَبَشِّرْه بالجنَّة. فدخلَ، عن يمين النبيِّ صلى الله عليه وسلم فكشفَ عن ساقَيهِ ودَلاهما في البئر. فجاء عمرُ، فقلتُ: كما أنتَ حتى أستأذِنَ لك. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ائذَن له وبَشره بالجنة. فجاء عن يَسار النبي صلى الله عليه وسلم فكَشَفَ عن ساقيه فدلاَّهما في البئر، فامتَلأ القُفُّ فلم يكنْ فيه مجلسٌ. ثمَّ جاء عثمانُ فقلت: كما أنتَ حتى أستأذِنَ لك. فقال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: ائذَنْ له وَبَشِّرْهُ بالجنة معها بَلاءٌ يُصيبه، فدَخَلَ فلم يجدْ معهم مجلِساً، فتحوَّلَ حتى جاء مقابلَهم على شَفَة البئرِ، فكشفَ عن ساقَيهِ ثمَّ دَلاّهما في البئرِ، فجعلتُ أتمنى أخاً لي، وأَدْعُو اللَّهَ أن يأتيَ» قال ابنُ المسيَّب: فتأوَّلتُ ذلك قُبورَهمْ، اجتَمَعَتْ ها هنا وانفرَدَعثمانُ.(يوسف عامر).

[2]ــ صحيح البخاري ـــ مناقب أبي بكر، وصحيح الترمذي مناقب عثمان برواية حسن، وسنن النسائي والدار قطني. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري: (٣٥٩٣) ـــ حدثني محمدُ بن بَشّارٍ حدثنا يحيى عن سعيدٍ عن قَتادةَ أنَّ أنسَ بن مالكٍ رضيَ الله عنه حدَّثهم: «أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم صعِدَ أُحُداً وأبو بكرٍ وعمرُ وعثمانُ، فرَجَفَ بهم، فقال: اثبُتْ أُحُدُ، فإن عليكَ نبيٌّ وصدِّيقٌ وشَهيدان». (يوسف عامر).

مشكلات سيدنا علي المرتضي واستشهاده:

وروي عن سيدنا عليّ رضي الله عنه أن النبي صلي الله عليه وسلم أخبره بأنه سوف تغدر به أمته ﷺ من بعده ﷺ، وورد فى رواية سيدنا ابن عباس رضي الله عنه أن النبي ﷺ أخبر عليا بأنه سوف تصيبه مصيبة من بعده ﷺ، فسأل سيدنا علي: هل ستقع هذه المصيبة وأنا سالم في ديني ؟ فأجابه النبي صلي الله عليه وسلم بنعم. وذات مرة كان سيدنا علي وبعض الصحابة في رفقة النبي صلي الله عليه وسلم فأخبرهم النبي صلى الله عليه وسلم بأتعس اثنين، أولهما ذلك التعس من قوم ثمود والذي قتل الناقة، والثاني هو الذي سوف يضرب علّيا بسيفه هنا (وأشار رسول الله صلي الله عليه وسلم إلي رقبته) ([1])

الإخبار بمعركة الجمل:

- إن المعركة التي حدثت مصادفة بين سيدنا علي والسيدة عائشة رضي الله عنهما في البصرة تسمي معركة الجمل، وذات مرة كان الرسول صلي الله عليه وسلم يجلس بين أزواجه المطهرات فأخبرهن بأنه سوف تنبح علي إحداهن كلاب حوأب (وحوأب قناة في العراق)، وحين خرجت السيدة عائشة مع أصحاب الجمل، ووصلت إلي قناة حوأب وبدأت الكلاب هناك تنبح عليها تذكرت نبوءة النبي صلي الله عليه وسلم ([2])

معركة سيدنا علي وسيدنا معاوية رضي الله عنهما:

ذات مرة قال رسول الله صلي الله عليه وسلم لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ. وَتَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ. وَدَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ».([3])، ويقول العلماء إن هذه النبوءة تصدق علي معارك سيدنا علي والأمير معاوية رضي الله عنهما([4])

---

[1] ــ هذه الروايات الثلاثة موجودة في مستدرك الحاكم وقد صحح الإمام الذهبي الرواية الأولي تماماً، واعتبر الثانية صحيحة علي شرط البخاري ومسلم، والثالثة بشرط مسلم ــ جــ ٣ ــ ص١٤٠، ١٤١ ــ حيدر آباد.

[2] ــ مسند ابن حنبل ــ جــ ٦ ــ ص٥٢، ٩٧.

[3] ــ صحيح مسلم ــ باب الفتن. وهذا نص الحديث كما ورد فى باب لا تقوم الساعة حتى تقتتل فئتان عظيمتان: (٧٢٠٥) ـــ وحدثنا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّهٍ قَالَ: هَـٰذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللّهِ. فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا: وَقَالَ رَسُولِ اللّهِ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَقْتَتِلَ فِئَتَانِ عَظِيمَتَانِ. وَتَكُونُ بَيْنَهُمَا مَقْتَلَةٌ عَظِيمَةٌ. وَدَعْوَاهُمَا وَاحِدَةٌ». (يوسف عامر).

[4] ــ انظر شرح مسلم.

سيستشهد سيدنا عمار رضي الله عنه:

وضع النبي صلي الله عليه وسلم يده الشريفة علي رأس سيدنا عمار رضي الله عنه في غزوة الخندق وقال «تَقْتُلُ عَمَّاراً الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ». ([1])، وقد رويت هذه النبوءة عن عدد من الصحابة، وقد استشهد سيدنا عمار رضي الله عنه في معركة صفين علي يد رفاق سيدنا معاوية في المعركة بين سيدنا علي وسيدنا معاوية.

تصالح الإمام الحسن:

ذات مرة رأي رسول الله صلي الله عليه وسلم سيدنا الإمام الحسن رضي الله عنه خارجاً من البيت فحمله في حجرة وصعد علي المنبر ثم قال: "ابني هذا سيِّد، ولعلَّ الله أن يُصلحَ به بينَ فئتَين منَ المسلمين». ([2])، وهكذا تحققت هذه النبوءة بعد استشهاد سيدنا علي بستة أشهر، وتم الصلح بين مؤيدي سيدنا معاوية علي بعض الشروط.

تخريب الإسلام علي يد حكام قريش الجدد:

كان سيدنا أبو هريرة رضي الله عنه من بين خاصة الصحابة الذين أطلعهم رسول الله صلي الله عليه وسلم علي مستقبل الإسلام وكان يقول أن النبي صلي الله عليه وسلم قال: "هَلَكَةُ أمتي على يَدَي غِلمةٍ من قريش" قال أبو هريرة رضي الله عنه: " لو شئت أن أقول بني فلان بني فلان لَفعَلت». ([3])، وقد تحققت هذه النبوءة كاملة، فكان ذلك الطوفان

---

[1] ــ المرجع السابق. وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح مسلم، باب اقتراب الفتن: (٧٢٧٣) ـــــ وحدّثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ. حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ عَنِ ابْنِ عَوْنٍ عَنِ الْحَسَنِ عَنْ أُمِّهِ، عَنْ أُمِّ سَلَمَةَ، قَالَتْ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «تَقْتُلُ عَمَّاراً الْفِئَةُ الْبَاغِيَةُ». (يوسف عامر).

[2] ــ صحيح البخاري ــ علامات النبوة في الإسلام ــ صحيح مسلم والترمذي ــ باب المناقب والحاكم ترجمه الإمام الحسن ــ جـــ ٣. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري، كتاب المناقب، باب علامات النبوة فى الإسلام: (٣٥٤٩) ـــ حدثني عبدُ الله بنُ محمدٍ حدثنا يحيى بن آدمَ حدثَنا حسينٌ الجُعفيُّ عن أبي موسى عن الحسن عن أبي بَكرة رضيَ الله عنه: «أخرجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم ذاتَ يومٍ الحسنَ فصَعِدَ بهِ على المنبرِ فقال: ابني هذا سيِّد، ولعلَّ الله أن يُصلحَ به بينَ فئتَين منَ المسلمين». (يوسف عامر).

[3] ــ صحيح البخاري ــ كتاب الفتن. وهذا نص الحديث كما ورد فى باب: هلاك أمتي على يد أغيلمة سفهاء: (٦٩٠٥) ـــ حدّثنا موسى بن إسماعيلَ حدَّثنا عمرُو بن يحيى بن سعيد بن عمرو بن سعيد قال: أخبرَني جدي قال: كنتُ جالساً مع أبي هريرةَ في مسجدِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم بالمدينة ومَعَنا مَروانُ، قال أبو هريرةَ: «سمعتُ الصادقَ المصدوقَ يقول: هَلَكةُ أمتي على يَدَي غِلمةٍ مِن قريش، فقال

السياسي في عهد سيدنا عثمان رضي الله عنه واستشهاده، ثم معركة الجمل، وكلها كانت نتائج لتطلعات في غير محلها لبعض أبناء سادة قريش الجدد كما هو مذكور في عامة كتب التاريخ وفي صحيح البخاري إذ يقول الراوي: لقد رأينا بني مروان في الشام فوجدناهم شباباً جدد هكذا ([1]).

مصيبة تولي يزيد العرش علي الإسلام:

توفي الأمير معاوية في عام ٦من الهجرة وخلفه يزيد، وكانت هذه أول ليلة في نكبات الإسلام السياسية والدينية والأخلاقية والروحانية وإدبارها، وهناك روايات عديدة عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، إذ جاء في مسند أحمد أن النبي صلي الله عليه وسلم أمر المسلمين أن يستعيذوا بالله من حكومة صبية آخرين مع بداية عام ٦٠هـ، وأخبر ﷺ بأنه لن تنتهي الدنيا حتى يحكمها أمثال هؤلاء الحكام ([2])، وجاء عند الحاكم أن النبي صلي الله عليه وسلم تأسف على أنه ستنزل بالعرب مصيبة مع بداية عام ٦٠هـ، وسوف تعد الأمانة مالاً للنهب، وتعد الصدقة والخيرات غرامات وإتاوات، وسوف تكون الشهادة بالمعرفة والأحكام طبقاً للهوى "

وقد جاء في البيهقي أن سيدنا أبا هريرة كان يقول في سوق المدينة: اللهم لا تبلغني عام ٦٠هـ وحكومة الصبية، وقد قبل الله دعاءه هذا وتوفي عام ٥٩هـ.

شهادة الإمام الحسين رضي الله عنه:

وقد وردت نبوءات عديدة عن وفاة الإمام الحسين رضي الله عنه عند الحاكم والبيهقي وابن راهوي وأبو نعيم، وإن كانت هذه الروايات ليست علي درجة عالية من الصحة، إلا أنها تثبت بإجمال أعطي العلم بهذه الحادثة، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أخبر آل بيته بها، وأفضل رواية في هذا الخصوص هي رواية الحاكم والتي نقلها بطرق متعددة حيث جاء أن ابن عباس رضي الله عنه قال أن الله تعالي أخبر سيدنا محمد صلي الله عليه وسلم قائلاً: أنني انتقمت للنبي يحيي بسبعين ألفاً وسأنتقم لحفيدك بسبعين وسبعين

مروانُ: لعنة اللَّه عليهم غِلمةً، فقال أبو هريرة لو شئت أن أقول بني فلان بني فلان لَفَعَلْتُ». فكنتُ أخرجُ مع جدِّي إلى بني مروانَ حينَ ملكوا بالشام فإذا رآهم غِلماناً أحداثاً قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم. قلنا: أنت أعلم. (يوسف عامر).

[1] ـ أوائل كتاب الفتن.

[2] ـ مسند أحمد ـ أحاديث أبي هريرة.

ألفاً، وقد سلم الحافظ الذهبي بهذه الرواية علي شرط مسلم ([1]). لكن الرواية نفسها تشير إلي أنه قد تم الإخبار مسبقاً بشهادة الإمام الحسين رضي الله عنه، وقد تحقق هذا الإخبار الإلهي حرفاً حرفاً، وقد انتقم من قتلة الحسين رضي الله عنه بنفس العدد، وذلك بعد استشهاده.

الإخبار بالخوارج:

روي عن سيدنا أبي سعيد الخدري أن النبي صلي الله عليه وسلم كان ذات يوم يقوم بتقسيم الغنائم، فجاء رجل من قبيلة بني تميم وقال: يا رسول الله قسم المال بالعدل، فقال صلي الله عليه وسلم" ويلك، ومَن يعدِلُ إذا لم أعدل"، فغضب سيدنا عمر لهذا التطاول غضباً شديداً وقال للرسول صلي الله عليه وسلم إن أذنت لي ضربت عنقه، فقال صلي الله عليه وسلم: "دَعهُ فإن لهُ أصحاباً يَحقرُ أحدُكم صلاتَهُ مع صلاتهم، وصيامهُ مع صيامهم، يقرَؤون القرآنَ لا يُجاوزُ تَراقيَهُم، يمرُقونَ منَ الدين كما يمرُقُ السهمُ منَ الرَّميَّة: يُنظرُ إلى نَصلهِ فلا يوجدُ فيه شيء، ثم يُنظرُ إلى رصافه فما يوجدُ فيهِ شيء، ثم يُنظرُ إلى نَضيِّهِ ــ وهو قِدْحهُ ــ فلا يوجَد فيه شيء، ثم يُنظَرُ إلى قُذَذِهِ فلا يوجدَ فيهِ شيء، قد سبق الفرثَ والدَّمَ، آيتُهم رجل أسودُ إحدى عَضُديهِ مثلُ ثدي المرأة". يقول سيدنا أبو سعيد الخدري أن سيدنا علي بن أبي طالب قد حارب هذه الجماعة وكنت معه، وقد بحثنا عن ذلك الأسود الذي قد أخبرنا عنه الرسول صلي لله عليه وسلم ووجدنا مثلما أخبرنا به. ([2])

---

[1] ــ المستدرك ــ جـ ٣ ــ ص١٢٨.

[2] ــ البخاري ــ جـ ١ ــ ص٥١٠ ــ باب علامات النبوة في الإسلام. وهذا نص الحديث: (٣٥٣٢) ـــ حدّثنا أبو اليمان أخبرنا شُعيبٌ عنِ الزُّهريِّ قال: أخبرني أبو سلمةَ بنُ عبد الرحمنِ أن أبا سعيدٍ الخُدريَّ رضيَ اللهُ عنه قال: «بينما نحن عند رسولِ اللهِ صلى الله عليه وسلم ــ وهو يَقسِمُ قسماً ــ إذ أتاهُ ذو الخُويصرة وهو رجلٌ من بني تميمٍ فقال: يارسولَ اللهِ اعدلْ. فقال: ويلك، ومَن يعدِلُ إذا لم أعدل، قد خِبت وخسرت إن لم أكنْ أعدِل. فقال عمر: يا رسولَ الله، ائذنْ لي فيهِ فأضربَ عنقه، فقال: دَعهُ فإن لهُ أصحاباً يَحقرُ أحدُكم صلاتَهُ مع صلاتهم، وصيامهُ مع صيامهم، يقرَؤون القرآنَ لا يُجاوزُ تَراقيَهُم، يمرُقونَ منَ الدين كما يمرُقُ السهمُ منَ الرَّميَّة: يُنظرُ إلى نَصلهِ فلا يوجدُ فيه شيء، ثم يُنظرُ إلى رصافه فما يوجدُ فيهِ شيء، ثم يُنظرُ إلى نَضيِّهِ ــ وهو قِدْحهُ ــ فلا يوجَد فيه شيء، ثم يُنظَرُ إلى قُذَذِهِ فلا يوجدَ فيهِ شيء، قد سبق الفرثَ والدَّمَ، آيتُهم رجل أسودُ إحدى عَضُديهِ مثلُ ثدي المرأة، أوِ مثلُ البَضْعةِ تدرْدرُ، ويخرجون على حين فُرقةٍ منَ الناس. قال أبو سعيدٍ: فأشهدُ أني سمعتُ هذا الحديثُ من رسولِ

الإخبار بمختار والحجاج الثقفيين:

قال رسول الله صلي الله عليه وسلم: «أَنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّاباً وَمُبِيراً»، وهكذا عندما أعدم الحجاج الثقفي سيدنا عبد الله بن الزبير واستدعي والدته فرفضت الذهاب إليه حتى ذهب إليها الحجاج بنفسه بعد رفضها مرات عديدة، وبعد أخذ ورد كثيرين قالت إن النبوءة التي أخبرنا بها النبي صلي الله عليه وسلم عن الرجلين اللذان سيظهران في ثقيف أحدهما الكذاب (مختار الثقفي) والآخر القاتل وأظنه أنت قد تحققت، فلما سمع الحجاج ذلك صمت وعاد من حيث جاء ([1]).

نار في الحجاز:

قال صلي الله عليه وسلم «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَىٰ».، وهذه الرواية في صحيح مسلم وعند الحاكم ([2])، ويكتب

الله صلى الله عليه وسلم، وأشهدَ أنَّ عليَّ بن أبي طالبٍ قاتلهم وأنا معَه، فأمَرَ بذلكَ الرَّجل فالتمسَ فـأُتي به، حتى نظرتُ إليه على نعت النبي صلى الله عليه وسلم الذي نَعَتَه». (يوسف عامر).

[1] ــ مسلم كتاب الفضائل ــ باب ذكر كذاب ثقيف ومبيرها. وهذا نص الحديث: (٦٤٤٨) ـــ حدثنا عُقْبَةُ بْنُ مُكْرَمٍ الْعَمِّيُّ. حَدَّثَنَا يَعْقُوبُ يَعْنِي ابْنَ إِسْحَـقَ الْحَضْرَمِيَّ. أَخْبَرَنَا الأَسْوَدُ بْنُ شَيْبَانَ عَـنْ أَبِـي نَوْفَلٍ، رَأَيْتُ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ الزُّبَيْرِ عَلَىٰ عَقَبَةِ الْمَدِينَةِ. قَالَ: فَجَعَلَتْ قُرَيْشٌ تَمُرُّ عَلَيْهِ وَالنَّاسُ. حَتَّىٰ مَرَّ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ. فَوَقَفَ عَلَيْهِ فَقَالَ: السَّلاَمُ عَلَيْكَ، أَبَا خُبَيْبٍ السَّلاَمُ عَلَيْكَ، أَبَا خُبَيْبٍ السَّلاَمُ عَلَيْـكَ، أَبَـا خُبَيْبٍ أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَـذَا. أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَاكَ عَنْ هَـذَا. أَمَا وَاللَّهِ لَقَدْ كُنْتُ أَنْهَـاكَ عَنْ هَـذَا. أَمَا وَاللَّهِ إِنْ كُنْتَ، مَا عَلِمْتُ، صَوَّاماً. قَوَّاماً. وَصُولاً لِلرَّحِمِ. أَمَا وَاللَّهِ لأُمَّةٌ أَنْتَ أَشَرُّهَا لأُمَّةٌ خَيْرٌ. ثُمَّ نَفَذَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ. فَبَلَغَ الْحَجَّاجَ مَوْقِفُ عَبْدِ اللَّهِ وَقَوْلُهُ. فَأَرْسَلَ إِلَيْهِ فَأُنْزِلَ عَنْ جِذْعِهِ. فَـأُلْقِيَ فِي قُبُورِ الْيَهُودِ. ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَىٰ أُمِّهِ أَسْمَاءَ بِنْتِ أَبِي بَكْرٍ. فَأَبَتْ أَنْ تَأْتِيَهُ. فَأَعَادَ عَلَيْهَا الرَّسُولَ: لَتَـأْتِيَنِّي أَوْ لأَبْعَثَنَّ إِلَيْكِ مَنْ يَسْحَبُكِ بِقُرُونِكِ. قَالَ: فَأَبَتْ وَقَالَتْ: وَاللهِ لاَ آتِيكَ حَتَّىٰ تَبْعَثَ إِلَيَّ مَنْ يَسْحَبُنِي بِقُرُونِـي. قَالَ: فَقَالَ: أَرُونِي سِبْتَيَّ. فَأَخَذَ نَعْلَيْهِ. ثُمَّ انْطَلَقَ يَتَوَذَّفُ. حَتَّىٰ دَخَلَ عَلَيْهَا. فَقَالَ: كَيْفَ رَأَيْتِنِـي صَـنَعْتُ بِعَدُوِّ اللَّهِ؟ قَالَتْ: رَأَيْتُكَ أَفْسَدْتَ عَلَيْهِ دُنْيَاهُ، وَأَفْسَدَ عَلَيْكَ آخِرَتَكَ. بَلَغَنِي أَنَّكَ تَقُولُ لَهُ: يَا ابْنَ ذَاتِ النِّطَاقَيْنِ أَنَا، وَاللَّهِ ذَاتُ النِّطَاقَيْنِ. أَمَّا أَحَدُهُمَا فَكُنْتُ أَرْفَعُ بِهِ طَعَامَ رَسُولِ اللَّهِ، وَطَعَامَ أَبِي بَكْرٍ مِنَ الدَّوَابِّ. وَأَمَّـا الآخَرُ فَنِطَاقُ الْمَرْأَةِ الَّتِي لاَ تَسْتَغْنِي عَنْهُ. أَمَا إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ حَدَّثَنَا: «أَنَّ فِي ثَقِيفٍ كَذَّاباً وَمُبِيـراً» فَأَمَّـا الْكَذَّابُ فَرَأَيْنَاهُ. وَأَمَّا الْمُبِيرُ فَلاَ إِخَالُكَ إِلاَّ إِيَّاهُ. قَالَ: فَقَامَ عَنْهَا وَلَمْ يُرَاجِعْهَا. (يوسف عامر).

[2] ــ كتاب الفتن. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٧٢٣٨) ـــ حدثني حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَىٰ. أَخْبَرَنَا ابْنُ وَهْبٍ. أَخْبَرَنِي يُونُسُ عَنِ ابْنِ شِهَابٍ. أَخْبَرَنِي ابْنُ الْمُسَيَّبِ أَنَّ أَبَا هُرَيْرَةَ أَخْبَرَهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ. ح وَحَدَّثَنِي عَبْدُ الْمَلِكِ بْنُ شُعَيْبِ بْنِ اللَّيْثِ. حَدَّثَنَا أَبِي عَنْ جَدِّي. حَدَّثَنِي عُقَيْلُ بْنُ خَالِدٍ عَـنِ ابْـنِ

الإمام النووي في شرح هذا الحديث أن هذه النيران ظهرت في زماننا عام ٦٥٤هـ، وكانت نيران كبيرة حتى أنها امتدت من الجانب الشرقي من المدينة وحتى المنطقية الجبلية، وقد علم أهل الشام والمدن الأخرى بها، واختبرنا ذلك الشخص الذي كان موجوداً في المدينة عندئذٍ ([1]).

ويقول أبو شامة وهو مؤلف معاصر آخر: جاءت عندنا خطابات من المدينة مكتوب فيها أنه حدث في ليلة الأربعاء الثالث من جمادى الثاني في المدينة المنورة انفجار ضخم، ثم جاء زلزال عظيم ظل يزداد ساعة بساعة حتى نشبت نار عظيمة بالقرب من حي بني قريظة في المنطقة الجبلية في اليوم الخامس، فكنا نراها من بيوتنا في المدينة وكأنها قريبة منا للغاية، وظهرت المستنقعات من الأرض، وكنا نصعد لرؤيتها، فنري الجبل قد صار ناراً وبدأ يسيل، والحمم تشتعل هنا وهناك، وكانت شعلات اللهب تبدو كالجبال، وكان الشرر يتطاير بمستوي البيوت حتى أن هذه النار كانت تظهر من مكة المكرمة والصحراء أيضاً، فخاف الناس واجتمعوا في الروضة النبوية للدعاء والاستغفار، وظل الحال هكذا لشهر كامل ([2])

ويكتب العلامة الذهبي فيما يتعلق بهذه الحادثة أنه قد خرجت نار في المدينة في نفس ذلك العام ٦٥٤هـ، وكانت إحدى تلك العلامات العظيمة التي اخبر بها النبي صلي الله عليه وسلم، ولم تكن في هذه النيران برغم شدتها وضيائها حرارة، وظل أهل المدينة لأيام عدة يتصورون أن الساعة قد قامت، فاستغفروا الله وتابوا إليه ([3]).

وحال هذه النيران معروف بالتواتر، ويكتب الحافظ السيوطي قائلاً أنه قد شهد عدد من الناس اللذين كانوا في البصرة في ذلك الوقت أنهم رأوا أعناق جمال في ضوءها ([4]).

شِهَابٍ أَنَّهُ قَالَ: قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: أَخْبَرَنِي أَبُو هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: «لاَ تَقُومُ السَّاعَةُ حَتَّىٰ تَخْرُجَ نَارٌ مِنْ أَرْضِ الْحِجَازِ، تُضِيءُ أَعْنَاقَ الإِبِلِ بِبُصْرَىٰ». (يوسف عامر).

[1] ــ شرح مسلم ــ النووي ــ جــ ٢ ــ ص٣٩٢ ــ نول كشور

[2] ــ تاريخ الخلفاء ــ من وقائع أبي مشاق ٦٥٤ هــ

[3] ــ مختصر تاريخ الإسلام للذهبي ــ جــ ٢ ــ ص١٢١ ــ حيدر آباد.

[4] ــ تاريخ الحلفاء ــ واقعات ٦٥٤هــ.

انقلاب بعد قرن أو عهد:

يقول سيدنا ابن عمر رضي الله عنه أنه ذات مرة خاطب رسول صلي الله عليه وسلم الحضور بعد صلاة العشاء في أواخر حياته وقال: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ، وَهِيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ».[1]، يقول الراوي أن النبي صلي الله عليه وسلم أراد بهذا أن قرناً سينتهي، ويروي سيدنا جابر الواقعة قائلاً: قال رسول الله صلي الله عليه وسلم قبل وفاته: «تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ؟ وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّهِ. وَأُقْسِمُ بِاللّهِ مَا عَلَىٰ الأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ». ([2]). ويقصد بهذا انتهاء عهد الخير والبركة للصحابة، وقد مات آخرهم وهو أبو الطفيل الذي يقول: لم يبق سواي من أضاء عينيه بجمال محمد صلي الله عليه وسلم. وقد رحل أبو الطفيل هذا مع نهاية القرن.

انقلاب بعد أربعة عهود:

ورد عن رواة كثر عن النبي صلي الله عليه وسلم أنه قال علي الملأ: "إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي. ([3])، ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ، ثُمَّ يَكُونَ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ. وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ. وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يُوفُونَ". أما العهد الأول فهو العهد

---

[1] ــ وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٦٤٣٥) ـــ حدثني يحْيَىٰ بْنُ حَبِيبٍ وَ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الأَعْلَىٰ. كِلاَهُمَا عَنِ الْمُعْتَمِرِ. قَالَ ابْنُ حَبِيبٍ: حَدَّثَنَا مُعْتَمِرُ بْنُ سُلَيمَانَ. قَالَ: سَمِعْتُ أَبِي. حَدَّثَنَا أَبُو نَضْرَةَ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ، ، عَنِ النَّبِيِّ أَنَّهُ قَالَ ذَلِكَ قَبْلَ مَوْتِهِ بِشَهْرٍ. أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ: «مَا مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ، الْيَوْمَ، تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ، وَهِيَ حَيَّةٌ يَوْمَئِذٍ». وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَـٰنِ صَاحِبِ السِّقَايَةِ عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللّهِ، عَنِ النَّبِيِّ. بِمِثْلِ ذَلِكَ. وَفَسَّرَهَا عَبْدُ الرَّحْمَـٰنِ قَالَ: نَقْصُ الْعُمُرِ. (يوسف عامر).

[2] ــ هذه الأحاديث كلها موجودة في صحيح مسلم باب فضل الصحابة والرواية الأولي مذكورة في كتاب الملاحم لأبي داود. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٦٤٣٣) حدثني هَـٰرُونُ بْنُ عَبْدِ اللّهِ وَ حَجَّاجُ بْنُ الشَّاعِرِ. قَالاَ: حَدَّثَنَا حَجَّاجُ بْنُ مُحَمَّدٍ. قَالَ: قَالَ ابْنُ جُرَيْجٍ: أَخْبَرَنِي أَبُو الزُّبَيْرِ أَنَّهُ سمعَ عَنْ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللّهِ، يَقُولُ: سَمِعْتُ النَّبِيَّ يَقُولُ، قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرٍ: «تَسْأَلُونِي عَنِ السَّاعَةِ؟ وَإِنَّمَا عِلْمُهَا عِنْدَ اللّهِ. وَأُقْسِمُ بِاللّهِ مَا عَلَىٰ الأَرْضِ مِنْ نَفْسٍ مَنْفُوسَةٍ تَأْتِي عَلَيْهَا مِائَةُ سَنَةٍ». (يوسف عامر).

[3] ــ صحيح مسلم فضل الصحابة ومسند أحمد حديث بريدة. وهذا نص الحديث: (٦٤٢٧) ـــ حدثنا أَبُو بَكْرِ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ وَ مُحَمَّدُ بْنُ الْمُثَنَّى وَ ابْنُ بَشَّارٍ. جَمِيعاً عَنْ غُنْدَرٍ. قَالَ ابْنُ الْمُثَنَّى. حَدَّثَنَا مُحَمَّدُ بْنُ جَعْفَرٍ. حَدَّثَنَا شُعْبَةُ. سَمِعْتُ أَبَا جَمْرَةَ. حَدَّثَنِي زَهْدَمُ ابْنُ مُضَرِّبٍ. سَمِعْتُ عِمْرَانَ بْنَ حُصَيْنٍ، يُحَدِّثُ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَالَ «إِنَّ خَيْرَكُمْ قَرْنِي. ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ. ثُمَّ الَّذِينَ يَلُونَهُمْ». قَالَ عِمْرَانُ: فَلاَ أَدْرِي أَقَالَ رَسُولُ اللّهِ بَعْدَ قَرْنِهِ، مَرَّتَيْنِ أَوْ ثَلاَثَةً. «ثُمَّ يَكُونَ بَعْدَهُمْ قَوْمٌ يَشْهَدُونَ وَلاَ يُسْتَشْهَدُونَ. وَيَخُونُونَ وَلاَ يُؤْتَمَنُونَ. وَيَنْذِرُونَ وَلاَ يُوفُونَ وَيَظْهَرُ فِيهِمُ السِّمَنُ». (يوسف عامر).

النبوي، والثاني عهد الصحابة، والثالث عهد التابعين، والرابع عهد تابعي التابعين. وهذه العهود الأربعة عهود المناقب والمكارم والأخلاقيات الدينية والروحانية، وعهود ظهور أئمة الدين وعلماء الخير واحداً تلو الآخر، وعهود نشأة العلوم الدينية الخالصة وتدوينها ونشرها وترويجها، ثم بعد ذلك يندفع سيل البدع، ويظهر علماء السوء وأمراء الباطل، وتظهر الفرق الباطلة، ويصيب الفقهاء الجمود، ويجد الهوى والطمع طريقه بين العلماء، وتنتشر الأفكار الفلسفية لليونان والهند وفارس بين المسلمين، وتضمحل القوة الملية والعقائدية في الإسلام، وينحدر النظام كله.

المبدعون الكذبة:

جاء في صحيح مسلم وغيره أن النبي صلي الله عليه وسلم قال: " لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله".([1])، وأمثال هؤلاء المدعين الكذبة إن أحصيناهم من كتب التاريخ من وقت مسليمة وحتى اليوم سيصل عددهم إلي ما يقرب من الثلاثين، وقد ظهر من بينهم حديثاً أحدهما في إيران والآخر في الهند، وقد رأيناهم بأعيننا.

منكرو الحديث:

جاء عند أبي داود أن النبي صلي الله عليه وسلم قال: «ألاَ إنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ ألاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهٰذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ..." ([2])، وجاء هذا الحديث في البيقهي بألفاظ أكثر وضوحاً، فإذا كانت هذه النبوءة تنطبق علي المعتزلة في العهد الأول، فإنها

---

[1] ـ صحيح مسلم ـ باب الفتن وقد ورد مثل هذه الرواية عن سيدنا عبد الله بن الزبير في الطبراني والبزاز وأبي يعلي، وعن سيدنا حذيفة في مسند أحمد وأبي داود. وهذا نص الحديث: عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: " لا تقوم الساعة حتى يبعث دجالون كذابون قريبا من ثلاثين، كلهم يزعم أنه رسول الله" (يوسف عامر).

[2] ـ سنن أبو داود باب لزوم السنة. وهذا نص الحديث: (٤٥٩٦) ـــ حدثنا عَبْدُ الوَهَّابِ بنُ نَجْدَةَ أخبرنا أبو عَمْرِو بنِ كَثِيرِ بنِ دِينَارٍ عنْ حَرِيز ابنِ عُثْمانَ عنْ عَبْدِ الرَّحْمٰنِ بنِ أبِي عَوْفٍ عنِ المِقْدَامِ بنِ مَعْدِ يكَرِبَ عنْ رَسُولِ الله صلى الله عليه وسلم، أنَّهُ قالَ: «ألاَ إنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ وَمِثْلَهُ مَعَهُ الاَ يُوشِكُ رَجُلٌ شَبْعَانُ عَلَى أرِيكَتِهِ يَقُولُ: عَلَيْكُمْ بِهٰذَا الْقُرْآنِ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلاَلٍ فَأَحِلُّوهُ وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ. ألاَ لاَ يَحِلُّ لَكُم لحم الْحِمَارُ الأهْلِيُّ وَلاَ كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبُعِ وَلاَ لُقَطَةُ مُعَاهِدٍ إلاَّ أنْ يَسْتَغْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أنْ يَقْرُوهُ فَإنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أنْ يَعْقُبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ». (يوسف عامر).

تنطبق تمام الانطباق في أيامنا هذه علي أولئك الأشخاص في مصر والهند الذين يسمون أنفسهم أهل القرآن.

كثرة التجارة ومشاركة النساء فيها:

وهذه واقعة من الوقائع التي تدل علي آثار وعلامات القيامة. يقول سيدنا عبد الله بن مسعود أن النبي صلي الله عليه وسلم أخبر بأنه سيكون هناك سلام خاص قبل يوم القيامة، وسوف تكثر التجارة ([1]) حتى أن المرأة تشارك زوجها فيها، وهل هناك زمن تنطبق عليه هذه النبوءة أكثر من زماننا الحالي، وهل انتعشت التجارة قبل ذلك أكثر من هذا، وهل دخلت المرأة في هذه المهنة جنباً إلي جنب مع الرجال بكل جرأة قبل اليوم ؟.

كثرة أهل أوروبا:

لقد تنبأ النبي صلي الله عليه وسلم أمام الصحابة أنه: «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ»([2]). والمقصود بالروم في لغة العرب أهل الفرنجة يعني أهل أوروبا، واليوم كثر أهل أوروبا بحيث لا يخلو منهم ركن من أركان العالم ولا تستطيع قوة أن تتحداهم، وقد قدمت هذه النبوءة قبل اليوم بثلاثة عشر قرن وتصف وهي تصدق اليوم وتتحقق مثل نور الشمس.

كثرة الربا:

في الماضي كان الذين يأكلون الربا أو يستطيعون أكله هم أولئك الذين لهم علاقة مباشرة بالتجارة، لكن النبي صلي الله عليه وسلم تنبأ بأنه سيأتي زمن لن يكون فيه أحد لا يأكل الربا، فإن لم يكن بشكل مباشر فسوف يصله الغبار المتطاير علي الأقل ([3])، ألسنا

---

[1] ــ مسند أحمد ــ جــ ١ ــ ص٤١٩ ــ مصر، وأدب المفرد للإمام البخاري بــاب تسـليم الخاصـة، ومستدرك الحاكم والبزاز والطبراني.

[2] ــ وهذا نص الحديث كما ورد صحيح مسلم، كتاب الفتن، باب تقوم الساعة والــروم أكثــر النــاس: (٧٢٢٩) ـــ حدثني حَرْمَلَةُ بْنُ يَحْيَى التُّجِيبِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ وَهْبٍ. حَدَّثَنِي أَبُو شُرَيْحٍ أَنَّ عَبْدَ الْكَرِيمِ بْنَ الْحَرْثِ حَدَّثَهُ أَنَّ الْمُسْتَوْرِدَ الْقُرَشِيَّ، قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ يَقُولُ «تَقُومُ السَّاعَةُ وَالرُّومُ أَكْثَرُ النَّاسِ». قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ عَمْرَو بْنَ الْعَاصِ فَقَالَ: مَا هَــذِهِ الأَحَادِيثُ الَّتِي تُذْكَرُ عَنْكَ أَنَّكَ تَقُولُهَا عَنْ رَسُولِ اللّــهِ ؟ فَقَالَ لَهُ الْمُسْتَوْرِدُ: قُلْتُ الَّذِي سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ. قَالَ: فَقَالَ عَمْرٌو: لَئِنْ قُلْتَ ذَلِكَ، إِنَّهُمْ لأَحْلَمُ النَّــاسِ عِنْدَ فِتْنَةٍ. وَأَجْبَرُ النَّاسِ عِنْدَ مُصِيبَةٍ، وَخَيْرُ النَّاسِ لِمَسَاكِينِهِمْ وَضُعَفَائِهِمْ. (يوسف عامر).

[3] ــ أبو داود والنسائي وابن ماجة ــ باب الربا، ومسند أحمد عن أبي هريرة.

اليوم نعيش في ذلك الزمان بعينه، فالتجارة هذه الأيام مبنية كلها علي الربا، حتى أن الشيء الذي نشتريه من أسواق بلادنا يمر بمعاملات ربوية كثيرة حتى يصل إلينا، وجميع الذين تعتمد حياتهم علي الوظيفة الحكومية، وأكثر الموظفين غير الحكوميين يحصلون علي فوائد من أموالهم في البنوك، وكذلك يحصل الأغنياء وأهل الثروة على ثرواتهم مضافاً إليها الفوائد، المهم أنه لا يوجد شيء في عالمنا هذا يمكن أن نقول عنه أنه خال تماماً من الربا، وهذا أكبر أثر عالمي للمدنية الغربية، كم كانت هذه النبوءة إذاً مبنية علي صدق عظيم، ولا يمكن لأحد تقديمها للعالم بهذه النبرة الواثقة معتمداً علي القياس فقط.

محاربة اليهود:

وهناك حديث في صحيح مسلم يقول أن النبي صلي الله عليه وسلم أخبرنا أن حرباً عظيمة ستنشب بين المسلمين واليهود، وسوف يهزم اليهود فيها ويختبئون خلف الأشجار والأحجار ولا يجدون لديها الحماية، وسيخرج منها صوت يقول انظر أيها المسلم هذا يهودي مختف([1])، وكان يخطر بالبال عند قراءة هذا الحديث أن يا إلهي إنه ليس لدي اليهود قوة ولا دولة، وليس لهم تجمعات كبيرة بين بلاد المسلمين، فكيف ستحدث هذه الحرب؟!، لكن النتيجة التي ترتبت علي الحرب العالمية الأولي في فلسطين، ووعد " بلفور " بقيام وطن لليهود في فلسطين، ونية الحركة الصهيونية في جعل فلسطين وطناً خالصاً لليهود، وفي النهاية قيام الدولة اليهودية، كل هذا يأتي بمشهد صدق نبوة الصادق الأمين صلي الله عليه وسلم أمام الأعين.

انقطاع الحجاز عن مصر والشام والعراق:

جاء في صحيح مسلم ([2]) أن سيدنا أبا هريرة قال أن النبي صلي الله عليه وسلم «مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَفِيزَهَا.. وَمَنَعَتِ الشَّأْمُ مُدْيَهَا وَدِينَارَهَا. وَمَنَعَتْ مِصْرُ إِرْدَبَّهَا وَدِينَارَهَا. وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ. وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ. وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ» شَهِدَ عَلَىٰ

---

[1] ــ صحيح مسلم ــ باب الفتن.

[2] ــ المرجع السابق. وهذا نص الحديث كاملا: (٧٢٢٦) ــــ حدثنا عُبَيْدُ بْنُ يَعِيشَ وَ إِسْحَــاقُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ (وَاللَّفْظُ لِعُبَيْدٍ). قَالاَ: حَدَّثَنَا يَحْيَى بْنُ آدَمَ بْنِ سُلَيْمَانَ مَوْلَىٰ خَالِدِ بْنِ خَالِدٍ. حَدَّثَنَا زُهَيْرٌ عَنْ سُهَيْلِ بْنِ أَبِــي صَالِحٍ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللّهِ: «مَنَعَتِ الْعِرَاقُ دِرْهَمَهَا وَقَفِيزَهَا.. وَمَنَعَتِ الشَّأْمُ مُدْيَهَا وَدِينَارَهَا. وَمَنَعَتْ مِصْرُ إِرْدَبَّهَا وَدِينَارَهَا. وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ. وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ. وَعُدْتُمْ مِنْ حَيْثُ بَدَأْتُمْ» شَهِدَ عَلَىٰ ذٰلِكَ لَحْمُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَدَمُهُ. (يوسف عامر).

ذَلِكَ لَحْمُ أَبِي هُرَيْرَةَ وَدَمُهُ. وفي هذا الحديث حقيقة نبوءتان أولهما أن المسلمين سيفتحون تلك البلاد، وسوف تقوم العلاقات لها مع الحجاز، وسوف تستفيد هذه المنطقة القاحلة من هذه المناطق المجاورة، ثم سيأتي زمن تستقل فيه هذه المناطق عن الحجاز، ويعود الحجاز كما كان قبل الإسلام، أو كما كان في بداية الإسلام، أما النبوءة الأولي فقد تحققت في عهد الفاروق سيدنا عمر رضي الله عنه، وظل الحال قائماً هكذا لثلاثة عشر قرناً من الزمان ظلت كل الأجناس والأنواع فيها تأتي إلي الحجاز من تلك البلاد، فالحبوب تأتي من مصر والشام قانوناً، وتقسم النذور السنوية ووقفت إقطاعات وممتلكات كبيرة لهذا الأمر، لكننا نري أن العصر الحالي هو أكثر ما تنطبق عليه النبوءة الثانية، فلم يأت خلال الثلاثة عشر قرناً الماضية زمن انقطع فيه العراق والشام ومصر عن الحجاز دفعة واحدة هكذا، واليوم حالة الحجاز ليست هي تلك الحالة التي كان عليها قبل الإسلام أو في بداياته. وحين كان العراق يحكمه الإيرانيون ومصر والشام يحكمها الروم، وكانت الأقاليم العربية متفرقة لا نظام لها، وكل قطعة من الأرض عليها حاكم، واليوم يحكم الإنجليز العراق ومصر وفلسطين والبحرين، والفرنسيون يحكمون الشام، وكل الأقاليم العربية متفرقة لا نظام يجمعها، وكل حاكم استقل بقطعة من الأرض، وبينها جميعاً نزاعات وصراعات، وكل واحدة منها تتنصل من كونها تابعة للأخرى، فتوقفت حبوب العراق ونذوره، واستولي الفرنسيون علي الإقطاعات والممتلكات التي كانت وقفاً من قبل، وربما سمعت العام الماضي أن مصر قد أوقفت حبوبها ونذورها النقدية إلي الحجاز والتي لم تتوقف أبداً منذ عهد الفاروق رضي الله عنه حتى اليوم أبداً.

محاربة أهل أوروبا في الشام:

يوجد في صحيح مسلم وغيره أحاديث عديدة عن الفتن وعلامات الساعة، وكلها تدل علي أن النبي صلي الله عليه وسلم قد أخبر أمته بشكل واضح وصريح أن معارك شديدة دامية ستحدث في بلاد الشام بين المسلمين والروميين وذلك في آخر الزمان قبل ظهور الدجال ونزول المسيح عليه السلام، ورغم أن مثل هذه الحروب قد وقعت فعلاً في هذه البلاد في شكل الحروب الصليبية، إلا أن ما فعلته الحرب العالمية في الشام يدل علي أن كل هذه الأحداث تمهيد لتلك المعارك الدامية.

ستقف كل أمم العالم ضد المسلمين:

جاء في أبي داود ([1]) والبيهقي أن النبي صلي الله عليه وسلم قال «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعى عَلَيكُم كمَا تَدَاعى الأكَلَةُ إلَى قَصعَتِهَا" (بمعني أنها تتحد لتهاجمكم)، فسأله واحد من الحضور أو نحن من قلة عندئذ يا رسول الله ؟ قال صلي الله عليه وسلم: قالَ: بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئذٍ كَثِيرٌ، ولَكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، ولَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوكُمْ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، ولَيَقْذِفَنَّ الله في قُلُوبِكُم الوَهْنَ"، فسأل أحدهم يا رسول الله ما ذلك الوهن ؟ قال صلي الله عليه وسلم حُبُّ الدُّنْيَا وكَرَاهِيَةُ المَوْتِ». ألا يُصدّق هذه النبوءة حرفاً حرفاً تاريخ الإسلام في العصر الحاضر؟!

---

[1] ــ كتاب الملاحم. وهذا نص الحديث: (٤٢٩٤) حدثنا عَبْدُ الرَّحْمٰنِ بنُ إبراهِيمَ الدِّمَشْقِيُّ أخبرنا بِشْرُ بنُ بَكْرٍ أخبرنا ابنُ جَابِرٍ حدَّثني أبُو عَبْدِ السَّلاَمِ عن ثَوْبَانَ، قال قال رَسُولُ الله صلى الله عليه وسلم: «يُوشِكُ الأُمَمُ أنْ تَدَاعى عَلَيكُم كمَا تَدَاعى الأكَلَةُ إلَى قَصْعَتِهَا، فقالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قِلَّةٍ نَحْنُ يَوْمَئذٍ؟ قالَ: بَلْ أنْتُمْ يَوْمَئذٍ كَثِيرٌ، ولَكِنَّكُم غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، ولَيَنْزِعَنَّ الله مِنْ صُدُورِ عَدُوكُمْ المَهَابَةَ مِنْكُمْ، ولَيَقْذِفَنَّ الله في قُلُوبِكُم الوَهْنَ، فقالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ الله وَمَا الْوَهْنُ؟ قالَ: حُبُّ الدُّنْيَا وكَرَاهِيَةُ المَوْتِ». (يوسف عامر).

الروايات غير المعتبرة فيما يتعلق بالمعجزات النبوية

لم تكن هناك ضرورة لإدراج الروايات الواهية والكاذبة حول معجزات النبي صلي الله عليه وسلم في هذا الكتاب بأية صورة من الصور، ولكن لأن هناك احتمالاً بأن تثور في قلوب عامة القراء بعض الشكوك فيما لو لم يجدوا لها ذكراً فيه، لهذا اضطررنا إلي التعرض إلي هذه الروايات بغرض طمأنة هؤلاء القراء وكشف الحقيقة، ومعظم هذه الروايات موجود في كتب الدلائل، أي في تلك الكتب التي كتبها الناس عن معجزات النبي صلي الله عليه وسلم وتفصيلاتها بشكل منفصل عن كتب الأحاديث المعروفة.

وهذه هي الكتب التي ضمت وفرة من الروايات الكاذبة والواهية عن المعجزات، وفيها تكونت ثروة كل كتب الميلاد والفضائل النبوية، وقد أدي حسن الاعتقاد وحب الغرائب إلي منح هذه الروايات قدراً من القبول بحيث توارت خلفها معجزات النبي صلي الله عليه وسلم الصحيحة كلها، وصار من الصعب التمييز بين الحق والباطل، في حين أن كتب الصحاح وبخاصة البخاري ومسلم قد خلت كلها من هذه الروايات، لكن الكتب التي ألفت في القرنين الثالث والرابع الهجري عن هذا الموضوع كتبت بغير تمحيص أو تدقيق حتى اعتبرها المحدثون الثقاة فاقدة الاعتبار، ولم يكن هدف مؤلفي كتب الدلائل هو جمع الروايات الصحيحة عن المعجزات، وإنما تقديم الأحداث العجيبة والمحيرة وبكثرة، حتى يمكن الإضافة إلي أبواب فضائل ومناقب خاتم المرسلين صلي الله عليه وسلم، ثم عمل المحدثون الذين جاءوا فيما بعد مثل الزرقاني وغيره علي ردّ هذه الروايات وتضعيفها عند نقلها، لكن الشيء الذي انتشر إلي هذا الحد، وأصبح جزءاً من الثقافة الإسلامية وسري في أوصالها، لا يكفي معه هذا القدر فقط، وإنما يحتاج إلي مزيد من النقد، خاصة وأن كل ما يقدم في محافل الميلاد النبوي في بلادنا يمتلئ بمثل هذه الروايات التي لا أساس لها.

ويمكن تقسيم مثل هذا النقد إلي ثلاثة أجزاء، الجزء الأول عن درجة تلك الكتب في ضوء قواعد الرواية، ومكانة مؤلفيها في نظر المحدثين، والثاني عن الأسباب التي أوجدت تلك المعجزات الخاطئة والموضوعة والضعيفة في تلك الكتب، والثالث عن أهمية تلك المعجزات الشهيرة والتي تتناقلها الألسنة باعتبار الرواية.

كتب الدلائل ومكانة مؤلفيها:

لقد مرّ بك في مقدمة الكتاب وبالتفصيل الجهود التي بذلها العلماء المسلمون في سبيل نقد الرواية وضبط مبادئها، كما ورد ضمناً في هذا الخصوص أن الدقة والالتزام الذي اتبعه المحدثون في تمحيص ونقد الروايات التي تتعلق بالأحكام الفقهية لم يتبعونه في باب الفضائل والمناقب، واعترف بذلك علانية أئمة كبار في علم الحديث، ولهذا فإن فضائل الآيات القرآنية بشكل مستقل، ومناقب الخلفاء جميعاً كل باسمه، ومحامد الأماكن والمدن، والكلام عن الثواب والعقاب المبالغ فيهما فيما يتعلق بالأعمال الإنسانية، ونبوءات كهنة العرب فيما يتعلق بالنبي صلي الله عليه وسلم، والأشعار العجيبة والبركات الغريبة والفضائل غير الصحيحة للمعجزات وغير ذلك من الموضوعات، كل ذلك موجود في الروايات ومدوّن في الكتب، ومعظم هذه الروايات توجد في كتب الحديث من الدرجة الثالثـــة والرابعـــة، فأمـــا الكتب من الدرجة الثالثة كما يقول شاه ولي الله رحمة الله عليه ([1]) فهي: " مسند أبي يعلي، مصنف عبد الرازق، مصنف أبي بكر بن أبي شيبة، مسند عبد بن حميد، مسند الطيالسي، ومؤلفات البيهقي والطحاوي والطبراني، حيث أدرج فيها الصادق والكاذب، والحسن والسئ، والقوى والضعيف وكل أقسام الحديث جنباً إلي جنب، أما كتب الدرجة الرابعة فهي تلك التي ولد مؤلفوها بعد قرون، إذ أرادوا أن يجمعوا تلك الروايات التي لم تجد لها مكاناً في كتب الدرجة الأولي والدرجة الثانية، وهذه الروايات كانت تتناقلها ألسنة أولئك الذين لم يردّ أئمة الحديث رواياتهم، وكان القصاصون يستفيدون منها في المجالس والمحافل، فأعطوا الإسرائيليات وأقوال الحكماء وإشارات الحديث والقصص والحكايات والروايات غير المعتبرة درجة الحديث، وأدرجوها بين طيات الكتب، وكتاب الضعفاء لابن حبان، والكامل لابن عدى، والخطيب وأبي نعيم، ومؤلفات الزرقاني وابن عساكر وابن النجار والديلمي كلها من هذه الطبقة.

وبعد هذا التفصيل يقول شاه ولي الله رحمة الله عليه: ويعتمد المحدثون علي كتب الحديث من الدرجة الأولي والثانية (أي الصحاح الستة) ويثقون فيها، أما الكتب من الدرجة الثالثة فيستفيد بها ناقدوا هذا الفن الذين يعرفونه جيداً، ويقفون علي أسماء الرجال وعلل الحديث جيداً، أي الذين يستطيعون التمييز بين الصحيح والغلط، وبين الصواب

---

[1] ــ حجة الله البالغة ــ باب طبقات كتب الحديث.

والخطأ، أما جمع كتب الحديث من الطبقة الرابعة وتدوينها والاستفادة منها فهي محاولة فكرية لا فائدة منها لفريق من المتأخرين.

أما الكتب المستقلة التي ألفت حول آيات الرسول صلي الله عليه وسلم ودلائله فيدخل بعضها في الطبقة الثالثة، والأكثرية منها في كتب الطبقة الرابعة، وما جمعه المتأخرون بعامة من مثل هذه الأحاديث نقلوها عن مؤلفات الطبري والطبراني والبيهقي والديلمي والبزاز وأبي نعيم الأصفهاني، وقد أدرج الحافظ القسطلاني هذه الروايات في كتاب المواهب اللدنية بغير تمحيص أو تدقيق، وأدرجها معين الفراهمي في معارج النبوة باللغة الفارسية بطريقة جعلها تنتشر في كل بيت، وتقبلها عامة الناس بحب وتقدير حتى توارت خلفها المعجزات والآيات الصحيحة. أما الكتب التي أخذ عنها مؤلفا المذاهب اللدنية ومعارج النبوة فهي كما يلي: ــ

كتاب الطبقات لابن سعد، سيرة ابن إسحاق، دلائل النبوة لابن قتيبة المتوفى عام ٣٧٦هـ، دلائل النبوة لابن إسحاق حربي المتوفى عام ٢٥٥هـ، وشرف المصطفي لأبي سعيد عبد الرحمن بن حسن الأصفهاني المتوفى عام ٣٠٧هـ، وتاريخ وتفسير أبي جعفر بن جرير الطبري المتوفى عام ٣١٠هـ، مولة يحيي بن عائذ، ودلائل النبوة لجعفر بن محمد مستغفري المتوفى عام ٧٣٢هـ، ودلائل النبوة لأبي القاسم إسماعيل الأصفهاني المتوفى عام ٥٣٥هـ، وتاريخ دمشق لابن عساكر المتوفى عام ٥٧١هـ، لكن أكثر هذه الأحاديث يوجد في كتابين من كتب المتأخرين هما كتاب الدلائل لأبي نعيم الأصفهاني المتوفى عام ٤٣٠هـ، وكتاب الدلائل للإمام البيهقي المتوفى عام ٤٣٠هـ.

ولا يشك أحد في كون هؤلاء السادة أهل ثقة بأنفسهم، وإن كان هناك شك فهو في أنهم أخذوا جميع الروايات من الرواة جميعاً دون تمحيص أو تدقيق، وأدرجوها في كتبهم، وقبل عامة الناس هذه الروايات نظراً لعظمة وجلال مؤلفي هذه الكتب، في حين أنها لا تحوى الضعيف والواهي فقط، وإنما تضم الأحاديث الموضوعة كذلك، وفي سندها رواة ليس لهم مكان بين صفوف النعال في بلاط المحدثين، وقد أدرج هؤلاء المصنفين هذه الأحاديث باعتبار أن الناس هم الذين سوف يعرفون الصحيح من الغلط، والصادق من الكاذب، أو أن عشقهم للنبي صلي الله عليه وسلم هو الذي جعلهم يقبلون مختلف الروايات التي تتعلق بفضائل النبي صلي الله عليه وسلم ومناقبه، في حين أن هذا العشق وهذا الوله هو الذي جعل أكابر المحدثين يختارون طريق الشدة في نقد وتمحيص الروايات، إذ كانوا

يعتبرون أن نسبة أي لفظ إلي النبي صلي الله عليه وسلم بغير تمحيص ولا تدقيق ذنباً عظيماً، وكانوا دائماً يرتعدون خوفاً من قوله صلي الله عليه وسلم: " من كذب عليّ متعمداً. ..الخ "، وقد استخدم المحدث ابن منده ألفاظاً غاية في القسوة بخصوص مؤلف الدلائل الحافظ أبي نعيم الأصفهاني، وكتب الحافظ الذهبي في ثنايا تمحيصه لهذين المعاصرين في كتابه ميزان الاعتدال قائلاً:

" لا أعلم لهما ذنباً أكثر من روايتهما الموضوعات ساكتين عليها "

وهل هذا ذنب عاديّ في حضرة المحدثين الثقاة ؟ فهذا الصمت الذي لن يغفره الله هو الأساس في ضلال وغواية مئات الآلاف من المسلمين في أيامنا هذه.

والأدهى من ذلك أن علماء الرجال لدينا قد دققوا أكثر ما يكون التدقيق في رواة القرون الثلاثة الأولى ولهذا فإننا لا نجد أثراً لرواة ورجال القرنين الرابع والخامس إلا قليلاً. فإذا ما [illegible] في التراجم والأنساب فإننا لا نجد نقداً أو تعليقاً عنهم من [illegible] وفرة في مجهولي الحال بين مشايخ أولئك السندة ورو[illegible] تلك الكتب.

وقد [illegible] القرن السادس غالباً ([1])، وبتتبع هذه المحافل ثبت أن [illegible] عن طريق هذه الكتب التي كانت تؤلف من حين [illegible] خاصة، والتي نجد إشارات كافية عنها في كتاب [illegible]

[illegible] حيدر آباد أكثر [illegible] السيوطي في كتابه [illegible] أبي شيبة والحاكم وأبي يعلي [illegible] إلي كتب أقل قيمة من الأولي مثل [illegible] الدارمي، بل ورجع إلي مؤلفين غير [illegible] أبي النجار، وابن منده وابن مردويه وابن عساكر [illegible] والخطيب وغيرهم، وجمع كمّاً هائلاً من الأحداث والوقائع

([1]) [illegible] أربل المولود في ٥٤٩هـ والمتوفى في ٦٣٢هـ كان يحتفل بالمولد الشريف بكل عظمة [illegible] كتب عنه ابن خلكان، وكان هذا هو عصر الحروب الصليبية، وقد ألف حينئذ ابن دحية [illegible] في ٦٣٣هـ كتاب التنوير في مولد السراج المنير عام ٦٠٤هـ.

الصحيحة والخاطئة والقوية والضعيفة، وجمع ما لدي الفرق المختلفة في جزأين من كتاب الخصائص، ومع ذلك فللمؤلف أن يفخر كما صرح هو بذلك في المقدمة أنه وإن تح الاحتراز عن الروايات الموضوعة والروايات التي لا سند لها في هذا الكتاب، لكن الروايات ذات السند الضعيف قد أدرجت فيه.

والأمر الذي يقبل التمعن أنه كيف يكون وجود سند بغير تدقيق لسيئه من حسنه حجة علي كون الرواية معتبرة؟ وأكثر من هذا أنهم ألفوا هذه الكتب وأدرجوا بها كل الروايات صحيحها وغلطها، قويها وضعيفها، مشهورها ومنكرها دون الإشارة إلي درجتها ومرتبتها، ولهذا لا يستطيع عامة القراء أنه بين هذا الكم الهائل حيث توجد الجواهر توجد أحجار كثيرة كذلك، وربما لا تجد في الكتاب كله أكثر من عشرين موقعاً ذكر فيها المؤلف درجة إسناد رواياته، والأكثر من هذا أنه بالرغم من حرصه علي الرواية، فإن هناك بعض الوقائع التي ثبت بالبحث خطؤها، لكن لأنها وردت في الكتب السابقة فإنه هو الآخر لا يتجنبها، ولهذا نراه ينقل كل الوقائع العجيبة والغريبة حول مولد النبي صلي الله عليه وسلم والتي وردت في دلائل أبي نعيم ثم يعقب علي ذلك بقوله: " هذا الأثر والأثران قبله فيهما نكارة شديدة، ولم أورد في كتابي هذا أشد نكارة منهما، ولم تكن نفسي تطيب بإيرادهما، لكني تبعت الحافظ أبا نعيم في ذلك " (الخصائص ــ جــ١ ــ ص٢٩)، وفي مكان آخر ينقل عن كتاب الخطيب واقعة تتعلق بوفد نجران، مع أنه هو يعتبر رواياته غير معتبرة فيقول: ــ

" وأخرج الخطيب في المتفق والمفترق بسند فيه مجاهيل " (جــ٢ ــ ص٢٥)

وفي مقام آخر ينقل واقعة الجن الذي ظهر في صورة حمار، وكان يرغب في الانضمام إلي موكب النبي صلي الله عليه وسلم، وكان هذا الجن يذهب إلي بيوت الناس ويناديهم بالإشارة، وقد قابل هذا الحيوان العجيب رسول الله صلي الله عليه وسلم في خيبر، وقصّ عليه صلي الله عليه وسلم مظالم اليهود، وحين توفي النبي صلي الله عليه وسلم ألقي بنفسه في بئر من فرط حزنه ومات. وقد نقل الحافظ السيوطي هذه الواقعة في الخصائص عن ابن عساكر، ومرّ عليها دون أن يتعرض لها، في حين أن ابن حبان يكتب عن هذه الواقعة في كتابه الثاني اللآلئ المصنوعة في الأحاديث الموضوعة أنها موضوعة من أولها إلي آخرها.

وينقل المحدث الصابوني رواية عن المعجزة ثم يجرحها قائلاً بأن سندها ومتن غريبان، ومع هذا فإنه يعلن رأيه الأخير فيها قائلاً: " هو في المعجزات حسن " ([1]). ويكتب عنها العلامة الزرقاني في شرح المواهب قائلاً " لأن عادة المحدثين التساهل في غير الأحكام والعقائد " (جـ ١ـ ص١٧٢) ولكن هل هذا المبدأ صحيح ولا يخلو من خطورة ؟ فسواء كان الأمر يتعلق بالمعجزات أم بغيرها لابد أن يكون ما ينسب إلي النبي صلي الله عليه وسلم خالياً من أي شك، مثلما صرح بذلك الإمام النووي، والحافظ العسقلاني، وابن جماعة، والطيبي، والبلقيني، والعلامة العراقي في مؤلفاتهم ([2]).

أسباب ظهور الروايات الخاطئة و الموضوعة فيما يتعلق بالمعجزات:

١ـ والسبب الأكبر في ظهور مثل هذه الروايات أنها نظراً لرواجها استغلها القصاصون وغيرهم في محافل الميلاد، ونظراً لأن هذه الفرقة قليلة العلم بصفة عامة، ولا سبيل لهم للوصول إلي الروايات الصحيحة، وهم في نفس الوقت مخدوعون باستحسان محافل الميلاد وإعجاب العامة، ولابد من تقديم ما يعجبهم، لهذا فإنهم يركزون على قوة اختراعهم، ومن كان فيهم على درجة من الاحتياط قدم هذه الأمور في شكل لطائف صوفية وأفكار شعرية، وأعطاها السامعون درجة الرواية، أو أن هذه الأقوال اتخذت فيما بعد صورة الرواية، أما من كان منهم مجترئاً غير محتاط فلم يتوارى كما فعل هؤلاء، وإنما اخترع من عند نفسه سندا، وقدمها على أنها حديث شريف. يكتب الحافظ السيوطى عن كتاب الموضوعات لابن الجوزى قائلاً: " أحدهما القصاص، ومعظم البلاء منهم يجرى لأنهم يريدون أحاديث تنفق و ترقق، و الصحاح يقل فيه هذا، ثم إن الحفظ يشق عليهم، ويتفق عدم الدين، وهم يحضرهم مجال (آخر كتاب اللآلئ المصنوعةـ ص٢٤٩)، وهكذا كان الدفتر المزوّر الذي يضم الفضائل والمناقب والعذاب والثواب والجنة والنار وأحداث المولد النبوي والمعجزات والدلائل من تأليف هؤلاء الجهلة في معظمه.

ويقول العلامة ابن قتيبة المتوفى عام ٢٧٦هـ في كتابه " مختلف الحديث " الذي طبع أخيراً من مصر أن الفساد تسلل إلي الأحـاديث والروايـات من ثلاث طـرق، ومن بينهـا القصاصـون: " والقصاص، فإنهم يستميلون وجوه العوام إليهم، ويستدرون ما عندهم بالمناكير والغرائب والأكاذيب من الأحاديث, ومن شأن العوام القعود عند

---

[1] ـ الزرقاني ـــ جـ ١ ـــ ص١٢٧، وخصائص السيوطي ـــ جـ ١ ـــ ص٥٣ِ.

[2] ـ انظر موضوعات ملاّ علي القاري ـ ص٩ ـ طبعة مجتبائي دهلي.

القصاص ما كان حديثه عجيباً خارجاً عن فطر العقول,أو كان رقيقاً يحزن القلوب ويستفرز العيون(ص٣٥٦).

تصور رفعته صلى الله عليه وسلم وجامعيته:

٢ــ والسبب الثاني في ظهور هذه الروايات يعود إلي أنه لأن النبي صلي الله عليه وسلم هو أفضل الأنبياء والمرسلين في اعتقاد المسلمين، وأنه بُعث بأكمل شريعة، وأنه جامع لكل المحاسن، وهو اعتقاد صحيح، لكن الناس أضافوا إليه وسعة، وجمعوا كل معجزات الأنبياء السابقين في ذاته صلي الله عليه و سلم.

وهكذا انتشرت مثل هذه الروايات بين المسلمين جميعاً. ومن هنا بحث البيهقي وأبو نعيم في الدلائل، والسيوطي في الخصائص عن معجزات للنبي صلي الله عليه وسلم تماثل معجزات الأنبياء السابقين جميعاً، واستخرجوها بهدف إثبات أنه مثلما أن تعاليم النبي صلي الله عليه وسلم هي مجموعة وخلاصة تعاليم الأنبياء جميعاً فإن معجزاته صلي الله عليه وسلم أيضاً هي مجموعة لمعجزات الأنبياء السابقين جميعاً، وأن ما صدر عن الأنبياء متفرقين صدر عنه صلي الله عليه وسلم مجتمعاً، ومن البديهي أن لا توجــد كل الروايات الصحيحة لإثبات مثل هذا التقابل والتماثل، ولهذا فقد استعان الناس بالروايات الضعيفة والموضوعة، واستفادوا أحياناً بالخيال الشعري وأحياناً أخرى بالتمعن الفلسفي، علي سبيل المثال: علّم الله آدم الأسماء كلها، ويروي الديلمي في مسند الفردوس أن الله تعالي قد أعطاه علم الأسماء كلها، وقد جاء في القرآن الكريم فيما يتعلق بسيدنا أويس رضي الله عنه أن الله تعالي رفعه في مكان عليّ، لكن رفعه للنبي صلى الله عليه وسلم كان أكثر منه حتى أصبح قاب قوسين أو أدني، وإن كان الله تعالي قد استجاب لدعاء نوح عليه السلامَ بالطوفان فإن الله قد استجاب لدعائه صلى الله عليه وسلم بالقحط، وإن كانت الناقة معجزة لسيدنا صالح عليه السلام فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد كلم الناقة، وإن كانت النار لم تحرق سيدنا إبراهيم عليه السلام فإن النبي صلى الله عليه وسلم قد ظهرت منه معجزات تتعلق بالنار أيضاً، وإن كان السكين قد مرَّت علي عنق سيدنا إسماعيل عليه السلام فإن صدره صلى الله عليه وسلم قد شق، وإذا كان سيدنا يعقوب عليه السلام قد تحدث مع الذئب فإنه رُوي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد كلّم الذئب أيضاً، وروي عند أبي نعيم أن سيدنا يوسف عليه السلام قد أعطي شطر الحسن، وأن النبي صلى الله عليه وسلم قد أعطي الحسن كله، وإن كانت الأنهار قد شقت من الأحجار علي يد سيدنا موسى

عليه السلام فإن الماء قد نبع من بين أصابع النبي صلى الله عليه وسلم، وإن كانت عصا سيدنا موسى عليه السلام معجزة فإن جذع النخل قد بكي لفراق النبي صلى الله عليه وسلم وتحول غصن النخيل إلي سيف، وإن كان البحر الأحمر قد شق من أجل سيدنا موسى عليه السلام فإن الفضاء النهري بين السماء والأرض قد انشق للنبي صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج، وإن كانت الشمس قد توقفت عن الدوران من أجل سيدنا يوشع عليه السلام فإن الشمس غابت وأشرقت بإشارة منه صلى الله عليه وسلم، وإن كان سيدنا عيسي عليه السلام قد تكلم في المهد فإن هناك رواية تقول بأن النبي صلى الله عليه وسلم تكلم في المهد أيضاً، وارتفع صوته أولاً بالتكبير والتسبيح.

لقد كانت أكبر معجزة لسيدنا عيسي عليه السلام هي إحياء الموتى، وكانت معجزة خاصة به، ولكن هناك معجزة مثل هذه تنسب إلي النبي صلى الله عليه وسلم، فقد جاء في إحدى الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم دعا أحد الأشخاص إلي الإسلام فقال لن أفعل إلا إذا أحييت ابنتي المتوفاة، وهكذا ذهب النبي صلى الله عليه وسلم إلي قبرها وناداها، فخرجت من قبرها، ثم عادت إلي الحياة بدعائه صلى الله عليه وسلم وآمنت به.

٣ــ ثبت من القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة أن نبوءة ظهور النبي صلى الله عليه وسلم قد وردت في صحف الأنبياء السابقين، وكان اليهود والنصارى في انتظار النبي القادم طبقاً لهذا، وقد بالغ الرواة الكاذبون في هذه الواقعة حتى قالوا بأن اليهود كانوا يعلمون اليوم والتاريخ والسنة والوقت والمكان الذي سيأتي فيه هذا النبي صلى الله عليه وسلم، ولهذا فإن علماء اليهود كانوا يخبرون بكل هذا قبل ولادته صلى الله عليه وسلم، وكان الرهبان النصارى يعلمون كل التفاصيل الدقيقة، بل وكانت هناك كتب مخبأة لدى القبائل القديمة وفي الأديرة والصوامع ذكرت فيها حليته صلى الله عليه وسلم، وكان الذين يتوارثون هذه الكتب يمعنون في إخفائها، وأكثر من هذا أنه حتى صورة النبي صلى الله عليه وسلم كانت موجودة في بعض الأديرة، وكانت هناك بعض النبوءات فيما يتعلق بالنبي صلى الله عليه وسلم متحققة في زمانها، ولا تزال متحققة حتى يومنا هذا، لكنها في شكل استعارات وكنايات وعبارات مجملة، وقد وزعت بين الروايات الضعيفة والموضوعة مع تعيين وتخصيص لاسم النبي صلى الله عليه وسلم ومكانته.

كان الكهان العرب يجاورون معابد الأصنام، وكانوا يقومون بالتنجيم والتنبؤ بالمستقبل، وكانت الجن والشياطين هي وسيلتهم في هذا العلم، وعندما اقترب زمن ولادته صلى الله عليه وسلم سمعت أصوات من المعابد ومن داخل الأصنام، فكان الكهان يقصون خبر قرب ولادة محمد صلى الله عليه وسلم في فقرات مسجعة مقفاة، بينما كانت الجن تقصه في شكل الشعر، وهناك قصيدة شعرية في مناقبه صلى الله عليه وسلم منسوبة إلي أحد ملوك اليمن، وقد رأي ملوك اليمن وملوك فارس وسادة قريش رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام، ورأي الناس اسمه صلى الله عليه وسلم المبارك منقوشاً علي الأحجار، وكان كعب بن لؤى سيد قريش يجمع قبيلته كل جمعة ويخطب فيهم، وكانت خطبته تحمل البشرى بظهوره صلى الله عليه وسلم في شكل أشعار وعبارات مسجعة، وكان أهل مكة يسمعون اسم محمد صلى الله عليه وسلم من الأحبار والرهبان فيطلقونه علي كل طفل من أطفالهم، لربما كان هو النبي المنتظر، وعرف أهل المدينة عن طريق هؤلاء اليهود أن يثرب ستكون دار هجرته صلى الله عليه وسلم، ولهذا كانوا ينتظرون مجيئه إليهم، وهناك قصة طويلة حول تنبؤ سطيح الكاهن بمجيئه صلى الله عليه وسلم. ولكن معظم هذه التنبؤات موضوعة ولا أصل لها، وما بقي منها فهو غاية في الضعف. وأما القليل الصحيح منها فقد مرّ ذكره.

اعتبار الخيال الشعري بمثابة حقيقة:

٤ــ كانت ولادته صلى الله عليه وسلم سبباً لرحمة العالم، ولذا فإن من حق هذه الكائنات أن تفخر بمولده صلى الله عليه وسلم، وقد صب الوعاظ والشعراء فيما بعد حادثة مولده صلى الله عليه وسلم بطريقة شعرية ؛ كقولهم عمّ النور بيت آمنة، ونطقت الحيوانات فرحاً وسروراً، وغنت الطيور مهنأة بمولده صلى الله عليه وسلم، كما هنأت وحوش وطيور الغرب وحوش وطيور الشرق بذلك، وأينعت أشجار مكة التي يبست. وانحنت النجوم علي الأرض، وفتحت أبواب السماء، وأنشدت الملائكة أناشيد المسرة. وزار الأنبياء وجهه صلى الله عليه وسلم المنير، وطافت الملائكة بهذا الطفل صلى الله عليه وسلم في السماء والأرض، وقيدت الشياطين، واستطالت الجبال فرحاً وغروراً. وتفاخرت أمواج البحار سعادة، واتشحت الأشجار بوشاح الخضرة، وازينت الجنة وتزخرفت، وغير ذلك. ثم جاء الوعاظ والمداحون وقصوا هذه الأشياء باعتبارها حقيقة. وأصبحت فيما بعد رواية.

ذكر الأحداث المستقبلية إشارة عند الحديث عن الولادة:

٥ــ لقد صدّقت الأحداث التي وقعت في عهد رسالته صلى الله عليه وسلم أو بـ ذلك عند ولادته صلى الله عليه وسلم، واتُخِذ منها باعتبارها معجزة مقدمة لأحداث مستقبلية، علي سبيل المثال تم استئصال عبادة الأوثان في عهده صلى الله عليه وسلم، وسقطت حكومة كسري وقيصر، وانتهت عبادة النار من إيران، وفتحت الشام، وقد جعلت هذه الأحداث معجزات بحيث أنه عند ولادته صلى الله عليه وسلم أحنت أصنام الكعبة رؤوسها، واهتز أساس قصر كسري وانطفأت نيران فارس، وجفت بحيرة ساوه، وسطع نور أضاء قصور الشام.

٦ــ هناك بعض الأحدث التي لا يمكن أن تعد معجزة بأي حال من الأحوال، ولكن الرغبة في تكثير المعجزات جعلت كل أمر بسيط يبدو أعجوبة من العجائب، وبالتالي جعلوا منه معجزة، علي سبيل المثال هناك رواية عن السيدة عائشة رضي الله عنها، وهي مذكورة في مسند الإمام أحمد بن حنبل أنه كان في بيته صلى الله عليه وسلم حيواناً أليفاً، وحينما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل البيت كان هذا الحيوان يجلس في سكون وصمت في مكان ما من البيت، وحينما يخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم يقفز هنا وهناك، ويثبت من هذا أن الحيوانات أيضاً كانت تجل رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعرف قدره، وتعلم عظمته وشأنه، ولكن الحقيقة أن هذه ليست معجزة، إذ أن بعض الحيوانات تتعامل بنفس الطريقة مع بعض عامة الناس.

جاء في صحيح البخاري ومسلم أن سيدنا جابر رضي الله عنه مرض مرضاً شديداً، وذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم لعيادته، وكان سيدنا جابر مغشياً عليه، فتوضأ رسول الله صلى الله عليه وسلم ونثر الماء علي وجهه فعاد إلي وعيه، وهذه حادثة عادية، لكن كتب الأوائل جعلت منها معجزة. ([1])

وهكذا هناك رواية أخرى مفادها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ولد مختوناً، وقد رويت هذه الرواية من طرق متعددة، ولكن كل طريقة منها لا تخلو من ضعف، وكتب الحاكم في المستدرك أن ولادة النبي صلى الله عليه وسلم مختوناً جاءت في الروايات متواترة، وقد نقد العلامة الذهبي هذا الأمر بأنها لم ترد متواترة، بل ولم تثبت من طرق صحيحة (المستدرك ــ ٢ ــ باب أخبار النبي صلى الله عليه وسلم)، وكما يقول

---

[1] ــ الخصائص الكبرى للسيوطي ــ الجزء الثاني ــ ص ٧١ ــ حيدر أباد الدكن.

العلامة ابن القيم في زاد المعاد أنه لو ثبت هذا فليس فيه أية فضيلة للنبي صلى الله عليه وسلم، لأن هناك أطفالاً كثيرين يولدون علي نفس الحالة.

وقد جاء في الروايات الصحيحة أن النبي صلى الله عليه وسلم حين كان يرفع يديه بالدعاء، أو ينزل في السجود فإن بياض إبطيه صلى الله عليه وسلم كان يظهر، وهذا أمر عادي، إلا أن الطبري والقرطبي والسيوطي وغيرهم عدّوا ذلك خاصية من خصائص النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزة من معجزاته.

كما كتب مؤلفو كتب الدلائل بدافع من الرغبة في زيادة عدد المعجزات أنه إذا حدث اختلاف ولو بسيط بين سلسلة الرواة في واقعة ما، فإن هذا يعني أنها ليست واقعة واحدة، وإنما وقـائع مختلفة، علي سبيل المثال هناك واقعة مفادها أنه كان هناك جمل هائجاً ثائراً أو مجنوناً، فلما ذهب إليه النبي صلى الله عليه وسلم هدأ وأحني رأس الطاعة. فقال الصحابة: يا رسول الله إذا كان الحيوان يحني رأسه أمامك فأولي بنا نحن الناس أن نسجد لك، فقال صلى الله عليه وسلم: "لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها".[1] وهذه واقعة واحدة، لكنها صارت عدة وقائع بسبب اختلاف بسيط في أسلوب روايتها.

---

[1] ـ وهذا نص الحديث كما ورد في مسند الإمام أحمد: (١٢٣٢٢) ـــ حدّثنا عبد الله، حـدثني أبـي. حدثنا خلف بن خليفة، عن حفص، عن عمه أنس بن مالك قال: «كان أهل بيت الأنصار لهم جمل يسنون عليه، وإن الجمل استصعب عليهم فمنعهم ظهره، وإن الأنصار جاءوا إلى رسول الله صـلى الله عليـه وسلم فقالوا: إنه كان لنا جمل نسني عليه وإنه استصعب علينا ومنعنا ظهره، وقد عطش الزرع والنخل، فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه: قوموا، فقاموا فدخل الحائط والجمل في ناحيـة، فمشـى النبي صلى الله عليه وسلم نحوه فقالت الأنصار: يا نبي الله، إنه قد صار مثل الكلب الكلب، وإنا نخـاف عليك صولته، فقال: ليس عليّ منه بأس، فلما نظر الجمل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم أقبل نحوه حتى خرّ ساجداً بين يديه، فأخذ رسول الله صلى الله عليه وسلم بناصيته أذل ما كانت قط حتى أدخله في العمل، فقال له أصحابه: يا رسول الله هذه بهيمة لا تعقل تسجد لك ونحن نعقل فنحن أحق أن نسجد لك؟ فقال: لا يصلح لبشر أن يسجد لبشر، ولو صلح لبشر أن يسجد لبشر لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها من عظم حقه عليها، والذي نفسي بيده لو كان من قدمه إلى مفرق رأسه قرحة تنبجس بالقيح والصديد، ثـم استقبلته فلحسته ما أدت حقه». (يوسف عامر).

عدم الاحتياط في نقل الألفاظ:

٧ـ وهناك بعض المعجزات في هذه الكتب ذكر أصلها في الصحاح، لكن ليس علي أنها معجزة، بل حادثة عادية، لكن الرواة غير الدقيقين في النقل فيما بعد غيروا في الألفاظ وعدوها معجزة. وورد في روايات متعددة من روايات الصحاح أنه كان هناك لحم بارز علي كتف النبي صلى الله عليه وسلم كانوا يسمونه " خاتم الأنبياء "، وكان الخاتم الذي في أصبع النبي صلى الله عليه وسلم منقوشاً عليه " محمد رسول الله "، فجاء الرواة المتساهلون وجعلوا من الأمرين أمراً واحداً، فورد فيما بعد في كتاب " تاريخ نيسابور " للحاكم، و" تاريخ دمشق " لابن عساكر، و"الدلائل" لأبي نعيم بأن خاتم النبوة الذي كان بين كتفي النبي صلى الله عليه وسلم كان مكتوباً عليه " لا إله إلا الله محمد رسول الله " وغير ذلك من العبارات.

قيمة الدلائل والمعجزات العامة باعتبار الرواية:

وهناك كمّ من الروايات الموضوعة والمنكرة والضعيفة وغيرها من الروايات التي تقبل الاعتراض في باب الدلائل والمعجزات بحيث لو تم تمحيصها واحدة واحدة لأصبح لدينا مجلد ضخم يحتويها، ولكن ليس هذا هو موضوعنا الآن، ولهذا سنكتفي بذكر تلك الروايات التي اشتهرت في بلادنا، ويتم ترديدها وذكرها والاستماع إليها في مناسبة عيد ميلاد النبي بكل رغبة وشوق: ـ

١ـ وأول رواية في هذا الخصوص هي أن الله تعالي قد خلق النور المحمدي قبل اللوح والقلم والعرش والكرسي والإنس والجن، وقبل كل شيء، ثم خلق اللوح والقلم والعرش والكرسي والسماء والأرض والأرواح والملائكة وكل شيء من هذا النور. ورواية " أول ما خلق الله نوري " تجرى علي ألسنة العامة، لكني لم أعثر علي أصل لهذه الرواية في كتب الأحاديث، إلا أن هناك رواية في كتاب " عبد الرازق " تقول: " يا جابر أول ما خلق الله نور نبيك من نوره "، وذكر بعد هذا أن لهذا النور أربعة أقسام، ومنها خلق اللـــوح والقلم والعرش والكرسي والسماء والأرض والجن والإنس.

وقد نقل الزرقاني وغيره هذه الرواية، لكنهم للأسف لم يكتبوا سندها، ورغم أن الجزء الثاني من كتاب عبد الرازق متوفر في الهند، لكن الجزء الأول غير متوفر، وقد اطلعت علي الجزء الثاني وليس لهذا الحديث ذكر فيه، ولذا لم استطع نقد هذه الرواية، ولأن هذا الكتاب يضم الأحاديث الموضوعة أيضاً إلي جانب الأحاديث الصَحيحـــة، ولا

يعتمد علي رواياته كثيراً في المناقب والفضائل، لهذا فإنني بشكل مبدئي متردد في قبول هذه الرواية ([1])، ويتقوى هذا التردد بما ورد في الأحاديث الصحيحة بشكل صريح أن أول ما خلق الله القلم. ([2])

٢ــ هناك رواية تقول أن هذا النور المحمدي ظل في سجود لله قبل آلاف السنين، ثم أنار جسد آدم عليه السلام، ثم عهد آدم عليه السلام بهذا النور عند وفاته إلي ابنه " شيث " بعد أن جعل منه وصياً من بعده، وهكذا ظل النور ينتقل من نبي إلي نبي حتى وصل إلي سيدنا عبد الله، ومن سيدنا عبد الله إلي السيدة آمنة. أما سجود هذا النور ووجوده فهو أمر موضوع تماماً، وانتقاله من وصي إلي آخر باطل من أساسه. وقد جاء في تفسير الآية الكريمة: ــ

" الذي يراك حين تقوم وتقلبك في الساجدين " (الشعراء: ٤٦)

في طبقات ابن سعد والطبري وأبي نعيم والبراز أنه روي عن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه أن معني هذه الآية أن الله تعالي كان يري انتقال سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من نســل إلي نسل آخر، لكن سياق ألفاظ الآية كلها لا يؤيد هذا المعني بداية، وثانياً هذه الرواية لا تقبل الثقة.

٣ــ هناك رواية مفادها: أن النور انتقل إلي عبد المطلب (عند البلوغ)، فتقول: أن عبد المطلب كان ينام ذات يوم في الكعبة، فلما استيقظ رأي عينيه مكحلتين، وشعره مخضباً بالزيت والدهن، وعلي الجسد خلعة الجمال والروعة، فتحير، وفي النهاية ذهب به والده إلي كاهن من كهنة قريش، فقال الكاهن: لقد جاءه الإذن من السماء بأن يزوج هذا الغلام، وكانت رائحة المسك تفوح من بدن عبد المطلب بأثر من هذا النور الذي كان يسطع عليَ جبينه، وعندما كان القحط وما شابهه يحل بقريش فإنها كانت تدعو متوسلة بهذا النور، وكان الدعاء يستجاب.

---

[1] ــ بعض أصحاب السير قبل هذه الرواية وذكروها في كتبهم علي اعتبار أن كل الروايات في الفضائل تكون مقبولة، وخاصة تلك التي يتم تأييدها من طرق أخرى حسب ظنهم ــ الزرقاني علي المواهــب ــ الجزء الأول ــ ص٣٣، لكن العلماء الذين يؤكدون علي الجانب الصحيح في كل الروايات يترددون في قبول هذه الرواية، إلا أنه من الثابت أن النبي صلى الله عليه وسلم هو أول ما خلق من الأنبياء جميعاً.

[2] ــ كتاب القدر من جامع الترمذي ــ وقد حاول أولئك العلماء الذين قبلوا هذه الرواية أ، يطبقوا أوليــة الخلق هذه علي النور المحمدي والقلم.

هذه الرواية ذكرها أبو سعد النيسابوري (متوفى ٣٠٧هـ) في كتابه " شرف المصطفي " عن طريق التابعي كعب الأحبار " يهودي أسلم " عن أبي بكر بن أبي مريم. وسلسلة السند هنا أولاً موقوفة علي تابعي، ولا سند بعد ذلك، وبالإضافة إلي هذا فإن كعب الأحبار وإن كان يعد أفضل من أسلم من الإسرائيليين، إلا أن الإمام البخاري يذكر كذبه، وهو منبع الإسرائيليات والأحداث العجيبة والغريبة في الإسلام، أما الراوي أبو بكر بن أبي مريم فهو ضعيف باتفاق المحدثين، إذا أثرت حادثة عرضت له علي قواه الذهنية.

٤ــ وهناك رواية عند أبي نعيم والحاكم والبيهقي والطبراني مفادها: أن عبد المطلب ذهب إلي اليمن، وهناك أتاه كاهن واستأذن منه ونظر إلي منخاريه وأخبره أن في إحدى علامة يديه النبوة وفي الأخرى علامة الملك، وقال له اذهب وتزوج من فتاة من بني زهرة. والراوي المشترك بين هؤلاء المصنفين هو عبد العزيز بن عمران الزهري، وجاء في " الميزان " بخصوصه أن الإمام البخاري قال لا يكتب حديثه، وقال النسائي متروك، وقال عنه يحيي إنه رجل شاعر وليس ثقة، أما الراوي الذي يلي عبد العزيز في هذه الرواية فهو يعقوب بن الزهري والذي يقول عنه ابن معين إن روي عن ثقات فاكتب ما روي، وقال أبو زرعة أنه ليس بشيء، وأنه مثل الواقدي، وقال الإمام أحمد إنه ليس بشيء، وأحاديثه لا تساوي شيئاً، وقال الساجي إنه منكر الحديث، وبالإضافة إلي ذلك فهناك في هذه الرواية بعض الرواة المجهولين، وقد رواها الحاكم في مستدركه، لكن الإمام الذهبي في نقد المستدرك ضعّف كلاً من يعقوب وعبد العزيز.

٥ــ وهناك رواية مفادها أنه عندما سطع هذا النور في جبين سيدنا عبد الله تعرفت امرأة ــ وكانت كاهنة ــ علي هذا النور، وأرادت أن تضاجع عبد الله حتى ينتقل هذا النور إليها، لكن هذه السعادة لم تكن مقسومة لها، إذ اعتذر عبد الله وعاد إلي البيت، وهناك كتبت هذه السعادة لآمنة، ثم عاد عبد الله إلي الكاهنة، وطلب منها بنفسه ما طلبته هي منه من قبل، فرفضت قائلة: بأن النور الذي كان في جبينك قد انتقل.

وهذه الرواية مذكورة مع بعض الاختلافات في الألفاظ والتفاصيل عند ابن سعد والخرائطي وابن عساكر والبيهقي وأبي نعيم، وقد رويت عند ابن سعد من ثلاث طرق، والراوي الأول في السند الأول هو الواقدي، وفي السند الثاني الكلبي، وهما كذابان مشهوران، بينما ينتهي السند الثالث علي التابعي أبي يزيد المدني، ورغم أن بعض الأئمة عدوا أبا يزيد ثقة، إلا أن شيخ المدينة الإمام مالك يقول عنه أنا لا أعرفه، وقال أبو زرعة

لا أعرفه، وقد روي أبو نعيم هذه الرواية من أربعة أسناد، لكن ليس من بينها سند واحد يقبل الثقة فيه، ففي أحدهما النضير بن سلمة وأحمد بن محمد بن عبد العزيز بن عمر والزهري، وثلاثتهم ليسوا ثقات، وفي السند الثاني مسلم بن خالد الزنجي ويعد ضعيفاً ومتعدد المجاهيل، بينما ينتهي السند الرابع علي يزيد بن شهاب الزهري، وهو لا يخبر بما بعده من سلسلة السند، وحاله أيضاً غير معلوم، وسلسلة البيهقي هي الثالثة، ولا اعتبار للخرائطي وابن عساكر.

٦ـ روي عن سيدنا عباس رضي الله عنه أن مائتين من سيدات عبد مناف وقبيلة مخزوم ظللن بغير زواج حتى وفاتهن حزناً علي أنهن لم يحصلن علي هذه الثروة من عبد الله، ومرضت نســاء قريش كلها لنفس السبب. هذه هي القصة التي ترجمها خطأ كتاب واقعة الميلاد النبوي بالأردية، فقالوا أن مائتي امرأة متن حسداً، وقد ذكرت هذه الرواية بغير سند في شرح المواهب اللدنية للزرقاني بصيغة المبني للمجهول، مما يدل علي أن المؤلف نفسه لديه شك فيها، وهي بالفعل رواية لا أصل ولا سند لها، ولم ترد في الكتب المعتبرة.

٧ـ وهناك رواية مفادها أن قصر كسري قد تزلزل في تلك الليلة، وسقطت من أعمدته أربعة عشر عموداً، وجفت بحيرة ساوة (فارس)، وفي بعض الروايات نهر طبرية (الشام)، وانطفأت نيران معابد المجوس في فارس وهي التي كانت مشتعلة منذ آلاف السنين، ورأي كسري حلماً مخيفاً سأل في تفسيره كاهناً من اليمن، وقد ذكرت هذه القصة عند البيهقي والخرائطي وابن عساكر وأبي نعيم بالسند وسلسلة الرواية، والراوي الرئيسي فيها كلها هو مخزوم بن هاني، الذي يروي عن أبيه هانى المخزومى (قريش) والذي كان عمره مائة وخمسون عاماً، ولا يُعلم أي صحابي مخزومي قريشي عاش مائة وخمسين عاماً باسم هاني، وقد جاء اسمه في الإصابة وغيرها مصحوباً بالشك فيه ضمن سند هذه الرواية، ولا يعرف أحد من المحدثين ابنه مخزوم بن هاني، وهذا هو حال الرواة الذين جاءوا من بعده حتى أن ابن عباس الذي يؤيد الروايات الضعيفــة يعترف بأن هذه الرواية مرسلة، وفي رواية أبي نعيم أن محمد بن جعفر بن أحين وضاع مشهور.

٨ـ وهناك رواية مفادها: أن والدة سيدنا عبد الرحمن بن عوف كانت موجودة عند ولادة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بجانب والدته صلى الله عليه وسلم، تقول أنه عندما ولد صلى الله عليه وسلم جاء صوت من الغيب أولاً، ثم أضاءت الأرض كلها

أمامي في المشرق والمغرب حتى بدت لي قصور الشام، فألبسته صلى الله عليه وسلم ثياباً، وأضجعته إذ كان الظلام قد حلّ وبدأت أرتعد خوفاً، ثم جاء صوت من ناحية اليمين يقول إلي أين أخذته. وجاء الجواب: إلي المغرب، وبعد فترة بسيطة تكرر الأمر نفسه، وارتعدت خوفاً، وجاء الصوت: إلي أين أخذته، فجـــاء الجواب: إلي المشرق. هذه القصة مذكورة عند أبي نعيم، وفي سندها أحمد بن محمد بن عبد العزيز الزهري وهو ليس ثقة، أما الرواة الآخرون لهذه الرواية فهم مجهولو الحال.

٩ـــ وهناك رواية مفادها: أن السيدة آمنة رأت في المنام أن هناك من يقول لها: يا آمنة، سيكون طفلك سيد العالم، سمّه محمداً وأحمد عندما يولد، وضعي هذه التعويذة في رقبته، وحين استيقظت وجدت أشعاراً مكتوبة علي لوح من الذهب. وهذه القصة عند أبي نعيم، وراويها هو أبو غزيه محمد بن موسى الأنصاري، والذي ينكر الإمام البخاري رواياته، يقول ابن حبان أنه كان يسرق أحاديث الآخرين، ويضع الروايات وينسبها إلي الثقات، بينما عدها من المتأخرين حافظ العراقي لا أصل لها، وقال عنها الشامي إنها غاية في الضعف، وقال عنها ابن إسحاق أنها رواية بلا سند، وهذه الرواية وردت عند ابن سعد برواية الواقدي، وهو ظاهر الكذب.

١٠ـــ ورواية أخرى مفادها أن والدة الصحابي عثمان بن أبي العاص كانت موجودة وقت ولادته صلى الله عليه وسلم، تقول أنه عندما فاجأ ألم الولادة السيدة آمنة كان يبدو وكأن النجوم كلها تنحني علي الأرض حتى أنني خفت أن تقع النجوم علي الأرض، وحين ولد صلى الله عليه وسلم عم النور في كل مكان في البيت. هذه القصة وردت عند أبي نعيم والطبراني والبيهقي، ومن رواتها يعقوب بن محمد الزهري وهو لا ثقة فيه، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن عوف وهو كذاب وليس أكثر من قصاص.

١١ـــ ورواية أخرى تقول فيها السيدة آمنة أنني لم تظهر عليّ علامة من علامات الحمل، ولم أشعر بما تشعر به الحوامل من ثقل وألم، وليس أكثر من فرق بسيط في عادتي. وقد ذكر القسطلاني هذه الرواية في المواهب اللدنية عن طريق أبي إسحاق وأبي نعيم، لكن نسخة ابن إسحاق التي اشتهرت بابن هشام وطبعت بنفس الاسم، والنسخة المطبوعة من دلائل أبي نعيم لم تذكر أي منهما هذه الواقعة، وقد نسب المتأخرون المتساهلون مثل صاحب السيرة الحلبية ومصنف خميس هذه الرواية إلي ابن إسحاق وأبي نعيم تتبعاً للقسطلاني، لكن ابن سيد الناس نسبها في عيون الأثر إلي الواقدي علي حق.

والحقيقة أن هذه القصة نقلها ابن سعد، وكتب لها سندين من الرواية، لكن الراوي في كل سند منهما هو الواقدي، ولا يخفي رأي المحدثين فيه، وبالإضافة إلي ذلك فليس من بين السندين سند مرفوع، فالأول ينتهي عند عبد الله بن وهب، والذي يروي عن عمته أنها تقول: أننا كنا نسمع. ..... أما السند الثاني فينتهي عند الواقدي الزهري.

١٢ـ وهناك رواية أخرى علي عكس هذه الرواية وردت عند ابن سعد مفادها: أن السيدة آمنة كانت تشعر بثقل شديد في حملها نظراً لعظمته وجلاله صلى الله عليه وسلم، وأنها كانت تقول كم حملت أطفالاً في بطني، لكني لا أعرف طفلاً حملته أثقل من هذا الطفل. وهذه الرواية أولاً: علي خلاف ما هو معروف ومسلّم به، إذ أن السيدة آمنة لم تحمل سوى في طفل واحد، وثانياً: أن سلسلة سند هذه الرواية ناقص، وهناك رواية أخرى بنفس المعني منقولة عن الصحابي شداد بن أوس مفادها أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بأنه ﷺ أول ما أنجب والداه ﷺ، وعندما كنت في بطن أمي كانت أمي تشعر بثقل أكثر من عامة النساء (كنز العمال ـ كتاب الفضائل)، وقد جرح معاني بن زكريا هذه الرواية قائلاً بأنها منقطعة، بمعني أن شداد بن أوس لم يلتق بالراوي الذي تلاه وهو مكحول، ولهذا فهناك راو ناقص بينهما، في حين أن الأهم من هذا هو أن الراوي الأول لهذه الرواية هو عمر بن صبيح، وهو كذاب وضاع متروك.

١٣ـ ورواية أخرى مفادها: أنه حين جاء وقت ولادته صلى الله عليه وسلم أمر الله الملائكة أن يفتحوا أبواب السماوات والجنان، وبشر الملائكة بعضهم بعضاً، وارتدت الشمس رداءاً جديداً من النور، وأنعم علي نساء العالم كله بأولاد ذكور، وأثمرت الأشجار، ونصبت في السماء أعمدة من الزبرجد والياقوت، ونبتت علي شاطئ نهر الكوثر أشجار المسك الخالص، وسقطت أوثان مكة وغير ذلك.

وقد ذكرت هذه الحكاية عن أبي نعيم في المواهب اللدنية والخصائص الكبرى، لكني لم أجد هذه الرواية في النسخة المطبوعة من كتاب دلائل النبــوة لأبي نعيم في المكان الذي يمكن أن تكون فيه، وربما ذكر أبو نعيم هذه الرواية في كتاب آخر من كتبه، أو ربما تكون النسخة المطبوعة التي أشرنا إليها غير مكتملة. علي أية حال فإن أساس هذه الرواية هو أن أبا نعيم ينقل عن عمرو بن قتيبة من رواة القرن الرابع أن والده قتيبة والذي كان رجلاً فاضلاً كان يقص هذه الرواية. وقد نقل القسطلاني هذه الرواية في كتابه

المواهب، وقال عنها إنها رواية مطعون فيها، وقال عنها السيوطي في الخصائص الكبرى أنها منكرة، والحقيقة أنها موضوعة ولا سند لها.

١٤ــ ورواية أخرى مفادها: أنه كانت هناك علامة من علامات حمله صلى الله عليه وسلم في بطن أمه وهي أن كل حيوانات قريش تكلمت في تلك الليلة، وقالت: قسماً برب الكعبة لقد جاء صلى الله عليه وسلم في بطن أمه، وهو أمان للدنيا، ونور لأهلها، ولم تكن هناك امرأة كاهنة من كاهنات قريش والقبائل الأخرى إلا واختفي جنّها وغاب عنها، وسلب منها علم الكهانة، وانقلبت عروش ملوك العالم كله، وخرست ألسنة السلاطين في ذلك اليوم، وبشرت حيوانات المشرق المتوحشة حيوانات المغرب المتوحشة، وزفّت الأنهار هذه البشرى إلي بعضها البعض، وكان هناك نداء يُسمع كل شهر من شهور الحمل يأتي من قِبَل السماء والأرض أن ابشروا، لقد اقترب وقت ظهور سيدنا أبي القاسم صلى الله عليه وسلم علي الأرض، وتقول والدته صلى الله عليه وسلم أنه عندما مرّ علي حملي ستة أشهر، جاءني في المنام من ركلني بقدميه قائلاً: يا آمنة، إن سيد العالم كله في بطنك، وعنما يولد سمه محمداً، وعليك أن تخفي حالك. تقول عندما اقترب وقت الولادة وحدث لي ما يحدث للنساء، لم يعرف أحد بما أنا فيه، لقد كنت وحيدة في البيت، وكان عبد المطلب قد ذهب للطواف حول الكعبة، فسمعت صوتاً قوياً خفت منه، ورأيت طائراً أبيض اللون يرفرف بجناحيه علي قلبي، فذهبت وحشة قلبي، وأخذ الألم يتلاشى تدريجياً، ثم نظرت فوجدت شراباً أبيض اللون، وكنت أشعر بالعطش، فشربته علي أنه لبن، وما إن شربته حتى خرج مني نور وارتفع، ورأيت عدة نساء طوال القامة كأنهن بنات عبد المطلب، وكن ينظرن إليّ بتمعن، وتعجبت كيف عرفن حالي. وفي رواية أخرى قالت هؤلاء النسوة: نحن آسية زوجة فرعون ومريم ابنة عمران، وهؤلاء حور، فازداد ألمي، وصار الصوت يرتفع من وقت لآخر، وأصبح مخيفاً أكثر من ذي قبل، وفي تلك الأثناء غطي رداء من الديباج الأبيض ما بين السماء والأرض، وجاء صوت أن أخفيه عن أنظار الناس، ورأيت بعض الرجال معلقين في الهواء، وفي أيديهم مصابيح من فضة، ويتقاطر العرق مني كحبات اللآلئ تفوح منه رائحة المسك الخالص، وقلت في نفسي ليت عبد المطلب بجانبي الآن، ثم رأيت سرباً من الطيور لا أعرف من أين أتي، ودخل إلي حجرتي، كانت مناقيرها من الزمرد وأجنحتها من الياقوت، ورفعت الحجب عندئذٍ من علي عيني، كان المشرق والمغرب أمام أنظاري، ورأيت ثلاث رايات واحدة في المشرق،

وواحدة في المغرب، وواحدة فوق سقف الكعبة، وازداد ألمي أكثر من ذي قبل، فعلمت وكأن بعض النسوة يجلسن متكئات، وامتلأ البيت بالنساء حتى أنني لم أعد أري شيئاً من أمتعة البيت، وفي تلك الأثناء ولد الطفـل، وعندما نظرت إليه رأيته ساجداً، وقد رفع إصبعين من أصابعه إلي السماء وكأنه يدعو لله، ثم بدت لي سحابة سوداء نزلت من السماء وظللت علي الطفل، واختفي طفلي من أمام عيني، وفي تلك الأثناء سمعت مناد ينادي أن اجعلوا محمد صلى الله عليه وسلم تجاه مشرق الأرض ومغربها، وخذوه إلي البحار حتى يتعرف الجميع علي اسمه ورسمه وشكله وصورته، ويعرفوا أنه الماحي، وسوف يمحو كل أثر للشرك في زمانه، وبعد فترة وجيزة انقشعت السحابة، وبدا لي محمد صلى الله عليه وسلم وهو ملفوف في قماش أكثر بياضاً من اللبن، تحته حرير أخضر اللون، وفي يديه ثلاثة مفاتيح من اللؤلؤ الأبيض وجاء صوت يقول: لقد أعطي محمد صلى الله عليه وسلم مفاتيح الفتح والنصر والنبوة.

لقد تحاملت علي نفسي ونقلت الرواية كلها، ذلك لأن احتفالات المولد النبوي تقوم أساساً علي هذه الروايات، وهذه الرواية نقلها أبو نعيم عن سيدنا ابن عباس، وسلسلة سندها صحيح تماماً، ولكن إذا كان هناك من لا علم له بأسماء الرجال، لكن لديه تذوق صحيح للأدب العربي فإنه بعد أن يقرأ ألفاظ وعبارات هذه الرواية سيقرر بأنها من وضع القرن الثالث أو الرابع الهجري، وفي سندها يحيي بن عبد الله الباهلي، وأبو بكر بن أبي مريم، أما الأول فهو ضعيف تماماً، والثاني لا يحتج به، ويليهم من الرواة سعيد بن عمر الأنصاري وأبوه عمرو الأنصاري، ولا يعلم عنهما شيء.

١٥ــ وهناك رواية أخرى من هذا النوع تروي عن سيدنا عباس رضي الله عنه يقول: أنه عندما ولد أخي الصغير عبد الله كان في وجهه نور كنور الشمس، وقد رأي الوالد حلماً ذات مرة، وفسرته كاهنة من كاهنات بني مخزوم وتنبــأت فيه أنه سيولد من نسل هذا الغلام طفل سيحكم العالم كله، وحين ولد طفل من بطن آمنة سألتها ماذا رأيت أثناء الولادة ؟ فقالت: أنه حينما فاجأني الألم سمعت صوتاً قوياً ليس كصوت بني الإنسان، وراية ترفرف من الحرير الأخضر مربوطة براية من الياقوت مثبتة بين السماء والأرض، ورأيت نوراً يخرج من رأس الطفل إلي السماء، وبدت قصور الشام كلها شعلة، ورأيت سرباً من بط الماء سجد للطفل، ثم نشرت أجنحتها، ورأيت سعيرة الأسدية حيث كانت تقول أن طفلك هذا أصاب الأصنام والكهنة بصدمة كبيرة، وا أسفاه، لقد هلكت

سعيرة، ثم رأيت شاباً أبيض اللون قوى البنيان تناول الطفل من يدي، ووضع في فمه من لعاب فمه، وكان في يده طشت من الذهب، فشق بطن الطفل، ثم أخرج قلبه، وانتزع منه بقعـــة سوداء ورمي بها بعيداً، ثم فتح حقيبة صغيرة من الحرير الأخضر، وأخرج منها خاتماً ختم به علي كتف الطفل، ثم ألبسه قميصاً، هذا ما رأيته يا عباس.

ونحن لسنا في حاجة لأن نتحدث كثيراً عن هذه الرواية، إذ اعترف ناقلوها أيضاً بضعفها، وكتب الحافظ السيوطي أن هذه الرواية والروايتين السابقتين (١٣، ١٤) فيها نكر شديد، ولم أنقل في كتابي هذا الخصائص رواية أكثر نكراً من هذه الروايات الثلاثة، ولم يكن قلبي يريد أن أكتبها، لكني كتبتها تتبعاً لأبي نعيم فقط، هذا ويمكن لك أن تعرف درجة ضعف هذه الروايات التي اعتبرها الحافظ السيوطي لا تستحق الكتابة، ويقول السيوطي أن هذه الرواية مأخوذة عن أبي نعيم، لكني لم أجدها في النسخة المطبوعة من كتاب الدلائل لأبي نعيم، وجدير بالذكر أن سيدنا عباس رضي الله عنه أكبر من سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بعام واحد أو عامين اثنين فقط، وحين توفيت آمنة فإن عمره لم يكن يزيد عن سبع أو ثمان سنوات.

١٦ـ روي عن ابن عباس رضي الله عنه أن آمنة قصت ما حدث في ولادته صلى الله عليه وسلم قائلة كنت في شدة الحيرة، إذ رأيت ثلاثة رجال تسطع وجوههم مثل الشمس، وكان في يد أحدهم إناء من الفضة تفوح منه رائحة المسك، وفي يد الآخر طشت من الزمرد الأخضر ذو أربعة أركان، وفي كل ركن منها لؤلؤة بيضاء، وجاء صوت أن يا حبيب الله، لقد تجسدت الدنيا كلها بشرقها وغربها وبرّها وبحرها أمامك، فتناول منها ما تشاء. تقول آمنة أنني التفت لأري أين يضع الطفل يده، فرأيته وضع يده في الوسط، فقال الصوت أن قسماً برب الكعبة لقد استولي محمد صلى الله عليه وسلم علي الكعبة، وستصبح هذه الكعبة قبلته ومسكنه، بينما كان في يد الثالث حرير أبيض ملفوف، فنشره، فإذا بخاتم فيه تحتار عند رؤيته الأعين التي تراه، ثم جاء عندي فقام الذي في يده الطشت بتناول الخاتم وغسله سبع مرات في إنائـــه، وختم علي كتف الطفل، ولفه في الحرير الخالص، ثم ربطه بخيط من المسك الخالص واحتفظ به هكذا لفترة بسيطة. يقول ابن عباس رضي الله عنه أن هذا كان رضوان الجنة، ثم قال شيئاً في أذن الطفل. تقول عنه آمنة إنني لم أفهم مما قاله شيئاً، ثم قال: يا محمد صلى الله عليه وسلم أبشر، فإنه لم يعط نبي من العلم ما أعطيت، لقد جعلت أكثر شجاعة من الأنبياء جميعاً، لقد أعطيت مفاتيح

الفتح والنصر، ومنحت الرعب، فمن سمع اسمك حتى وإن لم يرك أبداً سيرتعد خوفاً، فأنت خليفة الله

ومأخذ هذه الرواية هو ذكر يحيي بن عائذ المتوفى عام ٣٧٨هـ لها في كتابه عن المولد النبوي، وقد أظهر ابن دحية المحدث شجاعة كبيرة ووصف هذا الخبر بأنه " غريب "، لكن الحقيقة أن وصف هذه الرواية بالغريبة يعد توثيقاً لها، إذ أنه لا أصل لها ولا أساس.

١٧ـ ورواية أخرى مفادها أن آمنة قالت أنه حين ولدت محمد صلى الله عليه وسلم جاءت سحابة كبيرة كانت تأتي منها أصوات صهيل خيول ورفرفة أجنحة وأناس يتحدثون، وظللت هذه السحابة الكبيرة الطفل، ثم اختفي طفلي عن أنظاري، ثم نادي مناد أن طوفوا بمحمد صلى الله عليه وسلم البلاد، وخذوه إلي أعماق البحار حتى تتعرف عليه الدنيا كلها، وخذوه إلي الجن والإنس، والطير والوحش، والملائكة، بل وإلي كل ذي روح، وأعطوه خلق آدم ومعرفة شيث وشجاعة نوح وصدق إبراهيم ولسان إسماعيل ورضا إسحاق وفصاحة صالح وحكمة لوط وقوة موسى وصبر أيوب وطاعة يونس وجهاد يوشع وصوت داود، ومحبة دانيال ووقار إلياس، وعفة يحيي وزهد عيسي، وغوصوا به في أخلاق الأنبياء جميعاً. تقول آمنة ثم اختفي هذا المنظر فرأيت أنه صلى الله عليه وسلم ملفوف في حرير أخضر، والماء يتقاطر من داخله، وجاء صوت أن يا محمد صلى الله عليه وسلم لقد حكمت العالم كله، وليس هناك مخلوق خارج عن طاعتك. تقول ثم نظرت فرأيت وجهه صلى الله عليه وسلم منيراً كالبدر، وتفوح منه صلى الله عليه وسلم رائحة المسك الخالص، وفجأة ظهر ثلاثة رجال في يد أحدهم إناء من الفضة، وفي يد الآخر طشت من الزمرد الأخضر، وفي يد الثالث حرير أبيض، ثم فتح هذا الحرير الأبيض وأخرج منه خاتماً يخلب الأنظار التي تراه، ثم غسل هذا الخاتم في الإناء الفضي سبع مرات، ثم ختم به علي كتفي الطفل صلى الله عليه وسلم، وحمله بين يديه قليلاً ثم أعاده إليّ. وأساس هذه الحكاية هو أن القسطلاني نقلها في كتاب المواهب اللدنية من كتاب عن المولد النبوي يسمي " السعادة والبشرى "، ويقول مؤلف كتاب " السعادة والبشرى " أنه نقلها عن الخطيب، ولا يعرف أحد درجة تاريخ الخطيب باعتبار الرواية، وقد نسب القسطلاني هذه الرواية إلي أبي نعيم أيضاً، لكن لا وجود لها في النسخة المطبوعة من كتاب الدلائل لأبي نعيم، وقد أحسن الحافظ القسطلاني حين صرح بأنه فيها نكراً شديداً.

١٨ـ ورواية أخرى تقول فيها آمنة أنه حين ولد محمد صلى الله عليه وسلم سطع نور أضاء الشرق والغرب، ثم استند علي يديه وسقط علي الأرض (ربما يكون المقصود هنا أنه خرّ ساجداً) ثم قبض بكفه حفنة من التراب (يستنتج كتاب المولد النبوي من هذا أنه سيطر علي الأرض كله)، ثم رفع رأسه إلي السماء.

وهذه الحكاية مذكورة بطرق مختلفة عند ابن سعد، ولكن ليس من بينها طريقة قوية، وهناك روايات قريبة منها مذكورة عند أبي نعيم والطبراني، وحالها هو نفس الحال.

١٩ـ ورواية أخرى تقول أنه في الليلة التي ولد فيها صلى الله عليه وسلم اجتمع كبراء قريش، وجاء يهودي كان يعمل بالتجارة في مكة وسألهم هل ولد عند أحد منكم اليوم طفل ؟ فأظهر الجميع عدم معرفتهم بشيء من هذا، فقال الله أكبر، ألا تعلمون، لا بأس، ولكن اسمعوا ما أقول، لقد ولد الليلة نبيّ هذه الأمة الأخيرة، وهناك علامة بين كتفيه، وفيها بعض شعيرات متفرقة كشعر عنق الفرس، ولن يرضع هذا المولود اللبن ليومين، لأن أحد الجن قد وضع إصبعه في فمه، ولهذا لا يستطيع أن يرضع اللبن، وحين انقضت الجلسة وعاد الناس إلي بيوتهم عرفوا أن طفلاً ولد في بيت عبد المطلب، فأتي الناس بهذا اليهودي إلي بيت آمنة، ولما رأي خالاً علي ظهر الطفل خرّ مغشياً عليه، وعندما أفاق سأله الناس عن السبب، فقال والله لقد رحلت النبوة عن بيت إسرائيل، يا قريش افرحوا بمولده، وانتبهوا، والله سيأتي يوم يهاجموكم فيه، وستعرف به الدنيا كلها.

وهذه الرواية في مستدرك الحاكم، وقد صححها الحاكم، إلا أن أهل العلم يعرفون أن تصحيح الحاكم لأية رواية يحتاج إلي النقد دائماً، ولهذا فإن الحافظ الذهبي قد ردّ قول الحاكم في كتاب تلخيص المستدرك (الجزء الثاني ـ ص ٦٠٢)، وسلسلة سند هذه الرواية أن يعقوب بن سفيان الفسوي يروي عن أبي غسان محمد يحيي الكناني، وأبو غسان محمد بن يحيي الكناني يروي عن أبيه (يحيي بن علي الكناني)، وهذا يروي عن محمد بن إسحاق (مؤلف السيرة)، والأمر الأول هو أن ابن إسحاق نفسه لم يذكر هذه الرواية في سيرته، ورغم أن بعض المحدثين قد حسنوا أبا غسان محمد بن يحيي، إلا محدث سليماني قال عنه أنه منكر الحديث (وهو الذي يروي كلاماً لا تؤيده فيه الروايات المعتبرة الأخرى)، وقال عنه ابن حزم أنه مجهول، علي أية حال الأمر لا بأس به إلي هذا الحد، ولكن أباه يحيي بن علي لا ذكر له ولا يعرف من هو، ومتي عاش، وهناكِ رواية أخرى

من هذا النوع عن خيص الراهب منسوبة إلي أبي جعفر بن أبي شيبة، وقد ذكرها أبو نعيم في الدلائل وابن عساكر في التاريخ، ولكن الزرقاني كتب أن أبا جعفر بن أبي شيبة ليس راوياً موثوقاً به.

٢٠ـ ورواية أخرى مفادها أن سيدنا عباس رضي الله عنه قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم يا رسول الله إن العلامة التي أدخلتني في دينك هي أنك حين كنت في المهد رأيتك تحـادث القمر، والقمر يحادثك، وكان القمر يميل إلي حيث تشير بإصبعك، فأجاب صلى الله عليه وسلم بنعم، وأخبر بأنه ﷺ كان يحادثه والقمر يحادثه ﷺ، ويدخل عليه السرور حين يبكي ﷺ، وكان ﷺ يسمع صوته حين كان يسبح تحت العرش.

وهذه الرواية موجودة في دلائل البيهقي، وكتاب المائتين للصابوني وتاريخ الخطيب وتاريخ ابن عساكر، إلا أن البيهقي صرح أن الذي رواها هو أحمد بن إبراهيم الجبلي، وهو مجهول، ونقل الصابوني هذه الرواية ثم قال أنها غريبة باعتبار المتن والسند، علاوة علي ذلك فإن سيدنا عباس أكبر من سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم بعام أو عامين فقط، وهذا يعني أنه أيضاً كان رضيعاً في الوقت الذي كان فيه الرسول صلى الله عليه وسلم رضيعاً.

٢١ـ ينقل الحافظ ابن حجر في كتابه فتح الباري (جزء ٦ـ ص٣٤٤) عن كتاب السير للواقدي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تكلم وهو في المهد، وجاء في كتاب الخصائص لابن سبع أن الملائكة كانوا يؤرجحونه صلى الله عليه وسلم في المهد، وأنه صلى الله عليه وسلم تكلم بعد الولادة، وينسب إليـه صلى الله عليه وسلم ابن عائذ وغيره في بعض كتب المولد النبوي فقرات معينة.

وإن كان المراد بكتاب السير للواقدي هو كتاب المغازي للواقدي، فإن هذه الحادثة ليست مذكورة في النسخة المطبوعة من هذا الكتاب في كلكتا، وهي التي أمامي، وحتى إن كانت موجودة فعلاً.فما مقدار الثقة في الواقدي ؟ إذ أن ابن سبع وابن عائذ وغيرهما من المتأخرين، وقد تساهلوا في النقل عن المتقدمين، وليس هناك مصدر قديم يؤيد هذه الروايات، ولا أعرف من أين أتي بها ؟!

٢٢ـ وقد ذكرت فضائل النبي صلى الله عليه وسلم ومعجزاته أيام رضاعته تفصيلاً، ومنها حينما أخذته السيدة حليمة السعدية إلي بيتها عند ابن إسحاق وابن راهوية، وأبي يعليّ، والطبراني والبيهقي وأبي نعيم وابن عساكر وابن سعد، مثل مجيء السيدة

حليمة السعدية، وتبسمها حين رأته صلى الله عليه وسلم وامتلاء صدر السيدة حليمة باللبن بعد أن كان قد يبس، وشربه صلى الله عليه وسلم اللبن من ثدي واحد، وتركه صلى الله عليه وسلم الثدي الآخر لأخيه في الرضاعة، وتحول أتان السيدة حليمة إلي أتان قوية سريعة بمجرد ركوبه صلى الله عليه وسلم عليهـــا بعد أن كانت هزيلة نحيلة، وتحول أرض قبيلة السيدة حليمة إلي أرض خضراء يانعة بعد أن كان القحط أصابها، وتحسن صحة شياه السيدة حليمة وإدرارها اللبن أكثر من غيرها، ونموه صلى الله عليه وسلم غير العادي، وشـــق صــــدره صلى الله عليه وسلم وهو ابن عامين، وخوف السيـــدة حليمـــة من هذه الحـــادثة وإعادتهـــا (محمد) إلي أمه آمنة، وطمأنة السيدة آمنة للسيدة حليمة. هذه الأحداث كلها مذكورة بالتفصيل في الكتب سابقة الذكر.

وقد رويت هذه الأحداث من طريقين، أما الراوي المشترك في الطريقة الأولي فهو جهم بن أبي جهم، وهو مجهول، والراوي المشترك في الطريقة الثانية هو الواقدي وهو غير موثوق به.

وقد روي ابن إسحاق وابن راهوية وأبو يعليّ والطبراني وأبو نعيم هذه الأحداث من الطريقة الأولي، وسندها هو أن ابن إسحاق قال: قال لي جهم بن أبي جهم مولي حارث بن حاطب الجمحي، وهذا يقول أخبرني عبد الله بن جعفر بن أبي طالب بنفسه أو أن شخصاً آخر سمع من عبد الله بن جعفر وأخبرني، وسمع عبد الله بن جعفر من السيدة حليمة السعدية. وأول شيء في هذه الرواية هو أن سماع جهم لها بنفسه من عبد الله بن جعفر أمر غير يقيني، بل إنه يقول بأن عبد الله بن جعفر قال لي، أو أن رجلاً آخر سمع من عبد الله بن جعفر وقال لي، تري من الذي أخبره ؟ وكيف كان؟. أما أبو نعيم وغيره من المتأخرين فقد ذكروا هذه الرواية بطريقة تخفي هذا الشك تماماً. ولو افترضنا أن جهم سمع من عبد الله بن جعفر فإن لقاء عبد الله بن جعفر بالسيدة حليمة وروايته عنها أمر يحتاج إلي دليل، إذ أن عمر عبد الله بن جعفر في عهد رسول الله كان ابن ثمان أو تسع سنوات، وقد عاد إلي المدينة المنورة من هجرته إلي الحبشة عام ٧هـــ، وهناك اختلاف بين علماء السير والرجال في لقائه بالسيدة حليمة، ثم لقائه بعد ذلك برسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد ذكره قليلون في غزوة هوازن، لكن وجود عبد الله بن جعفر في هذه الواقعة وهو الذي كان صغير السن، ولقاءه به صلى الله عليه وسلم لم يثبت بشكل مطلق،

أما جهم بن أبي جهم الذي هو أساس هذه الرواية فإن الذهبي في ميزان الاعتدال ذكر اسمه فيما يتعلق بهذه الرواية، وقال عنه " لا يُعرف "

أما الطريقة الثانية والتي يحتل فيها الواقدي مكانة الراوي الأساسي فقد نقل عنها هذه الواقعة ابن سعد وابن عساكر، وعلاوة علي أن هذه السلسلة جاءت عن طريق الواقدي فهي موقوفة أيضاً، أي أنها لا تصل إلي أي صحابي، ونقلها الواقدي عن زكريا بن يحيي بن يزيد السعدي، ونقلها هذا عن أبيه يحيي بن زيد السعدي. هذا وقد نقلها ابن سعد في مكان آخر (الجزء الأول ـ ص٩٧) عن الواقدي من سلسلة أخرى، ونقلها الواقدي عن عبد الله بن زيد بن أسلم، ونقلها عبد الله عن أبيه زيد بن أسلم التابعي، وعلاوة علي أن الـــراوي الأول في هذه السلسلة هو الواقدي فهي رواية موقوفة أيضاً، ولأهل المدينة كلام حول زيد المذكور، وقد ضعف أكثر المحدثين ابنه عبد الله، ولهذا فإن هذه السلسلة أيضاً غير موثوق بها، وقد نقل أبو نعيم هذه الأحداث في رواية ثالثة عن الواقدي ولكن بغير سند.

٢٣ـــ وحادثة شق صدره صلى الله عليه وسلم المبارك ثابتة في حادثة المعراج، إلا أن بعض الناس يردون هذه الحادثة إلى وقت طفولته صلى الله عليه وسلم، وهناك اختلاف بين الروايات التي تحدد وقت الطفولة لحادثة شق الصدر، فقد جاء في أكثر الروايات أنه وقعت أيام قيامه صلى الله عليه وسلم عند السيدة حليمة السعدية حينما كان عمره صلى الله عليه وسلم أربع سنوات في الغالب، وجاء في روايات أخرى قليلة أنه عمره صلى الله عليه وسلم كان عامين، لكن الحقيقة هي أن كل الروايات التي تقول بأن شق الصدر كان في طفولته صلى الله عليه وسلم ضعيفة باستثناء رواية صحيح مسلم، وفي رواية صحيح مسلم روي حماد بن سلمي حادثة شق الصدر في حادثة المعراج علي أنها وقعت في عهد طفولته صلى الله عليه وسلم عن طريق الخطأ، وقد فصلت هذا الأمر في بحث لي بعنوان شرح الصدر.

٢٤ـــ يروي الرواة واقعة حدثت وقت قيامه صلى الله عليه وسلم عند السيدة حليمة السعدية مفادها: أن بعض اليهود أو بعض مقتفي الأثر العرب (علي اختلاف في الرواية) رأي رسول الله صلى الله عليه وسلم فعرف أنه نبي آخر الزمان، وأنه سيقضي علي دين آبائهم وأجدادهم، ولهذا أرادوا قتله صلى الله عليه وسلم أو تحريض الآخرين علي قتله صلى الله عليه وسلم، وفي رواية أن هذه الواقعة حدثت حينما اصطحبت لسيدة

حليمة رسول الله صلى الله عليه وسلم لأول مرة إلي أحد أسواق عكاظ، وكان هناك مقتف للأثر كهل من قبيلة هذيل، وكانت النساء تأخذ أطفالهن إليه فيتنبأ لهم، وحين وقع نظره علي محمد صلى الله عليه وسلم صرخ قائلاً اقتلوه، لكنه صلى الله عليه وسلم كان قد اختفي عن أنظار الناس، ورحلت به السيدة حليمة السعدية، ولما سأل الناس هذا الكهل عن الأمر قال: إن الطفل الذي رأيته الآن سوف يقتل أهل دينكم، ويحطم أصنامكم، وسوف ينجح في هذا. وبعد ذلك بحث الناس عنه صلى الله عليه وسلم كثيراً، لكنهم لم يعثروا عليه، ولم تصطحبه السيدة حليمة بعد ذلك أبداً إلي أحد من المنجمين أو المتنبئين. وفي رواية أن عقل هذا الكهل أخذ يزول، ومات علي كفره.

وفي رواية ثانية وردت هذه الواقعة بأن السيدة آمنة قالت للسيدة حليمة أن احفظي طفلي بعيداً عن اليهود، وحين ذهبت به السيدة حليمة ذات مرة بالصدفة قابلهم بعض اليهود في الطريق، فلما عرفوا بحاله قال أحدهم لزميله اقتله، ثم استفسروا عنه هل هو يتيم ؟ فقالت حليمة كلا، أنا أمه. وقالت عن زوجها إنه أبوه، فقالوا لو كان يتيماً لقتلناه (بمعني أن آية آخر الأنبياء اليتم، ولأنهم عرفوا أن هذه العلامة غير متوفرة في الطفل زال تأكدهم منه).

هذه الروايات موجودة عند ابن سعد (الجزء الأول ــ ص ٧١، ٩٨)، إلا أن الحقيقة هي أن الروايات الأولي أصلها قصص الواقدي، وبالإضافة إلي ذلك فإن سلسلة سندها غير مكتملة، وسلسلة الرواية الأخيرة هي عمرو بن عاصم الكلابي، وهمام بن يحيي وإسحاق بن عبد الله، ومع أن هؤلاء الثلاثة رواة ثقاة بصفة عامة، إلا أن هذه الرواية موقوفة، بمعني أن الراوي الأخير وهو إسحاق بن عبد الله بالرغم من أنه تابعي، إلا أنه لا يبدو أنه سمع من أي صحابي، ولا نعرف من أين جاءته هذه الرواية. وقد أورد أبو نعيم هذه الواقعة نفسها تقريباً في الدلائل فقال: أنه حينما ذهبت السيدة حليمة بمحمد صلى الله عليه وسلم من مكة قابلها بعض الأحباش في واد من الأودية، " وهم غالباً من النصارى "، فانضمت إليهم السيدة حليمة، وحين رأوا سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم سألوا عنه، ثم بدأوا ينظرون إليه بإمعان، ورأوا خاتم النبوة الذي كان بين كتفيه صلى الله عليه وسلم، وكانت عيناه تشوبها بعض الحمرة، فظلوا ينظرون إليها، ثم سألوا هل هذه الحمرة في عينيي الطفل صلى الله عليه وسلم من مرض ؟ فقالت السيدة حليمة: كلا، إنها

هكذا دائماً. فقالوا والله إن هذا لنبي، ثم أرادوا اختطاف الطفل من السيدة حليمة، لكن الله حفظه. وسلسلة سند رواية أبي نعيم هذه غاية في الضعف، ورواتها مجهولون.

٢٥ـ يقولون أن السيدة حليمة كانت لا تسمح له صلى الله عليه وسلم بالخروج في الشمس خوفاً عليه صلى الله عليه وسلم وحباً له، وذات يوم خرج صلى الله عليه وسلم مع أخته في الرضاعة في الشمس، وعندما رأته السيدة حليمة غضبت من ابنتها لماذا خرجت به في الشمس ؟ فقالت الابنة: يا أمي إن الشمس لا تؤذي أخي، لقد رأيت سحابة تظلله حيثما يذهب، وتقف فوقه حيثما يقف، وقد وصلنا إلي هنا علي هذا الحال. وينقل ابن سعد هذه الواقعة بطريقتين: واحدة منهما تنسب إلي الواقدي، وليس بعده راو آخر (الجزء الأول ــ ص٧)، أما الثانية فقد سمعها الواقدي من معاذ بن محمد، وهذا الأخير سمعها من عطاء، وعطاء سمعها من سيدنا ابن عباس، وقد نقل هذه الواقعة من طريق هذه السلسلة بالإضافة إلي ابن سعد أبو نعيم، ابن عساكر وابن طرماح، لكنها مع ذلك تضم علاوة علي الواقدي معاذ بن محمد وهو مجهول وليس من الثقاة.

لقد انتقدنا هنا كل الروايات الضعيفة والخاطئة فيما يتعلق بالفضائل والمعجزات، ولو أكملنا هذا الأمر حتى النهاية فلن يستوعبه هذا الكتاب، ولهذا فإننا نكتفي بنقد الروايات المشهورة فقط.

٢٦ـ وأشهر قصة في هذا المجال هي قصة بحيرا الراهب، وبيانها أنه عندما بلغ محمد صلى الله عليه وسلم العاشرة أو الثانية عشرة من عمره سافر إلي الشام بصحبة عمه أبي طالب، وفي الطريق مرا علي صومعة لأحد النصارى، وكان يعيش فيه راهب يدعي بحيرا، وقد رأي بحيرا هذا رسول الله صلى الله عليه وسلم وتعرف عليه من العلامات، وعرف منها أنه صلى الله عليه وسلم هو نبي آخر الزمان وسيد العالم، ورأي أن السحابة تظلله، وأن الشجرة التي يجلس تحتها صلى الله عليه وسلم كانت أفرعها تظلله وتنحني فوقه، وقد دعا بحيرا الراهب القافلة كلها إلي الطعام تكريماً له صلى الله عليه وسلم، ثم شدّد علي أبي طالب بأن يعود بالطفل إلي مكة، وإلا فإن تعرف عليه الروميون فسوف يقتلونه (ربما كان ذلك لأن نهاية سلطنة الروم ستكون علي يديه صلى الله عليه وسلم)، وبينما كانوا يتحدثون إذا أقبلت جماعة من الروميين، وبالاستفسار عنهم تبين أنهم عرفوا أن وقت ظهور نبي آخر الزمان قد حان، ولهذا فقد سيّروا بعضاً منهم في كل الأطراف ليتعرفوا علي حقيقة الأمر، فقال لهم بحيرا: إنهم لن يستطيعوا ردّ قدر الله،

ولهذا فمن الأفضل أن يعودوا من حيث جاءوا، فتوقفوا، وأرسل أبو طالب محمداً صلى الله عليه وسلم عائداً إلي مكة، وأرسل سيدنا أبو بكر سيدنا بلالاً معه صلى الله عليه وسلم، وتناول بحيرا الراهب الفطور معهم.

وهذه الرواية مذكورة في أكثر كتب السيرة وفي بعض الأحاديث أيضاً ببعض الاختصار أو التفصيل، إلا أن كل الروايات الواردة بهذا الشأن في كتب السيرة لابن إسحاق وابن سعد وغيرهما ضعيفة السند ومنقطعة، وأكثر طرق سندها حفظاً هي التي تضم عبد الرحمان بن غزوان المشهور بأبي نوح القراد، وهو يرويها عن يونس بن إسحاق، وهذا يرويها عن أبي بكر بن أبي موسى، وأبو بكر يرويها عن أبيه أبي موسى الأشعري.

وهذه القصة بسلسلة السند هذه مذكورة في جامع الترمذي ومستدرك الحاكم ومصنف ابن أبي شيبة، ودلائل البيهقي ودلائل أبي نعيم، وقال عنها الترمذي أنها حسنة غريبة، وصححها الحاكم، وقد نقد أستاذي رحمه الله في الجزء الأول من كتاب السيرة (الطبعة الأولي ــ ص١٣٠، الطبعة الثانية ــ ص١٦٨) هذه الرواية نقداً شديداً، وقرر أن عبد الرحمان بن غزوان في هذه السلسلة مجروح، ونقل في هذا قول الحافظ الذهبي والذي يعتبر فيه هذه الرواية موضوعة، والحقيقة أن هذه الرواية لا تضم من المجروحين عبد الرحمان بن غزوان فقط، وإنما ينطبق الأمر نفسه علي رواتها الآخرين:

١ــ أولاً أن سيدنا أبا موسى الأشعرى أسلم وقدم إلي المدينة من اليمن عام ٧هــ، وهذه الحادثة وقعت قبل هذا بخمسين عاماً، وسيدنا أبو موسى الأشعرى لا يصرح بأنه سمع بنفسه من النبي صلى الله عليه وسلم أو من أي شخص آخر كان موجوداً في الواقعة نفسها، ولهذا فإن هذه الرواية مرسلة.

٢ــ هذه الواقعة يرويها عن سيدنا أبي موسى الأشعري ابنه أبو بكر، وهناك كلام عما إذا كان سمع من أبيه فعلاً أية رواية أم لا ؟ ولهذا فإن النقاد في هذا الميدان يشكون في هذا الأمر، وقد أنكره تماماً الإمام أحمد بن حنبل، وبناءً علي هذا فإن هذه الرواية منقطعة، وبالإضافة إلي ذلك فقد كتب ابن سعد أنه يعتقد أنها ضعيفة.

٣ــ ينقل يونس بن إسحاق هذه الواقعة عن أبي بكر، ورغم أن المحدثين عدّوه ثقة، إلا أن حكمه بشكل عام هو أنه ضعيف، يقول يحيي أن لديه تساهل كبير، واتهمه شعبه بالتدليس، ويقول الإمام أحمد عن رواية أبيه أنها ضعيفة، وعن رواياته بشكل عام

أنها مضطربة ولا وزن لها. ويري أبو حاتم أنه صادق، وقال عنه بعض المحدثين أنه ضعيف، بينما يقول أبو حاكم أنه يتوهم كثيراً في رواياته.

٤ــ الراوي الرابع هو عبد الرحمان بن غزوان، والذي ورد اسمه في المستدرك وعند أبي نعيم أبو نواح القراد، ورغم أن كثيراً من الناس عدّوه ثقة، إلا أنه روي عدة روايات منكرة، وهو الذي روي حديث المماليك المكذوب، ويقول أبو أحمد الحاكم أنه نقل رواية منكرة عن الإمام ليث، وكتب ابن حبان أنه يخطئ، وفي القلب شيء منه بسبب روايته لحديث المماليك المكذوب عن الإمام ليث ومالك.

٥ــ يكتب الحافظ الذهبي في الميزان أن أكثر رواية منكرة من بين الروايات المنكرة التي رواها عبد الرحمان بن غزوان هي قصة بحيرا الراهب، ودليل خطأ هذه القصة هو أنها ذكرت أن أبا بكر أرسل بلالاً معه صلى الله عليه وسلم، في حين أن أبا بكر كان لا يزال طفلاً في ذلك الوقت، بينما لم يكن سيدنا بلال قد ولد بعد.

٦ــ نقل الحاكم في المستدرك هذه الواقعة وقال أنها طبقاً لشرط البخاري ومسلم، ويكتب عنها الحافظ الذهبي في تلخيص المستدرك أنه يتصور أن هذه الرواية ملفقة، لأنها بها بعض الوقائع الخاطئة (المستدرك ــ الجزء ٢ ــ ص٦١٥).

٧ــ ويسلّم الإمام البيهقي بصحتها باعتبار أنها قصة مشهورة لدي أهل السير ليس إلا، وقد فهم الإمام السيوطي في الخصائص مما قاله الإمام السابق أنه يعتقد بضعفها، ولهذا نقل بعض سلاسل السند الأخرى في أصل الرواية عن ابن سعد، ولكن ليس من بينها سلسلة واحدة محفوظة.

٢٧ــ وهناك واقعة أخرى شبيهة بهذه مفادها أنه حينما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم بتجارة السيدة خديجة رضي الله عنها في سفر الشام، ووصل إلي بصري، ويقال أن ميسرة غلام السيدة خديجة كان معه في هذا السفر، ويحكي هذا أنه كانت هناك سحابة تظلله صلى الله عليه وسلم في كل مكان، وأحياناً كانت الملائكة تظلله بأجنحتها، وبالقرب من صومعة أحد الرهبان النصارى والتي كان يسكنها نسطورا الراهب جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم تحت شجرة ليستريح، فرآه الراهب، فسأل ميسرة: من هذا الشخص ؟ فأخبره بكل شيء عنه، فقال الراهب لم يجلس تحت هذه الشجرة إلا نبي، ثم سأله عن الحمرة في عينيه صلى الله عليه وسلم هل هي هكذا دائماً ؟ فأجاب الغلام نعم، فقال الراهب إنه يقيناً نبي آخر الزمان، وعليك ألا تترك رفقته أبداً، وفي تلك الأثناء

حدثت مشادة مع أحد الأشخاص أثناء البيع والشراء، فقال المشتري لرسول الله صلى الله عليه وسلم أقسم باللات والعزى ؟ فأخبره النبي صلى الله عليه وسلم بأنه لا يقسم بهما. فقال الرجل لميسرة: والله إن هذا نبي، وصفاته مكتوبة في كتبنا، يقول ميسرة أنه حين كنت تحت الشجرة وقت الظهيرة كان ملكان يظللانه، وعندما كان صلى الله عليه وسلم عائداً إلى مكة بعد الفراغ من التجارة كانت السيدة خديجة رضي الله عنها تجلس مع بعض صديقاتها في البيت، فلما وقع نظر السيدة خديجة عليه صلى الله عليه وسلم ورأته راكباً الجمل وملكان يظللانه جعلت صديقاتها يرون هذا المنظر، ثم سألت ميسرة عنه فقال ميسرة أنه رأى هذا المنظر طيلة السفر، ثم حكي لها بعد ذلك ما قاله نسطورا الراهب.

هذه الواقعة مذكورة عند ابن إسحاق وابن سعد وأبي نعيم وابن عساكر، وليس لهذه الرواية أي سند عند ابن إسحاق، وسندها في بقية الكتب هو أن مؤلفي هذه الكتب يروونها عن الواقدي، والواقدي رواها عن موسى بن شيبة، وموسى رواها عن عميرة بنت عبد الله بن كعب، وروتها عميرة عن أم سعد بنت كعب، وروتها أم سعد عن الصحابية نفيسة بنت منية أخت الصحابي يعليّ بن منية. أما عدم الثقة في الواقدي فلا تحتاج إلي بيان. وأما موسى بن شيبة فيقول عنه الإمام أحمد بن حنبل أن أحاديثه منكرة، ولا يعرف أحد شيئاً عن عميرة بنت كعب وأم سعد.

وجاء عند ابن سعد، وابن إسحاق والبيهقي وأبي نعيم أنه حينما قاطعت قريش بني هاشم وحصرتهم في شعب أبي طالب، وعقدوا معاهدة بينهم وعلقوها في الكعبة، أرسل الله العثة بعد عدة سنوات فأكلت الصحيفة، وجاء في رواية أن العثة أكلت كل ما هو مكتوب عن مقاطعة بني هاشم، وتركت اسم الله، وفي رواية أخرى أنها أكلت اسم الله وتركت باقي العبارة، ثم اطلع الله سبحانه وتعالي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم علي هذه الواقعة، فذكرها محمد صلى الله عليه وسلم لأبي طالب، وأخبر أبو طالب قريشاً بها، وفي النهاية أنزل كفار قريش الصحيفة ليروا إن كانت المعاهدة باقية أم لا، وإن كانت الواقعة صادقة أم كاذبة، وبالفعل تأكدوا من صدق قول رسول الله صلى الله عليه وسلم.

ورواية ابن إسحاق لا سند لها، أما بقية الروايات فإما أنها عن الواقدي وابن لهيعة وهما لا اعتبار لهما، وإما عن ثقاة وكلها مرسلة، وإن كانت هناك رواية معتبرة بين هذه الروايات المرسلة فهي رواية موسى بن عقبة في البيهقي، والذي رواها عن الإمام الزهري، لكنها تقف عند الزهري، ولا تصل إلي أي صحابي.

٢٩ــ من المشهور أنه حين لجأ رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى غار ثور أثناء هجرته نبتت بأمر الله علي الفور شجرة الببول علي باب الغار، وتدلت فروعها وغطت المكان، وجاء زوج من الحمام ووضع بيضه، ونسج العنكبوت بيته، حتى لا يرد ببال الكفار أنه صلى الله عليه وسلم بداخل الغار، ولم يرد ذكر إنبات شجرة الببول، ووضع الحمام للبيض ونسج العنكبوت لشباكه إلا في رواية أبي مصعب المكي، أما بقية الروايات فلم تذكر إلا وضع الحمام للبيض ونسج العنكبوت لشباكه. علي أية حال وردت هذه الواقعة عند ابن إسحاق وابن سعد وأبي نعيم وفي دلائل البيهقي من كتب السير، وعند ابن مردويه والبزار من كتب الحديث، أما الرواية التي جاءت عند ابن مردويه والبزار والبيهقي، وكذلك إحدى روايات ابن سعد وأبي نعيم فهي عن أبي مصعب المكي، وهي تظهر سماع هذه الواقعة من عدد من الصحابة، ويرويها عون بن عمرو القيس عن أبي مصعب المكي، ولكن كلاهما ساقط الاعتبار، فأبو مصعب المكي مجهول، ويقول ابن معين عن عون بن عمرو أنه لا شيء، ويقول الإمام البخاري أنه منكر الحديث مجهول، وجاء عند أبي نعيم اسم عوين بن عمرو القيس بدلاً من عون بن عمرو، وعوين بن عمرو هذا أيضاً لا اعتبار له، وقد عدّه العقيلي في الضعفاء، ولا تصدق رواياته، وقد نقل هذه الرواية وكتب بعدها أن أبا مصعب مجهول. ([1])

وقد نقد أستاذي المرحوم في الجزء الأول من كتاب السيرة رواية أبي مصعب فقط في ثنايا الحديث عن الهجرة، إلا أن الحقيقة هي أنها مروية من سلاسل أخرى بالإضافة إلي أبي مصعب، ومن هنا فقد رواها ابن سعد من طريق آخر، ولكن كل طرق هذه الواقعة تضم الواقدي، والذي جمع روايات عديدة مع بعضها البعض، وأعد رواية مشتركة عن الهجرة، وأفضل رواية لهذه الواقعة هي التي رويت عن ابن عباس رضي الله عنه في مسند ابن حنبل: فمرّوا بالغار فرأوا علي بابه نسج العنكبوت فقالوا لو دخل ههنا لم يكن نسج العنكبوت على بابه (جزء ١، ص٣٤٨)، لكن هذه الألفاظ لا تظهر أن هذه الواقعة غير عادية، لكن يمكن بناءاً عليها وضعها ضمن المؤيدات، إلا أن هذه الرواية هي الأخرى ليست قوية، وراويها هو مقسم والذي كان يقول عن نفسه أنه مولي ابن عباس، ويروي عنه شخص يدعي عثمان الجزري، ورغم أن عدداً من المحدثين قد

---

[1] ــ انظر لسان الميزان، ترجمة أبي مصعب المكي وعون بن عمرو ـــ وميزان الاعتدال ترجمة عون بن عمرو وعوين بن عمرو.

ونقوا مقسم، ونقل عنه الإمام البخاري رواية الحجامة، لكنه يقول عنه في كتاب الضعفاء أنه ضعيف، وقد ضعفه ابن سعد أيضاً، وكتب الساجي أن الناس تكلموا في رواياته، وكتب ابن حزم أنه ليس قوياً، وكذلك عثمان الجزري، واشتهر أحياناً باسم عثمان بن ساج، ورغم أن ابن حبان بتساهله الشديد أدخله في الثقاة إلا أن المحدث أبا حاتم يقول: يكتب حديثه، ولكن لا يتخذ منه حجة، وقد نقل العلامة الذهبي في الميزان والحافظ بن حجر في اللسان قول أبي حاتم فقط، وهو ما يظهر منه أن هذا هو الحكم الأخير للمحدثين علي هذا الرجل.

٣٠ــ جاء في الروايات أن النبي صلى الله عليه وسلم أثناء سفره هذا طلب اللبن من أحد رعاة الغنم في الطريق، فاعتذر الراعي لعدم وجود شاة حلوب لديه، لكن النبي صلى الله عليه وسلم استأذن منه ووضع يده الشريفة علي ضرع إحدى الشياه فخرج اللبن منها علي الفور، وشرب الجميع، ولما رأي الراعي هذا أسلم.

وفي رواية أن هذا الراعي كان سيدنا عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ولكننا أثبتنا في ثنايا الحديث عن المعجزات العامة أن حادثة سيدنا عبد الله بن مسعود لم تكن وقت الهجرة، وإنما كانت في وقت آخر، وحادثة عبد الله بن مسعود مذكورة علي لسانه وبروايات صحيحة في مسند الطيالسي ومسند الإمام أحمد، بينما ذكر " عبد " بدلاً من عبد الله بن مسعود في مسند أبي يعليّ ومستدرك الحاكم وعند الطبراني، وهو الذي حدثت معه هذه الواقعة، وراويها من الصحابة هو قيس بن نعمان السكوني، وقد قيل هذا بين يديه صلى الله عليه وسلم مرة واحدة برفقة أحد الوفود، وهذه هي الرواية الوحيدة التي رويت عنه، وقد روي البعض الآخر عنه رواية الهدية أيضاً، لكن من الواضح أنه لم يكن شريكاً في الواقعة، فممن سمعها إذاً ؟ لا نعرف، ولذا فإن هذه الرواية مرسلة ورغم أن أحد رواتها وهو عبيد الله بن إياد بن لقيط قد وثقه البعض، إلا أن البزار كتب عنه أنه ليس قوياً، ولكن الإمام الذهبي في تلخيص المستدرك (الجزء ٣ ــ ص٩) والحافظ بن حجر في الإصابة (ترجمة قيس بن نعمان السكوني) قد صححاه، ولكن ما أعجب أن تذكروا واقعة شاة الغلام الحلوب في روايات الصحيحين عن الهجرة، لكن لا أثر لهذه المعجزة فيها.

إن معجزة نزل اللبن من ضرع الشاة التي لا تحلب في ثنايا الهجرة حدثت عند خيمة أم معبد، يقولون أنه كانت هناك خيمة في مكان فسيح لأسرة من قبيلة خزاعة في الطريق بين مكة والمدينة، وكان يعيش في هذه الخيمة أم معبد وزوجها أبو معبد، وكانوا

يخدمون المسافرين، ويعيشون علي تربية الماعز، وفي الصباح أخذت أم معبد كل الشياة التي تحلب اللبن إلي المراعي، ولم يبق في الخيمة إلا الشياة الهزيلة التي لا تحلب لبناً، وفي تلك الأثناء مرّ سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وسيدنا أبو بكر رضي الله عنه، وسألهم رســول الله صلى الله عليه وسلم بعض الطعام والشراب بثمنه، ولكنه صلى الله عليه وسلم لم يجد لديهم شيئاً، فرأي صلى الله عليه وسلم شاة في أحد أركان الخيمة، فقال لأم معبد ما هذه الشاة يا أم معبد ؟ فقالت شاة خلفها الجهد عن الغنم، فقال صلى الله عليه وسلم هل بها من لبن ؟ قالت: هي أجهد من ذلك. يقول الراوي أن ذلك العام كان عام قحط، وقد أصاب الناس هذا القحط، فقال صلى الله عليه وسلم: أ تأذنين لي أن أحلبها ؟ قالت: نعم بأبي وأمي، إن رأيت بها حلبا فاحلبها، فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال بسم الله، ثم وضع يده الشريفة علي ضرعها فنزل اللبن منه علي الفور، وشرب الجميع اللبن وبقي منه، وواصلت القافلة النبوية سيرها، وبعد قليل جاء أبو معبد فرأي في البيت لبناً، فسأل متعجباً من أين جاء هذا اللبن ؟ لقد كانت الشياة معي، فقصت أم معبد عليه الأمر كله، فقال أبو معبد صفي لي ذلك الشخص، فأفاضت أم معبد في بيان حاله صلى الله عليه وسلم وحسنه وشكله وشمائله، فلما سمع أبو معبد هذا أقسم قائلاً: والله إنه الرجل الذي من قريش والذي سمعت عنه وأتمني أن تتيسر لي صحبته، وسوف أفعل عند تحين الفرصة، وفي نفس الوقت سُمعت بعض الأشعار من الغيب، وهذه الأشعار مذكورة في الرواية وفيها بيان لقصة أم معبد هذه، وحين سمع حسان بن ثابت رضي الله عنه هذا الهاتف ردّ عليه بأشعار أخرى، وهذه الأشعار مذكورة في الرواية أيضاً.

هذه الرواية مذكورة عند البغوي وابن شاهين وابن سكن وابن مندة والطبراني والبيهقي وأبي نعيم والحاكم علي لسان حبيش بن خالد أخي أم معبد، ولم يصححها الحاكم فقط، وإنما حاول إثباتها من طرق أخرى أيضاً، لكن تصحيح الحاكم لا وزن له في نظر العلماء، ولهذا صرح الإمام الذهبي في ثنايا نقده لهذه الرواية أنه ليس من بينها طريق بسند صحيح وطبقاً للشروط، هذا ما كتبه الحافظ الذهبي إجمالاً، لكن الحقيقة أن هذه الرواية مذكورة في كتب أخري بنفس سلسلة السند هذه وهي أن حزاماً نقل الرواية عن أبيه هشام، ونقل هشام عن أبيه حبيش بن خالد الخزاعي، وحزام مجهول، ولم يروي عن حبيش بن خالد في كتب الحديث سوى هذه الرواية فقط، ولم يكن حبيش موجوداً وقت حدوث الواقعة، ولا نعرف ممن سمع، ولذا فإن هذه الرواية وإن كانت ثابتة إلا أنها

مرسلة، وقد نقل الحاكم هذه الرواية من طريقين: واحدة عن حزام وهشام بن حبيش. والثانية عن حر بن الصباح، وهذا روي عن أبي معبد زوج أم معبد.

ففي الطريقة الأولي أجاد الحاكم حين قرر أن الراوي الأصلي لهذه الرواية هو هشام بن حبيش بن خويلد (وليس خالد) بدلاً من حبيش، ومن الواضح أن احتمال كون الرواية من هذا الطريق مرسلة قد زاد، وهناك شك في كون هشام صحابياً، أما الطريقة الثانية فبالرغم من أن حر بن صباح ثقة، لكن لم يثبت أنه سمع من أبي معبد، ولهذا يكتب ابن حجر في كتاب " التهذيب " أن حرّ يروي روايات مرسلة عن أبي معبد، هذا هو حال الرواة الأول في كل الروايات، أما الرواة الذي تلوهم فأكثرهم مجهول، وفي رواية حرّ يأتـــي راو متأخر هو محمد بن بشر السكري، والذي قال عنه الأزدي أنه منكر الحديث، وقال عنه ابن عديّ أنه واه ([1]). وقد رواها أبو نعيم في كتاب الدلائل عن صحابي آخر هو سليط أبو سليمان الأنصاري البدري، ويروي عن سليط ابنه سليمان وعن سليمان ابنه محمد بن سليمان بن سليط الأنصاري، لكن سليط هذا لا يرد ذكره باعتباره راو إلا في هذه الرواية عند بعض كتاب السير الصحابة، وإلا فإننا لا نعلم عنه شيئاً، أما سليط الأنصاري البدري المشهور فهو سليط بن قيس الأنصاري الخزرجي البدرى، وابنه هو عبد الله والذي لم يعقب، لكن هناك روايات عنه ذكرت عند النسائي، ولكن ليس هناك أية رواية غير هذه عن سليط أبو سليمان الأنصاري البدري، ولهذا فقد اعتبره بعض كتاب أسماء الرجال الصحابة هو وسليط بن قيس الأنصاري البدري شخصاً واحداً، فإن كان الأمر هكذا فعلاً فإن سليمان لم يكن اسم ابنه، ولم يكن محمد اسم حفيده، فإن كانا شخصين مختلفين فإن أسماء أصحاب بدر معدودة ومعروفة، وليس من بينها سليط آخر غير سليط بن قيس الخزرجي، وهذا كان من أهل المدينة، وكانت أم معبد من خزاعة والتي كانت تسكن بين مكة والمدينة، ولا نعرف ممن سمع سليط الأنصاري، ثم إننا لا نعرف شيئاً عن ابنه سليمان ولا عن حفيده محمد، ويكتب الحافظ بن حجر في لسان الميزان فيما يتعلق بمحمد بن سليمان بن سليط الأنصاري قائلاً: ــ

" قال العقيلي مجهول بالنقل، روي عن أبيه عن جده، فذكر قصة أم معبد وهو واه، وقال ليس هذا الطريق محفوظاً في حديث أم معبد، قال ابن منده مجهول. "

---

[1] ــ لسان الميزان ــ ترجمة محمد بن بشر بن أبان السكري.

وبالإضافة إلي ذلك فهناك غرابة في هذه الروايات وألفاظها، وأسلوب تخاطب أم معبد ورســول الله صلى الله عليه وسلم وحديث أبي معبد وكذلك الأشعار، وهكذا كله يفهمه جيداً نقاد الحديث، والعجيب أن الهاتف الغيبي يلقي علي الناس في مكة الأشعار فيرد عليه في المدينة حسان بن ثابت والذي لم يكن قد أسلم بعد، كما لم يثبت وقوع قحط حول مكة في عام الهجرة أو حتى حدوث جفاف.

وأنا أتردد في قبول روايات اللبن هذه في سياق الهجرة النبوية، لأن الرواية الصحيحة عن سيدنا أبي بكر رفيق هجرته صلى الله عليه وسلم والمتعلقة بأحداث الهجرة، والمذكورة في صحيح البخاري، ذكرت موضوع طلب اللبن من الراعي مرة واحدة، لكنها لم تذكر هذه المعجزة مطلقاً، وهكذا فإن هذه القصة وردت في البخاري هكذا علي لسان أبي بكر رضي الله عنه، وفجأة بدا لنا راع يسوق شياهه، فسألته: غلام من أنت ؟ فنكر واحد من قريش أعرفه. ثم سألته هل في شياهك لبن ؟ فقال: نعم. فقلت: نظف يدك وضرع شاتك ثم احلب لنا بعضاً منه، ففعل، ثم وضع اللبن في إناء وأضــاف إليه بعض المـــاء حتى يبرد، ثم قدمــه للنبي صلى الله عليه وسلم فشربه صلى الله عليه وسلم ([1])

---

[1] ـــ صحيح البخاري، كتاب مناقب أصحاب النبي ﷺ، باب مناقب المهاجرين. وهــذا نــص الحــديث: (٣٥٧٢) ــــ حدَّثنا عبدُ اللَّهِ بن رجاء حدَّثنا إسرائيلُ عن أبي إسحاقَ عنِ البَراء قال: «اشترى أبو بكرٍ رضيَ الله عنه من عازبٍ رحلاً بثلاثةَ عشرَ درهماً، فقال أبو بكرٍ لعازب: مُرِ البراءَ فلْيَحملْ إليَّ رَحلي، فقال عازبٌ: لا، حتَّى تُحدِّثَنا كيفَ صَنعتَ أنت ورسولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم حينَ خَرَجتُما من مكــةَ والمشركونَ يطلبونكم. قال: ارتحلْنا من مكةَ فأحيَيْنا ــ أو سَرَيْنا ــ لَيلَتنا ويومَنا حتَّى أظهَرْنا وقامَ قــائمُ الظهيرة، فرمَيتُ ببصري هل أرى مِن ظلٍّ فآوي إليه، فإذا صَخرةٌ أتيتُها، فنظرتُ بَقيةَ ظلٍّ لها فسوَّيتُه، ثمَّ فرَشت للنبيِّ صلى الله عليه وسلم فيه، ثمَّ قلتُ له: اضْطَجعْ يا نبيَّ الله، فاضطجَعَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم، ثمَّ انطلقت أنظرُ ما حَولي: هل أرى منَ الطلَبِ أحداً؟ فإذا أنا بِراعي غَــنَم يَســوقُ غنمَــهُ إلــى الصخرة، يريدُ منها الذي أردنا، فسألتهُ فقلتُ له: لمن أنت يا غلام؟ فقال لرجُلٍ من قُرَيشٍ سمَّاهُ فعرَفتُه، فقلت: هل في غَنَمكَ مِن لَبَن؟ قال: نعم. قلت: فهل أنت حالِب لنا؟ قال: نعم. فأمرتُهُ فاعتَقَلَ شــاةً مــن غَنَمِه، ثمَّ أمرتهُ أن يَنفُضَ ضَرْعها منَ الغُبار، ثمَّ أمرته أن يَنفُضَ كفَّيه فقال هكذا، ضربَ إحدَى كفَّيــه بالأخرى فحلَبَ لي كُثبةً مِن لبَن، وقد جَعلت لرسولِ الله صلى الله عليه وسلم إداوة على فمهــا خرقــةٌ، فصببْتُ على اللبن حتى بردَ أسفلهُ، فانطلقتُ بهِ إلى النبيِّ صلى الله عليه وسلم فوافقتُهُ قد استيقظ، فقلت: اشرَب يا رسولَ الله، فشربَ حتى رضيت. ثمَّ قلت: قد آنَ الرَّحيلُ يا رسولَ الله، قال: بلَــى. فارتحَلْنــا والقوم يَطلبوننا، فلم يُدرِكْنا أحدٌ منهم غيرُ سُراقة بنِ مالكٍ بن جُعْشُم على فَرَسٍ له، فقلتُ: هذا الطلَبُ قد

وبوصوليه بني ثقيفة بدأت حياة اجتماعية جديدة لدي المسلمين، وأصبح كثير من الصحابة حوله صلى الله عليه وسلم في كل وقت في خلوته وفي جلوته، ولهذا فإن كل صغيرة وكبيرة في حياته صلى الله عليه وسلم وكل حرف فيها أصبح أكثر وضوحاً من ذي قبل، ولهذا فإن معجزات تلك الفترة محفوظة بشكل أفضل في الأحاديث، بينما كشف المحدثون بشكل واضح عن الروايات المشكوك فيها والخاطئة والتي تتعلق بتلك الفترة([1])، ولهذا فإن الكتب التي تبحث عن فن " الموضوعات " نجد فيها تفصيلاً لها علي سبيل المثال: ــ

١ــ كل الروايات التي تحدثت عن معجزة للنبي صلى الله عليه وسلم في إحياء السيدة آمنة أو غيرها من الموتى كاذبة وموضوعة.

٢ــ كل المعجزات التي تتعلق بحديث الجمل والشاة والغزال والذئاب وغيرها من الحيوانات، أو نطقها للشهادتين غير ثابتة بروايات صحيحة. ([2])

٣ــ الروايات التي تتحدث عن نزول مائدة من السماء علي النبي صلى الله عليه وسلم أو نزول فكهة من الجنة عليه صلى الله عليه وسلم كلها موضوعة أو ضعيفة. ([3])

٤ــ الروايات التي تتحدث عن لقاء النبي صلى الله عليه وسلم بسيدنا الخضر أو سيدنا إلياس أو إرسال سلام إليه عارية من الصحة.

لَحِقَنا يا رسولَ الله. فقال: «لا تحزَنْ، إنَّ اللَّهَ معنا» {تُرِيحون} (النحل: ٦) بالعَشيّ،{تَسْرَحون} (النحل: ٦) بالغداة. (يوسف عامر)

[1] ــ جمع العلامة الزرقاني هذه الروايات مع نقد لها في المجلد الخامس من كتابه المواهب اللدنية.

[2] ــ بمعني أنه رغم ورودها في الروايات الضعيفة لكنها لا تصل إلي درجة الصحيحة، وأشهر هذه القصص هي التي تتعلق بحديث الذئب والتي ذكرت في دلائل البيهقي ومسند أحمد والحاكم والترمذي بطرق متعددة أقواها رواية سيدنا أبي سعيد الخدري، وقد صححها الحاكم وكذلك الذهبي علي شرط مسلم (المستدرك ــ جزء ٤ ــ ص ٤٦٧) لكن الإمام البخاري قال بأن سندها ليس قوياً (الزرقاني علي المواهب ــ ج٥ ــ ص ١٩٣).

[3] ــ مثل هذه الرواية موجودة في مسند أحمد (ج ٤ ــ ص ١٠٤، والدرامي ص ١٢) والنسائي والحاكم والبراز وأبي يعليّ والطبراني برواية سلمة بن نفيل السكوني، وقد صححها الحاكم، لكن الذهبي قال عنها إنها من غرائب الصحاح (مستدرك الحاكم ــ ج٢ ــ ص ٤٤٧، ٤٤٨)، والخصائص الكبرى للسيوطي (ج٢ ــ ص ٥٦ ــ حيدر آباد)

٥ــ اشتهر بين العوام أن الرسول صلى الله عليه وسلم لم يكن له ظل، ولكن هذا لم يثبت في أي رواية.

٦ــ يروي أن النبي صلى الله عليه وسلم عندما كان يعود من قضاء الحاجة فإن النجاسة كانت تختفي، وهذا موضوع كله.

٧ــ اشتهر بين الوعاظ أن الحصى نطق بالشهادتين بين يدي النبي صلى الله عليه وسلم بطلب من أبي جهل، ولم يثبت هذا.

٨ــ كل الحكايات التي اشتملت عليها كتب " رسالة الوفاة " و " رسالة الغزالة " في لغتنا كاذبة.

٩ــ يروي أن النبي صلى الله عليه وسلم وضع رأسه ذات مرة علي فخذ سيدنا علي رضي الله عنه، وكانت الشمس علي وشك الغروب، وكان وقت العصر علي وشك الانتهاء، لكن سيدنا علي رضي الله عنه لم يشأ أن يوقظه تأدباً، ولما غربت الشمس إستيقظ النبي صلى الله عليه وسلم فجأة وسأل: هل صليت ؟ فقال: كلا. فدعا رسول الله صلى الله عليه وسلم ربه فعادت الشمس ثانية. وهذه الرواية أيضاً لم تثبت من طريق صحيح. [1]

١٠ــ يروي أن وجه النبي صلى الله عليه وسلم كان مضيئاً بحيث يضيء المكان المظلم الذي يذهب إليه النبي صلى الله عليه وسلم، وقد سقطت الإبرة ذات مرة ليلاً من يد السيدة عائشة رضي الله عنها وبحثت عنها فلم تجدها، فجاء النبي صلى الله عليه وسلم، وظهرت الإبرة في ضوء وجهه صلى الله عليه وسلم وعثروا عليها، وهذا كله كذب وافتراء.

ومع أن بعض هذه الروايات أوردها مؤلفو وكتاب السيرة في كتبهم في الفضائل النبوية، لكن لا يثبت من ذلك صحتها، وإن ثبتت صحة إحداها سنداً فليس لهذا العبد الفقير المتواضع عذر في قبولها، وفوق كل ذي علم عليم.

---

[1] ــ حاول بعض علماء أهل السنة مثل القاضي عياض وأبو حفص الطحاوي وعامة علماء الشيعة أن يبعدوا الضعف عن هذه الرواية، إلا أن عامة الأئمة يميلون إلي كونها موضوعة أو علي الأقل ضعيفة، وقد عدّها ابن الجوزي في الموضوعات، ويقول الحافظ بن كثير لقد صرح أساتذتنا الحافظ المزي والإمام الذهبي بأنها موضوعة (البداية والنهاية ـــ ج٦ ـــ ص ٢٨٢).

وليس معني نقد هذه الروايات أن هناك ـــ معاذ الله ـــ كلام وشك في الفضائل النبوية، إنما الاعتقاد هو أن يكون كل ما ينسب إلي النبي صلى الله عليه وسلم صحيحاً([1])

[1] ـــ طبع كتاب البداية والنهاية للحافظ ابن كثير في مصر بعد تأليف هذا الكتاب بسنوات، وهـو كتـاب مفصل في السيرة وجمع المؤلف في الجزء السادس منه كل الروايات التي تتعلق بـالمعجزات النبويـة، وتحدث في شأنها أيضاً، كما جرح وعدل في إسنادها، وعلي السادة الباحثين الالتفات إلي هذا.

البشارات

" يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل " (الأعراف: ١٥٧)

هناك تصور لدي اليهود والنصارى مفاده أنه لا يُعترف بنبوة أي نبي إلا إذا بشر بمقدمه الأنبياء السابقون، وأن تتوفر فيه كل العلامات التي أخبر بها هؤلاء الأنبياء، ولأنهم كانوا يقيسون نبوة محمد صلى الله عليه وسلم علي هذا المقياس، ولأن كثير من اليهـود والنصارى كانوا يقتنعون به، لهذا فقد أعلن هؤلاء إسلامهم، أما الذين لم يستطيعوا إعلان إسلامهم لضعف فيهم فقد اعترفوا بصدق الإسلام وحقانيته، وأما الذين اسودت قلوبهم بغبار التعصب والعناد فإنهم لم يستطيعون الخروج من هذه الظلمات، ولم تتيسر لهم عين الخلود ولا ماء الحياة.

لقد أخبر سيدنا رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه أنه دعوة إبراهيم وبشارة عيسي. ([1]) وتفصيل هذا الإجمال أنه حين فرغ سيدنا إبراهيم وسيدنا إسماعيل من بناء الكعبة رفعا أيديهما بالدعاء إلي الله أن يبعث من نسلهما نبياً علي هذه الأرض: ــ

" وإذا ابتلي إبراهيم ربه بكلمات فأتمهن قال إني جاعلك للناس إماماً قال ومن ذريتي قال لا ينال عهدي الظالمين، وإذ جعلنا البيت مثابة للناس وأمناً واتخذوا من مقام إبراهيم مصلي وعهدنا إلي إبراهيم وإسماعيل أن طهرا بيتي للطائفين والعاكفين والركع السجود، وإذ قال إبراهيم رب اجعل هذا بلداً آمناً وارزق أهله من الثمرات من آمن منهم بالله واليوم الآخر قال ومن كفر فأمتعه قليلاً ثم اضطره إلي عذاب النار وبئس المصير، وإذ يرفع إبراهيم القواعد من البيت وإسماعيل ربنا تقبل منا إنك أنت السميع العليم، ربنا واجعلنا مسلمين لك ومن ذريتنا أمة مسلمة لك وأرنا مناسكنا وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم، ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم إنك أنت العزيز الحكيم ". (البقرة: ١٢٤ – ١٢٩)

---

[1] – سيكون الحديث في الصفحات التالية عن تلك البشارات التي جاءت الإشارة إليها في القرآن والحديث.

وقد جاء التصريح في هذه الآيات أن سيدنا إبراهيم عليه السلام وسيدنا إسماعيل عليه السلام قد دعيا الله سويا أن يبعث من نسلهما نبياً في هذا البلد، ولأن مكان البعثة كان مكة، وكان سيدنا إسماعيل شريكاً في الدعاء، لهذا فإنه ليس هناك شك في أن المقصود أن يكون هناك نبي من نسل إسماعيل عليه السلام، وأن تكون بعثته في مكة.

ونجد بعض الإشارات إلي هذا في آخر الباب السادس عشر وأول الباب السابع عشر من كتاب الميلاد في التوراة الحالية.

" فولدت هاجر لأبرام ولداً ودعا أبرام اسم ابنه الذي ولدته هاجر إسماعيل، وقد سمع الله الدعاء " (التكوين ١٦: ١٥)[1]

" ولما كان أبرام ابن تسعاً وتسعين سنة تجلي الله لأبرام وقال له أنا الله القادر. سر أمامى وكن كاملا. فأجعل عهدى بينى وبينك وأكثرك كثيرا جدا. فسقط أبرام علي وجهه. وتكلم الله معه قائلاً. أما أنا فهوذا عهدى معك ستكون أباً لجمهور من الشعوب، فلا يدعي اسمك بعد ذلك أبرام، بل يكون اسمك أبراهام. لأني أجعلك أباً لجمهور من الشعوب. وأثمرك كثيرا جدا وأجعلك أمما. ويخرج منك ملوك. وأقيم عهدى بينى وبينك وبين نسلك من بعدك فى أجيالهم عهدا أبديا. لأكون إلها لك ولنسلك من بعدك. وأعطى لك ولنسلك من بعدك أرض غربتك كل أرض كنعان ملكا أبديا. وأكون إلههم "
(التكوين ١٧: ١ – ٨)[2]

وهذا العهد من الله لسيدنا إبراهيم يكون بعد ولادة سيدنا إسماعيل وقبل ولادة سيدنا إسحاق، مما يفهم منه أن هذه البشارة كانت لإسماعيل وليست لإسحاق، ثم بشر الله

---

[1] – وهذا نصه باللغـــة العبريـــة: " ותלד הגר לאברם בן ויקרא אברם שם – בנו אשר – ילדה הגר ישמעאל "(أتقدم بالشكر الجزيل للأخت د. عبير الحديدي على تفضلها بتوثيق هذه الاستشهادات)يوسف

[2] – وهذا نصه باللغة العبريـــة: " ויהי אברם בן – תשעים שנה ותשע שנים וירא יהוה אר – אברם ויאמר אליו אני – אל שדי התהליך לפני והיה תמים. ואתנה בריתי ביני ובינך וארבה אותך במאד מאד. ויפל אברם על – פניו וידבר אתו אלהים לאמר. אני הנה בריתי אתך והיית לאב המון גוים. ולא – יקרא עוד את – שמך אברם והיה שמך אברהם כי אב – המון גוים נתתיך. והפרתי אותך במאד מאד ונתתיך לגוים ומלכים ממך יצאו. והקמתי את – בריתי ביני ובינך ובין זרעך אחריך לדרתם לברית עולם להיות לך לאלהים ולזרעך אחריך. ונתתי לך ולזרעך אחריך את-ארץ מגוריך את כל – ארץ כנען לאחוזת עולם והייתי להם לאלהים ".

بعد ذلك بإسحاق، وقد توهم سيدنا إبراهيم أنه ربما تعني هذه البشارة أن إسماعيل لن يظل حياً، وأن هذا العهد سيكتمل مع إسحاق، فدعا الله تعالي فوراً: ـــ

" يا ليت إسماعيل يعيش أمامك " (التكوين ١٧: ١٨) ([١])

فقال الله: ـــ

" وأما إسماعيل فقد سمعت لك فيه. هاأنا أباركه وأثمره وأكثره كثيرا جدا. اثنى عشرا رئيسا يلد وأجعله أمة كبيرة. " (التكوين ١٧: ٢٠)([٢])

وحدث أن غضبت السيدة هاجر بعد أن حملت السيدة سارة ورحلت إلي بئر سبع، فناداها الملاك أنني سوف أمدّ في أولادك حتى لا يحصـــون عدداً، وقال لها مـــلاك الله أنك ستلدين ولداً، وأخذت السيدة هاجر تبكي وتنتحب: ـــ

" فسمع الله صوت الغلام (إسماعيل). ونادي ملاك الله هاجر من السماء وقال لها يا هاجر. لا تخافى لأن الله قد سمع لصوت الغلام حيث هو، انهضي واحملي الغلام وشدى يدك به. لأنى سأجعله أمة عظيمة. وفتح الله عينيها فرأت بئر ماء (بئر زمزم). فذهبت وملأت القربة ماء وسقت الغلام. وكان الله مع الغلام فكبر. وسكن فى البرية (صحراء العرب) ([٣]). ...... وعاش في صحراء فاران ([٤]) "

(التكوين ٢١: ١٧ – ٢١)([٥])

والبشارات بميلاد إسماعيل وزيادة نسله وبركته، ومولد اثني عشر سبطاً من ذريته موجودة في التوراة الحالية، وهي تؤيد ما جاء في القرآن الكريم من الدعاء الإبراهيمي والعهد الإلهي، ولهذا جاء في الروايات أن سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم

---

[١] – وهذا نصه باللغة العبرية: " ויאמר אברהם אל – האלהים לו ישמעאל יחיה לפניך ".

[٢] – وهذا نصه باللغة العبرية: " ולישמעאל שמעתיך הנה ברכתי אותו והפריתי אותו והרביתי אותו במאד מאד שנים – עשר נשאים יוליד ונתתיו לגוי גדול ".

[٣] – المعني الحرفي لكلمة العرب هو الصحراء.

[٤] – وصفه القرآن الكريم بقوله " غير ذي زرع ".

[٥] – وهذا نصه باللغة العبرية: " וישמע אלהים את – קול הנער ויקרא מלאך אלהים אל – הגר מן – השמים ויאמר לה מה – לך הגר אל – תיראי כי – שמע אלהים אל – קול הנער באשר הוא – שם. קומי שאי את – הנער והחזיקי את – ידך בו כי – לגוי גדול אשימנו. ויפקח אלהים את – עיניה ותרא באר מים ותלך ותמלא את – החמת מים ותשק את – הנער. ויהי אלהים את – הנער ויגדל וישב במדבר ויהי רובה קשת. וישב במדבר פארן ".

أخبر أصحابه بأنه ﷺ دعوة إبراهيم، وكانت هذه هي أوصاف الرسول الذي دعا إبراهيم ربه أن يولد من نسله وذريته: ــ

" ربنا وابعث فيهم رسولاً منهم يتلو عليهم آياتك ويعلمهم الكتاب والحكمة ويزكيهم " (البقرة: ١٢٩)

وقد ذكر القرآن الكريم هذه الأوصاف لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في أماكن متعددة:

" هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آيته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " (الجمعة: ٢)

" لقد من الله علي المؤمنين إذ بعث فيهم رسولاً من أنفسهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة " (آل عمران: ١٦٤)

وتتضح البشارة التي جاء بها عيسي عليه السلام في أمر سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتصير أكثر وضوحاً: ــ

" وإذ قال عيسي ابن مريم يابني إسرائيل إني رسول الله إليكم مصدقاً لما بين يدي من التوراة ومبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد " (الصف: ٦)

وهكذا جاءت بشارة في إنجيل يوحنا، باب ١٤ تقول: ــ

" وقد رجوت أبي، وسوف يمنحك " الفارقليط " الثاني، وأنه سيبقي معك دائماً) (١٤: ١٦)

ثم يقول بعد ذلك ثانية: ــ

" لكن ذلك "الفارقليط " الذي هو روح القدس، والذي سوف يرسله الأب باسمي سوف يعلمكم كل شيء، وسوف يذكركم بكل ما قلته أنا " (١٤: ٢٦)

وجاء في الباب ١٥، ١٦ من هذا الإنجيل: ــ

" ولكن ذلك " الفارقليط " الذي سيرسله الأب من أجلكم، يعني روح الصدق التي تخرج من الأب، سيشهد لي "

وفي الباب ١٦، ١٧ من نفس الإنجيل يقول: ــ

" لكن أقول لكم الحق إن ذهابي فائدة لكم، لأني لو لم أذهب فلن يأتـي " الفارقليط " إليكم، أما إن ذهبت فسوف أرسله إليكم، وسوف يطهر العالم من الذنوب، ويأخذهم إلي الصدق، ولن يحاسبوا، أما فيما يتعلق بالذنب فذلك لأنهم لم يؤمنوا بي، وأما فيما يتعلق بالصدق فذلك لأني سأذهب إلي الأب وأنتم لن تروني ثانية، وأما فيما يتعلق بالحساب

فذلك لأن سيد العالم قد عُدّ آثماً، وعندي كلام كثير أقوله لكم، لكنكم لن تستطيعون تحمله، ولكن عندما يأتي روح الحق، سيخبركم بكل الحقيقة، لأنه لن يقول شيئاً من عنده، وإنما سيقول ما يوحي إليه، وسيخبركم بخبر المستقبل، وسيحترمني ويجلني، لأنه سيأخذ مني ويريكم "

لقد عبر سيدنا عيسي في آيات الإنجيل هذه عن ذلك النبي الذي بشر به مراراً بلفظ " فارقليط " وهذا اللفظ عربي أو سرياني، ومعناه بالضبط محمد وأحمد، وقد جاءت ترجمته في الترجمات اليونانية القديمة (بير يكليوطاس) وهي تعني " فارقليط " وترادف " أحمد "، ولكن عندما تبين أنه يصدق ويؤيد الإسلام بهذا الشكل تم إحداث تغيير بسيط فيه فأصبح " بير يكليطاس " بدلاً من " بير يكليوطاس " وهي تعني بشكل عام " المُطمئن " بفتح الطاء وسكون الميم، وهناك مناظرات مستمرة بين علماء المسلمين والمسيحيين حول هذا اللفظ منذ مئات السنين، وأثبت علماء المسلمين من كتابات علماء المسيحية القدامي أن اللفظ الصحيح هو " بير يكليوطاس ".

وأهم من كل هذا أن هذه العبارات خرجت من لسان سيدنا عيسي عليه السلام، وكانت لغته العبرية المختلطة بالسريانية، ولم تكن لغته اليونانية، ولهذا فإن اللفظ الذي خرج من لسانه لابد أن يكون عبرياً أو سريانياً،ولهذا فمن الواضح أنه قال لفظ " فارقليط " والتي ترادف " أحمد " أو " محمد " مثلما جاء في الآيات القرآنية سابقة الذكر. ([1])

لقد ثبت في الصفحات السابقة أن النبي صلى الله عليه وسلم لم يعرف شيئاً عن التعليم الإنساني للتوراة والإنجيل، ومع ذلك فإننا نعجب حين نري أن كل الصفات التي بينها سيدنا عيسي عليه السلام عن النبي القادم تنطبق كلها علي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم تماماً:

" لكن ذلك الفارقليط " " أحمد " الذي هو روح القدس، والذي سيرسله الأب " الله " باسمي سوف يعلمكم كل الأشياء، وسوف يذكركم بكل ما قلته لكم " (يوحنا ١٤، ٢٦)

" ذلك الفارقليط " أحمد " الذي يخرج من الأب " الله " عندما يأتي سيشهد لي " (يوحنا ١٤، ٢٦)

" ذلك الفارقليط سيأتي ويطهر الناس من الذنب، ويأخذهم إلي الصدق، ولن يحاسبوا، أما فيما يتعلق بالذنب فلأنهم لم يؤمنوا بي، وأما فيما يتعلق بالصدق فلأني

---

[1] - كتاب خطبات أحمدية ــ خطبة البشارات المحمدية ــ منقول عن السيد كادفري هيكنس.

سأذهب إلي الأب ولن تروني ثانية، وأما فيما يتعلق بالحساب فذلك لأن سيد العالم قد عُدّ آثماً، وعندي كلام كثير أقوله لكم، لكنكم لن تستطيعون تحمله، ولكن عندما يأتي روح الصدق سيخبركم بطريقة الصدق، ذلك لأنه لن يقول شيئاً من عنده، لكنه سيقول ما يسمعه، وسوف يجلني " (يوحنا ١٦ : ٨)

لقد وردت الصفات التالية للنبي في عبارات الإنجيل هذه: ــ

١ــ سوف ينسي الناس تعاليم المسيح الأصلية، ولهذا سيأتي هذا النبي صلى الله عليه وسلم لتذكيرهم بها.

٢ــ سوف يكمل كل ما لم يكمله المسيح، وسوف يقول الصدق، ويخبر بكل شيء.

٣ــ سوف يقيم عظمة المسيح في الدنيا، وسوف يشهد له، ومن لا يؤمن به سيكون آثماً.

٤ــ لن يقول شيئاً من عنده، وإنما سيقول ما يوحي إليه من الله.

ومن يستطع أن ينكر حقيقة أن الناس قد نسوا بالفعل تعاليم المسيح الأصلية، فحلّ التثليث محل التوحيد، وأضيفت عشرات العقائد الفاسدة إلي تعاليم سيدنا عيسي الصادقة، مثل ألوهية المسيح والتجسيد وغيرها، وكانت الذات المباركة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي فقط التي ذكرت بتعاليم سيدنا عيسي عليه السلام التي نسيت، وأخبرت بتعاليمه الأصلية، وقد شرح القرآن الكريم وبشكل واضح العقائد الفاسدة والتعاليم الخاطئة لدي النصرى ونصب علم التوحيد في العالم بدلاً من التثليث، وفند ألوهية سيدنا عيسي والسيدة مريم عليهما السلام، ووضح قضية حياة وموت سيدنا عيسي عليه السلام.

ثم قال السيد المسيح بعد ذلك أنه سوف يكمل كل ما لم أكمله أنا، وهذه الخصوصية لا تنطبق علي أحد غير خاتم النبيين صلى الله عليه وسلم، ويثبت من كلام المسيح هنا أمران: أولهما أن الدين الإلهي لم يكتمل حتى المسيح عليه السلام. والثاني أنه سيكتمل علي يد النبي القادم، وسوف يهدي إلي كل طرق الصدق، ويخبر بكل شيء، وهذه النبوءة اكتملت بذات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد اكتمل به الدين الإلهي، كما أخبر تفصيلاً وبطريقة واضحة عن العقائد والعبادات والأخلاق والأحكام وآثار القيامة والجنة والنار والثواب والعقاب وغيرها من الأمور بشكل لا نجد له مثيلاً في تعاليم أي نبي آخر، ولهذا لقب بخاتم النبيين، وقد أخبر سيدنا عيسي بالعلامة الثالثة لهذا النبي قائلاً: أنه سوف يقيم عظمتي في الدنيا، وسوف يشهد لي، وهذه العلامة لا تصدق علي أحد إلا

علي الذات المقدسة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، إذ هو أبرز عظمة سيدنا عيسي عليه السلام وشخصيته الأصلية في الدنيا، وكشف عن الاتهامات الخاطئة التي وجهت إليه من قبل الأصدقاء والأعداء، وشهد بنبوته ورسالته، وجعل التسليم بصدقه ركناً ضرورياً من أركان الإسلام، وأوضح بنوره الصورة الحقيقية لصفاته وأخلاقه، تلك الصورة التي شوهها اليهود عداءاً، والنصارى محبة، ورفض علي رؤوس الأشهاد البهتان الذي افتراه اليهود عليه وعلي أمه، وأزاح الستار الذي ألقاه النصارى علي ولادته وألوهيته وتعليماته من الأعمال والعقائد الشركية الرومية، وقد شرحت هذه الأمور كلها بكل وضوح في عشرات الآيات القرآنية، واليوم نجد عظمته الأصلية وإجلاله الحقيقي محفوراً في قلوب عشرات الملايين.

أما العلامة الرابعة التي أخبر بها المسيح عليه السلام فهي: أنه لن يقول شيئاً من عنده، وإنما سيقول ما يأتيه من أعلي، وهذا وصف خاص بالنبي صلى الله عليه وسلم، فقد قال القرآن: ــ

" وما ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحي " (النجم: ٣)

كان سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب كل ما يقوله النبي صلى الله عليه وسلم، فقال له الناس إن النبي صلى الله عليه وسلم قد يقول شيئاً وهو غاضب فلا تكتبه، فأخبر سيدنا عبد الله بن عمرو النبي صلى الله عليه وسلم بما قالوا، فأشار النبي صلى الله عليه وسلم إلي فمه الشريف وأخبر بأنه لا يخرج منه سوى الحق والصدق سواء في حالة الرضا أو في حالة عدم الرضا، وقد قال القرآن الكريم عن نفسه مرات عديدة أنه روح الصدق، أنه الحق، أنه تذكرة، أنه هداية، وأن نبي الله هو مصباح الهداية، هو مرشد العالم، هو المذكر، فمن بعد هذا التفصيل ينكر أن نبوءة سيدنا المسيح قد تحققت حرفاً حرفاً بظهور سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وأنه ليس هناك شخص تنطبق عليه تلك الأوصاف غير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وقد جاء في القرآن الكريم أن بشارة ظهور النبي صلى الله عليه وسلم ونبوءته مذكورة في التوراة والإنجيل، وأن اليهود والنصارى كلاهما يعرف بهذه البشارة والنبوءة: ــ

" الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل " (الأعراف: ١٥٧)

وقد جاءت في الإنجيل بشارتان أخريان عن النبي صلى الله عليه وسلم إضافة إلي بشارة الفارقليط السابقة، فقد جاء في إنجيل لوقا أن سيدنا المسيح قال قبل أن يرفع إلي السماء بقليل: ــ

" انظروا، إنني أرسل إليكم ذلك الموعود من أبي الله، ولكن عليكم أن تبقوا في يروشليم إلي أن تأتيكم القوة من العالم الأعلى " (لوقا ٤٢ ــ ٤٩)

وبعد عدة سطور ينتهي إنجيل لوقا، وليس هناك ذكر لظهور هذا الموعود، فمن كان ذلك الرسول الموعود ؟ وواضح أنه لم يظهر نبي بعد سيدنا عيسي عليه السلام سوى سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وهذه العبارة من الإنجيل تستحق التمعن، والتي يقول فيها المسيح: عليكم أن تبقوا في يروشليم إلي أن تظهر تلك القوة السماوية. وليس المقصود بذلك هو مجرد الإقامة في مدينة يروشليم حتى ظهور هذه القوة السماوية فقط، وإنما المقصود أن قبلتكم وكعبتكم ستظل هي بيت المقدس حتى ظهور هذا الرسول الموعود، ولكن عندما يأتي سوف يولي وجهه شطر مكة، ولهذا قال القرآن الكريم في مناسبة تحويل القبلة: ــ

" فول وجهك شطر المسجد الحرام، وحيث ما كنتم فولوا وجهك شطره، وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم " (البقرة: ١٤٤)

ويظهر من هذا التفصيل أن سيدنا عيسي عليه السلام قد ذكر بشارته صلى الله عليه وسلم بألفاظ واضحة، ولهذا جاء في الأحاديث أن الرسول صلى الله عليه وسلم أخبر ﷺ أصحابه بأنه ﷺ بشارة أخيه عيسي. والبشارة الثانية في الإنجيل ذكرت بخصوص ظهور سيدنا يحيي عليه السلام، إذ عندما يظهر سيدنا يحيي يسأله الناس أي الأنبياء الثلاثة القادمون أنت ؟

" وقد أرسل اليهود الكهنة من أورشليم أن اسألوه من أنت، ولقد اعترف ولم ينكر، اعترف قائلاً: إنني لست المسيح، عندئذٍ سألوه من أنت إذاً ؟ هل أنت إلياس ؟ فقال: أنا لست إلياس. فقالوا هل أنت ذلك "النبي" ؟ فأجــاب كلا.

ويثبت من هذه العبارة أن اليهود كانوا ينتظرون ثلاثة أنبياء طبقاً لنبوءة التوراة، اثنان من هؤلاء هما المسيح وإلياس، أما الثالث فهو " ذلك النبي "، ومن يكون ذلك النبي الثالث غير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والذين يعتقد اليهود والنصارى بأنه لن يأتي

بعد المسيح أي نبي يشتهر في العالم باسم " النبي " و "الرسول "، فالمسلمون يقولون عنه " سيدنا النبي "، واشتهر بين المسيحيين باسم " النبي ".

لقد كان أولئك الصحابة والتابعين الذي كانت لهم معرفة بالتوراة، وكان علماء اليهود الذين أسلموا يعرفون جيداً أن بشارة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في صحف الأنبياء السابقين، ورغم أن سيدنا عبد الله بن عمرو بن العاص كان صغيراً في حياة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إلا أنه كان مغرماً بقراءة الكتب، وكان يقرأ التوراة، وقد جاء في سورة الفتح في شأن النبي صلى الله عليه وسلم قوله تعالي: ـ

" إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً. لتؤمنوا بالله ورسوله وتعزروه وتوقروه وتسبحوه بكرة وأصيلاً" (الفتح: ٨ – ٩)

وذكرت أوصاف أكثر من هذه في سورة الأحزاب: ـ

" يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلي الله بإذنه وسراجاً منبراً " (الأحزاب: ٤٥)

قال سيدنا عبد الله بن عمرو أن كل الأوصاف التي جاءت في هذه الآية لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة بعينها في التوراة:

عن عبد الله بن عمرو أن هذه الآية التي في القرآن: " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً "، قال في التوراة " يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً وحرزاً للأميين، أنت عبدي، ورسولي، وسميتك المتوكل ليس بفظ ولا غيظ ولا صخاب بالأسواق، ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح،ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء بأن يقولوا: " لا إله إلا الله "، فيفتح بها أعيناً عمياً وآذناً صماً وقلوباً غلفاً. (البخاري تفسير سورة الفتح)([1]).

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الفتح: (٤٧١٩) ـــ حدثنا عبدُ الله بن مسلمة حدثنا عبدُ العزيز بن أبي سَلمة عن هلالِ بن أبي هلالِ عن عطاءِ بن يسارِ عن عبد اللهبن عمرو بن العاص رضي الله عنهما «أنَّ هذه الآيةَ التي في القرآن: {يا أيها النبيُّ إنا أرسلناك شاهداً ومُبشِّراً ونذيراً} قال في التَّوراة: يا أيها النبيُّ إنَّا أَرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وحِرْزاً للأميِّـينَ، أنت عبدي ورسولي، سَمَّيْتك المتوكِّلَ، ليس بفَظٍّ ولا غَليظ ولا سَخَّاب بالأسواق، ولا يدفع السَّيئةَ بالسَّيئة، ولكن يعفُو ويصفح، ولن يقبضَه الله حتى يقيمَ به المِلةَ العَوْجاءَ بأنْ يقولوا: لا إله إلا الله، فيفتَحَ بها أعْيناً عمْياً، وآذاناً صمّاً، وقلوباً غلفاً». (يوسف عامر).

وكان هناك عالم يهودي مشهور في زمن الصحابة اسمه كعب، وقد أسلم كعب هذا، وجاء في تفسير الطبري أن التابعي سيدنا عطا سأله: هل هناك آية بشارة لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم مذكورة في التوراة ؟ فقال: نعم، وقرأ بعدها ترجمة لتلك العبارة من التوراة، ولا تزال هذه البشارة موجودة حتى اليوم بتغيير بسيط في الألفاظ في كتاب أشعيا النبي من بين نسخ التوراة التي كانت موجودة في ذلك الوقت، والتي نستطيع بالنظر إليها معرفة أن سيدنا عبد الله بن عمرو قد ذكر هذه البشارة بالإجمال والاختصار وبألفاظه هو، وهذه هي بشارة النبي أشعيا: ــ

" انظروا، عبدي الذي أتولاه، رسولي الذي رضي عنه قلبي، لقد وضعت روحي عليه، وسوف يقيم العدل بين الأمم، لن يصرخ، ولن يرفع صوته، ولن يُسمع صوته في الأسواق، ولن يطفئ شمعاً مشتعلاً، وسيقيم العدل ليبقي، ولن يرحل حتى يقيم العدل علي الأرض، وتري البلاد البحرية طريق شريعته، والله الذي يخلق السماوات ويحفظها، والأرض وينشر ما يخرج منها، ويمنح النفس لمن يعيش عليها، ويمنح الروح لمن يمشي فوقها، يقول: أنا الله استدعيتك للصدق، أنا الذي سأمسك بيدك، وأنا الذي سأجعلك عهداً للناس ونوراً للأمم ([1])، لأنك تفتح الأعين العمياء، وتحرر المقيدين، وتخلص من الأسر أولئك الذين يجلسون في الظلام، أنا يهودا، هذا هو اسمي، ولن أعطي عظمتي لآخر، ولن أدع الحمد الذي استحقه يذهب إلي أوثان منحوتة، انظروا، فلقد تحققت النبوءات السابقة، وها أنا أقول كلاماً مختلفاً، وأقول لكم قبل أن يتحقق هذا غنّو لله أغنية جديدة، أنتم يا من تمرون علي البحر، وأنتم يا من تسكنونه، يا أهل البلاد البحرية احمدوا الله علي الأرض من البداية إلي النهاية، وسوف ترفع الصحراء وقراها، وقرى " قيدار " العامرة، وسوف يغني أهل " سلع " أغنية، وسوف يرددونها علي قمم الجبال، ويظهرون جلال الله، وسوف يثنون عليه في الممالك البحرية، وسوف يدعو للحرب، وسوف يتغلب علي أعدائه، إنني صامت منذ فترة طويلة، ظللت صامتاً، وظللت أمنعك، ولكني الآن مثل تلك المرأة التي فاجأها المخاض، سأخرج، وألهث، وسأتنفس الصعداء بقوة، سأخرب الجبال والتلال، وسأجعل مراعيها يابسة، وسأجعل جداولها أرضاً يمكن أن تسكن، وسأجفف قنواتها، سآخذ العمي الذين لا يعرفون هذا الطريق إليه، سآخذهم إلي الطرق التي لا يعرفونها، سأحيل

---

[1] – كانت ترجمة هذه العبارة غير صحيحة في النسخة الأردية التي عندي، وقد صححتها من النسخة العربية المطبوعة في مطابع جامعة اكسفورد عام ١٨٩٠م.

الظلام أمامهم إلي نور، وسأسوى أمامهم مرتفعات الأرض ومنخفضاتها، سأعاملهم هكذا ولن أتخلي عنهم، وسوف يتراجع ويندم أولئك الذين يعتمدون علي أوثان منحوتة، ويقولون لهذه الأصنام أنت آلهتنا، اسمعوا أيها الصم، وانظروا أيها العمي حتى ترون من هو أعمي، لكن عبدي ؟ من هو الأعمى مثل خادم الله ؟ لقد رأيت أشياء كثيرة، لكنك لم تدقق فيها، وأنت لا تسمـــع وإن كانت الآذان مفتوحة، فليرض الله بسبب صدقه، وهو سيُجلّ الشريعة، ويمنحها العزة والكرامة " (باب ٤٢)

هذا والألفاظ التي وردت في البشارة التي قدمها سيدنا عبد الله بن عمرو وسيدنا كعب موجودة بعينها في البشارة السابقة، وأول لفظ في هذه البشارة هو " شاهد "، يعني شاهد بين أميين من قبل الله تعالي، وجاء في بشارة أشعيا أنه سيقيم العدل (سيعقد محاكمة) بين الأمم، وسيكون هو شاهداً في هذه المحاكمة، ثم بعد ذلك جاءت صفة " المبشر "، يعني أنه سيبشر الصالحين بحكم الله، وقد وردت هذه الأوصاف كلها في هذا الباب كله لدي أشيعاً، ثم بعد ذلك جاءت صفة " حرز الأميين "، والأمي هو ذلك الذي لم تصله الشريعة حتى وقته، ولهذا جاء في أشيعا أنني سآخذ أولئك العمي بوسيلة هذا الرسول إلي ذلك الطريق الذي لا يعرفوه، سآخذهم إلي ذلك الطريق (الشريعة) الذي لا يعرفوه، ثم بعد ذلك تأتي جملة " أنت عبدي ورسولي "، وهكذا جاء في بداية أشيعا: انظروا عبدي، في النهاية جاء " عبدي رسولي الذي سأرسله. وبعدها " سميتك بالمتوكل "، وفي أشيعا " عبدي الذي سأتولاه أنا الذي سآخذ بيدك، سأحفظك. وبعدها " ليس بفظ ولا غيظ ولا يدفع السيئة بالسيئة، ولكن يعفو ويصفح "، يعني أنه لن يظلم الضعفاء، ولن يقابل السيئة بمثلها، وإنما سيعفو عنها، وقد جاء في أشيعا علي سبيل الاستعارة أنه. .... ولن يطفئ الشمعة الخافتة، وسوف يعقد المحاكمة. وبعدها " ولا صخاب بالأسواق "، أي أنه جاد ووقور، وقال أشيعاً إنه لن يصرخ ولن يرفع صوته في الأسواق. وبعدها " ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملة العوجاء " وجاء في أشيعا أنه لن يزول حتى يقيم الصدق علي الأرض. وبعدها " فيقولوا " لا إله إلا الله "، ويقول أشيعا " أنا الله " يهوداً " لن أعطي عظمتي للمعبودين بالباطل، والحمد الذي ينبغي لي لن أدعه يذهب إلي تلك الأصنام المنحوتة، سيتخلفون ويندمون غاية الندم أولئك الذين يتوكلون علي الأوثان المنحوتة، ويقولون للأصنام المصنوعة أنت آلهتنا، وبعدها " فيفتح به أعيناً عمياً، وآذاناً صماً، وقلوباً غلفاً " ويقول أشيعا سوف أمنحك لعهد الناس وإنارة وهداية الأمم، فتفتح الأعين المغلقة،

وتخرجهم من القيود، وتخلص أولئك المحبوسين في الظلام. .... اسمعوا أيها الصم، وانظروا أيها العمي.

وبشارة سيدنا أشيعا هذه تنطبق تماماً علي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والنبوءة التي قدمها سيدنا أشيعا لنبي في هذه الفقرات ليس هو سيدنا عيسي بالتأكيد، إذ أن المسيحيين لا يعترفون به أصلاً عبداً ورسولاً، ولا هو جاء في الدنيا كرجل محارب، ولم يقم التوحيد في الدنيا، ولم يستأصل الوثنية منها،وبالإضافة إلي ذلك فإن هناك إشارة في هذه النبوءة إلي أن النبي القادم سيكون " قيداراً "، وسيولد في قري " قيدار " من نسل إسماعيل عليه السلام، وكانت قريش هي القبيلة المشهورة لقيدار بن إسماعيل، وريف " قيدار " هو مكة، وقد ذكر جزء من هذه البشارة في باب ٤١ قبل أن تذكر في باب ٤٢.

" من الذي أخرج هذا الصادق من ناحية الشرق، وناداه حتى قدميه، وجعل الأمم أمامه، وسلطه علي الملوك، ومن الذي سلم هؤلاء " الكافرين " كالتراب إلي سيفه، وكالتبن المتطاير إلي سيفه "

وفي هذا الدرس تصريح أن ذلك الصادق سيبعث من الشرق، ويطلق الشرق عموماً في أسلوب التـــوراة علي العرب ([1])، ويثبت من هذا أن العبد والرسول الصادق سيبعث في أرض العرب.

وأول وصف لهذا النبي القادم في هذه البشارة هو أنه " أُرسل وأُختبر "، وهو ترجمة للقب سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم (المصطفي)، والوصف الثاني هو " الأمين " وهو اللقب الذي أطلقه أهل مكة علي النبي صلى الله عليه وسلم قبل البعثة، والآن تمعن في كل لفظ من ألفاظ بشارة " أشيعا" فستجد تطابقاً عجيباً بينها وبين صفات وأحوال النبي صلى الله عليه وسلم.

وأول شيء هو أن هذا النبي ذكر بأنه عبد ورسول، وهذا هو الوصف الذي اختصت به ذات سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، ولم يشتهر نبي آخر غير سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف الخاص، إنه نبي الإسلام الذي تمثل له الرسالة وكونه عبداً قمة الفخر، فقد أعلن اسمه في الدنيا بألفاظ " عبده ورسوله " ولا تكتمل صلاة أي مسلم قبل أن يقول بلسانه في التشهد بأنه يشهد أن محمداً عبده ورسوله. ومن الجدير بالذكر في هذا الخصوص أنه مثلما شرف الأنبياء السابقون بألقاب مثل خليل الله، وكليـــم

---

[1] – لقد عرضت بالتفصيل من خلال التوراة لجغرافية العرب في كتابي " أرض القرآن "، الجزء الأول

الله وروح الله وغيرها فإن أعظم لقب لسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هو " عبد الله "، وقد نودي رسول الله صلى الله عليه وسلم في رحلة المعراج التي تعد المحطة الأخيرة للقرب الإلهي وأعظم شرف للمقام الإنساني بهذا اللقب الخاص: " سبحان الذي أسري بعبده " (الإسراء: ١)

وبالإضافة إلي ذلك فهناك روايات كثيرة تحدثت عنه صلى الله عليه وسلم بهذا اللقب: ــ

" وإن كنتم في ريب مما أنزلنا علي عبدنا " (البقرة: ٢٣)

" تبارك الذي أنزل الفرقان علي عبده " (الفرقان: ١)

" وإنه لما قام عبد الله يدعوه " (الجن: ١٩)

وذات مرة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يتناول طعامه مرتكزاً علي فخذيه، وأخبر عن سبب ذلك بأنه ﷺ عبد الله، ويتناول طعامه مثلما يتناول العبد طعامه.

والوصف الثاني لرسول الله صلى الله عليه وسلم هو أنه " رسول "، ورغم أن آلاف الرسل قد جاءوا إلي هذه الدنيا لكنهم لم يشتهروا بلفظ " رسول "، واختص به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقط، ويذكره جميع المسلمين باسم رسول الله صلى الله عليه وسلم، حتى أن المسيحيين أنفسهم يذكرونه بسم " the prophet: الرسول"، وقد صرح القرآن بهذا قائلاً: ــ

" محمد رسول الله " (الفتح: ٢٩)

" يستغفر لكم رسول الله " (المنافقون: ٥)

" لقد جاءكم رسول من أنفسكم " (التوبة: ١٢٨)

" أن فيكم رسول الله " (الحجرات: ٧)

" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " (الأحزاب: ٢١)

" يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك " (المائدة: ٦٧)

وقد استخدم هذا اللفظ للنبي صلى الله عليه وسلم عشرات المرات في القرآن الكريم بالإضافة إلي ما سبق ذكره،حتى أن البشارة التي جاءت علي لسان عيسي عليه السلام جاءت بلفظ " رسول ": ــ

" مبشراً برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد " (الصف: ٦)

وقد ذكر سيدنا أشيعا الوصف الثالث لهذا النبي القادم بـ " المختار ". ومن هنا كان يعرف بأن الرسول صلى الله عليه وسلم اشتهر بشكل عام بلقب " المختار ". وجاء في الحديث الصحيح: ــ

" إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل، واصطفى قريشاً من كنانة، واصطفى بني هاشم من قريش، واصطفاني من بني هاشم " ([1])

أما الصفة الرابعة فكانت بأن " قلبي راض عنه " وهذه خاصة بسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم فقط، وعلامة لكل أمة محمد بشفاعته صلى الله عليه وسلم: ــ

" محمد رسول الله والذين معه يتبعون فضلاً من الله ورضواناً " (الفتح: ٢٩)

" رضي الله عنهم ورضوا عنه " (البينة: ٨)

" لقد رضي الله عن المؤمنين " (الفتح: ١٨)

وهذا الوصف خاص بأمة محمد صلى الله عليه وسلم من بين أمم الأنبياء جميعاً، ويخاطب متبعه دائماً بلفظ " رضي الله عنه ". وبعد ذلك يصف أشيعا هذا النبي بأن الله يقول له: لقد وضعت روحي عليه وقد وصف القرآن الكريم النبي صلى الله عليه وسلم بهذا الوصف أيضاً: ــ

" وكذلك أوحينا إليك روحاً من أمرنا " (الشورى: ٥٢)

" نزل به الروح الأمين " (الشعراء: ١٩٣) " قل نزله روح القدس " (النحل: ١٠٢)

أما الوصف الخامس فهو أنه " لا يصرخ ولا يرفع صوته، ولا يُسمع صوته في الأسواق " وقد قدم لنا الصحابة الكرام رضي الله عنهم صورة دقيقة للنبي صلى الله عليه وسلم، وروي عن عديد من الصحابة أن الرســول صلى الله عليه وسلم لم يكن يرفع صوته بالضحك أبداً وإنما كان يبتسم فقط ([2])، وجاء في شمائل الترمذي عن السيدة هند رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يصمت كثيراً، ولم يكن يتكلم إلا بضرورة، وكان كلامه واضحاً ونطقه مفصلاً، ويضحك قليلاً، فإذا ضحك ابتسم.

وقد سأل رجل السيدة عائشة رضي الله عنها عن أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم فقالت لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم فاحشاً في القول ولا صخاب، واستفسر

---

[1] – جامع الترمذي، فضل النبي صلى الله عليه وسلم.

[2] – جامع الترمذي، باب ما جاء في صفة النبي صلى الله عليه وسلم.

سبط الحسين من سيدنا عليّ رضي الله عنهما عن اوصاف النبي صلى الله عليه وسلم فقال: كان غير صخاب. ([1])

وجاء بعد ذلك في سفر أشعيا أنه لن يطفئ شمعة مضيئة، ولن يظلم المساكين ولا الفقراء ولا الضعفاء، وسيكون طيب القلب حسن الطباع، وقد أخبر القرآن الكريم عن وصفه هذا بوضوح قائلاً:

" إنك لعلي خلق عظيم " (القلم: ٤)

" فبما رحمة من الله لنت لهم، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك " (آل عمران: ١٥٩)

"لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه من عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رؤوف رحيم" (التوبة: ١٢٨)

تقول السيدة عائشة رضي الله عنها أن النبي صلى الله عليه وسلم لم ينتقم لذاته أبداً، ولم يكن يقابل السيئة بالسيئة، وإنما كان يعفو ويصفح، ولم يضرب أحداً أبداً بيده. يقول سيدنا عليّ رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم كان بشوشاً حسن الطباع رحيماً، ولم يكن حـاد المزاج ضيق الصدر. ويقول هند بن أبي هالة رضي الله عنه، والذي تربي في حجره صلى الله عليه وسلم أنه صلى الله عليه وسلم كان حسن الطبـاع، ولم يكن حـاد المزاج، ولم يكن يغضب لنفسه أبداً، ولم ينتقم من أحد. ([2])

ويقول سيدنا أنس رضي الله عنه الخادم لرسول الله صلى الله عليه وسلم لقد خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم لعشر سنوات، لكنه لم يقسوا عليّ في أي أمر أبداً ([3]). ويقول مالك بن حويرث رضي الله عنه، والذي عاش في صحبته صلى الله عليه وسلم لثلاثين يوماً أنه صلى الله عليه وسلم كان رحيم المزاج رقيق القلب. ([4])

---

[1] - هاتان الروايتان مذكورتان في شمائل الترمذي ـ باب خلق النبي صلى الله عليه وسلم، اما روايـة عائشة رضي الله عنها فجاءت في مسند أبي داود الطيالسي، ص ٢١٤، وكذلك في مستدرك الحاكم.

[2] - هذه الروايات كلها جاءت في شمائل الترمذي.

[3] - صحيح مسلم، وأبو داؤود، كتاب الأدب. وهذا نص الحديث كما ورد فى أبي داود: (٤٧٧٠) ـــ حدثنا عَبْدُ الله بنُ مَسْلَمَةَ أخبرنا سُلَيْمانُ ـ يَعني ابنَ المُغيرَة ـ عن ثَابت عن أَنَس، قالَ: « خدَمْتُ النَّبيَّ صلى الله عليه وسلم عَشْرَ سِنِينَ بالمَدِينَة وَأَنَا غُلاَمٌ لَيْسَ كُلُّ أَمْرِي كَمَا يَشْتَهِي صَاحِبِي أَنْ أَكُونَ عَلَيْهِ مَا قَالَ لِي فِيهَا أُفّ قَطُّ، وَمَا قَالَ لِي لِمَ فَعَلْتَ هذَا، أَمْ أَلا فَعَلْتَ هذَا». (يوسف عامر).

[4] - صحيح البخاري، رحمة للناس.

ويقول سيدنا أشيعا بعد ذلك أنه سيعقد المحاكمة (سيقيم العدالة الدائمة)، وهكذا سيكون رسول الله صلى الله عليه وسلم نبي آخر الزمان، ولن يكون نبي بعده، ولن تنسخ شريعته، وسيأتي صلى الله عليه وسلم بالدين الخاتم والذي سيبقي حتى يوم القيامة. ثم يقول: ولن يزول حتى يقيم الحق علي الأرض، بمعني أنه لن يموت حتى يقيم شريعته وتعاليمه، ومن الواضح أن هذا الوصف ينطبق علي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، والذي لم يرحل عن الدنيا حتى اكتملت شريعته وتعاليمه، وصارت قوية، وهكذا عندما تحقق هذا أذن له صلى الله عليه وسلم بالرحيل عن هذه الدنيا الفانية. وقد جاءت نبوءة سيدنا أشعيا هذه مطابقة لإحدى سور القرآن الكريم: ـــ

" إذا جاء نصر الله والفتح. ورأيت الناس يدخلون في دين الله أفواجاً. فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً " (النصر: ١ – ٣)

وحين نزلت هذه السورة جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صحابته الكرام جميعاً، وقال لهم: "إنَّ الله خَيَّر عبداً بين الدُّنيا وبينَ ماعنده، فاختار ذلك العبدُ ماعندَ الله".([1]) ولما سمع سيدنا أبو بكر رضي الله عنه هذا بكي، إذ عرف من هو هذا العبد. وقد استفسر سيدنا عمر رضي الله عنه من ابن عباس رضي الله عنه عن معني هذه السورة علي سبيل الامتحان، فأجاب أن فيها إشارة إلي وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وقد أكد سيدنا عمر رضي الله عنه قوله هذا. ([2])

ويقول أشعيا بعد ذلك أن جميع البلاد البحرية ستنتظر شريعته، لقد كان هو الإسلام الذي انتشرت شريعته من نهر سيحون وجيجون وعابرة دجلة والفرات إلي بحر الروم، ومن بحر الهند إلي بحر الظلمات، وأضاءت كبرى الجزر بنوره. ثم يزف أشعيا

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح البخاري، كتاب فضائل أصحاب البنبي ﷺ، باب سدوا الأبواب إلا باب أبي بكر: (٣٥٧٤) ـــ حدَّثنا عبدُ اللهِ بن محمدٍ حدَّثنا أبو عامر حدَّثنا فُلَيحٌ قال: حدَّثني سالم أبو النَّضْر عن بُسْرِ بن سعيد عن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: «خَطبَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم الناسَ وقال: إنَّ الله خَيَّر عبداً بين الدُّنيا وبينَ ماعنده، فاختار ذلك العبدُ ماعندَ الله. قال فبكى أبو بكر، فعَجِبنا لبُكائهِ أنْ يُخبرَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم عن عبدٍ خُيِّر، فكان رسولُ الله صلى الله عليه وسلم هو المخيَّر، وكان أبو بكرٍ أعلَمنا. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: إنَّ أمَنَّ الناس عليَّ في صحبته ومالهِ أبو بكر، ولو كنتُ مُتَّخِذاً خَليلاً غير ربي لاتخذتُ أبا بكر، ولكنْ أُخُوَّةُ الإسلام ومودَّته، لا يَبقَيَنَّ في المسجدِ بابٌ إلا سُدَّ، إلا بابَ أبي بكر». (يوسف عامر).

[2] – صحيح البخاري، تفسير سورة النصر.

وعـــد الله بأنني سأمسك بيدك، سأحفظك. وهذا الوعد أيضاً تحقق مع سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، فقد دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم إلي التوحيد بنفسه ودون مساعدة من أحد، وظل ينشر الدين في وقت كانت كل ذرة من ذرات بلاد العرب متعطشة إلي دمائه، ولم يكن له صلى الله عليه وسلم من معين سوى الله تعالي، وهو الذي حفظه صلى الله عليه وسلم من حصار الأعداء، وأنقــذه من كل المكائد التي كانت تدبر ضده، وقد جاء ذكر وعد سفر أشعيا هذا في القرآن الكريم ثانية، فنزلت هذه الآية في وقت اشتد فيه غيظ عداء الأعداء في مكة: ــ

" وإذ قلنا لك إن ربك أحاط بالناس " (الإسراء: ٦٠)

" واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا " (الطور: ٤٨)

ثم تكرر الوعد نفسه في المدينة المنورة: ــ

" والله يعصمك من الناس " (المائدة: ٦٧)

وكان الصحابة الكرام يحيطون بالنبي صلى الله عليه وسلم ويقومون بدوريات حوله صلى الله عليه وسلم فداءً له، وحين نزلت هذه الآية أطل الرسول صلى الله عليه وسلم برأسه الشريفة من خيمته وأمرهم بالرجوع إذ أن الله تعالى نفسه قد تعهد بحمايته ﷺ، ولا يمكن أن ينطبق هذا الوصف علي سيدنا عيسي عليه السلام والذي اعتقله الروميون طبقاً لما يقوله المسيحيون، وعلقوه وصلبوه علي المشنقة.

ثم يأتي بعد ذلك في بشارات أشعيا أنني سأجعلك عهداً للناس ونوراً للأمم، فتفتح أعيناً عمياً، وتخلص الأسري من القيد، وتحرر أولئك الذين يجلسون في الظلام من القيود، والتاريخ شاهد على أن هذا الجزء من البشارة قد تحقق بوجود نبي الإسلام صلى الله عليه وسلم، وقد أكمل القرآن الكريم هذا الجزء من البشارة بقوله: ــ

" الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم فالذين آمنوا به وعزّروه ونصروه واتبعوا النور الذي أنزل معه أولئك هم المفلحون. قل يا أيها الناس إني رسول الله إليكم جميعاً " (الأعراف: ١٥٧ – ١٥٨)

" يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً وداعياً إلي الله بإذنه وسراجاً منيراً " (الأحزاب: ٤٥)

- " يا أيها الناس قد جاءكم برهان من ربكم وأنزلنا إليكم نوراً مبيناً" (النساء: ١٧٤)
" والنور الذي أنزلنا " (التغابن: ٨)
" وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين " (الأنبياء: ١٠٧)
" كتاب أنزلناه إليك لتخرج الناس من الظلمات إلي النور " (إبراهيم: ١) " ولكن جعلناه نوراً نهدي به من نشاء من عبادنا وإنك لتهدي إلي صراط مستقيم" (الشورى: ٥٢)

ثم يأتي بعد ذلك في هذه البشارة أن النبي القادم سيكون داعياً إلي التوحيد الكامل ومحطماً للأصنام، وعدواً لعبادة الباطل، وسوف يهزم الكفار الوثنيين والمشركين هزيمة منكرة:

" يهوداً (الله) هو اسمي، ولن أعطي عظمتي لآخر (آلهة الباطل)، لن أدع الحمد الذي ينبغي لي يذهب إلي الأصنام المنحوتة المنقوشة. ... سيتخلفون ويندمون غاية الندم أولئك الذين يتوكلون علي الأصنام المنقوشة، ويقولون للآلهة المصنوعة " أنت آلهتنا ".

ومن ذلك النبي الذي جاء بعد سيدنا أشعيا والذي أكمل تعاليم التوحيد وأوضحها بالإسلام، والذي قضي علي عبادة الأوثان، والذي هدم معابد الأصنام، والذي شتت صفوف الأعداء، وأنزل راية الشرك إلي الأبد، وجزء كبير من القرآن الكريم وتعاليمه صلى الله عليه وسلم بمثابة الجهاد العظيم ضد الشرك وعبادة الأوثان، والدنيا كلها تعترف أن أحداً لم يستطع أن يقوم بهذا الفرض علي خير وجه مثلما قام به سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وبعد ذلك يتول سيدنا أشعيا أن النبي القادم رسول مجاهد ومحارب، وسوف يرفع سيفه لمحاربة عباد الباطل.

" سيخرج الله كرجل شجاع، وسوف يثير حميته كرجل محارب، وسوف يصرخ، ويدعو إلي الحرب، وسوف يتغلب علي أعدائه "

وهذه لا يمكن أن تكون صفة سيدنا عيسي عليه السلام، إنها فقط عظمة النبي قائد بدر وأحد وحنين والخندق.

" وسوف يرفع صوته في الصحراء (العرب) وقراها والقري العامرة في " قيدار "
وقد جاء في هذه الفقرة أن وطن هذا النبي القادم هو (صحراء العرب) وأن قبيلته هي قبيلة (قيدار بن إسماعيل)

" وسوف آخذ العمي من ذلك الطريق الذي لا يعرفونه، وسوف آخذهم إلي تلك الطرق التي لا يعرفونها "

جاء في هذه العبارة أنه سيكون نبي الأميين، وداعية تلك الأمة التي لم تهتد أبداً إلي طريق الحق، وهذه الصفة تنطبق علي أهل العرب والذين لم يبعث فيهم نبي صاحب شريعة قبل رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بعث سيدنا عيسي عليه السلام في بني إسرائيل والذين جاءتهم الشريعة من قبل، ولهذا لا يمكن أن تكون هذه صفته، وإنما هي صفة نبي العرب فقط، ولهذا قال القرآن الكريم بوضوح: ـ

" لتنذر قوماً ما آتاهم من نذير من قبلك " (القصص: ٤٦)

"إنك لمن المرسلين علي صراط مستقيم لتنذر قوماً ما أنذر آباءهم فهم غافلون" (يس: ٣)

" هو الذي بعث في الأميين رسولاً منهم يتلو عليهم آياته ويزكيهم ويعلمهم الكتاب والحكمة وإن كانوا من قبل لفي ضلال مبين " (الجمعة: ٢)

" وهذا كتاب أنزلناه مبارك فاتبعوه واتقوا لعلكم ترحمون. أن تقولوا إنما أنزل الكتاب علي طائفتين من قبلنا وإن كنا عن دراستهم لغافلين. أو تقولوا لو أنا أنزل علينا الكتاب لكنا أهدي منهم فقد جاءكم بينة من ربكم وهدي ورحمة " (الأنعام: ١٥٥ – ١٥٧)

" وما آتيناهم من كتب يدرسونها وما أرسلنا إليهم قبلك من نذير " (سبأ: ٤٤)

إن من ينظر تفصيلاً إلي كل عبارات هذه البشارة، ويطابقها عبارة عبارة مع القرآن الكريم والأحاديث الشريفة والسيرة النبوية الشريفة، ويتمعن فيها يجد نفسه مضطراً إلي اليقين بأن هذه البشارة لا يمكن أن تنطبق إلا علي سيدنا محمد بن عبد الله صلى الله عليه وسلم: ـ

"هو الذي ينزل علي عبده آيات بينات ليخرجكم من الظلمات إلي النور"(الحديد:٩)

وقد جاءت في سورة الفتح التي بشر فيها النبي صلى الله عليه وسلم بفتح مكة إشارة إلي نبوءة أخرى من نبوءات التوراة والإنجيل: ـ

" محمد رسول الله والذين معه أشداء علي الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود ذلك مثلهم في التوراة" (الفتح: ٢٩)

وقد وضحت صفات النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام هذه وبشكل كامل يوم فتح مكة، والذي يعدّ يوم الهزيمة الكاسحة الكلية للشرك والتحرر الكامل لبيت الخليل

ومنتهي التوحيد الإلهي وتكميل دعوة الإسلام، وهو اليوم الذي لن يأتي بعده في الدنيا صاحب رسالة جديدة، وقد قال سيدنا موسى عليه السلام لبني إسرائيل في وصيته الأخيرة في حياته والتي تنتهي بها صحيفة التوراة وصحيفة حياته أيضاً: ــ

" هذه هي البركة التي منحها موسى رجل الله لبني إسرائيل قبل موته، فقال بأن الإله جاء من سيناء، وأشرق لهم من سعير، وتلألأ من جبل فاران، وجاء من ربوات القدس وعن يمينه نار شريعة لهم. فأحب الشعب. جميع قديسيه في يدك وهم جالسون عند قدمك يتقبلون من أقوالك " (التثنية: ٣٣: ١ – ٣) ([1])

هذا هو آخر ما قاله سيدنا موسى عليه السلام حيث تحدث عن بعثة آخر الأنبياء، إذ بشر في هذه البشارة بطلوع النور الإلهي من فاران، وقد وردت في هذه البشارة أربعة أمور، وكلها تتطابق مع ما جاء في القرآن تماماً: ــ

١ــ جاء مع عشرة آلاف مقدس.

" محمد رسول الله والذين معه " (الفتح: ٢٩)

٢ــ ستكون في يده شريعة نارية لهم:

" أشداء علي الكفار " (الفتح: ٢٩)

٣ــ سيحب متبعيه:

" رحماء بينهم " (الفتح: ٢٩)

٤ــ (يا الله)، إن كان مقدسيه (الصحابة الكرام) في يدك، ويجلسون عند قدميك، وسوف يطيعون قولك: ــ

" تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود "

(الفتح: ٢٩)

والأمر العجيب أن سيدنا موسى عليه السلام يقول: بأن عدد الرفقاء المقدسين مع هذا النبي القادم عشرة آلاف، وكان العدد بالفعل يوم فتح مكة هو عشرة آلاف مقدسًا،

---

[1]– وهذا نصه باللغة العبريـــة: " וזאת הברכה אשר ברך משה איש האלהים את – בני ישראל לפני מותו. ויאמר יהוה מסיני בא וזרח משעיר למו הופיע מהר פארן ואתה מרבבות קודש מימינו אשדת למו. אף חובב עמים כל – קודשיו בידך והם תוכו לרגלך ישא מדברותיך ".

وتنين نخلوا باب مدينة الخليل (مكة) مع هذا الجسد النوراني القادم من فاران، وهكذا تحقق ما قاله سيدنا موسى عليه السلام. وجاء في سورة الفتح بعد ذلك: ــ

" ومثلهم في الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره فاستغلظ فاستوى علي سوقه يعجب الزراع " (الفتح: ٢٩)

وقد ضرب سيدنا عيسي عليه السلام هذا التمثيل للحكم السماوي، وهكذا جاء هذا التمثيل في مختلف نسخ الإنجيل كالتالي: ــ

" إن الحكومة السماوية مثل حبة خردل بذرها شخص في حقله، وكانت هي أصغر البذور، ولكن عندما تنبت تكون أكبر الخضراوات، وتصبح شجرتها بحيث تأتي عصافير الفضاء لتبني فوق أغصانها أعشاشها " (متي ١٣: ٣١ــ مرقس ١٤: ٣٠)

" إن مملكة الله يبذر بذرة في الأرض، ثم ينام ليله ونهاره، وينهض فيجد بذرته قد نبتت ونمت حتى لا يعرفها، ذلك لأن الأرض تثمر من نفسها، أولاً الخضرة، وعندما تنضج الحبة يرسلها فوراً لأنه حان وقت الحصاد " (مرقس ٤، ٢٦)

إن التمثيل الذي قدمه سيدنا عيسي عليه السلام للسلطنة السماوية أعادها القرآن الكريم في سورة الفتح، ومن منا لا يعرف أن يوم فتح مكة هو يوم موكب وعظمة سلطنة الإسلام الجسمانية والروحانية والظاهرية والباطنية، وقد تحقق هذا التمثيل للسلطنة السمـــاوية بأن جاء زارع يسمي محمد، وبذر في الأرض بذرة، ونتج عن هذه البذرة مئات من السنابل، ودعا إلي سلطنة وحكم السماء. ينصح سيدنا موسى عليه السلام بني إسرائيل قائلاً: ــ

" الله، إلهكم سيرسل من بينكم، ومن إخوتكم نبياً مثلي، وعليكم أن تسمعوه " (التثنية: ١٨: ١٥)([1])

" يقيم لك الله إلهك نبيا من وسطك من إخوتك مثلى. له تسمعون. حسب كل ما طلبت من الله إلهك فى حوريب يوم الاجتماع قائلا لا أعود أسمع صوت الله إلهى ولا أرى هذه النار العظيمة أيضا لئلا أموت. قال لى الله قد أحسنوا فى ما تكلموا. أقيم لهم نبيا من وسط إخوتهم مثلك وأجعل كلامى فى فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به. ويكون أن الإنسان الذى لا يسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه. وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمى كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك

[1] – وهذا نصه باللغة العبرية: " נביא מקרבך מאחיך כמוני יקים לך יהוה אלוהיך אליו תשמעון ".

النبى. وإذا قلت في قلبك كيف أعرف أن هذا الكلام ليس من قول الله. فما تكلم به النبي باسم الله ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب بل بطغيان تكلم به النبي فلا تخف منه " (التثنية: ١٨: ١٥ – ٢٢)([1])

وقد أراد المسيحيون إثبات هذه البشارة علي سيدنا عيسي عليه السلام، لكن الواضح أنها لا يمكن أن تنطبق علي سيدنا عيسي عليه السلام، إذ جاء في هذه البشارة أن هذا الرسول سيبعث من بين إخوة بني إسرائيل، وكان بنو إسماعيل أخوة بني إسرائيل، ويفهم من هذا أن هذا النبي سيكون من نسل إسماعيل، ولم يكن سيدنا عيسي إسماعيلي (من نسل إسماعيل)، ولا يعترف المسيحيون بسيدنا عيسي كنبي، وقد قال سيدنا موسى عليه السلام أن: " النبي القادم سيكون مثلي "، وليس هناك وجه شبه بين سيدنا موسى وسيدنا عيسي، إذ كان سيدنا موسى صاحب شريعة، ولم يكن سيدنا عيسي كذلك، وكان سيدنا موسى محارباً مجاهداً، ولم يكن سيدنا عيسي كذلك. وقد أخرج سيدنا موسى قومه من العبودية وأوصلهم إلي الحكم، ولم يفعل سيدنا عيسي كذلك، وكان سيدنا موسى ملكاً علي قومه من الناحية الظاهرية ومن الناحية المعنوية، ولم يكن سيدنا عيسي كذلك، ولم يكن سيدنا موسى مجرد واعظ فقط، وإنما كان عاملاً ومطبقاً، بينما كان سيدنا عيسي واعظاً فقط، وكان سيدنا موسى فاتحاً للبلاد والأمم، بينما لم يكن سيدنا عيسي يحتكم علي شبر من الأرض، وعلي العكس من ذلك فإن هذه الأوصاف جميعاً مشتركة بين سيدنا موسى وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم، وبالتالي فإن ما قاله سيدنا موسى في هذه البشارة أكده القرآن حرفاً حرفاً، إذ يقول القرآن المجيد أن الله تعالي أخذ عهداً من الأنبياء جميعاً منذ اليوم الأول أن كل نبي يؤيد النبي الآخر، وينصح أمته أن يصدقوا أي نبي يأتيهم: —

– **وهذا نصه باللغة العبرية:** " נביא מקרבך מאחיך כמוני יקים לך יהוה אלוהיך אליו תשמעון. ככל אשר – **שאלת** מעם יהוה אלוהיך בחורב ביום הקהל לאמר לא אוסף לשמוע את – קול יהוה אלהי את – **האש** הגדול הזאת לא – אראה עוד ולא אמות. ויאמר יהוה אלי היטבו אשר דברו. נביא אקים **להם** מקרב אחיהם כמוך ונתתי דברי בפיו ודבר אליהם את כל – אשר אצוני. והיה האיש אשר **לא** – ישמע אל – דברי אשר ידבר בשמי אנוכי אדרש מעמו. אך הנביא אשר יזיד לדבר דבר **בשמי** את אשר לא – צויתיו לדבר ואשר ידבר בשם אלהים אחרים ומת הנביא ההוא. וכי תואמר **בלבבך** איכה נדע את – הדבר אשר לא – דברו יהוה. אשר ידבר הנביא בשם יהוה ולא – יהוה הדבר ולא יבא הוא הדבר אשר לא – דברו יהוה בזדון דברו הנביא לא תגור ממנו ".

" وإذا أخذ الله ميثاق النبيين لما أتيتكم من كتاب وحكمة ثم جاءكم رسول مصدق لما معكم لتؤمنن به ولتنصرنه، قال آقررتم وأخذتم علي ذلكم إصري، قالوا أقررنا، قال فاشهدوا وأنا معكم من الشاهدين " (آل عمران: ٨١)

وكانت النصيحة التي أسداها سيدنا موسى عليه السلام عن هذا النبي القادم أنه سيكون مثلي، وأكد القرآن الكريم هذا الأمر: ـــ

" إنا أرسلنا إليكم رسولاً شاهداً عليكم كما أرسلنا إلي فرعون رسولاً " (المزمل: ١٥)

وسيكون وصف هذا النبي أن الله سيلقي كلامه في فمه، وقال القرآن الكريم عن هذا النبي: ـــ

" وما ينطق عن الهوى، إن هو إلا وحي يوحي " (النجم: ٣ – ٤)

وجاء في التوراة: ـــ

" وأما الذين لن يسمعون ما يقوله لهم من كلامي فإني سأحاسبهم "

وقد أعلن القرآن المجيد أن الذي سيرفض إتباع محمد رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه أن يكون مستعداً للحساب: ـــ

" فإما نرينك بعض الذي نعدهم أو نتوفينك فإنما عليك البلاغ وعلينا الحساب" (الرعد: ٤٠)

وقالت التوراة علي لسان سيدنا موسى في هذه البشارة: ـــ

" وأما النبى الذى يطغى فيتكلم باسمي كلاما لم أوصه أن يتكلم به أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى فيموت ذلك النبى " (التثنية: ١٨: ٢٠) (١)

وقد أكد القرآن الكريم علي صدق هذا الكلام بقوله:

" ولو تقول علينا بعض الأقاويل. لأخذنا منه باليمين. ثم لقطعنا منه الوتين. فما منكم من أحد عنه حاجزين " (الحاقة: ٤٤ – ٤٧)

وقالت التوراة عن آية هذا النبي القادم أن كل نبوءاته ستصدق، وجميع أبواب السيرة النبوية أمامك، انظر، هل هناك قدر ذرة من عدم صدق هذه الآية. تقول السيدة عائشة أن كل ما كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يراه في المنام كان يتحقق كفلق

---

(١) – وهذا نصه باللغة العبرية: " אך הנביא אשר יזיד לדבר דבר בשמי את אשר לא – צויתיו לדבר ואשר ידבר בשם אלהים אחרים ומת הנביא ההוא ".

الصبح ([1])، وكان المسلمون بل والكفار كذلك يؤمنون بأن نبوءات النبي صلى الله عليه وسلم لا تخطئ، ولعلك تذكر أن أحد الصحابة ذهب لأداء العمرة قبل غزوة بدر، وهناك قال لأمية سيد قريش أن الرسول صلى الله عليه وسلم قال أنك ستقتل، وكان أثر هذه النبوءة علي أمية أنه ارتعش وارتعد، وكان خائفاً حين خرج من بيته في معركة بدر، وقد تعلقت زوجته بأذياله حين أراد الخروج قائلة: إلي أين تذهب، ألا تذكر نبوءة ذلك الذي جاء من المدينة ([2])، لقد تنبأ الرسول صلى الله عليه وسلم بمئات النبوءات، وصدقت كل واحدة منها تماماً

---

[1] - صحيح البخاري، بدء الوحي. وهذا نص الحديث: حدثنا يَحيى بنُ بُكَيْر قال: حدثَنا اللَّيثُ عن عُقَيلٍ عن ابنِ شهابٍ عن عُروَةَ بنِ الزُّبَيرِ عن عائشةَ أمِّ المؤمنينَ أنَّها قالتْ: أوَّلُ مابُدِىءَ به رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم منَ الوَحْيِ الرُّؤْيا الصالحةُ في النَّوم، فكانَ لايَرى رُؤيا إلا جاءتْ مِثلَ فَلَقِ الصُّبْح. ثُمَّ حُبِّبَ إليهِ الخَلاءُ، وكانَ يَخلو بغارِ حِراءٍ فيَتَحَنَّثُ فيهِ ــ وهو التَّعَبُّدُ ــ الليالي ذواتِ العدَدِ، قَبلَ أن يَنزِعَ إلى أهلِهِ ويتزوَّدُ لذلكَ، ثم يرْجِعُ إلى خَديجةَ فيَتَزَوَّدُ لمثلِها، حتَّى جاءَهُ الحَق وهوَ في غارِ حِراءٍ، فجاءَهُ المَلَكُ فقالَ: اقْرأْ. قالَ: ما أنا بِقارىء. قال: فأخذَني فغطَّني حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: اقْرأْ. قلتُ: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغطَّني الثانيةَ حتى بلغَ منِّي الْجَهْدَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: اقرأْ فقلتُ: ما أنا بقارىء. فأخَذَني فغطَّني الثالثةَ، ثمَّ أرسَلَني فقال: {اقرأ باسْمِ ربِّكَ الذي خَلَقَ، خلَقَ الإنْسانَ منْ عَلَق. اقْرأْ وربُّكَ الأكْرَمْ} فرجعَ بها رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم يَرْجُفُ فُؤادُهُ، فدخلَ على خَديجةَ بنتِ خُوَيلِدٍ رضيَ اللهُ عنها فقال: زَمِّلوني زمِّلوني. فزَمَّلُوهُ حتَّى ذَهبَ عنه الرَّوعُ، فقال لخديجةَ وأخبرها الخبرَ: لقد خَشِيتُ على نَفْسي. فقالت خَديجةُ: كَلاَّ واللهِ ما يُخْزِيكَ اللهُ أبداً، إنَّكَ لَتَصِلُ الرَّحِمَ، وتحملُ الكَلَّ، وتَكسِبُ المَعدومَ، وتَقْري الضَّيْفَ، وتُعينُ على نوائبِ الحَق. فانطلَقَتْ به خديجةُ حتى أتتْ بهِ ورقةَ بنَ نوفَل بنِ أسدِ بنِ عبدِ العُزَّى ــ ابنَ عَمِّ خديجة ــ وكانَ امْرَءاً تَنَصَّرَ في الجاهليَّةِ، وكانَ يَكتُبُ الكِتابَ وكانَ شيخاً كبيراً قد عَمِيَ، فقالتْ له خَديجةُ: يابنَ عَمِّ، اسْمَعْ مِن ابنِ أخيكَ. فقال لهُ ورَقَةُ: يا ابنَ أخي ماذا تَرى؟ فأخبرَهُ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم خبرَ مارأى. فقال له ورَقَةُ: هذا النامُوسُ الذي نَزَّلَ اللهُ على موسى، ياليتَني فيها جَذَعٌ، لَيتني أكونُ حَيّاً إذْ يُخرِجُكَ قَوْمُك. فقال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: أوَ مُخرِجيَّ هُمْ؟ قال: نعم، لمْ يَأْتِ رَجُلٌ قَطُّ بمثْلِ ماجِئتَ بهِ إلاّ عُودِيَ، وإنْ يُدرِكْني يَوْمُكَ أنْصُرْكَ نَصْراً مُؤزَّراً. ثمَّ لم يَنْشَبْ ورقةُ أنْ تُوُفِّيَ، وفَتَرَ الوَحْيُ (يوسف عامر)

[2] - صحيح البخاري، المغازي. وهذا نص الحديث: (٣٨٦٤) ـــ حدثني أحمدُ بن عثمانَ حدثَنا شُرَيحُ بن مَسلمةَ حدثَنا إبراهيمُ بن يوسفَ عن أبيهِ عن أبي إسحاقَ قال: حدثني عمرُو بن مَيمونٍ أنهُ سمعَ عبدَ اللهِ بن مسعودٍ رضيَ اللهُ عنه حدَّثَ «عن سعدِ بن مُعاذ أنه قال: كان صَديقاً لأميةَ بن خَلَف، وكان أميةُ إذا مرَّ بالمدينة نزلَ على سعدٍ، وكان سعدٌ إذا مرَّ بمكةَ نزلَ على أُميةَ. فلما قدِمَ رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم المدينةَ انطلَقَ سعدٌ مُعتمِراً، فنزلَ على أُمية بمكةَ، فقال لأمية: انظُرْ لي ساعةَ خَلوةٍ لعلّي أن أطوفَ

وجاء في صحيح البخاري أن ابن ناطور الذي كان مقرباً إلي قيصر الروم، كما كان أسقف الشام قال: أن هرقل قيصر الروم كان منجماً، وذات يوم حضر إلي البلاط وكان وجهه متغيراً، فسأله أحد المسئولين في البلاط عن ذلك فقال له: نظرت بالليل إلي النجوم فرأيت (ملك الختان)، وعليك أن تتأكد: أي قوم يروج بينهم الختان ؟ فقال الوزراء إن اليهود فقط هم الذين يختتنون، ولهذا لا تضطرب، واصدر حكمك في الأقاليم أن يقتل كل أطفال اليهود هذا العام، وفي تلك الأثناء جاء غسان أحد سادة العرب عند حدود الشام وأبلغهم خبر أن نبياً ولد في العرب، فقال قيصر: اسألوا هل تختتن العرب ؟ وحينما جاء الجواب بالإثبات قال: نعم، إنه ملك هذه الأمة، ثم خاطب أهل البلاط قائلاً: إن كنتم تريدون إنقاذ سلطنتكم فآمنوا به، ولم يعجب كلام قيصر هذا أهل البلاط، وكان لقيصر صديق عالم في الروح، فكتب له قيصر بهذا الأمر، وأيد هذا الصديق العالم كلام قيصر.

ولم يستطع علماء الحديث لدينا فهم الحقيقة الصحيحة لهذا الخبر، ولهذا فإن نطق "ملك الختان" ليس مَلِك، ولا مَلَك، وإنما مــلاك بمعني الرسول وأصله في العربية هو (لوكه) بمعني الرسالة، ولو قرأ هذا اللفظ بالعربية (مَلَك) فإن مجيئه في هذا المقام ليس بالمعني الاصطلاحي للملَك، وإنما جاء استخدامه بالمعني اللغوي لكلمة رسول، واستخدم قيصر للفظ ملاك الختان هو في الحقيقة إشارة إلي نبوءة أخري في التوراة، وقد وردت هذه النبوءة في كتاب النبي ملاخيا هكذا: ــ

بالبيت. فخَرَجَ به قريباً من نصفِ النهارِ، فلَقِيَهما أبو جَهلٍ، فقال: يا أبا صَفوانَ، مَن هذا معك؟ فقال: هذا سعدٌ. فقال له أبو جهل: ألا أراكَ تطوفُ بمكة آمناً وقد آوَيتمُ الصُّبَاةَ وزعمتم أنكم تَنصُرونَهم وتُعِينونَهم. أما واللهِ لولا أنكَ مع أبي صَفوانَ ما رَجعتَ إلى أهلكَ سالماً. فقال له سعد ــ ورَفَعَ صوتَهُ عليه ــ: أما واللهِ لئن مَنَعتَنِي هذا لأمنعنَّكَ ماهو أشدُّ عليكَ منه: طريقَكَ على المدينة، فقال له أُميةُ، لا تَرفَعْ صوتَكَ يا سعدُ على أبي الحكم سيدِ أهل الوادي. فقال سعدٌ: دَعْنا عنكَ يا أمية، فوالله لقد سمعتُ رسولَ الله صــلى الله عليه وسلم يقول: «إنهم قاتِلوك». قال: بمكةَ؟ قال: لا أدرِي. ففَزِع لذلكَ أُميةُ فزَعاً شديداً. فلما رجعَ أُميةُ إلى أهله قال: يا أُمَّ صفوانَ، ألم تَرَي ما قال لي سعدٌ؟ قالت: وما قال لك؟ قال: زعــمَ أنَّ محمــداً أخبرهم أنهم قاتليُّ. فقلت له: بمكةَ؟ قال: لا أدري. فقال أُميةُ: واللهِ لا أخرجُ من مكةَ. فلما كان يومُ بدرٍ استَنفَرَ أبو جهلٍ الناسَ قال: أدرِكوا عِيرَكم. فكَرِهَ أُميةُ أن يَخرُجَ، فأتاهُ أبو جهلٍ فقال: يا أبا صفوانَ [illegible] متى ما يَراكَ الناسُ قد تخلَّفتَ وأنتَ سيدُ أهلِ الوادي تخلَّفوا معك. فلم يَزَلْ به أبو جهلٍ حتى قال: [illegible] غَلَبْتَني فواللهِ لأشتَرِينَّ أجودَ بعيرٍ بمكة. ثمَّ قال أميةُ: يا أُمَّ صفوانَ جَهِّزِيني. فقالت له [illegible] نَسيتَ ما قال لكَ أخوكَ اليَثْرِبيُّ؟ قال: لا، ما أُريدُ أن أجوزَ معهم إلا قريباً. [illegible] منزِلاً إلا عَقَلَ بعيرَه، فلم يزَلْ بذلكَ حتى قتلَه الله عزَّ وجلَّ ببدرٍ. (يوسف [illegible]

" انظروا، سأرسل رسولي، وسوف يصحح الطريق أمامي، وذلك الإله الذي تبحثون عنه ورسول الختان الذي أنتم راضون عنه سوف يأتي في هيكله فجأة، يقول رب الأفواج، ولكن من يستطيع أن ينتظر يوم قدومه، وعندما يظهر من ذلك الذي سيظل واقفاً، لأنه مثل نيران الصائغ وصابون الغسال ". (باب ٣٠)

هذا ونجد في ترجمات هذه الأيام " رسول العهد " مكتوبة بدلاً من " رسول الختان "، وإن كانت هذه الترجمة صحيحة فإن معناها أن هذه البشارة تتعلق بالنبي الذي وعد الله تعالي ببعثته استجابة لدعاء سيدنا إبراهيم، لكن الحقيقة أن " الختان " الذي ورد في التوراة هو بمثابة التصديق لذلك " العهد والميثاق " بين الله تعالي وإبراهيم علي جسم الذرية الابراهمية، وحيثما جاء ذكر الختان في التوراة جاء ما يلي: ــ

" هذا هو عهدى الذى تحفظونه بينى وبينكم وبين نسلك من بعدك. يختن منكم كل ذكر. فتختنون فى لحم غرلتكم. فيكون علامة عهد بينى وبينكم "
(التكوين: ١٧: ١٠ – ١٢) ([1])

وبناءاً علي هذا فإن المترجمين وضعوا لفظ " العهد " بدلاً من لفظ " الختان " ويُعلم منه أن اليهود والنصارى كانوا ينتظرون مجيئي " رسول الختان " هذا طبقاً لهذه النبوءة عندما اقترب مولده صلى الله عليه وسلم، وكان قيصر الروم ينتظر تحقق هذه النبوءة، ويُعلم منه أيضاً أن هذه البشارة لم تكن في حق سيدنا عيسي، لأنها لو كانت في حقــه لم يكن قيصــر ينتظــر قدومـــه، ويُفهم من لفظ " رسول الختان " إشارة إلي أنه سوف يظهر في قوم يختتون، وقد أبطل الدين المسيحي هذه العادة، وكان الإسلام هو الدين الوحيد بعد اليهودية والذي ثبت عهد نسل إبراهيم هذا في الدنيا إلي الأبد.

وهناك بشارة أخرى في التوراة تقول: ــ

" قال جاء الله من سيناء، وأشرق لهم من " سعير " وتلألأ من جبل فاران "
(التثنية: ٣٣: ٢)([2])

وقد تكرر جزء من هذه البشارة في صحيفة النبي " حبقوق ": ــ

---

[1] – وهذا نصه باللغة العبرية: " זאת בריתי אשר תשמרו ביני וביניכם ובין זרעך אחריך המול לכם כל – זכר. ונמלתם את בשר ערלתכם והיה לאות ברית ביני וביניכם ".

[2] – وهذا نصه فى اللغة العبرية: " ויאמר יהוה מסיני בא וזרח משעיר למו הופיע מהר פארן ".

" جاء الله من " تيمان " وذلك القدوس من جبل فاران، جلاله غطى السماوات والأرض امتلأت من تسبيحه " (٣: ٣) [1]

وهكذا تقرر في بشارة صحيفة الاستثناء ثلاثة جبال كمظهر لله، جبل سيناء، جبل سعير، وجبل فاران، وهذه في الحقيقة ثلاثة مطالع لشمس النبوة، ويقصد بها علي الترتيب سيدنا موسى من جبل سيناء، وسيدنا عيسي من جبل سعير، وسيدنا محمد صلى الله عليه وسلم من جبل فاران، وهو اسم لمرتفعـات مكـة الجبليـة، ويقـول سيدنا " حبقوق " في هذه البشارة أنه جاء من تيمان، وكلمة " تيمان " من حيث اللغة تعني " الجنوب "، وتطلق في الاستخدام علي اليمين، والمعنيان هنا صحيحـان، ثم يقـول " وتوارت السمـاء من عظمته "، وهو شرح للمعراج السماوي، ثم يقـول: " وعمرت الأرض بحمده "، وأي مكان في الأرض ذلك الذي لم يعمره الثناء علي محمد صلى الله عليه وسلم، ولفظ محمد الذي مادته حمد وهو بداية العبادات الإسلامية (الحمد. ...الخ) هو تلميح واضح لمحمد رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد عبر القرآن الكريم عن هذه البشارة في سورة التين كالتالي: ـــ

" والتين والزيتون. وطور سينين. وهذا البلد الأمين " (التين: ١ – ٣)

والجميع يعرف أن الشـام هي بلد التين والزيتون، وهي مكان ميلاد سيدنا عيسي وأصل جبل " سعير "، وطور سيناء يدل علي سيدنا موسى، والبلد الأمين تعني مكة، وهي إشارة إلي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم.

وقد ذكر علماء المسلمين بشارات أخرى من التوراة والإنجيل، لكننا ذكرنا فقط تلك البشارات التي أشار إليها القرآن المجيد والأحاديث الشريفة، وفي كتب السير والدلائل كثير من النبوءات التي تنبأ بها كهان في العرب وناسكو معابدهم، ولكن لأن أكثرها ضعيف باعتبار الرواية لهذا رأينا أن الخوض في تفاصيلها غير ضروري، إلا أن هناك قاسماً مشتركاً مؤكداً بين هذه الروايات كلها وهو أن العرب أيضاً كانوا يحتاجون إلي نبي، فقد أغرقت الحرب التي دارت بين الروم وفارس لعشر سنوات الأرض شرقها وغربها بالدماء، وأثارت في الأفكار موضوع البحث عن الأمن، وكانت حادثة الفيل في بلاد العرب كافية لإحداث هزة عنيفة في القلوب، ومثل هذا الوقت يكون هو الوقت الذي

---

[1] – وهذا نصة باللغة العبرية: " אלוה מתימן יבוא וקדוש מהר – פארן סלה כסה [illegible] מלאה הארץ ".

يظهر فيه نزوح الأعظم، ولذا فإن العرب والروم واليهود والنصارى كانوا جميعاً ينتظرون قرب وقت ميلاد النبي صلى الله عليه وسلم قادماً طبقاً لبشارات التوراة والإنجيل، وجاء في صحيح البخاري علي لسان سيدنا أبي سفيان أنه عندما وصل حامل رسالة رسول الله صلى الله عليه وسلم بالإسلام إلي قيصر، واستدعي قيصر أبا سفيان والذي كان لا يزال كافراً حتى ذلك الوقت، وسأله عن بعض الأمور المتعلقة برسول الله صلى الله عليه وسلم، وسمع منه إجابة لاستفساراته، عندئذ قال له علي مشهد من أهل بلاطه: إن كان ما قلته صحيحاً فإن التراب الذي (الأرض التي) تحت أقدامي سيكون تحت سيطرته يوماً ما، إنني بالتأكيد كنت أعرف أن هناك نبياً قادماً، ولكني لم أتصور أنه سيولد في العرب، ولو استطعت لذهبت إلي زيارته، وإن كان هناك فإني سأغسل قدميه بنفسي ([1])

---

[1] - صحيح البخاري، كيف كان بدء الوحي. وهذا نص الحديث: (٧) حدثنا أبو اليمانِ الحَكَمُ بنُ نافِعٍ قال: أخبرنا شُعَيْبٌ عن الزُّهْرِيّ قال: أخبَرَني عُبَيْدُ الله بنُ عبدِ اللّهِ بنِ عُتْبَةَ بنِ مَسْعُودٍ أن عبدَ اللّهِ بنَ عباسٍ أخبرهُ أنّ أبا سُفْيانَ بنَ حَرْبٍ أخبرَهُ أنّ هِرَقْلَ أرْسَلَ إلَيْهِ في ركْبٍ مِنْ قُرَيْشٍ، وكانوا تجَّاراً بالشَّامِ في المُدَّةِ التي كانَ رسولُ اللّهِ صلى الله عليه وسلم مادَّ فيها أبا سُفْيانَ وكُفَّارَ قُرَيْشٍ، فأتَوهُ وهُمْ بإيلِيَاءَ، فدعاهُمْ في مَجلِسِه، وحَوْلَهُ عُظَماءُ الرُّومِ، ثمَّ دَعاهمْ ودَعا بتَرْجُمانِه، فقالَ: أيُّكُمْ أقْرَبُ نَسَباً بهذا الرَّجُلِ الذي يَزْعُمُ أنّهُ نَبيٌّ؟ فقال أبو سُفْيانَ: فقلتُ أنا أقْرَبُهمْ نَسَباً. فقال: أدْنوهُ مِنّي، وقَرِّبوا أصحابَهُ فاجْعَلُوهُمْ عندَ ظَهْرِه. ثمَّ قال لِتَرْجُمانِه: قُلْ لهمْ إنّي سائِلٌ هذا الرَّجُلَ، فإن كَذَبَني فكذِّبوه. فواللّهِ لَوْلا الحَياءُ مِنْ أنْ يأثِرُوا عَلَيَّ كَذِباً لَكَذَبْتُ عنهُ. ثمَّ كانَ أوَّلَ ما سألَني عنهُ. أنْ قال: كَيفَ نَسَبُهُ فيكمْ؟ قلتُ: هوَ فينا ذُو نَسَبٍ. قال: فهلْ قال هذا القَولَ منكم أحَدٌ قَطُّ قَبْلَه؟ قلتُ: لا. قال: فهلْ كانَ مِنْ آبائه مِنْ مَلِك؟ قلتُ: لا. قال: فأشرافُ الناسِ يَتَّبِعونَهُ أمْ ضُعَفاؤُهُم؟ فقلتُ: بَلْ ضُعَفاؤُهُم. قال: أيَزيدونَ أمْ يَنْقُصون؟ قلتُ: بَلْ يَزيدون. قال: فهلْ يَرتَدُّ أحَدٌ منهمْ سَخْطَةً لِدينِه بعدَ أنْ يَدْخُلَ فيه؟ قلتُ: لا. قال: فهلْ كُنتمْ تَتَّهِمونَهُ بالكذبِ قبلَ أنْ يَقولَ ما قال؟ قلتُ: لا. قال: فهلْ يَغْدِرُ؟ قلتُ: لا، ونحنُ منهُ في مُدَّةٍ لا نَدْري ما هو فاعِلٌ فيها. قال: ولم تُمكِنِّي كلِمةٌ أُدْخِلُ فيها شَيئاً غيرُ هذه الكلمة. قال: فهل قاتَلْتُموهُ؟ قلتُ: نعم. قال: فكيفَ كان قِتالُكمْ إيّاهُ؟ قلتُ: الحربُ بيننا وبينَهُ سِجالٌ، يَنالُ منَّا ونَنالُ منه. قال: ماذا يأمُرُكمْ؟ قلتُ: يَقولُ اعْبُدُوا اللّهَ وَحْدَهُ ولا تُشْرِكوا به شيئاً، واتْرُكوا ما يَقولُ آباؤُكمْ. ويَأمُرُنا بالصلاةِ والصِّدْقِ والعَفافِ والصِّلَةِ. فقال للتَّرْجُمانِ: قُلْ له سألْتُكَ عن نسَبِه فذَكرتَ أنه فيكم ذو نسب، فكذلك الرُّسُلُ تُبْعَثُ في نَسَبِ قَوْمِها. وسألْتُكَ هلْ قال أحدٌ منكمْ هذا القولَ؟ فذكرتَ أن لا، فقلتُ: لو كانَ أحَدٌ قال هذا القولَ قَبْلَهُ، لقُلْتُ رَجُلٌ يأتَسي بقولٍ قِيلَ قبلَه. وسألْتُكَ هلْ كان من آبائه مِنْ مَلِك؟ فذكرتَ أنْ لا، قلتُ فلو كان مِنْ آبائه مِنْ مَلِك قلتُ: رَجُلٌ يَطلُبُ مُلكَ أبيه. وسألْتُكَ هل كنتم تَتَّهِمونَهُ بالكَذِبِ قبلَ أن يقولَ ما قالَ؟ فذكرتَ أنْ لا، فقد أعرفُ أنَّهُ لم يكن لِيَذَرَ الكَذِبَ على الناسِ ويكذِبَ على اللّه. وسألْتُكَ أشرافُ الناسِ اتَّبَعوهُ أمْ ضُعَفاؤُهُمْ؟

فذكرتَ أنَّ ضُعَفاءهمْ اتَّبعوه، وهم أتْباعُ الرُسُل، وسألتُكَ أيَزيدُونَ أم يَنْقُصون؟ فَذكرتَ أنَّهمْ يَزيدُون، وكذلكَ أمرُ الإيمانِ حتى يَتمَّ. وسألتُكَ أيَرْتَدُّ أحدٌ سَخْطَةً لدِينِه بعدَ أنْ يَدخُلَ فيه، فذكرت أنْ لا، وكذلكَ الإيمانُ حينَ تُخالِطُ بَشاشَتُه القلوبَ. وسألتُكَ هلْ يَغْدِرُ؟ فذكرتَ أنْ لا، وكذلك الرُسُل لا تَغدِرُ. وسألتُكَ بما يَأمُرُكمْ؟ فذكرتَ أنه يأمُرُكم أن تَعبُدوا اللّهَ ولا تُشْرِكوا به شيئاً، ويَنهاكمْ عنْ عِبادةِ الأوثانِ، ويأمُرُكم بالصَّلاةِ والصِّدقِ والعَفافِ، فإنْ كانَ ما تقولُ حقّاً فسَيَملِكُ مَوْضِعَ قَدَميَّ هاتَين. وقد كنتُ أعلمُ أنه خارِجٌ، لم أكُنْ أظُنُّ أنه منكم، فلو أنِّي أعلَمُ أنِّي أخلُصُ إليه، لَتَجَشَّمْتُ لِقاءَه، ولو كنتُ عِنْدَهُ لَغَسَلْتُ عن قَدَمه. ثمَّ دَعا بِكتابِ رسولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم الَّذي بَعَثَ بهِ دِحْيَةُ إلى عَظِيمِ بُصْرَى، فَدَفَعَه إلى هِرَقْلَ، فقرأهُ، فإذا فيه:

بسم الله الرحمن الرحيم

مِنْ مُحمدٍ عبدِ اللّهِ ورَسولِهِ إلى هِرَقْلَ عظيمِ الرُوم. سَلامٌ على مَنِ اتَّبَعَ الهُدَى. أمّا بعدُ فإنِّي أدْعُوكَ بِدِعايةِ الإسْلام، أسلِمْ تَسلَمْ، يُؤتِكَ اللّهُ أجْرَكَ مَرَّتَين. فإنْ تَوَلَّيتَ فإنَّ عليكَ إثْمَ الأريسِيِّين و {يا أهلَ الكتابِ تعالَوْا إلى كلمةٍ سَواءٍ بَيْننا وبَيْنَكم أنْ لا نَعبُدَ إلاَّ اللّهَ ولا نُشْرِكَ بهِ شيئاً ولا يَتَّخِذَ بعضُنا بعضاً أرْباباً مِنْ دُونِ اللّهِ، فإنْ تَوَلَّوْا فقولوا اشْهَدُوا بأنّا مسلمون}.

قال أبو سُفيانَ: فلما قال ما قال، وفَرَغَ مِنْ قِراءةِ الكتاب، كَثُرَ عندَهُ الصَّخَبُ، وارْتفعَتِ الأصواتُ، وأُخْرِجْنا. فقلتُ لأصحابي حين أُخرجنا: لقدْ أمِرَ أمرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ، إنه يَخافُه مَلِكُ بني الأصفَرِ. فما زلتُ مُوقِناً أنه سيَظهرُ حتى أدْخَلَ اللّهُ عليَّ الإسلام.

وكان ابنُ الناظُورِ ـ صاحبُ إيلياءَ وهِرَقْلَ ـ أُسقُفّاً على نَصارَى الشام يُحدِّثُ أنَّ هِرَقْلَ حين قَدِمَ إيلياءَ أصبحَ خَبِيثَ النفْسِ، فقال بَعْضُ بطارِقَته: قد اسْتَنكرْنا هَيئَتَك. قال ابنُ الناظُورِ: وكان هِرَقْلُ حَزَّاءً يَنْظُرُ في النُّجومِ، فقال لهم حينَ سَألوه: إني رأيتُ الليلةَ حينَ نظرتُ في النجومِ مَلِكَ الخِتانِ قد ظَهَرَ، فمَنْ يَخْتَتِنُ من هذه الأمَّة؟ قالوا: ليسَ يَخْتَتِنُ إلاَّ اليهودُ، فلا يُهِمَّنَّكَ شأنُهمْ، واكتُبْ إلى مَدائنِ مُلْكِكَ فيَقتُلوا مَنْ فيهم مِنَ اليَهود. فبينما همْ على أمرِهمْ أُتِيَ هِرَقْلُ برَجُلٍ أرْسَلَ به مَلِكُ غسّانَ يُخبِرُ عن خَبَرِ رَسُولِ اللّهِ صلى الله عليه وسلم. فلمّا استخبرَهُ هِرَقْلُ قال: اذهَبوا فانظروا أمُخْتَتِنٌ هوَ أم لا؟ فنظروا إليه، فحدَّثُوه أنه مُخْتَتِن، وسأله عنِ العَرَبِ فقال: هم يَخْتَتِنون. فقال هِرَقْلُ: هذا مُلْكُ هذه الأمَّةِ قد ظهر. ثمَّ كتب هِرَقْلُ إلى صاحبٍ له برُومِيَةَ، وكان نَظيرَهُ في العلم. وسارَ هِرَقْلُ إلى حِمْصَ، فلم يَرِمْ حِمْصَ حتى أتاهُ كتابٌ مِن صاحبِهِ يُوافِقُ رَأْيَ هِرَقْلَ على خُروجِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم، وأنه نبيٌّ. فأذِنَ هِرَقْلُ لعُظماءِ الرُّومِ في دَسْكَرَةٍ له بحِمْصَ، ثم أمرَ بأبوابِها فَغُلِّقَتْ، ثم اطَّلَعَ فقال: يا مَعْشَرَ الرُّوم، هلْ لكُمْ في الفَلاحِ والرُّشْدِ، وأنْ يَثبُتَ مُلْكُكمْ، فتُبايِعوا هذا النبيَّ؟ فحاصُوا حَيْصَةَ حُمُرِ الوَحْشِ إلى الأبواب، فوَجَدُوها قد غُلِّقَتْ، فلمّا رَأى هِرَقْلُ نَفْرَتَهُمْ، وأيِسَ منَ الإيمانِ قال: رُدُّوهمْ عَلَيَّ. وقال: إنِّي قلتُ مَقالَتي آنِفاً أختَبِرُ بها شِدَّتَكمْ على دِينِكمْ، فقد رَأيتُ. فسجَدوا له ورَضُوا عنه، فكان ذلكَ آخرَ شأنِ هِرَقْلَ. رواه صالحُ بنُ كَيْسانَ ويُونُسُ ومَعْمَرٌ عنِ الزُّهريِّ (يوسف عامر).

قرأت في ما سبق ما قاله ابن ناطور صديق قيصر المقرب وأسقف الشام من أن قيصر كان يتوقع قرب ميلاد الرسول المختتن. وقد أكد أحد العلماء المسيحيين توقع قيصر هذا في خطاب كتبه إليه، وقد دعا الرسول الذي حمل دعوة الإسلام من النبي صلى الله عليه وسلم إلي المقوقس ملك مصر بإجابة تقول نحن أيضاً علي يقين من أن هناك نبياً قادماً، لكننا كنا نتــوقع أن يولد في بلاد الشام، وكتب ملك الحبشة المسيحي يقول أننا نشهد أنك نبي صادق. ([1])

وعلينا أن نتذكر أن وفداً مسيحياً من مدينة نجران اليمنية حضــر إلي النبي صلى الله عليه وسلم، وتقرر أن تعقد مباهلة ومناظرة بين الجانبين، لكن المسيحيين العقلاء في هذا الوفد منعوه من المباهلة والمناظرة ضد سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وقالوا والله إن كان هذا نبياً حقاً فقد حلّ بنا الدمار إلي الأبد ([2])، ويعلم من هذا أنهم أيضاً كانوا يتوقعون قدوم نبي. وكان هناك قبل الإسلام عربي موحد يدعي زيد، وكان يبحث عن الحق منذ مدة، فذهب أولاً إلي يثرب (الاسم السابق للمدينة) وهناك رأي أن اليهود أيضاً لم يعودوا قائمين علي التوحيد الكامل، فخرج من هناك واتجه إلي يهود خيبر، ووجدهم علي نفس الحال، ومن هناك ذهب إلي نصارى الشام، فرآهم مشركين أيضاً، وفي النهاية قال أحد الرهبان الشوام له: إن كنت تبحث عن الدين الحق، فاذهب إلي العراق، عند أحد الصالحين هناك، وحين ذهب إليه زيد واستفسر منه، فسأله الرجل الصالح من أين أنت ؟ فقال زيد من حرم مكــة، فقال الرجل الصالح عُد إلي وطنك، إن الدين الحق علي وشك الظهور هناك، فعاد زيد إلي مكة، لكنه توفي قبل ظهور الإسلام ([3]). وقد قرأت قصة ورقة بن نوفل في الجزء الأول من السيرة، وعرفت أنه كان مسيحياً في الجاهلية، وحين أخذت السيدة خديجة رضي الله عنها سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في اليوم الأول للبعثة النبوية أكد ورقة بن نوفل نبوته صلى الله عليه وسلم وأبدي رغبته قائلاً: ليتني أعيش حتى يخرجك قومك فأؤيدك، ويعلم من هذا أيضاً أن النصارى أيضاً كانوا ينتظرون مجيء النبي صلى الله عليه وسلم في ذلك الوقت.

---

[1] – السيرة النبوية، الجزء الأول.

[2] – السيرة النبوية، الجزء الثاني.

[3] – مسند أبي زرعة.

وهناك الكثير من الروايات في ابن سعد، وابن إسحاق، ومسند أحمد وتاريخ البخاري ومستدرك الحاكم ودلائل البيهقي ومعجم الطبراني، ودلائل أبي نعيم وغيرها، ويثبت منها بصفة عامة أنه شاع بين يهود المدينة قبل ظهوره صلى الله عليه وسلم أن هناك نبياً قادماً، ومن هؤلاء اليهود علمت الأوس والخزرج بخبر البعثة النبوية، وكان هذا الخبر سبباً في هداية الكثيرين منهم، وهكذا تروي الكتب التي أشرنا إليها بالإضافة إلي ابن سعد حادثة شاب أنصاري بسند صحيح مفادها أنه قال: كنت صغيراً، وكان في المدينة واعظ يهودي، وقد بشر هذا الواعظ أثناء وعظه بقدوم نبي، فسأله الناس متي يظهر هذا النبي، فأشار إلي ذلك الأنصاري الذي كان أصغر الموجودين بين الحضور، وقال: لو عاش هذا الغلام فسيدرك زمانه. ويروي أنس بن مالك أن صبياً يهودياً كان يخدم النبي صلى الله عليه وسلم وذات مرة مرض هذا الصبي فذهب النبي صلى الله عليه وسلم لعيادته، واستفسر من أبي هذا الصبي عمّ إذا كان قد وجد ذكر له ﷺ فى التوراة ؟ فقال: لا، فقال الصبي من فوره: نعم يا رسول الله، لقد قرأنا ذكرك في التوراة، ثم نطق الشهادتين وأسلم ([1]) وعندما كانت النزاعات تنشب بين العرب واليهود كان اليهود يقولون أن هناك نبياً قادماً، وسوف ننتصر في عهده، وقد ذكر القرآن الكريم عقيدتهم هذه ولامهم علي عدم إسلامهم: ــ

" وكانوا من قبل يستفتحون علي الذين كفروا، فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به، فلعنة الله علي الكافرين " (البقرة: ٨٩)

وقد عاتبهم القرآن الكريم في أماكن مختلفة منه بالإضافة إلي ما سبق علي إظهارهم الكفر علي خلاف يقينهم السابق: ــ

" وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلموا أنه الحق من ربهم " (البقرة: ١٤٤)

---

[1] – البيهقي بإسناد صحيح، لكن هذه الرواية مختلفة إلي حد ما عن مثيلتها في صحيح البخاري، كتب الجنائز، فقد جاء في صحيح البخاري أن الصبي أسلم علي نصيحة أبيه ومشورته. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، كتاب الجنائز: (١٣٣٢) ـــ حدَّثنا سليمانُ بنُ حربٍ حدَّثنا حمَّادٌ وهو ابنُ زيدٍ عن ثابتٍ عن أنَسٍ رضيَ اللَّهُ عنه قال: «كان غُلامٌ يهوديٌّ يَخدُمُ النبيَّ صلى الله عليه وسلم فمَرِضَ، فأتاهُ النبيُّ صلى الله عليه وسلم يَعودُهُ، فقعَد عندَ رأسهِ فقال لهُ: أسلِمْ. فنظرَ إلى أبيهِ وهوَ عندَهُ، فقال له: أطِعْ أبا القاسمِ صلى الله عليه وسلم. فأسلمَ.فخرَجَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم وهو يقول: الحمدُ للّهِ الذي أنقَذَهُ منَ النار». (يوسف عامر).

"الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم، وإن فريقاً منهم ليكتمون الحق وهم يعلمون " (البقرة: ١٤٦)

" الذين آتيناهم الكتاب يعرفونه كما يعرفون أبناءهم " (الأنعام: ٢٠)

وكان أثر تلك البشارات والنبوءات أن علماء اليهود كان يحضرون إلي النبي صلى الله عليه وسلم وفي أذهانهم تلك العلامات والآيات المتعددة التي وردت في التوراة، ويسألونه صلى الله عليه وسلم ويمتحنونه وكانوا يسلمون حين يقتنعون بالإجابة.

خطب سيدنا جعفر الطيار رضي الله عنه عن الإسلام في بلاط النجاشي، وقرأ أثناء ذلك آيات من سورة مريم، فطرأت علي النجاشي حــالة من الرقة والوجد، وسالت الدموع من عينيه وقال: والله إن هذا الكلام والإنجيل يشعّان من مصباح واحد، وبعد أن سمع النجاشي عقيدة الإسلام فيما يتعلق بسيدنا عيسي عليه السلام التقط قشة من علي الأرض، وقال: والله إن عيسي ليس أكثر مما قلت ولو بقدر هذه القشة. ([1])

وخاطب القرآن المجيد كفار العرب قائلاً إن دليل صدقه أن علماء بني يهود يشهدون بصدقه:

" قل أرأيتم إن كان من عند الله وكفرتم به، وشهدت طائفة من بني إسرائيل علي مثله فآمن واستكبرتم " (الأحقاف: ١٠)

" أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل " (الشعراء: ١٩٧)

---

[1] – مسند ابن حنبل، الجزء الأول، ص ٢٠٢.

الخصائص هي تلك الأمور التي تختص بذات ما، وقد أُعطي النبي صلى الله عليه وسلم كثيراً من الأمـــور لم تعط لغيره، والخصائص المحمدية هذه قسمان: قسم خاص به صلى الله عليه وسلم فقط، وليس لأحد من أمته. وقسم خاص به صلى الله عليه وسلم ولم يُعط لنبي قبله. وباختصار فإن القسم الأول من الخصائص كان في مقابل الأمة، والقسم الثاني كان في مقابل باقي الأنبياء، وقد أطلقنا علي القسم الأول " الخصائص الذاتية "، وعلي القسم الثاني " الخصائص النبوية ".

وقد جعل كتـــاب السير كثرة هذه الخصائص وزيادتها معياراً كبيراً لفضله صلى الله عليه وسلم، إذ تثبت منها خصوصية له صلى الله عليه وسلم في الحضرة الإلهية، وهكذا عدوا كثيراً من الأمور البسيطة خصائص وجمعوا كماً كبيراً منها، علي سبيل المثال يكتب أبو سعيد النيشابوري في كتابه " شرف المصطفي " أن عدد خصائصه صلى الله عليه وسلم ستون، وأضاف إليها السيوطي في كتابه " الخصائص الكبرى " عدة مئات أخرى في حين أن مصادر أكثرها يعتمد علي التأويل البعيد، والروايات الضعيفة والاستنتاج. كما عدّت بعض الأمور من الخصائص الذاتية حتى أنهم وضعوا مبدأ وهو أنه إذا تصادم " الحديث القولي " مع " الحديث العملي " يتم ترجيح " الحديث القولي " بمعني أنه إذا كان هناك أمر ثبت بقول النبي صلى الله عليه وسلم وظهر أمر آخر مخالف له بفعل النبي صلى الله عليه وسلم فإن علي عامة الأمة أن يقتدوا بقوله صلى الله عليه وسلم في مقابل فعله صلى الله عليه وسلم، إذ أنه من الممكن أن يكون هذا الفعل خاصاً به صلى الله عليه وسلم وضمن خصائصه صلى الله عليه وسلم الذاتية، ولكن من الواضح أن الأنبياء عليهم السلام كانوا يبعثون إلي أممهم كمثال عملي ونموذج يحتذي، وخاصة سيدنا القدوة الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم والذي صرح القرآن بشأنه قائلاً: ــ

" لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة " (الأحزاب: ٢١)

وعندما بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم قدوة للعالم وإماماً أعظماً، وأمر الله الناس باتباعه والاقتداء به، فإن كل فعل من أفعاله صلى الله عليه وسلم والحالة هذه يقبل الاتباع ويستحق الاقتداء، صحيح أن هناك بعض الأمور الخاصة بذاته هو صلى الله عليه

وسلم كنبي، لكن من الضروري لدفع الالتباس ورفع الشك أن يعلن بشكل واضح فيما يتعلق بهذه الأمور أنها من الخصوصيات النبوية وليس لعامة الأمة.

وبناءً علي هذا فإنه لا مفر من التسليم بأن الشريعة قد بينت بشكل واضح كل الخصائص الذاتية للنبي صلى الله عليه وسلم، وأعلنت أنها مخصوصة به هو صلى الله عليه وسلم، ولهذا فإن الأمور التي لا يوجد تصريح فيما يتعلق بها بأنها من الخصوصيات النبوية لا يمكن أن تشمل ضمن باب الخصائص أبداً، وهكذا نعلم أن الخصائص الذاتية للنبي صلى الله عليه وسلم هي بعض الأمور المحدودة، وأعلنها الكتاب والسنة علي الناس بشكل غاية في الوضوح.

النبوة ولوازم النبوة:

كان أول شيء اختص بذاته المباركة صلى الله عليه وسلم، ولم يكن لباقي أفراد الأمة نصيب منها هو النبوة ولوازم النبوة من الوحي والشرح والإخبار الإلهي ونزول جبريل عليه السلام، ونسخ الأحكام وغير ذلك، بمعني أنه لم ينزل الوحي علي أي فرد من أفراد الأمة غير رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا يمكن أن ينزل، وليس لأحد سواه صلى الله عليه وسلم أن يأتي بشريعة جديدة أو أن يضع قانوناً دينياً جديداً، وليس سواه صلى الله عليه وسلم معصوماً، ولا يستطيع سواه صلى الله عليه وسلم أن يسمع من الله تعالي ويبلغ الناس، ولا يمكن أن يكون أحد سواه صلى الله عليه وسلم رسولاً إلهياً، ولا يستطيع أحد أن ينسخ الأحكام الشرعية وغير ذلك من الأمور. ويبقي أمران فقط لأفراد الأمة وهما: الرؤيا الصادقة والكشف والإلهام.

الأمور المتعلقة بالنكاح:

هناك عدة أمور بخصوص النكاح اختصت به هو صلى الله عليه وسلم فقط، ولم يرخص بها لعامة الأمة:

١ــ يجوز المسلم العادي أن يجمع بين أربع زوجات في وقت واحد بشرط العدل، لكن النبي صلى الله عليه وسلم كان يجمع بين أكثر من أربع.

٢ــ رُخص للنبي صلى الله عليه وسلم إن أراد أن يقبل الزواج من المرأة التي تهب نفسهاً له صلى الله عليه وسلم دون صداق، ورغم أن هذا لم يحدث في الواقع إلا أنه لا يجوز لأحد من أفراد الأمة أن يتزوج بغير صداق.

كانت هناك رخصتان له صلى الله عليه وسلم، ولكن كانت هناك في المقابل بعض القيود عليه صلى الله عليه وسلم في هذا الخصوص، وليست علي باقي أفراد الأمة.

٣ــ كانت تلك النساء التي تزوجهن النبي صلى الله عليه وسلم بصداق أو بغير صداق حتى ذلك الوقت فقط هن اللائي يحللن له، بينما كانت تلك الزوجات اللائي هاجرن معه صلى الله عليه وسلم هن اللائي بقين في عصمته، ولم يكن هذا القيد علي باقي المسلمين.

٤ـ يستطيع المسلمون الزواج من نساء أهل الكتاب اللائي لم يدخلن في الإسلام، بينما لا يسمح بهذا للنبي صلى الله عليه وسلم.

٥ـ لم يكن مسموحاً للنبي صلى الله عليه وسلم بطلاق أي من زوجاته اللائي كن في عصمته وقتئذٍ، ولا أن يتزوج من أخري.

٦ـ أُعطي للنبي صلى الله عليه وسلم الحق في تقريب بعض زوجاته وإبعاد البعض الآخر، وهكذا فإن النبي صلى الله عليه وسلم قرب أربع زوجات هن السيدة عائشة، السيدة حفصة، السيدة زينب والسيدة أم سلمة، بينما منح الباقيات شرف البقاء كزوجات له صلى الله عليه وسلم مع بقائهن منفصلات عنه صلى الله عليه وسلم، وكان من حق النبي صلى الله عليه وسلم أن يغير ويبدل في هذا الأمر.

٧ـ لم يكن مسموحاً لزوجات النبي صلى الله عليه وسلم أن يتزوجن من أحد بعد وفاته صلى الله عليه وسلم:

" ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً " (الأحزاب: ٥٣)

وهذه الأحكام برمتها مذكورة بشكل صريح في سورة الأحزاب، ولها أسبابها ومصالحها الخاصة، والحقيقة أن تعدد الزوجات لدي العرب لم يكن محدداً، بل لم يكن محدداً عند بني إسرائيل، وفي التوراة أسماء لأنبياء وصالحين كانت لهم مئات الزوجات، وقد اكتفي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم في عهد شبابه كله من سن ٢٥ سنة إلي ٥٠ سنة بزوجة واحدة (السيدة خديجة رضي الله عنها) ثم تزوج بعد السيدة خديجة مرتين دفعة واحدة، الأولى كانت السيدة سودة رضي الله عنها، والتي كانت تكبره صلى الله عليه وسلم سناً، والسيدة عائشة رضي الله عنها والتي كان عمرها حين عقد النكاح ست سنوات فقط، وكل شخص يعرف أن الزواج من بنت صغيرة إلي هذا الحد يمكن أن يكون من أجل توطيد المحبة بين عائلتين ورفع درجة الاتحاد بينهما، وفي المدينة تزوج النبي صلى الله عليه وسلم عدة مرات، وبالنظر الفاحص إلي هذه الزيجات يبدو جلياً أنها كانت من قسمين من النساء، أما القسم الأول فكان من فتيات لسادة القبائل، وكان الهدف منه خلق مزيد من العلاقات والتوسع فيها من أجل خير الإسلام، فكانت السيدة عائشة رضي الله عنها ابنة الصديق الأكبر رضي الله عنه، والسيدة حفصة رضي الله عنه ابنة الفاروق الأعظم رضي الله عنه، وكانت السيدة أم حبيبة رضي الله عنها ابنة أبي سفيان سيد بني

أمية، وكانت السيدة جويرية رضي الله عنها سيدة قبيلة بني المصطلق، وكانت السيدة صفية رضي الله عنها ابنة سيد خيبر.

أما القسم الثاني من زيجاته صلى الله عليه وسلم فكان من سيدات يكبرنه سناً، وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يتكفل بعبء الإنفاق عليهن، فكانت السيدة سودة رضي الله عنها، والسيدة أم سلمة رضي الله عنها والسيدة ميمونة رضي الله عنها والسيدة أم المساكين رضي الله عنها أرامل، وكانت هناك زوجة أخرى هي السيدة زينب بنت جحش رضي الله عنها والتي لم تكن أرملة، وإنما كانت مطلقة، وطلقها زوجها، وبهذا التفصيل تتكشف لك أسباب تعدد زوجاته صلى الله عليه وسلم.

وليس هناك تصريح بوقت نزول هذه الأحكام المخصوصة في سورة الأحزاب، ولكن بناءً علي أن النبي صلى الله عليه وسلم قد تزوج لآخر مرة من السيدة ميمونة رضي الله عنها عام ٧هـ عندما كان يؤدي العمرة، ولم يثبت أن النبي صلى الله عليه وسلم تزوج بعدها ([1])، لهذا يمكن أن نقرر أن هذه الأحكام نزلت في عام ٧هـ، إذ وصلت قوة الإسلام في عام ٨هـ إلي ذروتها، وكانت خيبر والطائف ومكة قد فتحت كلها، ولم يعد النبي صلى الله عليه وسلم في حاجة إلي استمالة مزيد من القبائل عن طريق علاقة الزواج، ولم تكن هناك حاجة إلي كفالة الأرامل من النساء المسنات.

وينبغي بعد هذا التمهيد أن نعرف أن الإسلام جعل من أزواجه صلى الله عليه وسلم المطهرات وسيلة للحفاظ علي وقار النبوة، ولمر بتجنيدهن جميعاً في سبيل نشر وتبليغ أحكام الإسلام، وحرّم عليه صلى الله عليه وسلم الزواج ثانية، ومنح أزواج النبي صلى الله عليه وسلم جميعاً مقام أمهات المؤمنين " وأزواجه أمهاتهم " (الأحزاب) وعندئذ ينزل الحكم يمنع الزواج بأكثر من أربعة، وعندئذٍ كذلك لا يكون أمام النبي صلى الله عليه وسلم إلا أن يكتفي بهذا العدد من الأزواج واللاتي إن طلق إحداهن فلن تستطيع الزواج بأي مسلم آخر، وسيكون طلاقها عندئذٍ ظلماً صريحاً، ولهذا سمح له صلى الله عليه وسلم بأن يبقي علي أزواجه في عصمته، وتسلب منه صلى الله عليه وسلم رخصة الطلاق، وأن يقرب عدداً من أزواجه صلى الله عليه وسلم ويرجئ البعض الآخر مع الإبقاء عليهن في عصمته، ويختار صلى الله عليه وسلم أربع أزواج فقط، يعني السيدة عائشة رضي الله عنها، السيدة حفصة رضي الله عنها، أم سلمة رضي الله عنها، السيدة ميمونة رضي الله

[1] – طبقات ابن سعد، جزء نساء، ص ٩٤.

عنها والسيدة أم حبيبة رضي الله عنها ([1])، ولم يسمح للنبي صلى الله عليه وسلم بالزواج من كتابية لأنه لم يكن ممكناً الاعتماد عليها في أمور الدين بسبب عدم إيمانها بالنبوة المحمدية، ولم يكن ممكناً كذلك منحها شرف أمنية سرّه صلى الله عليه وسلم.

صلاة الليل:

في البداية عندما لم تكن أحكام الصلوات الخمس قد نزلت بعد كانت صلاة الليل (التهجد) فرضاً علي المسلمين، وعندما فرضت الصلوات الخمس في واقعة المعراج لم تعد صلاة الليل فرضاً علي الأمة، وإنما صارت مستحبة، لكن صلاة الليل هذه بقيت فرضاً زائداً بالنسبة له صلى الله عليه وسلم، وهكذا كان النبي صلى الله عليه وسلم يؤدي هذه الصلاة بانتظام والتزام، وهي تلك الصلاة التي كانت أقدام النبي صلى الله عليه وسلم تتورم من كثرة الوقوف فيها، وجاء في سورة الإسراء: ٧٩، والتي تتحدث عن واقعة المعراج بعد الحديث عن الصلوات الخمس: ــ

" ومن الليل فتهجد به نافلة لك عسي أن يبعثك ربك مقاماً محموداً "

صلاة الفجر والأضحية:

وبنفس الطريقة فإن الصلاة وقت الفجر نفل بالنسبة للمسلمين عامة، بينما ورد في الأحاديث الشريفة أن هذه الصلاة كانت بمثابة الفرض بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم، ومعها كان الحكم بالأضحية أيضاً، وهذه الأحاديث هي في الغالب تفسير لسورة الكوثر:

" إنا أعطيناك الكوثر، فصل لربك وانحر " (الكوثر: ١ – ٢)

لكنها غير مذكورة عن طريق الصحاح، ولهذا فإننا لا نزال نتردد في أن نعدها ضمن الخصائص النبوية.

صلاة ركعتين بعد العصر:

ويمتنع علي عامة الأمة الصلاة بعد صلاة العصر وحتى غروب الشمس، لكن بعض أزواجه صلى الله عليه وسلم المطهرات رأينه صلى الله عليه وسلم في النهاية يصلي بعد صلاة العصر، فلما سألنه قال: "... إِنَّهُ أَتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ بِالإِسْلاَمِ مِنْ قَوْمِهِمْ فَشَغَلُونِي عنِ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ فَهُمَا هَاتَانِ». ([2]) ولم يكن قضاء هذه

---

[1] – تفسير ابن جرير الطبري، تفسير سورة الأحزاب، المجلد ٢٢، ص ١٦ ــ مصر.

[2] – أبو داود والترمذي، باب الصلاة بعد العصر. وهذا نص الحديث: (١٢٧٣) ــــ حدثنا أَحْمَدُ بنُ صَالِحٍ أخبرنا عَبْدُ الله بنُ وَهْبٍ أخبرني عَمْرُو بنُ الحارِث عن بُكَيْرِ بنِ الأَشَجِّ عن كُرَيْبٍ مَولَى ابنِ

الصلاة فرضاً علي عامة الأمة، ولو كان قضاؤها مع ذلك فرضاً لكان يكفي قضاؤها مرة واحدة، لكن النبي صلى الله عليه وسلم ربما ظل حتى آخر العمر يحاول تدارك تركه صلى الله عليه وسلم عمداً لصلاة سنة.

وصال الصوم:

بمعني أنه يمتنع علي الأمة عامة مواصلة الصيام لعدة أيام دون إفطار، بينما كان النبي صلى الله عليه وسلم يصل صومه لأيام عديدة، ولم يكن يتناول طعاماً أو شراباً أثناء ذلك، وأراد بعض الصحابة إتباع النبي صلى الله عليه وسلم في هذا الصيام فمنعهم النبي صلى الله عليه وسلم وقال: "إني لستُ مثلكم، إني أبيتُ يطعمني ربي وَيَسقيني". ([1])

حرمة أكل الصدقة والزكاة:

كانت تمرّ علي النبي صلى الله عليه وسلم وعلي آل بيته أيام عديدة من الفاقة دون طعام، وكان عامة المسلمين يستفيدون من الصدقة والزكاة في حالات الفقر وضيق ذات اليد، لكن النبي صلى الله عليه وسلم حرّم علي نفسه وعلي أهل بيته تناول شيء منها، ولم يقبل أبداً أن تنفق أموال الصدقات في أموره الشخصية حتى أن الحسنين عليهما السلام كانا إذا تناولا تمرة من تمر الصدقات تحت ضغط صغر السن فإن النبي صلى الله عليه

عَباسٍ أنّ عَبْدَ الله بن عَباسٍ وَ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بنَ أزْهَرٍ وَ المِسْوَرَ بنَ مَخْرَمَةَ أرسَلُوهُ إلَى عَائِشَةَ زَوْجِ النَّبيِّ صلى الله عليه وسلم، فَقَالُوا: «اقرَأْ عَلَيْهَا السَّلاَمَ مِنَّا جَميعاً وَسَلْهَا عنِ الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ الْعَصْرِ وَقُلْ إنَّا أُخْبِرْنَا أنَّكِ تُصَلِّينَهُمَا وَقَدْ بَلَغَنَا أنَّ رَسُولَ الله صلى الله عليه وسلم نَهَى عَنْهُمَا فَدَخَلْتُ عَلَيْهَا فَبَلَّغْتُهَا مَا أرْسَلُونِي بِهِ فَقَالَتْ سَلْ أُمَّ سَلَمَةَ فَخرَجْتُ إلَيهِمْ فَأخْبَرْتُهُمْ بِقَوْلِهَا فَرَدُّونِي إلَى أُمِّ سَلَمَةَ بِمِثْلِ مَا أرْسَلُونِي بِهِ إلَى عَائِشَةَ فَقَالَتْ أُمُّ سَلَمَةَ سَمِعْتُ رسولَ الله صلى الله عليه وسلم يَنْهَى عَنْهُمَا ثُمَّ رَأيْتُهُ يُصَلِّيهِمَا أمَّا حِينَ صَلاَّهُمَا فإنَّهُ صَلَّى الْعَصْرَ ثُمَّ دَخَلَ وَعِنْدِي نِسْوَةٌ مِنْ بَنِي حَرَامٍ مِنَ الأنْصَارِ فَصَلاَّهُمَا فأرْسَلْتُ إلَيْهِ الْجَارِيَةَ فَقُلْتُ قُومِي بِجَنْبِهِ فَقُولِي لَهُ تَقُولُ أُمُّ سَلَمَةَ يَارَسُولَ الله أسْمَعُكَ تَنْهَى عنْ هَاتَيْنِ الرَّكْعَتَيْنِ وَأرَاكَ تُصَلِّيهِمَا فإنْ أشَارَ بِيَدِهِ فَاسْتَأْخِرِي عَنْهُ. قالَتْ فَفَعَلَتِ الْجَارِيَةُ فَأشَارَ بِيَدِهِ فَاسْتَأْخَرَتْ عَنْهُ، فَلَمَّا انصَرَفَ قالَ يَابِنْتَ أبي أُمَيةَ سَألْتِ عنِ الرَّكْعَتَيْنِ بَعْدَ العَصْرِ إنَّهُ أتَانِي نَاسٌ مِنْ عَبْدِ الْقَيْسِ بالإسْلاَمِ مِنْ قَوْمِهِمْ فَشَغَلُونِي عنِ الرَّكْعَتَيْنِ اللَّتَيْنِ بَعْدَ الظُّهْرِ فَهُمَا هَاتَانِ». (يوسف عامر.

[1] – صحيح البخاري، كتاب الاعتصام. وهذا نص الحديث: (٧١٣٥) حدَّثَنا عبدُ اللَّه بن محمد حدَّثَنا هشامٌ أخبرَنا مَعْمرٌ عن الزُّهريِّ عن أبي سلمة عن أبي هريرةَ قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لا تواصلوا، قالوا: إنكَ تواصل، قال: إني لستُ مثلكم، إني أبيتُ يطعمني ربي وَيَسقيني. فلم ينتهوا عن الوصالِ. قال: فواصَلَ بهم النبيُّ صلى الله عليه وسلم يومَيْن أو ليلتين، ثم رأوا الهلالَ فقال النبي صلى الله عليه وسلم: لو تأخَّرَ الهلالُ لزِدتكم. كالمنكي لهم». (يوسف عامر).

وسلم كان يجعلهما يتقيئآنه ([1]) وأخبر ﷺ بأن هذا بقايا ثروات الناس، ولا يليق بأهل بيت النبوة تناوله ([2])، ولهذا فإنه لا يجوز للأشراف (ذرية النبي صلى الله عليه وسلم) تناول شيئاً من هذه الصدقات حتى قيام الساعة، وعندما كان يأتيه شخص يجهل هذا الحكم حاملاً معه شيئاً من مثل هذا ليقدمه للنبي صلى الله عليه وسلم فكان النبي صلى الله عليه وسلم يسأله إن كان هذا صدقة أم هدية ؟ فإن كان هدية قبلها، وإن علم أنها صدقة تجنبها ([3])، وهكذا قضي النبي علي سوء ظن المخالفين في هذا الخصوص وإلي الأبد فيما زعموا بأن تأكيد نبي الإسلام علي الصدقات والتبرعات مقصود به توفير الإنفاق الدائم له ولأهل بيته (والعياذ بالله).

---

[1] - صحيح البخاري ومسلم، كتاب الزكاة. وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح البخـاري: (١٤٧٣) حدثنا آدم حدثنا شُعبةُ حدثَنا محمدُ بنُ زيادٍ قال: سمعتُ أبا هريرةَ رضيَ الله عنه قال «أخذَ الحسنُ بنُ عليٍ رضيَ الله عنهما تمرةً من تَمَرِ الصَّدقة فجَعلَها في فيهِ، فقالَ النبيُّ صلى الله عليه وسلم: كَخْ، كَخْ، ليطرحها. ثمَّ قالَ: أما شَعرتَ أنّا لا نأكلُ الصدقة»؟ (يوسف عثمان).

[2] - صحيح مسلم، كتاب الزكاة.

[3] - صحيح مسلم، كتاب الزكاة، وصحيح البخاري كتاب الهبة.

لقد جاءت الخصائص التي أعطيت للنبي صلى الله عليه وسلم فوق ما أعطيه الأنبياء السابقون في أحاديث عديدة معتبرة وعلي لسانه صلى الله عليه وسلم، فقد روي في الصحيحين عن سيدنا جابر رضي الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «أُعْطِيتُ خَمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْب مَسِيرَةَ شَهرٍ، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ مَسجِداً وطَهوراً فأيُّما رَجُلٍ من أُمَّتي أدركَتْهُ الصلاةُ فلْيُصلِّ، وَأُحِلَّتْ ليَ المَغانِمُ ولم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأُعْطِيتُ الشفاعَةَ، وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النّاسِ عامَّةً».([1])، وجاء في صحيح مسلم أن سيدنا أبا هريرة رضي الله عنه سمع من النبي صلى الله عليه وسلم ستة أمور: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُوراً وَمَسْجِداً. وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً. وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ». ([2])

كما وردت خصائص أخرى في أحاديث أخرى علي لسان النبي صلى الله عليه وسلم منها علي سبيل المثال أن معجزة الوحي قائمة له ﷺ حتى يوم القيامة، وأن متبعوه ﷺ أكثر من متبعي الأنبياء جميعاً، وأن نبوته ﷺ هي الأولي، وأنه ﷺ أعطي سورة كذا

---

[1] – صحيح البخاري، كتاب الصلاة ــ باب جعلت في الأرض كلها مسجداً، وكتاب التيمم، وصحيح مسلم باب المساجد والنسائي باب التيمم. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري: (٣٣٣) ــ حدَّثَنا محمدُ بنُ سِنانٍ قال: حدَّثَنا هُشَيمٌ. ح. قال: وحدَّثني سعيدُ بن النَّضْرِ قال: أخبرَنا هُشَيمٌ قال: أخبرَنا سَيَّارٌ قال: حدَّثَنا يَزِيدُ ــ هو ابنُ صُهَيب الفقيرُ ــ قال: أخبرَنا جابرُ بنُ عبدالله أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «أُعطِيتُ خَمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْب مَسِيرَةَ شَهرٍ، وجُعِلَتْ لـيَ الأرضُ مَسجِداً وطَهوراً فأيُّما رَجُلٍ من أُمَّتي أدركَتْهُ الصلاةُ فلْيُصَلِّ، وَأُحِلَّتْ ليَ المَغانِمُ ولم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأُعْطِيتُ الشفاعَةَ، وكان النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَومِه خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النّاسِ عامَّةً». (يوسف عامر).

[2] – صحيح مسلم، باب المساجد، والترمذي كتاب السير والنسائي. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١١٩) وحدثنا يَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ وَ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَ عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ. قَالُوا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ عَنِ الْعَلاَءِ، عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ؛ أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ بِسِتٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُوراً وَمَسْجِداً. وَأُرْسِلْتُ إِلَى الْخَلْقِ كَافَّةً. وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ». (يوسف عامر).

وكذا ولم تعط لأحد آخر، وفرضت صلاة كذا وكذا خاصة لأمته ﷺ، لكن الحقيقة هو أن بعض هذه التفاصيل تأتي تحت عنوان من العناوين الستة السابقة، فخصوصية السور تدخل في جوامع الكلم، وإضافة أوقات بعض الصلوات يأتي ضمن مدراج النبوة. وهناك خصوصيتان مذكـــورتان في القرآن الكريم يجمعان كل هذا، وهما اكتمال الدين، واختتام النبوة. علي أية حال دعك من الإجمال، ولنلق نظرة تفصيلية علي هذه الخصائص الواضحة في ضوء القرآن الكريم والأحاديث الصحيحة.

الرعب والنصرة:

ينقسم الأنبياء الذين بعثوا قبل النبي صلى الله عليه وسلم إلي قسمين، إما أنهم كانوا يبدون في الظاهر ضعفاء لا معين لهم، وأنهم لم يمنحوا أية قوة دنيوية، وأكثر الأنبياء كانوا هكذا، أما القسم الثاني فهو أولئك الذين أعطوا القوة الدنيوية الظاهرية وهؤلاء قلة، مثل سيدنا موسى عليه السلام، وسيدنا داوود عليه السلام، وسيدنا سليمان عليه السلام، ولكن لم يعط أي منهم الهيبة والرعب لمجرد وجودهم واسمهم، والتاريخ شاهد علي هذا القول، ورغم أن بداية النبي صلى الله عليه وسلم كانت في ضعف أيوب، وفقر المسيح، إلا أن النهاية كانت في قوة موسى وحكم داوود وعظمة وجلال سليمان، والأهم من هذا كله أن كل قوته صلى الله عليه وسلم وطاقته وهيبته وجلاله قد أنفقت في سبيل الله، فاهتدي به الضالون، وتذكر به الناسون، نادي من يسمعون فكانت النتيجة أنه حيثما يولي للنبي صلى الله عليه وسلم وجهه كان المذنبون والآثمون يحنون رأس الطاعة، ويبدون ندمهم علي آثامهم وذنوبهم.

وقد جاء في أحاديث عديدة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:"... نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهرٍ "(١). وقد قال ابن خلدون في مقدمته في ثنايا حديثه عن فنون

---

(١) – صحيح البخاري ومسلم عن أبي هريرة وأحمد وابن أبي شيبة والبيهقي والبراز عن عليّ. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري: (٣٣٣) ـــ حدَّثَنا محمدُ بنُ سِنانٍ قال: حدَّثَنا هُشَيمٌ. ح. قـــال: وحـــدَّثَني سعيدُ بن النَّضرِ قال: أخبرَنا هُشيمٌ قال: أخبرَنا سَيارٌ قال: حدَّثَنا يَزِيدُ ـــ هو ابنُ صُهَيبٍ الفقيرُ ـــ قـــال: أخبرَنا جابرُ بنُ عبدالله أنَّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «أُعْطِيتُ خَمساً لم يُعطَهُنَّ أحدٌ قبلي: نُصِرْتُ بالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهرٍ، وجُعِلَتْ ليَ الأرضُ مَسجِداً وطَهوراً فأيُّما رَجُلٍ من أُمَّتي أدرَكَتْهُ الصلاةُ فلْيُصَـــلِّ، وأُحِلَّتْ ليَ المَغانِمُ ولم تَحِلَّ لأحَدٍ قَبْلي، وأُعْطِيتُ الشفاعَةَ. وكانَ النبيُّ يُبْعَثُ إلى قَومِهِ خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النَّاسِ عامَّةً». (يوسف عامر).

الحرب أن الفريق الذي ينتصر في المعارك إنما ينتصر حين يحل الرعب الإلهي علي الفريق الآخر.

وقد أعطي اسم النبي الكريم صلى الله عليه وسلم هذا الشرف حتى يمكن إحلال الأمن والسلام في البلاد بغير مزيد من إراقة الدماء، ويمهد الطريق أمام صوت الحق، وكان الله تعالي قد وعد بمنح هذا الوصف في القرآن المجيد فقال: ـــ

" سألقي في قلوب الذين كفروا الرعب " (الأنفال: ١٢)

وتحقق هذا الوعد وشهد به القرآن.

" فقذف في قلوبهم الرعب " (الأحزاب: ٢٦ ؛ الحشر: ٢)

وهكذا كان المحاربون الشجعان ينزلون إلي الميدان وقد غمسوا سيوفهم في السّم، ولكن عندما كان نظرهم يقع وجهه المضيء صلى الله عليه وسلم كانوا يرتعدون، وكثير من القبائل المتمردة كان يسقط في يديها لمجرد سماع اسم النبي صلى الله عليه وسلم، وكان اليهود حول المدينة، والذين كانوا يحكمون وهم جالسون في قلاع عظيمة، ويفخرون بقوتهم العسكرية وعدتهم الحربية، حين يأتي وقت المواجهة يخضعـــون للنبي صلى الله عليه وسلم، واليهود في قلعة خبير، والذين كانوا أكثر اليهود قوة، عندما هلت عليهم كوكبة الإسلام فجأة أمام قلاعهم صرخوا قائلين " جيش محمد "، وأبو سفيان الذي كان يعد في ميدان الحرب فريقاً بكامله، عندما اصطحبه سيدنا عباس يوم فتح مكة وأراه النهر الإلهي الجار، وتمثلت أمام عينيه الرايات الملونة، فإنه كان يرتعد عند رؤية كل علم وكل كتيبة، ومع ذلك فماذا كان حال تلك الهيبة المجسدة، كان يخافه الذين لا يعرفونه، وكان هو يطمئنهم، والغافلون يصيبهم الرعب منه، أما الذين يعرفونه فكانوا فراشات حوله: ـــ

" محمد رسول الله والذين معه أشداء علي الكفار رحماء بينهم " (الفتح: ٢٩)

جاء بدوي إلي النبي صلى الله عليه وسلم، وبمجرد أن رأي وجهه المبارك ارتعد خوفاً، فأخبره النبي ﷺ بأنه ليس ملكاً، وإنما هو ﷺ ابن امرأة من قريش كانت تأكل القديد ([1])، وقال سيدنا مخرمة الصحابي لابنه أسود أن النبي صلى الله عليه وسلم في حجرة النساء، فناد عليه، لكنه تردد خوفاً، فقال الأب يا روح أبيك، إن محمداً صلى الله عليه وسلم ليس جباراً ([2])، هذه الهيبة وهذا الوقار وهذا الجلال وهذا الرعب لم يكن بأسنة

---

[1] – شمائل الترمذي.

[2] – صحيح البخاري، الجزء الثاني، ص ٨٧١.

السيوف والرماح اللامعة، ولم يكن بالجيوش والعساكر الكثيرة، ولم يكن بصفوف الجلادين، ولا بعرض الجنود المسلحين، وإنما: ــ

هذه هيبة الحق، وليست من الخلق وليست هيبة هذا الرجل صاحب الدلق. .. (الرومي)

المسجد العام:

إن المذاهب والأديان كلها ما عدا الإسلام تحتاج لأداء طقوسها الدينية إلي أماكن محاطة بجدران، وكأن إلههم يعيش في داخلها، ولا يستطيع اليهود أن ينادوا الله خارج الصوامع وأماكن الأضاحي، بل ولا يستطيعون تقديم نذورهم خارجها، كما لا يستطيع المسيحيون الانحناء أمام الله خارج كنائسهم، حتى أن الشعوب الوثنية أيضاً يستطيعون التقرب إلي آلهتهم داخل جدران معابدهم فقط، لكن الله في الدين الإسلامي العالمي ليس محدوداً داخل الأرض والأحجار والجدران، إنه في كل مكان، وتستطيع أن تناديه في كل مكان، وتسجد له أمة محمد صلى الله عليه وسلم في الجبال والصحراء والبر والبحر والمساجد والكنائس ([1])، فهو خارج المساجد كما هو بداخلها، ويمكن التقرب إليه في الشرق والغرب وفي كل مكان. " أينما تولوا فثم وجه الله " (البقرة: ١١٥)

وقال صلى الله عليه وسلم: "وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً" ([2]). وهذه القضية تبدو عادية علي أية حال، لكن تكمن بداخلها تلك الحقيقة التي تعلن أن الإسلام دين عالمي وأنه الدين الخاتم.

كثرة المتبعين:

لقد جاء إلي هذه الدنيا مئات الآلاف من الأنبياء، لكن لم يبق في هذه الدنيا حتى يومنا تذكار لتعاليمهم وإرشاداتهم حتى أننا لا نجد لهم أثراً علي صفحات التاريخ، أما أولئك الأنبياء الذين نعرف سيرة حياتهم فإننا نعرف عنهم أيضاً أن الذين اتبعوا دعوتهم قلة قليلة، ولك أن تلق نظرة علي إنجازات الأنبياء منذ سيدنا نوح عليه السلام وحتى سيدنا عيسي عليه السلام، ولن تجد نبياً منهم باستثناء موسى عليه السلام يصل عدد متبعيه إلي مائة فرد، أما سيدنا موسى عليه السلام فقد كانت عدة آلاف من بني إسرائيل هي محور

---

[1] – جاء في صحيح البخاري في باب الصلاة في البيع من كتاب الصلاة أن سيدنا ابن عباس رضي الله عنه كان يصلي في تلك الكنائس التي لا توجد فيها صور.

[2] – صحيح البخاري ومسلم والنسائي والترمذي ــ باب المساجد.

محاولاته وحتى هؤلاء كانوا يبتعدون عن طريق الحق مع كل خطوة، فأحياناً يعبدون العجل، وأحياناً يصرون علي أن يروا الله بأعينهم، وأحياناً أخرى يجبنون عن التضحية والفداء ويرفضون الخروج إلي ميدان الحرب. أما الإنجازات المعجزة لسيدنا عيسي عليه السلام فكانت نتيجتها أن تأثر بعض عشرات من الناس بأسلوب حديثه وكلامه، ولكن قبل أن يصيح الديك كانوا يسلمون بني آدم إلي قبضة الأعداء، ويرفضون التعرف عليه ثلاث مرات. أما بالنسبة للنبي صلى الله عليه وسلم فقد دعا الباحثين عن الحق إلي التوحيد بنفسه وحيداً ودون معين في حواري مكة، ولم يرتفع صوت واحد رداً عليه، لكن لم تكد تمضي ثلاث وعشرون سنة حتى ضجت كل ذرة من ذرات الصحراء العربية بقول " لا إله إلا الله "، وحين أعلن النبي صلى الله عليه وسلم عن حجة الوداع في أرض مكة هذه كان يحيط به علي الأقل مائة ألف من الفدائيين والشجعان.

جاء في صحيح مسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم قال:". .. لم يصدق نبي من الأنبياء ما صدقت، وإن من الأنبياء نبيا ما يصدقه من أمته إلا رجل واحد"([1]).

وجاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "عرضت عليّ (في عالم المثال) الأمم، فرأيت النبي ومعه الرهيط والنبي ومعه الرجل والرجلان والنبي ليس معه أحد، إذا رفع لي سواد عظيم فظننت أنهم أمتي فقيل لي: هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: انظر إلى الأفق الآخر، فنظرت فإذا سواد عظيم فقيل لي: هذه أمتك" ([2])

عمومية الدعوة:

ومن أسباب كثرة متبعي محمد صلى الله عليه وسلم والمؤمنين به أن كل الأنبياء الذين جاءوا قبل محمد صلى الله عليه وسلم بعثوا إلي شعوب وقبائل مخصوصة، ولم تكن دعوتهم عامة، حتى أن سيدنا عيسي حصر نفسه علي (خراف) بني إسرائيل الضالة، بينما كانت بعثة النبي صلى الله عليه وسلم لكل شعوب الأرض وأجناسها، للبيض والسود والرومي والحبشي والعرب والعجم والترك والتتر والصينيين والهنود، كلهم أصحاب حقوق متساوية فيه صلى الله عليه وسلم. وقد قال القرآن الكريم: ـ

" وما أرسلناك إلا كافة للناس " (سبأ: ٢٨)

---

[1] – صحيح مسلم، كتاب الإيمان.

[2] – المصدر السابق، وكذلك كتاب الطب للبخاري، وباب وفاة موسى، وكتاب الرفاق. (يوسف عامر).

" تبارك الذي نزل الفرقان علي عبده ليكون للعالمين نذيراً " (الفرقان: ١)

وجاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "وكان النبيُّ يُبْعَثُ إِلى قَومِه خاصَّةً وبُعِثْتُ إلى النّاسِ عامَّة».(١). وقد وردت أحاديث كثيرة بهذا المعني وذكرت في كتب الأحاديث المختلفة، والدليل العملي علي هذا أنك إذا اطلعت علي سيرة الأنبياء جميعاً ستجد أن متبعيهم كانوا محدودين في حياتهم ببلادهم وشعوبهم، بينما كان من المؤمنين بالنبي صلى الله عليه وسلم في حياته بالإضافة إلي العرب سيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنه، وسيدنا صهيب الرومي رضي الله عنه، وسيدنا بلال الحبشي رضي الله عنه، ورسائله صلى الله عليه وسلم بالدعوة الإسلامية إلي سلاطين العالم بمثابة الدليل العملي علي قوة عمومية الدعوة.

جوامع الكلم:

لا تزال الصحف السماوية موجودة في الدنيا بصورة من الصور، ولكنها جميعاً باستثناء واحدة فقط محرومة من صفة الجامعية، والتوراة عبارة عن مجموعة من الأحكام والقوانين وتاريخ الشعوب، وهي خالية من العقائد الضرورية باستثناء عقيدة التوحيد والرسالة، وخالية من كل أمور العبادات باستثناء الذبيحة والتضحية وخالية من كل الدقائق الأخلاقية بإستثناء بعض الأمور العادية. أما الزبور فهو مجرد مجموعة من الأدعية والمناجاة، وسفر أيوب يتحدث عن عقيدة القدر والرضا فقط، وأمثال سليمان مجرد حكم ومواعظ، وصحف أنبياء بني إسرائيل الآخرين ما هي إلا توبة وندم ونبوءات ومآتم. أما الإنجيل فهو عبارة عن سيرة حياة سيدنا عيسي عليه السلام ومجموعة لتعاليمه الأخلاقية فقط، لكن الصحيفة التي نزلت علي سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم هي جوامع الكلم، يعني أنها جامعة لكل الأمور، فهي التوراة، وهي الزبور وهي الإنجيل وهي أكثر منها أيضاً، ولهذا قال صلى لله عليه وسلم فيما يتعلق بخصـــوصيــاته: "أعطيت جوامع الكلم" ([2])، وروي في للبيهقي ([1]) عن سيدنا واثلة بن أسقع أنه صلى الله عليه وسلم أخبر بأنه

[1] - صحيح مسلم، كتاب الإيمان. (يوسف عامر).

[2] - صحيح البخاري، كتاب الاعتصام وباب التعبير، ومسلم ـ كتاب المساجد.. وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (١١١٩) وحدثنا يَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ وَ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ وَ عَلِيُّ بْنُ حُجْرٍ. قَالُوا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ وَهُوَ ابْنُ جَعْفَرٍ عَنِ الْعَلاَءِ عَنْ أَبِيهِ، عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «فُضِّلْتُ عَلَى الأَنْبِيَاءِ

أعطي السبع الطوال بدلاً من التوراة، ومئين (السورة ذات المائة آية تقريباً) بدلاً من الزبور، وأعطي المثاني مكان الإنجيل، وأعطي فوق هذا السور المفصلات ([2])، وقد جاءت هذه الرواية عند أبي نعيم أنه ﷺ أعطي المثاني مكان التوراة، والمئين مكان الإنجيل، والحواميم مكان الزبور وأعطي فوق هذا المفصلات ([3])

ولهذا فإن القرآن الكريم يجمع التوراة والزبور والإنجيل، وزيادة عليها، فهو تاريخ الشعوب أيضاً، وهو أخلاق ومواعظ وهو أدعية ومناجاة، وفيه جميع عقائد الدين الكامل، وكل طقوس العبادات، وأحكام وقوانين المعاملات كلها، وفيه التعاليم الصحيحة والإرشادات لكل فترة من فترات حياة المسلم وكل شعبة من شعبها، في حين أن الأسفار الخمسة للتوراة ليست مجموعة كاملة للحياة الدينية لليهود، والإنجيل ليس ثروة الحياة الدينية للمسيحيين، حتى أن عقائدهم وعباداتهم ليست مرهونة علي صحفهم، وكلها صامتة عن تعاليمها الصحيحة، لكن الإسلام لا يخرج عن القرآن، وما هو خارج القرآن (الأحاديث) ما هو إلا تفسير وتوضيح عمليّ له، وهو بذاته كفيل بتلبية كل الاحتياجات المسلم، وإجابة كل سؤال،ولهذا يرفع المؤمن الكامل به شعار " حسبنا الله ونعم الوكيل ".

القرآن جوامع الكلم، وتضم كل آية فيه مئات اللطائف، واستخرج المتكلمون والفقهاء من كل لفظ من ألفاظه العديد والعديد من القضايا، ورأي فيها المتصوفة وأرباب الحال العديد من النكات والدقائق، ومع ذلك فإن دقائقه ولطائفه لا تنتهي، ولا يمكن حصر جوامع الكلم فيه.

بِستٍ: أُعْطِيتُ جَوَامِعَ الْكَلِمِ. وَنُصِرْتُ بِالرُّعْبِ. وَأُحِلَّتْ لِيَ الْغَنَائِمُ. وَجُعِلَتْ لِيَ الأَرْضُ طَهُوراً وَمَسْجِداً. وَأُرْسِلْتُ إِلَىٰ الْخَلْقِ كَافَّةً. وَخُتِمَ بِيَ النَّبِيُّونَ». (يوسف عامر).

[1] – نقلاً عن الخصائص الكبرى، جزء ٦، ص ١٩٨.

[2] – السبع الطوال والمئين والمفصلات كلها أسماء المجموعات مختلفة من عدة سور من سور القرآن الكريم.

[3] – أبو نعيم أبي عباس (نقلاً عن خصائص السيوطي، جزء ٢، ص ٢٢٤، وألفاظ الرواية الثانية أكثر قبولاً للقياس مما سبقها، إذ أن المثاني والسبع الطوال هما شيء واحد في نظرنا، وقد عدّا اثنين في الرواية الأولي، في حين أن القرآن الكريم قال: " سبعاً من المثاني ". أما الحواميم فهي تلك السور التي تبدأ بـ (حم)، وهناك اختلافات كثيرة في شروح العلماء والروايات فيما يتعلق بتفصيل " سبعاً من المثاني "، ويظهر من بعض الروايات أن المقصود من السبع المثاني هو سورة الفاتحة باعتبار أنها تضم سبع آيات، والله أعلم بالصواب.

تكميل الدين:

وبما أن صحيفة الإسلام جامعة هكذا فإن الدين الذي جاءت به يكون كاملاً تأكيداً، وقد أعلن القرآن المجيد علي جمع المسلمين العظيم يوم حجة الوداع قرب وفاة النبي صلى الله عليه وسلم: " اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً " (المائدة: ٣)

والإسلام طبقاً لعقيدة القرآن هو ذلك الدين الصحيح الذي جاء به كل الأنبياء كل في زمانه، وظل يكتمل علي أيدي الأنبياء تباعاً بمرور عمر الدنيا، حتى وصل إلي اكتماله بدعوة سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وتم بتبليغها، وهذه المهمة الخاصة كانت مقدرة للنبي صلى الله عليه وسلم منذ الأزل، فقال صلى الله عليه وسلم: " أنا خاتم النبيين وآدم منجدل في طينته " وقد شرح رسول الله صلى الله عليه وسلم مسألة اكتمال الدين هذه في تشبيه بليغ حيث قال: «مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بُنْيَاناً فَأَحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ. أَلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ. فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَـٰذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ. وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ».([1]).فالبيان هو الدين والنبوة، وكل حجر فيه بمثابة نبي ودينه وشريعته، واكتمال آخر لبنة فيه هو الوجود الطاهر للنبي الأمي صلى الله عليه وسلم.

المعجزة الدائمة:

وقد ظل هذا الدين يأتي إلي الدنيا علي يد مختلف الأنبياء، ولأن هؤلاء الأنبياء جاءوا لأزمنة محددة، لهذا كانت معجزاتهم محدودة الوقت أيضاً، بمعني أنها تظهر في وقت معين ثم تنتهي، وبالتالي فلا وجود الآن لعصا موسى عليه السلام، ولا للحن داود عليه السلام، ولا لتعبير يوسف عليه السلام وتفسيره (للأحلام)، ولا لناقة صالح عليه السلام، ولا لنفس عيسي عليه السلام، لكن الدين الذي جاء به محمد صلى الله عليه وسلم كان كاملاً وباقياً حتى يوم القيامة، لهذا كان في حاجة إلي معجزة دائمة ومستقلة وهي

---

[1] – وهذا نص الحديث كما ورد فى صحيح مسلم، كتاب الفضائل، باب تميم الأنبياء وختمهم بـالنبي ﷺ: (٥٩١٤هـ) وحدثنا يَحْيَىٰ بْنُ أَيُّوبَ وَ قُتَيْبَةُ وَ ابْنُ حُجْرٍ. قَالُوا: حَدَّثَنَا إِسْمَاعِيلُ يَعْنُونَ ابْنَ جَعْفَرٍ عَنْ عَبْدِ اللّهِ بْنِ دِينَارٍ عَنْ أَبِي صَالِحٍ السَّمَّانِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللّهِ قَالَ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَىٰ بُنْيَاناً فَأَحْسَنَهُ وأَجْمَلَهُ. أَلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهُ. فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ بِهِ وَيَعْجَبُونَ لَهُ وَيَقُولُونَ: هَلاَّ وُضِعَتْ هَـٰذِهِ اللَّبِنَةُ قَالَ: فَأَنَا اللَّبِنَةُ. وَأَنَا خَاتَمُ النَّبِيِّينَ». (يوسف عامر).

صحيفة الإسلام. جاء في الصحيحين أن النبي صلى الله عليه وسلم «ما مِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلاّ أُعطِيَ منَ الآيات ما مثلهُ أُومِنِ ــ أو آمن ــ عليهِ البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُهُ وَحْياً أوحاهُ اللّهُ إليَّ، فأرجو أني أكثَرُهم تابعاً يومَ القيامة». ([1])، وكان هذا التصور المبارك لأن معجزته صلى الله عليه وسلم من الوحي حتى قيام الساعة، ولهذا فإن الذين سيرونه ويؤمنون به سيكونون الأكثر، هذا ولم تكن صحف الأنبياء السابقين معجزة في ذاتها، ولهذا لم تنجو من التغيير والتحريف، أما القرآن فهو الصحيفة الكاملة للدين ووحي خاتم الأنبياء والمعجزة الدائمة، ولهذا جاء مصطحباً معه ما يضمن حفظه للأبد:

" وإنا له لحافظون " (الحجر: ٩)

ختم النبوة:

هذا الرعب وهذه النصرة، وهذه الكثرة من المتبعين، وجعل الأرض مسجداً وطهوراً، وهذا الإعجاز الدائم، وهذه الجامعية للكلم، وهذه الدعوة العامة، وهذا الاكتمال للدين، وهذه الآيات المبينة كلها دلائل علي أن وجوده الطاهر صلى الله عليه وسلم كان اختتاماً لنعم الأنبياء جميعاً، ومنتهى سلسلة الرسالة والنبوة، وأصبحت الدنيا بعده صلى الله عليه وسلم في غني عن نبي قادم، ولهذا أعلن القرآن الكريم في هذا الجمع العظيم لعهد النبوة قائلاً: ــ

" اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتي، ورضيت لكم الإسلام ديناً "(المائدة: ٣)

وقد نزلت هذه الآية في التاسع من ذي الحجة عام ١٠هــ، وكانت بشارة أن النبوة التي كان هدفها إضـــافة لبنـــة ما إلي عمارة الدين وصلت اليوم إلي اكتمالها، لكن هذه البشارة وردت أيضاً عام ٥هــ في قوله تعالي: ــ

"ما كان محمداً أبا أحدٍ من رجالكم ولكن رسول الله وخاتم النبيين"(الأحزاب: ٤٠)

[1] – صحيح البخاري، كتاب الاعتصام، وصحيح مسلم، كتاب الإيمان. وهذا نص الحديث كما ورد فــى البخاري: (٧١١٢) حدَّثَنا عبدُ العزيز بنُ عبدِ اللّه حدَّثَنا الليثُ عن سعيد عَن أبيه عن أبي هريــرةَ عــن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «ما مِنَ الأنبياءِ نبيٌّ إلاّ أُعطِيَ منَ الآيات ما مثلهُ أُومِــن ــ أو آمــن ــ عليهِ البشر، وإنما كان الذي أُوتيتُهُ وَحْياً أوحاهُ اللّهُ إليَّ، فأرجو أني أكثَرُهم تابعاً يومَ القيامة». (يوســف عامر).

والختم يعني إغلاق شيء بحيث لا يخرج ما فيه ولا يدخل إليه شيء ([1])، ومنه إغلاق الشيء والختم عليه، وهو ما يعني أن لا يخرج منه شيء ولا يدخل إليه شيء، ولأن عملية الختم هذه تكون آخر شيء، لهذا فإنها تأتي أيضاً بمعني النهاية والخاتمة، وقد استخدم هذا المعني في القرآن الكريم في قوله تعالي: ـ

" اليوم نختم علي أفواههم " (يس: ٦٥)

ومعني الختم هنا بشكل واضح هو الإغلاق: ـ

" ختم الله علي قلوبهم " (البقرة: ٧)

بمعني أن النصائح والإرشادات التي يسمعونها لا تنفذ إلي قلوبهم ولا تؤثر فيها:

" وختم علي سمعه وقلبه " (الجاثية: ٢٣)

بمعني أن صوت رسول الله صلى الله عليه وسلم بالدعوة لا يصل إلي أسماعهم ولا تؤثر فيها:

(يُسقَوْنَ مِنْ رَحِيقٍ مَخْتُومٍ) (المطففين:٢٥) بمعني أنه سيكون مختوماً مما يدل علي أنه شراب خالص، ولم يفتح حتى لا تتسرب رائحته الطيبة ولم يخلط أحد معه شيئاً من خارجه فيصبح أقل تأثراً، وجاء بعد هذه الآية قوله: ـ

" ختامه مسك " (المطففين: ٢٦)

بمعني أن رائحة المسك تفوح منه بعد كل جرعة منه، أو أن معناها أن فوهة الزجاجة أو الأبريق مغلقة بالمسك الخالص بدلاً من الشمع أو الطين مثل الدنيا، وذلك بغرض نقائها ونظافتها علي أعلي مستوى.

علي أية حال يُعلم من كل الاستعمالات وعلي وجه اليقين أن المعني العام والمشترك لهذا اللفظ هو إغلاق شيء ما، وهناك قراءتان للفظ " خاتم "، والقراءة المشهورة ([2]) هي "خاتِم " بكسر التاء والتي تعني إنهاء وإغلاق، وأما القراءة الثانية فهي " خاتَم " بفتح التاء، وهي تعني الشيء الذي يغلق به شيء ما ويختم به عليه حتى لا يمكن فتحه ولا يخرج شيء مما بداخله. المهم أن معني الآية الكريمة في الحالتين واحد وهو أن وجود النبي صلى الله عليه وسلم خاتم لسلسلة الأنبياء ومختوم به عليها بحيث لا يمكن لأحد في المستقبل أن يدخل في هذه الجماعة.

---

[1] – انظر لسان العرب وصحاح الجوهري وأساس البلاغة للزمخشري.

[2] – تفسير جرير الطبري وتفسير ابن حبان الأندلسي، تفسير الآية المذكورة.

ومعني الآية الكريمة أن النبي صلى الله عليه وسلم ليس أباكم الظاهري، والذي تترتب علي علاقته بكم أحكام كالميراث وتحريم النكاح وغيرها، وإنما هو الأب الروحي " رسول الله صلى الله عليه وسلم " وآخر أب روحي (خاتم النبيين)، ولهذا فإنه بغير الأحكام الظاهرية للأبوة ينبغي أن نحبه صلى الله عليه وسلم محبة الأب، وكذلك تنبغي إطاعته صلى الله عليه وسلم كما يطاع الأب.

وشرح لفظ خاتم النبيين في الأحاديث الصحيحة واضح وظاهر، وقد روي في مسند أحمد عن سيدنا ثوبان رضي الله عنه وسيدنا حذيفة رضي الله عنه [١]، وفي الترمذي [٢] عن ثوبان رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأنه سيولد بعده سبع وثلاثون نبياً كاذباً: " وإني خاتم النبيين لا نبي بعدي ".

ولا نبي بعدي شرح وتفسير لخاتم النبيين، ويثبت منها أن معني خاتم النبيين هو أنه لا نبي بعده صلى الله عليه وسلم، وبالإضافة إلي ذلك المثل المشهور الذي ضربه صلى الله عليه وسلم لتكميل الدين وختم النبوة والذي ذكرناه سابقاً يفسر تماماً لفظ خاتم النبيين، فقد قال صلى الله عليه وسلم «مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَىٰ بُيُوتاً فَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا. إلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا. فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ فَيَقُولُونَ: أَلاَّ وَضَعْتَ هَـٰهُنَا لَبِنَةً فَيَتِمَّ بُنْيَانُكَ» فَقَالَ مُحَمَّدٌ: «فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ»([٣]). أما الروايات الأخرى فقد جاء فيها كما يلي:

" فأنا تلك اللبنة ".

" فأنا اللبنة وأنا خاتم النبيين ".

" فأنا موضع اللبنة فجئت فختمت الأنبياء ".

" وأنا في النبيين موضع تلك اللبنة ".

---

[١] – جزء ٥ ــ ص ٣٩٦ ــ والعدد في هذه الرواية ٣٧ منهم أربع نساء.

[٢] – كتاب الفتن، حديث حسن صحيح.

[٣] – وهذا نص الحديث كما ورد في صحيح مسلم: (٥٩١٣) وحدثنا مُحَمَّدُ بْنُ رَافِعٍ. حَدَّثَنَا عَبْدُ الرَّزَّاقِ. حَدَّثَنَا مَعْمَرٌ عَنْ هَمَّامِ بْنِ مُنَبِّه. قَالَ: هَـٰذَا مَا حَدَّثَنَا أَبُو هُرَيْرَةَ، عَنْ رَسُولِ اللّهِ. فَذَكَرَ أَحَادِيثَ مِنْهَا: وَقَالَ أَبُو الْقَاسِمِ: «مَثَلِي وَمَثَلُ الأَنْبِيَاءِ مِنْ قَبْلِي كَمَثَلِ رَجُلٍ ابْتَنَىٰ بُيُوتاً فَأَحْسَنَهَا وَأَجْمَلَهَا وَأَكْمَلَهَا. إلاَّ مَوْضِعَ لَبِنَةٍ مِنْ زَاوِيَةٍ مِنْ زَوَايَاهَا. فَجَعَلَ النَّاسُ يَطُوفُونَ وَيُعْجِبُهُمُ الْبُنْيَانُ فَيَقُولُونَ: أَلاَّ وَضَعْتَ هَـٰهُنَا لَبِنَةً فَيَتِمَّ بُنْيَانُكَ» فَقَالَ مُحَمَّدٌ: «فَكُنْتُ أَنَا اللَّبِنَةَ». (يوسف عامر).

وختم النبوة من بين الفضائل التي عدها النبي صلى الله عليه وسلم والتي اختصت به هو في مقابل باقي الأنبياء عليهم السلام، ولهذا جاء في صحيح مسلم (كتاب المساجد) وكتاب السير للترمذي (باب الغنيمة)، وفي النسائي أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: ــ
" وختم بي النبيون "

وجاء في سنة الدرامي عن يدنا جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ــ

" وأنا خاتم النبيين ولا فخر " (باب ما أكرم الله به نبيه ــ ص١٦)

ولم يكن ختمه صلى الله عليه وسلم للنبوة مصادفة، وإنما كانت خصوصيته صلى الله عليه وسلم التي تقررت له صلى الله عليه وسلم منذ الأزل، وقد قال صلى الله عليه وسلم (١): " إني عبد الله خاتم النبيين، وإن آدم لمنجدل في طينته ".

ولما خلف النبي صلى الله عليه وسلم سيدنا علياً رضي الله عنه في المدينة لرعاية آل البيت وأراد التوجه إلى تبوك، وأظهر سيدنا عليّ رضي الله عنه حزنه لعدم صحبته صلى الله عليه وسلم، طيب النبي صلي الله عليه وسلم خاطره وقال: ــ

" ألا ترضى أن تكون مني بمنزلة هارون من موسى، إلا أنه ليس نبي بعدي "
(صحيح البخاري ــ غزوة تبوك)

وجاء في صحيح مسلم (مناقب عليّ): ــ

" غير أنه لا نبي بعدي "

" إلا أنه لا نبوة بعدي "

وجاء في صحيح البخاري (كتاب الأنبياء) وصحيح مسلم (كتاب الإمارة) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «كانت بنو إسرائيلَ تَسوسُهمُ الأنبياءُ، كلما هلكَ نَبيٌّ خَلَفه نبي ...

" وإنه لا نبي بعدي "

---

(١) صحيح مسلم، باب مذكور عن جابر رضي الله عنه.

(٢) ... الحديث: (٣٣٨٠) ــ حدّثني محمدُ بن بشّارٍ حدَّثنا محمدُ بن جَعفرٍ حدَّثنا شُعبةُ عن فرات ... قال: سمعتُ أبا حازمٍ قال: قاعَدْتُ أبا هريرةَ خَمسَ سِنين، فسمعتُه يُحدِّثُ عنِ النبيِّ صلى الله عليه وسلم قال: «كانت بنو إسرائيلَ تَسوسُهمُ الأنبياءُ، كلما هلكَ نَبيٌّ خَلَفه نبيّ، وإنهُ لا نبيَّ بعدي، وسيكون خلفاء فيكثُرون. قالوا: فما تأمُرنا ؟ قال: فُوا ببيعهِ الأولِ فالأوّلِ، أعطوهم حقَّهم، فإنَّ الله سائلُهم عما استرعاهم». (يوسف عامر).

وجاء في جامع الترمذي ([1]) ومستدرك الحاكم ([2]) أن النبي صلى الله عليه وسلم قال في مدح سيدنا عمر:

" ولو كان نبي بعدي لكان عمر بن الخطاب "

ويعرف من يعلم العربية أن " لو " تأتي للأمر المحال، ويعلم منها أنه من المحال أن يأتـــي نبي بعده صلى الله عليه وسلم.

وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم بأن له خمسة أسماء: فهو محمد، وهو أحمد، وهو الماحي الذي يمحو الله به الكفر، وهو الحاشر الذي يجمع الله الناس بعده، وهو العاقب الذي ليس بعده نبي([3])، وقد جاءت ألفاظ الفقرة الأخيرة من الحديث في جامع الترمذي وكتب الأحاديث الأخرى هكذا: ــ

" الذي ليس بعدي نبي " ([4]).

وفي صحيح البخاري قال صلى الله عليه وسلم أنه: "لم يبق من النبوة إلا المبشرات"، فسأله الصحابة يا رسول الله ما المبشرات ؟ قال: الرؤيا الصالحة ([5])، ولقد قرأت أن الله تعالي حدّد عدة وسائل لاطلاع الأنبياء علي أمور الغيب، ومنها الرؤيا الصالحة أيضاً، ولهذا جاء في الأحاديث «الرُّؤيا الحسنةُ منَ الرجُلِ الصالح جُزءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءاً منَ النبُوة»([6])، وجاء في حديث آخر أن النبي صلى الله عليه وسلم «لقد

---

[1] – مناقب عمر، حديث غريب حسن.

[2] – مناقب عمر، جزء ٣ ــ ص ٨٥، حيدر آباد ــ حديث صحيح صححه الذهبي.

[3] – صحيح البخاري، وصحيح مسلم، باب أسماء النبي صلى الله عليه وسلم، ولم يذكر تفسير (عاقــب) في صحيح البخاري، وجاء في مسند ابن حنبل الجزء الرابع، ص ٨٤ بتفسير الحديث و " عاقب " للإمام الزهري.

[4] – فتح الباري شرح البخاري، جزء ٦ ــ ص ٤٠٦.

[5] – صحيح البخاري، كتاب التعبير. (يوسف عامر).

[6] – صحيح البخاري، كتاب التعبير، وصحيح مسلم كتاب الرؤيا، ومسند ابن حنبل، جزء ٣ ــ ص١٤٩ عن أنس. وهذا نص الحديث: (٦٨٣١) حدثنا عبدُ الله بنُ مَسلمةَ عن مالكٍ عن إسحٰقَ بن عبد الله بن أبي طلحةَ عن أنس بن مالك أنَّ رسولَ اللهِ صلى الله عليه وسلم قال: «الرُّؤيا الحسنةُ منَ الرجُلِ الصالح جُزءٌ من ستةٍ وأربعينَ جزءاً منَ النبُوة». (يوسف عامر).

كان فيما قبلَكم منَ الأمم ناسٌ محدَّثون، فإن يكُ في أمتي أحدٌ فإنه عمر» ([1])، وقد فسر أئمة الحديث كلمة محدث بمعني " ملهم ".

المهم أن النعمة التي بقيت لأهل الإيمان بعد ختم النبوة هي الرؤيا الصالحة والإلهام، ولكن ليس هناك إنسان معصوم سوى النبي صلى الله عليه وسلم، ولا توجد شهادة قاطعة علي صدقه، لهذا فإن الرؤيا الصالحة للمؤمن وإلهاماته ليست حجة علي أحد، بل ولا علي نفسه، واليقين الكامل علي أنها من عند الله وإطاعتها واتباعها ودعوة الناس إليها والتحدي بصدقها ضلال وانحراف، والأمور التي تعطي للمؤمن عن طريق الرؤيا الصالحة والإلهامات ليست أحكاماً، وإنما هي مجرد مبشرات بمعني بعض الإخبار والمشاهد عن أمور الغيب والمستقبل.

وروي عن سيدنا ابن عباس في مسند ابن حنبل أن النبي صلى الله عليه وسلم رفع ستارة حجرته المباركة في مرض الموت، وكان سيدنا أبو بكر يؤم الناس والصحابة من ورائه صفوف، وعندئذٍ قال صلى الله عليه وسلم هذا الإعلان الأخير: ــ

" يا أيها الناس، لم يبق من مبشرات النبوة إلا الرؤيا الصالحة يراها المسلم أو تُري له "

(جزء١ ــ ص ٢١٩).

ويتضح من هذا أن الرؤيا الصالحة تتعلق بالأحوال الشخصية، وروي في نفس هذا الكتاب عن سيدنا أنس بن مالك رضي الله عنه ما يثبت هدفنا بوضوح شديد أكثر مما سبق، يقول سيدنا أنس رضي الله عنه أنه في يوم من الأيام كان الخدم حاضرين في المجلس النبوي، فقال صلى الله عليه وسلم:

" إن الرسالة والنبوة قد انقطعت، فلا رسول بعدي ولا نبي ".

وصعب هذا الكلام علي الصحابة، فقال صلى الله عليه وسلم إلا المبشرات، فقال الناس: يا رسول الله ما المبشرات ؟ قال الرؤيا الحسنة من الرجل الصالح جزء من ستة

---

[1] – البخاري ومسلم والترمذي، مناقب عمر. وهذا نص الحديث: (٣٦٠٧) حدثنا يحيى بن قَزَعةَ حدثنا إبراهيمُ بن سعدٍ عن أبيهِ عن أبي سلمةَ عن أبي هريرةَ رضي اللهُ عنه قال: قال رسولُ اللهِ صلى الله عليه وسلم: «لقد كان فيما قبلَكم منَ الأمم ناسٌ محدَّثون، فإن يكُ في أمتي أحدٌ فإنه عمر» زادَ زكريّاءُ بن أبي زائدةَ عن سعدٍ عن أبي هريرةَ قال: قال النبيُّ صلى الله عليه وسلم: «لقد كان فيمن كان قبلَكم من بني إسرائيلَ رجالٌ يكلَّمونَ من غير أن يكونوا أنبياءَ، فإن يكن في أمتي منهم أحدٌ فعمر». قال ابن عباسٍ رضي الله عنهما «من نبيٍّ ولا محدَّث». (يوسف عامر).

وأربعين جزءا من النبوة ([1]) وهذه الأحاديث كلها هي في الحقيقة كما جاء في الترمذي ([2]) والحاكم تفسير لهذه الآية: " ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولاهم يحزنون. الذين آمنوا وكانوا يتقون. لهم البشرى في الحياة الدنيا وفي الآخرة ". (يونس: ٦٢ -- ٦٤)

فقال الصحابة ما بشارتهم في الدنيا ؟ قال: الرؤيا الصالحة. ويظهر من هذه الآية أمران. الأمر الأول: هو أن تكميل الإيمان والتقوى هو الوسيلة للحصول علي تلك المبشرات. والثاني: هو أن أولئك الذين حصلوا علي هذه المكانة هم أولياء الله، ولهذا يكون اسم هذه المكانة بالنسبة لهم هي الولاية، والتعبير عنها بأنها نبوة جزئية أو نبوة لغوية أو نبوية مجازية أو نبوية ناقصة وغير ذلك من الألفاظ يعد ضلالاً لفظياً يؤدى إلي ضلال معنوي، وتتولد عنه مساوئ مثل الشرك في النبوة، وقد حدث هذا ولا يزال يحدث، مثلما ابتلي المسيحيون بالشرك في التوحيد بمعناه الحقيقي عندما أطلقوا علي سيدنا عيسي ابن الله بالمعني المجازي، وذلك لأن النبوة بأقسامها كلها قد انتهت، واكتمل الدين، ووصلت آخر دعوة من الله في الدنيا إلي الأسماع في شكل الدعوة المحمدية، وأكمل مهندس القدرة مبناه بوضع اللبنة الأخيرة في مكانها في المبني، وتدريجياً أشرقت الشمس المنيرة بعد طلوع النجوم وهي الشمس التي لا غروب لها، وحل موسم الربيع الأبدي في روضة الكائنات بعد أن أتت عليها فصول الربيع المختلفة، وهو الربيع الذي لا خريف بعده.

الشفاعة الأولي:

حين يكون قيظ شمس الجلال الإلهي يوم الحشر علي أشده، ولا يجد المذنبون من بني الإنسان ظلاً من الأمن يحتمون به، عندئذٍ يأتي فخر الموجودات، وسبب خلق الكائنات، بسيد أولاد آدم وخاتم الأنبياء ورحمة العالم صلى الله عليه وسلم قبل الجميع حاملاً في يديه لواء الحمد واضعاً علي رأسه الشريف تاج الشفاعة ويلتمس الشفاعة للمذنبين.

ولفظ " الشفاعة " من اللغة مأخوذ من " شفعة " والذي يعني " أن يصير زوجياً " وأن يكون واحداً مع الآخر، ولأن الشفاعة في الأصل هو أن يتفق أحد مع طالب ملتمس

---

[1] – صحيح البخاري، كتاب التعبير، وصحيح مسلم كتاب الرؤيا ومسند ابن حنبل، جـزء ٣، ص ١٤٩ عن أنس. (يوسف عامر).

[2] – البخاري ومسلم والترمذي، مناقب عمر.

ويظهر رغبته أمام عظيم في أن يقبل طلبه والتماسه، فإن شفاعته صلى الله عليه وسلم ستكون بأن يصبح رسول الله صلى الله عليه وسلم لسان المذنبين، ويتقدم أمام الله تعالي وبإذن منه بالتماس بالمغفرة والعفو من قِبلهم، وقد جاء في سورة الإسراء: ٧٩: ــ " عسى أن يبعثك ربك مقاماً محموداً "

ونقل عن كثير من كبار الصحابة في روايات صحيحة كلها فيما يتعلق في تفسير هذه الآية أن المقصود بالمقام المحمود وهو رتبة الشفاعة ([1]).

وجاء في صحيح البخاري أن سيدنا أنس رضي الله عنه بين أحداث الشفاعة كلها وتلا هذه الشفاعة، ثم قال مخاطباً الحاضرين: هذا هو المقام المحمود الذي وعد به نبيكم([2]).

وجاء في صحيح مسلم أن بعض خوارج البصرة الذين يعتبرون مرتكب الكبائر مخلداً في جهنم، بمعني أنهم لا يعترفون بأثر الشفاعة في حق هؤلاء، قدم إلي المدينة المنورة وفي المسجد النبوي كان الصحابي سيدنا جابر بن عبد الله يتحدث عن أحداث يوم القيامة. فتقدم واحد من هؤلاء وقال: يا صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ما هذا الذي تقوله ؟ إن القرآن يقول، وتلا آية من القرآن تخبر أن الذين يدخلون جهنم كلما أرادوا الخروج منها أعيدوا إليها.

فسأله سيدنا جابر قائلاً: هل قرأت القرآن. أجاب: نعم. فقال: هل سمعت عن المقام المحمود الذي سيبعث الله فيه نبيك ؟ قال: نعم سمعت. فقال: فهذا هو المقام المحمود لمحمد صلى الله عليه وسلم والذي بسببه سيخرج الله من جهنم من يريد إخراجه، فلما سمعوا هذا رجعوا جميع عن عقيدتهم الباطلة إلا واحداً، وقالوا هل يكذب هذا الصحابي الكبير على رسول الله صلى الله عليه وسلم ([3]).

وروي في البخاري ([4]) عن سيدنا ابن عمر رضي الله عنه أن كل أمة ستسير خلف نبيها يوم القيامة، وستقول له تشفع لنا عند الله، حتى يصل موضوع الشفاعة هذا إلي

---

[1] - صحيح البخاري وجامع الترمذي والمستدرك، تفسير الآية المذكورة، وصحح مسلم، كتاب الإيمان، باب الشفاعة

[2] - صحيح البخاري، كتاب الرد علي الجهمية، ص ٨: ١١.

[3] - صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الشفاعة.

[4] - صحيح البخاري، تفسير الآية المذكورة.

رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذا هو اليوم الذي سيرفع الله تعالي فيه سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم إلي المقام المحمود، يقول سيدنا جابر رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «مَن قال حين يسمعُ النداءَ: اللهمَّ ربَّ هذهِ الدعوةِ التامَّة والصلاةِ القائمة، آتِ محمداً الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعَثْهُ مَقاماً محموداً الذي وَعَدتَه، حلَّت له شفاعتي يومَ القيامة».([1]). وأخبر النبي صلى الله عليه وسلم أن كل نبي قد أعطي دعاء مستجاباً، وقد احتفظ ﷺ بدعائه هذا لأمته ([2])، كما ورد عنه ﷺ أنه قد أعطي بعض الفضائل أكثر من باقي الأنبياء أحدها أنه ﷺ أعطي الشفاعة ([3])، (يعني الشفاعة الأولي)، وقد نقل العديد من التابعين باتفاق عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه هذه الرواية في موطأ الإمام وفي الصحيحين وهي أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر بأن كل نبي قد أعطي دعاءاً مقبولاً، فدعا به وقبل منه، لكنه ﷺ احتفظ بدعائه إلي يوم القيامة وهو شفاعته ﷺ للأمة ([4])، وورد عنه ﷺ أنه أول شافع، وأول من تقبل شفاعته ([5])، وأخبر بأنه أول من يتشفع للجنة ([6]).

في ذلك اليوم حين يظهر المذنبون في صورتهم المجردة العارية، ويبحث أولاد آدم خائفين مرتعدين عن شفيع، فسيستنجدون أحياناً بآدم عليه السلام، وأحياناً أخرى بنوح وإبراهيم عليهما السلام، وأحياناً ثالثة بموسى وعيسي عليهما السلام، لكن صـــوت " نفسي نفسي " يرتفع في كل مكان، وفي النهاية يتقدم سيد الأولين والآخرين، ويسمعهم رسالة الاطمئنان.

---

[1] – المصدر السابق، وباب الدعاء عند النداء. وهذا نص الحديث كما ورد فى البخاري، كتاب التفسير، باب عسي أن يبعثك ربك مقاما: (٤٦٠١) حدَّثَنا عليُّ بن عيّاش حدَّثَنا شعيبُ بن أبي حمزةَ عن محمد بن المنكَدِر عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما أنَّ رسولَ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم قال: «مَن قال حـــين يسمعُ النداءَ: اللهمَّ ربَّ هذهِ الدعوةِ التامَّة والصلاةِ القائمة، آتِ محمداً الوسيلةَ والفضيلةَ، وابعَثْــهُ مَقامــاً محموداً الذي وَعَدتَه، حلَّت له شفاعتي يومَ القيامة». رواهُ حمزةُ بن عبد الله عن أبيهِ عن النبيِّ صلى الله عليه وسلم. (يوسف عامر).

[2] – صحيح البخاري، كتاب التوحيد، وكتاب الدعوات وصحيح مسلم، باب الشفاعة.

[3] – صحيح البخاري ومسلم، كتاب المساجد.

[4] – صحيح البخاري، كتاب التوحيد وكتاب الدعوات وصحيح مسلم باب الشفاعة.

[5] – صحيح مسلم، كتاب فضائل النبي صلى الله عليه وسلم وغيره.

[6] – صحيح مسلم، كتاب الإيمان، باب الشفاعة.

وقد روي في أكثر كتب الأحاديث، وخاصة في صحيح البخاري وصحيح مسلم وبطرق متعددة عن سيدنا أبي هريرة رضي الله عنه، وسيدنا حذيفة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أخبر في مجلس من صحابته أن الناس سيبحثون يوم القيامة يوم الهول العظيم عن شفيع، فيذهبون أولاً إلي آدم عليه السلام ويقولون له أنت أبونا، وقد خلقك الله بيديه ونفخ فيك من روحه، وأمر الملائكة بالسجود لك، تشفع لنا عند الله. فيجيبهم أن هذا ليس مقامي، لقد عصيت الله، واليوم غضب الله غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده، نفسي نفسي، فيذهب الناس إلي سيدنا نوح عليه السلام قائلين له أنت أول نبي علي ظهر الأرض، ولقبك الله بلقب العبد الشكور، فتشفع لنا اليوم عند الله، فيقول هذا ليس مقامي، اليوم غضب الله غضباً لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده، لقد أعطيت دعاءً مستجاباً فدعوت به علي قومي، نفسي نفسي، اذهبوا إلي إبراهيم عليه السلام، فيذهب إليه الناس ويلتمسون منه قائلين أنك خليل الله من بين البشر جميعاً، تشفع لنا عند خالقك، فيقول هو الآخر هذا ليس مقامي، لقد غضب الله اليـوم غضبة لم يغضب مثلها من قبل ولا من بعد، نفسي نفسي، اذهبوا إلي موسى عليه السلام، ويذهب الناس إلي موسى عليه السلام ويقولون يا موسى أنت نبي الله، ولقد فضلك الله علي الناس بتكليمك، تشفع لنا عند ربك ألا تري ما نحن فيه من مصائب، فيقول لهم سيدنا موسى عليه السلام لقد غضب الله اليوم غضبة لم يغضب مثلها من قبل ولا من بعد، لقد قتلت شخصاً لم يأمرني الله بقتله، نفسي نفسي، اذهبوا إلي عيسي عليه السلام، فيذهب الناس إلي عيسي عليه السلام ويقولون له: يا عيسي أنت رسول الله كلمك الله في المهد وأنت كلمة الله وروحه، تشفع لنا عند ربك، فيقول هو الآخر هذا ليس مقامي، لقد غضب الله اليوم غضبة لم يغضب مثلها من قبل ولا من بعد، نفسي نفسي، اذهبوا إلي محمد صلى الله عليه وسلم فيذهب الخلق إلي رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقولون: يا محمد، أنت رسول الله وخاتم الأنبياء وأنت من غفر لك ما تقدم وما تأخر، تشفع لنا عند ربك، فينهض رسول الله صلى الله عليه وسلم ويذهب إلي العرش ويطلب الإذن من الله فيأذن له فيخر ساجداً ويفتح أمامه صلى الله عليه وسلم ما لم يفتح أمام أحد من قبل، ويلقي الله في قلبه صلى الله عليه وسلم معاني وألفاظ الحمد والثناء ما لم يلق في قلب أحد من قبل ويظل رسول الله صلى الله عليه وسلم في سجوده لفترة، ثم ينادى: يا محمد انهض، قل فتُسمع، واطلب فتعطي واشفع تشفع. فيقول صلى الله عليه وسلـم إلهي، أمتي يارب أمتي يا رب، فيأتي الحكم

اذهب، سينجو من في قلبه مقدار حبة من شعير من الإيمان، فيفرح رسول الله صلى الله عليه وسلم وينفذ ما طلب منه، ثم يحمد الله ويثني عليه ويخر ساجداً فينادى من الغيب يا محمد، انهض، وقل فتُسمع، واطلب تعطي واشفع تُشفع، فيقول صلى الله عليه وسلم إلهي، أمتي أمتي، فيأتي الحكم اذهب فقد عفوت عمن في قلبه مقدار حبة من خردل من الإيمان، فيذهب رسول الله صلى الله عليه وسلم، ثم يعود ثانية ويحمد الله ويثني عليه ويخر ساجداً، فينادى، يا محمد، انهض، وقل تُسمع واطلب تُعطي، واشفع تُشفع، فيقول صلى الله عليه وسلم ائذن لي أن أشفع في من شهد بوحدانيتك فينادى: هذا ليس لك، لكن قسماً بعزتي وكبريائي وعظمتي وجبروتي سأخرج من النار كل شخص وحدني ولم يتخذ معبوداً سواي ([1]) (من قال لا إله إلا الله). فمن ذلك الذي أسمع بني الإنسان الضعفاء هذه البشري من الاطمئنان سوي رسول الله صلى الله عليه وسلم.

---

[1] – روي هذا الحديث كاملاً في صحيح البخاري باب تفسير بني إسرائيل، كتاب الأنبياء ذكر نوح، وصحيح مسلم باب الشفاعة عن كثير من الصحابة ببعض تغيير في الألفاظ، وقد حاولنا أن نجمعها كلها. وهذا نص الحديث كما ورد في البخاري، كتاب التفسير، تفسير سورة الإسراء: (٤٥٩٤) ـــ حدَّثنا محمدُ بن مُقاتِلٍ أخبرَنا عبدُ الله أخبرَنا أبو حيّانَ التَّيميُّ عن أبي زُرعَةَ بن عمرِو بن جَرِيرٍ عن أبي هريرةَ رضيَ اللّهُ عنه قال: «أُتِيَ رسولُ الله صلى الله عليه وسلم بلحمٍ، فرُفِعَ إليهِ الذِّراع ــ وكانت تُعجِبُهُ ــ فنهَسَ منها نَهسةً ثم قال: أنا سيِّدُ الناس يومَ القيامة، وهل تدرونَ ممَّ ذلك؟ يُجمَعُ الناسُ بَـ الأولين والآخِرين ــ في صَعيدٍ واحدٍ، يُسمعهمُ الداعي، ويَنفذُهُمُ البصر، وتدنو الشمسُ فيبلُغُ الناسَ من الغمِّ والكَرْبِ ما لا يُطيقون ولا يَحتمِلون. فيقولُ الناس: ألا تَرَونَ ما قد بَلَغَكم؟ ألا تنظرون من يَشفعُ لكم إلى ربكم؟ فيقولُ بعضُ الناس لبعض: عليكم بآدمَ، فيأتون آدمَ عليهِ السلام فيقولون له: أنتَ أبو البشر، خلَقَكَ اللّهُ بيدِه، ونفخ فيكَ من رُوحِه، وأمرَ الملائكةَ فسجدوا لك، اشْفع لنا إلى ربك، ألا تَرَى إلى ما نحن فيه؟ ألا ترَى إلى ما قد بلَغنا؟ فيقول آدم: إن ربي قد غضبَ اليوم غضباً لم يَغضَبْ قبلَه مثلَه، ولن يَغضبَ بعدَهُ مثلَه، وإنهُ نهاني عن الشجرة فَعَصَيْتُه، نفسي نفسي نفسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهَبوا إلى نوح. فيأتونَ نوحاً فيقولون. يا نوح، إنك أنتَ أوَّل الرُسل إلى أهل الأرض، وقد سماك اللّهُ عبداً شَكوراً، اشفع لنا إلى ربك، ألا تَرَى إلى ما نحن فيه؟ فيقول: إن ربي عزَّ وجل قد غضبَ اليومَ غضباً لم يَغضَب قبلَه مثله ولن يغضب بعده مثله. وإنه قد كانت لي دَعوةٌ دَعَوتُها على قومي، نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى إبراهيم. فيأتونَ إبراهيمَ فيقولون: يا إبراهيم، أنت نبيُّ الله وخليله من أهل الأرض، اشفعْ لنا إلى ربك، ألا تَرَى إلى ما نحنُ فيه؟ فيقول لهم: إنَّ ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يَغضب قبله مثله، ولن يَغضَبَ بعده مثله، وإني قد كنتُ كذبتُ ثلاثَ كذبات ــ فذكرهنَّ أبو حَيان في الحديث ــ نفسي نفسي نفسي، اذهَبوا إلى غيري، اذهبوا إلى موسى. فيأتون موسى فيقولون: يا موسى، أنت رسولُ الله، فضلك الله برسالتِه وبكلامِهِ على الناس، اشفعْ لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟

الفضائل الأخروية:

كانت هذه هي خصوصيات النبي صلى الله عليه وسلم والتي أعطيت له باعتباره نبياً، ومبلغ دين وصاحب مذهب وقدوة للأمة، وبالإضافة إليها فقد أعطي النبي صلى الله عليه وسلم فضائل أخرى في الحياة الآخرة، ولهذا أخبر صلى الله عليه وسلم بأنه ﷺ سيكون يوم القيامة إمام الأنبياء وشفيعهم ولا فخر ([1])، ثم قال صلى الله عليه وسلم: "أَنَا سَيِّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ ـــ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ ـــ إِلاَّ تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنْشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ". (٢). كما قال

فيقول: إن ربي قد غضبَ اليومَ غضباً لم يَغضبْ قبله مثله، ولن يَغضبَ بعدَهُ مثله، وإني قد قَتلتُ نفساً لم أُومر بقتلها، نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى عيسى. فيأتون عيسى فيقولون: يا عيسى، أنتَ رسولُ الله وكلمتُهُ ألقاها إلى مريم، وروحٌ منه، وكلمتَ الناسَ في المهد صبياً، اشفع لنا إلى ربك، ألا ترى إلى ما نحن فيه؟ فيقول عيسى: إن ربي قد غضبَ اليوم غضباً لم يَغضب قبلهُ مثله ولن يَغضبَ بعدَهُ مثله ـــ ولم يذكر ذنباً ـــ نفسي نفسي نفسي، اذهبوا إلى غيري، اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم. فيأتون محمداً صلى الله عليه وسلم فيقولون: يا محمد، أنت رسولُ الله وخاتمُ الأنبياء، وقد غفرَ الله لك ما تقدّمَ من ذنبك وما تأخر، اشفعْ لنا إلى ربك، ألا تَرَى إلى ما نحنُ فيه؟ فأنطلقُ، فآتي تحتَ العرش فأقعُ ساجداً لربي عزّ وجلّ، ثم يفتحُ اللهُ عليَّ من مَحامدِه وحُسنِ الثناءِ عليه شيئاً لم يَفتحْهُ على أحدٍ قبلي. ثم يقال: يا محمد ارفعْ رأسك، سلْ تُعطَهْ، واشفعْ تُشَفّع. فأرفعُ راسي فأقول: أمّتي يا ربِّ، أمتي يا ربِّ. فيقال: يا محمد أدخلْ من أمتكَ مَن لا حِسابَ عليهم من الباب الأيمن من أبوابِ الجنة، وهم شركاءُ الناس فيما سوى ذلك من الأبواب. ثم قال: والذي نفسي بيدِهِ إنّ ما بينَ المصراعَين من مصاريع الجنة كما بين مكةَ وهَجَرَ، أو كما بين مكةَ وبُصَرى». (يوسف عامر).

[1] - الترمذي. تحقيق الألباني: حديث حسن، صحيح غريب. وقد ورد حديث بهذا المعنى في سنن الدارمي وهذا نصه: (٥٠) أخبرنا عبدُاللهِ بن عبدِالحكمَ المصريُّ، حدثنا بكرُ بنُ مُضرَ عن جعفرِ بنِ ربيعةَ، عن صالحٍ هو ابنُ عطاءِ بنِ خبّابٍ مولى بني الدُئِل، عَنْ عطاءِ بن رَباحٍ، عن جابرِ بنِ عبدِاللّهِ ، أنّ النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: «أنّا قائدُ المرسلينَ ولا فَخْرَ، وأنا خاتَمُ النبيّينَ ولا فخرَ، وأنا أولُ شافعٍ ومُشفَّعٍ ولا فخرَ». (يوسف عامر).

[2] - الترمذي. تحقيق الألباني: حديث حسن. وهذا نص الحديث: (٣٧٦٥) حَدَّثَنَا ابنُ أبي عُمَرَ حدثنا سُفْيَانُ عَن ابن جدعان عَنْ أبي نَضْرَةَ عَن أبِي سَعِيدٍ قالَ قالَ رَسُولُ اللّهِ، : «أنَا سَيّدُ وَلَدِ آدَمَ يَوْمَ القِيَامَةِ وَلاَ فَخْرَ، وَبِيَدِي لِوَاءُ الْحَمْدِ وَلاَ فَخْرَ، وَمَا مِنْ نَبِيٍّ يَوْمَئِذٍ ـــ آدَمُ فَمَنْ سِوَاهُ ـــ إلاَّ تَحْتَ لِوَائِي، وَأَنَا أَوَّلُ مَنْ تَنشَقُّ عَنْهُ الأَرْضُ وَلاَ فَخْرَ.

قَالَ أبو عِيسَى: وَفِي الْحَدِيثِ قِصَّةٌ. وَهَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صحيحٌ. وقد روي بهذا الإسناد عن أبي نضرة عن ابن عباس عن النبي. (يوسف عامر).

صلى الله عليه وسلم: "أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا. لِوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي". (١)

وصلي الله علي خير خلقه محمد وسلم.

تم الجزء الثالث من السيرة النبوية علي صاحبها الصلاة والتحية.

غرة جمادى الأولي عام ١٣٤٢هـ

سيد سليمان الندوي

---

[1] – المصدر السابق، حديث حسن غريب. وهذا نص الحديث كما ورد في الترمذي: (٣٧٦١) حَدَّثَنَا الْحُسَيْنُ بنُ يَزِيدَ الكُوفِيُّ حَدَّثَنَا عَبْدُ السَّلاَمِ بنُ حَرْبٍ عَن لَيْثٍ عَن الرَّبِيعِ بنِ أَنَسٍ عَن أَنَسِ بنِ مَالِكٍ قَالَ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ: «أَنَا أَوَّلُ النَّاسِ خُرُوجاً إِذَا بُعِثُوا وَأَنَا خَطِيبُهُمْ إِذَا وَفَدُوا، وَأَنَا مُبَشِّرُهُمْ إِذَا أَيِسُوا. لِوَاءُ الحَمْدِ يَوْمَئِذٍ بِيَدِي، وَأَنَا أَكْرَمُ وَلَدِ آدَمَ عَلَى رَبِّي وَلاَ فَخْرَ». قال أبو عيسى: هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ غَرِيبٌ. (يوسف عامر).

الفهرس